

د. علي محمّد محمّد الصّلّابي

الدّوْلةُ الأُمويّة

عَوامِلُ الازْدِهارِ وَتداعِياتُ الانْهيارِ

الجُزْءُ الثّاني

دار ابن كثير

الدولة الأموية

عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار

الطبعة الأولى

1426 هـ 2005 م

الدولة الأموية

(عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار)

تأليف

الدكتور علي محمد محمد الصلابي

الجزء الثاني

دار ابن كثير

دمشق . بيروت


بسم الله الرحمن الرحيم

المبحث الرابع

النظام المالي في عهد عبد الملك بن مروان

أولاً: مصادر دخل الدولة:

كان من أهم مصادر دخل الدولة: الزكاة، والخراج، والجزية، وخمس الغنائم والعشور والصوائف، وقد تعرضت بعض هذه المصادر للانحراف عن الشريعة من قبل القائمين عليها، وعلى سبيل المثال:

1 . الجزية:

صالح رسول الله ﷺ أهل نجران على ما يعادل 80000 درهم سنوياً، ولما تولى عثمان بن عفان شكوا إليه قلة عددهم وتفرقهم في البلاد فخفضها عنهم إلى 72000 درهم، فلما تولى معاوية بن أبي سفيان، شكوا إليه نفس الشكوى فخفضها عنهم إلى 64000 درهم، فلما تولى الحجّاج بن يوسف على العراق اتهمهم بمعاونة خصوم الدولة السياسيين فرفعها إلى 72000 درهم [1].

ويمكن القول بأن رفع نظام الجزية في العصر الأموي شهد بصفة عامة انحرافات في طريقة الجباية، والتي منها ما قيل: إن المهلب بن أبي صفرة، حينما صالح أهل خوارزم على ما يزيد على عشرين مليون درهم، كان يأخذ بدل النقد سلعاً عينية لعدم توفر السيولة النقدية لدى أهلها، لكنه أجحف في ذلك حيث كان يأخذ الشيء بنصف قيمته، فبلغ ما أخذه منهم خمسين مليون درهم[2] .

كما شهد انحرافات أخرى متمثلة في استمرار فرض الجزية على من أسلم، وقد برز هذا الأمر بصفة خاصة في ولاية الحجّاج[3]، ومع ذلك يمكن القول بأن التأثير الاقتصادي لهذا الانحراف كان محدوداً، وذلك لأن قرار الحجّاج في العراق قوبل بثورة أوقفت تطبيقه[4]، وأيضاً كان الانحراف الذي وقع في خراسان محدوداً، وعولج سريعاً بمجيء

---

(1) التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، ص 69.

(2) البداية والنهاية؛ نقلاً عن التطور الاقتصادي ، ص 70.

(3) تاريخ الطبري؛ نقلاً عن التطور الاقتصادي ، ص 70.

(4) الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ، للريس ، ص 219.

عمر بن عبد العزيز، ولكن للأسف لم يكتب لهذا الإصلاح الاستمرار حيث انتهى مفعوله بانتهاء عهد عمر بن عبد العزيز[1].

2 . الخراج:

تدنى الخراج كثيراً في عهد الحجّاج، حتى وصل طبقاً لبعض الروايات إلى 18 مليون درهم، وقيل: إنه وصل إلى 25 مليون عند موت الحجّاج[2]، بعد ما كان في عهد معاوية قد بلغ 135 مليون درهم[3].

وقام عبد الملك بمسح أرض الشام والجزيرة، ويبدو أنه استقل ما كان يُجبى من خراجهما، وكان معياره في التقدير هو مدى القرب والبعد من الأسواق، وكانت مسيرة اليوم واليومين فأكثر هي غاية البعد عنها، وما نقص عن اليوم فهو من القرب، وبناء على ذلك كان الخراج المفروض على الأرض القريبة يزيد عن المفروض على الأرض البعيدة [4] ، وقد أحدث هذا المسح زيادة في حصيلة الخراج [5]، ويبدو أن عبد الملك أراد أن يعوِّض ما حدث من نقص في خراج العراق بسبب الثورات.

3 . الصوافي:

وبمجيء عبد الملك أقطع جميع الصوافي للأشراف حتى لم يبقَ منها شيئٌ، إلا أن هؤلاء الملاكين الكبار لم يتوقفوا عن المطالبة بمزيد من القطائع، وأمام إلحاحهم المستمر قام الخليفة بالتصرف ببعض الأراضي الخراجية التي توفي أصحابها ولم يكن لهم ورثة، فأقطعهم جميع هذه الأراضي، وجعل لأصحابها حق ملكيتها التامة، بما في ذلك توريثها على أن يدفعوا عن هذه الأراضي ضريبة العشر، ورفع ضريبة الخراج عن هذه الأراضي. وقد اعتبر الخليفة أن تصرفه هذا عملاً مشروعاً شبيهاً بإخراجه من بيت المال الجوائز الخاصة [6].أي أن الخليفة قد برّر موقفه معتبراً أن ما قام به وكأنه نوع من المكافأة التي يحق للخليفة أن يأمر بها، بحيث إن ذلك يقع ضمن صلاحياته التي تتيح له أن يقدم المساعدات والمكافآت التي يراها مناسبة من بيت المال. ولكن هذا الموقف، الذي لم تكن تدعمه أية سوابق إسلامية في العهد الراشدي فقط، بل هو يخالف صراحة ما قرّره المسلمون بشأن أراضي الصوافي والأراضي الخراجية؛

---

(1) التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، ص 71.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 74.

(3) الأحكام السلطانية ، للماوردي ، ص 175.

(4) التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، ص 76.

(5) ا المصدر السابق نفسه.

(6) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي ، ص 117.

حيث اعتبر فيئاً للمسلمين ووقفاً لهم؛ فلا يحق لأحد التصرف فيها بأي شكل من الأشكال، إن كان بالبيع أو بالشراء أو بمنحها قطائع، حتى وإن كان أصحابها أي العاملين على هذه الأرض قد توفوا وليس لهم وارث، ولهذا فلا يصحّ ولا يجوز أن تعتبر هذه الأراضي متساوية مع الجوائز الخاصة [1]. هذه بعض الانحرافات التي حدثت في مصادر الدولة، وكان لها الأثر البالغ على النظام المالي.

ثانياً: النفقات العامة:

1 . النفقات العسكرية:

في عهد عبد الملك زادت عطاءات الجنود العرب حتى بلغ حدها الأدنى 1200 درهم. وحدها الأوسط 1600 درهم، وحدها الأعلى 1800 درهم [2]، في ولاية العراق، والغريب أن هذا لا يتلائم مع الحالة الاقتصادية في عهد الحجّاج والتي انخفضت فيها إيرادات المال بشكل كبير، لكن يفسر ذلك كثرة من خرج على الحجّاج من جنده، وكان يلقي عطاء من خرج عليه ويزيد في عطاء الباقين [3]

2 . نفقات الصناعات الحربية:

كان اهتمام الدولة الأموية منصبّاً على تطوير سلاح البحرية، وسيأتي الحديث عن ذلك في الصناعات بإذن الله.

3 . النفقات الإدارية:

كان الحد الأقصى لرواتب الكتّاب طوال العصر الأموي وطرفاً من العباسي حتى عهد المأمون هو 3600 درهم سنوياً، وكان حدها الأدنى 720 درهماً سنوياً [4]، وكان كاتب ديوان رسائل الحجّاج مرتبه ثلاثمئة درهم شهرياً، وقد كان يوزعها فيجعل لامرأته خمسين درهماً، وينفق على شراء اللحم خمسة وأربعين درهماً، وما تبقى ينفقه على الدقيق، وإن فضل شيء تصدق به، وقد عاده الحجّاج من علة، فوجد بين يديه كانون من طين ومنارة من خشب

---

(1) المصدر السابق نفسه، ص 118.

(2) التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، ص 100.

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) المصدر السابق نفسه، ص 107.

فقال له: ما أرى رزقك يكفيك. قال: إن كانت ثلاثمئة لا تكفيني فثلاثون ألفاً لا تكفيني [1]!ويمكن اعتبار متوسط الدخل الفردي المناسب في العصر الأموي هو ما بين مئتين وخمسين إلى ثلاثمئة درهم شهرياً [2]، ويدخل من ضمن النفقات الإدارية مرتبات الولاة والقضاة وموظفي الدولة عموماً؛ فقد كانت الدولة تتكفل بمرتباتهم.

ثالثاً: تطور القطاع الزراعي:

كان تطور القطاع الزراعي للدولة الأموية في الجانب الغربي، وذلك بسبب عوامل عديدة؛ منها:

1 . الاستقرار السياسي لتلك المنطقة خلال معظم العصر الأموي.

2 . الاستقرار النقدي الذي كانت تتمتع به المنطقة حتى قبل سك النقود الإسلامية، ذلك أنها ورثت الدنانير البيزنطية، والتي ظلت عملة مستقرة لم تتعرض لما تعرضت له الدراهم الفارسية من غشٍّ.

3. أن المنطقة الغربية من الدولة الأموية لم تعانِ مما كانت تعاني منه المنطقة الشرقية من تركز في الثروة، ووجود عدد كبير نسبياً من أفراد المجتمع دخولهم منخفضة نسبياً، ويعود ذلك إلى أن مادة الجيش الأموي السياسية كانت من جند الشام، وقد تميز أهل هذه المنطقة بالعطاء [3]مما جعل الدورة الاقتصادية في المنطقة الغربية تدور بسرعة أكبر، وبالتالي ينشط القطاع الزراعي فيها بشكل أكبر، وينمو بشكل أسرع، بينما كان معظم سكان المنطقة الشرقية هم من أصحاب الدخول المنخفضة (الموالي).

4. استبدال الضرائب العينية في كل من الجزيرة والشام بضرائب نقدية خلال المسح الذي تمّ في عهد عبد الملك [4] ، وهذا أثر في العطاء، فزاد الطلب النقدي لساكني المدن على السلع الزراعية، ومنتجات الريف، وأحدث نوعاً من الاستقرار وأحدث زيادة في دخول المزارعين مكنتهم من تحقيق تنمية زراعية [5]

وقد ظهرت دلائل التطور الزراعي بالمنطقة الغربية كثمرة لتلك العوامل وغيرها؛ **وكان من أبرز تلك العوامل**:

1- زيادة حصيلة خراج منطقتي الجزيرة والشام نتيجة المسح الذي تم لهما في عهد عبد الملك بن مروان.

(**1**) المصدر السابق نفسه، ص 108.

(**2**) المصدر السابق نفسه.

(**3**) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص 192.

(**4**) ا المصدر السابق نفسه

(**5**) المصدر السابق نفسه.

2 - تطور نظام الري من خلال توزيع المياه بين الأنهار الفرعية [1]، مما أدى إلى زيادة إنتاجية الأراضي الزراعية؛ فهذه بعض الدلائل التي تشير إلى التطور الزراعي بالمنطقة الغربية من الدولة الأموية.

. التدهور الزراعي في القسم الشرقي من الدولة الأموية:

كان الطابع العام لقطاع الزراعة في هذا القسم السير نحو التدهور، ولعل من أبرز الأسباب التي أدت إلى تدهور القطاع الزراعي في المنطقة الشرقية من الدولة الأموية ما يلي:

1 . الاضطراب السياسي، وفقدان الأمن بالمنطقة، فانعكس ذلك على مستوى الإنتاجية الزراعية.

2 . تركز الثروة في يد قلة من سكان المنطقة، حيث كانت معظم التركيبة السكانية من الموالي، مما ترتب عليه ضعف حركة النقود داخل المنطقة، فضعفت حركة تبادل السلع، أي حدوث كساد اقتصادي بالمنطقة [2].

3 . قرار بيع الأراضي الخراجية وجعل ثمنها في بيت المال، جاء ذلك لمواجهة النقص في إيرادات الدولة [3]. فأدى إلى توفير السيولة النقدية اللازمة للدولة على المدى القصير، لكنه على المدى الطويل كانت له اثار عكسية على إيرادات بيت المال؛ فقد تحولت هذه الأراضي الخراجية إلى أراضي عشرية، وبينما لا تقل ضريبة الخراج عن (25%) ، وقد تصل إلى (50%) من حصيلة الإنتاج الزراعي سنوياً، أصبح الحد الأقصى بما تدره لبيت المال هو (10%) سنوياً فقط. وقد أدى انخفاض إيرادات الدولة على هذا النحو إلى إضعاف مقدرة الدولة في المدى الطويل على تمويل المشاريع العامة، والتي كان غالبها يدعم قطاع الزراعة.

إلى جانب ذلك كان لهذا القرار أثر مباشر على الإنتاجية الزراعية، فقد كان البائعون هم أصحاب الأرض الأصليين الذين عرفوا كيف يتعاملون معها، وأسلوب زراعتها، واكتسبوا الخبرة الزراعية من طول مكثهم فيها، بينما كان المشترون من العرب وهم ذوو خبرة قليلة بالزراعة، خاصة إذا ما قورنت بالنسبة لخبرة المزارعين الأصليين.

4 . إخضاع المشاريع الزراعية للضغوط السياسية، فقد أدت محاربة الدولة لخصومها السياسيين إلى تخريب أو تحجيم مشاريعهم الزراعية، فانعكس ذلك بنتائج سلبية على اقتصاد الدولة ككل، ومن صور ذلك ما حدث في عهد

---

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) المصدر السابق نفسه ، ص 196.

(3) الخراج والنظم المالية ، ص 203 ، 204.

الحجّاج من أن بثوقاً انبثقت على الأرض المحياة من أرض البطائح، فلم يعمل الحجّاج ـ بوصفه والي المنطقة ـ على سد تلك البثوق مضارة لأهلها؛ لاتهامهم بمساعدة ابن الأشعث في الخروج عليه، فغرقت أراضيهم الزراعية وتحولت إلى موات [1] .

5 - حدوث مواجهة عسكرية بين المزارعين المهاجرين من الأرياف إلى المدن من الموالي والدولة الأموية، وذلك حينما حاول والي العراق إعادتهم إلى أراضيهم بالقوة وإعادة فرض الجزية عليهم، وقد وافق ذلك خروج ابن الأشعث على الدولة الأموية، فانضموا تحت لوائه [2].

ونتيجة لتلك الأسباب وغيرها فقد بدت علامات تدهور القطاع الزراعي العام في المنطقة الشرقية من الدولة الأموية، وكان أبرز تلك العلامات ما يلي:

1 - تدهور غلة الخراج، حيث أخذت في التناقص المستمر [3].

2 ـ هجرة الفلاحين للأراضي الزراعية والاتجاه نحو المدن، وذلك لزيادة حجم ضريبة الخراج ـ بالضرائب الإضافية ـ وعنف الجباية، فتركوا أراضيهم وهاجروا إلى المدن [4] .

3 ـ حالة القلق التي انتابت المزارعين الذين بقوا في أراضيهم، مما دفعهم لتسجيل أراضيهم بأسماء الأمراء والأشراف؛ وهو ما يعرف بالإلجاء طلباً للحماية، ومن أمثلة ذلك: إلجاء كثير من المزارعين أراضيهم بمسلمة بن عبد الملك للتعزز به [5] .

4 ـ حدوث نقص كبير في الإنتاج الحيواني، وبالذات حيوانات الحرث، مما دفع والي العراق إلى إصدار أمر يقضي بمنع ذبح الأبقار [6]في أحد خطوات علاج الأزمة، كما قام بتوريد كمية من الجواميس من إقليم السند لسد العجز الحاصل في دواب التنمية الزراعية [7].

([1]) التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، ص 198.

([2]) المصدر السابق نفسه.

([3]) المصدر السابق نفسه، ص 199.

([4]) تطور ملكية الأراضي في منطقة السواد حتى نهاية العصر الأموي ، ص 195.

([5]) الخراج والنظم المالية ، للريس ، ص 260.

([6]) التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، ص 199.

([7]) فتوح البلدان ، للبلاذري ، ص 368.

ومع ذلك فقد كانت خلال هذه الفترة مجموعة من الإجراءات والمشاريع التي خففت من حدة التدهور الزراعي بالمنطقة خلال عهد عبد الملك، وكان من أبرزها ما يلي:

1 . عملية نقل الأيدي العاملة الزراعية من منطقة إلى منطقة أخرى، بهدف إحداث تنمية زراعية من الجهة المنقول إليها،

ومن أمثلة ذلك: نقل الحجّاج بن يوسف عدداً من مزارعي بلاد السند بأهليهم وجواميسهم وإسكانهم في أرض موات فأحيوها [1].

2 . نقل رؤوس الأموال إلى مناطق فقيرة لتنميتها، ومثال ذلك: إسكان قتيبة بن مسلم لمجموعة من العرب في سمرقند [2]، ومعلوم أن العرب كانوا من أعلى الناس ثروة في العصر الأموي[3] .

رابعاً: تطور التجارة:

مر تطور التجارة الداخلية في عهد عبد الملك بمرحلة ضعف بسبب عوامل أثرت على حجم التجارة الداخلية، **كان من أبرزها ما يلي**:

1 . كثرة الفتن والقلاقل الداخلية التي عصفت بمعظم أركان الدولة الأموية، ومن المعلوم بداهة أن الاستقرار السياسي والأمن الداخلي هي من أولويات ازدهار التجارة الداخلية ونموها، ومع افتقادهما في الدولة الأموية بشكل كبير تعثرت التجارة الداخلية.

2 - نقص السيولة النقدية.

3 - صعوبة دفع الأثمان للصفقات التجارية، وعلى جهة الخصوص الكبيرة منها.

4 - ارتفاع نسبة الضرائب على التجارة حيث روي: أنها وصلت [4] إلى (33%).

([1]) لخراج والنظم المالية للدولة الأموية ، ص 215.

([2]) التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، ص 200.

([3]) المصدر السابق نفسه.

([4]) المصدر السابق نفسه، ص 216.

ومع بداية سنة 77 هـ نمت التجارة الداخلية وازدهرت، وكان وراء ذلك العديد من الأسباب، ومن أبرزها:

1 - زيادة السيولة النقدية الداخلية، وذلك بإصدار العملة الإسلامية الجديدة الموحدة، والتي تطورت من حيث الدقة والانضباط والعيار، حتى أصبحت محل ثقة المتعاملين في الأسواق، وأصبحت تلقى قبولاً عاماً؛ مما سهَّل عملية المبادلات بشكل كبير وحل عدد النقود محل وزنها، وبذلك كانت عملية الإصدار النقدي نقطة تحول في تطور التجارة الداخلية بشكل خاص، سواءً من حيث الزيادة في حجمها أو الاتساع في أرجائها.

2 - حدوث هدوء واستقرار نسبي داخل الدولة الأموية بعد القضاء على الثورات الداخلية.

3 . تمت في هذه المرحلة بعض الإصلاحات التي كان من شأنها تيسير الصفقات التجارية، ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

أ . توحيد وحدة الكيل والميزان من قبل الحجّاج بإقليم العراق [1] .

ب . تنظيم الأسواق مما يسهل ويخدم الحركة التجارية [2] .

ج - وجود خدمات لراحة التجار، كالفنادق والحمامات داخل الأسواق [3] .

وأما التجارة الخارجية في عهد عبد الملك، فقد كانت متعلقة بالدولة البيزنطية ودول المشرق الأقصى:

1 . العلاقة مع الدولة البيزنطية:

وقد مرّت العلاقة التجارية بمرحلتين:

. مرحلة نمو وقوة وازدهار:

وقد نشأ هذا النمو والقوة والازدهار نتيجة عدة عوامل؛ لعل من أهمها:

أ . كثرة الاضطرابات والحروب في المنطقة الشرقية من الدولة الأموية، مما خفض من حجم المبادلات التجارية بينها وبين دول المشرق ولو بشكل جزئي، وبالتالي زيادة حجم المبادلات التجارية مع دولة بيزنطة بالغرب.

([1]) المصدر السابق نفسه ، ص 217.

([2]) المصدر السابق نفسه.

([3]) المصدر السابق نفسه..

ب ـ الاستقرار الأمني في المناطق الغربية من الدولة الأموية دفع بكثير من رؤوس الأموال للهجرة من مناطق التوتر في الشرق إلى إقليم الشام، بحثاً عن فرص استثمارية آمنة.

جـ الاعتماد الكلي لكل من الدولتين على الأخرى في مجال هام وحيوي بالنسبة لها، فكما كانت الدولة البيزنطية تعتمد كلياً على الدولة الأموية في أوراق البردي، كانت الدولة الأموية تعتمد كلياً في حجم النقد الذهبي داخلها على ما يردها من الدولة البيزنطية [1].

. مرحلة تدهور المبادلات التجارية بين البلدان:

وقد شهدت هذه المرحلة انخفاضاً كبيراً في المبادلات التجارية بين الدولتين، ويعود ذلك إلى عدة عوامل؛ من أبرزها ما يلي:

أ ـ تدهور العلاقات السياسية بين الدولتين بشكل كبير.

ب ـ حدوث هدوء نسبي في الأقاليم الشرقية . بعد القضاء على الثورات الداخلية . مما أدى إلى رفع معدلات التبادل التجاري مع دول الشرق الأقصى.

جـ ـ دخول معظم دول المشرق تحت مظلة الدولة الإسلامية، فتهيأ لها نوع من الاكتفاء الذاتي لتلك الدول، لا سيما بعد دخول بلاد الهند والسند.

د ـ تزايد اعتماد الدولة الأموية في تجارتها مع دول الشرق الأقصى على التجارة البحرية عن طريق الخليج العربي، لا سيما بعد تطور صناعة السفن بها [2] ، بشكل أصبحت معه قادرة على الخوض في المحيطات، مما جعل معظم تجارة الدولة الأموية مع دول الشرق الأقصى تتم بواسطة الطرق البحرية [3]، فنتيجة لتلك العوامل وغيرها تدهورت التجارة بين البلدين.

2 . العلاقات التجارية مع دول المشرق الأقصى:

كانت تعتمد التجارة بين الدولة الأموية ودول المشرق على نوعين من الخطوط، وهما: خطوط التجارة البرية، وخطوط التجارة البحرية.

---

(1) المصدر السابق نفسه ، ص 208.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 209.

(3) المصدر السابق نفسه.

أ. التجارة عن طريق الخطوط البرية:

دخلت كثير من دول المشرق تحت مظلة الدولة الإسلامية لا سيما بلاد الهند، والسند، والتي كانت تحتل صادراتها نسبة كبيرة من واردات الدولة الأموية، ومعنى ذلك تحول جزء من التجارة الخارجية مع الشرق إلى تجارة داخلية بين أرجاء الدولة الإسلامية [1] .

ب. التجارة عن طريق الخطوط البحرية:

اهتمت الدولة بالتجارة البحرية، وأكدت على عنصر الأمن للطرق التجارية، ومن صور ذلك إرسالها جيشاً للقضاء على قراصنة كانوا يقطعون الطريق على تلك الخطوط البحرية فقضى عليهم [2]، واهتم الحجاج بتحصين المدن التجارية [3]، كما طور صناعة السفن التجارية، وأصبحت وسائل النقل البحري والرحلات التجارية أكثر أمناً وسرعة، وأعلى كفاء

خامساً: الحرف والصناعات:

من أشهر الصناعات في عهد عبد الملك:

1 . صناعة المنسوجات:

وقد تطورت صناعة النسيج في الدولة الأموية كثيراً وأصبحت لها مصانع خاصة بها سميت دور الطراز، وكان دورها إنتاج الملابس الخاصة بموظفي الدولة الكبار، كالأمراء والولاة، وقد تحدثت عن ذلك في كلامنا عن ديوان الطراز.

2 . التشييد وصناعة مستلزمات البناء:

شهدت الدولة الأموية اهتماماً بالعمران، وتشييد المساكن، وزخرفتها، ومن أبرز ذلك: المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وقد أدى الإقبال على تزيين البيوت والتأنق فيها إلى ظهور صناعات تلبي تلك الرغبات، فظهرت على سبيل المثال صناعة قطع الرخام وزخرفته، وكذا استخدام الزخارف الحبيسة لتزيين المباني [4].

([1]) المصدر السابق نفسه، ص 211.

([2]) المصدر السابق نفسه، ص 212.

([3]) الحجاج بن يوسف وجه حضاري في تاريخ الإسلام ، ص 59.

([4]) تاريخ الموصل (223/1).

3 . الصناعات الحربية:

توسعت هذه الصناعة في عهد عبد الملك بن مروان، وفتح داراً بتونس لصناعة السفن الحربية، وكانت نواة تلك الدار ألف عامل متخصص في صناعة السفن، تم نقلهم من دار الصناعة ـ المنطقة الصناعية ـ بمصر، وقد تم وضع التنظيم اللازم وطريقة إمداد تلك الدار بالأخشاب من الغابات الإفريقية الداخلية، واختيار جماعات من البربر من سكان تلك المناطق للقيام بتلك المهمة، حيث هم أخبر الناس بمناطق وجود الأخشاب الجيدة الملائمة لتلك الصناعة [1].

وفي إرسال دار الصناعة بمصر لألف عامل ليكونوا نواة التصنيع بتونس ما يدل على مدى تطور تلك الصناعة بمصر وكبر حجمها، وفي تطور لاحق لصناعة السفن الحربية بتونس، قام والي تونس بتوسيع دار الصناعة بها فشق قناة بين الميناء وبين المدينة بطول اثني عشر ميلاً [2]، وشكلت هذه القناة ما يماثل اليوم أحواض بناء السفن أو الأحواض الجافة [3]. وأصبحت مناطق دور صناعة السفن الحربية مناطق جذب سكاني [4]، ولم تكن السفن الحربية تختلف كثيراً عن السفن التجارية، وقد تطورت صناعة السفن التجارية في ولاية الحجّاج بصفة عامة [5]، وكان من أشهر أماكن صناعتها: البحرين، ومدينة واسط بالعراق [6].

4 . صناعة البردي في مصر:

كان لهذه الصناعة أهميتها الخاصة، ذلك لأن البردي كان يستخدم قبل ظهور صناعة الورق انذاك في المكاتبات وأعمال الدولة، وكانت الدولة تشرف على الإنتاج إشرافاً مباشراً لأهمية تلك الصناعة، وكانت صادرات البردي تدرُّ أرباحاً طيبة، وما ذكر عنها من تطور أنها استبدلت العبارات البيزنطية التي كانت تطبع على البردي المخصص للتصدير بعبارات دينية إسلامية، وكان ذلك في عهد عبد الملك [7].

---

(1) تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ، ص 115 ، 116.

(2) الإدارة في العصر الأموي ، ص 222.

(3) التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، ص 240.

(4) المصدر السابق نفسه.

(5) المصدر السابق نفسه ، ص 242.

(6) لمصدر السابق نفسه.

(7) المصدر السابق نفسه، ص 243.

5 . صناعات وحرف أخرى:

ومن أهمها: حرفة الحدادة، والصناعات الخشبية، وصناعة الحلي والمجوهرات [1] .

سادساً: إحداث دور ضرب العملة وتعريب النقد:

كانت عوامل عديدة تتجمع في الأفق كلها تشير إلى وجوب حدوث تطور كبير في نظام العملة المتعارف عليه في العالم الإسلامي بعد أن اتسعت رقعته ذلك الاتساع الكبير، واستقرت أحواله الداخلية بعد مضي فترة من خلافة عبد الملك بن مروان، فقد كان العالم الإسلامي يتعامل حتى ذلك الوقت بالعملة المالية لفارس والروم من دراهم ودنانير، وهذه العملات المالية قد تناقصت كمياتها المتداولة بشكل يثير القلق بعد انهيار الإمبراطورية الفارسية واضطراب الأحوال في إمبراطورية الروم، فلم يعد حجم هذه العملات المتوافر يكفي لتغطية النشاط التجاري والاقتصادي والحاجة المالية للدولة الإسلامية الواسعة والنشيطة [2].

وقد قام عبد الملك بتعريب النقد تعريباً نهائياً، وأحدث دور الضرب التي تضرب فيها الدنانير، وجعلها بإشراف الخلافة، ويود المؤرخون أن يشعرونا بأنه فعل ذلك لأنه تخاصم مع ملك الروم، فيقولون: إن الروم كانوا يأخذون من البلاد العربية صحائف البَرْدي، وأمر عبد الملك أن يكتب على رأس صحائف البردي {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ}، فغضب لذلك ملك الروم، وكان محتاجاً إلى البردي، فهدد بأن يطبع على الدنانير عبارات القذف بحق الرسول ﷺ، إن استمرت تلك العبارة على صحف البردي، فاعتمد عبد الملك أن يضرب السكة في بلاده ويستغني عن الدنانير التي تأتيه من بلاد الروم [3] .

على أن الأمر يبدو أوسع من هذا، فقد كان في بلاد المسلمين نقود فارسية ونقود حميرية قديمة، وغيرها، وقد حاول الخلفاء من قبله ضرب النقود، بل يرجع إلى عمر بن الخطاب أنه ضرب الدراهم، لكنه استبقى عليها العبارات الفارسية، وأضاف بعض العبارات العربية فيها كقول: (جائز)، واستمر ضرب النقود في عهد عثمان ومعاوية وابن الزبير، فكان من الطبيعي أن يستأنف عبد الملك عمله، وهو ما فعله.

([1]) المصدر السابق نفسه، ص 244.

([2]) الدولة الأموية المفترى عليها ، ص 428.

([3]) حياة الحيوان ، للدميري (1/91 . 94).

على أن عبد الملك يمتاز بأنه وضع لذلك مخططاً واضحاً، فليست القضية قضية إنشاء مصنع للنقود، ونقل السكة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية فحسب، بل يدخل في هذا الأمر وزن النقود وشكلها [1] .

وقد تحدَّث المؤرخون عن أسباب دينية وسياسية واقتصادية قد لعبت دوراً أساسياً في بناء موقف الخليفة، تتلخص هذه الأسباب على الشكل التالي:

1 . كان الخليفة حريصاً على صبغ الدولة الأموية بصبغة إسلامية، ولذا فإن الإصلاح النقدي يندرج ضمن خطة شاملة لتعريب مؤسسات الدولة [2] .

2 . حرص الخليفة على إنهاء التبعية الاقتصادية للدولة البيزنطية التي كانت تسيطر

دنانيرها الذهبية على الجانب النقدي من اقتصاديات الدولة [3]

3 . توقف حجم السيولة النقدية للدولة الأموية على ما يرد عليها من الدولة البيزنطية، مما يعرضها لأزمات اقتصادية حادة، خاصة في حالات انقطاع هذه السيولة بسبب ممارسة ضغوط اقتصادية، أو نشوب معارك حربية أو نحوها.

4 . سيطرة الدولة على مصادر عرض النقود، وضمان تخليصها من الغش، وكسب ثقة الناس في النقود المتداولة.

5 . حاجة الدولة الفعلية إلى عملة داخلية موحدة ومنضبطة حتى تستوفي بها حقوقها لدى الأفراد، وتسهل لها القيام بوظائفها الاقتصادية [4] .

6 . إن إصدار النقود يعبر عن السيادة الكاملة للدولة الإسلامية، ويحررها من النفوذ الأجنبي [5]، فقد أراد عبد الملك بن مروان أن يقيم سلطانه على أساس اقتصادي مستقل عن بيزنطة وعدم الارتباط بنقدها، كما أن إصدار أول دينار إسلامي يرتبط بحالة الصراع مع البيزنطيين؛ حيث استطاع الخليفة أن يوجه ضربة اقتصادية موجعة للدولة البيزنطية.

---

(1) الدولة الأموية ، يوسف العش، ص 234.

(2) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي ، ص 320.

(3) التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، ص 145.

(4) المصدر السابق نفسه.

(5) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي ، ص 321.

7 . يعتبر سك النقود الإسلامية وتوحيدها في الدولة اتجاهاً نحو الدولة المركزية وضبط جهازها المالي [1] .

8 . ومن الأمور الأكثر أهمية التي جعلت الخليفة يقدم على إصدار النقود الإسلامية، توفر كميات كبيرة من الذهب والفضة لدى المسلمين في البلاد المفتوحة، فاستند على قاعدة هذا المخزون الكبير من المعادن في إصدار النقد الإسلامي الجديد [2].

أهم خصائص النقود الإسلامية في عهد عبد الملك:

1 . أنه ألغى العبارات والإشارات التي تشير إلى العقيدة المسيحية المحرَّفة، واستبدلها بعبارات تدل على عقيدة التوحيد الإسلامية.

2 . أنها موافقة في أوزانها النسبية لنصاب زكاة النقدين ومقدارها.

3 . أنه حدد وزن الدينار باثنين وعشرين قيراطاً إلا حبة [3] ، وجعل الدرهم خمسة عشر قيراطاً أو ستة دوانق[4].

4 . أنه حدد بناء على الوزن السابق سعر الصرف بين الدرهم والدينار، فكانت كل عشرة دراهم تساوي سبعة دنانير[5].

5 . تحددت تواريخ إصدار النقود الأموية بالتاريخ الهجري المتسلسل، أي: وفق المتعارف عليه، بينما افتقرت النقود الساسانية والبيزنطية إلى التواريخ التقويمية، إذ اعتمدت تواريخها على بداية حكم كل ملك [6] .

محاربة تزييف العملة:تشدد عبد الملك وخلفاؤه من بعده وولاتهم في تعقب أية محاولة لغش النقود وتزييفها، ومعاقبة من يثبت عليه ذلك، فقد روي أنه أخذ رجلاً يضرب على غير سكة المسلمين، فأراد قطع يده، ثم ترك ذلك وعاقبه، فاستحسن ذلك شيوخ المدينة [7] .

([1]) المصدر السابق نفسه، ص 322.

([2]) المصدر السابق نفسه.

([3]) التطور الاقتصادي في العهد الأموي ، ص 146.

([4]) المصدر السابق نفسه.

([5]) المصدر السابق نفسه.

([6]) المصدر السابق نفسه.

([7]) الدولة الأموية المفترى عليها ، ص 441.

سابعاً: العمارة والبناء في عهد عبد الملك:

اقتضت أهداف دولة عبد الملك بإنشاء مدينة واسط، وتونس.

1 . بناء واسط:

اختطَّها الحجّاج بن يوسف الثقفي في أرض كسكر [1]، وهي تتوسط عدة مدن، فهي تبعد عن الكوفة أربعين فرسخاً، وكذلك عن المدائن والأهواز والبصرة، وهي إحدى مدن العراق الكبرى قبل بناء بغداد [2]، وقد بدأ الحجّاج في بنائها عام 83 هـ، وانتهى منها سنة 86 هـ [3] ، وكان شروعه في البناء بعد موافقة عبد الملك، وقد أنفق على بنائها خراج العراق كله لخمس سنوات [4]، كانت رؤية تخطيطها تتضح فيها الملامح الأساسية للتخطيط للمدينة الإسلامية، فاشتملت المدينة على المسجد ـ الجامع ـ ودار الإمارة في الوسط، وتضمينها الأسواق اللازمة لحياة مدينة مستقرة، وفيها كذلك الملامح الجديدة ما يعكس ملامح النظام الأموي الجديد.

ولعبت واسط دوراً سياسياً مهماً، فكانت المناظر المتصلة بينها وبين قزوين، وكان إذا دخن أهل قزوين دخنت المناظر إن كان نهاراً، وإن كان ليلاً أشعلوا نيراناً، فتجرد الخيل إليهم، فكانت قزوين ثغراً [5] ، فمنها كانت تتحرك الجيوش، وفيها ضربت النقود [6] .

وازدهرت واسط من الناحية الاقتصادية فكثرت فيها المحلات التجارية، وتقدمت فيها الزراعة، وكانت عاصمة العراق في عهد الحجّاج.

2 . بناء تونس:

اختط هذه المدينة القائد حسان بن النعمان الغساني عام 82 هـ، لتكون قاعدة عسكرية بحرية، ولتحول دون تكرار البيزنطيين الهجوم على قرطاجة عام 78 هـ [7] ، بنى حسان بن النعمان مدينة تونس على أنقاض قرية قديمة

([1]) تجديد الدولة الأموية ، ص 195.

([2]) فتوح البلدان ، ص 407؛ تجديد الدولة الأموية ، ص 195.

([3]) المصدر السابق نفسه.

([4]) تاريخ واسط ، بحشل ، ص 38 ، 39؛ تجديد الدولة الأموية ، ص 197.

([5]) معجم البلدان (350/5).

([6]) المصدر السابق نفسه.

([7]) رياض النفوس ، للمالكي؛ نقلاً عن تجديد الدولة الأموية ، ص 200.

عرفت باسم ترشيش القديمة [1] ، وإنما سميت تونس في أيام الإسلام لوجود صومعة الراهب، وكانت سرايا المسلمين تنزل بإزاء صومعته، وتأنس لصوت الراهب، فيقولون: هذه الصومعة تؤنس، فلزمها هذا الاسم فسميت باسم تونس [2].

واختط حسان تونس غربي البحر المتوسط بنحو عشرة أميال [3]، فقام بحفر قناة تصل المدينة بالبحر لتكون ميناء بحرياً ومركزاً للأسطول الإسلامي بعد أن أنشأ فيها صناعة المراكب [4] بخبراء في هذه الصناعة زوده بهم والي مصر عبد العزيز بن مروان بناء على توجيه الخليفة عبد الملك [5] .

وقد بنيت مدينة تونس طبقاً لأهداف سياسية استراتيجية، وأهداف اقتصادية اجتماعية تبناها الخليفة عبد الملك: أما الأهداف السياسية البعيدة المدى، فيتضح ذلك بوضع حد لاعتداءات الروم والمتمثلة بإغارتهم على الساحل الإفريقي، والسبيل الأمثل هو إيجاد قاعدة بحرية، وصناعة بحرية قادرة على إنشاء أسطول مهمته صد العدوان الرومي بادئ الأمر، ثم الانتقال من مرحلة التصدي إلى الغزو والفتح فيما بعد، وقد تمثل تطبيق هذه المرحلة من قبل الخليفة عبد الملك، فقام بالإيعاز لشقيقه والي مصر: عبد العزيز بن مروان، لإرسال ألفي قبطي من مهرة الصناع لإقامة صناعة مراكب بحرية، وقام هؤلاء بالمهمة الموكلة إليهم خير قيام.

وأما الهدف الثاني: فيتمثل بإيجاد حياة اجتماعية بإيجاد المؤسسات القادرة على خدمة الأفراد، فأقام في المدينة المسجد الجامع ودار الإمارة وثكنات للجند للمرابطة، وأخذ يقوم بتدوين الدواوين [6]، وتنظيم الخراج والعناية بالدعوة الإسلامية بين البربر، فقام بإرسال الفقهاء ليعلموهم اللغة العربية والدين الإسلامي [7] ، وسارت المدينة لتكون معسكراً حربياً في البداية، ومركز استيطان وإدارة لدعم الفتوحات، وأخيراً مركزاً حضارياً ومركز إشعاع فكري وعلمي وثقافي [8] .

([1]) معجم البلدان (601/2).

([2]) الروض المعطار ، ص 144؛ نقلاً عن تجديد الدولة الأموية ، ص 200.

([3]) تقويم البلدان؛ نقلاً عن تجديد الدولة ، ص 200.

([4]) دائرة المعارف الإسلامية (32/6).

([5]) تجديد الدولة الأموية ، ص 200

([6]) البيان المغرب (38/1).

([7]) المصدر السابق نفسه.

([8]) تجديد الدولة الأموية ، ص 203.

وهكذا رسخ الخليفة عبد الملك بن مروان أقدام الدولة الأموية بتأسيس مدينة تونس، وقطع دابر الغارات البيزنطية بإيجاد مدينة إسلامية مرتبطة بالأهداف العليا للدولة [1] .

3 . بناء مسجد قبة الصخرة:

بنى هذا المسجد الخليفة عبد الملك بن مروان، وسماه الأوروبيون خطأ مسجد عمر، وقد رصد الخليفة لإعماره أموالاً طائلة [2] ، قال ابن كثير: ولما أراد عبد الملك عمارة بيت المقدس وجَّه إليه بالأموال والعمال، ووكل بالعمل رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام مولاه، وجمع الصناع من أطراف البلاد وأرسلهم إلى بيت المقدس، وأرسل إليه بالأموال الجزيلة الكثيرة، وأمر رجاء بن حيوة ويزيد أن يفرغا الأموال إفراغاً ولا يتوقفا فيه، فبثوا النفقات وأكثروا، فبنوا القبة فجاءت في أحسن البناء، وفرشاها بالرخام الملون، وحفّاها بأنواع الستور، وأقاما لها سدنة وخداماً بأنواع الطيب والمسك والعنبر وماء الورد والزعفران، يعملون منه غاليه ويبخرون القبة والمسجد من الليل، وجعلا فيها من قناديل الذهب والفضة والسلاسل الذهبية والفضية شيئاً كثيراً، وفرشاها بأنواع البسط الملونة، وكانوا إذا أطلقوا البخور شمَّ من مسافة بعيدة، وقد عملوا فيها من الإشارات والعلامات المكذوبة شيئاً كثيراً مما في الآخرة، فصوَّرا فيه صورة الصراط وباب الجنة وقدم رسول الله ﷺ ووادي جهنم، وكذلك في أبوابه ومواضع منه، فاغتر الناس بذلك إلى زماننا...

وبالجملة فإن صخرة بيت المقدس لما فرغ من بنائها لم يكن لها نظير على وجه الأرض بهجة ومنظراً، وقد كان فيها من الفصوص والجواهر والفسيفساء وغير ذلك شيء كثير وأنواع باهرة، ولما فرغ رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام من عمارتها على أكمل الوجوه، فضل من المال الذي أنفقاه على ذلك ستمئة ألف مثقال، وقيل: ثلاثمئة ألف مثقال، فكتبا إلى عبد الملك يخبرانه بذلك، فكتب إليهما قد وهبته لكما، فكتبا إليه: إنا لو استطعنا لزدنا في عمارة هذا المسجد من حلي نسائنا، فكتب إليهما: إذا أبيتما أن تقبلاه فأفرغاه على القبة والأبواب، فما كان أحد يستطيع أن يتأمل القبة مما عليها من الذهب القديم والحديث [3] .

وهناك عدة أسئلة تطرح نفسها: ما سبب بناء هذا المسجد وبهذا الإتقان والإبداع؟ ولماذا تزامن مع حركة ابن الزبير في الحجاز؟

---

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) المصدر السابق نفسه، ص206.

(3) البداية والنهاية (12/40 ، 41).

إن أول المؤرخين الذين حاولوا إيجاد التسويغ لبناء مسجد قبة الصخرة المشرفة هو اليعقوبي (ت 284 هـ) وقد ربط ذلك بالحكم والخلافة حينئذ، وأوجد صيغة مشتركة في التعامل بين السلطة الأموية والمجتمع، لأن معظم العالم الإسلامي كان قد بايع عبد الله بن الزبير بالخلافة (64 . 73 هـ) ما عدا إقليم الأردن [1]، فقد قال في كتابه: ومنع عبد الملك أهل الشام من الحج، وذلك لأن ابن الزبير كان يأخذهم إذا حجوا بالبيعة، فلما رأى عبد الملك ذلك منعهم من الخروج إلى مكة، فضج الناس وقالوا: تمنعنا من حج بيت الله الحرام، وهو فرض علينا، فقال: هذا ابن شهاب الزهري يحدثكم أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي، ومسجد بيت المقدس». وهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام، وهذه الصخرة التي يروى أن رسول الله ﷺ وضع قدمه عليها لما صعد إلى السماء [2] .

واليعقوبي راوي الأثر السابق مؤرخ شيعي إمامي كان يعمل في كتابة الدواوين في الدولة العباسية حتى لقب بالكاتب العباسي، وقد عرض اليعقوبي تاريخ الدولة الإسلامية من وجهة نظر الشيعة الإمامية، فهو لا يعترف بالخلافة إلا لعلي بن أبي طالب وأبنائه حسب تسلسل الأئمة عند الشيعة، ويسمي علي بالوصي. وعندما أرخ لخلافة أبي بكر وعمر وعثمان لم يضف إليهم لقب الخلافة؛ إنما: تولى الأمر فلان، ثم لم يترك واحداً منهم دون أن يطعن فيه، وكذلك كبار الصحابة، وقد ذكر عن عائشة رضي الله عنها أخباراً سيئة، وكذلك عن خالد بن الوليد [3]، وعمرو بن العاص [4]، ومعاوية بن أبي سفيان [5] ، وعرض خبر السقيفة عرضاً مشيناً [6] ، ادعى فيه أنه قد حصلت مؤامرة على سلب الخلافة من علي بن أبي طالب الذي هو الوصي في نظره، وطريقته في سياق الاتهامات . الباطلة . هي طريقة قومه من أهل التشيع؛ وهي إما اختلاق الخبر بالكلية [7] ، أو التزيد في الخبر [8]، والإضافة عليه، أو عرضه في غير سياقه ومحله حتى يتحرف معناه، ومن الملاحظ: أنه عندما ذكر الخلفاء الأمويين وصفهم بالملوك، وعندما ذكر خلفاء بني العباس وصفهم بالخلفاء، كما وصف دولتهم في كتابه البلدان باسم الدولة المباركة [9] ، مما

---

(1) تجديد الدولة الأموية ، ص 212.

(2) تاريخ اليعقوبي (361/2).

(3) المصدر السابق نفسه (131/2).

(4) المصدر السابق نفسه (222/2).

(5) المصدر السابق نفسه (232/2 ، 238).

(6) المصدر السابق نفسه (123/2 ، 126).

(7) منهج كتابة التاريخ الإسلامي ، ص 431.

(8) المصدر السابق نفسه.

(9) كتاب البلدان ، لليعقوبي ، ص 432.

يعكس نفاقه وتستره وراء شعار التقية، وهذا الكتاب يمثل الانحراف والتشويه الحاصل في كتابة التاريخ الإسلامي، وهو مرجع لكثير من المستشرقين والمستغربين الذين طعنوا في التاريخ الإسلامي وسيرة رجاله، مع أنه لا قيمة له من الناحية العلمية؛ إذ يغلب على القسم الأول القصص والأساطير والخرافات، والقسم الثاني كتب من زاوية نظر حزبية، كما أنه يفتقد من الناحية المنهجية لأبسط قواعد التوثيق العلمي [1] .

هذا هو اليعقوبي الذي اعتمده المؤرخون المتأخرون في روايته قصة بناء مسجد قبة الصخرة، أو مسجد بيت المقدس على حد تعبيره، وعلينا أن نتحفظ من رواية اليعقوبي الآنفة الذكر، ونعتبرها خارجة عن الإطار المقبول؛ لأنه لا يعقل رجل بمستوى عبد الملك في دهائه ومكره وعقله وفقهه يضع نفسه موضع شبهة الكفر، فيصد الناس عن الحج إلى بيت الله الحرام [2]، هذا من ناحية العقل والمنطق، وأما من ناحية السند فقد بينا، ولم نسمع أن أحداً من خصوم الأمويين أوردوا ذلك في مطاعنهم على عبد الملك . سوى الشيعة .. كما أن الإمام الزهري لم يلتق بعبد الملك إلا بعد مقتل ابن الزبير، فقد نقل الذهبي عن الليث بن سعد أنه قال: قدِم ابن شهاب على عبد الملك سنة اثنين وثمانين [3].

وقد نص على أن ابن الزبير قتل سنة 72 هـ [4] ، وبعد مقتله استوثقت الممالك لعبد الملك [5] ، فليس هو في حاجة لمن يضع له أحاديث لصرف الناس عن الحج، والزهري لم يكن عند مقتل ابن الزبير ذائع الصيت عند الأمة الإسلامية بحيث تتقبل منه حديثاً موضوعاً يلغي به فريضة الحج الثابتة بالقران والأحاديث الصحيحة؛ وذلك لصغر سنه، فإنه قد ولد بعد الخمسين من الهجرة [6] ، وصداقته بعبد الملك وتردده عليه لا يقدح في أمانته ودينه.

وأما حديث شد الرحال فهو صحيح رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن الأربعة وغيرهم من العلماء، قال عنه ابن تيمية: وهو حديث مستفيض، متلقى بالقبول، أجمع أهل العلم على صحته وتلقيه بالقبول والتصديق [7] ، ولم ينفرد الزهري رحمه الله برواية هذا الحديث حتى يتهم بوضعه، والحديث ليس فيه فضل قبة الصخرة، وليس فيه

---

(1) منهج كتابة التاريخ الإسلامي ، ص 432.

(2) تجديد الدولة الأموية ، ص 214.

(3) موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية ، ص 136.

(4) سير أعلام النبلاء (247/4).

(5) المصدر السابق نفسه.

(6) السنة ومكانتها في التشريع ، ص 218.

(7) الفتاوى (27/5 ـ 6).

الدعوة إلى الحج إليها والطواف حولها بدلاً عن الكعبة كما يدعي بعض المزورين، وغاية ما فيه: فضل الصلاة في بيت المقدس وزيارته [1] .

وأما الصخرة فقد ذكر ابن القيم أن كل حديث فيها فهو كذب مفترى [2] ، وقد قام الدكتور حارث بن سليمان الضاري بنسف هذه الشبهة في كتابه القيم (الإمام الزهري وأثره في السنة) [3] في ثلاث عشرة صفحة، وأتى بحجج دامغة قوية لمن يبحث عن الحقيقة العلمية، وسيأتي الحديث عن الإمام الزهري في عهد هشام بن عبد الملك بإذن الله تعالى.

* * *

---

(1) السنة ومكانتها في التشريع ، ص 219.

(2) المنار المنيف ، ص 87.

(3) الإمام الزهري وأثره في السنة ، ص 457 . 470.

المبحث الخامس

النظام القضائي والشرطة

أولاً: القضاء:

كان القضاء على عهد عبد الملك استمراراً لما كان عليه زمن من سبقه من الخلفاء، فضلاً عن إسهاماته الرائدة بتنظيم جوانب متعددة منه، فهو أول من أفرد للمظالم [1] يوماً، كما أوجب أن تقرأ عهود القضاة، أي: أوامر تعيينهم، في المسجد الجامع أولاً، ثم يتوجَّهون إلى دار الأمير حيث يُتلى أمامه عهد تولية القاض [2]، وكان الخليفة عبد الملك يختار من القضاة من يتصف بالتقوى والنزاهة؛ فقد ولى على القضاء بلال بن أبي الدرداء [3].

1 . أشهر قضاة عبد الملك:

وكان من أشهر قضاة عبد الملك: أبو إدريس الخولاني، وذلك سنة 74 هـ، وكانت له المظالم أيضاً حتى أعفاه عبد الملك بطلب منه [4]، ثم ولى عامراً الأشعري [5] ، ثم عبد الله بن عامر اليحصبي [6]، وعبد الله بن قيس، ثم سليمان المحاربي، ومعظم هؤلاء القضاة من الفقهاء ومن رواة الحديث [7].

2 . رزق القاضي:

ولما قدم عبد الملك بن مروان النخيلة سنة 72 هـ قال: ما فعل شريح العراقي؟ قيل: حي، قال: عليَّ به. فجاء فقال: ما منعك من القضاء؟ فقال: ما كنت أقضي بين اثنين في فتنة [8] . قال: وفقك الله عد إلى قضائك، فقد أمرنا لك بعشرة الاف درهم، وثلاثمئة جريب، فأخذها بالفلوجة، وقضى إلى سنة ثمانٍ وسبعين[9].

([1]) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية ، ص 188.

([2])الإسلام والحضارة الإسلامية ، كرد علي ، ص 161.

([3]) أخبار القضاة (202/3).

([4]) المصدر السابق نفسه (202/3)؛ الإصلاحات ، ص 189.

([5]) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية ، ص 189.

([6]) أخبار القضاة (203/3).

([7]) إدارة بلاد الشام ، ص 132 ، 133.

([8]) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي ، (211/2).

([9]) المصدر السابق نفسه.

3 . مراقبة القضاة:

كان عبد الملك يراقب قضاته ويتابع أخبارهم، فقد أخبر أن زوجة قاضيه الحارث الأشعري، كلمت زوجها في رجل يقضي له بقضية، وأن الرجل أهدى إلى زوجة القاضي هدية، فقال عبد الملك:

إذا رشـــوةٌ من بابِ بيتٍ تَقَحَّمَتْ ... لتســـكنَ فيـهِ والأمـانـةُ فيـهِ

سَـــعَـتْ هرباً منـه وولَّـتْ كـأنَّهَـا ... حليمٌ تولَّى عن جوارِ ســـفيـهِ [1]

4 . عدم التدخل في أحكامهم وأعمالهم:

فقد كان موقف عبد الملك من القضاء والقضاة مبنيّاً على الاحترام وعدم التدخل في عملهم وأحكامهم [2] .

5 . احترامه لقضاء عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما:

أرسل أبان بن عثمان عامل عبد الملك على المدينة رسالة يسأله عن موقفه من أقضية وأحكام عبد الله بن الزبير، قائلاً له: إن عبد الله بن الزبير قضى بين الناس بأقضية، فما يرى أمير المؤمنين؛ أمضيها أم أردها؟ فكتب عبد الملك إلى أبان بن عثمان: إنا والله ما عبنا على ابن الزبير أقضيته، ولكن عبنا عليه ما تناول من الأمر، فإذا أتاك كتابي هذا، فأنفذ أقضيته، فإن ترداد الأقضية عندنا يتعسر [3] . وهذه الرسالة تبين لنا جانباً مهماً من سياسة عبد الملك الحازمة، وحكمته في عدم التدخل في المؤسسة القضائية، إذ سد باباً
على الحكام والولاة كان فَتْحه يعرض أحكام القضاة إلى النقص المستمر [4] .

6 . تحديد مهور النساء:

قام عبد الملك بتحديد المهور وجعلها (400) أربعمئة دينار، حداً أعلى، وهو أول من فعل ذلك اقتداء بما فعله رسول الله ﷺ عندما خطب أم حبيبة بنت أبي سفيان (5)،

([1]) أخبار وكيع (56/1)؛ الإصلاحات المالية ، ص 190.

([2]) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية ، ص 190.

([3]) أخبار القضاة (130/1).

([4]) الإصلاحات المالية ، ص191.

([5]) الطبقات (99/8)؛ الإصلاحات المالية ، ص 190.

وربما قام عبد الملك بذلك منعاً للمغالات في المهور، وتشجيعاً للزواج والإنجاب (1) .

7 . ديوان المظالم:

كان الخليفة عبد الملك أول من أفرد يوماً للنظر في المظالم، حيث جلس في يوم محدد يتصفح فيه قصص المتظلمين من غير مباشرة للنظر فيها، فكان إذا وقف منها على مشكل، أو احتاج فيها إلى حكم منفذ رده إلى قاضيه [2] أبي إدريس الخولاني فنفذ فيه أحكامه، وقد قام للجلوس بنفسه حتى يرتدع الناس، فكان أبو إدريس هو المباشر وعبد الملك الامر [3]، وكان عبد الملك حين يجلس للمظالم يستعد لها، فكان يلبس جبة ورداء [4]، كما ويقام على رأسه بالسيوف [5]، ويأمر شخصاً من هؤلاء القائمين على رأسه لإنشاد شعر لسعيد بن عُريض وهو:

إنَّا إذا مَـا دواعـي الهَـوَى	وأنصـتَ السَّـامِعُ للقـائـلِ
واصْـطَـرَعَ الـقـومُ بألـبـابِهِـمْ	نقضِي بحكمٍ عادلٍ فاصلِ
لا نجـعـلُ الـبـاطـلَ حـقّـاً ولا	نـلـفـظُ دونَ الحـقِّ بالـبـاطـلِ
نخـافُ أن تسـفُـهَ أحـلامُـنـا	فنخمل[6] الدَّهر مع الخاملِ

ثم يجتهد عبد الملك في الحق بين الخصمين [7]. وهذا يعني أن جلوس الخليفة عبد الملك للمظالم كان جلوساً منتظماً ومتكاملاً، ولابد أن جلسات الخليفة هذه كان

يحضرها كتاب يدونون هذه الجلسات وأحكامها، كما أن تحديد الخليفة عبد الملك يوماً معيناً من كل أسبوع للنظر في المظالم، وتعيين قاضٍ لذلك، وتعيين من يقوم على رأسه بالسيوف وهم من الحماة والأعوان، وارتداء الخليفة ملابس معينة، وانعقاد هذه الجلسات في مكان محدد، كل هذا يعني وجود الأسس لديوان مستقل لكل ذلك،

([1]) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية ، ص 190.

([2]) المصدر السابق نفسه ، ص 151.

([3]) نهاية الأرب (269/6).

([4]) الإصلاحات المالية والتراتيب الإدارية ، ص 152.

([5]) الإسلام والحضارة العربية ، كرد علي ، ص 167.

([6]) الإصلاحات المالية والتراتيب الإدارية ، ص 152.

([7]) البداية والنهاية (385/12).

ويمكننا أن نقول بأن الخليفة عبد الملك ربما كان أول من أسس ديوان النظر في المظالم في الدولة [1] .

ثانياً: الشرطة:

ومن الأجهزة المهمة التي كان لها أثر فاعل في إدارة بلاد الشام: جهاز الشرطة، وعلى رأسه صاحب الشرطة، ولابد أن الخليفة عبد الملك كان لا يختار لهذا المنصب إلا من توفرت فيه شروط صعبة التوفر [2]، وعين الخليفة عبد الملك بن مروان على شرطته: عبد الله بن هانأى الأزدي[3] ، ثم استبدل به يزيد بن كبشة السكسكي، ثم عزل الكثير من هذا المنصب واخرهم في عهد عبد الملك كعب بن حامد العبسي[4] .

ولم تكن مهمة الشرطة في عهد عبد الملك هي محاسبة الجناة واللصوص فحسب، بل مارست الشرطة عملاً مهماً، ألا وهو عملية تنظيم وضبط نزول جيوش الخلافة ورحيلها أثناء الحملات العسكرية، فقد قلد الخليفة الحجّاج بن يوسف الثقفي هذه المهمة، فنجح فيها في عدة مناسبات، وتمكن من ضبط جيش الخليفة وتأدية مهمته على أحسن وجه[5]، وكانت الشرطة موجودة في كافة أقاليم الدولة وتابعة لولاتها.

واتخذ الخليفة عبد الملك بن مروان حرساً خاصاً به[6]، ويرأس هؤلاء الحرس رئيس، يعين ويعزل من الخليفة، وهو المسؤول عن أفراد حرسه أمام الخليفة، ويبدو أن أعدادهم لم تكن قليلة، وكانت مهمة الحرس الأساسية، هي حماية الخليفة، والمحافظة على سلامته، في حله وترحاله، وتنفيذ أوامره. ومن الجدير بالذكر أن جميع رؤساء حرس عبد الملك كانوا من الموالي وبخاصة من موالي الخليفة نفسه، ويبدو أن ذلك راجع إلى طبيعة أعمال هؤلاء المرتبطة دوماً بالخليفة، والتي تستوجب أن يكونوا موضع ثقة الخليفة للاطمئنان على سلامته، وكان الخليفة ينتقل في مدن بلاد الشام، ونظم إقامته على هذا الأساس، فلم يكن يقيم بدمشق طوال العام، بل كان يشتو بالصَّنبرة من الأردن، وإذا انتهى الشتاء نزل الجابية، وفرّق الأرزاق على أصحابه، فإذا مضت أيام من اذار دخل دمشق، حتى إذا اشتد

---

(1) الإصلاحات المالية ، ص 153.

(2) عيون الأخبار (16/1).

(3) الإصلاحات المالية ، ص 191.

(4) المصدر السابق نفسه ، ص 192.

(5) المصدر السابق نفسه.

(6) المصدر السابق نفسه، ص 193.

الحر أتى بعلبك فقام بها حتى تهيج رياح الشتاء فيرجع إلى دمشق، فإذا اشتد البرد خرج إلى الصنبرة[1] ، وهذه التنقلات كانت تخضع لنظام حراسة مشدد، ومن أراد التفصيل فليراجع كتاب (الشرطة في العصر الأموي)، للدكتور أرسن موسى رشيد.

* * *

(1) الإصلاحات المالية ، ص 194.

المبحث السادس

العلماء والشعراء في عهد عبد الملك بن مروان

أولاً: العلماء:

اختلف موقف العلماء من عبد الملك؛ فهناك من خرج عليه، كعبد الرحمن بن أبي ليلى، وسعيد بن جبير، وهناك من ابتعد عنه والتزم بالبيعة؛ كالحسن البصري وغيره، وهناك من كان قريباً منه ناصحاً له كقبيصة بن أبي ذؤيب، وقد اخترت مجموعة من العلماء ممن كانت لهم قربة ومنزلة من عبد الملك، أو نصحوه أو ذكّروه.

ولم يكن عبد الملك بعيداً عن أجواء العلماء وطلاب العلم، فقد كان في المدينة في مقتبل شبابه مشمراً في طلب العلم، وعرف عنه أنه كان يلزم المسجد ولا يكاد يبرحه حتى سمي حمامة المسجد لعبادته، وطول انقطاعه للدراسة، مقبلاً على طلب العلم مجلاً لشيوخه، ولما كان متوقد الذكاء، شديد الفطنة، قوي الذاكرة، فقد وعى كل ما سمع منهم، وأتقنه؛ لمجالسته لهم[1]، وهذا أكسبه قدرة بحيث صار حجة في المعارف الدينية؛ كقراءة القران التي كان يطيل في تلاوتها بالمدينة[2]، كما كان يحضر دراسته بدمشق[3] ، وعرف بروايته للحديث وإن كان مقلاً[4] ، على الرغم من أنه كان ثقة فيما رواه[5]، وروايته مثبتة في الصحيحين البخاري ومسلم[6]، وكان فقيهاً من الفقهاء، ومن أهل العلم بالمغازي والسير[7]، وأخبارياً له علم واسع بأحاديث العرب واثارهم في الجاهلية والإسلام، كثير المحاورة لرواة وسادة القبائل، ونسّابة له معرفة دقيقة بأنساب العرب وبخاصة أنساب قريش[8] ، ولذلك كان عارفاً بنفسية العلماء، قادراً على التعامل معهم، ومن أشهر العلماء الذين احتك بهم أو كانت له مواقف وعظ أو تذكير له، هم:

([1]) أنساب الأشراف؛ نقلاً عن تجديد الدولة الأموية ، ص 290.

([2]) تهذيب التهذيب (422/6)؛ شذرات الذهب (97/1).

([3]) البداية والنهاية؛ نقلاً عن تجديد الدولة الأموية ، ص 290.

([4]) الطبقات (226/5)؛ تهذيب التهذيب (422/6).

([5]) تهذيب التهذيب (423/6).

([6]) المصدر السابق نفسه.

([7]) تجديد الدولة الأموية ، ص 291.

([8]) المصدر السابق نفسه.

1 . قبيصة بن ذؤيب:

نشأ قبيصة في المدينة، وكان في عداد علمائها، ولكنه انتقل إلى الشام بجانب عبد الملك وأصبح من خاصته، واختاره عبد الملك لعلاقته القديمة به في المدينة، ولما يتمتع به قبيصة من روح مرنة تراعي الأحوال، وتقدر المواقف، وتوازن بين المصالح، وصاحب هذه الروح هو القادر على الصبر والقرب من الخلفاء والسلاطين، وهو من يرغب الخلفاء في تقريبه عادة.

ومن المواقف التي ظهرت فيها هذه الروح عند قبيصة ما ذكره ابن سعد في طبقاته، حيث ذكر أن الصحابي الجليل جابر بن عبد الله رضي الله عنهما دخل على عبد الملك وقربه، فقال جابر: يا أمير المؤمنين ! إن المدينة حيث ترى، وهي طيبة سماها النبي عليه الصلاة والسلام، فأهلها محصورون، فإن رأى أمير المؤمنين أن يصل أرحامهم ويعرف حقهم فعل، قال: فكره ذلك عبد الملك وأعرض عنه، وجعل جابر يلح عليه حتى أومأ قبيصة إلى ابنه ـ وهو قائده، وكان جابر قد ذهب بصره ـ أن أسكته، قال: فجعل ابنه يسكته، قال جابر: ويحك ! ما تصنع بي؟ قال: اسكت، فسكت جابر، فلما خرج أخذ قبيصة بيده فقال: يا أبا عبد الله ! إن هؤلاء القوم صاروا ملوكاً. فقال جابر: أبلِ الله بلاءً حسناً، فإنه لا عذر لك وصاحبك يسمع منك. قال: يسمع ولا يسمع، وما وافقه سمع، وقد أمر لك أمير المؤمنين بخمسة الاف درهم، فاستعن بها على زمانك، فقبضها جابر[1] .

فمن هذا الموقف يتضح كيف أدرك قبيصة عدم رضا الخليفة عن فتح هذا الموضوع معه من قبل جابر، وكيف أنهى الموضوع حتى لا يتطور إلى ما لا تحمد عقباه للطرفين، فأشار على ابن جابر بإيقاف والده عن الكلام، ثم يطيب خاطر جابر بأخذه بيده، والاعتذار إليه بألا يستغرب هذا التصرف من عبد الملك، فلا يتعامل معه على أنه عبد الملك العالم، وإنما على أنه عبد الملك الذي صار ملكاً ينظر إلى الأمور من نافذة الملك ومصالحه، ثم هو يعتذر لنفسه عندما وجه جابر اللوم له بأنه ليس له عذر في عدم المطالبة بحقوق أهل المدينة ما دام له هذه المكانة عند عبد الملك، لأن الأمر ليس كما يتصور جابر وغيره بأنه قادر على تحقيق كل ما يريده من عبد الملك بل الواقع أنه يُسمع ولا يسمع، وفي هذا دليل على مراعاة قبيصة للأحوال والأشخاص[2] .

أ . مكانته من عبد الملك:

([1]) الطبقات (231/5).

([2]) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية ، ص 124.

جمع قبيصة عدداً من المهام في عهد عبد الملك، وتعددت مسميات مهامه عندهُ، فيذكر ابن سعد[1] ، وابن عساكر، وابن عبد الهادي: أن قبيصة كان على الخاتم والبريد، وأما الذهبي، فقد ذكر هذه المهام السابقة وأضاف أخرى؛ حيث ذكر أنه كان كاتباً لعبد الملك، ووصفه بأنه الوزير[2] . وكان يدخل على عبد الملك طروقاً[3]، وأن عبد الملك تقدم إلى حاجبه فقال: لا يحجب قبيصة أي ساعة جاء من ليل أو نهار إذا كنت خالياً أو كان عندي رجل واحد، أو كنت عند النساء، أدخل المجلس، ثم أعلمت مكانه. وكانت تأتيه الأخبار قبل عبد الملك، فيقرأ الكتب قبله ثم يأتي بها منشورة إلى عبد الملك فيقرأها إعظاماً لقبيصة[4] ، فكان قبيصة بهذا وزيراً لعبد الملك ومستشاراً له وساعده الأيمن في إدارة الدولة وتصريف شؤونها، وكان ملازماً له في سفره وإقامته[5] .

ب . موقف قبيصة من محاولة عبد الملك خلع أخيه عبد العزيز:

كان مروان بن الحكم قد عقد ولاية العهد لابنيه عبد الملك ومن بعده عبد العزيز[6] ، وبعد وفاة مروان تمت البيعة بالخلافة لعبد الملك وبولاية العهد لأخيه عبد العزيز بن مروان من قبل المؤيدين لبني أمية، ثم تأكدت تلك البيعة من الأمة بعد مقتل ابن الزبير ونهاية سلطانه، ولكن عبد الملك بعدما استقرت له الأمور، وتذوق حلاوة الملك في دنياه؛ رغب في استمرار الذكر له بعد الوفاة، لاسيما وقد رأى أن كل من ابنيه الوليد وسليمان قد

بلغ من الرشد مبلغه، وتحركت فيه عاطفة الأبوة تجاههما، وأحب أن يصرف ولاية العهد من بعده لهما دون أخيه عبد العزيز، وكان قد عزم على ذلك، إلا أن قبيصة بن ذؤيب نهاه عن ذلك، فقد أورد ابن سعد هذا الخبر:

قالوا: كان عبد الملك بن مروان قد همّ أن يخلع أخاه عبد العزيز بن مروان ويعقد لابنيه الوليد وسليمان بعده بالخلافة، فنهاه قبيصة بن ذؤيب وقال: لا تفعل هذا؛ فإنك تبعث عليك خرّاجاً نعاراً[7] ، ولعل الموت يأتيه فتستريح منه، فكف عبد الملك عن ذلك ونفسه تنازعه أن يخلعه، فدخل عليه ليلة روح بن زنباع الجذامي وكان يبيت عند عبد الملك، وكان أحلى الناس كلاماً عند عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين ! لو خلعته ما انتطحت

([1]) الطبقات الكبرى (234/5).

([2]) المصدر السابق نفسه.

([3]) أثر العلماء في الحياة السياسية ، ص 125.

([4]) الطبقات الكبرى (234/5).

([5]) المصدر السابق نفسه (230/5).

([6]) تاريخ خليفة ، ص 261.

([7]) النعار: العاصي ، والخراج: السعاء في الفتن

فيه عنزان، قال: ترى ذلك يا أبا زرعة؟ قال: إي والله، وأنا أول من يجيبك إلى ذلك، فقال: نصبح إن شاء الله، فبينما هو على ذلك، وقد نام عبد الملك بن مروان وروح بن زنباع إلى جنبه ؛ إذ دخل عليهما قبيصة بن ذؤيب.. فقال: اجرك الله يا أمير المؤمنين في أخيك. فقال: فهل توفي؟ قال: نعم. فاسترجع عبد الملك بن مروان ثم أقبل على روح فقال: أبا زرعة كفانا الله ما كنا نريد وما أجمعنا عليه[1] .

ومن خلال هذا الموقف لقبيصة يمكن أن نستشفَّ منهجه في التعامل مع عبد الملك كمشير ووزير، ويتمثل ذلك المنهج في صدقه في النصيحة ومراعاة المصلحة العامة للأمة والدولة، فهو لم يجامل عبد الملك بموافقته له فيما يودُّه ويهواه، بل دفعه إخلاصه لله وتقديره لمصلحة الأمة بعامة والبيت الأموي بخاصة أن يقول رأيه بصراحة وإن كان يعلم أنه يخالف ما في نفس عبد الملك ويضاد رغباته وعواطفه تجاه بنيه[2] .

جـ موقفه من محنة الإمام الجليل سعيد بن المسيِّب:

بعد وفاة عبد العزيز بن مروان عقد عبد الملك البيعة من بعده لابنيه الوليد وسليمان، وبعث إلى البلدان لأخذ البيعة لهما، ففي المدينة دعا واليها هشام بن إسماعيل المخزومي الناس إلى البيعة، فبايعوا إلا سعيد بن المسيب فإنه أبى وقال: أنظر، فضربه هشام وطاف به ثم سجنه وبعث إلى عبد الملك يخبره بما فعل[3] .

وكانت الرسائل تصل إلى قبيصة بن ذؤيب ويقرؤها قبل عبد الملك، فلما وصل كتاب هشام واطَّلع على ما فيه كان له موقف من تصرف هشام مع سعيد بن المسيب يصوِّر لنا ابن سعد هذا الموقف: ...

دخل قبيصة بن ذؤيب على عبد الملك بن مروان بكتاب هشام بن إسماعيل يذكر أنه ضرب سعيداً وطاف به، قال قبيصة: يا أمير المؤمنين ! يقتات عليك هشام بمثل هذا؟ يضرب ابن المسيب ويطوف به؟! والله لا يكون سعيد أبداً أمحل وألج[4] منه حين يضرب، سعيد لو لم يبايع ما كان يكون منه؟ ما سعيد مما يخاف فتقه ولا غوائله على الإسلام وأهله، وإنه لمن أهل الجماعة والسنة. وقال قبيصة: اكتب إليه يا أمير المؤمنين في ذلك. فقال عبد الملك: اكتب أنت إليه عني تخبره برأيي فيه ومخالفتي من ضرب هشام إياه. فكتب قبيصة إلى سعيد بذلك. فقال

([1]) الطبقات الكبرى (233/5 ، 234).

([2]) أثر العلماء في الحياة السياسية ، ص 136.

([3]) سير أعلام النبلاء ، للذهبي (230/4)؛ الطبقات (126/5).

([4]) المحل: المكر والكيد ، وماحله مماحلة ومحالاً: قاومه حتى تبين أيهما أشد. واللجاجة: الخصومة.

سعيد حين قرأ الكتاب: الله بيني وبين من ظلمني[1]، وكتب إلى والي المدينة كتاباً باسم عبد الملك: سعيد كان والله أحوج إلى أن تصل رحمه من أن تضربه، وإنا لنعلم ما عند سعيد شقاق ولا خلاف[2] .

ويتضح من هذا أثر قبيصة الكبير في صياغة موقف عبد الملك وقراره في مثل هذه القضايا المهمة والخطيرة، كما يظهر أثره الفعال في إطفاء الفتن وحسن معالجته لها معالجة تنمُّ عن بُعد نظره ومعرفته بعواقب الأمور من منطق إرضاء الله أولاً، ثم الحرص على مصلحة الأمة والدولة ثانية[3] .

د . محاولته إصلاح بطانة عبد الملك:

كانت له محاولات تستهدف إصلاح بطانة عبد الملك، وذلك بتقريب العلماء له وجعلهم ضمن جلسائه ليكثر بذلك سوادهم عنده ويكون تأثيرهم أقوى وأنفع، ومن ذلك محاولته تقريب الإمام الزهري إلى عبد الملك، فتسير بعض الروايات التي ذكرت صلة الزهري بعبد الملك: أن الزهري خرج من المدينة لما اشتد به ضيق ذات اليد وساءت أحوال أهله وليس له مورد، فرحل إلى الشام، وذكرت بعض الروايات أنه اتصل بقبيصة

وجالسه مدة قبل اتصاله بعبد الملك[4] ، وقد أكرم قبيصة الزهري وقال له: ائتني في المنزل، فلحق به الزهري، فلما بلغ منزله كساه ومنحه بغلة ومئة دينار وغلاماً[5] ، وعمل على تعريف عبد الملك بمكانة الزهري العلمية حتى أصبح من أصحابه، وفرض له العطاء، وتوطدت العلاقة بين الزهري وعبد الملك، وتكرر دخوله على عبد الملك بانتظام شأنه شأن أصحابه وجلسائه، ولكن حرص الزهري على العودة إلى المدينة لمواصلة طلب العلم وتولي مؤونة أهله وذويه جعله يرحل وينقطع عن عبد الملك، فكانت صلتُه هذه على يد قبيصة بدايةَ اتصال الزهري بخلفاء بني أمية بعد عبد الملك[6]. وقد عبَّر ابن سعد عن أثر قبيصة لتقريب الزهري لبني أمية بقوله: وهو الذي أدخل الزهري على عبد الملك بن مروان، ففرض له ووصله وصار من أصحابه[7] .

([1]) الطبقات (5/126 ، 127).

([2]) المصدر السابق نفسه (5/126)؛ أثر العلماء ، ص 140.

([3]) أثر العلماء في الحياة السياسية ، ص 141.

([4]) سير أعلام النبلاء (5/329).

([5]) المصدر السابق نفسه.

([6]) أثر العلماء في الحياة السياسية ، ص 143.

([7]) الطبقات (7/447).

وكان هذا من قبيصة حرصاً على مصلحة الزهري، كما كان همه إصلاح بطانة عبد الملك وتكثير سواد أهل العلم والصلاح في بلاطه، مما سيكونه له أثر في توجيه سياسة الدولة نحو الأصلح بالتأثير على عبد الملك من قبل جلسائه وبطانته[1].

وقال الذهبي عن قبيصة: الإمام الكبير، الفقيه، أبو سعيد الخزاعي. وعن الشعبي قال: كان قبيصة أعلم الناس بقضاء زيد بن ثابت. وعن ابن شهاب، قال: كان قبيصة بن ذؤيب من علماء هذه الأمة. وعن مكحول قال: ما رأيت أحداً أعلم من قبيصة. وقد توفي سنة 86 هـ، وقيل: 87 هـ، وقيل: سنة 88 هـ[2] .

2 . عطاء بن أبي رباح ونصيحته لعبد الملك:

دخل عطاء بن أبي رباح على عبد الملك وهو جالس على السرير وحوله الأشراف، وذلك بمكة في وقت حجه في خلافته، فلما بَصُر به عبد الملك قام إليه فسلم عليه وأجلسه معه على السرير وقعد بين يديه، وقال: يا أبا محمد! حاجتك؟ قال: يا أمير المؤمنين ! اتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار؛ فإنك بهم جلست هذا المجلس، واتق الله في أهل الثغور؛ فإنهم حصن المسلمين، وتفقد أمور المسلمين فإنك وحدك المسؤول عنهم، واتق الله فيمن على بابك فلا تغفل عنهم ولا تغلق دونهم بابك. فقال له: أفعل، ثم نهض وقام فقبض عليه عبد الملك وقال: يا أبا محمد ! إنما سألتنا حوائج غيرك، وقد قضيناها؛ فما حاجتك؟ فقال: ما لي إلى مخلوق حاجة، ثم خرج، فقال عبد الملك: هذا وأبيك الشرف، هذا وأبيك السؤدد[3] .

وكان بنو أمية في عهدهم يأمرون منادياً يصيح في الحج: لا يُفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح، فإن لم يكن عطاء، فعبد الله بن أبي نجيح[4]، وقد فاق عطاء أهل مكة في الفتوى[5]، وكان المسجد فراش عطاء عشرين سنة، وكان من أحسن الناس صلاة[6]، وكان معاشه صلة الإخوان ونيل السلطان[7] .

([1]) أثر العلماء ، ص 143.
([2]) سير أعلام النبلاء (282/4 ، 283).
([3]) المصدر السابق نفسه (84/5 ، 85).
([4]) المصدر السابق نفسه (82/5).
([5]) المصدر السابق نفسه.
([6]) المصدر السابق نفسه (84/5).
([7]) المصدر السابق نفسه.

ومن أقوال عطاء: إن من قبلكم كانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو أن تنطق في معيشتك التي لا بد لك منها، أتنكرون أن عليكم حافظين كراماً كاتبين، عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، أما يستحيي أحدكم لو نشرت صحيفته التي أملى صدر نهاره وليس فيها شيء من أمر اخرته[1] . وعن عطاء: إن الرجل ليحدثني بالحديث، فأُنصتُ له كأني لم أسمعه، وقد سمعته قبل أن يولد[2].

وعطاء هذا الذي كان مرجع الأمة في موسم الحج كان أسود أعرج، أفطس، أعور، ثم أعمى من الموالي، فهذا الذي تجمعت فيه كل العاهات الجسدية جعلته الحضارة الإسلامية رأس الفتوى في أقدس بقعة عند المسلمين في مكة، فضلاً عن كونه من أشهر علماء الحجاز الذين يستقطبون طلبة العلم من مختلف أرجاء المعمورة[3] .

3 . يزيد بن الأصم وإجابته لعبد الملك:

سأل عبد الملك يزيد بن الأصم عن معنى قوله تعالى:

{ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾} [سورة القصص:83] فأجاب بكل صراحة بقوله: التجبر في الأرض، والأخذ بغير الحق . أي: من العلو والفساد في الأرض . فنكس عبد الملك برأسه، وجعل ينكت في الأرض، وكان إطراق عبد الملك وتنكيسه لرأسه حياء من يزيد لإدراكه أنه المعني لذلك بالتوجيه[4] .

ثانياً: عبد الملك والشعر والشعراء:

كان عبد الملك بن مروان راوياً للشعر، ناقداً له، كثير الاستشهاد به في كثير من المناسبات، يكثر من الأسئلة والمحاورة منه في مجلسه، عن اهتمامه بمعانيه، كما كان يعلم خطورته في التأثير الإعلامي في كسب الأنصار والهجوم على خصومه، ولذلك اهتم بالشعراء اهتماماً كبيراً، ووظفهم لمدحه ودولته وبني أمية، ولم يبخل عليهم بالعطاء، ولذلك كان كبار شعراء عصره من الأمويين؛ مثل: الأخطل، والفرزدق، وجرير، وغيرهم، كما أنه عمل على كسب

(1) المصدر السابق نفسه (86/5).

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) رعاية الفئات الخاصة ، ص 9.

(4) تاريخ دمشق؛ نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية ، ص 275.

خصومه ؛ حتى إنهم مدحوه بعد أن هجموا عليه بقصائد قوية في سبه وذمه؛ مثل: عبيد الله الرقيات، وإليك شيء من شعر شعراء الدولة الأموية:

1 . الأخطل:

هو غياث بن غوث التغلبي النصراني، شاعر زمانه، وقد قيل للفرزدق: من أشعر الناس؟ قال: كفاك بي إذا افتخرت، وبجرير إذا هجا، وبابن النصرانية إذا امتدح[1] ، وكان عبد الملك بن مروان يجزل عطاء الأخطل، ويفضله في الشعر على غيره[2]، فقد كان شاعر الدولة الرسمي الذي أكثر من مدح خلفائها، والدعاية لها، والترويج لسادتها نحو ربع قرن[3] ، ومن مدحه في بني أمية:

تمَّتْ جدودُهُمُ واللهُ فضَّلهُمْ	وجَدُّ قومٍ سواهُمْ خاملٌ نَكِدُ
وأنتُمُ أهلُ بيتٍ لا يوازنُهُم	بيتٌ إذا عدتِ الأحسابُ والعددُ[4]

ومن شعره المتميز في بني أمية قوله:

حشدٌ على الحقِّ عيَّافو الخَنَا أُنُفٌ	إذا ألمتْ بهمْ مكروهةٌ صبرُواُ
شمسُ العداوةِ حتى يستقادَ لهمْ	وأعظمُ النَّاسِ أحلاماً إذا قدرُوا[5]

وكان كثير المديح لعبد الملك والتنويه بصلاح السياسة في عهده؛ كقوله:

ت إلى إمام تغدينا فواضلُه	أظفرَه اللهُ فليهنأْ لَهُ الظَّفَرُ
الخائضُ الغَمْرَ والميمونُ طائرُه	خليفةُ اللهِ يُسْتَسْقَى به المطرُ
والمستمرُّ بهِ أمرُ الجميعِ فَمَا	يغتره بعدَ توكيدٍ له غررُ

([1]) سير أعلام النبلاء (589/4).

([2]) المصدر السابق نفسه.

([3]) أدب السياسة في العصر الأموي ، ص 492.

([4]) ديوان الأخطل ، ص 174.

([5]) الشعر والشعراء ، لابن قتيبة (495/1).

نفســـي فـداءُ أميرِ المؤمنينَ إذا أبـدَى النَّواجِزَ يومـاً عـارمٌ ذَكَرُ[1]

وعُرف الأخطل بأنه يعاود شعره بالتنقيح والصقل، حتى لقد قالوا: إنه كان ينظم القصيدة تسعين بيتاً، ثم يضرب عن ستين ويبقي ثلاثين، وهذا هو السبب في جودة تعبيره، وندرة سقطه، وهو بهذا يشبه المنقحين القدماء، مثل: زهير والحطيئة وأضرابهما، مما سماهم الأصمعي عبيد الشعر[2] . ومن أحسن ما قال من الشعر قوله:

والنـاسُ همُّهُم الحيـاةُ ولا أرَى شمسُ طولَ الحيـاةِ يـزيـدُ غـيرَ خَبَـالُ

وإذا افتقرتَ إلى الـذَّخَـائرِ لم تَجِـدْ ذُخْراً يكونُ كصـــالحِ الأَعْمَـالِ[3]

2 . الفرزدق:

هو همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن مجاشع[4]، وكان ممن مدح بني أمية، وقال في عبد الملك بن مروان:

فـالأرضُ للهِ ولاّهـا خـلـيـفَـتَـهُ وصـــاحـبُ اللهِ فيهـا غيرُ مغلوبِ

بعدَ الفســـادِ الذي قَدْ كان قامَ بِهِ كـذَّابُ مَكَّـةَ مِنْ مكرٍ وتخريـبِ

راموا الخلافـةَ في غـدرٍ فـأخطـأَهُمْ منهـا صـــدورٌ وفـازوا بالعراقيـبِ

والنـاسُ في فتنـةٍ عميـاءَ قَـدْ ترَكَـتْ أشـــرافَـهُم بـينَ مقـتولٍ ومحروبِ

دعوْا ليســتخلف الرحمنُ خيرَهُمُ واللهُ يســمعُ دعْوى كـلَّ مكروبِ

فـأصـــبحَ اللهُ ولَّى الأمـرَ خيرَهُـمُ بعدَ اختلافٍ وصـدعٍ غيرِ مشـعوبِ

تراثُ عثمـانَ كـانوا الأوليـاءَ بِـهِ سـربالَ ملكٍ عليهم غيرَ مسـلوبِ[5]

وكان للفرزدق أخٌ شاعر، وهو هميم، وهو القائل:

عـمرُ أبيـكَ فــــلا تكـذبَن لـقـدْ ذهـبَ الخـيرُ إلا قـلـيـلا

وقـد فُـتِنَ الـنـاسُ في ديـنـهِـم وخلَّى ابنُ عفـانَ شـــرّاً طويلا[6]

([1]) عارم ذكر: نكبة شديدة وأذى مهلك. أدب السياسة ، ص 500.

([2]) أدب السياسة في العصر الأموي ، ص 501.

([3]) سير أعلام النبلاء (590/4).

([4]) الشعر والشعراء (471/1).

([5]) أدب السياسة في العصر الأموي ، ص 149؛ الديوان (25/1).

([6]) الشعر والشعراء (472/1).

3 . جرير:

هو جرير بن عطية بن الخطفي التميمي البصري، مدح خلفاء بني أمية، وشعره مدوَّن[1] ، وقد مدح عبد الملك ووصفه بأنه ركن الدين، والحفيظ على أحكام الشرع، ولولاه ما اجتمع المسلمون في صلواتهم في المساجد في الجمع، ثم يصفه بأنه أمين الله، والمبارك الذي يهدي به الله عباده، ويقول: إن أوامره ميمونة مطاعة، وإن الله فضل بني أمية على غيرهم من أهل البدع، يريد الأحزاب المعادية لبني أمية[2] ، حيث قال:

لـولا الخـلـيـفـةُ والـقـرانُ يـقـرَؤه	مـا قـامَ للنَّـاسِ أحكـامٌ ولا جُمَعُ
أنـتَ الأمينُ أمينُ اللهِ لا سـرفٌ	فيمـا وليـتَ ولا هيـابـةٌ وَرِعُ[3]
أنـتَ المبـاركُ يهـدي اللهُ شـيعَتَـهُ	إذا تـفـرقـتِ الأهـواءُ والشِّـيَـعُ
فكـلُّ امرأًى على يُمنٍ أمرتَ بِـهِ	فينـا مطـاعٌ ومهمـا قلـتَ يسـتمعُ
يا الَ مـروانَ إن اللهَ فضَّـلـكـم	فضلاً عظيماً على مَنْ دينُهُ البِدَعُ[4]

ومدح عبد الملك بقصيدة جاء فيها:

سـأشـكرُ إن رددتَ عليَّ ريشِـي	وأنـبـتَّ الـقـوادمَ مـن جـنـاحِـي
ألسـتُم خيرَ من رَكِـبَ المطـايا	وأنْـدى الـعـالمـين بُـطُـونَ راحِ

فقال عبد الملك: من مدحنا فليمدحنا بمثل هذا أو ليسكت، ووهبه مئة ناقة، فسأله الرعاء، فوهبه ثمانية أعبد، ورأى صحاف ذهب بين يديه فقال: يا أمير المؤمنين والمحلب[5] ، وأشار إليها، فنحاها إليه بالقضيب، وقال: خذها لا نفعتك[6].

وكان في جرير على هجائه للناس عفة ودين، وحسن خلق، ورقة طبع، اتفق علماء الأدب وأئمة نقد الشعر،

([1]) سير أعلام النبلاء (591/4).

([2]) أدب السياسة في العصر الأموي ، ص 147 ، 148.

([3]) سرف: متجاوز الحد. ورع: جبان.

([4]) ديوان جرير ، ص 355.

([5]) المحلب: الإناء.

([6]) شذرات الذهب (57/2).

على أنه لم يوجد في الشعراء الذين نشؤوا في ملك بني أمية أبلغ من جرير والفرزدق والأخطل، وإنما اختلفوا في أيهم أشعر[1] .

وإن لجرير في كل باب من الشعر أبياتاً سائرة، هي الغاية التي يضرب بها المثل:

أ . فيقال: إن أغزل شعر قالته العرب هو قوله:

إنَّ العيونَ التي في طَرْفِهَا حَوَرٌ   قتلْنَنَا ثمَّ لمْ يُحْيينَ قَتْلانا

يَصْرَعْنَ ذا اللُّبِّ حتى لا حِراكَ به   وهُنَّ أضعفُ خَلْقِ اللهِ إنسانا

ب . أفخر بيت قوله:

إذا غضبتْ عليكَ بنو تميمٍ   رأيتَ النَّاس كلَّهُمُ غِضَابَا

جـ أهجى بيت مع التصوُّن عن الفحش قوله:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنكَ مِنْ نُمَيْرٍ   فلا كَعْباً بلغْتَ ولا كِلابا

د . أصدق بيت قوله:

إِنِّي لأرجو منكَ خيراً عاجلاً   والنفسُ مولعةٌ بحبِّ العاجِلِ

هـ أشد بيت تهكماً قوله:

زَعَمَ الفرزدقُ أن سيقتلُ مِرْبَعاً   أَبْشِرْ بطولِ سلامةٍ يا مِرْبَعُ[2]

ومن جيد شعره قوله من قصيدة يرثي به امرأته:

لولا الحياءُ لهاجني استعبارُ   ولزرتُ قبرَكِ والحبيبُ يُزارُ

ولقد نظرتُ وما تمتّع نظرة   في اللَّحْدِ حيث تمكنَ الإحفارُ

([1]) جواهر الأدب (151/2).

([2]) المصدر السابق نفسه (152/2).

وَلَّهْتِ قلبي إذ علتني كبرةٌ   وذوو التمائمِ من بَنِيكِ صِغارُ
لا يلبثُ القرناءُ أن يتفرَّقوا   ليلٌ يكرُّ عليهِمُ ونهارُ[1]
صلى الملائكةُ الذين تخيَّروا   والطيّبون عليكِ والأبرارُ
فلقد أراكِ كسيتِ أحسنَ منظرٍ   ومع الجمالِ سكينةٌ ووَقَارُ
كانت إذا هَجَرَ الحبيبُ فِرَاشَها   خُزِنَ الحديثُ وعَفَّتِ الأَسرارُ[2]

وكان قد افتخر على الأخطل في قصيدة، وبيَّن أن عبد الملك ابن عمه، ولو شاء ساق إليه قبيلة الأخطل؛ حيث قال:

إنَّ الذي حَرَمَ المكارمَ تغلباً   جعلَ النبوَّةَ والخلافةَ فينا
هل تملكونَ من المشاعرِ مشعراً   أو تشهدونَ مَعَ الأذان أذينا؟
مضرٌ أبي وأبو الملوكِ فَهَلْ لكم   يا خُرزَ تغلبَ من أبٍ كأبينا
هذا ابنُ عمِّي في دمشقَ خليفةٌ   لو شئتُ ساقكُمُ إليَّ قطينا[3]

قال الذهبي عن جرير: كان عفيفاً منيباً، توفي سنة 110 هـ بعد الفرزدق بشهر[4] .

4 . الراعي:

من كبار الشعراء، وهو أبو جندل، عبيد بن حصين النُّميري، وإنما لقب بالراعي لكثرة ما يصف الإبل في شعره، وقد امتدح عبد الملك[5] ،

وانضم إلى الفرزدق على جرير، فقال فيه جرير قصيدته المشهورة التي صارت وبالاً على بني نمير:

أقلِّي اللومَ عاذلَ والعِتَابا   وقولي إنْ أصبتُ لقَدْ أَصَابا

([1]) المصدر السابق نفسه.
([2]) الشعر والشعراء (491/1).
([3]) القطين: العبيد والإماء في هذا الموضع.
([4]) سير أعلام النبلاء (591/4).
([5]) المصدر السابق نفسه (598/4).

وفيها يقول له:

فغضَّ الطرفَ إنَّكَ من نُمَيْرٍ ... فلا كعباً بلغْتَ ولا كِلابا

وأهم ما بقي للراعي لاميته التي مدح بها عبد الملك بن مروان، ويشكو له العريف أو الجابي، ويرجو التخفيف عن قومه، ويتبرأ من الخوارج النجدية والزبيريين، ويعد نفسه بذلك مخلصاً للأمويين[1] ، ويبدو الراعي كان أموياً لأجل قومه ورغبة في عبد الملك أن يرفع عن قومه ظلم الجباة، ومن شعر الراعي لعبد الملك:

إنّي حلفتُ على يمينٍ برَّةٍ ... لا أكذبُ اليومَ الخليفةَ قِيلا

ما إنْ أتيتُ نُجيدةَ بنَ عُوَيمرٍ ... أبغي الهُدى فيزيدُني تَضْلِيلا[2]

إلى أن قال في رواية أخرى:

أخليفةُ الرَّحْمنِ إنا معشرٌ ... حُنفاءُ نسجدُ بكرةً وأصيلا

عُربٌ نرى للهِ في أموالِنا ... حقَّ الزَّكاةِ منزَّلاً تنزيلا

إنَّ السُّعاةَ عَصَوْك يوم أمرتَهُمْ ... وأتوا دواهيَ لو علمتَ وغُولا[3]

أخذوا العَريفَ فقطَّعوا حَيْزومَه ... بالأصْبَحِيَّةِ قائماً مَغْلولا[4]

إنَّ الذينَ أمرتَهُم أن يعدِلوا ... لمْ يفعلوا ممَّا أمرتَ فتيلا

فادفعْ مظالمَ عيَّلَتْ أبناءَنا ... عنَّا وأنقِذْ شِلْوَنَا المأْكولا[5]

هؤلاء من أشهر شعراء عهد عبد الملك، وكان يهتم بهم ويسمع لهم ويجزل لهم في العطاء، وكسبهم في صفّه، وأصبحوا من أبرز المدافعين عن الخليفة ودولته، وكان لا يتورع عن دفع الأموال للشعراء ما داموا يمدحون ويبجلون خلفاء بني أمية.

* * *

([1]) تاريخ الشعر السياسي ، ص 371.

([2]) طبقات فحول الشعراء (508/2).

([3]) الغول: الهلكة والداهية.

([4]) العريف: شيخ القبيلة. حيزومه: وسطه. الأصبحية: جمع أصبحي؛ وهو السوط ، نسبة إلى ذي أصبح وهو ملك يمني.

([5]) عيَّلت: أجاعت. شلو: عضو. أدب السياسة في العصر الأموي ، ص 172.

الفصل الثامن

الفتوحات الإسلامية في عهد عبد الملك والوليد وسليمان

وتجدر الإشارة إلى أننا في هذا الفصل سوف نجمع الفتوحات في عهد عبد الملك والوليد وسليمان؛ لكي نعطي صورة متكاملة عنها بسبب ترابطها ببعضها.

المبحث الأول

الفتوحات في بلاد الروم

في أواخر عام 73 هـ شعر عبد الملك أن الدولة استعادت قوتها، وأنها تستطيع أن تستأنف جهادها وتعلي إرادتها، وكانت العلاقات قد ساءت بين دولة الروم والدولة الإسلامية في هذه الفترة، وأخذ الروم يتأهبون للانتقاض، فكان عبد الملك لهم بالمرصاد وقد أحكم إعداده، فعين أخاه محمد بن مروان والياً على الجزيرة وأرمينية ليكون القائد في هذه الجبهة، ومنع عبد الملك إرسال النقود التي كان يدفعها وقت الضرورة، فأثارت هذه حنق الإمبراطور الروماني البيزنطي، فأعلن الحرب، وقدم بجيش كبير ليغزو المسلمين من ناحية أرمينية، فلاقاه محمد بن مروان بجيشه ودارت موقعة عنيفة هزم فيها الروم على كثرة عددهم هزيمة شنيعة، وفرَّ الإمبراطور بنفسه وانفض عنه أكثر جنوده، وكان ذلك عام 74 هـ، فزعزعت هذه الوقعة الدولة البيزنطية(1) .

واستغل عبد الملك هذا النصر وواصل ضغطه على الدولة البيزنطية عبر الحدود، وانتظمت غزوات الصوائف والشواتي، وشرع في التوغل داخل الأراضي البيزنطية القريبة، فكانت الصوائف تخرج بانتظام للإغارة على هذه الأراضي يقودها محمد بن مروان أو غيره من أمراء بني أمية.

وفي عام 81 هـ بعث عبد الملك ابنه عبد الله بن عبد الملك ففتح «قاليقالا»؛ وهي إحدى مدن الروم الكبيرة، وفي عام 84 هـ تمكن عبد الله بن عبد الملك من فتح مدينة أخرى رئيسة داخل دولة الروم في اسية الصغرى، وهي مدينة (المصيصة) فبنى حصنها، ووضع بها حامية من ثلاثمئة مقاتل من ذوي البأس، ولم يكن المسلمون يسكنوها من قبل، وبنى مسجدها.

وهكذا اندفعت قوة المسلمين إلى الإمام، تفتح المعاقل وتستولي على الحصون داخل أرض العدو في دولة الروم، منذ تحققت الوحدة في عهد عبد الملك(2) .

ولقد أثبت عبد الملك بعد إعادة الوحدة السياسية أن الدولة وأن قوّتها الموحدة قادرة على التفوّق وإحراز السيادة، وتحقيق النصر على البيزنطيين، وأن قوتها الموحدة قادرة على الاندفاع في الجبهات كافة(3) ، واستمرت الجيوش

(1) عبدالملك بن مروان ، محمد ضياء الدين الريس ، ص 208.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 209.

(3) تجديد الدولة الأموية ، ص 149.

الإسلامية في جهادها طوال مدة الوليد ثم سليمان، وقد برز مسلمة بن عبد الملك في تلك الحروب كقائد فذ، ومقاتل عظيم، فكان في كل سنة يفتح بلداً أو حصناً من الحصون العظيمة التي أقامها الروم لتأمين سلامة بلادهم والمحافظة عليها من غارات الأعداء، وكان يغزو معه هذه الغزوات ـ في عهد الوليد ـ وفتح هذه الفتوح العباس بن الوليد بن عبد الملك، ومن الحصون التي فتحها: حصن عمورية وهرقلية وقمونية، وحصن طوانة وسمطية والمرزبانين وطروس، وكثير غير هذه الحصون[1] .

ففي جمادى الآخرة سنة (88 هـ 707 م) فتح مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد حصن طوانة وشتوا بها، وهزم المسلمون الأعداء حتى صاروا إلى كنيستهم، ثم رجعوا فانهزم الناس، وبقي العباس ومعه نُفير، منهم ابن محيريز الجُمحي، فقال العباس لابن محيرز: أين أهل القران الذين يريدون الجنة؟ فقال ابن محيريز: نادِهِمْ يأتوك. فنادى العباس: يا أهل القران، فأقبلوا جميعاً فهزم الله العدو حتى دخلوا طوانة[2] . وهكذا لا تمر سنة وإلا ويغزو المسلمون أرض الروم ويستولون على بعض حصونهم ومعاقلهم.

ومن الجدير بالذكر: أن معظم الذين كانوا يقودون هذه الحملات هم من أبناء البيت الأموي، أولاد الخليفة الوليد نفسه وأخوه مسلمة الذي لم يكد يتخلف سنة واحدة عن غزو أرض الروم، وهذا أمر له مغزاه؛ فقد كان مسلمة هو الذي قاد الجيش الذي حاصر القسطنطينية الحصار الأخير في عهد سليمان ـ كما سنذكر قريباً بإذن الله ـ ومعنى هذا أن اشتراكه المستمر في غزو بلاد الروم كان مقصوداً ليزداد معرفة وخبرة بالطرق والمسالك إلى عاصمة البيزنطيين، التي كانت إحدى الأهداف الرئيسة من هذه الغزوات[3] .

أولاً: البيزنطيون يرصدون تحركات المسلمين العسكرية:

من الطبيعي أن تكون عيون البيزنطيين دائماً مفتوحة على حدودهم مع المسلمين، فجبهة الحدود دائماً ملتهبة، والغزو الإسلامي لا يكاد يتوقف، ولكي يتأكد البيزنطيون من نوايا المسلمين وأهدافهم من وراء هذا النشاط العسكري المستمر، أرسل الإمبراطور البيزنطي أنسطاس (713 ـ 716 م) سفارة إلى دمشق لتستطلع الأخبار عن كثب، وتعرض على الخليفة الوليد مشروع عقد هدنة بين الدولتين، ولما وصلت السفارة البيزنطية إلى دمشق، شاهدت عظمة المسلمين في عاصمتهم، ونشاط الخليفة في إعداد الجيوش لتوجيهها إلى القسطنطينية، وعاد السفير

---

(1) الأمويون بين الشرق والغرب (420/1).

(2) تاريخ الطبري (334/7).

(3) العالم الإسلامي في العصر الأموي ، ص 256.

إلى الإمبراطور يؤكد صدق عزيمة المسلمين على الجهاد، وينصح بضرورة اتخاذ الاحتياطات اللازمة للدفاع عن العاصمة، فأخذ أنسطاس برأي سفيره، وأعلن في القسطنطينية أخبار الحملة الإسلامية المنتظرة، وأمر كل فرد أن يخزن لنفسه مؤونة تكفيه ثلاث سنوات، وأن يخرج من المدينة كل معوز وغير قادر على تدبير مؤونته، ثم ملأ الخزائن الإمبراطورية بكميات كبيرة من القمح وغيره من الحاجيات التي يتطلبها المدافعون عن المدينة، واهتمَّ كذلك بتجديد أسوار المدينة لاسيما الجهات المطلة منها على المياه، حيث كان التداعي قد دبَّ فيها، ووضع على الأسوار البرية كل الالات الحربية من المجانيق وغيرها من وسائل الدفاع[1] ، وبينما يمضي الخليفة الوليد في استعداداته للزحف على عاصمة البيزنطيين إذ وافته منيته سنة 96 هـ، فخلفه أخوه سليمان ليواصل جهوده في هذا الميدان [2] .

ثانياً: سليمان بن عبد الملك وحصاره للقسطنطينية:

يبدو أن اهتمام الخلفاء بفتح القسطنطينية، إنما يرجع لرغبتهم الشديدة في أن يكونوا المقصودين بقوله عليه الصلاة والسلام: «لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش»[3]، ويضاف إلى ذلك رغبة سليمان الشديدة، في وضع حد للهجمات البيزنطية المتكررة على الشواطئ الشامية والمصرية، والتي من شأنها بث حالة من عدم الاستقرار في تلك النواحي، وبالتالي المساس بسيادة الدولة الإسلامية، فقد هاجم البيزنطيون ساحل جند حمص، وسبوا (امرأة وجماعة)، وللمرأة فيهم ذكر إذ ذاك، فغضب سليمان وقال: ما هو إلا هذا نغزوهم ويغزوننا، والله لأغزونهم غزوة أفتح فيها القسطنطينية، أو أموت دون ذلك[4] .

1 . الاستعداد للحملة:

شملت الاستعدادات للحملة معظم العالم الإسلامي، فقد ضمَّتْ الحملة البرية نحو مئةٍ وعشرين ألفاً من الشام والجزيرة والموصل، وضمت الحملة البحرية ألف مركب من أهل مصر وإفريقية[5] ، ويبدو أن تقدير المسلمين لحصانة القسطنطينية، وطول أمد الحرب، تقدير سليم وقوي، حيث إنهم أدركوا أن حصارها يتطلب قوات كبيرة ووقتاً طويلاً وأسلحة متنوعة، لذلك جمعوا: الات الحرب للصيف والشتاء، والمجانيق، والنفط وغير ذلك[6] .

([1]) الأمويون والبيزنطيون؛ نقلاً عن العالم الإسلامي ، ص 256.

([2]) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص 256.

([3]) مسند أحمد، رقم (1969).

([4]) الوافي بالوفيات (403/15)؛ خلافة سليمان بن عبد الملك ، ص 177.

([5]) البداية والنهاية؛ نقلاً عن خلافة سليمان بن عبد الملك ، ص 181.

([6]) خلافة سليمان بن عبد الملك ، ص 181.

2. سير الحملة:

تجاذبت قادة المسلمين العسكريين خطتين حول سير الحملة:

الأولى: طرحها موسى بن نصير، وفحواها: أن على المسلمين احتلال المدن والحصون التي دون القسطنطينية، لتجريدها من المواقع الحصينة المحدقة بمسالكها،

والتي قد تعيق حركة الجيش الإسلامي، ويستمر الأمر بهذه الخطة حتى تفتح القسطنطينية.

وأما الخطة الثانية: فطرحها مسلمة بن عبد الملك، والذي ارتأى أن اتباع خطة موسى، يحتاج إلى أمد بعيد جداً حتى يتحقق حصار القسطنطينية، وفتحها، لذلك أشار بضرورة التوجه مباشرة إلى القسطنطينية دون التعرض للمدن والحصون المحدقة بجانبي الطريق إلا ما كان ضرورياً.

ويبدو أن رأي مسلمة لقي قبولاً لدى الخليفة ومستشاريه العسكريين، لذلك تقرر سير الحملة حسب خطته[1] ، وسار سليمان من القدس إلى دمشق، ومضى حتى نزل دابق[2] ، وأقسم ألا ينتقل منها حتى يفتح القسطنطينية، فأقام بها[3] ، وفي سنة 98 هـ تحركت الحملة بقيادة مسلمة بن عبد الملك من سورية براً وبحراً باتجاه القسطنطينية، واستمر مسلمة في سيره، ووصلت الحملة البرية القسطنطينية عام 98 هـ، ووصلها الأسطول في عام 99 هـ، وضرب المسلمون الحصار على المدينة، وقاتلوا الروم قتالاً شديداً واستبسلوا في جهادهم، ورغم المصابرة التي استمرت قرابة سنة، فإن المحاولة فشلت وخسر المسلمون خسارة كبيرة في العدد والعدة[4] .

وقد وصفت المصادر الإسلامية الحالة السيئة التي آل إليها الجيش الإسلامي في الفترة الأخيرة من الحصار، فالفسوي يقول: وقد كان الناس لقوا جهداً من القسطنطينية من الجوع[5] ، ويقول الطبري: فلقي الجند ما لم يلق جيش، حتى إن كان الرجل ليخاف أن يخرج من العسكر وحده، وأكل الدواب والجلود وأصول الشجر والورق وكل شيء غير التراب[6] .

كما إن البيزنطيين داخل القسطنطينية كانوا في حالة سيئة أيضاً، ولعل من الشواهد التاريخية على ذلك ما يأتي:

---

(1) البداية والنهاية (632/12).

(2) المصدر السابق نفسه (633/12).

(3) تاريخ الطبري (433/7).

(4) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين ، ص 261.

(5) المعرفة والتاريخ (618/1).

(6) تاريخ الطبري (433/7).

أ . إن مخاطرة السفن البيزنطية في الخروج لجلب القمح من شواطأى البحر الأسود وخروج المراكب الصغيرة لجلب الطعام، وصيد الأسماك، دليل قوي على الضنك الاقتصادي عند أهل القسطنطينية بالرغم من انكسار حدة القتال.

ب . سعي البيزنطيين إلى عقد صلح مع مسلمة، حيث عرض بطريقُهم دفع دينار عن كل رجل محتلم في القسطنطينية؛ دليل اخر على سوء الأوضاع الداخلية.

جـ الصلح الذي تم إبرامه بين المسلمين والبيزنطيين، قبيل انسحاب الجيش الإسلامي، وتعهد البيزنطيون بموجبه بالمحافظة على المسجد الذي بناه مسلمة[1] .

3 . انسحاب الجيش الإسلامي:

لما مات سليمان بن عبد الملك تولى عمر بن عبد العزيز أمر الخلافة، فوجه إلى مسلمة وهو محاصر للقسطنطينية، وأمره بالقفول منها بمن معه من المسلمين، ووجه إليه خيلاً عتاقاً وطعاماً كثيراً وحث الناس على معونتهم، وكان عدد الخيل التي وجهها لمسلمة خمسمئة فرس[2] ، لأنه كان قد أصاب المسلمين مجاعة فقواهم بذلك[3]، وكان قرار عمر بن عبد العزيز بانسحاب مسلمة حصيفاً صائباً، لا لأنَّ عمر غير ميّالٍ إلى حروب الفتح والاستيلاء[4] ، بل لأنّ موقف المسلمين المحاصرين للقسطنطينية كان ميئوساً منه، فأمر بانسحابهم حقناً لدمائهم، بعد أن بلغ بهم الجهد[5] ، إذ لم يغفل عمر أبداً عن غزو الروم دفاعاً عن حدود أرض الشام الشمالية الغربية[6] .

لقد أحسن عمر بن عبد العزيز في قراره بانسحاب المسلمين عن القسطنطينية، لأن الموقف العسكري كان يتطلب إصدار مثل هذا القرار، ولو كانت كفة المسلمين راجحة في حينه لكان من المستحيل عليه الأمر بانسحاب المسلمين، ولكن ليس هناك مسوّغ للادعاء بأن عمر بن عبد العزيز غير ميال لحروب الفتح دون تمحيص للموقف العسكري الراهن[7] .

([1]) عيون المعارف ، للقضاعي ، ص 358.

([2]) تاريخ الطبري (457/7).

([3]) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية ، ص 256.

([4]) المصدر السابق نفسه.

([5]) خطط الشام (552/1).

([6]) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية ، ص 257.

([7]) المصدر السابق نفسه، ص 259.

4 . أسباب فشل الحملة:

أ . غدر وخيانة:

تناولت الأخبار غزوة القسطنطينية، وذكرت أن ليو حاكم ـ بطريق ـ عمورية اتصل بسليمان بن عبد الملك وحرّضه على حرب تيودوسيوس ـ تيدوس ـ، ووعد ليون سليمان أن يقف إلى جانب المسلمين ويسلِّمهم أرض الروم، وقيل: الذي عرض التحالف على الاخر هو سليمان بن عبد الملك، وقيل: مسلمة بن عبد الملك عرض ذلك أثناء حصار القسطنطينية، وهو يتظاهر أمام مسلمة أنه يحاول إقناعهم في النزول على رغبة مسلمة، وكان مسلمة حسب هذه الأخبار طلب إليهم ليرحل عنهم أن يملِّكوا حليفه ليو عليهم، وأما ليو فكان في حقيقة الحال يطلب الملك لنفسه، ويريد أن ينقذ البلد من خطر المسلمين، ولما اطمأن الأساقفة والبطارقة إليه وحلف لهم؛ انقادوا له واستوى له الأمر، فخرج إلى مسلمة وأشار عليه أن يحرق ما عنده من الطعام لييئسوا من المطاولة، ويصح عندهم عزم مسلمة على المناجزة فيعطوا ما بأيديهم، وقيل: أشار عليه أيضاً أن يأذن لأهل القسطنطينية لليلة واحدة أن يحملوا مما عنده من الغلال ليروا حسن رأيه فيهم، وأن أمره وأمر ليو واحد، وانطلت الخديعة على مسلمة وأطاع ليو. وأما ليو فقد استولى على الحكم وأعلن الحرب على مسلمة في الوقت الذي صار مسلمة في حال لا يحسد عليه من سوء الأحوال الجوية وقلة الميرة لجنده، حتى لقوا من الشدة ما لم يلقَ أحد قط، واضطروا إلى أكل الدواب والجلود والميتة وأصول الشجر وغير ذلك[1] .

وخلاصة القول: إن هذه الأخبار تلقي مسؤولية الفشل على عاتق مسلمة بن عبد الملك الذي كان عندها شجاعاً فحسب ولم يكن من ذوي الرأي والبصيرة في الحرب، ولم يكن له رأي فيها يرجع إليه[2] ، ولو صدقنا هذه الأخبار لكانت الدولة؛ أي: سليمان بن عبد الملك ابتداء، ومسلمة بن عبد الملك قائد الجيوش تالياً ربطا مصير فتح القسطنطينية ومصير الجند المسلمين هناك بوعود شخص هو ليو مظنة كذب وخديعة، وهو حال يتناقض واستعدادات الدولة في هذا الوجه[3] ، وقد علق الأستاذ محمود شيت خطاب على حصار القسطنطينية فقال: وإذا كان هناك ما يلام عليه مسلمة في معركة حصار القسطنطينية فهو عدم استفادته كما ينبغي من الصفة الأولى من صفات حصار القسطنطينية؛ وهي صفة (المبادرة) في التركيز بالهجوم على المدينة المحاصرة، وإدامة زخم الهجوم

([1]) أخبار القضاة ، لوكيع (213/3)؛ دراسة في تاريخ الأمويين ، ص 261.

([2]) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص 262.

([3]) المصدر السابق نفسه.

عليها أولاً، وثقته غير المحدودة بحليفه (ليو)؛ لأن الذي يخون بلاده وقومه أولى به أن يخون غير بلاده وغير قومه، فكانت هذه الثقة العمياء في هذا العميل لا مسوّغ لها ثانياً، فالحرب من القضايا المصيرية، ولابدّ من إدخال أسوأ الاحتمالات في كلِّ ما يؤثر في نتائجها من قريب أو بعيد[1] .

ب . ضراوة الشتاء:

بخصوص ضراوة الشتاء عام 99 هـ قيل: إن الثلج غطى وجه الأرض، وهلك فيه كثير مما كان مع المسلمين من الجمال والخيل والبغال، ولابدّ أن المسلمين في هذه الأحوال الجوية القاسية أتوا على أكثر ما كان معهم من الطعام، وأصبحوا في نقص من الميرة، وعضّهم الجوع، ولذلك قيل: استطاع ليو أن يفخر بأن ديسمبر (كانون الأول) ويناير (كانون الثاني) وفبراير (شباط) كانوا أعظم قواده[2] .

جـ مناعة أسوار المدينة وتحصيناتها الدفاعية:

أخذ حكام بيزنطة في تحصين أسوار القسطنطينية وتسليحها بالمجانيق، منذ علموا بعزم المسلمين على غزوها، وزادها ليو الذي تقلَّد الحكم فيها زمن الحصار تحصناً، وأمر حكام بيزنطة بتخزين الطعام بالقدر الذي يكفي أهلها لثلاث سنوات، ومنعوهم من أن يغادروها[3] .

د . استخدام سلاح جديد ضد المسلمين (النار الإغريقية):

استخدم البيزنطيون النار اليونانية، فأثرت في جيش المسلمين وكبّدتهم خسائر في الأرواح والسفن والمعدات، وتاريخ الحرب في جميع العصور يقرر أن من أهم أسباب عوامل النصر هو استخدام سلاح فتاك جديد لا يتوقعه الخصم، أو استخدام أسلوب قتالي جديد لا يتوقعه الخصم، أو استعمالهما معاً في الزمن والمكان المناسبين بشكل لا يتوقعه الخصم، وكل ذلك يباغت هذا الخصم ويربك قيادته وخطته المرسومة، والمباغتة كما هو معروف هي أهم مبادأى الحرب على[4]الإطلاق، ومن الإنصاف أن نضيف إلى عوامل انتصار الروم في الدفاع عن القسطنطينية عاملاً اخر هو: كفاية (ليو الثالث) المتميزة في القيادة، وتشبعه بمزية إرادة القتال[5] .

([1]) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية ، ص 261.

([2]) الحدود الإسلامية البيزنطية ، فتحي عثمان (85/2 ، 91).

([3]) المصدر السابق نفسه.

([4]) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، ص 260.

([5]) المصدر السابق نفسه.

هـ التيارات المائية:

واجه المسلمون في البحر صعوبات كثيرة؛ فقد جعلت التيارات المائية المنحدرة من البحر الأسود إلى بحر مرمرة حركة السفن الإسلامية بطيئة، وأدى تغير الريح إلى اضطرابها، ونالت النار الإغريقية منها وألحقت بها أضراراً كثيرة[1] .

و ـ المصالحة بين البيزنطيين والبلغار والخزر:

صالح ليو الحاكم البيزنطي أعداءه الخارجين عليه من الخزر والبلغار، وبذلك ضمن الجبهة الشمالية، مما جعله يصب جل اهتمامه على القوات الإسلامية لغرض تدميرها وإيقاف زحفها على المدينة[2] .

ز ـ الاستعجال وعدم التريث:

ويبدو أن المسلمين لو تريثوا حتى أتموا فتح البر الاسيوي البيزنطي، ثم تقدموا إلى القسطنطينية من مواقع مجاورة وبأحوال جوية مماثلة ومألوفة للمقاتلة وخطوط ومواصلات قصيرة وإمدادات قريبة وأعداد بشرية كثيرة؛ فربما وجدوا المهمة أيسر، ولكنهم عمدوا إلى صقع من البلاد في محيط من الأعداء حصين وبعيد فاستعصى عليهم[3] .

ح ـ ضعف خبرة مسلمة العسكرية:

كان مسلمة بن عبد الملك القائد الأموي في حصار القسطنطينية صغيراً في السن، وأقل تجربة من عظماء الفتح الإسلامي في ذلك العهد، مما أثر في فشل الحصار.

5 ـ نتائج الحملة:

ترتب على حملة القسطنطينية العديد من النتائج، ولعل من أبرزها ما يلي:

أ ـ تأكد للمسلمين أنهم لا يستطيعون فتح القسطنطينية دون فتح المناطق المجاورة لها، وتثبيت أقدامهم فيها حتى تكون عوناً لهم لا عليهم في حالة حصار القسطنطينية، وبالرغم من ذلك فقد كانت للمسلمين سيطرة واضحة على العديد من موانئ البحر الأبيض المتوسط، خاصة في حوضه الغربي.

---

(1) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص 264.

(2) العلاقات العربية ـ البيزنطية في العصر الأموي، ص 64.

(3) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص 264.

ب ـ تخلي أباطرة البيزنطيين عن فكرة استعادة شمال إفريقية، وعدوا الدفاع عن هذه المنطقة في المرتبة الثانية، بعد الدفاع عن عاصمتهم، وبالتالي أصبحت منطقة شمال إفريقية ركناً هاماً من أركان الدولة الإسلامية قوية الأوتاد[1].

جـ ولعل من أهم النتائج المباشرة لغزو القسطنطينية: ازدياد نشاط الأسطول البيزنطي في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط؛ فقد هاجمه البيزنطيون بالإغارة على تِنِّيْس[2] في خلافة يزيد بن عبد الملك[3] .

6 . من خطب عبد الملك في التحريض على قتال الروم:

وفي عهد عبد الملك عندما علم بتحرك الروم بأرض القسطنطينية وغيرها من بلاد الروم على غزو المسلمين ومفاجأتهم؛ نادى بالنفير العام، وحين اجتمع لديه جند المسلمين قام فيهم محرضاً فقال لهم بعد أن حمد الله عز وجل وأثنى عليه: أيها الناس إنكم قد علمتم ما ذكر الله عز وجل في كتابه من فضل الجهاد، وما وعد الله عليه من الثواب، ألا وإني قد عزمت أن أغزو بكم غزوة شريفة على أليون صاحب الروم؛ فإنه طغى وبغى، وقد بلغني أنه قد جمع للمسلمين جموعاً كثيرة، وعزم على غزوكم ومفاجأتكم في دياركم، وقد علمت أن الله تعالى مهلكه ومبدد شمله وجاعل دائرة السوء عليه وعلى أصحابه، وقد جمعتكم من كل بلد وأنتم أهل البأس والنجدة، والشجاعة والشدة وأنتم من قام لله بحقه ولدينه بنصرته وهذا ابني مسلمة وقد أمَّرْته عليكم، فاستمعوا له وأطيعوا يوفقكم الله ويرشدكم لصالح الأمور. فقال الناس جميعاً: سمعاً وطاعة يا أمير المؤمنين[4] .

وعندما سيَّر عبد الملك بن مروان ابنه مسلمة لمحاربة الروم أوصاه بالعسكر بقوله: فكن يا بنيَّ بالمسلمين باراً رحيماً وأميراً حليماً، ولا تكن عنيداً كفوراً ولا مختالاً فخوراً[5]، كما أوصى عبد الملك قائداً اخر سيره إلى أرض الروم: أنت تاجر الله لعباده، فكن كالمضارب الكيس الذي إن وجد ربحاً تاجر، وإلا احتفظ برأس المال، ولا تطلب الغنيمة حتى تحرز السلامة، وكن من احتيالك على عدوك أشد حذراً من احتيال عدوك عليك[6].

---

(1) خلافة سليمان بن عبد الملك ، علي إبراهيم ، ص 200.

(2) تنيْس: جزيرة في بحر مصر ، قريبة من البر.

(3) ولاة مصر ، للكندي ص 91؛ خلافة سليمان بن عبد الملك ، ص 200.

(4) الفتوح ، لابن أعثم (123/4).

(5) المصدر السابق نفسه.

(6) نهاية الأرب (170/6).

7 . من أشهر قادة المسلمين ضد الروم: مسلمة بن عبد الملك:

مسلمة بن عبد الملك الأمير الضرغام، قائد الجيوش، أبو سعيد الأموي الدمشقي، ويلقب بالجرادة الصفراء[1] ، له مواقف مشهودة مع الروم، وهو الذي غزا القسطنطينية وكان ميمون النقيبة، وقد ولي العراق لأخيه يزيد ثم أرمينية[2] ، قال عنه الذهبي: كان أولى بالخلافة من سائر إخوته[3] ، وقد ظهرت مزايا مسلمة وألمعيته مبكراً وهو صغير السن، فركز أبوه عبد الملك عليه، وبخاصة في وصيته أبناءه وبنيه وهو على فراش الموت، فقال فيه: .. وانظروا مسلمة فاصدروا عن رأيه، فإنه نابكم الذي عنه تفترون، ومِجنُّكم الذي عنه ترمون[4] .

فهو قائد من قواد الفكر، وقائد من قادة الجهاد بالنسبة لبني أمية، لا يخالفون له رأياً، ولا يعصون له أمراً، ويلجؤون إليه في أيام المحن والحروب[5] ، ومسلمة هذا عُرف في التاريخ مع قصة صاحب النقب، حيث حاصر مسلمة حصناً، فندب الناس إلى نَقْب منه، فما دخله أحد، فجاء رجل من عُرض الجيش فدخله ففتحه الله عليهم: فنادى مسلمة: أين صاحب النقب؟ فما جاء أحد. فنادى: إني قد أمرت بإدخاله ساعة يأتي، فعزمت عليه إلا جاء فجاء رجل فقال: استأذن لي على الأمير. فقال له: أنت صاحب النقب؟ قال: أنا أخبركم عنه، فأتى مسلمة فأخبره عنه، فأذن له، فقال: إن صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثاً: ألا تسودوا اسمه في صحيفة إلى الخليفة، ولا تأمروا له بشيء، ولا تسألوه: ممن هو؟ قال مسلمة: فذاك له، قال: أنا هو. فكان مسلمة لا يصلي بعدها إلا قال: اللهم اجعلني مع صاحب النَّقب[6] .

وكان مسلمة في جهاده يحرص على سلامة جنده، وفي قتاله للخزر تكالب عليه الأعداء مما اضطره إلى خداعهم بإشعال النيران ليوهمهم بمكوثه، وجعل خيامه مضروبة بعد العشاء الآخرة، وجعل مسلمة يطوي المراحل طياً في العودة، فقد جعل كل مرحلتين في مرحلة، غير أنه قدَّم الضعفاء بين يديه واهتم بهم، وجعل الأقوياء أهل الجلد والشجاعة على الساقة، فلم يزل كذلك حتى جاوز الخطر[7] .

([1]) سير أعلام النبلاء (241/5).

([2]) المصدر السابق نفسه.

([3]) المصدر السابق نفسه.

([4]) الكامل في التاريخ؛ نقلاً عن قادة الفتح الإسلامي في أرمينية ، ص 289.

([5]) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية ، ص 289.

([6]) عيون الأخبار (172/1).

([7]) الفتوح ، لابن أعثم (283/4).

وكان يمقت العجز ويمدح الحزم، فقد قال: ما حمدت نفسي على ظفر ابتدأته بعجز، ولا ذممتها على مكروه ابتدأته بحزم [1] ، ومن أقواله في الزهد: إن أقل الناس هماً في الدنيا أقلهم هماً في الآخرة[2] .

وكانت تجربته العملية غنية إلى أبعد الحدود، فقد شهد كيف تدار الدولة على أعلى المستويات مع أبيه عبد الملك بن مروان ومع إخوته من بعده، وكان الخلفاء من إخوته يحرصون على أن يبقى إلى جانبهم مستشاراً يتعلمون منه أكثر مما يتعلم منهم، إلا إذا حزبهم أمر يهدد أمن الدولة ومصيرها تهديداً خطيراً، فيبعثونه، ليقضي على الثورات، وليقمع الاضطرابات، وليعيد الأمن والاستقرار[3] .

وكان مسلمة مخلصاً غاية الإخلاص لبني أمية، ويدين بالولاء المطلق للخلفاء، ولم يكن يطمح لتولي الخلافة؛ لأن بني أمية لم يكونوا يبايعون لبني أمهات الأولاد، ولم يكن لعبد الملك بن مروان ابن أسدَّ رأياً ولا أذكى عقلاً، وأشجع قلباً، وأسمح نفساً ولا أسخى كفّاً من مسلمة، وإنما تركوه لهذا المعنى[4] . وكانت بنو أمية لا تستخلف بني الإماء، وقالوا: لا تصلح لهم العرب[5] . ولم يكن لمسلمة أمل في تولي الخلافة مع أنه كما قال الذهبي :كان أحق بالملك من سائر إخوته[6]. وكان ذا عقل راجح ورأي سديد يحولان بينه وبين مغامرة تشق صفوف المسلمين، وكان بحق من أكثر الناس حرصاً على رصِّ الصفوف والوحدة، كما أنه كان يعتبر الخلافة (وسيلة) من أجل خدمة الأمة لا (غاية) من أجل أطماع شخصية، وأمجاد أنانية، وهو بحق خدم الأمة أجل الخدمات، وبذلك حقق (الوسيلة) واستغنى عن (الغاية)[7] ، وكان رحمه الله جميل الصورة، حسن الوجه، صبيحاً، من أجمل الناس، وهو معدود من الطبقة الرابعة من تابعي أهل الشام[8]، توفي سنة 120 هـ[9].

([1]) الشهب اللامعة ، ص 476.

([2]) المعرفة والتاريخ (226/2).

([3]) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية ، ص 305.

([4]) العقد الفريد (131/6)؛ قادة الفتح الإسلامي في أرمينية ، ص 310.

([5]) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية ، ص 310.

([6]) سير أعلام النبلاء (241/5).

([7]) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية ، ص 311.

([8]) سير أعلام النبلاء (241/5).

([9]) المصدر السابق نفسه.

8 . أبو محمد البطال:

كان من أبطال المسلمين وأمرائهم الشاميين، وكان مع جيش مسلمة بن عبد الملك، وكان مقره بإنطاكية، أوطأ الروم خوفاً وذلاً. ولكن كُذب عليه أشياء مستحيلة في سيرته الموضوعة، وعن عبد الملك بن مروان: أنه أوصى مسلمة أن صيِّر على طلائعك البطال ومره فليعسَّ بالليل، فإنه أمير شجاع مقدام[1]، وعقد مسلمة للبطال على عشرة الاف وجعلهم طلائع للجيش[2].

ومن نوادر ما يُحكى عن البطال أنه قال: اتفق لي أنّا أتينا قرية لنغير، فإذا بيت فيه سراج وطفل صغير يبكي، فقالت أمه: اسكت، أو لأدفعنك إلى البطال، فبكى، وقالت: خذه يا بطال، فقلت: هاتيه. وجرت له أعاجيب، وفي الاخر أصبح في معركة مثخوناً وبه رمق، فجاء الملك ليون، فقال: أبا يحيى، كيف رأيت؟ قال: وما رأيت؟ كذلك الأبطال تقتل ولا تُقتل، فقال: عليَّ بالأطباء، فأتوا فوجدوا جراحه قد أنفذت مقاتله، فقال: هل لك حاجة؟ قال: تأمر من يثبت معي بولايتي، وكفني، والصلاة عليَّ ثم تطلقهم، ففعل، قتل 112 هـ، وقيل: 113هـ [3] . قال عنه ابن العماد: .. وله حروب ومواقف، ولكن كذبوا عليه، فأفرطوا، ووضعوا له سيرة كبيرة، تقرأ كل وقت، يزيد فيها من لا يستحيي من الكذب[4] .

9 . عامر الشعبي سفير عبد الملك لعظيم الروم:

وجه عبد الملك بن مروان الشعبي إلى ملك الروم . يعني رسولاً . فلما انصرف من عنده قال: يا شعبي، أتدري ما كتب به إليّ ملك الروم؟ قال: وما كتب به يا أمير المؤمنين؟ قال: كنت أتعجب لأهل ديانتك، كيف لم يستخلفوا عليهم رسولك. قلت: يا أمير المؤمنين لأنه راني ولم يرك. وفي رواية: يا شعبي، إنما أراد أن يغريني بقتلك. وبلغ ذلك ملك الروم، فقال: لله

([1]) المصدر السابق نفسه.

([2]) المصدر السابق نفسه (269/5).

([3]) المصدر السابق نفسه.

([4]) شذرات الذهب (93/2).

أبوه، والله ما أردت إلا ذاك[1] . وفي هذا ما يدل على أن الروم لم تكن نياتهم سليمة مع المسلمين حتى في زمن السلم والمراسلات وعقود الصلح، وأنهم يستخدمون الكيد والمكر لشق الصفوف، والتخلص من الأفذاذ.

* * *

(1) سير أعلام النبلاء (304/5).

المبحث الثاني

الفتوحات في الشمال الإفريقي والأندلس

أولاً: فتوحات حسان بن النعمان الغساني:

استشهد زهير البلوي وأصحابه في معركة مع البيزنطيين في مدينة درنة بشرق ليبية ودفن مع أصحابه، وقبورهم هناك معروفة إلى اليوم تسمى مقبرة الشهداء، وكان ذلك سنة 71 هـ[1]، وكان وقع استشهاد زهير بن قيس البلوي ورفاقه عظيماً على الخليفة عبد الملك بن مروان، لذلك ما إن انتهى من حربه مع ابن الزبير حتى أولى اهتماماً خاصاً بالوضع في شمال إفريقية، لذلك نراه يجهز جيشاً كبيراً قوامه نحو أربعين ألف مقاتل غالبيتهم من أهل الشام، وعهد بقيادته إلى حسان بن النعمان الغساني الذي كان رجلاً ورعاً تقياً يدل على ذلك تسميته بـ (الشيخ الأمين)[2] . وقد أقر الخليفة حسان بن النعمان أن يقيم بمصر استعداداً لإنجاز مهمته، وكتب إليه: إني قد أطلقت يدك في أموال مصر، فأعط من معك ومن ورد عليك من الناس، واخرج إلى جهاد إفريقية على بركة الله.

وقد وصف ابن الأثير عظمة هذا الجيش من حيث تعداده وعدته [3]بقوله: لم يدخل إفريقية جيش مثله[4] ، وكان بداية الغزو في عام 74 هـ[5] ، وقد تمكن هذا الجيش من فتح المناطق التي مر بها، وكان على مقدمته كل من محمد بن بكر وهلال بن ثروان اللواتي[6] ؛ ووجود هذا الأخير كقائد على مقدمة جيش حسان يشير إلى مشاركة البربر بشكل كبير في هذه الحملة[7] .

1 . فتح قرطاجنة:

وصل حسان القيروان ودخلها دون أن يواجه أية مقاومة، ثم توجه بعد ذلك إلى الشمال حيث قرطاجنة القاعدة

([1]) مصر في العصر الأموي، ص 140.

([2]) تاريخ إفريقية والمغرب، ص 67.

([3]) نهاية الأرب في ف نون الأدب (34/24).

([4]) مصر في العصر الأموي، ص 143.

([5]) الكامل في التاريخ (82/3).

([6]) فتوح مصر والمغرب ، ص 270.

([7]) مصر في العصر الأموي ، ص 143.

البيزنطية على الساحل[1] ، وسار حسان إلى قرطاجنة وكان صاحبها أعظم ملوك إفريقية، فلما وصل إليها رأى بها من الروم والبربر ما لا يحصى كثرة[2] ، ولم تطل المعركة مع البيزنطيين، ودخل حسان قرطاجنة عنوة، ولم يكد حسان ينصرف منها عائداً إلى القيروان حتى عاد أهلها للاعتصام بها مرة أخرى، مما اضطر حسان لفتحها للمرة الثانية[3] ، فهدم المسلمون ما أمكنهم منها [4] ، لكي لا يعود إليها من يطمع بالتحصن بها. ثم أعقب حسان حملته هذه بحملة على ططفورة وبنزرت فافتتحها، ولم يتبع المنهزمين من الروم الذين تحصنوا في مدينة باجة، ولا البربر الذين تحصنوا في مدينة بونة[5] . وعاد حسان إلى القيروان، لأن الجراح قد كثرت في أصحابه، فأقام بها حتى صحّوا[6] .

2 . هزيمة حسان أمام الكاهنة:

وبعد ضرب الروم التفت حسان إلى زعامة البربر، فقال: دلوني على أعظم من بقي من ملوك إفريقية؟ فدلوه على امرأة تملك البربر وتعرف بالكهانة[7] ، والتقى حسان بن النعمان بالكاهنة، عند نهر يدعى نيني أو مسكيانة على مرحلة من باغاي ومجانة، فانتصرت الكاهنة، وقتل من المسلمين خلق كثير، وانسحب حسان إلى قابس[8]، وقامت الكاهنة بالهيمنة على المغرب كله بعد حسان خمس سنين، فلما رأت إبطاء العرب عنها قالت: إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة، ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعي، فلا نرى لكم إلا خراب بلاد إفريقية كلها، حتى ييئس منها العرب فلا يكون لهم رجوع إليها إلى اخر الدهر[9]، واستجاب لها قومها من جراوة الذين كان يغلب عليهم الطابع البدوي، فذهبوا إلى كل ناحية يقطعون الشجر، ويهدمون الحصون[10].. فكانت إفريقية من طرابلس إلى طنجة ظلاً وقرى متصلة فأخرجت جميع ذلك[11]، وقد أضر هذا التخريب بالبرانس

([1]) نهاية الأرب (19/22).
([2]) الكامل في التاريخ (82/3).
([3]) رياض النفوس (32/1).
([4]) نهاية الأرب (19/22).
([5]) الكامل في التاريخ (82/3).
([6]) المصدر السابق نفسه.
([7]) المصدر السابق نفسه.
([8]) الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي (151/1).
([9]) المصدر السابق نفسه (153/1).
([10])الكامل في التاريخ (83/3).
([11])نهاية الأرب (21/22).

والأفارقة حتى ألجأهم إلى الفرار وطلب المساعدة، وخرج يومئذ من النصارى والأفارقة خلق كثير مستغيثين مما نزل بهم من الكاهنة، فتفرقوا على الأندلس وسائر الجزر البحرية[1]، وملكت الكاهنة إفريقية وأساءت السيرة في أهلها وعسفتهم وظلمتهم[2].

3 . استعادة البيزنطيين قرطاجنة وانسحاب حسان إلى سرت بليبية:

كان لسقوط قرطاجنة بيد المسلمين أثر بالغ على البيزنطيين، ووجدوا في خروج حسان من إفريقية والفوضى التي عمّت البلاد مجالاً لإعادة نفوذهم في الشمال الإفريقي، فجهز الإمبراطور ليونتوس ـ الذي خلف جستنيان الثاني ـ سنة 695 م حملة كبيرة بقيادة البطريق يوحنا إلى إفريقية، وأعد أسطولاً كبيراً لنقل الجند إليها، فتمكنت القوة البيزنطية من استعادة قرطاجنة سنة 78 هـ، دون مقاومة تذكر، واضطر أبو صالح نائب حسان عليها أن ينسحب منها مع من كان معه من المسلمين ودخلها البطريق يوحنا[3]، ويتضح من دراسة حركة الفتح أن مصير المغرب كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالأوضاع في المشرق، وأقام حسان في منطقة طرابلس قرب سرت في المكان المسمى قصور حسان خمس سنين، وحين استقرت الأوضاع في المشرق سارع عبد الملك بإرسال المدد إلى حسان وأمره بالمسير إلى إفريقية في أواخر سنة 81 هـ[4].

4 . مقتل الكاهنة (82 هـ):

كان خالد بن يزيد العبسي أسيراً عند الكاهنة، فأرسل إلى حسان: إن البربر متفرقون لا نظام لهم ولا رأي عندهم، فاطْوِ المراحل وجد في السير [5]. ودارت المعركة بين الكاهنة وحسان على مقربة من قابس، وانتهت بنصر كبير للمسلمين، وبمقتل الكاهنة عند بئر سُمي بئر الكاهنة[6]، وبعد هذا الانتصار عاد حسان إلى القيروان في سنة 82 هـ، ومنها زحف إلى قرطاجنة وأعاد فتحها [7] . وبهذا النصر المزدوج خلصت أرض إفريقية للمسلمين، تلت ذلك فترة استقرار ثم انطلاق لفتح ما تبقى من المغرب[8] .

---

(1) الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي (154/1).

(2) الكامل في التاريخ (83/3).

(3) فتح العرب للمغرب ، حسين مؤنس ، ص 370.

(4) الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي (155/1).

(5) الكامل في التاريخ (83/3).

(6) الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي (157/1).

(7) رياض النفوس (37/1)؛ الإسلام والتعريب (158/1).

(8) الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي (158/1).

5 . سياسة حسان مع البربر:

أ . إدخالهم في قيادة الجيوش:

نهج حسان نفس السياسة التي سار عليها أبو المهاجر؛ وهي تأليف البربر وإشراكهم في الفتوح، ولعله توسع في ذلك بإدخالهم في الجيش على نطاق واسع[1] ، فكانت سياسته خطوة كبيرة في اكتساب ولاء البربر وإخلاصهم، ففي حملته الأولى عين هلال بن شروان اللواتي قائداً على مقدمته مع اثنين من العرب؛ هما: محمد بن بكير وزهير بن قيس[2] ، كما استعان بالبربر كعيون؛ فقد أرسل أحد رجالهم الذي أسلم طوعاً ليأتيه بالأخبار عما يجري في معسكر الكاهنة[3] ، ورحب بولدي الكاهنة وولى أكبرهما قيادة الجيش في منطقة الأوراس واثقاً بإخلاصه وحسن إسلامه مما أدى إلى إسلام نفر كبير من البتر[4] . ويبدو نجاح سياسته من استغاثة أهل قابس وقفصة وأهل نقراوة به، فسره ذلك[5] .

ب . المساواة بين البربر والعرب المسلمين:

حين جند حسان البربر ساوى بينهم وبين العرب المسلمين، وذلك وفقاً لمبادأى المساواة في الإسلام، ففرض لهم ومنحهم نصيبهم من الغنائم[6] . ثم خطا خطوة كبرى بأن قسم المغرب خططاً للبربر[7] . ويبدو أن حسانَ اعتبر أرض المغرب أرضاً أسلم عليها أهلها[8] .

جـ الاهتمام بالتنظيم الإداري:

كان حسان قد اعتنى بالتنظيم الإداري في المغرب خلال مدة إقامته به (82 . 86 هـ). فقد أنشأ الديوان أو ديوان الجند، وهو سجل يحفظ فيه أسماء المقاتلين وأنسابهم وصفاتهم ومقدار أعطياتهم، ونظم ديوان الخراج بأن عني

([1]) فتوح مصر وأخبارها، ص 201.

([2]) لإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي (158/1).

([3]) تاريخ إفريقية والمغرب ، الرقيق ، ص 59 ، 60.

([4]) فتوح مصر وأخبارها ، ص 201.

([5]) رياض النفوس (35/1).

([6]) المصدر السابق نفسه (36/1).

([7]) المصدر السابق نفسه.

([8]) الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي (160/1).

بتحديد الجزية والخراج. يقول ابن عذارى: فدوَّن الدواوين وصالح على الخراج وكتبه على عجم إفريقية، وعلى من أقام معهم على دين النصرانية[1]، وكان عامتهم من البرانس إلا قليلاً من البتر [2] .

وقام حسان ببناء دار لصناعة السفن، وأنشأ مدينة إسلامية ثانية وهي تونس؛ أصبحت رباطاً يحمي القيروان ومحرساً للبحر وميناء جديداً للبلاد. وصارت تونس ثانية العواصم الإفريقية حين أولاها حسان اهتمامه[3] ، واهتم بالقيروان فجدد بناء مسجدها أحسن مما كان عليه أيام عقبة[4] ، واهتم بتعليم البربر مبادأى الإسلام، وترك معهم ثلاثة عشر رجلاً من علماء التابعين يعلموهم القران وشرائع دينهم[5] ، وبث الدعاة في مختلف القبائل لنشر الإسلام بين البربر، فبنوا المساجد، واستلموا المنابر، ومن ذلك بناؤهم لمسجد أغمات سنة 85 هـ[6]، وانتشرت الكتاتيب لتعليم أولاد المسلمين مبادأى القراءة والكتابة[7] .

6 . عزل حسان عن ولاية إفريقية:

في سنة 85 هـ عزل حسان بن النعمان من قبل والي مصر عبد العزيز بن مروان، ويذكر أن خلافاً نشب بين حسان وعبد العزيز على ولايتي برقة وطرابلس إثر تعيين عبد العزيز والياً منفصلاً عليهما، فلم يوافق حسان على هذا الأمر[8] ، ويبدو أن المشكلة هي أن حسان رأى أنه تابع للخليفة مباشرة، وأن إفريقية ولاية[9] ، بينما رأى أمير مصر أنها تابعة له، وأن حسان يجب أن يراجعه، ولذلك أخذ أغلب الغنائم والهدايا الثمينة التي كان حسان ينوي أن يحملها إلى الخليفة في دمشق، فحين وصل حسان إلى دمشق شكاه للخليفة وأعطاه ما تبقى من الغنائم[10] ، وواضح من شكوى حسان أنه يرى أن عبد العزيز يتهمه بالخيانة المالية ظلماً، فحين أراد الخليفة

([1]) البيان المغرب (38/1).
([2]) فتوح مصر وأخبارها ، ص 201. البرانس والبتر: من قبائل البربر.
([3]) الإسلام والتعريب (164/1).
([4]) رياض النفوس (37/1)؛ الإسلام والتعريب (162/1).
([5]) البيان المغرب (43/1)؛ الإسلام والتعريب (162/1).
([6]) البيان المغرب (43/1).
([7]) الإسلام والتعريب (311/2).
([8]) فتوح مصر وأخبارها ، ص 203.
([9]) الإسلام والتعريب (165/1).
([10]) الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي (165/1).

مكافأته بردِّه إلى ولاية إفريقية رفض حسان وأقسم أنه لا يتولى لبني أمية أبداً[1] ، ولا يستبعد أن عبد العزيز كان يرغب أن تدار إفريقية من قبل أحد رجاله، وإصرار عبد العزيز لتولية موسى بن نصير دليل على ذلك[2] .

قال الذهبي عن حسان بن النعمان الغسّاني: من ملوك العرب، ولي المغرب فهذَّبه وعَمَره، وكان بطلاً شجاعاً، مجاهداً لبيباً، ميمون النقيبة كبير القدر، وجهه معاوية في سنة 57 هـ فصالح البربر، ورتب عليهم الخراج، وانعمرت البلاد، وله غزوات مشهودة بعد قتل الكاهنة، وكان يدعى الشيخ الأمين، توفي سنة 90 هـ[3] .

ثانياً: فتوحات موسى بن نصير (85 هـ):

لا يتفق المؤرخون على تاريخ محدد لتولية موسى بن نصير على المغرب وعزل حسان بن النعمان عنه، ولكن الأقرب إلى تسلسل الأحداث أن يكون عزل حسان وتولية موسى بن نصير في سنة 85 هـ، قبيل وفاة عبد العزيز بن مروان، والذي ينسب إليه المؤرخون عزل حسان وتولية موسى[4] ، وبعد أن عزل عبد العزيز بن مروان والي مصر حسان بن النعمان والي إفريقية ولّى مكانه موسى بن نصير، وكان في أواخر سنة خمس وثمانين الهجرية أو في أوائل سنة ست وثمانين الهجرية، وعندما توافدت الجيوش، قام موسى بن نصير خطيباً، فكان مما قاله: وإنما أنا رجل كأحدكم، فمن رأى مني حسنة، فليحمد الله، وليحض على مثلها، ومن رأى مني سيئة، فلينكرها، فإني أخطأى كما تخطئون، وأصيب كما تصيبون، وقد أمر الأمير أكرمه الله لكم بعطاياكم وتضعيفها ثلاثاً، فخذوها هنيئاً مريئاً، من كانت له حاجة فليرفعها إلينا، وله عندنا قضاؤها على ما عزَّ وهان، مع المواساة إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله[5] .

وهكذا أنجز موسى قبل أن يدخل إفريقية حشد جيشه، وأكمل استحضاراته الإدارية، وساوى نفسه برجاله، وسار موسى متوجهاً إلى الغرب، وكان الأمن غير مستتب، فلما وصل إفريقية برز موسى بن نصير قائداً منتصراً في فتح المغرب، ويرجع ذلك إلى السياسة التي اتبعها مع الأهالي، وهي سياسة التعاون والاندماج الكلي مع البربر[6]، فحين كان يقدم على موسى وفود القبائل ليعلنوا ولاءهم كان يولي عليهم رجلاً منهم، ويأخذ رهائن من خيارهم

---

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) المصدر السابق نفسه (166/1).

(3) سير أعلام النبلاء (140/4).

(4) الولاة والقضاة ، ص 52 ، 53؛ العالم الإسلامي في العصر الأموي ، ص 296.

(5) مصر في العصر الأموي ، ص 155 ، 156.

(6) البيان المغرب (42/1).

لضمان هذا الولاء، كما فعل مع وفد كتامة[1] ومع وفد مصمودة وغيرهم[2] ، ولكن ما أن يعتنق البربر الإسلام، كان موسى يقر زعماءهم في الرئاسة مقابل مساهمة كل قبيلة بعدد كافٍ من المقاتلين للانضمام للمقاتلة العرب. وأعطت سياسة التفاهم هذه ثمارها، فقد استطاع موسى أن يجند أعداداً كبيرة من قبائل البربر مثل كتامة وهوارة وزناتة ومصمودة[3]، وألحق موسى بن نصير هؤلاء المقاتلة من البربر مع جراوة الذين كانوا قد جندوا في عهد حسان، ووضعهم جميعاً في حامية طنجة تحت قيادة طارق بن زياد الذي وليها سنة 90 هـ من قبل موسى بن نصير[4] .

ومن الوسائل التي استخدمها موسى في تأليف القلوب وضبط الأمور، وتقوية الدولة الإسلامية:

1 . عتق بعض السبايا:

كان موسى بن نصير يعتق بعض سباياهم ويتولاهم في نطاق خطته لتشجيع البربر على الدخول في الإسلام، فكان يشتري من السبايا من كان في ظنه أن يقبل الإسلام.

2 . تطبيق مبدأ المساواة:

فقد ساوى في النفل بين البربر المسلمين والعرب الذين أبلوا بلاء حسناً، وذلك تشجيعاً وتقديراً لبلائهم، وبهذا التصرف تمكن موسى من جلب أعداد كبيرة إلى الإسلام وإشراكهم في الجيش الإسلامي[5] .

3 . التنظيم الإداري:

ويبدو أن موسى بن نصير حين دخل إفريقية وجدها في حاجة ماسة إلى إدارة مستقرة، فقد انفردت كل قبيلة بربرية بناحيتها، واستبدت بها دون أن تخضع لولاة أو عمال، فأخذ موسى يعمل على إخضاع كل المغرب إلى الحكم الإسلامي، فبدأ ينقل البيزنطيين من المدن الساحلية والنواحي الداخلية، وأسكنهم قرب مراكز الحكم الإسلامي مما يتيح للمسلمين مراقبتهم ودعوتهم وتعليمهم.

---

(1) الإسلام والتعريب (172/1).

(2) البيان المغرب (42/1).

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) المصدر السابق نفسه.

(5) الإسلام والتعريب (174/1).

4 . تكوين القوة البحرية:

أنشأ حسان بن النعمان دار صناعة السفن بتونس، ثم استكملها بعده موسى بن نصير وعبيد الله بن الحباب، ويذكر أنه صنع بها مراكب مما مكنه من غزو صقلية.

5 . سك النقود:

ويبدو أنه بادر بسك النقود بإفريقية، إذ يرى حسن حسني عبد الوهاب أن أول أمير سك النقود بإفريقية، هو موسى بن نصير سنة 95 هـ[1] .

وتتلخص أعمال موسى بن نصير في حرصه على نشر الإسلام بين البربر، ولهذا كان يختار عمالاً يحسنون السيرة في أهالي المناطق المفتوحة[2] ، واختار فئة من أصحابه لتعليم البربر حديثي الإسلام، القران ومبادئ الإسلام. فقد أمر العرب أن يعلموا البربر القران وأن يفقهوهم في الدين[3] ، وذكر ابن عذارى: أن موسى ترك سبعين رجلاً من العرب في طنجة يعلمون البربر القران وشرائع الإسلام. وهذه السياسة هي استمرار لسياسة عقبة بن نافع وحسان بن النعمان[4] . وهذا أدى إلى انتشار الإسلام في المغرب الأقصى[5] .

واستطاع موسى بن نصير بعد حملات جهادية منظمة السيطرة على جميع شمال إفريقية من برقة إلى المحيط الأطلسي وأصبح سيد إفريقية بدون منازع، وكان أولاده من ضمن قادته في فتوحاته الكبرى وكانت له حملات بحرية على جزر البحر الأبيض المتوسط، ومن أشهر تلك الحملات ما سمي بحملة الأشراف؛ بسبب اشتراك أشراف الناس فيها، وكانت وجهتها جزيرة صقلية؛ حيث بلغ عدد مقاتليها بين التسعمئة والألف، وكانت بقيادة ابنه عبد الله الذي حقق نصراً حاسماً حتى غنم المسلمون غنائم كثيرة بلغ فيها سهم المقاتل مئة دينار ذهب[6] .

هذا ولم تقتصر حملات موسى بن نصير البحرية على مقاتلة إفريقية بل شملت دعم الحملات البحرية في ولاية مصر[7] ، هذا وقد توجت هذه الانتصارات البحرية الرائعة التي حققها الأسطول الإسلامي بفتح بلاد الأندلس

([1]) المصدر السابق نفسه (176/1).

([2]) فتوح مصر وأخبارها ، ص 205.

([3]) البيان المغرب (42/1).

([4]) المصدر السابق نفسه.

([5]) الإسلام والتعريب (177/1).

([6]) مصر في العصر الأموي ، ص 161.

([7]) المصدر السابق نفسه.

الذي خطط له موسى بن نصير ونفذه طارق بن زياد، وتم بشكل نهائي بتوفيق الله ثم جهود هذين القائدين العظيمين[1] .

خ ـ فتح الأندلس وجهود طارق بن زياد:

كان الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة الأيبيريَّة (إسبانية والبرتغال) أمراً طبيعياً حسب الخطة التي اتبعها المسلمون أثناء فتوحاتهم، وهي تأمين حدودهم ونشر دعوتهم، وذلك بالمضي في جهادهم إلى ما وراء تلك الحدود، لنشر العقيدة الإسلامية التي تقتضي أن يستمر المدُّ الإسلامي ما دامت فيه القوة على الاستمرار، وبعد أن أرسى موسى بن نصير، ومن معه، كلمة الإسلام بجهودهم في المغرب الكبير، كانت الخطوة التالية الطبيعية هي فتح الأندلس.

وقد عمل موسى على إكمال جهود من سبقه من الجند الدعاة ـ قادة وجيشاً ـ في ترسيخ قدم الإسلام في الشمال الإفريقي، فقد عمل على تثبيت الإسلام في قلوب الناس، ونشط في تعليمهم وتربيتهم على مبادأى الدين الحنيف، واتت جهوده الدعوية ثمارها الزكية فقد أصبح البربر في تلك الديار من أخلص الناس للإسلام والدعوة إليه والجهاد في سبيل نشر تعاليمه، ولقد كانت أكثرية جيش طارق إلى الجزيرة الأيبيريَّة من المسلمين البربر، الذين تحمَّسوا لدعوة الإسلام، حباً لها وتضحية من أجلها، لا طمعاً في مغنم أو حرصاً على جاه، فهذا هو هدف جميع الفتوحات الإسلامية التي يكفي الاطِّلاع عليها ومعرفة طبيعتها لرفض الادعاءات وإسقاط المفتريات المزوّرة، التي تشير ـ تلميحاً أو تصريحاً ـ إلى اعتبار الغنائم سبب هذا الفتح، وهو أمر عارٍ من الحجج والبراهين والأدلة، وإنما هي أوهام لا تحمل أية رائحة من الطابع العلمي أو السند التاريخي[2] .

1 . فكرة الفتح:

يمكن القول بأن فكرة فتح الجزيرة الأيبيريَّة هي فكرة إسلامية تماماً؛ بل يُروى بأنها فكرة قديمة تمتد إلى أيام الخليفة الراشد عثمان بن عفان، فقد كان عقبة بن نافع الفهري يفكر في اجتياز المضيق إلى إسبانية لو استطاع، وسبق للمسلمين نشاط على شواطئ إسبانية الشرقية وبعض الجزر القريبة منها، وهي مَيورْقة ومَنورقة، واليابسة، ويذكر الذهبي أنه في سنة 89 هـ: جهز موسى بن نصير ولده عبد الله، فافتتح جزيرتي مَيورْقة ومَنورقة[3]، أما الاتصال

([1]) المصدر السابق نفسه ، ص 162.

([2]) التاريخ الأندلسي ، ص 43 ، 44.

([3]) العبر في خبر من غبر (304/1)؛ نقلاً عن التاريخ الأندلسي ، ص 45.

بيُليان حاكم مدينة سبتة أو بغيره من الإسبان فإنها جاءت مواتية على ما يبدو وفي الوقت الذي كان موسى بن نصير يفكر في تنفيذ فكرة الفتح، ولكن كيف تم الاتصال بالجانب الإسباني (يُلْيان وأنصار الملك المخلوع وغيرهم)؟ اختلفت الأقوال فيما إذا تم الأمر بالمراسلة أو باللقاء الشخصي وأين؟ إذا كان هذا الاتصال أصلاً قد تمّ وبهذا المستوى على كل حال؛ فإن اتصالات الجانب الإسباني بموسى ومساعداتهم ـ أثناء عمليات الفتح ـ ربما كانت عاملاً مساعداً سهَّل سير الفتح أو عجَّل به. لكن المبادأة ومردّ العمليات وإنجازها كانت من الجانب الإسلامي الذي اندفع مع الفتح بقوة فائقة معتمداً على الله في تحقيق ما يصبو إليه من هداية الناس.

وقد استشار موسى الوليد بن عبد الملك (86 ـ 96 هـ) قبل اتصالاته بيُليان، أو

اتصال هذا الأخير بموسى. وقد ترددت الخلافة ـ بادأى الأمر ـ بالقيام بمثل هذا العمل الكبير، خوفاً على المسلمين من المخاطرة في مفاوز أو إيقاعهم في مهالك، ولكن موسى أقنع الخليفة بالأمر، ثم تمّ الاتفاق على أن يَسبق الفتح اختبار المكان بالسرايا أو الحملات الاستطلاعية[1] .

2 ـ الحملة الاستطلاعية، أو حملة طريف:

نفذ موسى أوامر الوليد بأن جهَّز حملة استطلاعية مؤلفة من خمسمئة جندي؛ منهم مئة فارس بقيادة طريف بن مالك الملقب بأبي زُرعة، وهو مسلم من البربر، وجاز هذا الجيش الزُّقاق ـ اسم يطلق أحياناً على المضيق[2] ـ من سبتة بسفن يُلْيان أو غيره، ونزل قرب أو في جزيرة بالوما في الجانب الإسباني، وعرفت هذه الجزيرة فيما بعد باسم هذا القائد: جزيرة طريف[3] ، وكان إبحار هذه الحملة من سبتة في رمضان عام 91 هـ (تموز 710 م) وقد جال طريف في المدينة والنواحي المحيطة بها، واستطلع أخبار العدو في تلك الجهات[4] ، وعادت حملة طريف بالأخبار المطمئنة والمشجعة على الاستمرار في عملية الفتح[5] ، فقد درس أحوال المنطقة وتعرّف على مواقعها، وأرسل جماعات إلى عدة أماكن ـ منها جبل طارق ـ لهذا الغرض، فكانت هذه المعلومات عوناً في وضع خُطة الفتح ونزول طارق بجيشه على الجبل[6] .

---

(1) التاريخ الأندلسي ، ص 45.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 45؛ نقلاً عن ابن خلدون.

(3) التاريخ الأندلسي ، ص 46.

(4) الفن العسكري الإسلامي ، د. ياسين سويد ، ص 334 ، 335.

(5) التاريخ الأندلسي ، ص 46.

(6) المصدر السابق نفسه، ص 46.

3 . العبور:

لما رأى موسى بن نصير ما حققته حملة طريف، وصحّ عنده ما نقل إليه من أحوال الأندلس، بعث طارق بن زياد في سبعة الاف من المسلمين أكثرهم من البربر والموالي، وأقلهم من العرب، ولما احتاج طارق إلى أعداد في فترة تالية أمدّه موسى بخمسة الاف، فتمّ جيش طارق من السفن لنقل الجنود إلى بر الأندلس، وقد حرص القائمون على الحملة لاستكمال عملية نزول الجند أن يُعموا أخبار الحملة على الناس، لذلك أحضر يوليان السفن إلى سبتة ليلاً وأخذت تنقل الجنود تباعاً، ويبدو أن عملية إبحار الجند اقتضت أكثر من ليلة، فقيل: إن الجند الذين نزلوا بر الأندلس كانوا يكمنون في النهار حتى لا يشعر بهم أحد، وكانت السفن تختلف بين سبتة والأندلس وأهل الأندلس لا يظنون إلا أنها تختلف بمثل ما كانت السفن تختلف به من المنافع والمتاجر، ولما علم أهل الأندلس بالحملة كانت عملية الإبحار قد تمت بسلام في رجب من عام اثنين وتسعين للهجرة.

ونزل طارق بالجند عند جبل كالبي، وهو الجبل الذي أخذ اسم طارق وصار يعرف بجبل طارق، وقيل: لما ملك رئيس الموحدين عبد المؤمن الأندلس وعبر جبل طارق أمر ببناء مدينة على الجبل، وسماه جبل الفتح، ولكن الاسم لم يثبت له وظل اسم جبل طارق جارياً على الألسنة[1] ، وسار طارق بالجيش نحو الجزيرة الخضراء ففتحها، وكان لذريق في شمال الأندلس مشغولاً في محاربة البشكنس، وقيل: في محاربة الفرنسيين، فأرسل خليفته تدمير يُعْلِمُه بالهجوم الإسلامي، فعاد لذريق مسرعاً لصده، وفي طريقه لقتال المسلمين عرّج على العاصمة طليطلة دون أن يدخلها، وصالح أسرة غطيشة ودعاهم والقوط المخالفين له إلى الانضمام إليه في حرب العدو المشترك فساروا معه، وقيل: إن لذريق عهد بقيادة ميمنة جيشه وميسرته إلى ابني غطيشة[2] .

وعلم طارق بالحشود التي حشدها لذريق لمجابهته فكتب إلى موسى ينبئه بضخامتها، ويطلب منه مدداً، فأمدّه موسى بخمسة الاف مقاتل[3] ، ويصف المقري نقلاً عن بعض المؤرخين جند طارق: لقد أقبلوا وعليهم (الزرد)، وفوق رؤوسهم (العمائم البيض)، وبأيديهم (القسي العربية)، وقد تقلدوا السيوف وحملوا الرماح، فلما راهم لذريق دخله منهم الرعب[4] .

---

(1) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين ، ص 299.

(2) المصدر السابق نفسه ، ص 300.

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (226/1 ، 227).

وذكر ابن الأثير: أن طارقاً لما ركب البحر غلبته عينه فرأى النبي ﷺ ـ في نومه ـ ومعه المهاجرون والأنصار قد تقلّدوا السيوف وتنكّبوا القسّي، فقال له النبي ﷺ: يا طارق تقدم لشأنك، وأمره بالرفق بالمسلمين، والوفاء بالعهد، فنظر طارق فرأى النبي ﷺ،

وأصحابه قد دخلوا الأندلس أمامه، فاستيقظ من نومه مستبشراً وبشر أصحابه وقويت نفسه ولم يشك في الظفر[1].

4 ـ معركة وادي لكّة أو العبور إلى الأندلس:

لم يعد بين طارق وخصمه لذريق سوى عاملي الزمن والأرض، وأصبح من الواضح أن طارقاً أكثر حرية من خصمه بعد سقوط ولاية (الجزيرة الخضراء) بيده وهزيمة قائد القوط (بنج) وهلاك فرقته بكاملها على يد جيش طارق، وأصبح قادراً على اختيار المكان المناسب للقتال، فقد كان اختيار ميدان القتال من قبله من أهم عناصر نجاحه في هذه المعركة[2] ، إذ كان قد أسند ميمنة جيشه إلى بحيرة خاندا شرقاً، الممتدة عدة كيلومترات، والتي يصب فيها نهر البرباط الذي يمر بوادي البرباط، وأسند ميسرته إلى الوادي المذكور غرباً، كما أسند مؤخرة هذا الجيش إلى جبال (رتينا) العالية جنوباً، منتظراً أن يأتيه العدو من الشمال بعد أن وضعه في موضع الاضطرار لا الاختيار[3]، وما أن استكمل لذريق عدة الجيش وعديده حتى تحرك جنوباً لمواجهة طارق وجيشه في المكان الذي اختاره هذا الأخير، فوصله في الأيام الأخيرة من شهر رمضان عام 92 هـ وعسكر بجيشه على الجهة الشمالية للوادي[4].

والتقى الجيشان على نهر لكة من أعمال شذونة لليلتين بقيتا من رمضان سنة 92 هـ، واتصلت الحرب بين الجانبين ثمانية أيام استشهد فيها ثلاثة الاف من المسلمين، ولكن الهزيمة دارت على لذريق وجيشه، وقيل: إن لذريق غرق وقتل كثير من جيشه، ومما يروى عن أبناء غطيشة أنهم خذلوا لذريق وجيشه وتركوهم وأنصارهم أمام المسلمين، ظناً منهم أن المسلمين، إذا امتلأت أيديهم، من الغنائم عادوا إلى بلادهم، فبقي الملك لهم[5] ، ولعل خذلان آل غطيشة وأنصارهم لذريق كان بدافع الانتقام منه[6] ، ولا شك أن هذا الفتح مثل غيره يعود إلى قوة المسلمين

([1]) الكامل في التاريخ (209/3).

([2]) الفن العسكري الإسلامي، ص 339.

([3]) المصدر السابق نفسه.

([4]) المصدر السابق نفسه، ص 341.

([5]) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص 300.

([6]) المصدر السابق نفسه، ص 301.

بتمكن العقيدة وتغلغل معانيها في نفوسهم وحرصهم على الشهادة في سبيلها[1] .

وبعد هذا النصر العظيم تعقب طارق فلول الجيش القوطي التي لاذت بالفرار. وسار الجيش الإسلامي فاتحاً لبقية مناطق الجزيرة الأيبيريّة[2] .

5 . الدروس المستخلصة من معركة وادي لكّة:

أ . أسلوب (الحذر واليقظة) تجاه الحلفاء:

لم يكتفِ موسى بن نصير بقول يليان ووعده بالعون والمساعدة في فتح الأندلس، بل كلفه مهمة استطلاعية في تلك البلاد ليختبر صدقه ووفاءه بعهده، وقد كان يليان صادقاً بما قال، ووفياً بما تعهد به، كما كان موسى حذراً ويقظاً ونبهاً.

ب . أسلوب الاستطلاع قبل الإنزال:

أراد موسى أن يستطلع البيئة التي سوف يقتحمها، والعدو الذي سوف يقاتله، والبقعة التي سوف يتم النزول فيها، وذلك قبل أن يدفع بجيشه في مغامرة مجهولة النتائج، فأرسل حملة استطلاعية بقيادة طريف بن مالك، وما أن عادت تلك الحملة بالمعلومات الوافية عن البيئة والعدو وبقعة النزول حتى اطمأنَّ إلى سلامة قراره، فكتب إلى الخليفة يستأذنه بالفتح[3] .

ج الأسلوب المتكرر في الاختبار والحيطة:

رغم ما سبق من اختبار؛ سواء بواسطة الحملة التي قام بها يليان أو حملة طريف، فقد أبى الخليفة إلا أن يكرر الاختبار، فقال لموسى: خضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها، ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال[4] . ولما لفت موسى نظر الخليفة إلى سهولة عملية الإبحار والإنزال أصرَّ الخليفة قائلاً: وإن كان، فلابد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه[5] .

([1]) التاريخ الأندلسي، ص 55.

([2]) المصدر السابق نفسه، ص 57.

([3]) الفن العسكري الإسلامي ، ص 349.

([4]) نفح الطيب (253/1).

([5]) البيان المغرب (5/2)؛ التاريخ الأندلسي ، ص 46.

وذلك يدل على مدى حرص الخليفة على التأكد من نجاح العملية وسلامتها وتأمين الفوز للمسلمين؛ بدل أن يغرر بهم في بحر شديد الأهوال. وهذا الأسلوب المتكرر في الاختبار والحيطة قبل الإنزال والاقتحام سهَّل عملية الفتح إلى حد كبير، وأعان المسلمين في مواجهتهم الحاسمة للعدو، إذ أمّن لهم عملية (المباغتة) لعدو لم يكن ينتظر مثل هذه المفاجأة أبداً[1] .

د . أسلوب المباغتة:

إن الأسلوب الذي اتبعه طارق في إيصال المسلمين إلى ساحل الأندلس منفذاً تعليمات الخليفة، كان أسلوباً بارعاً إلى حد كبير، فهو لم يبحر بالمسلمين دفعة واحدة، بل أبحر بهم على دفعات متتالية وفي مراكب تجارية، وما أن التأم شمل المسلمين في تلك البلاد، حتى فوجأى الأعداء بالهزيمة الساحقة التي لحقت بهم على يد هؤلاء المسلمين ومقتل أحد أهم قادتهم (بنج) ابن أخت مليكهم لذريق، فانتزع المسلمون، بهذه المباغتة وهذا الانتصار المبادرة من يد أعدائهم، وأسقط في يد القوط، وأصبحت هزيمتهم على يد المسلمين قدراً محتوماً[2] .

هـ تنفيذ أسلوب (رأس الجسر):

نفذ طارق . فور وصول جيشه إلى الساحل الأندلسي . أسلوب (رأس الجسر)، وهو أسلوب يعمل به في الحروب الحديثة، فأقام على الساحل قاعدة حصينة سوّرها وحماها وانطلق منها في فتوحاته، تماماً كما يفعل أي جيش في أيامنا هذه[3] .

و . اختيار ميدان القتال:

لقد أحسن طارق اختيار ميدان القتال، وفرض على العدو أن يجابه من جهة واحدة هي جبهة الشمال، ووضعه في موضع الاضطرار لا الاختيار.

ز . المبادرة بالقتال:

كان طارق في هذه المعركة هو البادئ بالقتال، بل بادر إلى اجتياز النهر لملاقاة عدوه، فناوشه ثلاثة أيام، ثم شن عليه بعد ذلك هجوماً عاماً انتهى بهزيمته.

([1]) الفن العسكري الإسلامي ، ص 350.

([2]) المصدر السابق نفسه.

([3]) المصدر السابق نفسه.

ح ـ صدق المسلمين ووفاؤهم بالعهود:

كان المسلمون صادقين ووفوا بعهودهم تجاه يليان وأبناء غطيشة، فأعادوا لهؤلاء ضياع أبيهم، واحترموا تعهداتهم ليليان وأنصاره، وكانت نتيجة ذلك أن اعتنقت سلالة كل من يليان وأبناء غطيشة الإسلام، فكان فيها من حسن إسلامه مثل أيوب (توفي سنة226 هـ) وسليمان(توفي سنة 379 هـ)، وأحمد (توفي سنة 388 هـ) من سلالة يليان، ومثل: أبي بكر محمد بن عمر المعروف بابن القوطية صاحب كتاب (تاريخ افتتاح الأندلس) وهو من سلالة سارة بنت المنذر بن غطيشة اخر ملوك القوط[1] .

ط ـ استثمار النصر:

طبق طارق بالبداهة، مبدأ من أهم المبادئ العسكرية الحديثة؛ وهو استثمار النصر، إذ إنه ما إن هزم لذريق في وادي لكّة حتى لاحق فلول جيشه دون أن يترك لهذا الجيش مجالاً للتجمع وإعادة التنظيم من جديد، وكان طارق قد وضع لنفسه هدفاً أساسياً هو احتلال طليطلة عاصمة العدو، إذ إنه يعرف ولا شك، أنه باحتلاله لعاصمة المملكة، تفقد هذه المملكة مركزيّتها، ويفقد الملك قاعدة ملكه وحكمه، ولكن طارقاً مع ذلك، لم ينس أن يرسل جيشه في حملات إلى مختلف أنحاء البلاد لكي يحتل المواقع الاستراتيجية فيها فيفقد القوط كل أمل بمتابعة القتال والنصر، فأرسل إحداها إلى داخل البلاد شمالاً نحو قرطبة، وكانت قصبة هامة في الأندلس، وأرسل أخرى شرقاً، إلى الساحل الجنوبي للبلاد، نحو ملقة، وأرسل ثالثة إلى داخل البلاد شمالاً بشرق، نحو غرناطة وكانت تشكل موقعاً استراتيجياً هاماً في البلاد، ثم توجه بنفسه شمالاً إلى العاصمة طليطلة واستولى عليها، فظل الحكم القوطي، من جراء ذلك، شريداً طريداً في أنحاء الأندلس إلى أن سقط[2] .

6 ـ الخطبة المنسوبة إلى طارق وحرق السفن:

يعتقد كثير من المؤرخين أن طارقاً أحرق سفنه، بعد أن أنزل جيشه على الساحل الأندلسي، ثم خطب بجنده الخطبة الشهيرة: أيها الناس، أين المفر؟! البحر من ورائكم، والعدو من أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر...، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوِّكم، وإن امتدت

([1]) المصدر السابق نفسه ، ص 352.

([2]) المصدر السابق نفسه.

بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبت ريحكم، وتعوَّضت القلوب من رُعْبها... وجاء في الخطبة: وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان، من بنات اليونان، الرافلات بالدّر والمرجان، والحُلل المنسوجة بالعقبان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عُرباناً، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً، ثقة منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم بمُجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حظه منكم ثواب الله إلى إعلاء كلمته .. إلى اخر الخطبة [1].

وبالإمكان إيراد الملاحظات التالية حول الخطبة:

أ . لم تكن الخطبة وما فيها من السجع من أسلوب ذلك العصر (القرن الأول الهجري)، وغير متوقع لقائد جيش أن يعتني بهذا النوع من الصياغة.

ب . إن المعاني التي تناولتها الخطبة لا تتلاءم وروح الإسلام العالية، التي توفرت لدى الفاتحين، ومقدار حبهم للإسلام وإعلاء كلمته، ورغبتهم في الاستشهاد من أجل ذلك، فهي لا تشيد بدوافع الفتح وأهدافه . وهي معروفة مألوفة . التي أنبتتها ورعتها العقيدة الإسلامية، عاملة على ابتغاء مرضات الله تعالى وحده، لتعلو راية الإسلام وتسود شريعته ويكون الدين كله لله: {وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣٩﴾} [سورة الأنفال:39]

جـ يلاحظ في الخطبة عديد من الأخطاء، ويلاحظ فيها التناقض في المعاني، وبعض ما فيها مخالف لحقائق تاريخية، كاستعمال (اليونان) التي ربما جاء ذكرها للسجع، فالمؤرخون الأندلسيون اعتادوا أن يستعملوا في هذه المناسبة القوط أو الروم[2] ، وكذلك العلوج والعجم أو المشركين والكفار[3]، وليس لدينا نص يحتوي مثل هذا الاستعمال، غير أن ابن خلكان . وهو مشرقي . أورد هذا الاستعمال في غير الخطبة[4] . وجاء في الخطبة: «وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين..» فالذي انتخبهم موسى بن نصير وليس الوليد[5] .

([1]) وفيات الأعيان (321/5 ، 322).

([2]) نفح الطيب (264/1)؛ التاريخ الأندلسي ، ص 60.

([3]) نفح الطيب (259/1 ، 261 ، 263 ، 270).

([4]) التاريخ الأندلسي ، ص 60؛ وفيات الأعيان (223/5).

([5]) المصدر السابق نفسه، ص 60.

د .كان المتوقع أن تحتوي الخطبة على ايات من القران الكريم وأحاديث الرسول الأمين ﷺ، أو وصايا وأحداث ومعانٍ إسلامية أخرى تناسب المقام كالمعهود[1] . وغير ذلك من الملاحظات.

وكل ما تقدم لا يمنع أن يكون طارق جيد الكلام، وأنه خطب جنده يحثُّهم على الجهاد[2] ، ويروي المقري أبياتاً قالها طارق بهذه المناسبة:

ركبْنَـــــا سَـفيناً بالمجـــــازِ مُقَيَّـــــرا	عســـى أنْ يكونَ اللهُ منَّا قدِ اشــــترى
نفوسـاً وأمـــــوالاً وأهــــلاً بجنَّــــة	إذا ما اشـــتهينا الشـــيءَ منها تيسَّـــرا
ولســـنا نُبالي كيفَ ســالتْ نفوسُــنا	إذا نحنُ أدْرَكْنـا الـذي كـان أجْـدَرَا[3]

وقال ابن بشكوال: إن طارقاً كان حسن الكلام ينظم ما يجوز كتبه[4] . ووجهة هذه الأبيات تغاير وجهة الخطبة، فهي منسجمة والمعاني الإسلامية، ومستمدة من قوله تعالى: {۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١} [سورة التوبة:111]

وأما موضوع حرق طارق للسفن التي عبر بها المضيق، كي يقطع على الجيش الإسلامي كل أمل في العودة، فيستميت في الدفاع .. ذكر بعض المؤرخين ذلك !

لكن لماذا يحرق طارق السفن، سواء امتلكها المسلمون أم يُلْيان؟ وكان طارق وجيشه يقاتلون من أجل عقيدة، وإنهم في ساعة عبورهم جاؤوا مجاهدين مستعدين للشهادة، وطارق متأكد من هذه المعاني، فإذا كانت السفن ليُلْيان فليس من حق طارق التصرف بها، وإن كانت للمسلمين فليس حرقها عملاً عسكرياً سليماً أو مناسباً، ما دام يحتاج إليها وإلى النجدة والاتصال الدائم بالمغرب لأي غرض، وقد رأينا كيف احتاج إلى النجدة قبل خوض هذه المعركة واحتاجها فيما بعد[5] ، كما أن طارقاً كان قادراً على إعادتها إلى الساحل الإفريقي.

(1) التاريخ الأندلسي ، ص 61.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) نفح الطيب (231/1)؛ التاريخ الأندلسي ، ص 61.

(5) التاريخ الأندلسي ، ص 62.

إن الدوافع الإسلامية والهدف الذي جاء الجيش من أجله أقوى في الاندفاع من أي سبب اخر، وما كان المسلمون يتخلفون عن خوض معركة أو تقديم أنفسهم لإعلاء كلمة الله، بل لذلك أتوا، والمصادر الأندلسية ـ لاسيما الأولى ـ لا تشير إلى قصة حرق السفن التي لا تخلو من علاقة وارتباط بقصة الخطبة[1] .

7 ـ عبور موسى بن نصير إلى الأندلس:

كان موسى بن نصير من التابعين ـ رحمهم الله تعالى ـ وقد روى عن تميم الداري رضي الله عنه، وكان عالماً كريماً شجاعاً ورعاً تقياً لله تعالى[2] ، وكان من رجال العلم حزماً ورأياً وهمّة ونبلاً وشجاعة وإقداماً[3] ، وكان حين وجّه طارقاً لفتح الأندلس كان يتلقى الأخبار ويراقب الأحداث، منذ بدايتها، ويُهيِّأى المتطلبات لإنجاز هذا الفتح الكبير، بهمة المؤمن وإخلاص التقي، ويدعو الله أن ينزل نصره على المسلمين[4] .

وكان موسى بن نصير يعتقد اعتقاداً كبيراً في أهمية الدعاء والتضرع لتحقيق النصر على الأعداء، ويعتبر الدعاء من أسباب النصر التي أرشد إليها القران الكريم ومارسها رسول الله ﷺ. يقول ابن الكردبوس: وكان موسى بن نصير حين أنفذ طارقاً مُكبَّاً على الدعاء والبكاء والتضرع لله تعالى، والابتهال إليه في أن ينصر جيش المسلمين، وما عُلم أنه هزم له جيش قط[5] .

وكان طارق بن زياد على صلة بقائده موسى بن نصير، يفتح الفتوحات باسمه وبتعليماته، ويخبره عن كل شيء أولاً بأول منذ بداية الفتح، ويستشيره فيما يحتاج إليه، وقد رأينا كيف طلب المدد قبل معركة وادي لكّة، وكان موسى على علم تام بأحوال الفتوح.

وبعد سنة تقريباً من عبور طارق، وتفرق جيشه وتوزيعه على المناطق والمدن التي فتحت ـ خاف طارق أن يُغلب، وأن يستغل القوط قلة جيشه، فأرسل إلى موسى يستنجده، واستخلف موسى على القيروان ولده عبد الله.. ونهض من القيروان سنة ثلاث وتسعين من الهجرة في عسكر ضخم[6] ، وتحرك موسى بجيشه نحو شذونة؛ فكانت أول فتوحاته، ثم توجه إلى مدينة قرمونة وليس بالأندلس أحصن منها، ولا أبعد على من يرومها بحصار أو قتال،

([1]) المصدر السابق نفسه.

([2]) وفيات الأعيان (318/5 ـ 319).

([3]) العبر في خبر من غبر ، للذهبي (116/1).

([4]) التاريخ الأندلسي ، ص 67.

([5]) المصدر السابق نفسه ، ص 68.

([6]) تاريخ الأندلسي واثارهم في الأندلس ، ص 68.

فدخلها بحيلة توجهت بأصحاب يُلْيان، دخلوا إليهم كأنهم فُلال، وطرقهم موسى بخيله ليلاً ففتحوا لهم الباب، وأوقعوا بالأحراس، فملكت المدينة[1]فافتتحها.

وتوجه بعد ذلك: إلى إشبيلية جارتها، فحاصرها وهي أعظم مدائن الأندلس... فامتنعت شهراً على موسى ثم فتحها الله عليه، .. ثم سار إلى مدينة ماردة وفتح في طريقه إليها لَبْلَة وباجة، ثم فتح ماردة صلحاً بعد قتال وجهاد عظيم [2]، وأقام موسى في ماردة زيادة على شهر يرتب أحوالها وينظم أمورها ويريح الجند من العناء ويستعد لاستئناف السير[3] ، ووجه موسى ابنه عبد العزيز من ماردة إلى إشبيلية، وكانت فلول القوط من لبلة وباجة قد اجتمعت فيها وقتلوا العديد من المسلمين، منتهزين فرصة انشغال موسى بحصار ماردة، وبلغه الخبر خلال الحصار، فأعاد عبد العزيز فتح إشبيلية ثم فتح لبلة وباجة[4]، وأصبحت المدن والقرى تتساقط أمام جيوش الفاتحين كتساقط الأوراق من على الأشجار في فصل الخريف.

8 . لقاء موسى وطارق:

في بداية ذي القعدة سنة 94 هـ ابتدأ موسى بالسير صوب طليطلة، وكتب إلى طارق بالتوجه إليه في مجموعة من جيشه، ثم جاءه طارق. ذكر البعض أن لقاءهما كان عند طليطلة أو قرطبة، ورجح الدكتور الحجي العالم البارز في تاريخ الأندلس: بأن اللقاء كان خارج مدينة طلبيرة التي تبعد 150 كم غرب طليطلة[5] .

ووصل موسى وطارق إلى طليطلة في ذي القعدة أو ذي الحجة أو اخر سنة 94 هـ، وأقاما بالجيش الإسلامي فصل الشتاء أو جله في طليطلة يرتبون أحوالها وينظمون شؤونها، ويستريحون ويتهيؤون ويخططون لفتح شمال شبه الجزيرة الأيبيريَّة، وكتب موسى والقادة الاخرون إلى الخليفة الوليد . وربما ليس لأول مرة . أخبار الفتح، وضربت العملة الإسلامية لأول مرة في الأندلس، وقام بالدعوة إلى الله وتعليم الناس حقائق الإسلام وشرحه لهم ودعوتهم إليه بعد أن راه أهل البلاد عملياً في خلق الفاتحين. ولعلهم أرسلوا فرقاً إلى بعض المناطق، فقد كان طارق خبر أحوال طليطلة لاسيما شمالها، إذ كان قد وصل إلى مدينة المائدة (في منطقة وادي الحجارة)[6].

([1]) نفح الطيب (231/1)؛ التاريخ الأندلسي ، ص 74.

([2]) التاريخ الأندلسي ، ص 74 إلى 76.

([3]) المصدر السابق نفسه، ص 78.

([4]) المصدر السابق نفسه.

([5]) المصدر السابق نفسه ، ص 83.

([6]) المصدر السابق نفسه، ص 85.

وأما ما تحدثت عنه المصادر عن قصة الخلاف الذي قيل: إنه حدث بين القائدين الكبيرين موسى وطارق، وتبالغ هذه المصادر فترجع أمر هذا الخلاف إلى حسد دبَّ في نفس موسى على مولاه طارق، وعلى ما حققه من نجاح، وتنسب إلى موسى أنه أهان طارقاً بأن وضع السوط على رأسه[1] ، فهذه روايات ناقشها عدد من الباحثين وأبانوا ضعفها وسقوطها وتفاهتها، كمحمود شيت خطاب[2] ، وعبد الله عنان[3]، ود. عبد الرحمن الحجي[4]، ود. محمد بطاينة[5] ، ود. عبد الشافي محمد عبد اللطيف[6] ، وغيرهم، وإن كان حدث شيء فلا يعدو أن يكون مناقشة القضايا أو استفهامه من طارق خطته وإبداء الملاحظات عليها، تخوفاً من الأذى، وعندما استفسر موسى من طارق عن سبب الإيغال والتقحم في بلاد العدو، اعتذر إليه طارق بخطته العسكرية أمام الظروف المحيطة والضرورة الداعية لأسلوبه، وقبل موسى عذره. وسارا بعده سوية إخوة مجاهدين، ينشرون دين الله ويُعلون كلمته ويبلغون للناس شريعته[7] ، كما لا ننسى أن طارقاً جندي من جنود موسى، والانتصارات التي حققها طارق إنجازات تكتب في صفحة موسى القيادية[8] .

وعند انتهاء الشتاء وحلول الربيع سنة 95 هـ تهيأ الجيش الإسلامي لترك طليطلة، ثم أوغل شمالاً ففتح مدن لاردة ووشقة وطركونة وبرشلونة، كما فتح بلنسية وطرطوشة على الساحل الشرقي للأندلس، وفي هذا الوقت وصل مغيث الرومي مبعُوثاً من جانب الخليفة الوليد بن عبد الملك يحمل إلى موسى بن نصير أمر الخليفة بالقدوم إلى دمشق، ولكن فتح الأندلس لم يكن قد اكتمل بعد، لذلك لاطف موسى مغيثاً وسأله إنظاره إلى أن ينفذ عزمه في دخول بلاد جليقية وأشتوريس، ويكمل فتح الأندلس ويكون مغيث شريكه في الأجر والغنيمة . أي يصبح له سهماً في

(1) البيان المغرب (16/2)؛ العالم الإسلامي ، ص 316.
(2) قادة فتح المغرب (251/1 . 255).
(3) تاريخ المسلمين واثارهم في الأندلس ، ص 91 . 92.
(4) التاريخ الأندلسي ، ص 90.
(5) دراسة في تاريخ الخلفاء ا لأمويين ، ص 303.
(6) العالم الإسلامي في العصر الأموي ، ص 316.
(7) التاريخ الأندلسي ، ص 90.
(8) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين ، ص 303.

القيمة ـ ففعل مغيث ومشى في ركاب موسى إلى جليقية والأشتوريس ففتحها، وتعقب موسى وطارق فلولَ القوط حتى اضطرّ هؤلاء إلى الفرار إلى جبال كنتبرية في أقصى الشمال الغربي من الأندلس[1] .

ولما تأخرت أخبار موسى قلق الخليفة الوليد على مصير الجيش الذي مضى على وجوده في البعوث ما يقارب أربع سنين، لذلك أرسل الوليد رسولاً ثانياً، فوصل الرسول الأندلس وموسى في مدينة لَكْ بجُليقية يُوجِّهُ السرايا والبعوث التي بلغت صخرة بلاك التي تقع في الشمال الغربي على البحر الأخضر ـ خليج بسكاي ـ من المحيط الأطلسي، فاستجاب موسى إلى الرسول وعاد إلى طليطلة، ثم غادرها إلى قرطبة، ومنها إلى إشبيلية حيث استخلف فيها ولده عبد العزيز والياً، واتخذ منها عاصمة للبلاد، ولكن إشبيلية لم تمكث طويلاً عاصمة للبلاد وإنما استعيض عنها بقرطبة منذ عام 97 هـ، وظلت قرطبة مركز الديار الأندلسية حتى نهاية عهد الخلافة في الأندلس[2]، ويبدو أن موسى اختار إشبيلية عاصمة في هذه المرحلة من تاريخ الأندلس لوقوع إشبيلية في منطقة تتساوى عندها احتمالات الخطر والسلامة، وواجبات الحفاظ على البلاد وحمايتها، فهي لم تخرج إلى الأطراف بعيداً عن الوسط، ولم تقترب من خطوط المواجهة مع الأعداء بعيداً عن بلاد المغرب وإمداداتها[3] .

9 ـ رجوع موسى إلى عاصمة الخلافة دمشق:

غادر ركب موسى وطارق بن زياد الأندلس في ذي الحجة عام 95 هـ يحمل معه الأسرى والغنائم الوفيرة والهدايا الثمينة وغيرها من الكنوز، فلما بلغ طنجة ترك ابنه عبد الملك فيها حاكماً، ثم انصرف منها إلى القيروان، فأقرّ ابنه عبد الله الذي كان قد استخلفه في أثناء غيابه في الأندلس[4] ، ثم سار من هناك يريد دمشق، فوصلها في عام 96 هـ قبل وفاة الوليد. وقيل: إن سليمان بن عبد الملك بعث إلى موسى بن نصير أن لا يدخل دمشق؛ يريد أن ينتظر وفاة أخيه الوليد بن عبد الملك، ثم يدخلها، فتكون علامات الفتح ودلائل النصر من الأسرى والغنائم والهدايا فاتحة عهده، فيعظم مقامه عند الناس، ولكن موسى خالف سليمان ودخل، فلما ولي سليمان الخلافة

([1]) نفح الطيب (275/1)؛ التاريخ الأندلسي ، ص 96 ـ 98؛ دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين ، ص 308.

([2]) نفح الطيب (14/3).

([3]) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين ، ص 308.

([4]) المصدر السابق نفسه، ص 307.

حقد على موسى وعزله وحبسه وأغرمه أموالاً كثيرة[1] .

ويبدو أن تدخل يزيد بن المهلب وعمر بن عبد العزيز لصالح موسى، لدى سليمان بن عبد الملك أثمر عن رضا سليمان عن موسى، وأصبح فيما بعد عظيم المنزلة، وكان سليمان يستشيره في بعض الأمور العسكرية، كما هو الحال في الخطة العسكرية الواجب اتباعها في سير الحملة المتجهة إلى القسطنطينية، كما أن سليمان كان يخرج إلى بعض أمواله متنزهاً وبرفقته موسى بن نصير[2] .

ويبدو أن سعة البلاد التي صارت إلى نظر موسى وتحت سلطانه وكانت تمتد من غرب مصر إلى جنوب فرنسا، وقيام موسى بتوزيع الحكم فيها على أبنائه، كان مما يثير الشكوك في نفوس أولي الأمر، لذلك بادر سليمان حرصاً على وحدة الدولة وسلامتها من الانقسام إلى عزل موسى بن نصير عما كان تحت يده من الأعمال[3] .

ومن الأسباب التي ذكرت في سبب استدعاء موسى إلى دمشق تخوُّف الوليد على المسلمين أن يكونوا في أرض منقطعة، ومحاطة بمناطق غير إسلامية وعلى اتصال بها، هي أقرب إليها من العالم الإسلامي أو مراكز ارتباطه واستمداده، وهو الذي رأيناه عارض فتح الأندلس خوفاً على المسلمين أن يخوضوا المخاطر ويركبوا المهالك؛ حتى بيَّن له موسى ألاَّ داعي للخوف[4] .

ويرى الكثير من المؤرخين أن موسى بن نصير لم يكن يعتزم التوقف في فتوحاته عند هذا الحد، وإنما كان يخطط لعبور جبال البرانس واجتياح أوروبة كلها والوصول إلى القسطنطينية وفتحها من جهة الغرب، لولا أن استدعاه الخليفة الوليد إلى دمشق وأمره بالتوقف بالفتح عند هذا الحد.

ويؤكد المؤرخون أنه لو قد قدر لموسى بن نصير أن يمضي قدماً في مشروعه هذا لتغير شكل النظام الدولي تماماً، ولقضى على القوى غير الإسلامية، ذلك أنهم باستقرائهم النظام الدولي وقتئذ؛ فإنهم يؤكدون أن احتمالات نجاح مشروعه هذا كانت عالية جداً، إذ لم تكن الظروف مواتية لنجاحه مثلما كانت مواتية وقتها، فمملكة الفرنجة كانت مشغولة وقتها بصراعاتها مع الممالك الأخرى، ولم يكن هناك كيان سياسي واحد في أوروبة كلها يعادل قوة الدولة الإسلامية أو حتى بدايتها.

ويشير هؤلاء المؤرخون إلى أنه لما قدر للمسلمين في هذه المنطقة قائد كفء بعد عشرين عاماً من ضياع هذه

([1]) الكامل في التاريخ (212/3).

([2]) خلافة سليمان بن عبد الملك ، ص 122.

([3]) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين ، ص 309.

([4]) دولة الإسلام في الأندلس (54/1)؛ التاريخ الأندلسي ، ص 113.

الفرصة كانت الظروف الدولية قد تغيرت لغير صالح المسلمين، فلما حاول هذا القائد إحياء مشروع موسى بن نصير هزم هزيمة ضخمة تدخل في تاريخ العلاقات الدولية بوصفها نقطة تحول؛ وهي معركة بلاط الشهداء [1].

وقد تكرست الاثار السلبية لعدم استكمال موسى بن نصير لمشروعه بفشل حصار المسلمين للقسطنطينية بعد ذلك بسنوات قليلة، وهو ما أغلق أوروبة أمام المسلمين من الشرق بعد أن كانت قد أُغلقت أمامهم من الغرب، ولقد فشل المحللون في تفسير سبب استدعاء الخليفة الوليد لموسى بن نصير، فبعضهم قائل: إنه أشفق على المسلمين من مخاطر هذا المشروع البحري، وبعضهم الاخر يؤكد أن الخليفة إنما خاف على سلطانه من تصاعد نفوذ وقوة موسى بن نصير، وسواء صحت هذه التفسيرات أو أخطأت، فإن ما حدث بالفعل بعد استدعاء موسى بن نصير إلى دمشق، هو تقويض هدف مصيري للأمة أضاعت فيه فرصة ثمينة في فتح أوروبة وجعلها تحت نفوذ الدولة الإسلامية[2] .

10 . خاتمة موسى بن نصير وطارق بن زياد رحمهما الله تعالى:

تخبطت الروايات في الحديث عن نهاية موسى وما لقيه من الخليفة سليمان من الأذى والغمط والنكران، وفي هذه الروايات غموض وتشويش وتناقض ومبالغات كبيرة[3] ، والصحيح أن سليمان كان عاتباً على موسى، لأمر لا نستطيع تحديده على وجه الدقة، ثم رضي عنه سليمان وقرّبه منه وأصبح من خاصته[4] ، وكانت بينه وبين سليمان محاورات وتساؤلات؛ فقد قال له سليمان يوماً: ما كنت تفزع إليه عند الحرب؟ قال: الدعاء والصَّبْر، قال: فأي الخيل رأيت أصبر؟ قال: الشقر، قال: فأي الأمم أشدُّ قتالاً؟ قال: هم أكثر من أن أصف؟ قال: فأخبرني عن الرُّوم، قال: أُسْدٌ في حصونهم، عِقبان على خيولهم، نساء في مَراكبهم، إن رأَوا فرصة انتهزوها، وإن رأَوْا غلبة، فأوعال تذهب في الجبال، لا يرون الهزيمة عاراً. قال: فالبربر؟ قال: هم أشبه العجم بالعرب لقاء ونجدة وصبراً وفروسية، غير أنهم أغدر الناس، قال: فأهل الأندلس؟ قال: ملوك مترفون وفرسان لا يجبنون، قال: فالفرنج؟ قال: هناك العدد والجلد والشدة والبأس، قال: فكيف كانت الحرب بينكم وبينهم؟ قال: أمَّا هذا فوالله ما هُزمت لي

([1]) الدولة الأموية دولة الفتوحات ، ص 44.

([2]) المصدر السابق نفسه.

([3]) التاريخ الأندلسي ، ص 126.

([4]) خلافة سليمان بن عبد الملك ، ص 123.

راية قط ولا بُدِّد لي جمع، ولا نُكب المسلمون معي منذ اقتحمت الأربعين إلى أن بلغت الثمانين، ولقد بعثت إلى الوليد بتور[1] زبرجد كان يجعل فيه اللبن حتى ترى فيه الشعرة البيضاء، ثم أخذ يُعدِّد ما أصاب من الجوهر والزبرجد حتى تحيَّر سليمان[2] .

وقد وصف الذهبي موسى بن نصير بقوله: الأمير الكبير، أبو عبد الرحمن اللخمي، متولي إقليم المغرب، وفاتح الأندلس، قيل: كان مولى امرأة من لخم، وقيل: ولاؤه لبني أمية. وكان أعرج مهيباً ذا رأي وحزم[3]، وكان من أصحاب الهمم الكبيرة؛ فقد قال مرّة: والله لو انقاد الناس لي، لقدتهم حتى أُوقعهم على رُومية ثم ليفتحنها الله على يدي[4].

وكان موسى بن نصير بوسعه أن يستقل عن الخلافة ويقيم ملكاً له ولأولاده في المغربوالأندلس، ولكن إيمانه العميق بتعاليم الإسلام وتمسكه والتزامه بها جعله لا يفكر بذلك، حتى إن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة سأله عن ذلك، فقال موسى: والله لو أردت ذلك ما نالوا من أطرافي طرفاً، ولكني اثرت الله ورسوله، ولم نر الخروج عن الطاعة والجماعة[5] .

وقد توفي موسى بن نصير رحمه الله تعالى وهو متجه للحج برفقة الخليفة سليمان بن عبد الملك في المدينة المنورة ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ، أو في وادي القرى (العُلا حالياً) أواخر سنة 97 هـ[6] ، وعمره ثمانٍ وسبعون سنة أو يزيد (في سنة 97 هـ) .[7] ، وقال صاحب معالم الإيمان: توفي بالمدينة متوجهاً إلى الحج، وكان قد سأل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة أو يموت بالمدينة، فأجاب الله دعاءه[8] ، وصلى عليه مسلمة بن عبد الملك[9] .

لقد كانت الدنيا وما فيها صغيرة ولا قيمة لها عند موسى بن نصير، ويرجع الفضل في ذلك إلى الله ثم نصيحة العالم الجليل أبو عبد الله علي بن رباح اللخمي لموسى بن نصير، فقد أورد صاحب كتاب رياض النفوس: أن

([1]) التور: الإناء.

([2]) سير أعلام النبلاء (499/4).

([3]) المصدر السابق نفسه (496/4 ، 497).

([4]) المصدر السابق نفسه (500/4).

([5]) المصدر السابق نفسه (499/4)؛ الشرف والتسامي ، ص 279.

([6]) تاريخ علماء الأندلس (146/2)؛ التاريخ الأندلسي ، ص 127.

([7]) نفح الطيب (283/1).

([8]) معالم الإيمان (20/1)؛ التاريخ الأندلسي ، ص 128.

([9]) الشرف والتسامي ، للصَّلابي ، ص 281؛ قادة فتح المغرب (221/1 . 309).

موسى بن نصير لما وصل من الأندلس إلى القيروان قعد يوماً في مجلسه، فجاءه العرب يسلمون عليه، فلما احتفل المجلس قال: إنه قد صحبتني ثلاث نعم: أما واحدة فإن أمير المؤمنين كتب إليَّ يهنئني في كتابه، وأمر بقراءة الكتاب، فهُنِّئ بذلك، وأما الثانية فإن كتاب ابني قدم علي بأنه فتح له بالأندلس فتح عظيم، وأمر بالكتاب فقرئ فهُنِّئ بذلك، وكان علي بن رباح ساكت، فقال له موسى: مالك يا علي لا تتكلم؟ فقال: أصلح الله الأمير، قد قال القوم، فقال: وقل أنت أيضاً. فقال: أنا أقول . وأنا أنصح القائلين لك .: إنه ما من دار امتلأت حبرة إلا امتلأت عبرة، وما انتهى شيء إلا رجع، فارجع قبل أن يرجع بك، فانكسر موسى بن نصير وخشع وفرق جواري عدة.. وقال صاحب الرياض: ونفعه الله عز وجل بموعظة أبي عبد الله بن رباح، فصغرت عنده الدنيا وما فيها، ونبذها وانخلع مما كان فيه من الإمارة[1] .

فرضي الله عن التابعي الجليل، والإداري الحازم، والبطل المغوار، والقوي الأمين، القائد الفاتح موسى بن نصير اللخمي الذي فتح المغرب الأقصى، واستعاد فتح المغرب الأوسط، وقد دعم الفتح الإسلامي في الشمال الإفريقي، وفتح الأندلس وقسماً من جنوب فرنسة، وكان من أعظم قادة الفتح الإسلامي[2]، لقد مات موسى بن نصير بعد أن ملأ جهاده . بقيادة المد الإسلامي المبارك . وديان المغرب الإسلامي (الشمال الإفريقي والأندلسي) وجباله وسهوله وهضابه، ووجه دعاة الحق لإسماع ساكنيه دعوة الإسلام الخالدة، فكانت سبباً في إخراجهم من الكفر إلى الإيمان، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور، أما ترى معي موسى وهو يجوب الصحارى والوديان والسهول والجبال وقد سلخ من سني عمره خمساً وسبعين سنة، ممتطياً جواده، يتحرك في أعماقه إيمان بالله العلي القدير قد دفعه للجهاد والدعوة والعلم والتربية وإحكام أمور الدولة رغم ما علا رأسه من الشيب الوقور، منقاداً لإصرار العقيدة السمحة، وهمة الإيمان الفتي[3] ، التي كانت سبباً في كل خير أصاب المسلمين.

أما عن البطل الكبير طارق بن زياد، فلا نكاد نعرف شيئاً مما حدث له بعد وصوله دمشق، غير أن رواية تذكر رغبة سليمان في تولية طارق الأندلس[4]، وبعد ذلك قضى اخر أيامه مغموراً[5] ؛ فهل عاد إلى المغرب والأندلس

([1]) رياض النفوس (119/1 ، 120).

([2]) قادة فتح المغرب (221/1 . 309).

([3]) التاريخ الأندلسي ، ص 128.

([4]) نفح الطيب (13/3).

([5]) نفح الطيب (14/3)؛ دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين ، ص 309.

أم بقي في دمشق؟ ولا يستبعد أن يكون عاد إلى الأندلس أو المغرب[1] .

كان طارق من البربر وعامّة جنوده كذلك، فيهم شجاعة وإقدام، فقد تربوا في أحضان الإسلام وعلى تعاليم القران الكريم، وأصبحوا أصحاب رسالة خالدة صنعت منهم الأبطال، وقدموا في سبيل دينهم وعقيدتهم الغالي والنفيس، بل نجزم بأن الجيوش الإسلامية الضاربة التي اصطدمت بالإسبان اعتمدت بعد الله على إخواننا من البربر الذين اندفعوا خلف طارق في سبيل هذا الدين ونشره، إن العقيدة الإسلامية صهرت المنتسبين إليها عرباً وعجماً في رحاب الإسلام العظيم[2] .

11 . الأندلس بعد موسى بن نصير:

تولى الأندلس منذ عودة موسى بن نصير إلى دمشق وحتى قيام الإمارة الأموية سنة 138 هـ حوالي عشرين أميراً، كان أولهم عبد العزيز بن موسى بن نصير الذي ألقى أبوه بزمام الأندلس بين يديه، وكان خير خلف لخير سلف، فقد ضبط الأمور وسد الثغور وافتتح مدائن كثيرة وكان من خيرة الولاة[3]، ولكن لم تطل مدة عبد العزيز في حكم الأندلس، فقد قتله بعض جنده غيلة لأشياء نقموها عليه، وكان ذلك في مستهل رجب سنة 97 هـ[4] .

وأعقب مقتل عبد العزيز بن موسى فترة من الاضطراب، ومكث أهل الأندلس شهوراً لا يجمعهم وال؛ حتى اجتمعوا على أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نصير[5] ، وكان أيوب رجلاً صالحاً فاضلاً، ولكن مدة ولايته لم تطل، ويبدو أن الناس هناك هم الذين نصبوه ليدبر الأمور حتى تعين الخلافة والياً من قبلها.

وقد عينت الحر بن عبد الرحمن الثقفي الذي كان أهم أعماله نقل مقر إمارة الأندلس من إشبيلية . حيث كان يحكم عبد العزيز بن موسى . إلى قرطبة[6] . كما كانت له غزوات تجاوز بها حدود بلاد الأندلس إلى بلاد الفرنجة ونواحي أربونة، فسبى وغنم وقفل بالأسارى والغنائم[7]، وقد أدى انشغال الحر الثقفي بالغزو في الشمال الشرقي

---

(1) التاريخ الأندلسي ، ص 128.

(2) فاتح الأندلس طارق بن زياد ، ص 45 ، 46.

(3) البيان المغرب (24/2)؛ العالم الإسلامي في العصر الأموي ، ص 320.

(4) البيان المغرب (24/2).

(5) المصدر السابق نفسه (25/2).

(6) المصدر السابق نفسه.

(7) المسلمون في المغرب والأندلس، د. محمد زيتون (193/1) .

إلى انتعاش حركة المقاومة المسيحية في المنطقة التي لم يتمكن المسلمون من فتحها، وهي المنطقة الشمالية الغربية بزعامة بلاي[1]، مما اضطره إلى العودة للقضاء على تلك المقاومة، وبينما هو مشغول بذلك عزله الخليفة عمر بن عبد العزيز (99 . 101هـ) وعين مكانه السمح بن مالك الخولاني (100 . 102 هـ)[2] .

* * *

(1) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، د. مختار العبادي ، ص 40 . 41.

(2) العالم الإسلامي في العصر الأموي ، ص 321.

المبحث الثالث

فتوحات المشرق

أولاً: فتوحات المهلب بن أبي صفرة:

كوفأى المهلب بن أبي صفرة على إخلاصه للدولة وتفانيه في محاربة الخوارج أميراً على خراسان عام 78 هـ بناء على توصية الخليفة عبد الملك، فنزل العاصمة مرو، ثم أخذ يعيد الهدوء والأمن والنظام إلى البلاد، ولأول مرة بعد أربع عشرة سنة، تمّ إرسال جحافل المسلمين من جديد نحو الشرق إلى بلاد تركمان سنة 80 هـ[1]، فعبر المهلب بنفسه نهر بلخ (سيحون) ونزل كش[2]، ثم جعل يغزو البلاد غزواً متواصلاً لا يفتر عن الجهاد؛ فخيل له بسمرقند، وأخرى ببخارى، وثالثة بطخارستان، ورابعة ببست[3]، وكان كلما فتح فتحاً أخرج الخمس لبيت المال وأرسله إلى الحجّاج، ويقسم الباقي بين أصحابه[4]، وكان على مقدمته أبو الأدهم الزماني في ثلاثة الاف وهو في خمسة الاف. ووجه المهلب ابنه يزيد إلى بلاد الختل وملكها الشبل، بناء على ترغيب ابن عم الملك، وفي بلاد الختل تمكن الملك الشبل من ابن عمه فقتله، أما يزيد بن المهلب، فقد استطاع تحقيق أهداف الحملة، فقد اضطره إلى المصالحة ودفع الفدية، بعد أن هزمه عسكرياً وقام بمضايقته في حصار قلعة الشبل، وأرسل ابنه الثاني حبيب إلى رابنجن، فوافى صاحب بخارى في أربعين ألفاً، فقام قسم من أهالي بخارى بالهروب والاختباء بإحدى القرى فاجتثهم وعاد حبيب إلى أبيه منتصراً[5].

1 . وفاة المهلب:

كان المهلب من التابعين، فقد ولد عام الفتح الذي كان سنة ثمانٍ الهجرية، ومات سنة 82 هـ في ولاية خراسان، وكان يقال: ساد الأحنف بحلمه، ومالك بن مسمع بمحبته للعشيرة، وقتيبة بدهائه، ساد المهلب بهذه الخلال

([1]) الكامل في التاريخ (138/3).

([2]) المصدر السابق نفسه.

([3]) بست: مدينة عظيمة من سجستان ، وهراة. تقويم البلدان (625/3).

([4]) الفتوح ، لابن أعثم (58/7).

([5]) الكامل في التاريخ (138/3)؛ تجديد الدولة الأموية ، ص 167.

جميعاً[1]. وكان سيداً جليلاً نبيلاً خطيباً شجاعاً فقيهاً، وكان على جانب عظيم من السخاء والكرم، ومما يدل على كرمه أنه أقبل يوماً في بعض غزواته فتلقته امرأة فقالت له: أيها الأمير ! إني نذرت إن أقبلت سالماً أن أصوم شهراً وتهب لي جارية وألف درهم، فضحك المهلّب، وقال: قد وفينا نذرك فلا تعودي لمثله، فليس كل أحد يفي لك به[2] . ووقف رجل فقال: أريد منك حُويجة. فقال المهلب: اطلب لها رُجيْلاً . يعني: أن مثلي لا يسأل إلا عن حاجة عظيمة[3].

وكان حليماً؛ ومن أخبار حلمه: أنه مرّ يوماً بالبصرة، فسمع رجلاً يقول: هذا أعور قد ساد الناس، ولو خرج إلى السوق لا يساوي أكثر من مئة درهم، فبعث إليه المهلب بمئة درهم وقال: لو زدتنا في الثمن زدناك في العطية[4]. وكان قد فقئت عينه بسمرقند[5] .

وكان بليغاً في كلامه حكيماً في آرائه، له كلمات لطيفة وإشارات مليحة تدل على مكارمه ورغبته في حسن السمعة والثناء الجميل، ومن ذلك قوله: الحياة خير من الموت، والثناء خير من الحياة، ولو أعطيت ما لم يعطه أحد لأحببت أن تكون لي أذن أسمع بها ما يقال فيَّ غداً إذا مت[6]. وقيل يوماً للمهلّب: ما خير المجالس؟ فقال: ما بعد فيه مدى الطرف، وكثر فيه فائدة الجليس. وقال يوماً: أدنى أخلاق الشريف كتمان السر، وأعلى أخلاقه نسيان ما أسرّ إليه[7] .

2 . وصيته لأبنائه حين حضرته الوفاة:

دعا ابنه حبيباً ومن حضره من ولده، ودعا بسهام فحزمت، ثم قال: أفترونكم كاسريها مجتمعة؟ قالوا: لا. فقال: أفترونكم كاسريها متفرقة؟ قالوا: نعم. قال: فهكذا الجماعة، فأوصيكم بتقوى الله، وصلة الرحم، فإن صلة الرحم تنسئ في الأجل، وتثري المال وتكثر العدد، وأنهاكم عن القطيعة؛ فإن القطيعة تعقب النار وتورث الذلة والقلّة، فتحابوا وتواصلوا وأجمعوا أمركم لا تختلفوا، وتبارّوا تجتمع أموركم. إن بني الأم يختلفون؛ فكيف ببني العَلات؟ وعليكم بالطاعة والجماعة، وليكن فعالكم أفضل من قولكم، فإني أحبّ للرجل أن يكون لعمله فضل على لسانه، واتقوا

([1]) قادة فتح السند وأفغانستان ، ص 192.

([2]) المصدر السابق نفسه.

([3]) البخلاء ، للجاحظ ، ص 133؛ نقلاً عن قادة فتح السند ، ص 192.

([4]) قادة فتح السند؛ نقلاً عن سرح العيون ، ص 107.

([5]) وفيات الأعيان (434/4)؛ قادة فتح السند ، ص 193.

([6]) وفيات الأعيان (434/4).

([7]) قادة فتح السند وأفغانستان ، ص 193.

الجواب وزلة اللِّسان، فإن الرجل تزلّ قدمه فينتعش من زلّته، ويزلّ لسانه فيهلك. اعرفوا لمن يغشاكم حقّه، فكفى بغدو الرجل ورواحه إليكم تذكرة له، واثروا الجود على البخل، وأحبوا العرب واصطنعوا العرف، فإن الرجل من العرب تَعده العِدة فيموت دونك، فكيف الصنيعة عنده؟! عليكم في الحرب بالأناة والمكيدة فإنها أنفع في الحرب من الشجاعة، وإذا كان اللقاء نزل القضاء، فإن أخذ الرجل بالحزم فظهر على عدوه قيل: أتى الأمر من وجهه ثم ظفر فَحُمد، وإن لم يظفر بعد الأناة قيل: ما فرّط ولا ضيّع، ولكن القضاء غالب، وعليكم بقراءة القران وتعلم السنن وأدب الصالحين، وإياكم والخفة وكثرة الكلام في مجالسكم[1] .

وبعد وفاة المهلب ولّى الحجّاج ابنه يزيد خراسان، فقام يزيد عام 84 هـ بفتح قلعة باذنجس[2] ، التي كان ينزلها ينزك، بعد أن وضع عليه العيون، وتأكد من خلو القلعة بخروج ينزك منها، فسار إليها وحاصرها فتمَّ له فتحها، واستولى على ما فيها من الأموال والذخائر وكانت القلعة على جانب كبير من المنعة؛ بحيث إن صاحبها ينْزك كان يسجد لها[3] ، وعزل الحجّاج يزيد بن المهلب وعيَّن أخاه المفضل على ولاية خراسان عام 85 هـ، فولي المفضل البلاد تسعة أشهر قام خلالها بغزو باذنجس، ففتحها وأصاب منها مغنماً، فقسم المغانم بين المقاتلين، فأصاب كل رجل منهم ثمانمئة درهم، ثم غزا المفضل اخرون وثومان، فظفر وغنم، وكان يقسم الأموال مباشرة لعدم وجود بيت مال عنده[4] .

وفي عام 86 هـ عين الحجّاج قتيبة بن مسلم على خراسان[5] ، وقبل الحديث عن قتيبة وفتوحاته لابد من الإشارة إلى فتوحات سجستان.

3 . سجستان:

ولى الخليفة عبد الملك عليها: أمية بن عبد الملك بن خالد بن أسيد بن أبي العيص، فوجه هذا ابنه عبد الله فصالحه رتبيل القائم على ثلاثمئة ألف درهم، ولما بلغ الخليفة ذلك عزله، ثم ولى الحجّاج عام 78 هـ عبيد الله بن أبي بكرة فلبث سنة بلا غزو، وفي السنة التالية تحرك لمناجزة رتبيل الذي كان مصالحاً، ولكنه يؤدي الخراج حيناً ويمنع حيناً اخر، فقام عبيد الله بن أبي بكرة عام 79 هـ، ومضى إليه غازياً حتى دخل بلاده، فأصاب منها الغنائم وهدم

([1]) تاريخ الطبري (251/7).

([2]) المصدر السابق نفسه (252/7 ، 284).

([3]) المصدر السابق نفسه (285/7).

([4]) تجديد الدولة الأموية ، ص 168؛ تاريخ الطبري (291/7).

([5]) تاريخ الطبري (323/7).

الحصون وغلب على أرض من أراضيهم، وهرب أتباع رتبيل من الترك أمام جحافل المسلمين، حتى اقتربوا من عاصمتهم كابل، فأخذ الترك على المسلمين الشعاب والمسالك، فسُقط في أيدي المسلمين، حتى شعر الجنود المسلمون بالضيق والهلاك، مما دفع عبيد الله بن أبي بكرة إلى مصالحة رتبيل ليمكن المسلمين الخروج من أرض الترك سالمين[1] .

وكان بين المقاتلين أحد الزهاد ممن يعشق الجهاد، ويعرف باسم شريح بن هانئ، فقام شريح ودعا الجنود إلى الاستمرار في القتال لطلب الشهادة، ومما جاء في دعوته: يا أهل الإسلام، من أراد منكم الشهادة فإليَّ. فاتبعه أُناس من المتطوعة وفرسان الناس، وأهل الحفاظ، فقاتلوا الترك حتى أصيبوا إلا قليلاً، وعادوا من بلاد رتبيل فاستقبلهم الناس بالأطعمة، فكان أحدهم إذا أكل وشبع مات.

وبذلك لم تحقق هذه الغزوة أهدافها العسكرية، مما دفع الحجّاج إلى استئذان الخليفة عبد الملك بإرسال جيش جديد[2] ، يعيد للدولة هيبتها ومكانتها[3]، فأعد الحجّاج في عام 80 هـ جيشاً قوياً من أهل الكوفة، بلغ عدد عسكره أربعين ألفاً، عشرون ألفاً من الكوفة، ومثلهم من البصرة، وتشجيعاً للجنود ورفعاً لروحهم المعنوية أعطاهم أعطياتهم مسبقة، وأنفق فيها الأموال، وأنجدهم بالخيل والسلاح، حتى سمي هذا الجيش (جيش الطواويس) فقد بلغت الأموال التي أنفقها على تجهيزه سوى الأعطيات مليوني درهم[4]، واختار لهذا الجيش الكبير عبد الرحمن بن الأشعث الذي سار بهم حتى وصل سجستان[5] . وقد تحدثنا عن هذا الجيش وما قام به من حروب أهلية عند دراستنا لثورة عبد الرحمن بن الأشعث.

ثانياً: فتوحات قتيبة بن مسلم في بخارى وسمرقند وغيرها:

هو قتيبة بن مسلم الباهلي الأمير، أبو حفص، أحد الأبطال والشجعان، ومن ذوي الحزم والدهاء والرأي والغَنَاء، وهو الذي فتح خوارزم وبخارى وسمرقند وكانوا قد نقضوا وارتدُّوا. ثم إنه افتتح فرغانة وبلاد الترك في سنة 95 هـ[6]،

([1]) المصدر السابق نفسه (219/7).

([2]) المصدر السابق نفسه (223/7).

([3]) المصدر السابق نفسه (224/7)؛ تجديد الدولة الأموية ، ص 169.

([4]) المصدر السابق نفسه، (224/7)؛ تجديد الدولة الأموية ، ص 169.

([5]) تاريخ الطبري (224/7).

([6]) سير أعلام النبلاء (410/4).

ولي خراسان عشر سنين، وله رواية عن عمران بن حصين، وأبي سعيد الخدري[1] ، ولم ينل قتيبة أعلى الرتب بالنسب، بل بكمال الحزم والعزم والإقدام والسَّعد، وكثرة الفتوحات ووفور الهيبة[2] .

تولى قتيبة خراسان بعد المفضل بن المهلب، وكان من الأبطال الشجعان ذوي الحزم والدهاء والرأي والغناء، ويعتبر بحق من أعظم القادة الفاتحين، الذين عرفهم التاريخ الإسلامي عامة وتاريخ الدولة الأموية خاصة[3] ، ففي عشر سنين فتح أقاليم شاسعة. وقد هدى الله على يديه خلقاً لا يحصيهم إلا الله، فأسلموا ودانوا لله عز وجل[4] ، وكانت بداية فتوحاته عندما وصل لخراسان، فقد جمع الناس وخطبهم قائلاً: إن الله أحلكم هذا المحل ليعزَّ دينه ويذب بكم عن الحرمات، ويزيد بكم المال استفاضة والعدو وقماً ـ أي ذلاً ـ ووعد نبيه ﷺ النصر بحديث صادق وكتاب ناطق، فقال: {هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٩﴾} [سورة الصف:9] . ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده فقال: إلى قوله: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *} [التوبة: . 121] ، ثم أخبر عمن قتل في سبيله أنه حي مرزوق، فقال:

{ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾} [سورة آل عمران:169] ، فتنجزوا موعود ربكم، ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم وإياي والهوينى[5] .

بهذه الخطبة الموجزة ذكَّر قتيبة المسلمين برسالتهم، ومسؤولياتهم تجاهها، وأهاب بهم أن يوطنوا أنفسهم على تحمل المشقة في سبيل الله، وأن يسيروا في طريق إسلامهم طريق الجهاد، والعزة في الدنيا، والفوز بالجنة في الآخرة[6]، وشرع قتيبة في الفتوحات، وفتح منطقة ما وراء النهر، ثم عبر نهر سيحون وفتح أقاليم كبرى، حتى وصل كاشغر متاخماً بذلك حدود الصين.

([1]) المصدر السابق نفسه.

([2]) المصدر السابق نفسه (411/4).

([3]) العالم الإسلامي في العصر الأموي ، ص 341.

([4]) البداية والنهاية؛ نقلاً عن العالم الإسلامي ، ص 341.

([5]) تاريخ الطبري (323/3).

([6]) العالم الإسلامي في العصر الأموي ، ص 343.

وأهم المراحل الكبرى في هذه الفتوحات:

المرحلة الأولى: استعادة الطالقان[1] والصغانيان وطخارستان[2] :

عرض قتيبة جنده وحثهم على الجهاد وسار غازياً، فلما كان بالطالقان أتاه دهاقين (بلخ) وساروا معه، فقطع نهر (جيحون) فتلقاه ملك (الصغانيان) بهدايا ومفاتيح من ذهب، ودعاه إلى بلاده وسلّمها إليه، لأنّ ملك شومان[3] وأخْرون[4] ، كان يسيء جواره، وسار قتيبة منها إلى أخرون وشُومان وهما من الصَّغَانيان، فصالحه ملكها على فدية أداها إليه، فقبلها قتيبة ثم انصرف عائداً إلى (مرو)، واستخلف على جنده أخاه صالح بن مسلم، ففتح صالح بعد رجوع قتيبة (كاشان)[5] وأورشت[6] ، وفتح أخسيكت[7] ، وهي مدينة (فرغانة) [8] القديمة [9]، بهذا الفتح الكبير استهل قتيبة ولايته لخراسان سنة 86 هـ [10] .

المرحلة الثانية: فتح إقليم بخارى (87 . 90 هـ):

كانت أول مدينة غزاها في هذا الإقليم، وهي مدينة بيكند، يقول الطبري: إن قتيبة لما صالح نيزك، أقام إلى وقت الغزو، ثم غزا في تلك السنة 87 هـ فقطع النهر وسار إلى بيكند، وهي أدنى مدائن بخارى إلى النهر، فلما نزل قريباً منها استنصروا الصغد واستمدوا من حولهم، فأتوهم في جمع كثير، وأخذوا بالطريق فلم ينفذ لقتيبة رسول ولم يصل إليه رسول، ولم يعرف له خبر شهرين، وأبطأ خبره على الحجّاج، فأشفق الحجّاج على الجند، فأمر الناس بالدعاء لهم في المساجد، وكتب بذلك إلى الأمصار، وهم يقتتلون كل يوم، فكانت بين الناس مشاولة[11] ، ثم تزاحفوا والتقوا وأخذت السيوف مأخذها وأنزل الله على المسلمين الصبر، ثم منح الله المسلمين أكتافهم فانهزموا يريدون

([1]) بلد في خراسان بين مرو الروذ وبلخ.

([2]) طخارستان: ولاية واسعة تشمل عدة بلاد ، وهي من نواحي خراسان.

([3]) شومان: بلد الصغانيان من وراء نهر جيحون. معجم البلدان (310/5).

([4]) أخرون: الظاهر مدينة قريبة من شومان.

([5]) كاشان: مدينة فيما وراء النهر. معجم البلدان (207/7).

([6]) أورشت: مدينة من مدن فرغانة.

([7]) أخسيكت: اسم مدينة فيما وراء النهر.

([8]) فرغانة: مدينة متاخمة لبلاد تركستان.

([9]) معجم البلدان (85/2).

([10]) قادة الفتح الإسلامي فيما وراء النهر ، ص 378.

([11]) المشاولة: القتال بالرماح.

المدينة، واتبعهم المسلمون فشغلوهم عن الدخول فتفرقوا، وركبهم المسلمون قتلاً وأسراً كيف شاؤوا، واعتصم من دخل المدينة بالمدينة وهم قليل، فوضع قتيبة الفَعَلة في أصلها ليهدمها، فسألوه الصلح فصالحهم، واستعمل عليها رجلاً من بني قتيبة[1] .

ولكنهم سرعان ما نقضوا الصلح، وقتيبة منهم على خمسة فراسخ، فرجع إليهم، وقتل من كان في المدينة، وغنم غنائم كثيرة، ورجع قتيبة إلى مرو، وقوي المسلمون، فاشتروا السلاح والخيل.. وتنافسوا في حسن الهيئة والعدة[2] .

واستمرت حملات قتيبة على إقليم بخارى في هذه المرحلة بصفة منتظمة كل سنة، وكان غزوه يتم في فصل الصيف، فإذا دخل الشتاء عاد إلى مرو، وفي سنة 88 هـ ترك أخاه بشاراً على مرو، وعبر النهر ففتح نومشكت ورامثنة من أعمال بخارى صلحاً بناء على طلب أهلها[3] ، ولكن هاله حلف من أهل فرغانة والصغد في مئتي ألف عليهم ابن أخت ملك الصين ـ كور مغايون ـ، وواضح من هذا التجمع الكبير أن الأمم في هذه المناطق قد تداعت وتحالفت على المسلمين، ولكن الله نصر قتيبة وجنده على هذا الحلف، ثم عاد إلى مرو[4] .

وفي عام 89 هـ استأنف قتيبة فتوحاته وقصد بخارى هذه السنة بناء على أوامر الحجّاج، فلقيه في طريقه جمع من أهل كش ونسف، فظفر بهم ومضى إلى بخارى، فتصدى له ملكها ـ وردان خذاه ـ فلم يستطع الاستيلاء عليها، فرجع إلى مرو، وكتب إلى الحجّاج يخبره، فطلب منه الحجّاج أن يصورها له، فبعث إليه بصورتها، فنصحه وأمده وعرفه الموضع الذي يأتيها منه، وأمره بالمسير إليها، فسار إليها سنة 90 هـ، ومع أن وردان خذاه كان قد استجاش الصغد والترك ليساعدوه في التصدي لقتيبة، إلا أنه تمكن من الانتصار عليهم بعد معارك شرسة، واستولى على بخارى، وكتب بالفتح إلى الحجّاج[5] ، وبهذا استكمل قتيبة فتح إقليم بخارى كله في ثلاث سنوات.

المرحلة الثالثة: (90 ـ 93 هـ) فتح سمرقند:

وهي المرحلة التي فرض فيها قتيبة السيادة الإسلامية على حوض نهر جيحون، وتوج عمله فيها بالاستيلاء على مدينة سمرقند، أعظم المدائن في بلاد الصغد، وكان طرخون ملك الصغد، قد أرسل إلى قتيبة بعد انتصاره في معركة

---

(1) تاريخ الطبري (331/7).

(2) المصدر السابق نفسه (332/7).

(3) المصدر السابق نفسه (336/7 ، 337).

(4) المصدر السابق نفسه (337/7).

(5) تاريخ الطبري؛ نقلاً عن العالم الإسلامي ، ص 346.

بخارى سنة 90 هـ يطلب الصلح[1] ، فأجابه قتيبة وصالحه، ورجع قتيبة[2] ، وفي سنة 91 هـ كان غدر نيزك ـ صاحب قلعة بادغس ـ وتأليبه ملوك طخارستان ورتبيل ملك سجستان على المسلمين، وقد نكل به قتيبة في سجستان من الشمال، وربما كانت تلك أول مرة يغزو فيها قتيبة سجستان، وربما كان قد أراد تأديب رتبيل ملكها لانضمامه إلى نيزك في غدره، ولكن رتبيل قدر العواقب وطلب الصلح، فقبل قتيبة وصالحه، وانصرف عائداً إلى مرو، وترك عبد ربه بن عبد الله بن عمير الليثي عاملاً على سجستان[3] .

وقد توج قتيبة فتوحاته في هذه المرحلة بفتح سمرقند، وهي أعظم مدائن ما وراء النهر، والذي دعاه إلى ذلك أن طرخون ملكها كان قد نقض الصلح الذي أبرمه معه قتيبة سنة 90 هـ، وامتنع عن دفع ما كان صالح عليه، فقرر قتيبة أن يضع حداً لهذا العبث، فجمع جنده وأخبرهم بنقض طرخون الصلح، وبعزمه على فتح سمرقند بالقوة وجهز أخاه عبد الرحمن بن مسلم في عشرين ألف مقاتل، وأمره بالسير أمامه، ثم تبعه هو في أهل خوارزم وأهل بخارى، وضرب عليها الحصار وقال: إنا إذا نزلنا بساحة {فساء صباح المنذرين } [4] متيمناً بقول رسول الله (ص) عندما حاصر خيبر ،فلما رأى أهل سمرقند أن مدينتهم قد حوصرت خافوا طول الحصار ، فكتبوا إلى ملك الشاش وفرغانة يستغيثونهم ، ويحرضونهم على المسلمين ، وقالوا لهم : إن العرب إذا ظفروا بنا عادوا عليكم بمثل ما أتونا به فانظروا لأنفسكم [5] ، فاستجاب هؤولاء الملوك لنداء أهل سمرقند ، واختاروا عددا من أولادهم ومن أهل النجدة والبأس من أبناء المرازبة والأساورة والأبطال وأمروهم أن يفاجئوا قتيبة في معسكره ، وهو مشغول بحصار سمرقند ، ولكن قتيبة كان يقظاً باثاً عيونه ، ولم يغب عن باله حدوث مثل هذه المفاجآت ، فعلم بخبرهم وأرسل لهم فرقة من جنده بقيادة أخيه صالح بن مسلم ، فبدد شملهم وقتلهم ، ولم يفلت منهم إلا الشريد ، وغنم المسلمون أمتعتهم وأسلحتهم[6] .

فلما رأى الصغد ما حل بهؤلاء انكسروا وضيق عليهم قتيبة الخناق ونصب المنجنيق على المدينة، واستطاع إحداث ثلمة فيها، وصاح صيحة الأسد: حتى متى يا سمرقند يعشش فيك الشيطان ؟! أما والله لئن أصبحت لأحاولنّ

([1]) ا لعالم الإسلامي في العصر الأموي ، ص 346.

([2]) تاريخ الطبري (344/7 ، 345).

([3]) المصدر السابق نفسه (369/7).

([4])تاريخ الطبري؛ نقلاً عن العالم الإسلامي في العصر الأموي ، ص 348.

([5]) العالم الإسلامي في العصر الأموي ، ص 348؛ نقلاً عن تاريخ الطبري.

([6]) المصدر السابق نفسه؛ نقلاً عن الكامل في التاريخ.

من أهلك أقصى غاية، فلما أصبح أمر الناس بالجد في القتال فقاتلوهم، واشتد القتال، وأمرهم قتيبة أن يبلغوا ثلمة المدينة، ورماهم الصغد بالنشاب فلم يبرحوا، فأرسل الصغد إلى قتيبة، فقالوا له: انصرف عنا اليوم، حتى نصالحك غداً، فقال: لا نصالحهم إلا ورجالنا على الثلمة.. فصالحهم من الغد على ألفي ألف ومئتي ألف مثقال في كل عام، وأن يعطوه تلك السنة ثلاثين ألف رأس، وأن يخلو له المدينة فلا يكون فيها مقاتل، فيبني فيها مسجداً، ويدخل ويصلي ويخطب ويتغدى ويخرج[1] .

دخل قتيبة سمرقند وحطم ما بها من الأصنام، ولم يعبأ بما خوفه منها؛ حيث قال له أحدهم مدعياً نصيحته: لا تتعرض لهذه الأصنام فإن منها أصناماً من أحرقها أهلكته، فقال له: أنا أحرقها بيدي، فأمر بإشعال النار، وكبر ثم أحرقها، فوجدوا من بقايا مسامير الذهب والفضة خمسين ألف مثقال[2]، وبعد أن أتمّ قتيبة هذا الفتح العظيم عاد إلى مرو، لكي يستريح، ثم يستعد لجولته الأخيرة، التي سيفتح فيها المناطق السيحونية[3].

المرحلة الرابعة: أقاليم الشاش وفرغانة وكاشغر (94 . 96 هـ):

وهي المرحلة التي فتح الله فيها على يديه أقاليم الشاش وفرغانة وكاشغر، وقد بدأ هذه المرحلة سنة 94 هـ، حيث سار في موعد غزوه . في الصيف . ومعه عشرون ألفاً من أهل بخارى وكش ونسف وخوارزم[4]، فوجه قسماً منهم إلى الشاش، وتوجه هو بالقسم الاخر إلى فرغانة، حيث دار بينه وبين الترك قتال عنيف حول مدينة خجندة، ويبدو أن نتيجة المعركة لم تكن حاسمة، حيث توجه قتيبة إلى كاشان قبل أن يحسم أمر خجندة، وهناك أتاه جنوده الذين كان أرسلهم إلى الشاش، ويبدو أن قتيبة قد وجد مقاومة شرسة من الأتراك في هذه البلاد، فقد كتب إلى الحجّاج يطلب مدداً، فأرسل إليه جيشاً من العراق[5] ، ثم أمر محمد بن القاسم الثقفي أن يوجه إليه من السند مدداً[6] أيضاً، فإمداد قتيبة بهذه الجيوش من العراق ومن السند[7]، فوق ما معه من قوات كبيرة، يدل على قوة المقاومة التي لقيها في أقاليم سيحون، كما يدل على قوة عزم المسلمين في الجهاد، وأنه أراد أن يكون متفوقاً عليهم،

([1]) تاريخ الطبري (377/7).

([2]) المصدر السابق نفسه.

([3]) العالم الإسلامي في العصر الأموي ، ص 349.

([4]) تاريخ الطبري (385/7).

([5]) المصدر السابق نفسه (386/7).

([6]) المصدر السابق نفسه (387/7).

([7]) العالم الإسلامي في العصر الأموي ، ص 349.

حتى يحقق هدفه، وقد نجح بالفعل، وفتح أقاليم الشاش وفرغانة 95 هـ[1] ، وبعد أن أتم هذا الفتح الكبير، جاءته الأخبار بموت الحجّاج في شوال في تلك السنة، فاغتمَّ لموته، لما كان يجد منه من التأييد والتشجيع والمساندة، وقفل راجعاً إلى مرو، وتمثل قول الحطيئة:

لعمري لنعمَ المرءُ من الِ جعفرٍ	بحورانَ أمس أعلقتْهُ الحبائلُ
فإن تحيَ لا أملَلْ حياتي وإن تمتْ	فما في حياةٍ بعد موتِكَ طائلُ[2]

عاد قتيبة إلى مرو وقد ترك حاميات من جنده في بخارى وكش ونسف، وانتظر ما تأتي به الأقدار بعد موت الحجّاج. وكان الخليفة الوليد بن عبد الملك يعرف طبيعة العلاقة بين الحجّاج وقتيبة، وأن للحجّاج دوراً كبيراً في نجاح قتيبة في مهمته، فقدر وقوع نبأ موت الحجّاج عليه، لذلك واساه وأرسل إليه رسالة كلها تشجيع وثناء وتزكية، قال له فيها: قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدك في جهاد أعداء المسلمين، وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك الذي يجب لك، فأتمم مغازيك، وانتظر ثواب ربك، ولا تغيب عن أمير المؤمنين كتبك، كأني أنظر إلى بلادك والثغر الذي أنت فيه[3] .

. فتح كاشغر وغزو الصين:

أحدثت رسالة الخليفة الوليد بن عبد الملك أثراً طيباً في نفس قتيبة، وأعطته دفعة قوية من العزم والتصميم، فتوجه من مرو ليواصل فتوحاته، فقصد مدينة كاشغر التي يقول عنها الطبري: إنها أدنى مدائن الصين[4]، ومع أن الوليد بن عبد الملك قد توفي في جمادي الآخرة سنة 96 هـ، وصل نبأ وفاته إلى قتيبة وهو في فرغانة[5]. وقبل أن يصل إلى كاشغر، إلا أنه واصل سيره حتى فتحها.

وهنا جاءه رسول ملك الصين يطلب منه أن يوجه إليه وفداً ليعرف خبرهم، فاختار قتيبة عشرة . وقيل: اثني عشر . من خيرة رجاله برئاسة هبيرة بن المشمرج الكلابي، فأرسلهم إلى ملك الصين، ويقص الطبري خبر هذه السفارة في حديث طويل، نكتفي منه بما انتهى إليه الحوار مع ملك الصين، حيث قال لهم مهدداً: فانصرفوا إلى صاحبكم،

---

(1) تاريخ الطبري (394/7).

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) المصدر السابق نفسه (395/7).

(4) المصدر السابق نفسه (401/7).

(5) المصدر السابق نفسه.

فقولوا له: ينصرف، فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه، فرد عليه هبيرة في شجاعة المؤمن وعزته فقال له: كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك، واخرها في منابت الزيتون؟! وكيف يكون حريصاً من خلَّف الدنيا قادراً عليها وغزاك؟! وأما تخويفك إيانا فإن لنا اجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل، فلسنا نكرهه، ولا نخافه.

أعادت هذه المقالة ملك الصين إلى صوابه، وأيقن أنه أمام قوم لا يجدي معهم التهديد ولا الوعيد، فاعتدل في كلامه، وقال لهبيرة: فما الذي يرضي صاحبكم؟ قال: إنه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم، ويختم ملوككم، ويُعطى الجزية، قال: فإنا نخرجه من يمينه، نبعث إليه بتراب من أرضنا فيطؤه، ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم، ونبعث إليه بجزية يرضاها، قال: فدعا بصحائف من ذهب فيها تراب، وبعث بحرير

وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم، ثم أجازهم فأحسن جوائزهم، فساروا فقدموا بما بعث به، فقبل قتيبة الجزية، وختم الغلمان وردَّهم، ووطئ التراب[1] .

وهكذا انتهت هذه المرحلة من فتوحات قتيبة، التي طوى فيها أقاليم ما وراء جيحون، ثم عبر نهر سيحون، وفتح فرغانة والشاش، وأشروسنة، وكاشغر، وفرض سيادة الإسلام على ملك الصين، وجعل كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

وكان قتيبة قائداً عسكرياً فذّاً، وبطلاً سياسياً بارعاً، قهر الصعاب وتغلب على كل المشاكل التي واجهته، ولم يثنه عن عزمه لا صعوبة الطرق ووعورتها، ولا قسوة المناخ وشدته، فقد كان عزمه حديداً، وكان هدفه رشيداً، وغايته عظيمة، والعون من الله مكفول للمخلصين لهذا الدين العظيم[2] .

1 . جهود قتيبة في نشر الإسلام:

كان قتيبة ومن معه من الفاتحين يحرصون على دعوة الناس للإسلام، وإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام، فكان قتيبة يهتم ببناء المساجد في المدن والقرى والأرياف ويضع فيها العلماء والفقهاء لتربية الناس وتعليمهم الإسلام وقام بتسكين المسلمين بين السكان الأصليين، ليطَّلعوا على تعاليم الإسلام وعادات المسلمين وأخلاقهم عن طريق الاحتكاك بهم، مثل ما حدث مع أهل بخارى[3]، فأظهر الإسلام بهذه الطريقة،

(1) تاريخ الطبري (404/7).

(2) العالم الإسلامي في العصر الأموي ، ص 352.

(3) قتيبة بن مسلم الباهلي ، غانم السلطاني ، ص 138.

وأزال اثار الكفر ورسْم المجوسية، وبنى ببخارى المسجد الجامع وأمر المسلمين بأداء صلاة الجمعة فيه.

ومن أساليب قتيبة في ترغيب الناس في الدخول في الإسلام، كان يأمر بمنادٍ كل يوم يقول: بأن كل من يأتي لصلاة الجمعة يُعطى درهمين[1]، ويعد هذا العمل طريقة جديدة في ذلك العهد في تأليف قلوب الناس للإسلام والحفاظ على الذين اعتنقوه[2]، وكان في جيشه مجموعة من العلماء، كمحمد بن واسع، والقاضي يحيى بن يعمر، والضحاك بن مزاحم صاحب التفسير؛ فقد ساهم أمثال هؤلاء في نشر الإسلام، وكان محمد بن واسع ينافس قتيبة في بناء المساجد.

وقد صاحب عملية انتشار الإسلام بين سكان ما وراء النهر سرعة تعلمهم اللغة العربية، حيث كان قتيبة يصدر أوامره ببناء المساجد، ولم تكن تقتصر على إقامة شعائر الصلاة فقط، وإنما فيها حلقات الدرس في تعليم القران الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وكان للمسجد والعلماء الذين أشرفوا عليها دور عظيم في تعليم السكان اللغة العربية[3]، وقد قال ابن كثير عن قتيبة: إنه ما انكسرت له راية، وكان من المجاهدين في سبيل الله، واجتمع له من العسكر ما لم يجتمع لغيره[4].

وكان من نتائج الجهود التي بذلها قتيبة في نشر الإسلام: أن أصبحت بخارى وسمرقند وإقليم خوارزم مراكز للثقافة العربية ونشر الإسلام في اسية الوسطى، كما كانت مرو ونيسابور في خراسان، ومنها أيضاً دخول كثير من أهل ما وراء النهر في دين الله أفواجاً، فظهر بينهم عدد من الكتاب والمحدثين والفقهاء والمؤرخين، ممن لا يزال ذكرهم خالداً، واثارهم عظيمة في تاريخ الإسلام[5] .

2. من حكم قتيبة وأقواله المأثورة:

قوله: ملاك الأكثر في السلطان الشدة على المذنب واللين للمحسن[6]، وكان يقول: الخطأ مع الجماعة خير من الصواب مع الفرقة، وإن كانت الجماعة لا تخطأى والفرقة لا تصيب[7] وخاطب قتيبة الحجاج حين ظفر

(1) تاريخ بخارى ، للنرشخي ، ص 74.

(2) قتيبة بن مسلم الباهلي ، ص 138.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 140.

(4) البداية والنهاية؛ نقلاً عن قتيبة بن مسلم الباهلي ، ص 140.

(5) قتيبة بن مسلم الباهلي ، ص 140.

(6) بهجة المجالس ، ابن عبد البر (334/1).

(7) المصدر السابق نفسه (455/1).

بأصحاب ابن الأشعث فأراد قتلهم: إن الله قد أعطاك ما تحب من الظفر، فأعطه ما يحب من العفو[1] . وقال: الكامل المروءة من أحرز دينه، ووصل رحمه، وتوقَّى ما يُلام عليه[2] .

3 . مدح الشعراء له:

قال نهار بن توسعة يذكر انتصار قتيبة على الأتراك:

اللهُ في الأتــراكِ حــكــمــاً	كـحُـكْـمٍ في قُـرَيـظَـةَ والـنَّـفِـيرِ
قضـــاءٌ مـن قـتـيبـةَ غـيرُ جَـوْرٍ	به يشـــفي الغليلَ من الصـــدورِ[3]

وقال كعب الأشقري يمدح قيادة قتيبة:

كلُّ يومٍ يحوي قتيبـــــةُ نهبـــــاً	ويـزيـدُ الأمـوالَ مـالاً جـديـدا
باهليٌّ قـد ألبسَ التَّـــــاج حتَّى	شـــابَ منـه مفـارقٌ كنَّ سُـــودا
دوّخ (السُّـــغـدَ) بالكتـائِـبِ حتَّى	تـرك (الصُّـــغـد) بالـعـراء قُـعـودا
فوليـــــدٌ يبكي لفقـــــدِ أبيـــــه	وأبٌ مـوجـعٌ يـبـكـي الـولـيـدا
كلَّما حـــــلّ بلدةً أو أتـــــاها	تـركـتْ خـيـلُـه بهـا أُخْـدودا[4]

ونهار بن توسعة هو القائل:

أبي الإسلامُ لا أبَ لي سواهُ	إذا هَـتَـفُـوا بـبـكـرٍ أو تمـيـمِ[5]

4 . مقتل قتيبة ونهايته (96 هـ):

انتهت حياة هذا المجاهد الكبير نهاية حزينة أليمة، فقد مات الخليفة الوليد، وتولى أخوه سليمان بن عبد الملك (96 . 99 هـ)، وكانت العلاقة بين سليمان والحجاج ورجاله . ومنهم قتيبة . غير حسنة، قيل: لأنهم كانوا وافقوا

([1]) قتيبة بن مسلم الباهلي ، ص 198.

([2]) المصدر السابق نفسه، ص 199.

([3]) قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر ، ص 419.

([4]) المصدر السابق نفسه، ص 419؛ نقلاً عن تاريخ الطبري.

([5]) الشعر والشعراء ، لابن قتيبة (537/1).

الوليد على خلع أخيه سليمان، وتولية ابنه عبد العزيز بن الوليد[1]، فخشي قتيبة أن يعزله سليمان، فأرسل إليه رسائل يعزيه في الوليد ويهنئه بالخلافة، ويختبر نواياه نحوه، لكن سليمان لم يعزله، بل أرسل له عهداً بولاية خراسان[2]مع رسول خاص من عنده تكريماً له، ولكن قتيبة تعجل وخلع طاعة سليمان قبل وصول ذلك العهد، فغضب الناس واستنكروا خلع سليمان، وثار الجند على قتيبة فقتلوه[3].

يقول الذهبي: ولما بلغه موت الوليد، نزع الطاعة، فاختلف عليه جيشه، وقام عليه رئيس تميم وكيع بن حسَّان، وألَّب عليه، ثم شَدَّ عليه في عشرة في فرسان تميم فقتلوه في ذي الحجة سنة ستٍّ وتسعين، وعاش ثمانياً وأربعين سنة[4] ، وقال ابن كثير في سبب مقتل قتيبة بن مسلم: وذلك أنَّه جمع الجند والجيوش، وعزم على خلع سليمان وترك طاعته، وذكر لهم همّته وفتوحه وعدله فيهم ودفعه الأموال الجزيلة إليهم، فلما فرغ من مقالته، لم يجبه أحد منهم إلى مقالته، فشرع في تأنيبهم وذمِّهم قبيلة قبيلة وطائفة طائفة، فغضبوا عند ذلك ونفروا عنه وتفرَّقوا، وعملوا على مخالفته، وسعوا في مقتله، وكان القائم بأعباء ذلك رجل يقال له: وكيع بن أبي سُود، فجمع له جموعاً كثيرة، ثم ناهضه فلم يزل به حتى قتله في ذى الحجة من هذه السنة، وقتل معه أحد عشر رجلاً من إخوته وأبناء إخوته، ولم يبق سوى ضرار بن مسلم، وكانت أُمُّه الغراء بنت ضرار بن القعقاع بن معبد بن سعد بن زُرارة، فحمته أخواله، وعمرو بن مسلم، وكان عامل الجوزجان، وقتل قتيبة وعبد الرحمن وعبد الله وعبيد الله وصالح، وبشار، وهؤلاء أبناء مسلم، وأربعة من أبنائهم، قتلهم كلهم وكيع بن سُود[5] .

وقد كان قتيبة بن مسلم من سادات الأمراء وخيارهم، وكان من القادة النجباء الكبراء، والشجعان وذوي الحروب والفتوحات السعيدة والآراء الحميدة، وقد هدى الله على يديه خلقاً لا يُحصيهم إلا الله، فأسلموا ودانوا لله عز وجل، وفتح من البلاد والأقاليم الكبار والمدن العظام شيئاً كثيراً، كما تقدم ذلك مفصَّلاً مبيَّناً، والله سبحانه لا يضيّعُ سعيه ولا يخيِّبُ تعبه وجهاده، ولكن زلَّ زلة كان فيها حتفه، وفعل فعلة رغم فيها أنفه، وخلع الطاعة فبادرت

([1]) البداية والنهاية (613/12).

([2]) تاريخ الطبري؛ نقلاً عن العالم الإسلامي ، ص 352.

([3]) الكامل في التاريخ (238/3).

([4]) سير أعلام النبلاء (410/4).

([5]) البداية والنهاية (615/12).

إليه المنية، وفارق الجماعة، فمات ميتة جاهلية، لكن سبق له من الأعمال الصالحة ما قد يكَفِّرُ الله بها عنه من سيئاته، ويمحو عنه من خطيئاتِه، والله يسامحه ويعفو عنه، ويتقبَّلُ منه ما كان يكابده من مُناجزة الأعداء[1].

5 . بين قتيبة بن مسلم ومحمد بن واسع: أصبعه أحب إلى قتيبة من ألف سيف شهير:

لما صافَّ قتيبة بن مسلم للترك، وهاله أمرهم، سأل عن محمد بن واسع، فقيل: هو ذاك في الميمنة جامح على قوسه، يبصبص بأصبعه نحو السماء. قال:

تلك الأصبع أحب إليّ من مئة ألف سيف شهير وشاب طرير[2] .

وهذا فهم راسخ من قتيبة بن مسلم الباهلي لأسباب النصر، ألا وهو التوكل على الله تعالى، وتوثيق الصلة به واستلهام النصر منه، ولقد عبأ جيشه وتأكد من حسن إعداده، ولكنه بحاجة إلى التأكد مما هو أهم من الإعداد المادي؛ حيث يتجاوز المسلمون بالسلاح المعنوي حدود التكافؤ المادي في القُوَى بمراحل عديدة، ولما كان محمد بن واسع في جيشه سارع إلى السؤال عنه، فلما أخبر بأنه مستغرق في مناجاة الله تعالى ودعائه؛ اطمأن قلبه وارتفع مستوى الأمل بالنصر عنده، قال تلك الكلمات الإيمانية الرفيعة: تلك الأصبع أحب إليَّ من مئة ألف سيف شهير وشاب طرير[3].

إن قوى الأرض كلها بيد الله تعالى، وإن النظر إلى القوى المادية من حيث العدد والعُدد والمواقع، إنما هو حسابات البشر، والله جل جلاله قادر على تغيير هذه الموازين في لحظة، وإن من أهم استجلاب نصر الله تعالى دعاء الصالحين، فلذلك استبشر قتيبة خيراً حينما علم باستغراق محمد بن واسع في الدعاء.

وهذا الفهم الرفيع من قتيبة رحمه الله يبين لنا سبباً مهمّاً من أسباب انتصاراته الباهرة، التي ظلت تتوالى أكثر من عشر سنوات، فبالرغم من كونه بطلاً لا يُشَقُّ له غبار، وقائداً مخططاً يضع للأمور أقرانها، وسياسياً محنكاً لا يُخدع، فإنه لم يغتر بكل ذلك، بل اعتبر ذلك كله من الأمور الثانوية، ونظر قبل ذلك إلى مدى توثيق الحبل الذي يصل جيشه بالله تعالى، فلما عرف بأن محمد بن واسع قد وصل ذلك الحبل بالدعاء، وبما سبق ذلك من شهرته بالإيمان القوي والعمل الصالح؛ حصل له اليقين، وزال عنه سبب من أسباب الخوف المتمثل بضعف الصلة بالله تعالى[4].

([1]) المصدر السابق نفسه (616/12).

([2]) سير أعلام النبلاء (121/6).

([3]) المصدر السابق نفسه.

([4]) التاريخ الإسلامي (99/19 ، 200).

إن محمد بن واسع رحمه الله تعالى معدود من العلماء الربانيين المشهورين بالزهد والورع والخشوع، وهو مدرسة في معالجة أمراض النفوس وتطهير القلوب، ومن أقواله النيّرة في الزهد والورع واليقين: إني لأغبط رجلاً معه دينه وما معه من الدنيا شيء وهو راضٍ[1] .

وإذا كان محمد بن واسع يغبط أهل الدين المجردين من الدنيا؛ فما أكثر من يغبطون أصحاب الأموال، وما أبعد الفرق بين السابقين بالخيرات والمقصِّرين[2]. وقيل: إنه قال لرجل: هل أبكاك قط سابق علم الله فيك؟[3] ؛ يعني: أن المقربين مع ما يقومون به من الورع والعمل الصالح يخشون من سابق قدر الله فيهم، حيث يخافون من سوء الخاتمة، فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن جل جلاله يقلبها كيف يشاء، وقيل له: كيف أصبحت؟ قال: قريباً أجلي، بعيداً أملي، سيِّئاً عملي[4] . وهذا من عمق الإدراك وقوة تصور ما بعد الموت.

وإذا كان محمد بن واسع الذي قيل عنه: إنه أفضل أهل البصرة في زمنه يتهم نفسه بطول الأمل وسوء العمل، فكيف بحال المقصرين[5] أمثالي ؟!

وذات يوم قال رجل لمحمد بن واسع: أوصني، قال: أوصيك أن تكون ملكاً في الدنيا والآخرة، قال: كيف؟ قال: ازهد في الدنيا[6] . وهذه وصية نافعة من طبيب ماهر في طب القلوب؛ فهذا الرجل يطلب الوصية من محمد بن واسع فيوصيه بأعلى مرتبة تطمح لها النفوس عادة، وهي أن يكون ملكاً في الدنيا والآخرة، فيتعجب الرجل لأنه لم يرد الدنيا حينما طلب منه الوصية، ثم كيف يجمع بين الأمرين، فيكون ملكاً في الدنيا والآخرة ؟! فلذلك استفهم منه استفهام تعجُّب، فكان جواب ابن واسع له: ازهد في الدنيا[7] .

ومن كلامه التربويّ العميق قوله: ما اسى على الدنيا إلا على ثلاث: صاحب إذا اعوججت قوَّمني، وصلاة في جماعة يُحمَل عني سهوُها وأفوز بفضلها، وقوت من الدنيا ليس لأحد منه فيه منّة ولا لله عليَّ فيه تَبِعة[8] . فهذا

---

(1) سير أعلام النبلاء (121/6).

(2) التاريخ الإسلامي (93/19).

(3) سير أعلام النبلاء (121/6).

(4) المصدر السابق نفسه.

(5) التاريخ الإسلامي (94/19).

(6) سير أعلام النبلاء (121/6).

(7) المصدر السابق نفسه (120/6).

(8) التاريخ الإسلامي (394/19).

العالم الرباني كان من ضمن جنود الفاتحين الذين نفع الله بهم شعوب المشرق، كأهل بخارى وسمرقند وخراسان وغيرها.

6 . المشرق بعد مقتل قتيبة بن مسلم:

لم تحدث فتوحات إسلامية فيما تبقى في عهد الدولة الأموية في هذه الجهات بعد فتوحات قتيبة، وتوقفه عند كاشغر على حدود الصين، ذلك لأن الظروف التي مرت بها الدولة الأموية منذ هذا التاريخ، وحتى سقوطها سنه 132 هـ لم تكن تسمح بذلك؛ فقد انشغلت بالثورات التي بدأت تهب في وجهها من جديد؛ مثل: ثورات الخوارج وثورة يزيد بن المهلب في عهد يزيد بن عبد الملك (101 . 105 هـ) كما أن الخلافات نشبت من جديد بين العرب في خراسان.

وفي هذا الجو بدأت الدعوة السرية للرضا من ال محمد؛ وهي الدعوة التي كان يوجهها العباسيون لمصلحتهم بكتمان ومقدرة رائعة، والتي نجحت في النهاية في الإطاحة بالدولة الأموية.

كما أن التناحر والتنافس والنزاع قد احتدم بين أبناء البيت الأموي أنفسهم، وأصبحوا يقاتل بعضهم البعض، مما أضعف هيبة الدولة في عيون الناس، كما أن هذه البلاد نفسها التي فتحها قتيبة لم تكفَّ عن التمرد والثورة ونقض العهود، فأصبح جهد الخلفاء والولاة منصبّاً بعد مرحلة قتيبة على إخضاع الثائرين والمتمردين وردِّهم إلى الطاعة والنظام[1]، وقد نجحت الدولة الأموية في ذلك، فهي وإن كانت لم تضف جديداً إلى فتوحات قتيبة في هذا الجزء من العالم، إلا أنها لم تتراجع ولم تخسر أرضاً، واحتفظت بمواقعها، ونهض الولاة في هذه المناطق بمسؤولياتهم، وهيؤوها لقبول الإسلام، وجعلها جزءاً لا يتجزأ من العالم الإسلامي[2] .

ثالثاً: محمد بن القاسم الثقفي وفتح السند (89 . 96 هـ):

كان انتصار المسلمين في معركة القادسية في عهد عمر بن الخطاب إيذاناً لهم بفتح السند، فقد استنجد كسرى الفرس ببعض ملوك البلاد المجاورة؛ ومنها: مملكة السند؛ حيث أمده ملك السند بالمال والرجال، الأمر الذي اضطر المسلمين بمهاجمة السند رداً على تدخلهم ضدهم في معركة[3] القادسية، ولذلك فإن البلاذري يحدثنا عن حملات

(1) فتوح البلدان ، للبلاذري ، ص 523 . 527.

(2) العالم الإسلامي في عصر الأموي ، ص 353.

(3) العلاقات السياسية بين الهند والخلافة العباسية ، محمد النجرامي ، ص 30.

إسلامية مبكرة على السند كان أولها في عهد عمر بن الخطاب، وكان ثانيها في عهدعلي بن أبي طالب، كما نفهم من رواية البلاذري: أن عثمان بن عفان كان أيضاً مهتمّاً بتقصي تحركات السند[1] ، كما أن البلاذري يوضح الأسباب التي حولت هذه الحملات إلى فتح منظم للسند في الأسباب الاتية.

. اكتشاف تحالف اخر بين السند والترك؛ حيث لقي المهلب في عهد معاوية بن أبي سفيان ثمانية عشر فارساً من الترك ببلاد القيقان بالهند[2] ، لذلك تلاحقت حملات معاوية فأغار عبد الله بن سوار وسنان بن سلمة بن المحبق الهذلي، فأتى الثغر ففتح مكران عنوة ومصَّرها وأقام بها[3] .

. أعمال القرصنة البحرية التي كان يقوم بها الهنود؛ حيث يذكر البلاذري أن البوارج الهندية قد استولت على سفينة كانت تحمل نساء مسلمات أرسلهن ملك جزيرة الياقوت هدية إلى الحجاج بن يوسف، فنادت امرأة من تلك النسوة وكانت من يربوع: يا حجاج، وبلغ الحجاج ذلك فقال: يا لبيك، فأرسل إلى داهر يسأله تخلية النسوة. فقال: أخذهن لصوص لا أقدر عليهم[4] ، لذلك أرسل الحجاج بن يوسف عبيد الله بن نبهان إلى الديبل (كراتشي اليوم) فقتل، فكتب إلى بديل بن طهفة البجلي وهو بعمان يأمره أن يسير إلى الديبل، لكن الهنود استطاعوا محاصرته وقتله أيضاً[5] .

1 . تعيين محمد بن القاسم على ثغر الهند وتجهيزات الحجاج لجيشه:

تبدّى للحجاج مدى الإهانة التي تلحق بهيبة المسلمين وخطورتها إن هو سكت على هذا الأمر، فاختار محمد بن القاسم وكان بفارس، وكان قد أمره أن يسير إلى (الريّ)، فردّه إليه[6]، وعقد له ثغر (السند)، وضمّ إليه ستة الاف من جند أهل الشام، وجهّزه بكلِّ ما احتاج اليه حتى الخيوط والإبر والمال، وأمره أن يقيم بشيراز حتى يكمل حشد رجاله ويوافيه ما أعدّ له[7] ، واهتمّ الحجاج اهتماماً بالغاً في إنجاز استحضارات جيش محمد بن القاسم حتى بلغ بذلك حدّ الروعة حقاً؛ فلم ينس أصغر التفاصيل الإدارية لإكمال استحضارات هذا الجيش، حتى إنه عمد إلى القطن المحلوج فنُقع في الخل الأحمر الحاذق، ثم جُفِّف في الظل، وقال لهم: إذا صرتم إلى (السِّند) فإن الخل بها

([1]) الحضارة الإسلامية ، محمد عاد ، ص 299؛ فتوح البلدان ، ص 420.

([2]) المصدر السابق نفسه؛ فتوح البلدان ص 421.

([3]) فتوح البلدان ، ص 423؛ الحضارة الإسلامية ، ص 299.

([4]) المصدر السابق نفسه.

([5]) المصدر السابق نفسه، ص 424؛ الحضارة الإسلامية ، ص 299.

([6]) فتوح البلدان ، ص 424 ، قادة فتح السند ، ص 299.

([7]) فتوح البلدان ، ص 424 ، قادة فتح السند ، ص 211.

ضيِّق، فانقعوا هذا القطن في الماء، ثم اطبخوا به واصطبغوا. ويقال: إن محمداً لما صار إلى ثغر السِّند، كتب يشكو ضيق الخلِّ عليهم، فبعث الحجاج إليه بالقطن المنقوع في الخل.

2 . المعارك التي خاضها محمد بن القاسم:

مضى محمد إلى مكران، فأقام بها أياماً، ثم أتى فنزبور[1] ففتحها، ثم أتى (أرمانيل[2]) ففتحها أيضاً، فقدم (الديبل) يوم جمعة، فوافته هناك سفنه التي كانت تحمل الرجال والسِّلاح والعتاد والمهمات، فخندق حيث نزل (الديبل)، وأنزل الناس منازلهم، ونصب منجنيقاً يقال له: العروس، الذي كان يعمل لتشغيله خمسمئة من الرجال ذوي الكفاية المدربين على استخدامه، فدكّ بقذائفه معبد الهنادكة الأكبر (البد)[3]، وكان على هذا البد دقل عظيم، وعلى الدقل راية حمراء إذا هبّت الريح أطافت المدينة[4]، وحاصر محمد الديبل وقاتل حماتها بشدّة، فخرجوا إليه، ولكنه هزمهم حتى ردهم إلى البلد، ثم أمر بالسلالم فنصبت وصعد عليها الرجال، وكان أولهم صعوداً رجل من بني مراد من أهل الكوفة، ففتحت المدينة عنوة، فاستباحها محمد ثلاثة أيام، ولكنّ عامل (داهر) ملك السند عليها هرب عنها سالماً[5]، فأنزل فيها محمد بن القاسم أربعة الاف من المسلمين، وبنى عليها جامعها، فكان أول جامع بني في هذه المنطقة[6]، وسار محمد عن الديبل إلى النيرون[7] ، وكان أهلها بعثوا إلى الحجّاج فصالحوه، فلقوا محمداً بالميرة وأدخلوه مدينتهم ووفوا بالصلح[8] .

وسار محمد عن (نيرون)، وجعل لايمر بمدينة إلاَّ فتحها حتى عبر نهراً دون مهران[9]، فأتاه أهل (سربيدس)[10] ، وصالحوه، ففرض عليهم الخراج وسار عنهم إلى (سهبان)[11]، ففتحها ثم سار إلى نهر (مهران) فنزل في وسطه،

(1) فنزبور: مدينة بين مكران والديبل.

(2) أرمانيل: مدينة كبيرة بين مكران و الديبل من أرض السند.

(3) البد: هو المعبد ، وكل شيء عظموه من طريق العبادة فهو عندهم (بد).

(4) فتوح البلدان ، ص 424.

(5) المصدر السابق نفسه، ص 424 ، 425.

(6) تاريخ الإسلام في البلد ، ص 74؛ قادة فتح السند ، ص 212.

(7) نيرون: مدينة تقع على مسافة (75) ميلاً عن مكران.

(8) فتوح البلدان ، ص 425.

(**9**) مهران: موضع على نهر السند. معجم البلدان (209/8).

(**10**) سربيدس: مدينة بالقرب من مهران على نهر السند.

(**11**) سهبان: مدينة في منطقة سربيس على نهر السند.

وبلغ خبره (داهر)، فاستعدّ لمجابهته[1] ، وبعث محمد إلى (سدوستان)[2]، فطلب أهلها الأمان والصلح، فأمنهم محمد وفرض عليهم الخراج أيضاً[3].

3 . مقتل داهر ملك الهند:

عبر محمد بن القاسم نهر (مهران) مما يلي بلاد الملك (راسل) ملك (قصة) من الهند على جسر عقده، و (داهر) مستخفٌّ به لاهٍ عنه، ولقيه محمد والمسلمون وهو على فيل وحوله الفيلة، فاشتد القتال بشكل لم يسمع بمثله، وترجَّل (داهر) وقاتل حتى قتل عند المساء، فانهزم أصحابه وقتلهم المسلمون كيف شاؤوا، فقال قاتل داهر[4] :

الخيـلُ تشـــهـدُ يومَ داهرَ والقَنَـا   ومحمـدُ بنُ القـاســمِ بنِ محمـدِ
أني فرجـتُ الجمعَ غيرُ مَعردٍ[5]   حتَّى علـوتُ عظيـمَـهم بمهنَّـدِ
فتركتُـه تحـتَ العجـاجِ مجنـدلاً   متعـفرَ الخَـدَّين غيرَ موسّـــدِ

فلما قُتل (داهر)، غلب محمد على بلاد السند، وفتح (راوَر)[6]عنوة، وكان بها امرأة[7] لداهر ، فحرقت نفسها وجواريها وجميع مالها[8]، وتقدم المسلمون بعد ذلك صوب الشمال مشرقين حتى بلغوا (برهمن اباد)[9]العتيقة على فرسخين من المنصورة[10]، وكان موضعها غيضة، وكان المنهزمون من أصحاب داهر بها، ففتحها محمد وقتل بها بشراً كثيراً وخرّبها[11]، وسار محمد يريد(الرور)[12] و(بغرور)، فلقيه أهل ساوندري[13]، وسألوه الأمان، فأعطاهم

---

(1) فتوح البلدان ، ص 425.
(2) قادة فتح السند وأفغانستان ، ص 213.
(3) فتوح البلدان ، ص 425.
(4) هو القاسم بن ثعلبة بن عبد الله الطائي. فتوح البلدان ، ص 426.
(5) معرد: عرد الرجل عن الطريق: إذا انحرف عنه.
(6) راور: مدينة كبيرة بالسند. معجم البلدان (214/4).
(7) هي: راني باي ،كانت أختاً لداهر ، بنى بها.
(8) فتوح البلدان ، ص 425 ، 426.
(9) برهمن اباد: مدينة تقع على نهر السند بين كراجي والبنجاب.
(10) المنصورة: مدينة كبيرة يحيط بها خليج نهر مهران.
(11) فتوح البلدان ، ص 226.
(12) الرور: ناحية بالسند ، تقرب من (الملتان) في الكبر.
(13) مدينة في منطقة الرور. قادة فتح السند ، ص 214.

إياه، واشترط عليهم ضيافة المسلمين، فأسلم أهلها من بعد ذلك [1] ، وتقدم نحو (بسمد)[2] ، على مثل صلح (ساوندري)، فسار عنها حتى انتهى إلى (الرور) وهي من مدائن السند تقع على جبل، فحاصرها شهوراً ثم فتحها صلحاً[3] ، وسار محمد إلى (السكة)[4] ، وفتحها، ثم عبر نهر (بَياس)[5] رافد نهر السند إلى مدينة (المِلْتان)[6]، أعظم مدن السند الأعلى وأقوى حصونه، فامتنعت عليه شهوراً وقاتله أهلها، فانهزموا فحصرهم، فأتاه رجل مستأمن دلّه على مدخل الماء الذي يشرب منه السكان، فقطعه عليهم، فنزلوا على حكمه، فقتل محمد المقاتلة وسبى الذرية وسبى سدنة (البد) وهم ستة الاف، وأصاب مالاً كثيراً جمعه في بيت طوله عشرة أذرع وعرضه ثمانية أذرع يلقى إليه في كوّة في وسطه، فسميت (الملتان: فرج[7] بيت الذهب)[8] . وكان (بد) الملتان (بداً) تهدى إليه الأموال وتنذر له النذور ويحجّ إليه السند فيطوفون به ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده، ويزعمون أنَّ صنماً فيه هو أيوب النبي ﷺ[9] .

وعظمت فتوح محمد، فراجع الحجّاج حساب نفقاته على هذه الحملة، فكانت ستين ألف ألف درهم فقال: شفينا غيظنا، وأدركنا ثأرنا، وازددنا ستين ألف ألف درهم ورأس داهر [10] .

لقد أنجز محمد هذا الفتح كله في المدة بين سنة تسع وثمانين الهجرية وأربع وتسعين الهجرية[11] .

4 . نهاية محمد بن القاسم:

بينما محمد بن القاسم يدبر أمر السند وينظم أحواله بعد الفتح، ويستعد لفتح إمارة قنوج وهي أعظم الإمارات في شمال الهند، توفي الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة 96هـ، وتولى أخوه سليمان (96 . 99 هـ) الذي بدأ يغير ولاة

(1) فتوح البلدان ، ص 426؛ قادة فتح السند ، ص 214.
(2)مدينة في منطقة الرور. قادة فتح السند ، ص 214.
(3)قادة فتح السند ، ص 214.
(4)السكة: مدينة في منطقة الرور.
(5)بياس: نهر عظيم بالسند مفضاه إلى المولتان.
(6)الملتان: مدينة من الهند، فيها صنم يعظمه الهنود.
(7) الفرج: الثغر.
(8) فتوح البلدان ، ص 427.
(9) فتوح البلدان ، ص 427؛ قادة فتح السند ، ص 215.
(10) قادة فتح السند ، ص 215؛ فتوح البلدان ، ص 427.
(11) تاريخ اليعقوبي (32/3)؛ قادة فتح السند ، ص 216.

الحجّاج، فعين على العراق رجلاً من ألد أعداء الحجّاج، وهو صالح بن عبد الرحمن، الذي كان الحجّاج قد قتل أخاً له اسمه ادم بن عبد الرحمن كان يرى رأي الخوارج[1] ، فقرر صالح بن عبد الرحمن أن ينتقم من أقرب الناس إلى الحجّاج، وهو محمد بن القاسم، فعزله عن السند وولى رجلاً من صناعه وهو يزيد بن أبي كبشة، وأمره بالقبض على محمد، فقبض عليه وأرسله إليه، فحبسه في واسط في رجال من ال أبي عقيل[2] ، وقد ادعت ابنة ملك السند الذي قتله ابن القاسم أنه راودها عن نفسها أو نالها قسراً، ولذا فقد سجن في واسط وعُذِّب، ثم تضاربت الروايات بشأنه؛ فقيل: إنه مات تحت العذاب، وقيل: إنه أطلق سراحه ثم قتل، وقيل: بل قتل بدسائس من أتباع داهر فاتهم به الخليفة، ثم اعترفت ابنة داهر فيما بعد بأنها كانت كاذبة في ادعائها[3] .

وهكذا انتهت حياة هذا البطل وهذا الفاتح الكبير هذه النهاية الأليمة، وحرمت الأمة الإسلامية من هذه العبقرية الشابة، فإن محمداً حقق هذه الأمجاد وهو في مقتبل العمر، حتى قال فيه الشاعر:

إنَّ الشـــجاعةَ والســـماحةَ والنَّدى ... لمحمدِ بـــــنِ القاســـمِ بـــــنِ محمدِ

قادَ الجُيوشَ لســـبعَ عشْـــرَةَ حجةً ... يا قربَ ذلـكَ ســـؤدداً من مولـدِ

وقد ساس الجيوش وقادها وعمره سبع عشرة سنة؛ قال فيه الشاعر يزيد بن الأعجم:

ســاسَ الجيوشَ لسـبعَ عشـرةَ حجةً ... ولــداتُــهُ عـن ذاكَ في أشــــغـالِ

فغـدتْ بهم أهواؤُهم وسمـتْ بِـهِ ... همـمُ المـلوكِ وســـــورةُ الأبـطـالِ

وكان محمد بن القاسم يهتف في أعماق سجنه وفي ظلماته:

أتنســـى بنـــــو مروانَ سمعِي وطاعَتِيً ... وإنِّـــــي على مـــــا فاتني لصَـــبُورُ

بالقَناً [4]فتحتُ لهُـمْ مـا بينَ (سابورَ) ... إلى الهنـــــــــدِ منهم زاحفٌ ومغيرُ

([1])العالم الإسلامي في العصر الأموي ، ص 362؛ نقلاً عن فتوح البلدان.

([2]) العالم الإسلامي في العصر الأموي ، ص 362.

([3])الدولة الأموية المفترى عليها ، ص 209.

([4]) مدينة مشهورة بأرض فارس.

بالقنا[1]فتحتُ لهـــم مـــا بينَ جُرجانَ [2] إلى الصـــينِ ألقى مـــــــرَّةً وأغيرُ

وما وطئتْ خيلُ السكاسِكِ عَسْكري [3]ولا كـــانَ مِنْ (عـــكٍّ) عليَّ أميرُ

مات محمد بن القاسم بالتعذيب، أو قتل بعد تعذيبه، دون أن يشفع لهذا القائد الشاب بلاؤه الرائع في توسيع رقعة الدولة الإسلامية، ولا مهارته الفذة في القيادة والإدارة، ولا انتصاراته الباهرة في السند، ولكنَّ اثاره الخالدة وأعماله المجيدة باقية بقاء الدهر، ولم يختره الله إلى جواره إلا بعد أن أبقى اسمه على كلِّ لسان وفي كل قلب، رمزاً للجهاد الصادق والتضحية الفذّة والصبر الجميل.

أما الذين عذبوه فقد ماتوا وهم أحياء، ولانزال حتى اليوم نذكر محمد بن القاسم بالفخر والاعتزاز، ونذكر الذين عذّبوه بالخزي والاشمئزاز[4] ، رحم الله محمد بن القاسم الشاب المظلوم، الأمير العادل، الإداري الحازم، لقد بكاه أهل السند من المسلمين، لأنه كان يساويهم بنفسه ولا يتميز عليهم بشيء، ويعدل بالرعية، ولأنه نشر الإسلام في ربوعهم فأرسل دعاته شرقاً وغرباً يجوبون البلاد التي فتحها، وكان أكثر من هداهم الله إلى الإسلام من أهل السند على يديه[5] ، فمنذ الخطوات الأولى للفتح بدأت شخصيات كبيرة تعتنق الإسلام.

فعندما فتح محمد بن القاسم مدينة الديبل واستولى على قلعتها التي كان بها الأسرى من الجنود والتجار المسلمين والنساء المسلمات، وقتل حرّاس القلعة بناء على أوامر الحجّاج انتقاماً لشهداء المسلمين، عندئذ جاء مدير السجن الذي كان به المسلمون طالباً العفو عنه لأنه كان محسناً للأسرى المسلمين ويعاملهم معاملة كريمة، فلما تأكد محمد بن القاسم من صدقه عفا عنه، بل فوض إليه مهمة الإشراف على الشؤون الاقتصادية بمدينة الديبل، ثم أعلن الرجل إسلامه، فقرَّبه محمد أكثر، وعينه مترجماً لرئيس الوفد الذي أرسله إلى داهر ملك السند لتوجيه الإنذار إليه[6].

([1])مدينة مشهورة في خراسان. معجم البلدان (75/3).

([2]) قادة فتح السند ، ص 211.

([3]) المصدر السابق نفسه.

([4]) المصدر السابق نفسه، ص 222.

([5]) المصدر السابق نفسه، ص 221.

([6]) العالم الإسلامي في العصر الأموي ، ص 445.

وعندما تقدم محمد بن القاسم في السند، بعد فتح الديبل، وجه الدعوة إلى الأمراء والحكام والوزراء والأعيان وعامة الشعب للدخول في الإسلام، فاستجاب له كثيرون وبصفة خاصة من البوذيين[1] .

وقد كان لسلوك المسلمين وقائدهم الشاب، واهتمامه بإقامة المساجد وأداء شعائر الإسلام، أثر كبير في جذب الأهلين إلى الإسلام، فلم يكن محمد بن القاسم يدخل مدينة إلا ويبني فيها مسجداً[2] ، فقد بنى مساجد في الديبل والرور والبيرون والملتان وغيرها من المدن السندية[3] ، فرحمة الله على هذا الفاتح الكبير.

5 . السند بعد محمد بن القاسم:

توقفت الفتوحات في هذه الجبهة عند الحدود التي وصل إليها محمد بن القاسم، ولم يستطع ولاة بني أمية ـ فيما تبقى من عمر دولتهم ـ أن يضيفوا جديداً، ولكنهم استطاعوا المحافظة على ما تحقق من فتوحات، وبذلوا قصارى جهدهم في تثبيت أقدام الإسلام في إقليم السند، ووقفوا بالمرصاد لكل حركات التمرد والثورات التي قام بها الأمراء الهندوس، بعد رحيل محمد بن القاسم، فقد حاول هؤلاء الأمراء استرداد إماراتهم، وبصفة خاصة ابن داهر المسمى حليشة أو جيشبة، الذي حاول الرجوع إلى برهمن اباد، ولكن حبيب بن المهلب ـ الذي ولاه سليمان بن عبد الملك السند ـ لم يمكنه من ذلك[4] .

* * *

([1]) المصدر السابق نفسه ، ص 446.

([2]) المصدر السابق نفسه ، ص 447.

([3]) المصدر السابق نفسه.

([4]) المصدر السابق نفسه ، ص 364.

المبحث الرابع

أهم الدروس والعبر والفوائد من الفتوحات

في عهد عبد الملك والوليد وسليمان

أولاً: بماذا انتصر المسلمون؟:

إن ما حدث في عهد عبد الملك من فتوحات هي امتداد طبيعي للأسس المتينة والقواعد الراسخة لفقه النهوض الذي أسسه رسول الله ﷺ، وأكمل بناؤه الخلفاء الراشدون، وكانت الأمة وكثير من حكامها يعيشون لأجل العقيدة والدعوة الإسلامية، وقد انتصر المسلمون بالإسلام نفسه، فهم قد فهموه فهماً صحيحاً دقيقاً، وطبقوه على أنفسهم فأنشأ منهم خلقاً جديداً، غيَّر النفوس والقلوب والعقول، وحررها من الوثنية وعبادة غير الله، وفتح أمامهم افاق الإيمان والعمل، فاندفعوا يحملون رسالة التوحيد إلى الإنسانية كلها، فأقاموا أمة وأنشؤوا دولة كبرى، وأعلنوا كلمة الله في الأرض حقاً وصدقاً[1].

لقد صيغت هذه الأمة منذ عهد الرسول ﷺ على أساس واضح من الترابط بين الإسلام والإيمان، والعقيدة والعمل، وفق أصفى مفهوم للتوحيد وأصدق فهم لإقامة المجتمع الإنساني، واجتمع لها في إيمانها: العقيدة والشريعة والأخلاق دون أن ينفصل أحدها عن الاخر، وتكامل لها مفهوم المعرفة القائم على القلب والعقل[2].

وقد ظلت سيرة الرسول ﷺ بكل دقائقها وتفاصيلها أمام المسلمين قدوة صادقة وأسوة حسنة، وقد كانت المثل الأعلى أمام القادة والمصلحين والأبطال والمجاهدين، وما زالت وستظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولقد انتصر المسلمون بقيم ومقومات ومثل كثيرة تعلموها وتربوا عليها؛ من القران الكريم وهدي الرسول الأمين ﷺ، ومن أبرز هذه القيم والمقومات: عقيدة سليمة، عبادة صحيحة، كتاب منير، أسوة حسنة، شريعة عادلة،

---

[1] بماذا انتصر المسلمون ، أنور الجندي ، ص 5.

[2] المصدر السابق نفسه ، ص 6.

أخلاق حميدة، جهاد في سبيل الله، تربية صالحة مستمرة، مفهوم شامل للحياة والمجتمع، بطولة في المواقف، وصمود في وجوه[1] العدو، وغير ذلك من القيم والمقومات.

ثانياً: أسباب دخول الإسلام في البلاد المفتوحة:

كانت هناك عدة أسباب أدت إلى هذا؛ منها:

1 . عالمية الدعوة:

الحقيقة الثابتة التي تؤيدها النصوص القاطعة أن الإسلام دين عالمي، ورسالته للجنس البشري كله، لا لأمة دون أمة، ولا لشعب دون شعب، فمحمد ﷺ رسول الله إلى الناس كافة: {وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾} [سورة سبأ:28] ، {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ *} [الأنبياء : 107] ... إلى غير ذلك من الايات الكريمة التي توضح أن الرسالة الإسلامية للناس كافة، وأنها خاتمة رسالات السماء إلى أهل الأرض، فليس بعد القران الكريم كتاب من الله، وليس بعد محمد ﷺ رسول: {مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٤٠} [سورة الأحزاب:40] . وقد قام بالتبشير بعالمية الدعوة ودعوة الأمم قادةٌ وعلماءُ؛ كموسى بن نصير، وقتيبة بن مسلم، ومحمد بن القاسم وغيرهم كثير.

2 . المعاملة السمحة الكريمة:

إن النماذج التي خرجها الإسلام من القادة والجنود قد اتصفوا بأخلاق حميدة وقيم سامية، فرفعت من المستوى الإنساني عند معتنقيها، فكان لها أثر كبير في إقبال أبناء البلاد المفتوحة على اعتناق الإسلام، فكم من أفواج من البربر دخلوا في الإسلام وقاتلوا في سبيله في عهد موسى بن نصير، وكذلك في الهند وبخارى وسمرقند وغير ذلك من البلدان، فالمسلمون لم يفتحوا البلاد ليدمروها ويذلوا أهلها، وإنما ليعمروها ويعزوا أهلها، ويحرروهم من عبادة العباد إلى عبادة خالق العباد، ويخرجوهم من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، فهم أصحاب رسالة خالدة، تحمل للناس العدل والإنصاف، وتحقق لهم الحرية والمساواة والكرامة الإنسانية، وبمجرد ما عرف الناس في البلاد المفتوحة أهداف المسلمين الحقيقية، وتكشفت لهم حقيقة الإسلام، أسرعوا إلى اعتناقه بأعداد كبيرة . كما سنعرفه فيما بعد . ولقد حرص المسلمون، على الوفاء بكل ما التزموا به، ولم يكن هذا من حسن السياسة فقط؛ فالوفاء

([1]) المصدر السابق نفسه، ص 7 إلى 9.

بالعهد ليس تبرُّعاً من المسلمين يمنون به على الناس، ولكنه مسؤولية واجبة عليهم[1]، قال تعالى: { وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا } [سورة الإسراء:34]

3 . إشراك أبناء البلاد المفتوحة في إدارة بلادهم:

كانت سياسة المسلمين منذ بداية الفتوحات من سعة الأفق والمرونة بحيث أدركوا أن استتباب الأمن وسير الأمور سيراً حسناً في البلاد المفتوحة بما يحقق خير أهلها ومصالحهم يكمن في الأسلوب الإداري الذي سيسيرون عليه، فلم يترددوا في الاستفادة من النظم الإدارية التي وجدوها في البلاد المفتوحة؛ سواء كانت خاضعة للبيزنطيين مثل الشام ومصر، أو خاضعة للفرس مثل العراق وبلاد فارس نفسها، واستفادوا من الجهاز الإداري وطبقة الموظفين الذين كانوا يسيّرون دولاب العمل في البلاد، فقد كان الوالي في العهد الأموي يتمتع بكل السلطات والصلاحيات الإدارية والمالية والعسكرية في إقليمه، وكان المسلمون يحتفظون بمناصب القضاء والشرطة والحسبة، أما ما عدا ذلك من الوظائف الإدارية فكان المجال فيها متسعاً أمام أبناء البلاد المفتوحة في الإدارة، بل إن كثيراً منهم وصلوا إلى مناصب إدارية في ظل الحكم الإسلامي كانوا محرومين منها في ظل حكومات ما قبل الإسلام كما هو الحال في مصر، فقد كان البيزنطيون يستحوذون على معظم المناصب الإدارية، بالإضافة إلى المناصب العسكرية العليا، ولا يتركون للمصريين إلا أقل القليل[2] ، وقد توسع الأمويون في استخدام أهل الذمة في الإدارة، مما أشعرهم بالأمان والاطمئنان تجاه الدولة، فبدؤوا يقبلون على اعتناق الإسلام لترتفع مكانتهم أكثر فأكثر[3] .

4 . الوضع الديني في البلاد المفتوحة:

ومما جعل أبناء البلاد المفتوحة يقبلون على الإسلام بسرعة، فساد الأديان في بلادهم وانحلالها، وفساد رجالها، سواء كانت هذه الأديان سماوية كاليهودية والمسيحية، أو

وضعية كالبوذية والزرادشتية والمانوية والمزدكية وغيرها من الأديان الوثنية التي كانت سائدة في البلاد المفتوحة[4] .

هذه هي أهم العوامل والأسباب التي ساعدت في دخول شعوب البلاد المفتوحة في الإسلام.

([1]) العالم الإسلامي في العصر الأموي ، ص 378.

([2]) المصدر السابق نفسه ، ص 383.

([3]) لمصدر السابق نفسه، ص 384.

([4]) لمصدر السابق نفسه.

ثالثاً: تفسير حركة التعريب بين الشعوب المفتوحة:

نعني بالتعريب تحوُّل لسان الأهالي في البلاد المفتوحة إلى اللسان العربي وهجر لغاتهم المحلية، وقد حدث هذا في عهد الخلافة الراشدة والدولة الأموية في المنطقة المحصورة بين الخليج والمحيط والمعروفة حالياً بمنطقة الدول العربية؛ فقد هجر أهالي تلك البلدان لغاتهم الأعجمية، وحلت اللغة العربية محل الارامية والسريانية في الشام والعراق، والقبطية في مصر، والبربرية في بلدان المغرب، ومن أهم أسباب التعريب[1] :

1 . انتشار الإسلام:

ومهما يكن من أمر فإن انتشار الإسلام بتلك السرعة والسهولة اللتين تم بهما جاء ظاهرة فريدة من نوعها في التاريخ، ذلك أنه لم تكد تنقضي على وفاة الرسول ﷺ مئة سنة حتى كان الإسلام قد ثبتت ركائزه في بلاد ممتدة من المحيط الأطلسي وشبه جزيرة أيبيرية غرباً، حتى بلاد الهند وحدود الصين شرقاً، وكان لا بد أن يأتي انتشار الإسلام مصحوباً بالتعريب، لأن معتنقيه كانوا مطالبين بأداء فروضه، ومن الواضح أن النطق بالشهادتين يتطلب نطق بعض الألفاظ العربية وفهم معناها، فضلاً عن أن أداء شعائر الصلاة يتطلب معرفة فاتحة الكتاب وحفظ بعض قصار السور من القران الكريم، ثم إن الإسلام يطلب من المسلم الإنصات للقران الكريم إذا قرأى على مسمع منه، وترتيله وتدبر ما فيه من ايات بينات، وهذه كلها أمور ترتبط بمعرفة اللغة العربية وفهمها.

وطبيعي أن يكون من المتعذر على اللغات المحلية أن تستمر، فأخذت تتقلص تدريجياً، وتنكمش دائرة استعمالها لتفسح المجال أمام العربية[2] .

وهناك حالات ترتبط ببلاد فتحها المسلمون وحكموها بضعة قرون ومع ذلك لم يتعرّب أي منهم، ونعني بهذه البلاد: فارس والتركستان، فالفرس اعتنقوا الإسلام ولكنهم احتفظوا بلغتهم، وإن جاء هذا الاحتفاظ جزئياً غير كامل؛ حيث إن اللغة الفارسية غدت تكتب وتدون بأحرف عربية من ناحية، كما أن كثيراً من الألفاظ العربية، وخاصة تلك المرتبطة بالإسلام وعلوم الدين دخلت الفارسية من ناحية أخرى[3] .

---

(1) الحضارة الإسلامية ، ص 127.

(2) المصدر السابق نفسه ، ص 129.

(3) الإسلام والتعريب ، سعيد عاشور ، ص 251.

وأما التركستان، فقد كانت حماية ما وراء النهر من عدوان الأتراك الشرقيين من أهم منجزات العصر الأموي التي مكنت السيادة الإسلامية فيما وراء النهر، وأضافوا إلى هذه الجهود جهوداً أخرى في ميدان الدعوة إلى الإسلام ونشر الثقافة العربية في البلاد، وقد وضحت هذه الجهود منذ فجر الفتح الأول، فقد كان قتيبة بن مسلم يبني المساجد في بخارى وسمرقند، ولم تكن المساجد دوراً للعبادة فحسب، إنما كانت مدارس الثقافة العربية الإسلامية، وأتبع ذلك بتوطين القبائل العربية في المدن الكبرى، وتتابعت الجهود في عهد عمر بن عبد العزيز الذي أسقط الجزية عمن أسلم، وأمر عماله بالدعوة إلى الإسلام، واستمرت هذه الجهود بعد عمر وخاصة في عهد الوالي أشرس بن عبد الله السلمي (108 . 110 هـ)؛ إذ كان أول من أنشأ الربط والخوانق والمدارس، وعمل على تثبيت قدم الثقافة العربية في البلاد[1].

ومع كل ذلك فإن اللغة العربية لم تستطع أن تنتشر رغم إسلام الأتراك وحماسهم الشديد له، وكل ما عمله الأتراك أنهم انتحلوا الخط العربي بحيث لا تجد تركياً على شيء من التعليم لا يستطيع أن يفهم لغة القران في سهولة[2]، وهنا لابد أن نأتي إلى تلك النتيجة المنطقية ؛ وهي: أن انتشار الإسلام قد أدى إلى انتشار اللغة العربية، ولكنه لم يؤدِّ بالضرورة إلى التعريب[3]في المناطق الفارسية والتركية وغيرها.

2 . هجرة القبائل العربية إلى البلاد المفتوحة:

ساعد على تعريب البلاد المفتوحة أن العرب الذين نزحوا إلى الأرض الجديدة استقر معظمهم فيها، ولم يستمروا طويلاً في حالة عزلة، وإنما أخذوا يندمجون تدريجياً مع الأهالي الأصليين، ولعل أول موجة نذكرها جاءت إلى مصر مع عمرو بن العاص،

واستمرت الهجرة في العهد الأموي وأخذوا يندمجون تدريجياً مع الأهالي الأصليين[4] .

3 . تعريب الدواوين:

ومن الأمور التي ساعدت على حركة التعريب، ما قام به عبد الملك من حركة التعريب في الدواوين؛ فقد أدى هذا الفعل إلى تعريب اللسان ونشر الخط العربي في كل البلدان التي توالى فيها بعد ذلك نقل دواوينها إلى اللغة العربية،

([1]) الإسلام والحضارة العربية ، حسن أحمد محمود ، ص 129 . 130.

([2]) الإسلام والتعريب ، ص 255.

([3]) الحضارة الإسلامية ، ص 132.

([4]) لمصدر السابق نفسه، ص 134.

ذلك أن: استخدام اللغة العربية في الشؤون الإدارية كان وسيلة فعالة كبرى إلى نشر العلم بطراز معهود في الكتابة العربية، ومن الثابت أيضاً أن هذا الطراز لم يتم تطوره الكامل بتحقيق حروف الهجاء من أواخر القرن الأول بعد الهجرة[1] .

4 . تفوق الحضارة الإسلامية:

ساعد ازدهار الحضارة الإسلامية واتساع نطاقها وتنوع افاقها على حركة التعريب؛ فهذه الحضارة ساهمت في كافة الميادين ذات الخبرة الإنسانية، سواء الدراسات النظرية والعملية، والأطعمة والأشربة والعقاقير، والأسلحة والفنون والصناعات، والنشاط التجاري والبحري، وكانت اللغة العربية أداة تلك الحضارة العظيمة[2] ، وقد استفاد العرب من حضارات الأمم الأخرى، وقد أدى تفوق الحضارة الإسلامية إلى انتشار اللغة العربية في ربوع العالم ولكنه لم يؤدِّ إلى التعريب[3] .

5 . لغة الغالبين الفاتحين:

كانت اللغة العربية هي لغة الغالبين الفاتحين، سادة البلاد، وحكامها الجدد، وثمة علاقات متبادلة بين الحاكم والمحكوم تتطلب قدراً من التفاهم المشترك الذي لا يتحقق إلا داخل إطار لغة متفق عليها بين الطرفين، ولما كان الحكام الجدد لا يعرفون لغة إلا العربية، فلم يبق أمام الشعوب التي خضعت لهم سوى تعلم العربية، هذا فضلاً عما يقال من أن ثمة عقدة نفسية عند البشر تجعل الضعيف شغوفاً بمحاكاة القوي، والمغلوب مولعاً دائماً أبداً بتقليد الغالب[4]، وهذا القول ليس على إطلاقه، فهناك أمثلة عديدة في التاريخ قبل حركة الفتوح الإسلامية وبعدها تثبت أن تحول شعوب بأكملها إلى لغة الحكام الفاتحين ونبذها لغة الاباء والأجداد ليست القاعدة في التاريخ؛ فاللغة العربية وإن كانت لغة غالب الفاتحين فإن ذلك لم يؤدِّ إلى تعريب كل الشعوب، وإن أدى ذلك إلى انتشار اللغة العربية في تلك البلاد المفتوحة، وذلك أن الإسلام لا يجبر الشعوب على ترك لغتها وأعرافها وعاداتها ما لم تخالف الشرع[5].

هذه هي أهم الأسباب التي ساهمت في انتشار اللغة العربية وحركة التعريب في بعض البلدان المفتوحة.

---

(1) ا لمصدر السابق نفسه، ص 136.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 137.

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) المصدر السابق نفسه، ص 138.

(5) المصدر السابق نفسه، ص 139.

رابعاً: الحرص على سلامة الجيوش:

كان عبد الملك بن مروان يوصي قادته بالحذر من البيات، والتيقظ والحرص على سلامة العسكر، بإقامة الحرس، فكان قادته لا يسيرون ولا ينزلون إلا على تعبئة، ويتخذون في نزولهم الخنادق والمسالح بكل مكان مخوف والأرصاد على العقاب والشعاب[1] ، واهتم عبد الملك بجمع الأخبار عن العدو، فلا يسير له جيش إلا وقد سبقته العيون لترصد أخبار العدو، واستطاع قادته استمالة بعض أبناء البلاد المفتوحة ليكونوا عيوناً لهم يقدمون لهم المعلومات الصحيحة عن تحركات العدو، واستعانوا أيضاً بالتجار في هذه المهمة[2] ، فكل قادة الفتح لهم عيون يجمعون لهم المعلومات عن الأعداء، وهذا دليل على حرص القيادة على سلامة جنودها وجيوشها.

خامساً: أهمية الشورى في إدارة الصراع:

ومما أوصى به الخليفة عبد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز عندما أبقاه على ولاية مصر قوله: «وإذا انتهى إليك مشكل، فاستظهر عليه بالمشورة فإنها تفتح مغاليق الأمور المبهمة، واعلم أن لك نصف الرأي ولأخيك نصفه، ولن يهلك امرؤ عن مشورة[3] .

كما أوصى أحد قواده بقوله: لا تستعن في أمر دهمك برأي كذاب ولا معجب، فإن الكذاب يقرب لك البعيد ويبعد عنك القريب، وأما المعجب فليس له رأي صحيح ولا روية تسلم[4].

ومما قاله عبد الملك في المشورة: لأن أخطأى وقد استشرت، أحب إليّ من أن أصيب وقد استبددت برأي وأمضيته من غير مشورة؛ لأن المقدم على رأيه يزري به أمران: تصديقه رأيه الواجب عليه تكذيبه، وتركه من المشورة ما يزداد به بصيرة[5] .

وعندما تحركت الروم بأرض القسطنطينية حين عزموا على غزو المسلمين، وبلغ أمرهم عبد الملك بن مروان، نادى في أهل الشام وجمعهم في المسجد الأعظم، ثم صعد المنبر وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أيها الناس إن العدو قد كلب عليكم وطمع فيكم وهنتم عليه لتركم العمل بطاعة الله تعالى واستخفافكم بحق الله، وتثاقلكم عن الجهاد

([1]) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (198/1).

([2]) المصدر السابق نفسه (407/1).

([3]) تاريخ ابن خلدون؛ نقلاً عن الإدارة العسكرية (282/1).

([4]) المنهج المسلوك ، للشيرازي ، ص 490.

([5]) المصدر السابق نفسه، ص 481؛ الإدارة العسكرية (283/1).

في سبيل الله، ألا وإني قد عزمت على بعثكم إلى أرض الروم؛ فماذا عندكم من الرأي[1] ؟ وهنا نجد أن الخليفة عبد الملك بن مروان شاور المسلمين في مرحلة الإعداد والإقرار، فيبرز بذلك مبدأ الشورى في اتخاذ القرار العسكري في الإدارة العسكرية الأموية، وأخذ قادة الخليفة عبد الملك بن مروان يعملون بالمشورة فيما بينهم في إدارتهم للمعارك الحربية وبين القيادة العليا المركزية[2] ، وحين حضرت الخليفة عبد الملك الوفاة أوصى أبناءه بقوله: وانظروا ابن عمكم عمر بن عبد العزيز فاصدروا عن رأيه، ولا تَخَلَّوا عن مشورته، اتخذوه صاحباً لا تجفوه، ووزيراً لا تعصوه؛ فإنه من علمتم فضله ودينه وذكاء عقله، فاستعينوا به على كل مهم، وشاوروه في كل حادث[3]. وبانتقال الخلافة إلى ابنيه الوليد وسليمان سلكا نهجه في إدارتهما العسكرية بمبدأ الشورى، وأخذهما بها لدى فتوحاتهم الإسلامية في مرحلة الإعداد والإقرار، أو التخطيط والتنفيذ[4] .

سادساً: الاهتمام بالحدود البرية:

اهتم الخليفة عبد الملك بالحدود البرية، فقام ببناء عسقلان وحصّنها ورمَّم قيسارية، وبنى بها بناءً كثيراً وبنى مسجدها، وقام بتجديد وترميم صور وعكا وأردبيل وبرذعة لما لهذه الثغور من أهمية حربية[5] ، وبنى واليه الحجّاج بن يوسف مدينة واسط كقاعدة عسكرية تتوسط بين الأهواز والبصرة والكوفة بمقدار واحد قدره خمسون فرسخاً، وذلك أنه كان حينما يريد غزو خراسان ينزل جيش الشام على أهل الكوفة، فكانوا يتأذون منهم، فبنى واسطاً كمعسكر لهم، ولقد لعبت دوراً مهماً في عملية الإمداد لثغور المشرق[6] .

وفي عهد عبد الملك فتح حصن سنان[7] من بلاد الروم؛ حيث استفاد منه بشحنه بالجند لحماية الحدود[8] .

واهتم عبد الملك في إدارته العسكرية بحملات الصوائف والشواتي، فكان يوليها كبار رجالات البيت الأموي، مما يدل على حرصه وعنايته في حماية وتأمين حدود الدولة الإسلامية ضد هجمات الأعداء، وكان من هؤلاء الأمراء ابنه الوليد، ومن أمراء البيت الأموي الذين تولوا حملات الصوائف والشواتي لعدة سنوات أخو الخليفة عبد الملك

([1]) الفتوح ، لابن أعثم (122/4).

([2]) الإدارة العسكرية (283/1).

([3]) المصدر السابق نفسه (284/1).

([4])المصدر السابق نفسه.

([5]) شذرات الذهب (95/1)؛ الإدارة العسكرية (479/2).

([6]) لإدارة العسكرية (479/2).

([7]) في بلاد الروم ، فتحه عبد الله بن عبد الملك.

([8]) الإدارة العسكرية (480/2).

محمد بن مروان، الذي كان له الأثر الجميل في مباشرة تحصين وإنشاء حصن المصيصة وشحنه بالجند وبنائه لطرندة وتعزيزه إياها بالعسكر، وابنه مسلمة، بالإضافة إلى كبار القادة أمثال يحيى بن الحكم وعثمان بن الوليد وغيرهما[1]

.

واهتم الخليفة الوليد بالحدود البرية وقام بتحصينات ثغرية كالتي أنشأها بالثغور الشامية على الخط الساحلي للبحر الأبيض المتوسط لحماية حدود الدولة الإسلامية من هجمات الروم، واستحداثه لأربع نقاط حصينة؛ هي: حصن سلوقية[2]وإقطاعه الجند للأراضي بها لتعميرها وإلصاقهم بالثغر، حصن بغراس، وعين السلور[3] وبحيرتها، والإسكندرونة[4] ، فأصبح هذا الخط الساحلي أكثر مناعة وحصانة في عهده من ذي قبل[5]، وقام بفتح حصون كثيرة ثم شحنها بالجند المرابطين؛ منها: حصن طوانة[6] وغيرها من الحصون، واهتم الوليد بالطرق الموصلة إلى الثغور، وقام بتسهيلها وتأمينها وبنى بها القناطر لعبور الجند عليها في حملاتهم الصائفة والشاتية[7] .

واستمر والي العراق من قبل الوليد الحجّاج بن يوسف بتحصين ثغور المشرق، وعمل المراصد بها وبناء القواعد العسكرية فيها كخوارزم[8] ، وشيراز وخراسان وغيرها من ثغور المشرق[9] ، واستمر الخليفة سليمان على نهج والده وأخيه في الاهتمام بالحدود البرية[10] .

سابعاً: الأثر الاقتصادي والاجتماعي للفتوحات:

من الاثار الاقتصادية والاجتماعية في عهد الخليفة عبد الملك للفتوحات؛ ظهور التجار برفقة العسكر بشراء بعض ما يغنمه الجند من العدو، فبذلك تنشط الحركة التجارية وتزدهر، كما أنه أثناء سير العسكر نحو العدو وحين يصادف مرورهم بالمدن والقرى المتواجدة في طريقهم يقومون بشراء احتياجاتهم[11] منها، وكان والي مصر عبد

([1]) تاريخ اليعقوبي (281/2)؛ الإدارة العسكرية (481/2).

([2]) سلوقية: حصن عند الساحل بأرض الروم (تركية).

([3]) عين السلور: قرب إنطاكية. السلور: السمك البحري.

([4])إسكندرونة: مدينة شرق إنطاكية.

([5])الإدارة العسكرية (483/2).

([6]) طوانة: بلد بثغور المصيصة. معجم البلدان (45/4).

([7])الإدارة العسكرية (483/2).

([8]) المصدر السابق نفسه (485/2).

([9]) لمصدر السابق نفسه (486/2).

([10])المصدر السابق نفسه (487/2).

([11]) تاريخ الطبري؛ نقلاً عن الإدارة العسكرية (775/2).

العزيز بن مروان من قبل عبد الملك يحفر الخلجان بها، وكانت له بمصر ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره، ومئة جفنة يطاف بها على القبائل، تحمل على عجل من أجل الإطعام[1]، وحين انتقلت الخلافة إلى الوليد كانت إدارته من أفضل الإدارات في تقديم الخدمات الاجتماعية والاقتصادية بين أفراد المجتمع، وسيأتي عنها الحديث في محلها بإذن الله تعالى. هذه هي أهم الدروس والعبر والفوائد من الفتوحات في عهد عبد الملك وبنيه.

* * *

(1) الولاة ، للكندي ، ص 313؛ الإدارة العسكرية (776/2).

المبحث الخامس

ولاية العهد وموقف سعيد بن المسيب منها

ووصية عبد الملك لأولاده ووفاته

أولاً: ولاية العهد وموقف سعيد بن المسيب منها:

عقد مروان بن الحكم ولاية العهد لابنيه عبد الملك ومن بعده عبد العزيز بعد عودته من مصر وبعد وفاته سنة 65هـ، تولى عبد الملك الحكم وكانت العلاقة التي تربط بين الخليفة وأخيه وولي عهده عبد العزيز يسودها الصفاء، ولم يتوانَ الأخير في خدمة الخلافة طيلة حياته، وبعد أن مضى ما يقارب عشرين سنة على هذه الحال بدأت تظهر فكرة تحويل ولاية العهد من عبد العزيز إلى الوليد وأخيه سليمان ابني الخليفة، وقد تباينت الروايات في ذكرها لمن أشار بأمر الخلع، ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف فعلى ما يبدو أن الخليفة عبد الملك بعد أن ظهرت هذه الفكرة لديه كتب إلى أخيه يطلب منه أن يتنازل عن ولاية العهد لابنيه الوليد وسليمان، فأبى عبد العزيز، وأراد عبد الملك أن ينتقم من عبد العزيز ويضيق عليه[1] ، فكتب عبد العزيز إلى أخيه: يا أمير المؤمنين إني وإياك قد بلغنا سناً لم يبلغها أحد من أهل بيتك إلا كان بقاؤه قليلاً. وإني لا أدري ولا تدري أينا يأتيه الموت أولاً؛ فإن رأيت ألا تغثث علي بقية عمري فافعل. فقال الخليفة عبد الملك: لعمري لا أغثث عليه بقية عمره، وقال لابنيه: إن يرد الله أن يعطيكموها لا يقدر أحد من العباد على رد ذلك[2].

وحسم موت عبد العزيز الخلاف مع أخيه، وعقد عبد الملك بيعة ولاية العهد للوليد وسليمان من بعده، وأمر ولاته في جميع الأمصار بأخذ البيعة لهما، فكان موقف سعيد بن المسيب هو الامتناع عن البيعة لأن ذلك التزام بسنة النبي ﷺ في نظره؛ لأنه نهى عن البيعة لاثنين، فلا بد من تنفيذ ذلك، مهما كلفه الامتناع من ثمن باهظ. قال عمران بن عبد الله: دعي سعيد للبيعة للوليد وسليمان بعد عبد الملك بن مروان فقال: لا أبايع لاثنين ما اختلف

([1])عبد العزيز بن مروان ، بديع محمد الدليمي ، ص 206 إلى 209.

([2])تاريخ الطبري (313/7).

الليل والنهار. قال: فقيل له: ادخل من الباب واخرج من الباب الاخر، قال: والله لا يقتدي بي أحد من الناس[1].

وكان حجة سعيد بن المسيب في امتناعه عن البيعة أنه لا يجوز أن يبايع لاثنين بالخلافة في ان واحد[2] . وقال عبد الرحمن بن عبد القاري، لسعيد بن المسيب، حين قدمت البيعة للوليد وسليمان بالمدينة من بعد أبيهما: إني مشير عليك بخصال ثلاث، قال: وما هي؟ قال: تعتزل مقامك، فإنك هو وحيث يراك هشام بن إسماعيل ـ والي المدينة ـ قال: ما كنت لأغيّر مقاماً قمته منذ أربعين سنة. قال: تخرج معتمراً؟ قال: ما كنت لأنفق مالي، وأجهد بدني في شيء ليس فيه نية. قال: فما الثالثة ؟ قال: تبايع. قال: أرأيت إن كان الله أعمى قلبك، كما أعمى بصرك. قال: فما عليَّ [3] وكان أعمى ـ قال رجاء بن جميل الإيلي: فدعاه هشام إلى البيعة، فأبى فكتب فيه إلى عبد الملك، فكتب إليه عبد الملك: ما لك ولسعيد ؟! ما كان علينا منه شيء نكرهه، فأما إذا فعلت، فاضربه ثلاثين سوطاً، وألبسه تُبَّان[4] شعر، وأوقفه للناس[5].

وكان للفقيه الكبير قبيصة بن ذؤيب دور في ندم الحكام على صنيعهم، ولام الخليفة على ما فعل بابن المسيب، وتم إخلاء سبيله من السجن من قبل والي المدينة الذي سجنه وجلده[6] .

فهذا هو موقف سعيد بن المسيب وتمسكه بفتواه؛ فقد رفض بشدة الخضوع للسلطان وخداع الأمة، فهو يرى أن امتناعه عن البيعة، إذا لم يعلمه الناس فلا جدوى منه، فلابد للعالم والفقيه أن يبين ما يحدد موقفه[7] . وكان سعيد بن المسيب عنده أمر عظيم من بني أمية وسوء سيرتهم، وكان لا يقبل عطاءهم[8] .

وقد اختلف المؤرخون في أمر سعيد بن المسيب، بأن والي المدينة هو الذي عرض سعيد للعقوبة بدون أمر عبد الملك، والبعض الاخر قال: بأن عبد الملك هو الذي أمر، فالذي يهمنا هنا هو موقف سعيد من ولاية العهد للوليد وسليمان، وتعرضه للعقوبة والمحنة؛ مما زاد من حدة الخلاف بينه وبين بني مروان، وأسهم في توسيع الفجوة

---

(1)سعيد بن المسيب سيد التابعين ، ص 157؛ سير أعلام النبلاء (231/4)

(2) سير أعلام النبلاء (231/4).

(3)المصدر السابق نفسه.

(4)التبان: سراويل صغير مقدار شبر يستر العورة المغلظة.

(5) سير أعلام النبلاء (231/4).

(6)سعيد بن المسيب سيد التابعين ، ص 161.

(7) الفقهاء والخلفاء ، سلطان حثلين ، ص 70.

(8) سير أعلام النبلاء (228/4).

في علاقته بهم وولاتهم[1] ، وكانت له مواقف صلبة أمام عبد الملك وابنه الوليد من بعده[2] .

ويلحظ المتمعن في خلاف سعيد بن المسيب ـ رحمه الله ـ لبني أمية وولاتهم ـ التزامه باداب جمة؛ يجدر الوقوف عندها وتأملها للإفادة منها؛ ومن أهم تلك الاداب ما يلي:

1 ـ إنه على الرغم مما حدث بينه وبين بعض خلفاء بني أمية وولاتهم، فإنه يعترف بإمامتهم وشرعية خلافتهم، فهو يعترف لعبد الملك بن مروان وابنه الوليد بإمرة المؤمنين، كما ورد ذلك في قوله لحاجب عبد الملك حين دعاه لمقابلة عبد الملك، فقال سعيد: ما لأمير المؤمنين[3]حاجة. وكذلك قالها للوليد حين قدم الوليد المدينة ودخل المسجد مع عمر بن عبد العزيز، ودار فيه مع عمر حتى قربا من سعيد بن المسيب ووقفا عليه، فقال الوليد لسعيد: كيف أنت أيها الشيخ؟ فقال سعيد: بخير والحمد لله. فانصرف وهو يقول لعمر: هذا بقية الناس، فقال عمر: أجل يا أمير المؤمنين[4] .

كما أنه على الرغم ممّا صنع به والي المدينة ـ هشام بن إسماعيل ـ فإنه كان يصلي خلفه، وكل ما فعله مقابل إساءته له أن قال: الله بيني وبين من ظلمني، أو اللهم انصرني من هشام[5]، وكان يمتثل أوامرهم فيه، فحين أخرج من السجن نهوا أن يجالسه أحد، فكان إذا أراد أحد أن يجالسه قال: إنهم قد جلدوني، ومنعوا الناس أن يجالسوني[6].

2 ـ ومن أدب خلافه: أنه لم يشغل نفسه بسب بني أمية أو ولاتهم، أو التعرض لهم بالقدح وإثارة الناس عليهم، فحين قيل له: ادع على بني أمية، قال: اللهم أعز دينك وأظهر أولياءك، وأخزِ أعداءك في عافية لأمة محمد ﷺ[7].

3 ـ كما لم يدفعه كرهه لبني أمية أن يضع يده مع كل معارض لهم ويسعى لتأييده نكاية للأمويين.

4 ـ كما أنه على الرغم من كرهه القرب من خلفاء بني أمية؛ لاسيما بني مروان منهم، وربما انتقاده لبعض العلماء الذين خالطوهم كقبيصة بن ذؤيب والزهري، على الرغم من ذلك إلا أن كرهه لهذا العمل من العلماء لم يمتد ليشمل نظرته وتقويمه لهم، بل كان يقدر لهم عملهم واجتهادهم، فروي عنه قوله في الزهري: ما مات من ترك

---

[1] أثر العلماء في الحياة السياسية ، ص 378.

[2] سير أعلام النبلاء (226/4 ، 227).

[3] المصدر السابق نفسه (227/4).

[4] تاريخ الإسلام ، للذهبي؛ نقلاً عن أثر العلماء ، ص 389.

[5] سير أعلام النبلاء (230/4)؛ الطبقات (126/5).

[6] سير أعلام النبلاء (232/4).

[7]المصدر السابق نفسه.

مثلك[1]. فانظر إلى هذا الأدب في الخلاف بين العلماء حين يختلفون في قضية من القضايا أو موقف من المواقف، فإنه لا يمتد هذا الخلاف ليفسد ذات بينهم أو يشعل فتيل التهم فيما بينهم[2] .

وقد استطاع عمر بن عبد العزيز حين تولى الحجاز في عهد الوليد أن يحسن التعامل مع العلماء بشكل عام، وقدر لهم قدرهم وجعلهم مستشاريه، وخص سعيداً بمزيد من التقدير والاحترام، ونتيجة لحسن معاملة عمر بن عبد العزيز له تجاوب سعيد معه، قال ابن كثير: وكان سعيد لا يأتي أحداً من الخلفاء، وكان يأتي عمر بن عبد العزيز وهو بالمدينة، ومرة أرسل عمر بن عبد العزيز رسولاً إلى سعيد ليسأله في مسألة، فأخطأ الرسول فدعاه، فلما جاء سعيد قال عمر: أخطأ الرسول، إنما أرسلناه يسألك في مجلسك[3] . فانظر كيف كان حرص عمر على تقديره، وانظر أيضاً كيف سارع سعيد إلى المجيء إليه تقديراً له[4] .

كان عالم المدينة وسيد التابعين مدرسة في الأخلاق والقيم والمبادأى، ومن حياته يستفاد دروس وعبر وفوائد؛ منها:

1 . تزويجه ابنته:

كانت بنت سعيد قد خطبها عبد الملك لابنه الوليد، فأبى عليه[5] ، وزوّج سعيد ابنته لابن أبي وداعة أحد تلاميذه؛ فعن ابن أبي وداعة، قال: كنت أجالس سعيد بن المسيِّب، ففقدني أياماً، فلما جئته قال: أين كنت؟ قلت: تُوُفِّيت أهلي فاشتغلت بها، فقال: ألا أخبرتنا فشهدناها، ثم قال: هل استحدثت امرأة؟ فقلت: يرحمك الله، ومن يزوِّجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟! قال: أنا، فقلت: وتفعل؟ قال: نعم، ثم تحمَّد، وصلَّى على النبي ﷺ، وزوّجني على درهمين ـ أو قال: ثلاث ـ فقمت وما أدري ما أصنع من الفرح، فصرت إلى منزلي وجعلت أتفكر فيمن أستدين. فصليتُ المغرب، ورجعت إلى منزلي، وكنت وحدي صائماً، فقدمت عشائي أُفطر وكان خبزاً وزيتاً، فإذا بابي يُقرع، فقلت: من هذا؟ فقال: سعيد. فأفكرت في كل من اسمه سعيد إلا ابن المسيِّب، فإنه لم يُر أربعين سنة إلا بين بيته والمسجد، فخرجت، فإذا سعيد، فظننت أنه قد بدا له، فقلت: يا أبا محمد ألا أرسلت إليَّ فاتيك؟

---

(1) المصدر السابق نفسه (337/5).

(2) أثر الحياة السياسية في الدولة الأموية ، ص 390.

(3) البداية والنهاية؛ نقلاً عن أثر الحياة السياسية ، ص 392.

(4) أثر الحياة السياسية ، ص 392.

(5) سير أعلام النبلاء (233/4).

قال: لا أنت أحق أن تؤتى، إنك كنت رجلاً عزباً فتزوجت، فكرهت أن تبيت الليلة وحدك، وهذه امرأتك، فإذا هي قائمة من خلفه في طوله، ثم أخذ بيدها فدفعها في الباب، وردَّ الباب. فسقطت المرأة من الحياء، فاستوثقت من الباب، ثم وضعت القصعة في ظلِّ السراج لكي لا تراه، ثم صعدت إلى السطح فرميت الجيران، فجاؤوني، فقالوا: ما شأنك؟ فأخبرتهم، ونزلوا إليها، وبلغ أمي، فجاءت وقالت: وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أُصلحها إلى ثلاثة أيام، فأقمت ثلاثاً ثم دخلت بها، فإذا هي من أجمل الناس، وأحفظ الناس لكتاب الله، وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ، وأعرفهم بحق زوج، فمكثت شهراً لا اتي سعيد بن المسيب، ثم أتيته وهو في حلقته فسلَّمت، فردَّ عليَّ السلام، ولم يُكلمني حتى تقوَّض المجلس، فلما لم يبقَ غيري، قال: ما حال ذلك الإنسان؟ قلت: خير يا أبا محمد، على ما يحب الصديق، ويكره العدو، قال: إن رابك شيء فالعصا. فانصرفت إلى منزلي، فوجَّه إليَّ بعشرين ألف درهم[1].

2. معرفته بتأويل الرؤى:

كان سعيد من أعبر الناس للرؤيا، أخذ ذلك عن أسماء بنت أبي بكر الصِّديق، وأخذته أسماء عن أبيها[2] ، وعن عمر بن حبيب بن قُليع قال: كنت جالساً عند سعيد بن المسيِّب يوماً، وقد ضاقت بي الأشياء ورهقني دين، فجاءه رجل، فقال: رأيت كأنِّي أخذت عبد الملك بن مروان، فأضجعته إلى الأرض، وبطحته فأفندت في ظهره أربع أوتاد. قال: ما أنت رأيتها، قال: بلى. قال: لا أخبرك أو تخبرني، قال: ابن الزبير راها، وهو بعثني إليك، قال: لئن صدقت رؤياه قتله عبد الملك، وخرج من صُلب عبد الملك أربعة كلهم يكون خليفة. قال: فرحلت إلى عبد الملك بالشام فأخبرته، فسُرَّ، وسألني عن سعيد بن المسيِّب وعن حاله فأخبرته وأمر بقضاء ديني وأصبت منه خيراً[3] .

وعن إسماعيل بن أبي حكيم، قال: قال رجل: رأيت كأنّ عبد الملك بن مروان يبول في قبلة مسجد النبي ﷺ أربع مرار. فذكرت ذلك لسعيد بن المسيِّب، فقال: إن صدقت رؤياك قام فيه من صلبه أربعة خلفاء[4] .

([1]) المصدر السابق نفسه.
([2]) المصدر السابق نفسه (235/4).
([3]) المصدر السابق نفسه (235/3).
([4]) المصدر السابق نفسه (236/3).

وعن عمران بن عبد الله، قال: رأى الحسن بن علي كأن بين عينيه مكتوب فاستبشر {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ *}، وأهل بيته، فقصُّوها على سعيد بن المسيِّب، فقال: إن صدقت رؤياه فقلَّ ما بقي من أجله، فمات بعد أيام[1] .

3 . من كلام سعيد بن المسيب:

قال: ما أيس الشيطان من شيء إلا أتاه من قبل النساء[2]، ثم قال لنا سعيد وهو ابن أربع وثمانين سنة قد ذهبت إحدى عينيه وهو يعشو بالأخرى: ما شيء أخوف عندي من النساء[3] ، وقال: لا تقولوا مصيحف ولا مسيجد، ما كان لله فهو عظيم حسن جميل[4] ، وقال: لا خير في من لا يُريد جمع المال من حلِّه، يعطي منه حقه، ويكف به وجهه عن الناس [5] ، فقال: من استغنى بالله، افتقر الناس إليه[6] . وقال: برد

مولى ابن المسيب لسعيد بن المسيب: ما رأيت ما أحسن ما يصنع هؤلاء! قال سعيد: وما يصنعون؟ قال: يصلي أحدهم الظهر، ثم لا يزال صافاً رجليه حتى يصلي العصر. فقال: ويحك يا برد ! أما والله ما هي العبادة، إنما العبادة التفكر في أمر الله، والكف عن محارم الله[7] . وقال: ما خفت على نفسي شيئاً مخافة النِّساء، قالوا: يا أبا محمد إنَّ مثلك لا يريد النساء ولا تريده النساء، فقال: هو ما أقول لكم. وكان شيخاً كبيراً أعمش[8] .

4 . دعاء مستجاب:

عن علي بن يزيد قال: قال لي سعيد بن المسيِّب: قل لقائدك يقوم، فينظر إلى وجه هذا الرجل وإلى جسده، فقام، وجاء فقال: رأيت وجه زنجيٍّ وجسده أبيض. فقال سعيد: إن هذا سبَّ طلحة والزبير وعلياً رضي الله عنهم، فنهيته، فأبى، فدعوت الله عليه، قلت: إن كنت كاذباً فسود الله وجهك، فخرجت بوجهه قرحة فاسود وجهه[9].توفي رحمه الله عام 94 هـ، وسميت السنة التي مات فيها سنة الفقهاء لكثرة من مات منهم فيها[10]. ولما

([1]) المصدر السابق نفسه (237/3).

([2]) المصدر السابق نفسه.

([3]) المصدر السابق نفسه.

([4]) المصدر السابق نفسه (238/3).

([5]) المصدر السابق نفسه.

([6]) المصدر السابق نفسه (239/3).

([7]) المصدر السابق نفسه (241/2).

([8]) المصدر السابق نفسه (241/4).

([9]) المصدر السابق نفسه (242/4).

([10])المصدر السابق نفسه (245/4).

اشتد به الوجع دخل عليه نافع بن جبير يعوده، فأغمي عليه، فقال نافع: وجِّهوه، ففعلوا، فأفاق فقال: من أمركم أن تحولوا فراشي إلى القبلة ؟ أنافع؟ قال: نعم. قال له سعيد: لئن لم أكن على القبلة والملة والله لا ينفعني توجيهكم فراشي[1].

ثانياً: وصية عبد الملك لأولاده ووفاته:

لما احتضر عبد الملك أمر بفتح الأبواب من قصره، فلما فتحت سمع قصاراً ـ أي: غسالاً ـ بالوادي، فقال: ما هذا ؟ قالوا: قصار، فقال: يا ليتني كنت قصاراً أعيش من عمل يدي، فلما بلغ ذلك سعيد بن المسيِّب قال: الحمد لله الذي جعلهم عند موتهم يفرون إلينا ولا نفر إليهم[2] .

1 . ولما حضره الموت جعل يندم ويندب ويضرب بيده على رأسه ويقول: وددت لو أكتسب قوتي يوماً بيوم، واشتغلت بعبادة ربي[3] .

2 . وقيل له لما حضره الموت: كيف تجدك؟ قال: أجدني كما قال الله تعالى: [الأنعام: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ } [سورة الأنعام:94]} [4]

3 . وقيل: إنه لما حضرته الوفاة دعا بنيه فوصاهم فقال: الحمد لله الذي لا يسأل أحداً من خلقه صغيراً أو كبيراً، ثم أنشد:

فهــل من خــالــدٍ إمــا هــالكنــاُ   وهــل بالمــوتِ لــلــبــاقــين عــارُ

وقيل: إنه قال: ارفعوني، فرفعوه حتى شم الهواء، وقال: يا دنيا ما أطيبك؟! إن طويلك لقصير، وإن كثيرك لحقير، وإن كنا بك لفي غرور، ثم تمثل بهذين البيتين:

إن تنـاقشْ يكنْ نقـاشُــــك يا ربِّ   عــذاباً لا طــوقَ لي بالــعــذابِ

أو تجــاوزْ فــأنــتَ ربٌّ صــــفوحٌ   عن مســـــيءٍ ذنوبـُـهُ كــالتُّرابِ[5]

([1]) المصدر السابق نفسه.

([2]) البداية والنهاية (395/12).

([3]) المصدر السابق نفسه.

([4]) لمصدر السابق نفسه (394/12).

([5])

وخطب عبد الملك يوماً خطبة بليغة، ثم قطعها وبكى بكاءً شديداً، ثم قال: يا رب إن ذنوبي عظيمة، وإن قليل عفوك أعظم منها، اللهم فامحُ بقليل عفوك عظيم ذنوبي، فبلغ ذلك القول زاهد العراق الحسن البصري فبكى وقال: لو كان كلام يكتب بالذهب لكتب هذا الكلام[1] ، وقال الشعبي: خطب عبد الملك، فقال: اللهم إن ذنوبي عظام وهي صغار في جنب عفوك يا كريم، فاغفرها لي[2] .

4 . جاء ابنه الوليد بباب المجلس وهو غاصٌّ بالنساء، فقال: كيف أصبح أمير المؤمنين؟ قيل له: يُرجى له العافية وسمع عبد الملك ذلك، فقال:

وكم ســـــائـلٍ عنَّـا يريـدُ لنَـا الرَّدَى　　　وكم ســـــائلاتٍ والـدموعُ ذوارِفُ

ثم أمر النساء، فخرجن، وأذن لبني أمية فدخلوا عليه وفيهم خالد وعبد الله ابنا يزيد بن معاوية، فقال لهما: يا بني يزيد ! أتحبان أن أقيلكما بيعة الوليد؟

قالا: معاذ الله يا أمير المؤمنين ! قال: لو قلتما غير ذلك لأمرت بقتلكما على حالتي هذه. ثم خرجوا عنه واشتد وجعه، فتمثل ببيت أمية بن الصَّلت:

ليتَنِي كنــتُ قبـلَ مـا قَـدْ بَـدَا لي　　　في قـلالِ الجبــالِ أرعـى الوُعُـولا[3]

1 . وصية عبد الملك لابنه الوليد عند موته تدل على حزمه:

لما احتضر عبد الملك دخل ابنه الوليد فبكى، وقال له عبد الملك: ما هذا؟ أتحن خنين الجارية والأمة، إذا مت فشمر واتزر، والبس جلد النمر، وضع الأمور عند أقرانها واحذر قريشاً:

1 . يا وليد: اتقِ الله فيما استخلفك فيه، واحفظ وصيتي.

2 . انظر إلى أخي معاوية، فصِلْ رحمه واحفظني فيه.

---

(1) ا مصدر السابق نفسه (391/12).

(2) سير أعلام النبلاء (249/4).

(3) الأخبار الطوال ، ص 296.

3 . وانظر إلى أخي محمد، فأمِّرْه على الجزيرة ولا تعزله عنها.

4 . انظر إلى ابن عمنا علي بن عباس، فإنه قد انقطع إلينا بمودته ونصيحته، وله نسب وحق، فصل رحمه، واعرف حقه.

5 . وانظر إلى الحجّاج بن يوسف فأكرمه، فإنه هو الذي مهّد لك البلاد، وقهر الأعداء، وخلص لك الملك وشتت الخوارج.

6 . وأنهاك وإخوتك عن الفرقة، وكونوا أولاد أم واحدة، وكونوا في الحرب أحراراً، وللمعروف مناراً، فإن الحرب لم تدنِ منية قبل وقتها، وإن المعروف يشيد ذكر صاحبه، ويميل القلوب بالمحبة، ويذلل الألسنة بالذكر الجميل، ولله در القائل:

إنَّ الأمـــورَ إذا اجتمعْنَ فـــرامها	و بالكســـرِ ذو حنقٍ وبطشٍ مفندِ
عزَّتْ فلم تُكْسَـــرْ وإن هي بُدِّدَتْ	فـالكســـرُ والتوهينُ للمتبـــــــدِ

7 . ثم قال: إذا أنا مت فادعُ الناس إلى بيعتك، ومن أبى فالسيف، وعليك بالإحسان إلى أخواتك فأكرمهن، وأحبهن إليَّ فاطمة، وكان قد أعطاها قرطي مارية، والدرة اليتيمة، ثم قال: اللهم احفظني فيها[1] ، وكان قد تزوجها عمر بن عبد العزيز وهو ابن عمها.

2 . وصيته لبنيه:

لما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة دعا بنيه، فأوصاهم فقال:

1 . يا بني: أوصيكم بتقوى الله، فإنها أحصن كهف وأزين حلة، ليعطف الكبير منكم على الصغير، وليعرف الصغير منكم حق الكبير.

2 . وإياكم والاختلاف والفرقة، فإنها بها هلكة الأولين قبلكم، وذل ذي العدد والكثرة.

3 . وانظروا مسلمة فاصدروا عن رأيه؛ فإنه جنتكم الذي به تستجنون، ونابكم الذي عنه تفترون.

([1]) البداية والنهاية (392/12 ، 393).

4 ـ أكرموا الحجّاج، فإنه وطأ لكم المنابر، وكونوا عند القتال أحراراً، وعند المعروف مناراً، وكونوا بني أم بررة، احلولوا في مرارة، ولينوا في شدة. ثم رفع رأسه إلى الوليد فقال:

5 ـ يا وليد: لا ألفينَّك إذا وضعتني في حفرتي تمسح عينيك وتعصرهما فعل الأمة، ولكن إذا وضعتني في حفرتي فشمر واتزر، والبس جلد النمر، ثم اصعد المنبر فادعُ الناس إلى البيعة، من قال برأسه كذا، فقل بالسيف كذا[1] .

3 ـ وفاته ودفنه:

كان عبد الملك يقول: ولدت في رمضان، وفطمت في رمضان، وختمت القران في رمضان، وأتتني الخلافة في رمضان، وأخشى أن أموت في رمضان، فلما دخل شوال وأمن مات[2] ، مات بدمشق سنة 86 هـ يوم الجمعة، وقيل: الأربعاء، وصلى عليه ابنه الوليد ولي عهده من بعده.

وكان عمره يوم مات ستين سنة، وقيل: ثلاث وستين سنة، وقيل: ثماني وخمسين سنة[3]، ودفن بين باب الجابية وباب الصغير[4] ، وكان نقش خاتمه (امنت بالله مخلصاً)[5] ، وانفرد بالخلافة منذ مقتل ابن الزبير إلى وفاته، والصحيح أنه لما مات كان عمره ستين سنة، حيث ولد عام ستة وعشرين هجرية[6].

* * *

(1) المعمرون والوصايا ، ص 160؛ نقلاً عن وصايا وعظات قيلت في اخر الحياة ، ص 97؛ تاريخ ابن عساكر (126/66).

(2) أخبار الدول واثار الأول في التاريخ (22/2).

(3) البداية والنهاية (396/12).

(4) أخبار الدول واثار الأول في التاريخ (23/2).

(5) تاريخ القضاعي ، ص 347.

(6) سير أعلام النبلاء (246/4).

المبحث السادس

خلافة الوليد بن عبد الملك

(86 . 96 هـ)

هو أبو العباس الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي، الدمشقي، بويع بعهد من أبيه، وكان مترفاً دميماً، قليل العلم، همته في البناء، أنشأ جامع بني أمية، وأنشأ أيضاً مسجد رسول الله ﷺ وزخرفه ورزق في دولته سعادة، ففتح بوابة الأندلس، وبلاد الترك، وكان لحنة، وحرص على النحو أشهراً، فما نفع، وغزا الروم مرات في دولة أبيه، وحج، وقيل: كان يختم في كل ثلاث، وختم في رمضان سبع عشرة ختمة، وكان يقول: لولا أن الله ذكر قوم لوط ما شعرت أن أحداً يفعل ذلك. وكان فيه عسف وجبروت. وقيام بأمر الخلافة، وقد فرض للفقهاء والأيتام والزّمنى والضعفاء وضبط الأمور[1] .

أولاً: أهم أعماله الحضارية والإنسانية:

1 . توسيع المسجد النبوي:

كان الوليد بن عبد الملك من أشهر خلفاء بني أمية، وهو أكثرهم عناية بالبناء والعمران حتى لقب مهندس بني أمية، وأراد الوليد أن يبني المسجد النبوي ويشيده بما يليق به وبعظمة الخلافة في عهده، فصمم على تنفيذ ذلك المشروع وهو توسعة المسجد النبوي، وأدخل حجر أمهات المؤمنين وحجرة فاطمة وحجرة عائشة رضي الله عنهن جميعاً في المسجد، إضافة إلى أن المؤرخين قد ذكروا أن بعض جدران الحجرة قد بدأ فيه الخلل نتيجة القدم[2] ، وعندما وصل خطابه بذلك إلى واليه على المدينة عمر بن عبد العزيز ؛ جمع الفقهاء العشرة[3] ووجوه الناس

---

[1] سير أعلام النبلاء (348/4 ، 349).

[2] الشامل في تاريخ المدينة (396/1)؛ القبورية في اليمن ، ص 71.

[3] البداية والنهاية (414/12).

وأخبرهم بما أمر به الوليد، فأنكروا ذلك وكرهوه، ورأوا أن بقاء بيوت النبي ﷺ على حالها أدعى للعبرة والاتعاظ[1]، وقد قال الفقهاء: هذه حجر قصيرة السقوف وسقوفها من جريد النخل وحيطانها من اللبن وعلى أبوابها المسوح، وتركها على حالها أولى، ينظر فيها الحجاج والزوار والمسافرون إلى بيوت النبي ﷺ فينتفعون بذلك ويعتبرون به، ويكون ذلك أدعى لهم إلى الزهد في الدنيا، فلا يعمرون فيها إلا بقدر الحاجة، وهو ما يستر ويكن، ويعرفون أن هذا البنيان العالي إنما من أفعال الفراعنة والأكاسرة، وكل طويل الأمل راغب في الدنيا وفي الخلود فيها.

فعند ذلك كتب عمر بن عبد العزيز إلى الوليد بما أجمع عليه الفقهاء العشرة المتقدم ذكرهم، فأرسل إليه يأمره بتجديد البناء، كما أراد الوليد، ويحكى أن سعيد بن المسيِّب أنكر إدخال حجرة عائشة في المسجد كأنه خشي أن يتخذ القبر مسجداً[2] .

ومن الأعمال التي مهدت للبدع حول القبور من البناء عليها والصلاة إليها، ودعاء الأموات، إدخال حجرة النبي ﷺ في ناحية المسجد في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك، وزخرفته وتزيينه بالفسيفساء[3] ، ثم تدرج الحال إلى إدخال جميع الحجرة في المسجد، ثم البناء عليها، وبناء القبة، ثم اتخاذها مصلى واتخاذها ذريعة للبناء على القبور واتخاذها مساجد، والوقوع فيما حذر فيه الرسول ﷺ في قوله: «لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، يحذر مما صنعوا[4] . وقال ﷺ: «ألا لا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك»[5].

وقد بنى التابعون على القبر حيطاناً مرتفعة مستديرة حوله، لئلا يظهر في المسجد فيصلي إليه العوام ويؤدي إلى المحظور، ثم بنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا حتى لا يتمكن من استقبال القبر[6]. هذا ما فعله أهل العلم وأولو الأمر عندما اضطروا إلى ذلك ستراً للقبر ستراً كاملاً، فلا ينظر، ولا يتمكن أحد من الصلاة إليه، وما ذلك إلا لأنهم فهموا الأحاديث الناهية عن الصلاة على القبور وإليها، وعن اتخاذ القبور مساجد،

---

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) المصدر السابق نفسه (415/12).

(3) دراسة في الأهواء والفرق والبدع ، ص 250.

(4) البخاري ، رقم (435 ، 436).

(5) مسلم ، رقم (532).

(6) شرح مسلم (12/5 إلى 13).

وفهم العلة في ذلك النهي، فعملوا على إزالة تلك العلة، وفي هذا أبلغ رد على شبهة بعض الناس الذين يحتجون بأن قبر النبي ﷺ في مسجده[1].

وقد كتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز أن يحفر الفوارة بالمدينة، وأن يجري ماءها ففعل، وأمره أن يحفر الابار وأن يسهل الطرق والثنايا، وساق إلى الفوارة الماء من ظاهر المدينة، والفوارة بنيت في ظاهر المسجد عند بقعة راها فأعجبته[2] .

2 . بناء المسجد الأموي:

قال ابن كثير في حوادث عام 96 هـ: فيها تكامل بناء الجامع الأموي بدمشق على يد بانيه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان، جزاه الله عن المسلمين خير الجزاء وكان أصل موضع هذا الجامع قديماً معبداً بنته اليونان الكلدانيون الذين كانوا يعمرون دمشق، وهم الذين وضعوها وعمروها أولاً... ثم إن النصارى حولوا بناء هذا المعبد الذي هو بدمشق معظماً عند اليونان، فجعلوه كنيسة، واستمر النصارى على دينهم هذا بدمشق وغيرها نحو ثلاثمئة سنة، حتى جاء الإسلام.

وعندما صارت الخلافة إلى الوليد عزم على تحويلها إلى مسجد، بعد أن تفاوض مع النصارى، وقام بترضيتهم مقابل عروض مغرية[3] . ثم أمر الوليد بإحضار الات الهدم، واجتمع إليه الأمراء والكبراء من رؤساء الناس، وجاء إليه أساقفة النصارى وقساوستهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين، إنا نجد في كتبنا أن من يهدم هذه الكنيسة يجن. فقال: أنا أحب أن أجن في الله عز وجل، والله لا يهدم فيها أحد شيئاً قبلي[4]، ثم صعد المنارة ثم إلى أعلى مكان من الكنيسة وضرب بها في أعلى حجر فألقاه، فتبادر الأمراء إلى الهدم[5] ،

فهدم الوليد والأمراء جميع ما جدده النصارى في تربيع هذا المكان من المذابح والأبنية.. ثم شرع في بنائه.

وقد استعمل الوليد في بناء هذا المسجد خلقاً كثيراً من الصناع والمهندسين والفعلة، وكان المستحث على عمارته أخوه، وولي عهده من بعده سليمان بن عبد الملك[6] ، وقد أنفق في مسجد دمشق أربعمئة صندوق؛ في كل

([1]) القبورية في اليمن ، ص 73.

([2]) البداية والنهاية (415/12).

([3]) المصدر السابق نفسه (566/12 . 567).

([4]) المصدر السابق نفسه (569/12).

([5]) المصدر السابق نفسه.

([6]) المصدر السابق نفسه (570/12).

صندوق أربعة عشر ألف دينار، وفي رواية: في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار. قلت: فعلى الأول يكون ذلك خمسة الاف ألف دينار وستمئة ألف دينار، وعلى الثاني يكون المصروف في عمارة الجامع الأموي أحد عشر ألف ألف دينار، ومئتي ألف دينار[1] .

وقد نقل إلى الوليد بأن الناس يقولون: أنفق الوليد أموال بيت المال في غير حقها، فنودي في الناس: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، فصعد الوليد المنبر وقال: إنه بلغني عنكم أنكم قلتم: أنفق الوليد بيوت الأموال في غير حقها. ثم قال: يا عمر بن مهاجر، قم فأحضر أموال بيت المال، فحملت على البغال إلى الجامع، وبسطت الأنطاع تحت القبة، ثم أفرغ عليها المال ذهباً صبيباً وفضة خالصة حتى صارت كوماً، حتى كان الرجل لا يرى الرجل من الجانب الاخر وهذا شيء كثير، فوزنت الأموال، فإذا هي تكفي الناس ثلاث سنين مستقبلة، وفي رواية: ست عشرة سنة مستقبلة، ولو لم يدخل للناس شيء بالكلية، ففرح الناس وكبروا وحمدوا الله عز وجل على ذلك، ثم قال الوليد: يا أهل دمشق ! إنكم تفخرون على الناس بأربع: بهوائكم، ومائكم، وفاكهتكم، وحماماتكم، فأحببت أن أزيدكم خامسة وهي هذا الجامع، فاحمدوا الله تعالى. وانصرفوا شاكرين داعين[2] .

وقد كان الجامع الأموي لما كمل بناؤه لم يكن على وجه الأرض بناء أحسن منه، ولا أبهى ولا أجل منه، بحيث إنه إذا نظر الناظر إليه، أو إلى أي جهة منه، أو إلى أي بقعة أو مكان منه، تحير فيما ينظر إليه لحسنه جميعه، ولا يمل ناظره، بل كلما أدمن النظر، بانت له أعجوبة ليست كالأخرى[3] .

3 . المستشفيات في عهد الوليد:

كان الخليفة الوليد بن عبد الملك أول من أسس مستشفى خاصاً بالمجذومين، وذلك سنة 88 هـ، وجعل فيه أطباء مهرة، وأجرى عليهم الأرزاق، وأمر بعزلهم عن الأصحاء كي لا تنتقل العدوى من المصابين إلى الأصحاء، وهذا ما يعرف في التاريخ بدور المجذومين[4] .

([1]) المصدر السابق نفسه (575/12).

([2]) ا المصدر السابق نفسه (576/12).

([3]) ا المصدر السابق نفسه (579/12).

([4]) المستشفيات الإسلامية من العصر النبوي إلى العصر العثماني ، ص 80؛ الأمويون واثارهم المعمارية ، ص 97.

يقول الأستاذ الدكتور أحمد شوكت الشطي: .. أول مؤسسة عرفت هي مجذمة الوليد بن عبد الملك في دمشق سنة 88 هـ، ثم تعددت الملاجأى بعد ذلك في مختلف البلاد العربية لبذل العناية الإنسانية لهؤلاء التعساء، وتعد المجاذم العربية أول دور عولج فيها المصابون بالجذام معالجة فنية[1] .

ويقول أحمد عيسى بكر: قال الشيخ أبو العباس أحمد القلقشندي: إن أول من اتخذ البيمارستان بالشام للمرضى الوليد بن عبد الملك، وهو سادس خلفاء بني أمية.. وقال رشيد الدين بن الوطواط: أول من عمل البيمارستان وأجرى الصدقات على الزَّمْنَى والمجذومين والعميان والمساكين، واستخدم لهم الخدام الوليد بن عبدالملك. وقال تقي الدين المقريزي: أول من بنى البيمارستان في الإسلام ودار المرضى الوليد بن عبد الملك، وهو أيضاً أول من عمل دار الضيافة، وذلك سنة 88 هـ، وجعل في البيمارستان أطباء، وأجرى لهم الأرزاق، وأمر بحبس المجذومين لئلا يخرجوا، وأجرى عليهم وعلى العميان الأرزاق، ولم يصل إلينا أي علم أو إشارة عن المكان الذي أنشأ فيه الوليد البيمارستان[2] .

4 . كفالة الدولة للمحتاجين وتطوير الطرق:

كان الوليد يخصص الأرزاق للفقهاء والضعفاء والفقراء ويحرم عليهم سؤال الناس، ويفرض لهم ما يكفيهم كما فرض على العميان والمجذومين[3]، فقد أعطى المجذومين وقال: لا تسألوا الناس، وأعطى كل مقعد خادماً وكل ضرير قائداً، وفتح في ولايته فتوحاً عظاماً[4] .

وقد اهتم الوليد بتعبيد الطرق وبخاصة تلك التي تؤدي إلى الحجاز لتيسير سفر الحُجاج إلى بيت الله الحرام، فكتب إلى عمر بن عبد العزيز في تسهيل الثنايا وحفر الابار وعمل الفوارة في المدينة، وأمر لها بقوام يقومون عليها وأن يسقى منها أهل المساجد[5] .

ثانياً: ديوان المستغلات:

يعتبر عهد الوليد امتداد لأبيه في النظام السياسي والاقتصادي والإداري وغيرها، ويبدو أن ديوان المستغلات ظهر ذكره في عهد الوليد، وكان هذا الديوان ينظر في إدارة أموال الدولة غير المنقولة من أبنية وعمارات وحوانيت، ولأول

---

(1) ا المستشفيات الإسلامية ، ص 80.

(2)المصدر السابق نفسه ، ص 188.

(3)العالم الإسلامي في العصر الأموي ، ص 158.

(4) البداية والنهاية (609/12).

(5) تاريخ الطبري (337/7).

مرة ترد إشارة ديوان المستغلات في عهد الوليد؛ حيث ذكر أن نفيع بن ذؤيب تقلد للوليد بن عبد الملك ديوان المستغلات، وأن اسمه مكتوب على لوح في سوق السراجين بدمشق[1] . وهذا يدل على: أن الديوان كان قائماً في خلافة الوليد، ولعله أحدث قبل هذا الوقت، وأن وجود اسمه على لوح في سوق دمشق له دلالته على وجود أملاك عائدة إلى الدولة، وأن نفيع كان يشرف على جباية وارداتها [2] .

ثالثاً: الوليد والقران الكريم:

أخذ الخلفاء الأمويون والأمراء أنفسهم بتلاوة القران وختمه من وقت لاخر، وقد شب الوليد على حب القران الكريم والإكثار من تلاوته، وحث الناس على حفظه وإجازتهم على ذلك، حدث إبراهيم بن أبي عبلة قال: قال لي الوليد بن عبد الملك يوماً: في كم تختم القران؟ قلت: في كذا وكذا، فقال: أمير المؤمنين على شغله يختمه في ثلاث . وقيل: في سبع .، قال: وكان يقرأ في شهر رمضان سبع عشرة ختمة، قال إبراهيم: رحم الله الوليد، وأين مثله؟! بنى مسجد دمشق، وكان يعطيني قطع الفضة، فأقسمها على قرّاء بيت المقدس[3] .

وروى الطبري: أن رجلاً من بني مخزوم سأل الوليد قضاء دين عليه. فقال: نعم إن كنت مستحقاً لذلك، قال: يا أمير المؤمنين، وكيف لا أكون مستحقاً لذلك مع قرابتي؟! قال: أقرأت القران؟ قال: لا، قال: ادن مني، فدنا منه، فنزع عمامته بقضيب كان في يده وقرعه قرعات بالقضيب، وقال للرجل: ضم إليك هذا فلا يفارقك حتى يقرأ القران، فقام إليه عثمان بن يزيد بن خالد... فقال: يا أمير المؤمنين إن علي ديناً، فقال: أقرأت القران ؟ قال: نعم، فاستقرأه عشر ايات من الأنفال، وعشر ايات من براءة، فقرأ، فقال: نعم نقضي عنكم، ونصل أرحامكم على هذا[4] . وقال عنه ابن كثير: .. فقد كان صيناً في نفسه، حازماً في رأيه، يقال: إنه لا تعرف له صبوة. ومن جملة محاسنه: ما صح عنه أنه قال: لولا أن الله قص علينا قصة لوط في كتابه ما ظننت أنَّ ذكراً يأتي ذكراً كما تؤتى النِّساءُ[5] .

([1]) إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي ، ص 200.

([2]) المصدر السابق نفسه.

([3])البداية والنهاية(607/12).

([4]) تاريخ الطبري (397/7 ، 398).

([5]) البداية والنهاية (403/12).

رابعاً: عروة بن الزبير في ضيافة الوليد:

عروة بن الزبير بن العوام، ابن حواري رسول الله ﷺ، الإمام، عالم المدينة، المدني، الفقيه، أحد الفقهاء السبعة[1]، كان عروة يقرأ القران كل يوم في المصحف نظراً، ويقوم به الليل، فما تركه إلا ليلة قطعت رجله، وقصة ذلك: أن عروة خرج إلى الوليد بن عبد الملك، حتى إذا كان بوادي القُرى، وجد في رجله شيئاً، فظهرت به قرحة، ثم ترقّى به الوجع، وقدم على الوليد وهو في محمل، فقال: يا أبا عبد الله أقطعها، قال: دونك. فدعا له الطبيب وقال: اشرب المرْقد[2] . فلم يفعل، فقطعها من نصف الساق، فما زاد أن يقول: حسِّ[3] حسِّ، فقال الوليد: ما رأيت شيخاً قط أصبر من هذا.

وأصيب عُرْوة بابنه محمد في ذلك السفر، في اصطبل[4] الوليد، فضربته الدواب بقوائمها فقتلته، فأتى عروةَ رجلٌ يعزيه، فقال: إن كنت تُعزّيني برجلي فقد احتسبتها، قال: بل أُعَزّيك بمحمد ابنك، قال: وما له؟ فأخبره، فقال: اللهم أخذت عضواً وتركت أعضاء، وأخذت ابناً وتركت أبناء[5] ، وجاء في رواية: اللهم كان لي بنون سبعة، فأخذت واحداً، وأبقيت لي ستة، وكان لي أطراف أربعة، فأخذت طرفاً، وأبقيت ثلاثة، ولئن ابتليت، لقد عافيت، ولئن أخذت، لقد أبقيت[6] . وجاء في رواية عن ابنه عبد الله: نظر أبي إلى رجله في الطست، فقال: إنَّ الله يعلم أنِّي ما مشيت بك إلى معصية قط وأنا أعلم[7] . ولما قدم المدينة أتاه ابن المنكدر فقال: كيف كنتَ؟ قال: { لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ۝٦٢} [سورة الكهف:62]

وجاء عيسى بن طلحة إلى عروة بن الزبير حين قدم، فقال عروة لبعض بنيه: اكشف لعمك رجلي، ففعل، فقال عيسى: إنا والله يا أبا عبد الله ما أعددناك للصراع، ولا للسباق، ولقد أبقى الله منك لنا ما كُنَّا نحتاج إليه، رأيك وعلمك. فقال: ما عزَّاني أحد مثلك[8] ، قال ابن خلِّكان: كان أحسن من عزّاه إبراهيم بن محمد بن طلحة فقال: والله ما بك حاجة إلى المشي، ولا أربٌ في السَّعي، وقد تقدّمك عضو من أعضائك وابن من أبنائك إلى الجنَّة،

([1]) سير أعلام النبلاء (421/4).

([2]) المرقد: شيء يُشرب فينوِّم من يشربه ويرقده.

([3]) حس: تقال عند الألم.

([4]) سير أعلام النبلاء (433/4).

([5]) المصدر السابق نفسه.

([6]) المصدر السابق نفسه (431/4).

([7]) المصدر السابق نفسه.

([8]) سير أعلام النبلاء (434/4).

والكل تبع للبعض إن شاء الله، وقد أبقى الله لنا منك ما كنَّا إليه فقراء من علمك ورأيك، والله وليُّ ثوابك والضمين بحسابك[1] ، وقد توفي عروة وهو ابن سبع وستين سنة، سنة 93 هـ[2].

خامساً: الوليد يطلب من الحجّاج أن يكتب له سيرته:

كتب الوليد إلى الحجّاج أن يكتب إليه بسيرته، فكتب إليه: إني أيقظت رأيي، وأنمت هواي، وأدنيت السيد المطاع في قومه، ووليت الحرب الحازم في أمره، وقلدت الخراج الموفر لأمانته، وقسمت لكل خصم من نفسي قسماً يعطيه حظاً من نظري، ولطيف عنايتي، وصرفت السيف إلى النَّطِف[3] المسيء، والثواب إلى المحسن البريء[4] ، فخاف المذنب صولة العقاب، وتمسك المحسن بحظه من الثواب[5] .

سادساً: أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك:

هي أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان الأموية أخت عمر بن عبد العزيز وزوجة الوليد بن عبد الملك، كانت إحدى فضليات النساء في عصرها، وقد ذكرها أبو زرعة في طبقاته فيمن حدَّث بالشام من النساء، فقال: أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان وروى عنها ابن أبي عَبْلة[6] .

وكانت رحمها الله دائمة الذكر لله سبحانه وتعالى، موصولة القلب بكتابه الكريم، تتعاهد القران صباح مساء، فلا تكاد ترى إلا وهي تالية للقران خاضعة لذكر الرحمن، وكانت تسابق زوجها الوليد في تلاوة القران، ولها مواقف وأقوال محمودة؛ منها:

1 . خشيتها لله عز وجل:

كانت تختلف عما كانت عليه عامّة النساء، فإذا ما ذكر الله عز وجل، استشعرت خشيته ومهابته في قلبها، ورأت بنور بصيرتها أنَّ السعداء هم الذين يخافون الله، ومن أقوالها في هذا: ما تحلّى المتحلّون بشيء أحسن عليهم من عظيم مهابة الله عز وجل في صدورهم. وكانت تتقرّب إلى الله عز وجل بكل ما يرضيه ويقرّبها إليه.

([1]) المصدر السابق نفسه.

([2]) المصدر السابق نفسه.

([3]) الشهب اللامعة ، ص 635. النطف: المريب المتهم.

([4]) المصدر السابق نفسه ، ص 636.

([5]) المصدر السابق نفسه .

([6]) تهذيب التهذيب (142/1 ، 143)؛ نساء من عصر التابعين ، ص 191.

ومن صور حياتها المضيئة ما ذكره ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: أنَّها كانت تعتق في كل جمعة رقبة، وتحمل على فرس في سبيل الله عزَّ وجل[1] ، وبلغت هذه التابعية درجة عالية من الورع والخوف من الله تعالى؛ فقد كانت تتحرى أمورها بدقة وتعقل، فلا تكاد تقبل عرضاً أو مالاً جاء إلا من وجه شرعي، وترفض كل (هدية) جاءت من أي مصدر غير مشروع، وإليك هذه القصة: حجَّ الوليد بن عبد الملك، وحجّ محمد بن يوسف من اليمن وحمل هدايا للوليد، فقالت أم البنين للوليد ـ زوجها ـ: يا أمير المؤمنين! اجعل لي هدية محمد بن يوسف، فأمر بصرفها إليها، فجاءت رسل أم البنين إلى محمد بن يوسف فيها فأبى وقال: ينظر فيها أمير المؤمنين، فيرى رأيه ـ وكانت هدايا كثيرة. فقالت: يا أمير المؤمنين ! إنك أمرت بهدايا محمد بن يوسف أن تُصرف إليَّ، ولا حاجة لي بها، قال: ولِمَ؟ قالت: بلغني أنّه غصبها الناس، وكلَّفهم عَمَلها وظَلَمهم، وحمل محمد بن يوسف المتاع إلى الوليد.

فقال له الوليد: بلغني أنَّك أصبتها غصباً. قال: معاذ الله، فأمر الوليد، فاستُحلف بين الرُّكن والمقام خمسين يميناً لله ما غصب شيئاً منها، ولا ظلم أحداً ولا أصابها إلا من طَيّب، فحلف، فقبلها الوليد ودفعها إلى أم البنين . ومات ابن يوسف باليمن[2] .

2 ـ جودها وكرمها:

قيل لأمِّ البنين ـ رحمها الله ـ: ما أحسن شيء رأيت؟ قالت: نعم الله مقبلة عليّ[3] . ومن أقوالها في ذم البخل والبخلاء: لو لم يدخل على البخلاء في بخلهم إلا سوء ظنّهم بالله عز وجل لكان عظيماً. ومن أخبار جودها: أنها كانت تدعو النِّساء إلى بيتها، وتكسوهن الثياب الحسنة، وتعطيهن الدنانير، وتقول: الكسوة لكُنَّ، والدّنانير قسمتها بين فقرائكن ـ تريد بذلك أن تعلمهن وتعوِّدهن على البذل والجود. وكانت تقول: أفٍّ للبخل، والله لو كان ثوباً ما لبسته، ولو كان طريقاً ما سلكته[4] ، وكانت تقول: البخل كل البخل من بخل عن نفسه بالجنة[5] ، ويبدو أن أم البنين قد أحبت بذل المال، وإنفاقه في طرق مشروعة لتشعر بنعمة الله عليها، ولم تكن الدراهم والدنانير تعرف إلى بيتها سبيلاً، فسرعان ما تنفقها، ولله در الشعر؛ فكأنه عناها بقوله:

([1]) نساء من عصر التابعين (159/2).

([2]) تاريخ الطبري (399/7).

([3]) بهجة المجالس ، للقرطبي (119/1)؛ نقلاً عن نساء عصر التابعين (160/2).

([4]) تاريخ دمشق؛ نقلاً عن نساء عصر التابعين (162/2).

([5])المحاسن والمساوأى ، للبيهقي ، ص 186.

وإني امـرؤٌ لا تســـتـقـرُّ دراهمـي [1]على الكفِّ إلا عـابراتِ ســبيـلِ

وكانت تقول: جُعل لكل قوم نهمة في شيء، وجعلت نهمتي في البذل والإعطاء، والله للصِّلة والمواساة أحب إليّ من الطعام الطيب على الجوع، ومن الشراب البارد على الظمأ[2] . ولشدة حرصها على الإنفاق، ووضعه في مواضعه واصطناع ايات المعروف كانت تقول: ما حسدت أحداً قط على شيء إلا أن يكون ذا معروف، فإني كنت أحب أن أشركه في ذلك. ومن روائع أقوالها في هذا: وهل ينال الخير إلا باصطناعه [3]؟! فمن جملة اصطناعها للمعروف، والإعانة عليه: ما ورد أن الثريا بنت علي بن عبد الله، لما
مات زوجها سهيل بن عبد الرحمن بن عوف عنها أو طلقها، خرجت إلى الوليد بن عبد الملك وهو خليفة بدمشق في دين كان عليها، فبينما هي عند زوجه أمِّ البنين بنت عبد العزيز، إذ دخل عليها الوليد، فقال: من هذه عندك؟ قالت أم البنين: الثُّريا بنت علي جاءتني أطلب إليك في قضاء دين عليها وحوائج لها. فقُضيت حوائجها وانصرفت شاكرة لأمِّ البنين وزوجها الوليد[4] .

3 ـ أم البنين والحجّاج:

تذكر كتب التاريخ أن الحجّاج بن يوسف قدم على الوليد بن عبد الملك، فأذن له بالدخول، فدخل عليه، وعليه عمامة سوداء وقوس عربية، وكنانة. فبعثت إليه أمُّ البنين فقالت: من هذا الأعرابي المستلئم ـ المتسلح ـ في السِّلاح عندك، وأنت في غِلالة غرر، فأرسل إليها أنه الحجّاج بن يوسف الثقفي. فراعها ذلك وأوجست خيفة في نفسها وقالت: والله، لأن يخلو بك ملك الموت، أحب إليَّ من أن يخلو بك الحجّاج بن يوسف وقد قتل الخلق وأهل الطاعة ظلماً وعدواناً، فعرف الحجّاج رأي أم البنين، فقال للوليد: يا أمير المؤمنين، دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول، فإنما المرأة ريحانة، وليس بقهرمانة، ولا تطلعهن على أمرك ولا تطلعهن في سرّك، ولا تستعملهن لأكثر من زينتهن، وإياك ومشاورتهن، فإنّ رأيهن إلى أفن وعزمهن إلى وهن، ولا تملك الواحدة منهن من الأمور ما يجاوز

([1]) نساء عصر التابعين (162/2).

([2]) زهر الأدب ، للحصري (258/1)؛ بتصرف يسير ، نقلاً عن نساء عصر التابعين (163/2).

([3]) نساء عصر التابعين (163/2).

([4]) زهر الاداب ، للحصري (258/1) ، بتصرف يسير؛ نقلاً عن نساء عصر التابعين (163/2).

نفسها، ولا تطمعها أن تشفع عندك لغيرها، ولا تطل الجلوس معهن، فإنَّ ذلك أوفر لعقلك وأبين لفضلك، ثم نهض الحجّاج وخرج من عند الوليد، فدخل الوليد على أم البنين، فأخبرها بمقالة الحجّاج ورأيه، فقالت: يا أمير المؤمنين، أحبُّ أن يأمره أمير المؤمنين بالتسليم علي غداً، قال: أفعل، فغدا الحجّاج على الوليد فقال: ائت أم البنين، فسلم عليها. فقال: أعفني من ذلك يا أمير المؤمنين ! فقال الوليد: لتفعلنّ، فلا بدّ من ذلك، وأسقط في يد الحجّاج، فهو يعلم رأيها فيه، وفي أخيه محمد بن يوسف من قبل، واللقاء معها لا يبشر بخير، ولكن ليس في الأمر حيلة، ولا مخرج له من هذا الموقف المحرج. فمضى وأتى مكانها، فحجبته طويلاً، ثم أذنت له، وتركته قائماً، ولم تأذن له في الجلوس، ثم قالت له: أنت الممتنُّ على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث؟ ثم ذكرت له قتل عبد الله بن الزبير، وعددت له فظائعه، وأنكرت عليه قوله بالأمس . بالنساء . مع زوجها الوليد، وذكرت له قبح منظره

وسوء خلقه، ثم قالت تعرّض به: قاتل الله الذي يقول وسنان غزالة الحرورية بين كتفيك:

أسدٌ عليَّ وفي الحروبِ نعامةٌ   ربـداءُ تنفرُ من صـــفيرِ الصَّـــــافرِ

إلى اخر الأبيات. ثم أمرت جارية لها، فأخرجته مقبوحاً مذموماً مدحوراً، فلما دخل على الوليد سأله فقال: ما كنت فيه يا أبا محمد؟ قال: والله يا أمير المؤمنين، ما سكتت حتى كان بطن الأرض أحب إلي من ظهرها، فضحك الوليد وقال: يا حجّاج إنها ابنة عبد العزيز بن مروان[1] .

وأما ما ينسب إلى أم البنين في قصتها المكذوبة مع وضاح اليمني، فهي ليس لها نصيب من الصِّحة[2] ، وما ذكرته كتب الأدب من الأكاذيب والأباطيل في حق هذه التابعية لا ينظر إليه، ولا يعتمد في تقرير الحقائق التاريخية.

سابعاً: المراسلات بين الوليد وملك الروم:

كانت هناك مراسلات بين الوليد وبين ملك الروم ولاسيما حينما هدم الوليد كنيسة دمشق، فكتب إليه ملك الروم: إنك هدمت الكنيسة التي رأى أبوك تركها، فإن كان صواباً فقد أخطأت، وإن كان خطأ فما عذرك؟ فكتب إليه الوليد: {وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ *فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ *} [الأنبياء: . 79] .

([1]) وفيات الأعيان (44/2 ، 45)؛ نساء عصر التابعين (169/2).

([2]) أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية ، ص 418.

وحين قرر الوليد بن عبد الملك فتح القسطنطينية وأعد العدة لذلك، أرسل قيصر الروم سفيراً يدعى دانيا حاكم مدينة سينوب إلى دمشق للتداول مع الخليفة حول إمكانية عقد هدنة بين الطرفين، وزوده بتعليمات سرية ترمي إلى الوقوف على مدى استعدادات المسلمين لحصار القسطنطينية، وعند رجوعه أطلعهم على استعداد العرب للحملة، وحث الروم على اتخاذ التدابير الكفيلة بمواجهة الموقف[1] ، وهذا يدل على أن الروم كانوا يتخذون من السفراء والوفد وسيلة لجمع المعلومات في الدولة الإسلامية واستعداداتهم تجاه الروم، والتجسس على الدولة الإسلامية، مستغلين كونهم رسلاً بين الدولتين، مستفيدين من طبيعة المهمة السلمية التي يقومون بها.

وكانت هناك مراسلات وتبادل هدايا بين الخليفة الوليد بن عبد الملك وبين ملوك الروم حين أراد بناء الجامع الأموي، فعلى سبيل المثال لا الحصر ما أهداه الوليد إلى ملك الروم من كميات الفلفل قدرت قيمتها بعشرين ألف دينار[2] ، وهناك روايات كثيرة تشير إلى التعامل السلمي وتبادل الخبرات الذي كان موجوداً بين الوليد وقيصر الروم، فقد أراد الوليد الاستفادة من خبرات الروم في صناعة الفسيفساء والبناء والعمران[3] ، وكانت هناك مراسلات متعلقة بالأسرى والرهائن بين الطرفين، فقد كانت من المسائل المهمة جداً، وكانت المفاوضات بشأنها تجري إما في دمشق أو في القسطنطينية، وليس في مدن محلية صغيرة[4].

ثامناً: محاولة نزع سليمان من ولاية العهد ووفاة الوليد عام 96 هـ:

وفي سنة 96 هـ كان الوليد يريد الشخوص إلى أخيه سليمان لخلعه، وأراد البيعة لابنه من بعده، وذلك قبل مرضته التي مات فيها، فقد أراد من سليمان أن يبايع لابنه عبد العزيز فأبى سليمان، فأراده على أن يجعله من بعده فأبى، فعرض عليه أموالاً كثيرة فأبى، فكتب إلى عماله أن يبايعوا لعبد العزيز ـ ابنه ـ، ودعا الناس إلى ذلك فلم يجبه أحد إلا الحجّاج وقتيبة وخواص من الناس[5] ، وطلب الوليد من عمر بن عبد العزيز، فامتنع عمر وقال: لسليمان في أعناقنا بيعة، فغضب الوليد، وطيَّن على عمر، ثم فتح عليه بعد ثلاث، وقد ذبل ومالت عنقه، وقيل: خنق بمنديل حتى صاحت أمُّ البنين أخت الوليد، فلذلك شكر سليمان لعمر، وأعطاه الخلافة من بعده، وقد حج عبد العزيز

([1]) السفارات في التاريخ الإسلامي ، يونس السامرائي ، ص 409.

([2]) العلاقات العربية ـ البيزنطية ، ص 130.

([3]) المصدر السابق نفسه، ص 139.

([4]) المصدر السابق نفسه ـ البيزنطية ، ص 143.

([5]) تاريخ الطبري (399/7).

بن الوليد بالناس وكان لبيباً عاقلاً، دعا إلى نفسه بالخلافة ـ بعد موت سليمان ـ فلمّا سمع باستخلاف خاله سكن، ودخل في الطاعة[1].

وأصرّ الوليد على بيعة ابنه وخلع أخيه سليمان، وكتب إليه يأمره بالقدوم فأبطا، فاعتزم الوليد المسير إليه، وعلى أن يخلعه، فأمر الناس بالتأهب وأمر بحُجَره فأخرجت، فمرض ومات قبل أن يسير وهو يريد ذلك[2]، وكان اخر ما تكلم به الوليد عند موته:

سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، وكان نقش خاتمه: يا وليد إنك ميت[3]، وكان عمر بن عبد العزيز ممن حضر دفنه، قال: لتنزلنه غير موسد ولا ممهد، قد خلفت الأسباب وفارقت الأحباب، وسكنت التراب، وواجهت الحساب، فقيراً إلى ما تقدم عليه، غنياً عما يخلف[4] .

وكانت وفاة الوليد يوم السبت في النصف من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين في قول جميع أهل السير[5] ، واختلف في قدر مدة خلافته، واخترت قول الزهري في ذلك: ملك الوليد عشر سنين إلا شهراً[6] ، واختلف في سنه لما مات؛ فقيل: ست وأربعون سنة وأشهر، وقيل: توفي وهو ابن خمس وأربعين سنة، وقيل: وهو ابن اثنتين وأربعين سنة، وأشهر ما قيل: سبع وأربعون سنة[7] ، وقيل: صلى عليه عمر بن عبد العزيز.

وكان له: تسعة عشر ابناً: عبد العزيز، ومحمد، والعباس، وإبراهيم، وتمام، وخالد، وعبد الرحمن، ومبشر، ومسرور، وأبو عبيدة، وصدقة، ومنصور، ومروان، وعنبسة، وعمرو، وروح، وبشر، ويزيد، ويحيى. وأم عبد العزيز، ومحمد: أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان، وأم أبي عبيدة فزارية، وسائرهم لأمهات شتى [8] .

* * *

---

(1) سير أعلام النبلاء (5/148 ، 149).

(2) تاريخ الطبري (7/400).

(3) تاريخ دمشق (66/129).

(4) المصدر السابق نفسه (66/132).

(5) تاريخ الطبري (7/396).

(6) المصدر السابق نفسه.

(7) المصدر السابق نفسه.

(8) المصدر السابق نفسه (7/397).

المبحث السابع

خلافة سليمان بن عبد الملك (96 . 99 هـ)

هو سليمان بن عبد الملك بن أبي العاص بن أمية الخليفة، أبو أيوب القرشي الأموي، بويع بعد أخيه الوليد سنة ست وتسعين، وكان له دار كبيرة مكان طهارة جيرون[1]، وكان ديناً فصيحاً مفوهاً عادلاً محباً للغزو[2] ، وكان جميلاً، ويرجع إلى دين وخير ومحبة للحق وأهله واتباع القران والسنة، وإظهار الشرائع الإسلامية[3] ، وكان يستعين في أمر الرعية بعمر بن عبد العزيز، وعزل عُمّال الحجّاج. وكتب: إن الصلاة قد أميتت فأحيوها بوقتها، وهمَّ بالإقامة ببيت المقدس، ثم نزل قنسرين للرباط، وحجّ في خلافته[4]، وعن ابن سيرين قال: يرحم الله سليمان افتتح خلافته بإحياء الصلاة، واختتمها باستخلاف عمر[5] ، وكان سليمان ينهى الناس عن الغناء[6] .

أولاً: سياسته العامة:

كان عهد سليمان يمثل بداية المرحلة الجديدة من مراحل الخلافة الأموية وعلى الأخص المروانية منها، لما امتاز به من خصائص جديدة وتغير في أسلوب الحكم عن سابقيه منهم، إذ اتسمت سياسته بإيثار السلامة والعافية والنزوع إلى الموادعة والأخذ برأي أهل العلم والفضل من باب العمل بمفهوم الشورى والتمسك بالتعاليم والأحكام الإسلامية، والحرص على تنفيذها، وهي الأمور التي وضحها في خطبته التي خطبها بعد استخلافه، وبيَّن فيها سياسته التي سينتهجها في الحكم[7] .

1 . حض الناس على الرجوع إلى القران الكريم:

إذ يقول: اتخذوا كتاب الله إماماً، وارضو به حكماً، واجعلوه قائداً فإنه ناسخ لما قبله،ولن ينسخه كتاب بعده[8].

([1]) سير أعلام النبلاء (111/5).

([2]) المصدر السابق نفسه.

([3]) البداية والنهاية (642/12).

([4]) سير أعلام النبلاء (112/5).

([5]) المصدر السابق نفسه (112/7).

([6]) المصدر السابق نفسه.

([7]) خلافة سليمان بن عبد الملك ، ص 95.

([8]) البيان والتبيين ، للجاحظ (244/1)؛ خلافة سليمان ، ص 95.

2 . مفهومه للخلافة:

وقال في موضع اخر من خطبته مؤكداً على تمسكه بتعاليم الإسلام ورغبته بالموادعة والمسالمة، ومبيناً مفهومه للخلافة، وما يترتب على ذلك: جعل الله الدنيا داراً لا تقوم إلا بأئمة العدل، ودعاة الحق، وإن لله عباداً يملكهم أرضه، ويسوس بهم عباده، ويقيم بهم حدوده ورعاية عباده... ولولا أن الخلافة تحفة من الله كفر بالله خلعها، لتمنيت أني كأحد المسلمين يضرب لي بسهمي، فعلى رسلكم بني الوليد، فإني شبل عبد الملك، وناب مروان، لا تضلعني حمل النائبة ولا يفزعني صريف الأجفر[1] ، وقد وليت من أمركم ما كنت له مكفياً، وأصبحت خليفة وأميراً وما هو إلا العدل أو النار.. فمن سلك المحجة حُذي نعل السلامة، ومن عدل عن الطريق وقع في وادي الهلكة والضلالة، ألا إنَّ الله سائل كلاً عن كل، فمن صحت نيته ولزم طاعته، كان الله له بصراط التوفيق، وبرصد المعونة، فكتب له سبيل الشكر والمكافأة، فاقبلوا العافية فقد رزقتموها، والزموا السلامة فقد وجدتموها، فمن سلمنا منه، سلم منا، ومن تاركنا تاركناه، ومن نازعنا نازعناه، فارغبوا إلى الله في صلاح نياتكم وقبول أعمالكم وطاعة سلطانكم، فإني غير مبطل لله حداً ولا تارك له حقاً، أنكثها عثمانية عمرية[2] . أي: الشدة واللين[3] .

3 . مفهوم الشورى عند سليمان:

وتأكيداً على مفهوم الشورى الذي جعله سليمان أحد دعائم حكمه، وصفة لنهجه الجديد؛ قال: وقد عزلت كل أمير كرهته رعيته، ووليت على أهل كل بلد، من أجمع عليه خيارهم، واتفقت عليه كلمتهم [4] .

ويقول: رحم الله امرأً عرف سهو المغفل عن مفروض حق واجب فأعان برأي[5]. ويقول أيضاً في موقع اخر: أيها الناس! رحم الله من ذُكِّرَ فاذّكر؛ فإن العظة تجلو العماء[6] .

هذا النهج الجديد، مخالف لما نهجه عبد الملك والوليد في سياسة الدولة، القائمة على بسط النفوذ والسلطة بالقوة والتضييق على الناس[7] ، فعبد الملك بن مروان يقول في إحدى خطبه: والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي

---

(1) صريف الأجفر: أي صوت الجمال الصغيرة.

(2) المنتظم (7/14 . 15).

(3) خلافة سليمان بن عبد الملك ، ص 96.

(4) المنتظم (7/14 . 15).

(5) خلافة سليمان بن عبد الملك ، ص 96.

(6) المنتظم (7/13).

(7) خلافة سليمان بن عبد الملك ، ص 96.

هذا إلا ضربت عنقه[1] ، وكان عبد الملك بن مروان: أول من نهى عن الكلام بحضرة الخلفاء، وكان الناس قبله يراجعون الخلفاء ويعترضون عليهم فيما يفعلون[2]، ولما حضرته الوفاة قال للوليد وكان يبكي عليه عند رأسه: يا وليد، لا ألفينك إذا وضعتني في حفرتي أن تعصر عينيك كالأمة الورهاء[3] ، بل ائتزر وشمّر، والبس جلد النمر، وادعُ الناس إلى البيعة ثانية، ومن قال برأسه كذا، فقل بالسيف كذا[4] .

وقد سار الوليد بن عبد الملك على هذا النهج، فمن خطبته عندما تولى الخلافة قوله: .. أيها الناس من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه، ومن سكت مات بدائه[5] .

فهذا النهج الذي وضحه سليمان في خطبته وسار عليه في خلافته تنبه عدد من المؤرخين القدامى إليه وأشاروا إلى جوانبه المختلفة في كتاباتهم، فوصفه بعضهم بأنه من خيار بني أمية[6] ، وحتى المؤرخ الشيعي المسعودي وصفه إلى إشارة السلامة والعافية ونزوعه إلى الموادعة واستشارة أهل العلم بقوله: كان سليمان لين الجانب.. لا يعجل إلى سفك الدماء ولا يستنكف عن مشورة النصحاء[7] ، ووصفه ابن كثير بقوله: يرجع إلى دين وخير ومحبة للحق وأهله، واتباع القران والسنة وإظهار الشرائع الإسلامية رحمه الله[8] ، ووصفه لسان الدين الخطيب بقوله: وكان قائماً برسوم الشريعة[9] . وأما ابن قتيبة فيقول: افتتح بخير؛ وختم بخير؛ لأنه رد المظالم إلى أهلها، ورد المسيرين، وأخرج المسجونين الذين كانوا بالبصرة، واستخلف عمر بن عبد العزيز وأغزى أخاه الصائفة حتى بلغ القسطنطينية، فأقام بها حتى مات[10] ، وأما أبو زرعة الدمشقي، فقد عد خلافة سليمان، وخلافة عمر بن عبد العزيز واحدة، حيث يقول: كانت خلافة سليمان بن عبد الملك كأنها خلافة عمر بن عبد العزيز، كان إذا أراد شيئاً قال له: ما تقول يا أبا حفص؟ قالا جميعاً[11] .

([1]) فوات الوفيات ، لابن شاكر (404/2).

([2]) المصدر السابق نفسه (404/2).

([3]) الوره: الحمق في كل عمل ، ويقال: الخرق في العمل.

([4]) الأخبار الطوال ، ص 325.

([5]) تاريخ الطبري؛ نقلاً عن خلافة سليمان بن عبد الملك ، ص 97.

([6]) فوات الوفيات (68/2)؛ خلافة سليمان ، ص 97.

([7]) التنبيه ، للمسعودي ، ص 319؛ نقلاً عن خلافة سليمان ، ص 98.

([8]) البداية والنهاية (642/12).

([9]) خلافة سليمان بن عبد الملك ، ص 98.

([10]) المعارف ، ص 360؛ خلافة سليمان بن عبد الملك ، ص 98.

([11]) تاريخ أبي زرعة (193/1 ـ 194)؛ نقلاً عن خلافة سليمان ، ص 99.

ثانياً: سياسة سليمان في اختيار الولاة:

راعى سليمان اعتبارات عدة في اختيار ولاته على الأمصار، ونظراً لحساسية هذا الموضوع، فقد أوضح جانباً من سياسته تلك في خطبته التي خطبها بعد استخلافه، حيث قال: قد عزلت كل أمير كرهته رعيته، ووليت أهل كل بلد، من أجمع عليه خيارهم واتفقت عليه كلمتهم[1] .

1 . استشارة العلماء والنصحاء من ذوي الخبرة:

ولعل من هذه الاعتبارات استشارة العلماء والنصحاء من ذوي الخبرة في كل أمور الأمصار، فقد اتخذ عمر بن عبد العزيز وزيراً ومستشاراً[2]، وقد صدر سليمان عن رأيه في عزل عمال الحجاج[3]، وممن كان يستشيرهم رجاء بن حيوة الكندي، فقد ولى سليمان محمد بن يزيد الأنصاري . ويقال: القرشي . إفريقية بمشورته[4] .

2 . اختيار العلماء وأهل الصلاح:

ومن هذه الاعتبارات في اختيار الولاة أيضاً اختيار الفقهاء، وأهل الصلاح والزهد، املاً من ذلك استبدال الظلم بالعدل، وبالتالي تغيير نظرة المجتمع الإسلامي انذاك إلى الخلافة الأموية، وكسب الرأي العام لصالحها، ومن هؤلاء: أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري على المدينة، وهو أحد فقهائها، وكان ثقة كثير الحديث[5] ، وكذلك الأمر مع عروة بن محمد بن عطية السعدي[6] ، الذي ولاه سليمان اليمن، وكان من الزهاد[7] ، وولى اليمن أيضاً في عهدي عمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك[8] ، وخرج من اليمن وما معه إلا سيفه ورمحه ومصحفه[9]، ويروى أنه لما دخل اليمن قال: يا أهل اليمن ! هذه راحلتي ؛ فإن خرجت بأكثر منها فأنا سارق[10] ، والشيء

([1]) المنتظم (13/7 ، 14 ، 15).
([2]) المصدر السابق نفسه؛ خلافة سليمان ، ص 148.
([3]) الوافي بالوفيات (403/15)؛ خلافة سليمان ، ص 148.
([4]) فتوح مصر ، ص 213؛ خلافة سليمان ، ص 149.
([5]) تهذيب التهذيب (39/12).
([6]) تهذيب الكمال ، للمزي (32/2)؛ خلافة سليمان ، ص 150.
([7]) مراة الزمان؛ نقلاً عن خلافة سليمان ، ص 150.
([8]) تهذيب الكمال (340/20)؛ خلافة سليمان ، ص 150.
([9]) خلافة سليمان ، ص 150.
([10]) تهذيب التهذيب (187/7)؛ خلافة سليمان ، ص 150.

ذاته يمكن أن يقال عن عبد الملك بن رفاعة الفهمي والي مصر، حيث اتصف بحسن السيرة والتدين والعفة عن الأموال، والعدل في الرعية، بالإضافة إلى كونه ثقة أميناً فاضلاً[1] ، وكذلك الأمر بالنسبة لمحمد بن يزيد والي إفريقية، حيث اتصف بحسن السيرة والعدل بين الرعية[2] .

3 . مصلحة الدولة فوق كل الاعتبارات:

في سنة 96 هـ جمع سليمان بن عبد الملك العراق ليزيد بن المهلب حربها وصلاتها[3]، وأضيفت له خراسان حربها وصلاتها سنة 97 هـ[4] ، ويمكن رد أسباب تولية يزيد لعدة اعتبارات ؛ منها:

أ . انقطاع يزيد بن المهلب إلى سليمان، بعد أن أجاره سليمان من الحجاج والوليد، وتعاظم ما بينهما لدرجة كبيرة جداً؛ فالطبري يقول: وكان لا تأتي يزيد بن المهلب هدية إلا بعث بها إلى سليمان، ولا تأتي سليمان هدية ولا فائدة إلا بعث بنصفها إلى يزيد بن المهلب، كما أن من دلائل تعاظم حظوة يزيد عند سليمان، أن يزيد كان يجلس على سريره[5] .

ب . اتخذ سليمان يزيداً مستشاراً له فيما يخص المشرق الإسلامي، ويعزز هذا الرأي: أن يزيد كان في خراسان في حياة أبيه ووالياً بعد وفاة أبيه حتى عزله الحجاج عن خراسان، وبالتالي فإن الحجاج باعتباره قائداً عسكرياً وإدارياً كبيراً أحدث بوفاته فراغاً كبيراً، ووجد سليمان أن يزيد هو الأفضل لملء الفراغ الذي أحدثته وفاة الحجاج[6] ، وكانت مصلحة الدولة عند سليمان تفوق كل اعتبار في تولية الولاة؛ فقد ولى يزيد بن المهلب حرب العراق وصلاته، إلا أنه لم يولِّه الخراج، وإنما عهد بأمره إلى أهل المعرفة والكفاية والدراية في أمور الخراج في العراق، وهو صالح بن عبد الرحمن مولى تميم[7] ، كما أنه أقر تولية وكيع بن حميد الدوسي على خراج خراسان، وهو من أهل المعرفة والكفاية والدراية في هذا المجال[8] .

([1]) النجوم الزاهرة (296/1)؛ خلافة سليمان ، ص 150.

([2]) تاريخ إفريقية، للرقيق القيرواني ، ص 58؛ خلافة سليمان ، ص 150.

([3]) تاريخ الطبري (424/7).

([4]) المصدر السابق نفسه (425/5).

([5]) خلافة سليمان بن عبد الملك ، ص 151؛ الوزراء والكتاب ، ص 50.

([6]) خلافة سليمان بن عبد الملك ، ص 151.

([7]) المنتظم (18/7)؛ خلافة سليمان ، ص 152.

([8]) تاريخ الطبري؛ نقلاً عن خلافة سليمان ، ص 152.

ثالثاً: سياسة سليمان تجاه حركات المعارضة:

1 . الخوارج:

لم يعد للخوارج قوة تذكر، وكل ما كان منهم في عهد سليمان لا يعدو عن كونه عصيان مجموعات صغيرة، أو قل كبيرة فردية لا تكاد تقوم لها قائمة بمجرد إعلانها، ويذكر لسليمان بأنه كان أقل شدة من سابقيه في تعامله مع الخوارج غير الثائرين، فاكتفى بسجن من يسبون الخلفاء منهم[1]، وكان يستشير عمر بن عبد العزيز في أمرهم ويصدع لحكمه فيهم، معلماً سليمان عدم وجود سبة تحل دم المسلم غير سبة الأنبياء[2]، وكان عمر يرى حبسهم أو العفو عنهم[3] .

2. الهاشميون:

أما بالنسبة لعلاقة سليمان بالعلويين فاتسمت بالمودة والهدوء، حيث كان يقرِّب العلويين ويقضي حوائجهم[4]، وليس من الثابت أن سليمان تحامى أبا هاشم ـ عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب (ت 98 هـ) ـ وأرصد له من سمَّه، ويبدو لنا من دراسة تلك الروايات المتعلقة بهذه القصة أنها موضوعة ؛ للأسباب التالية:

أ ـ تختلف الروايات اختلافاً بيِّناً في تحديد اسم الخليفة الذي دبَّر حادثة السم، وبعضها تنسب ذلك إلى الوليد بن عبد الملك، وبعضها تنسب إلى سليمان بن عبد الملك، أما الجاحظ فقد حمل الأمويين مسؤولية سم أبي هاشم دون تحديد الشخص المسؤول عن ذلك.

ب ـ وحتى هذه المصادر التي صرحت بأن سليمان سمَّ أبا هاشم، فإنها تختلف في تحديد كيفية وحيثيات هذه المؤامرة.

جـ لا تجمع المصادر التي بين أيدينا على أن أبا هاشم توفي مسموماً، فهناك عدة مصادر يستشف منها أن وفاته كانت طبيعية[5] .

د ـ وهناك عدة رجال وافتهم المنية بعد عودتهم من عند الخليفة سليمان أو أثناء إقامتهم عنده[6]، ولا يمكن

([1]) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، ص 112.

([2])المصدر السابق نفسه.

([3]) خلافة سليمان بن عبد الملك ، ص 131.

([4]) المصدر السابق نفسه، ص 132.

([5]) خلافة سليمان بن عبد الملك ، ص 134.

([6]) المصدر السابق نفسه.

اعتبار وفاة هؤلاء الرجال جميعاً، أو أحدهم من تدبير الخليفة لمجرد وفاتهم وهم في صحبته، أو أثناء عودتهم من عنده. والذي يبدو أن وفاة أبي هاشم كانت طبيعية وليست بالسم، وأن ادعاء السم ما هي إلا روايات موضوعة[1] .

3 . الزبيريون:

اتسمت علاقة سليمان بالزبيريين بالمودة، وكان سليمان يسأل عن أحوالهم ويتفقدهم، حيث قضى دين جعفر بن الزبير، عندما علم به[2] ، وتَردُّ المصادر قوة علاقة سليمان بالزبيريين إلى يد سلفت لعبد الله بن الزبير على سليمان، ففي أثناء الصراع بين عبد الله بن الزبير والأمويين أُتي إليه بسليمان بن عبد الملك من الطائف، وكان يومئذ غلاماً صغيراً، فكساه وجهزه إلى أبيه للشام، بعد أن وصله ووصل جميع من كان معه. فكان سليمان يشكر ذلك لعبد الله بن الزبير، فلما ولي أحسن إلى جميع ولده، وكثيراً ما يأتونه فيبرهم ويصلهم، وكان يعظِّم ثابت بن عبد الله من بينهم[3] . إن عهد سليمان اتسم بهدوء نسبي إلى درجة كبيرة، فلم يشهد حركات معارضة عنيفة، فكانت حركات الخوارج صغيرة، ولم تهدد كيان الدولة، ووادع الهاشميين وأحسن إليهم، كما وادع الزبيريين مكافأة لهم باليد التي كانت لعبد الله بن الزبير عليه[4] .

رابعاً: سليمان والعلماء:

تميز سليمان بن عبد الملك بحرصه على تقريب العلماء وقبول نصيحتهم والاستماع إليهم، ومن أشهر هؤلاء العلماء الذين كانوا مستشارين: رجاء بن حيوة، وعمر بن عبد العزيز وغيرهم.

1 . رجاء بن حيوة:

أبو نصر الكندي، الإمام القدوة، الوزير العادل، الفقيه، من جلة التابعين، حدث عن معاذ بن جبل وأبي الدرداء، وعبادة بن الصامت وطائفة[5]، قال عنه مسلمة بن عبد الملك أمير السرايا: برجاء بن حيوة وبأمثاله ننصر[6].

---

[1] المصدر السابق نفسه.

[2] المصدر السابق نفسه، ص 136.

[3] المصدر السابق نفسه، ص 137.

[4] المصدر السابق نفسه، ص 138.

[5] سير أعلام النبلاء (557/4).

[6] المصدر السابق نفسه (561/4).

وهو من العلماء الذين كان لهم قرب وحظوة عند خلفاء بني أمية؛ قال عنه صاحب الحلية: مشير الخلفاء والأمراء[1]، وقد بدأ اتصاله بهم منذ عهد عبد الملك، وقد بلغت مشاركة رجاء وتأثيره السياسي في عهد سليمان بن عبد الملك الذروة، فقد اتخذه سليمان وزير صدق له يستشيره في كثير من الأمور والقضايا المتعلقة بسياسة الدولة وإدارتها، فقال عنه سعيد بن صفوان: وكانت له من الخاصة والمنزلة عند سليمان بن عبد الملك ما ليس لأحد يثق به ويستريح إليه[2] ، وقد كان رجاء ملازماً لسليمان بن عبد الملك حتى في سفره، بدليل أنه كان مع سليمان حين خرج إلى دابق[3] ، وكان يخلو معه في مجلسه، وأشرف بنفسه على تمريضه حتى مات[4]، على أن أكبر تأثير سياسي لرجاء في عهد سليمان يظهر في إشارته عليه باستخلاف عمر بن عبد العزيز من بعده، والتخطيط الدقيق لتنفيذ ذلك بحكمة وحنكة[5]، وسيأتي الحديث عن ذلك في محله بإذن الله.

لقد كان لموقف رجاء في استخلاف عمر أثر سياسي كبير غيَّر مجرى التاريخ الأموي بصفة خاصة، والإسلامي بصفة عامة، وفي عهد عمر بن عبد العزيز ظل رجاء يتبوأ مكانة كبيرة ومنزلة عالية من خلال قربه من عمر وملازمته له، حيث جعله عمر من خواصه وسماره يستشيره ويستنصحه في أمور العامة والخاصة[6]، وبعد وفاة عمر بن عبد العزيز أقبل على شأنه وترك القرب من الخلفاء، وذلك حين رأى أنه لم يعد لقربه من الخليفة ما كان يهدف إليه من تحقيق المصالح وبذل الخير لعامة الأمة[7] .

2 . سليمان ونصيحة أبي حازم:

حج سليمان بالناس سنة 97 هـ، فمرّ على المدينة وهو يريد مكة فقال: أهاهنا أحد يذكّرنا؟ فقيل له: أبو حازم، فأرسل إليه فدعاه، فلما دخل عليه؛ قال له: يا أبا حازم ما هذا الجفاء؟ قال: يا أمير المؤمنين، أعيذك بالله أن تقول ما لم يكن، ما عرفتني قبل ولا أنا رأيتك، فالتفت سليمان إلى محمد بن شهاب وقال: أصاب الشيخ وأخطأت أنا.

([1]) الحلية (170/5).

([2]) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص 146.

([3]) دابق: قرية قرب حلب.

([4]) تاريخ الطبري (453/7 ، 454).

([5]) أثر العلماء في الحياة السياسية ، ص 147.

([6]) سير أعلام النبلاء (560/4).

([7]) أثر الحياة السياسية ، ص 156.

فقال سليمان: يا أبا حازم ! ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم أخربتم اخرتكم وعمرتم الدنيا؛ فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب، قال: صدقت. فكيف القدوم على الله عز وجل غداً؟ قال: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالابق يقدم على مولاه، فبكى سليمان وقال: ليت شعري، ما أنا عند الله؟ قال: يا أمير المؤمنين، اعرض عملك على كتاب الله عز وجل، قال: وأين أجده؟ قال: {إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ *وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ *} [الانفطار: 14] .

قال: يا أبا حازم، فأي عباد الله أفضل ؟ قال: أولو المروءة والتقى، قال: فأيالأعمال أفضل؟ قال: أداء الفرائض مع اجتناب المحارم، قال: فأي الدعاء أسمع؟ قال: دعوة المحسن للمحسن، قال: فأي الصدقة أزكى؟ قال: صدقة السائل البائس، وجهد من مقلّ ليس فيها منٌّ ولا أذى، قال: فأي القول أعدل ؟ قال: قول الحق عند من يخافه أو يرجوه، قال: فأي الناس أحمق؟ قال: رجل انحط من هوى أخيه وهو ظالم فباع اخرته بدنيا غيره. قال: صدقت، فما الذي تقول فيما نحن فيه؟ قال: يا أمير المؤمنين تعفيني من ذلك؟ قال: لا، ولكن نصيحة تلقيها إليّ، قال: إن آباءك قهروا الناس بالسيف، وأخذوا الملك عنوة من غير مشورة من المسلمين ولا رضا حتى قتلوا عليه مقتلة عظيمة، وارتحلوا عنها، فلو سمعت ما قالوا وما قيل لهم، فغشي على سليمان، فقال رجل من جلسائه: بئس ما قلت يا أبا حازم، قال أبو حازم: كذبت يا عدو الله ! إن الله أخذ ميثاق العلماء ليبيُنّنّه للناس ولا يكتمونه، فأفاق سليمان فقال: يا أبا حازم ! كيف لنا أن نصلح للناس؟ قال: تدع الصلف وتستمسك بالمروءة وتقسم بالسويّة، قال سليمان: كيف المأخذ به؟ قال: أن تأخذ المال من حله وتضعه في أهله، قال سليمان: هل لك أن تصحبنا فتصيب منا ونصيب منك؟ قال: أعوذ بالله يا أمير المؤمنين! قال: ولمَ؟ قال: أخشى أن أركن إليكم شيئاً قليلاً فيذيقني الله ضعف الحياة وضعف الممات.

قال: يا أبا حازم ارفع إليّ حوائجك، قال: تنجيني من النار وتدخلني الجنة، قال: ليس ذلك إليّ، قال: فلا حاجة لي غيرها، قال: فادعُ لي الله يا أبا حازم، قال: اللهم إن كان سليمان وليَّك فيسّره بخير الدنيا والآخرة، وإن كان عدوّك فخذ بناصيته إلى ما تحب وترضى، قال سليمان: زدني، قال: يا أمير المؤمنين ! قد أوجزت وأكثرت إن كنت من أهله، وإن لم تكن من أهله فما ينبغي لي أن أرمي عن قوس ليس لها وتر، قال: أوصني يا أبا حازم، قال: سأوصيك وأوجز: عظِّم ربك ونزّهه أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك، ثم قام، فبعث إليه سليمان بمئة دينار وكتب إليه أن أنفقها ولك مثلها كثير، فردها عليه وكتب إليه: يا أمير المؤمنين ! أعوذ بالله أن يكون سؤالك إياي هزلاً وردّي عليك باطلاً، فوالله ما أرضاها لك؛ فكيف أرضاها لنفسي؟! يا أمير المؤمنين، إن كانت

هذه المئة عوضاً لما حدثتك فالميتة ولحم الخنزير في حال الاضطرار أحلُّ من هذه، وإن كانت هذه حقاً لي في بيت المال فلي فيها نظر، فإن سويت بيننا وإلا فلا حاجة لي فيها، قال له جلساؤه: يا أمير المؤمنين ! أيسرّك أن يكون الناس كلهم مثله؟ قال: لا والله[1] .

خامساً: إكرام سليمان لأهل الوفاء ووفاة ابنه أيوب:

1 . إكرام سليمان لأهل الوفاء:

دعا سليمان بن عبد الملك يزيد بن أبي مسلم وهو موثوق في الحديد، وكان صاحب أمر الحجّاج، فلما دخل عليه ازدراه حين راه ونبت عنه عيناه، وقال: ما رأيت كاليوم، وكان يزيد لا يملأ العين منظره، ثم قال له سليمان: لعن الله رجلاً أقادك رسَنه وحكمك في أمره، فقال له يزيد: لا تقل هذا يا أمير المؤمنين، إنك ازدريتني والأمر عني مدبر، وعليك مقبل، ولو رأيتني والأمر عليّ مقبل، لاستعظمت من أمري ما استحقرت، واستكبرت منه ما استصغرت، فقال له سليمان: صدقت، ثكلتك أمك، اجلس فجلس في قيوده، فقال له سليمان: عزمت عليك يا بن أبي مسلم، لتخبرني عن الحجّاج، أتراه يهوي في جهنم، أم قد قرّبها، قال: يا أمير المؤمنين لا تقل هذا في الحجّاج، وقد بذل لكم النصيحة، وأخفر دونكم الذمة، والى وليكم، وأخاف عدوكم، وإنه يوم القيامة لعن يمين عبد الملك ويسار الوليد، فاجعله حيث شئت، وصاح سليمان استكراهاً لكلامه وأمر بإخراجه، ثم التفت إلى جلسائه وقال: ثكلته أمه، ما أحسن بديهته، وأحدَّ قريحته، وأجمل تزيينه لنفسه ولأصحابه، لقد أحسن المكافات على الصنيعة، وراعى اليد الجميلة، خلّوا سبيله، وأمر بحل قيوده ولم يتعرض لمضرته[2] .

2 . وفاة أيوب بن سليمان:

لما حضر أيوب بن سليمان بن عبد الملك الوفاة . وكان ولي عهد أبيه . دخل عليه أبوه وهو يجود بنفسه، ومعه عمر بن عبد العزيز وسعيد بن عقبة ورجاء بن حيوة، فجعل سليمان ينظر في وجه أيوب، فخنقته العبرة، ثم قال: إنه ما يملك العبد نفسه أن يسبق إلى قلبه الوجد عند المصيبة، والناس في ذلك أصناف: فمنهم المحتسب، ومنهم من يغلب صبره جزعه، فذلك الجلد الحازم، ومنهم من يغلب جزعه صبره، فذلك المغلوب والضعيف، وإني أجد

([1]) وفيات الأعيان (423/2).

([2]) الشهب اللامعة ، ص 455.

في قلبي لوعة إن أنا لم أبردها خغت أن تتصدع قلبي كمداً، فقال له عمر: يا أمير المؤمنين، الصبر أولى بك فلا يحبطن أجرك، قال سعيد بن عقبة: فنظر إلي وإلى رجاء بن حيوة نظر المستغيث يرجو أن نساعده على ما أدركه من البكاء، فأما أنا فكرهت أن امره أو أنهاه، وأما رجاء فقال: يا أمير المؤمنين، إني لا أرى بذلك بأساً ما لم يأتِ الأمر المفرط، وإني قد بلغني أن النبي ﷺ لما مات ابنه إبراهيم دمعت عيناه،

فقال: «تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون». فبكى سليمان حتى اشتد بكاؤه فظننا أن نياط قلبه قد انقطع، فقال عمر بن عبد العزيز لرجاء بن حيوة: بئس ما صنعت بأمير المؤمنين، فقال: دعه يا أبا حفص يقضي من بكائه وطراً، فإنه لو لم يخرج من صدره ما ترى خفت أن يأتي عليه، ثم أمسك عن البكاء، ودعا بماء فغسل وجهه، وقضى الفتى، فأمر بجهازه، وخرج يمشي أمام جنازته، فلما دفن وقف ينظر إلى قبره، ثم قال:

وقفتُ على قبرٍ مقيمٍ بقفرةٍ ... متاعٌ قليلٌ من حبيبٍ مفارقِ

ثم قال: السلام عليك يا أيوب، وقال:

كنتَ لنا أُنساً ففارقْتَنَا ... فالعيشُ من بَعدكَ مرُّ المذاقِ

ثم قال: يا غلام أدن دابتي مني، فركب وعطف دابته إلى القبر، وقال:

فإن صبرتُ فلمْ ألفظكَ من شبعٍ ... وإن جزعتُ فعلِقٌ منفسٌ ذهبا

فقال عمر: بل الصبر أقرب إلى الله عز وجل، قال: صدقت، وانصرف[1] .

سادساً: سليمان والأكل والغناء ومدح الشعراء له:

1 . سليمان والأكل:

قدمت المصادر الشيعية وصفاً للعديد من مناقب سليمان، حيث ذكرت محاسنه الخلقية[2]، ووصفته بالفصاحة[3]،

([1]) وفيات الأعيان (302/2).

([2]) تاريخ اليعقوبي (299/2).

([3]) المصدر السابق نفسه؛ مروج الذهب (190/3).

والتوقف عن سفك الدماء، وباستشارة النصحاء[1]، ورد المظالم[2]، وبتوالي الفتوحات في أيامه[3]، وعلى النقيض من ذلك، فإن رواة الشيعة لما لم يجدوا ما يقدح بسيرة سليمان ومنجزاته، نجدهم يركزون جل اهتمامهم على وصفه بالشراهة، وبالغوا في ذلك أيَّما مبالغة، فتارة يصفونه بأنه لا يكاد يشبع[4]، وتارة يصفونه بأنه المصيبة العظمى في الأكل[5] ، وتارة يصفونه بأنه أكولاً نهماً نكاحاً[6] .

ويبدو أن الروايات الموالية للعباسيين، والروايات الشيعية تناست صعوبة وربما استحالة أن من جمع بين هذه المحاسن أن تكون همته مصروفة إلى النكاح والطعام، ولو كان الأمر على ما يقولون، فلن ينتصف سليمان للمظلومين، ولن يعير السياسة الداخلية والخارجية أي اهتمام، ولكان انكفأ على تلبية ملذاته ورغباته، ولكن سيرته وسياسته ومنجزاته العمرانية والعسكرية كفيلة بالرد على هذا الاتهام[7] ، وقد ذكرت قصص في هذا الميدان تشبه الأساطير؛ كالتي ذكرها ابن أبي الحديد: وكان سليمان بن عبد الملك المصيبة الكبرى في الأكل، حيث أكل ثلاثين خروفاً بثمانين رغيفاً، ثم أكل مع الناس كأنه لم يأكل شيئاً [8] ، وغيرها من القصص الغريبة والعجيبة، ويتبين للدارس المحقق أن المبالغة واضحة جلية في تصوير شره سليمان لعدة أسباب:

أ . مخالفتها للطبيعة البشرية التي لا تستطيع التهام هذا الكم الهائل من الطعام، مع ملاحظة أن المصادر تصفه بنحافة البدن[9]مما يتعارض وشرهه الموصوف في هذه الروايات.

ب . أن هذه الروايات جاءت من طريقين هما:

. المؤرخون ذوو الميول الشيعية؛ مثل: اليعقوبي، والمسعودي، وابن أبي الحديد، وابن الطقطقا.

. المؤرخون ذوو الميول العباسية؛ مثل: الواقدي، والمدائني، ويبدو أن الأمر لم يعد كونه وجود شهية قوية للأكل عند

---

(1) خلافة سليمان بن عبد الملك ، ص 207.

(2) شرح البلاغة ، لابن أبي الحديد؛ نقلاً عن خلافة سليمان ، ص 207.

(3) خلافة سليمان ، ص 207؛ نقلاً عن الفخري ، ص 128.

(4) المصدر السابق نفسه.

(5) شرح البلاغة ، لابن أبي الحديد؛ نقلاً عن خلافة سليمان ، ص 207.

(6) خلافة سليمان ، ص 207.

(7) لمصدر السابق نفسه.

(8) شرح ابن أبي الحديد (465/5)؛ خلافة سليمان ، ص 65.

(9) تاريخ اليعقوبي (299/2)؛ خلافة سليمان ، ص 69.

سليمان، واستغل خصوم الأمويين من عباسيين وشيعة هذا الأمر وضخَّموه[1] .

2 . موقفه من الغناء:

كان ينهي الناس عن الغناء[2] ، لوجود شواهد تؤيد ذلك، ويضاف إلى ذلك أن روايات الأصفهاني التي قالت بحب سليمان للغناء اتسم سندها بالضعف، حيث ضم سندها محمد بن زكريا الغلابي[3] ، وهو ضعيف[4] ، وهناك مسألة أخرى متصلة بالغناء، وهي خصي المخنثين كنتيجة مترتبة على الغناء، وهناك من يرى أن سليمان قد أمر بإخصاء المخنثين، فتدخل عمر بن عبد العزيز موضحاً بأن هذا العمل مثلة ولا يحل، فارتجع عن ذلك[5].

3 . مدح الشعراء له:

قال جرير في مدحه:

سـليمـانُ المبـارَكُ قَـدْ علـمتُمْ ... هو المهديُّ وقد وضـحَ السـبيلُ
أجـرتَ مـن المـظـالمِ كـلَّ نـفـسٍ ... وأَدَّيْـتَ الـذي عَهِـدَ الرسـولُ[6]

وقال الفرزدق:

يـداكَ يـدُ الأسْـرى التي أطلقتَهُمْ ... وأخرى هي الغيـثُ المغيـثُ نوالُهـا
وكمْ أطلقـتَ كفَّـاك من قيـدِ بائسٍ ... ومن عقـدةٍ مـا كـان يُرجى انحلالُهـا
كثيراً من الأسـرى التي قد تكنعت ... فككـتَ وأعنـاقـاً عليهـا غلالُهـا[7]

سابعاً: ولاية العهد ووفاة سليمان (99 هـ):

ذكر الفضل بن المهلب وغيره، أنه لبس في يوم جمعة حلة صفراء، ثم نزعها ولبس بدلها حلة خضراء واعتم بعمامة خضراء وجلس على فراش أخضر، وقد بسط ما حوله بالخضرة، ثم نظر في المراة فأعجبه حسنه وشمر عن ذراعيه

(1) خلافة سليمان بن عبد الملك ، ص 69 .
(2) سير أعلام النبلاء (112/5).
(3) لسان الميزان (168/5).
(4) ميزان الاعتدال (550/3)؛ لسان الميزان (168/5).
(5) مراة الزمان ، سبط ابن الجوزي؛ نقلاً عن خلافة سليمان ، ص 276 .
(6) ديوان جرير ، ص 346 . 347 .
(7) خلافة سليمان بن عبد الملك ، ص 103؛ ديوان الفرزدق (76/2).

وقال: أنا الخليفة الشاب، وقيل: إنه كان ينظر في مراة من فرقه إلى قدمه ويقول: أنا الملك الشاب[1] ، وفي رواية: أنه كان ينظر فيها ويقول: كان محمد نبياً ﷺ، وكان أبو بكر صديقاً، وعمر فاروقاً، وكان عثمان حيياً، وكان علي شجاعاً، وكان معاوية حليماً، وكان يزيد صبوراً، وكان

عبد الملك سائساً، وكان الوليد جباراً، وأنا الملك الشاب[2] ، قالوا: فما دار عليه شهر ـ وفي رواية: جمعة ـ حتى مات[3]، ولما حُمَّ شرع يتوضأ، فدعا بجارية فصبت عليه ماء الوضوء ثم أنشدته:

أنــتَ نعمَ المتــاعُ لو كنــتَ تبقى ... غيـــــــرَ أن لا بقــاءَ للإنســـــانِ

ليسَ فيمــــــــا علمتُه فيك عيبٌ ... كــانَ في النَّــاسِ غيرَ أنَّــكَ فــانِا

فصاح بها وقال: عزتني في نفسي، وصرفها، ثم أمر خاله الوليد بن القعقاع العنسي أن يصب عليه وقال:

قرّب وَضـــــوءَك يا وليــدُ فــإنَّمــا ... هــذي الحــيــاةُ تــعــلــةٌ ومــتــاعُ

فقال الوليد:

فاعملْ لنفسِــكَ في حياتِكَ صــالحاً ... فــالــدَّهْــرُ فــيــه فــرقــةٌ وجمــاعُ

وكان سليمان بمرج دابق من أرض قنسرين، فأمر خاله فوضأه، ثم خرج يصلي بالناس، فأخذته لجة في الخطبة، ثم نزل وقد أصابته حمى، فاستمر فيها حتى مات في الجمعة المقبلة[4] ، وكان قد أقسم أنه لا يبرح دابقاً حتى يرجع إليه الخبر بفتح القسطنطينية، أو يموت قبل ذلك، فمات قبل ذلك ـ رحمه الله وأكرم مثواه ـ وكان اخر ما تكلم به أن قال: أسألك منقلباً كريماً. ثم قضى[5] .

وكان لرجاء بن حيوة أثر كبير في تولية عمر بن عبد العزيز، ولم يكن للشيطان نصيب في قرار سليمان بتولية عمر الخلافة من بعده، وقال عبد الرحمن بن حسان الكناني: لما مرض سليمان بن عبد الملك المرض التي توفي فيه، وكان مرضه بدابق، ومعه رجاء بن حيوة، فقال لرجاء بن حيوة: يا رجاء من لهذا الأمر من بعدي ؟ أستخلف ابني؟

([1]) البداية والنهاية (648/12).

([2]) المصدر السابق نفسه.

([3]) المصدر السابق نفسه.

([4]) البداية والنهاية (649/12).

([5]) المصدر السابق نفسه (650/12).

قال: ابنك غائب. قال: فالاخر؟ قال: ذاك صغير. قال: فمن ترى؟ قال: أرى أن تستخلف عمر بن عبد العزيز. قال: أتخوف من بني عبد الملك ألا يرضوا. قال: فولي عمر بن عبد العزيز ومن بعده يزيد بن عبد الملك، وتكتب كتاباً وتختم عليه وتدعوهم إلى بيعة مختوم عليها، قال: لقد رأيت، ائتني بقرطاس. قال: فدعا بقرطاس فكتب فيه العهد لعمر بن عبد العزيز ومن بعده يزيد بن عبد الملك، ثم ختمه، ثم دفعه إلى رجاء، قال: اخرج إلى الناس فمرهم أن يبايعوا على ما في هذا الكتاب مختوماً. قال: فخرج إليهم رجاء فجمعهم، وقال: إن أمير المؤمنين يأمركم أن تبايعوا لمن في هذا الكتاب من بعده. قالوا: ومن فيه؟ قال: مختوم، لا تخبرونا بمن فيه حتى يموت، قال: لا نبايع حتى نعلم ما فيه. قال: فرجع رجاء إلى سليمان، قال: انطلق إلى أصحاب الشرطة والحرس، ونادِ الصلاة جامعة، ومر الناس فليجتمعوا، ومرهم بالبيعة على ما في هذا الكتاب، فمن أبى أن يبايع منهم فاضرب عنقه، قال: ففعل، فبايعوا على ما فيه.

قال رجاء: فلما خرجت إلى منزلي، فبينما أنا أسير في الطريق، إذ سمعت جلبة موكب، فالتفت فإذا هشام، فقال لي: يا رجاء قد علمت موقعك منا، وإن أمير المؤمنين قد صنع شيئاً لا أدري ما هو، وأنا أتخوف أن يكون قد أزالها عني؛ فإن عدلها عني فأعلمني ما دام في الأمر نفس، حتى أنظر في هذا الأمر قبل أن يموت. قال: قلت: سبحان الله، يستكتمني أمير المؤمنين أمراً أطلعك عليه؟! لا يكون ذلك أبداً، فأداريني وألاصني[1] ، فأبيت عليه، قال: فانصرف، وبينما أنا أسير إذ سمعت جلبة خلفي، فإذا عمر بن عبد العزيز فقال لي: يا رجاء إنه قد وقع في نفسي أمر كثير من هذا الرجل، أتخوف أن يكون قد جعلها إليَّ، ولست أقوم بهذا الشأن، فأعلمني ما دام في الأمر نفس لعلي أتخلص منه ما دام حياً. قلت: سبحان الله، استكتمني أمير المؤمنين أمراً وأطلعك عليه ؟! فأداريني وألاصني، فأبيت عليه[2] .

قال رجاء: وثقل سليمان، وحجب الناس عنه حتى مات، فلما مات أجلسته وأسندته وهيأته، وخرجت إلى الناس، فقالوا: كيف أصبح أمير المؤمنين؟ فقلت: إن أمير المؤمنين أصبح ساكناً، وقد أحب أن تسلموا عليه، وتبايعوا على ما في هذا الكتاب، والكتاب بين يديه. قال: فأذنت للناس فدخلوا عليه وأنا قائم عنده، فلما دنوا قلت: إن أمير المؤمنين يأمركم بالوقوف، ثم أخذت الكتاب من عنده[3] ثم تقدمت إليهم فقلت: إن أمير المؤمنين يأمركم أن تبايعوا

([1]) ألاصه: أي راوده.

([2]) أثر الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص 152.

([3]) سير أعلام النبلاء (125/5). أخذت الكتاب من جيبه.

على ما في هذا الكتاب. قال: فبايعوا، وبسطوا أيديهم، فلما بايعتهم على ما فيه أجمعين وفرغت من بيعتهم قلت لهم: اجركم الله في أمير المؤمنين، قالوا: فمن؟ فافتتح الكتاب فإذا فيه العهد لعمر بن عبد العزيز، فلما نظرت بنو عبد الملك تغيرت وجوههم [1] .

وفي رواية أنه لما انتهى رجاء إلى عمر بن عبد العزيز نادى هشام بن عبد الملك: لا نبايعه أبداً. فقال رجاء: أضرب والله عنقك، قم فبايع. فقام يجر رجليه[2] . فلما قرؤوا من بعده يزيد بن عبد الملك كأنهم تراجعوا[3] .

وقد توفي سليمان يوم الجمعة لعشر بقين من صفر 99 هـ وكانت وفاته بمرج دابق، واختلف المؤرخون بنوع مرضه الذي مات فيه. فقسم منهم، قال: إنه أصيب بالتخمة وهذا رأي ضعيف، وقسم اخر قال: إنه أصيب بذات الجنب[4] ، وظهرت له أعراض المرض، فعرضت له سعلة وهو يخطب، فنزل وهو محموم، فما جاءت الجمعة التالية حتى مات، كما روى سبط ابن الجوزي ما نصه: ما زال سليمان بعد وفاة ابنه يذوب وينحل حتى مات كمداً [5]، وقد توفي وعمره على الأرجح 39 سنة [6] ، وصلى عليه عمر بن عبد العزيز[7] . وكان في نقش خاتمه: امنت بالله مخلصاً[8] ، وقد حفظ لسليمان بعض أبيات الشعر التي نظمها؛ منها:

ومِنْ شــيمتي أن لا أفارقَ صــاحبي	وإن ملّني إلا سـألتُ لــــه رُشْـــــدا
وإن دام لي بالـــــودِّ ولـــــم أكنْ	كـاخرَ لا يراعى ذمـامـاً ولا عَهْـدا[9]

هذا وقد كانت خلافته ثلاث سنين إلا أربعة أشهر، وقيل: ثلاث سنين، وقيل: كانت ولايته سنتين وثمانية أشهر إلا خمسة أيام[10] .

* * *

([1]) أثر الحياة السياسية ، ص 153.
([2])المصدر السابق نفسه.
([3]) سير أعلام النبلاء (5/124. 126).
([4]) تاريخ القضاعي ، ص 358.
([5]) مراة الزمان (12/230).
([6]) خلافة سليمان بن عبد الملك ، ص 91.
([7]) تاريخ القضاعي ، ص 358.
([8]) المصدر السابق نفسه ، ص 359.
([9]) خلافة سليمان؛ نقلاً عن مراة الزمان (12/23).
([10]) تاريخ الطبري (7/449).

الفصل التاسع

عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز

المبحث الأول

من الميلاد إلى خلافته

أولاً: اسمه ولقبه وكنيته وأسرته:

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، الإمام الحافظ العلامة المجتهد الزاهد العابد، السيد أمير المؤمنين حقاً أبو حفص القرشي الأموي المدني ثم المصري، الخليفة الزاهد الراشد أشج بني أمية[1] ، كان من أئمة الاجتهاد ومن الخلفاء الراشدين[2] ، وكان حسن الأخلاق والخُلق، كامل العقل، حسن السمت، جيِّد السياسة حريصاً على العدل بكل ممكن، وافر العلم، فقيه النفس، طاهر الذكاء والفهم، أوّاهاً منيباً، قانتاً لله حنيفاً، زاهداً مع الخلافة، ناطقاً بالحق مع قلة المعين، وكثرة الأمراء الظلمة الذين ملُّوهُ وكرهوا محاققته لهم، ونقصه أُعطياتهم، وأخذه كثيراً مما في أيديهم، مما أخذوه بغير حقٍّ، فما زالوا به حتى سقوه السم فحصلت له الشهادة والسعادة، وعُد عند أهل العلم من الخلفاء الراشدين والعلماء العاملين[3] ، وكان رحمه الله فصيحاً مُفوَّهاً[4] .

1 . والده:

هو عبد العزيز بن مروان بن الحكم، وكان من خيار أمراء بني أمية، شجاعاً كريماً، بقي أميراً لمصر أكثر من عشرين سنة، وكان من تمام ورعه وصلاحه: أنه لما أراد الزواج قال لقيمه: اجمع لي أربعمئة دينار من طيب مالي، فإني أريد أن أتزوج إلى أهل بيت لهم صلاح[5] ، فتزوج أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهي حفيدة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وقيل: اسمها ليلى[6] ، كما أن زواجه من ال الخطاب ما كان ليتم لولا

([1]) سير أعلام النبلاء (144/5).

([2]) المصدر السابق نفسه (114/5).

([3]) المصدر السابق نفسه (120/5).

([4]) المصدر السابق نفسه (136/5).

([5]) الطبقات الكبرى (331/5)؛ الجوانب التربوية في حياة الخليفة عمر بن عبد العزيز ، ص 11.

([6]) عبد العزيز بن مروان وسيرته وأثره في أحداث العصر الأموي ، ص 58.

علمهم بحاله وحسن سيرته وخلقه، فقد كان حسن السيرة في شبابه، فضلاً عن التزامه وحرصه على تحصيل العلم، واهتمامه بالحديث النبوي الشريف؛ فقد جلس إلى أبي هريرة وغيره من الصحابة وسمع منهم، وقد واصل اهتمامه بالحديث بعد ولايته مصر، فطلب من كثير بن مرة في الشام أن يبعث إليه ما سمعه من حديث رسول الله ﷺ إلا ما كان من طريق أبي هريرة فإنه عنده[1] .

وقد كان والد عمر بن عبد العزيز ذا نفس تواقة إلى معالي الأمور، سواء قبل ولايته مصر أو بعدها؛ فحين دخل مصر أيام شبابه تاقت نفسه إليها وتمنى ولايته فنالها[2]، ثم تاقت إلى الجود فصار أجود أمراء بني أمية وأسخاهم[3]، فكانت له ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره، وكانت له مئة جفنة يطاف بها على القبائل تحمل على العجل[4] ، ومن جوده كان يقول: إذا أمكنني الرجل من نفسه حتى أضع معروفي عنده فيده عندي أعظم من يدي عنده[5]. وقد أكثر المؤرخون من الثناء عليه لجوده، وهذا الجود كان ممتزجاً باليقين بأن الله سبحانه وتعالى يخلف على من يرزقه، فيقول: عجباً لمؤمن يؤمن أن الله يرزقه ويخلف عليه كيف يحبس ماله عن عظيم أجر وحسن ثناء ؟! وكان ذا خشية من الله، ونستقرأى هذه الخشية من قوله حين أدركه الموت: وددت أني لم أكن شيئاً مذكوراً، ولوددت أني أكون هذا الماء الجاري، أو نبتة بأرض الحجاز[6] .

2 . أمه:

أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ووالدها عاصم بن عمر بن الخطاب، الفقيه، الشريف أبو عمرو القرشي العدوي، ولد في أيام النبوة وحدّث عن أبيه، وأمه هي جميلة بنت ثابت بن أبي الأقلح الأنصاريّة، وكان طويلاً جسيماً وكان من نبلاء الرجال، ديِّناً، خيِّراً، صالحاً، وكان بليغاً، فصيحاً، شاعراً، وهو جد الخليفة عمر بن عبد العزيز لأُمِّه، مات سنة سبعين، فرثاه ابن عمر أخوه:

فليتَ المنايا كُنَّ خلَّفْنَ عاصماً ... فعِشْنَا جميعاً أو ذهبن بنا معا[7]

([1]) سير أعلام النبلاء (47/4).

([2]) الولاة وكتاب القضاة ، للكندي ، ص 54.

([3]) معجزة الإسلام ، خالد محمد خالد ، ص 55.

([4]) الخطط ، للمقريزي (21/1)؛ بدائع الزهور (28/1).

([5]) عبد العزيز بن مروان ، ص 55.

([6]) المصدر السابق نفسه، ص 56؛ نقلاً عن البداية والنهاية.

([7]) سير أعلام النبلاء (97/4).

وأما جدته لأمه فقد كان لها موقف مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فعن عبد الله بن الزبير بن أسلم، عن أبيه، عن جده أسلم قال: بينما أنا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يَعُسُّ[1] بالمدينة، إذ أعيا فاتكأ على جانب جدار في جوف الليل، فإذا امرأة تقول لابنتها: يا بنتاه ! قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء، فقالت لها: يا أمتاه أو ما علمت ما كان من أمير المؤمنين اليوم ؟ قال: وما كان من عزمته يا بنية؟ قالت: إنه أمر منادياً، فنادى أن لا يشاب اللبن بالماء، فقالت لها: يا بنتاه قومي إلى اللبن فامذقيه بالماء فإنك بموضع لا يراك عمر ولا منادي عمر، فقالت الصبية لأمها: يا أمتاه ! والله ما كنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخلاء، وعمر يسمع كل ذلك، فقال: يا أسلم عَلِّم الباب واعرف الموضع، ثم مضى في عسه، فلما أصبحا قال: يا أسلم امضِ إلى الموضع فانظر من القائلة ؟ ومن المقول لها ؟ وهل لهم من بعل؟ فأتيت الموضع فنظرت فإذا الجارية أيِّم لا بعل لها، وإذا تيك أمها، وإذا ليس بها رجل، فأتيت عمر وأخبرته، فدعا عمر ولده، فجمعهم، فقال: هل فيكم من يحتاج إلى امرأة أزوجه.. فقال عاصم: يا أبتاه لا زوجة لي فزوجني، فبعث إلى الجارية، فزوجها من عاصم فولدت لعاصم بنتاً، وولدت البنت عمر بن عبد العزيز[2] .

ويذكر أن عمر بن الخطاب رأى ذات ليلة رؤيا، ويقول: ليت شعري من ذو الشين[3]من ولدي الذي يملؤها عدلاً، كما ملئت جوراً[4] ، وكان عبد الله بن عمر يقول: إن ال الخطاب يرون أن بلال بن عبد الله بوجهه شامة، فحسبوه المبشر الموعود، حتى جاء الله بعمر بن عبد العزيز[5] .

3 . ولادته (61 هـ)، ومكانها (المدينة):

اختلف المؤرخون في سنة ولادته، والراجح أنه ولد عام 61 هـ، وهو قول أكثر المؤرخين، ولأنه يؤيد ما يذكر أنه توفي وعمره أربعون سنة؛ حيث توفي عام 101 هـ[6] ، وتذكر بعض المصادر أنه ولد بمصر، وهذا القول ضعيف

([1]) العُس: السير في الليل للكشف عن أهل الريبة. معجم مقاييس اللغة (42/4).

([2]) سيرة عمر ، لابن الحكم ، ص 19 . 20؛ سيرة عمر ، لابن الجوزي ، ص 10.

([3]) الشين: العلامة.

([4]) سير أعلام النبلاء (122/5).

([5]) المصدر السابق نفسه.

([6]) البداية والنهاية (676/12).

لأن أباه عبد العزيز بن مروان بن الحكم إنما تولى مصر سنة خمس وستين للهجرة، بعد استيلاء مروان بن الحكم عليها من يد عامل عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، فولّى عليها ابنه عبد العزيز ولم يعرف لعبد العزيز بن مروان إقامة بمصر قبل ذلك، وإنما كانت إقامته وبني مروان في المدينة[1] ، وذكر الذهبي أنه ولد بالمدينة زمن يزيد[2] .

4 . أشج بني أمية:

كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يلقب بالأشج، وكان يقال له: أشج بني مروان، وذلك أن عمر بن عبد العزيز عندما كان صغيراً دخل إلى إصطبل أبيه عندما كان والياً على مصر ليرى الخيل، فضربه فرس في وجهه فشجه، فجعل أبوه يمسح الدم عنه ويقول: إن كنت أشج بني أمية إنك إذاً لسعيد[3]، ولما رأى أخوه الأصبغ الأثر قال: الله أكبر! هذا أشج بني مروان الذي يملك، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: إن من ولدي رجلاً بوجهه أثر يملأ الأرض عدلاً[4]. وكان الفاروق قد رأى رؤيا تشير إلى ذلك، وقد تكررت هذه الرؤيا لغير الفاروق حتى أصبح الأمر مشهوراً عند الناس، بدليل ما قاله أبوه

عندما رأى الدم في وجهه، وما قاله أخوه عندما رأى الشج في وجهه؛ كلاهما تفاءل لعله أن يكون ذلك الأشج الذي يملأ الأرض عدلاً[5] .

5 . إخوته:

كان لعبد العزيز بن مروان والد عمر بن عبد العزيز عشرة من الولد؛ وهم: عمر وأبو بكر ومحمد وعاصم وهؤلاء أمهم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، وله من غيرها ستة؛ وهم: الأصبغ وسهل وسهيل وأم الحكم وزبّان وأم البنين[6] ، وعاصم هو من تكنى به والدته ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، فكنيتها أم عاصم[7] .

([1]) الاثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (54/1).

([2]) تذكرة الحفاظ (118/1 . 120).

([3]) البداية والنهاية؛ نقلاً عن فقه عمر بن عبد العزيز (20/1).

([4]) البداية والنهاية؛ نقلاً عن فقه عمر بن عبد العزيز (20/1).

([5]) فقه عمر بن عبد العزيز ، د. محمد شقير (20/1). [861]

([6]) المعارف ، لابن قتيبة ، ص 362.

([7]) فقه عمر بن عبد العزيز (22/1).

6 . أولاده:

كان لعمر بن عبد العزيز رحمه الله أربعة عشرة ذكراً؛ منهم: عبد الملك وعبد العزيز وعبد الله وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وبكر والوليد وموسى وعاصم ويزيد وزبان وعبد الله[1]، وبنات ثلاث: أمينة وأم عمار وأم عبد الله، وقد اختلفت الروايات عن عدد أولاد وبنات عمر بن عبد العزيز؛ فبعض الروايات تذكر أنهم أربعة عشر ذكراً كما ذكره ابن قتيبة، وبعض الروايات تذكر أن عدد الذكور اثنا عشر وعدد الإناث ست كما ذكره ابن الجوزي[2] والمتفق عليه من الذكور اثنا عشر.

وحينما توفي عمر بن عبد العزيز لم يترك لأولاده مالاً إلا الشيء اليسير، ويروى: أنه أصاب الذكر من أولاده من التركة تسعة عشر درهماً فقط، بينما أصاب الذكر من أولاد هشام بن عبد الملك ألف ألف (مليون)، وما هي إلا سنوات قليلة حتى كان أحد أبناء عمر بن عبد العزيز يحمل على مئة فرس في سبيل الله في يوم واحد، وقد رأى بعض الناس رجلاً من أولاد هشام يتصدق عليه [3] . فسبحان الله رب العالمين !

7 . زوجاته:

نشأ عمر بالمدينة وتخلق بأخلاق أهلها، وتأثر بعلمائها وأكب على أخذ العلم من شيوخها، وكان يقعد مع مشايخ قريش ويتجنب شبابهم، وما زال ذلك دأبه حتى اشتهر، فلما مات أبوه أخذه عمه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فخلطه بولده، وقدمه على كثير منهم، وزوَّجه ابنته فاطمة بنت عبد الملك[4] ، وهي امرأة صالحة تأثرت بعمر بن عبد العزيز، واثرت ما عند الله على متاع الدنيا، وهي التي قال فيها الشاعر:

بنـتُ الخليفـةِ والخليفـةُ جَـدُّهـا　　　أخـتُ الخلائِفِ والخليفـةُ زوجُهَـا

ومعنى هذا البيت أنها بنت الخليفة عبد الملك بن مروان والخليفة جدها مروان بن الحكم، وأخت الخلائف فهي أخت الخلفاء الوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك ويزيد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك، والخليفة

---

(1) المصدر السابق نفسه (23/1).

(2) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، ص 338؛ فقه عمر بن عبد العزيز (24/1).

(3) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، ص 338.

(4) البداية والنهاية (680/12).

زوجها فهو عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، حتى قيل عنها: لا نعرف امرأة بهذه الصفة إلى يومنا هذا سواها[1] . وقد ولدت لعمر بن عبد العزيز إسحاق ويعقوب وموسى، ومن زوجاته لميس بنت علي بن الحارث، وقد ولدت له عبد الله وبكر وأم عمار، ومن زوجاته أم عثمان بنت شعيب بن زيان، وقد ولدت له إبراهيم. وأما أولاده: عبد الملك والوليد وعاصم ويزيد وعبد الله وعبد العزيز وزيان وأمينة وأم عبد الله؛ فأمهم: أم ولد[2] .

8 . صفاته الخلقية:

كان عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ أسمر رقيق الوجه أحسنه، نحيف الجسم حسن اللحية، غائر العينين بجبهته أثر نفحة دابة وقد خطه الشيب[3] ، وقيل في صفته: إنه كان رجلاً أبيض دقيق الوجه، جميلاً، نحيف الجسم، حسن اللحية[4] .

ثانياً: العوامل التي أثرت في تكوين شخصية عمر بن عبد العزيز:

1 . الواقع الأسري:

نشأ عمر بن عبد العزيز في المدينة، فلما شبَّ وعقل وهو غلام صغير كان يأتي عبد الله بن عمر بن الخطاب لمكان أمه منه، ثم يرجع إلى أمه فيقول: يا أمه ! أنا أحب أن أكون مثل خالي ـ يريد عبد الله بن عمر ـ فتؤفف به، ثم تقول له: اغرب؛ أنت تكون مثل خالك! وتكرر عليه ذلك غير مرة. فلما كبر سار أبوه عبد العزيز بن مروان إلى مصر أميراً عليها، ثم كتب إلى زوجته أم عاصم أن تقدم عليه وتقدم بولدها، فأتت عمها عبد الله بن عمر فأعلمته بكتاب زوجها عبد العزيز إليها فقال لها: يا بنة أخي هو زوجك فالحقي به، فلما أرادت الخروج قال لها: خلفي هذا الغلام عندنا ـ يريد عمر ـ فإنه أشبهكم بنا أهل البيت، فخلفته عنده ولم تخالفه، فلما قدمت على عبد العزيز اعترض ولده فإذا هو لا يرى عمر، قال لها: وأين عمر؟ فأخبرته خبر عبد الله وما سألها من تخليفه عنده لشبهه بهم، فسرّ بذلك عبد العزيز، وكتب إلى أخيه عبد الملك يخبره بذلك، فكتب عبد الملك أن يجري عليه ألف دينار

([1]) المصدر السابق نفسه.
([2]) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، ص 314 ـ 315.
([3]) الاثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (58/1).
([4]) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (11/1)؛ الاثار الواردة (58/1).

في كل شهر، ثم قدم عمر على أبيه مسلِّماً[1] ، وهكذا تربى عمر رحمه الله تعالى بين أخواله بالمدينة من أسرة عمر بن الخطاب، ولا شك أنه تأثر بهم وبمجتمع الصحابة في المدينة[2] .

2 . إقباله المبكِّر على طلب العلم وحفظه القران الكريم:

فقد رزق منذ صغره حب الإقبال على طلب العلم وحب المطالعة والمذاكرة بين العلماء، كما كان يحرص على ملازمة مجالس العلم في المدينة، وكانت يومئذ منارة العلم والصلاح زاخرة بالعلماء والفقهاء والصالحين، وتاقت نفسه للعلم وهو صغير، وكان أول ما استبين من رشد عمر بن عبد العزيز حرصه على العلم ورغبته في الأدب[3]، وجمع عمر بن عبد العزيز القران وهو صغير، وساعده على ذلك صفاء نفسه وقدرته الكبيرة على الحفظ وتفرغه الكامل لطلب العلم والحفظ.

وقد تأثر كثيراً بالقران الكريم في نظرته لله عز وجل والحياة والكون والجنة والنار، والقضاء والقدر، وحقيقة الموت، وكان يبكي لذكر الموت بالرغم من حداثة سنه، فبلغ ذلك أمه فأرسلت إليه وقالت: ما يبكيك؟ قال: ذكرت الموت. فبكت أمه حين بلغها ذلك[4] ، وقد عاش طيلة حياته مع كتاب الله عز وجل متدبراً ومنفذاً لأوامره، ومن مواقفه مع القران الكريم:

أ . عن ابن أبي ذيب:

قال: حدثني من شهد عمر بن عبد العزيز وهو أمير المدينة، وقرأ عنده رجل: {وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣} [سورة الفرقان:13] . فبكى عمر حتى غلبه البكاء وعلا نشيجه، فقام من مجلسه فدخل بيته، وتفرق الناس[5] . ومفهوم هذه الاية: إذا ألقي هؤلاء المكذبون بالساعة من النار مكاناً ضيقاً، قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال . { دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣} والثبور في هذا الموضوع دعا هؤلاء القوم بالندم على انصرافهم عن طاعة الله في الدنيا والإيمان بما جاء به نبي الله ﷺ حتى استوجبوا العقوبة [6]

([1]) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص 24 . 25.

([2]) الاثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (56/1).

([3]) البداية والنهاية (679/12).

([4]) المصدر السابق نفسه (678/12).

([5]) الرقة والبكاء ، لابن أبي الدنيا ، رقم (83).

([6]) دموع القراء ، محمد شومان ، ص 107؛ نقلاً عن تفسير ابن جرير.

ب . وعن أبي مودود:

قال: بلغني أن عمر بن عبد العزيز قرأ ذات يوم: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا } [سورة يونس:61] . فبكى بكاءً شديداً حتى سمعه أهل الدار، فجاءت فاطمة ـ زوجته ـ فجعلت تبكي لبكائه، وبكى أهل الدار لبكائهم، فجاء عبد الملك، فدخل عليهم وهم على تلك الحال يبكون فقال: يا أبه، ما يبكيك؟ قال: خير يا بني، ودَّ أبوك أنه لم يعرف الدنيا ولم تعرفه، والله يا بني لقد خشيت أن أهلك، والله يا بني لقد خشيت أن أكون من أهل النار[1] .

ومعنى الاية: إن الله تعالى يخبر نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته وجميع الخلائق في كل ساعة وأوان ولحظة، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين كقوله: {۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾} [سورة الأنعام:59]. فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات ، وكذلك الدواب السارحة في قوله:{وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمۚ} [سورة الأنعام:38] ، وقال تعالى: [هود: {۞وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا} [سورة هود:6] ، وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء؛ فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة؟! كما قال تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ *الَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ *وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ *} [الشعراء: 219] ،

ولهذا قال تعالى: إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راؤون سامعون[2] .

جـ وعن عبد الأعلى بن أبي عبد الله العنزي:

قال: رأيت عمر بن عبد العزيز خرج يوم الجمعة في ثياب دسمة، ووراءه حبشي يمشي، فلما انتهى إلى الناس رجع الحبشي، فكان عمر إذا انتهى إلى الرجلين قال: هكذا رحمكما الله، حتى صعد المنبر، فخطب فقرأ: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ *}، فقال: وما شأن الشمس؟ {وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ *}، حتى انتهى إلى {وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ *وَإِذَا

---

(1) الرقة والبكاء ، لابن أبي الدنيا ، رقم (91).

(2) تفسير ابن كثير.

الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ *} [التكوير: 13] فبكى وبكى أهل المسجد، وارتج المسجد بالبكاء حتى رأيت أن حيطان المسجد تبكي معه [1] . وهذه السورة جاء فيها الأوصاف التي وصف بها يوم القيامة من الأوصاف التي تنزعج لها القلوب، وتشتد من أجلها الكروب، وترتعد الفرائص، وتعم المخاوف، وتحث أولي الألباب للاستعداد لذلك اليوم، وتزجرهم عن كل ما يوجب اللوم، ولهذا قال بعض السلف: من أراد أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليتدبر سورة {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ *}[2] . بل ثبت مرفوعاً من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال الله ﷺ: «من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين، فليقرأ: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ *} (إذا السماء انفطرت) (إذا السماء انشقت) *} [3]

د . وعن ميمون بن مهران:

قال: قرأ عمر بن عبد العزيز: فبكى ثم قال: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ *حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ *} أرى المقابر إلا زيارة، ولابد لمن يزورها أن يرجع إلى جنة أو إلى النار[4] ، هذه بعض المواقف التي تبين تأثير القران الكريم على شخصية عمر بن عبد العزيز.

3 . الواقع الاجتماعي:

إن البيئة الاجتماعية المحيطة لها دور فعال ومهم في صناعة الرجال وبناء شخصيتهم، فعمر بن عبد العزيز عاش في زمن ساد فيه مجتمع التقوى والصلاح والإقبال على طلب العلم والعمل بالكتاب والسنة، فقد كان عدد من الصحابة لا زالوا بالمدينة، فقد حدث عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، والسائب بن يزيد، وسهل بن سعد، واستوهب منه قدحاً شرب منه النبي ﷺ، وأمّ بأنس بن مالك، فقال: ما رأيت أحداً أشبه صلاة برسول الله ﷺ من هذا الفتى[5]، فكان للإقامة بالمدينة اثار نفسية ومعانٍ إيمانية، وتعلق روحي، وكان لذلك المجتمع قوة التأثير في صياغة شخصية عمر بن عبد العزيز العلمية والتربوية[6] .

([1]) دموع القراء ، ص 111 ، 112.

([2]) تفسير السعدي ، ص 912.

([3]) أخرجه الترمذي ، رقم (3333)؛ والحاكم (515/2) ، (576/4) وصححه ، ووافقه الذهبي ؛ والألباني في الصحيحة (70/3).

([4]) الرقة والبكاء ، لابن أبي الدنيا، رقم (425).

([5]) سير أعلام النبلاء (114/5).

([6]) الجوانب التربوية في حياة عمر بن عبد العزيز ، ص 23.

4 . تربيته على أيدي كبار فقهاء المدينة وعلمائها:

اختار عبد العزيز والد عمر صالح بن كيسان ليكون مربياً لعمر بن عبد العزيز، فتولى صالح تأديبه وكان يلزم عمر الصلوات المفروضة في المسجد، فحدث يوماً أن تأخر عمر بن عبد العزيز عن الصلاة مع الجماعة، فقال صالح بن كيسان: ما يشغلك؟ قال: كانت مرجّلتي[1] تسكن شعري، فقال: بلغ منك حبك تسكين شعرك أن تؤثره على الصلاة؟! فكتب إلى عبد العزيز يذكر ذلك، فبعث أبوه رسولاً فلم يكلمه حتى حلق رأسه[2] ، وحرص على التشبه بصلاة رسول الله ﷺ أشد الحرص، فكان يتم الركوع والسجود ويخفّف القيام والقعود، وفي رواية صحيحة: أنّه كان يسبح في الركوع والسجود عشراً عشراً[3] ، ولما حج أبوه ومرّ بالمدينة سأل صالح بن كيسان عن ابنه فقال: ما خبرت أحداً الله أعظم في صدره من هذا الغلام[4] .

ومن شيوخ عمر بن عبد العزيز الذين تأثر بهم: عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، فقد كان عمر يجله كثيراً، ونهل من علمه، وتأدب بأدبه؛ وتردد عليه حتى وهو أمير المدينة، ولقد عبّر عمر عن إعجابه بشيخه وكثرة التردد إلى مجلسه؛ فقال: لمجلس من الأعمى: عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود؛ أحب إليّ من ألف دينار[5] ، وكان يقول في أيام خلافته لمعرفته بما عند شيخه من علم غزير: لو كان عبيد الله حياً ما صدرت

إلا عن رأيه، ولوددت أن لي بيوم واحد من عبيد الله كذا وكذا[6] . وكان عبيد الله مفتي المدينة في زمانه، وأحد الفقهاء السبعة[7] ، قال عنه الزهري: كان عبيد الله بن عبد الله بحراً من بحور العلم[8] ، وكان يقرض الشعر، فقد كتب إلى عمر بن عبد العزيز هذه الأبيات:

بسمِ الذي أُنْزِلَتْ مـــن عنده السورُ ... والحمـــــدُ لله أمَّا بعـــــدُ يا عُمَرُ
إن كنتَ تعلمُ مـــا تأتي ومـــا تذرُ ... فكنْ على حـذرٍ قَـدْ ينفعُ الحَـذَرُ

---

(1) مرجّلتي: مسرحة شعري.
(2) البداية والنهاية (678/12).
(3) المصدر السابق نفسه (682/12).
(4) المصدر السابق نفسه (678/12).
(5) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص 59؛ الطبقات (250/5)؛ تهذيب التهذيب (22/7).
(6) عمر بن عبد العزيز ، عبد الستار الشيخ ، ص 59.
(7) سير أعلام النبلاء (475/4).
(8) المصدر السابق نفسه (477/4).

واصـــبرْ على القَدَرِ المحتومِ وارْضَ به		وإن أتاك بمـــــا لا تَشْـــتهي القَدَرُ
فما صَـــفَا لامرأًى عيشٌ يُسرُّ بِـــهِ		إلا سـيتبع يومـــــاً صَــفْوَهُ كَدَرُ[1]

وقد توفي هذا العالم سنة 98 هـ، وقيل: 99 هـ[2] .

ومن شيوخ عمر: سعيد بن المسيب، وقد تحدثت عن سيرته في عهد عبد الملك بن مروان، وكان سعيد لا يأتي أحداً من الأمراء غير عمر[3] . ومن شيوخه: سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب الذي قال فيه سعيد بن المسيب: كان عبد الله بن عمر أشبه ولد عمر به، وكان سالم أشبه ولد عبد الله به[4] ، وكان ابن عمر يحب ابنه سالماً، وكان يلام في ذلك، فكان يقول:

يـلـومـونـني في ســــالمٍ وألـومُـهُـمْ		وجلدةُ بينَ العينِ والأنفِ ســـالمُ[5]

كانت أمه أم ولد، وقال فيه ابن أبي الزناد: كان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد حتى نشأ فيهم الغُرُّ السادة: علي بن الحسين، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله؛ ففاقوا أهل المدينة علماً وتقىً وعبادة وورعاً، فرغب الناس حينئذ في السراري[6] ، وقال عنه الإمام مالك: لم يكن أحد في زمان سالم أشبه بمن مضى من الصالحين، في الزهد والفضل والعيش منه، كان يلبس الثوب بدرهمين، ويشتري الشمال[7]ليحملها. قال: فقال سليمان بن عبد الملك لسالم وراه حسن السّحنة: أي شيء تأكل؟ قال: الخبز والزَّيت، وإذا وجدت اللحم، أكلته. فقال له عمر: أو تشتهيه؟ قال: إذا لم أشتهه تركته حتى أشتهيه[8] .

وذات يوم دخل سالم بن عبد الله على سليمان بن عبد الملك، وعلى سالم ثياب غليظة رثَّة، فلم يزل سليمان يرحب به، ويرفعه حتى أقعده معه على سريره، وعمر بن عبد العزيز في المجلس، فقال له رجل من أُخريات الناس:

---

(1) المصدر السابق نفسه.
(2) المصدر السابق نفسه (478/4 ، 479).
(3) الجوانب التربوية في حياة الخليفة عمر ، ص 25.
(4) سير أعلام النبلاء (459/4).
(5) المصدر السابق نفسه (460/4).
(6) المصدر السابق نفسه.
(7) المصدر السابق نفسه.
(8) المصدر السابق نفسه.

ما استطاع خالك أن يلبس ثياباً فاخرة أحسن من هذه، يدخل فيها على أمير المؤمنين؟ وعلى المتكلم ثياب سريَّة، لها قيمة، فقال له عمر: ما رأيت هذه الثياب التي على خالي وَضَعَتْهُ في مكانك، ولا رأيت ثيابك هذه رفعتك إلى مكان خالي ذاك[1] .

وتربى وتعلم عمر بن عبد العزيز على يدي كثير من العلماء والفقهاء، وقد بلغ عدد شيوخ عمر بن عبد العزيز ثلاثة وثلاثين، وثمانية منهم من الصحابة، وخمسة وعشرون من التابعين[2] ، فقد نهل من علمهم وتأدب بأدبهم ولازم مجالسهم، حتى ظهرت اثار هذه التربية المتينة في أخلاقه وتصرفاته[3] ، فامتاز بصلابة الشخصية والجدية في معالجة الأمور، والحزم وإمعان الفكر وإدامة النظر في القران، والإرادة القوية والترفع عن الهزل والمزاح[4] ، هذه هي أهم العوامل التي أثرت في تكوين شخصيته، ومن الدروس المستفادة؛ هو: أن العلماء الربانيين يقع على عاتقهم مسؤولية كبيرة ؛ وهي: الاهتمام بأولاد الأمراء والحكام وأهل الجاه والمال؛ ففي صلاحهم خير عظيم للأمة الإسلامية.

ثالثاً: مكانته العلمية:

اتفقت كلمة المترجمين له على أنه من أئمة زمانه، فقد أطلق عليه كل من الإمامين: مالك وسفيان بن عيينة وصف إمام[5] ، وقال فيه مجاهد: أتيناه نعلمه؛ فما برحنا حتى تعلَّمنا منه[6]، وقال ميمون بن مهران: كان عمر بن عبد العزيز معلِّم العلماء[7] ، قال فيه الذهبي: كان إماماً فقيهاً مجتهداً، عارفاً بالسنن، كبير الشأن، حافظاً، قانتاً لله أوَّاهاً منيباً، يعد في حسن السيرة والقيام بالقسط مع جده لأمه عمر، وفي الزهد مع الحسن البصري، وفي العلم مع الزهري[8] .

وقد احتج الفقهاء والعلماء بقوله وفعله، ومن ذلك رسالة الإمام الليث بن سعد إلى الإمام مالك بن أنس رضي الله عنهما؛ وهي رسالة قصيرة وفيها يحتج الليث ـ مراراً ـ بصحة قوله، بقول عمر بن عبد العزيز على

---

(1) المصدر السابق نفسه (461/4).

(2) مسند أمير المؤمنين عمر ، ص 33.

(3) الجوانب التربوية في حياة عمر بن عبد العزيز (67/1).

(4) عمر بن عبد العزيز ، للزحيلي ، ص 30.

(5) الاثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (67/1).

(6) تهذيب التهذيب (405/7)؛ الاثار الواردة (67/1).

(7) تاريخ أبي زرعة ، ص 255 ، الاثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (67/1).

(8) تذكرة الحفاظ ، ص 118 ـ 119.

مالك فيما ذهب إليه في بعض مسائله[1] .

ويرد ذكر عمر بن عبد العزيز في كتب الفقه للمذاهب الأربعة المتبوعة على سبيل الاحتجاج بمذهبه، فاستدل الحنفية بصنيعه في كثير من المسائل، وجعلوا له وصفاً يتميَّز به عن جدّه لأمه: عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال القرشي في الجواهر المضيئة: فائدة: يقول أصحابنا في كتبهم في مسائل الخلاف: وهو قول عمر الصغير. يريدون به عمر بن عبد العزيز الإمام الخليفة المشهور[2]، ويكثر الشافعية من ذكره في كتبهم، ولذلك ترجم له الإمام النووي ترجمة حافلة في تهذيب الأسماء واللغات، وقال في أولها: تكرر في المختصر والمهذب[3] . وأما المالكية فيكثرون من ذكره في كتبهم أكثر من غيرهم، ومالك إمام المذهب ذكر في (الموطأ) محتجاً بفتواه وقوله في مواضع عديدة في موطئه[4] ، وأما الحنابلة فكذلك، يذكرونه كثيراً، وعمر هو الذي قال فيه الإمام أحمد: لا أدري قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز، وكفاه هذا[5] ، وكفانا قول الإمام أحمد أيضاً: إذا رأيت الرجل يحب عمر بن عبد العزيز ويذكر محاسنه وينشرها فاعلم أن من وراء ذلك خيراً إن شاء الله[6] .

ومن أراد أن يتبحر في علم عمر بن عبد العزيز ويعرف مكانته العلمية، فليراجع الكتب الاتية: الاثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة، للأستاذ حياة محمد جبر، والكتاب في مجلدين، وهي رسالة علمية، وكذلك فقه عمر بن عبد العزيز، للدكتور محمد سعد شقير في مجلدين، وهي رسالة علمية نال بها المؤلف درجة الدكتوراه، وموسوعة فقه عمر بن عبد العزيز، لمحمد رواس قلعجي، وسوف نرى في بحثنا فقه عمر بن عبد العزيز بإذن الله تعالى في العقائد والعبادات والسياسة الشرعية، وإدارة الدولة، والنظم المالية والقضائية والدعوية، وتقيده بالكتاب والسنة والخلفاء الراشدين في خطواته وسكناته.

رابعاً: عمر في عهد الوليد بن عبد الملك:

يعد عمر بن عبد العزيز من العلماء الذين تميزوا بقربهم من الخلفاء، وكان لهم أثر كبير في نصحهم وتوجيه سياستهم بالرأي والمشورة، ويحتل عمر بن عبد العزيز مكانة متميزة في البيت الأموي، فقد كان عبد الملك يجله ويعجب

---

[1] الاثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (70/1).

[2] الجواهر المضيئة (552/4)؛ الاثار الواردة (71/1).

[3] المختصر والمهذب من كتب الشافعية المشهورة.

[4] انظر: الموطأ ، الأرقام الاتية: (305 ، 592 ، 594 ، 614).

[5] البداية والنهاية؛ نقلاً عن الاثار الواردة (72/1).

[6] سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، ص 61.

بنباهته أثناء شبابه، مما جعله يقدمه على كثير من أبنائه ويزوجه من ابنته، ولكن لم يكن له مشاركات في عهد عبد الملك بسبب صغر سنه واشتغاله بطلب العلم في المدينة، ومع ذلك فقد أورد ابن الجوزي أنه كتب إلى عبد الملك كتاباً يذكره فيه بالمسؤولية الملقاة على عاتقه، وقد جاء فيها: أما بعد: فإنك راعٍ، وكل راعٍ مسؤول عن رعيته؛ حدثنا أنس بن مالك: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «كل راعٍ مسؤول عن رعيته» [1] . {ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾} [سورة النساء:87]

ويقال بأن عمر بن عبد العزيز ولاّه عمه عبد الملك خناصره لكي يتدرب على الأعمال القيادية في وقت مبكر[2]، وقد قيل: إن سليمان بن عبد الملك هو الذي ولاه على خناصره، وهناك من رجح القول الأول، وقد تأثر عمر بن عبد العزيز لموت عمه وحزن عليه حزناً عظيماً، وقد خاطب عمر ابن عمه مسلمة بن عبد الملك فقال له: يا مسلمة إني حضرت أباك لما دفن، فحملتني عيني عند قبره فرأيته قد أفضى إلى أمر من أمر الله، راعني وهالني، فعاهدت الله ألا أعمل بمثل عمله إن وليت، وقد اجتهدت في ذلك[3] .

1 . ولايته على المدينة:

في ربيع الأول من عام 87 هـ ولاّه الخليفة الوليد بن عبد الملك إمارة المدينة المنورة، ثم ضم إليه ولاية الطائف سنة 91 هـ، وبذلك صار والياً على الحجاز كلها.

واشترط عمر لتوليه الإمارة ثلاثة شروط:

الشرط الأول: أن يعمل في الناس بالحق والعدل ولا يظلم أحداً، ولا يجور على أحد في أخذ ما على الناس من حقوق لبيت المال، ويترتب على ذلك أن يقل ما يرفع للخليفة من الأموال من المدينة.

الشرط الثاني: أن يسمح له بالحج في أول سنة؛ لأن عمر كان في ذلك الوقت لم يحج.

الشرط الثالث: أن يسمح له بالعطاء أن يخرجه للناس في المدينة.

([1]) أثر الحياة السياسية ، ص 159.

([2]) الاثار الواردة في عمر بن عبد العزيز (93/1).

([3]) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز ، بشير كمال عابدين ، ص 10.

فوافق الوليد على هذه الشروط، وباشر عمر بن عبد العزيز عمله بالمدينة وفرح الناس به فرحاً شديداً[1] .

2 . مجلس شورى عمر بن عبد العزيز: مجلس فقهاء المدينة العشرة:

كان من أبرز الأعمال التي قام بها عمر بن عبد العزيز تكوينه لمجلس الشورى بالمدينة، فعندما جاء الناس للسلام على الأمير الجديد بالمدينة وصلى، دعا عشرة من فقهاء المدينة، وهم: عروة بن الزبير، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وأبو بكر بن سليمان بن أبي خيثمة، وسليمان بن يسار، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله بن عمر، وأخوه عبد الله بن عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عامر بن ربيعة، وخارجة بن زيد بن ثابت، فدخلوا عليه فجلسوا، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: إني دعوتكم لأمر تؤجرون عليه، وتكونون فيه أعواناً على الحق، إني لا أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم، فإن رأيتم أحداً يتعدى، أو بلغكم عن عامل لي ظلامة، فأحرّج الله على من بلغه ذلك إلا أبلغني[2] .

لقد عرفت أن عمر بن الخطاب كان يجمع المجلس للأمر يطرأ، فيرى ضرورة الشورى فيه، أما عمر بن عبد العزيز، وهو سبط عمر بن الخطاب، فقد أحدث مجلساً، حدّد صلاحياته بأمرين:

أ . أنهم أصحاب الحق في تقرير الرأي، وأنه لا يقطع أمراً إلا برأيهم. وبذلك يكون الأمير قد تخلى عن اختصاصاته إلى هذا المجلس، الذي نسميه (مجلس العشرة).

ب . أنه جعلهم مفتشين على العمال، ورقباء على تصرفاتهم، فإذا ما اتصل بعلمهم أو بعلم أحدهم أن عاملاً ارتكب ظلامة، فعليهم أن يبلغوه، وإلا فقد استعدى الله على كاتم الحق.

ونلاحظ كذلك أن هذا التدبير قد تضمن أمرين:

أحدهما: أن الأمير عمر بن عبد العزيز لم يخصص تعويضاً لمجلس العشرة؛ لأنهم كانوا من أصحاب العطاء، وبما أنهم فقهاء، فما ندبهم إليه داخل في صلب اختصاصهم.

الثاني: أن عمر افترض غياب أحدهم عن الحضور لعذر من الأعذار، ولهذا لم يشترط في تدبيره حضورهم كلهم، وإنما قال: «أو برأي من حضر منكم» [3] ، إن هذا المجلس كان يستشار في جميع الأمور دون استثناء[4] .

([1]) فقه عمر بن عبد العزيز (63/1)؛ سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، ص 41 . 42.

([2]) الطبقات (257/5)؛ موسوعة فقه عمر ، قلعجي ، ص 548.

([3]) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي (561/1 ، 562).

([4]) نظام الحكم في الإسلام بين النظرية والتطبيق ، ص 391.

ونستنتج من هذه القصة أهمية العلماء الربانيين وعلو مكانتهم، وأنه يجب على صاحب القرار أن يدنيهم ويقربهم منه ويشاورهم في أمور الرعية، كما أنه على العلماء أن يلتفوا حول الصالح من أصحاب القرار؛ من أجل تحقيق أكبر قدر ممكن للمصالح وتقليل ما يمكن من المفاسد، كما أن عمر بن عبد العزيز لم يختصر في شوراه على هؤلاء فحسب، بل كان يستشير غيرهم من علماء المدينة، كسعيد بن المسيِّب، والزهري، وغيرهم، وكان لا يقضي في قضاء حتى يسأل سعيد، وفي المدينة أظهر عمر بن عبد العزيز إجلاله للعلماء وإكباره لهم، وقد حدث أن أرسل رحمه الله تعالى رسولاً إلى سعيد بن المسيِّب يسأله عن مسألة، وكان سعيد لا يأتي أميراً ولا خليفة، فأخطأ الرسول فقال له: الأمير يدعوك، فأخذ سعيد نعليه وقام إليه في وقته، فلما راه عمر قال له: عزمت عليك يا أبا محمد إلا رجعت إلى مجلسك حتى يسألك رسولنا عن حاجتنا، فإنا لم نرسله ليدعوك، ولكنه أخطأ، إنما أرسلناه ليسألك[1].

وفي إمارته على المدينة المنورة وسع مسجد رسول الله ﷺ بأمر من الوليد بن عبد الملك، حتى جعله مئتي ذراعٍ في مئتي ذراع، زخرفه بأمر الوليد أيضاً، مع أنه رحمه الله تعالى كان يكره زخرفة المساجد[2] ، ويتضح من موقف عمر بن عبد العزيز هنا أنه قد يضطر الوالي للتجاوب مع قرارات ممن هو أعلى منه، حتى وإن كان غير مقتنع بها إذا قدر أن المصلحة في ذلك أكبر من وجوه أخرى.

وفي إمارته على المدينة في سنة 91 هـ حج الخليفة الوليد بن عبد الملك، فاستقبله عمر بن عبد العزيز أحسن استقبال، وشاهد الوليد بأم عينيه الإصلاحات العظيمة التي حققها عمر بن عبد العزيز في المدينة المنورة[3] .

3. الحادث المؤسف في ولاية عمر:

قال العلماء في السير: كان خبيب بن عبد الله بن الزبير قد حدَّث عن النبي ﷺ: أنه قال: «إذا بلغ بنو أبي العاص[4] ثلاثين رجلاً اتخذوا عباد الله خولاً، ومال الله دولاً»[5]وهو حديث ضعيف، فبعث الوليد بن عبد الملك

([1]) سيرة عمر بن عبد العزيز ومناقبه ، لابن عبد الحكم ، ص 23.

([2]) تفسير القرطبي (267/12)؛ موسوعة فقه عمر بن عبد العزيز ، ص 20.

([3]) موسوعة فقه عمر بن عبد العزيز ، ص 20.

([4]) بنو أبي العاص: أي بنو العاص بني أمية الجد الثالث لكل من الوليد وعمر بن عبد العزيز.

([5]) الحديث رواه البيهقي في دلائل النبوة (507/6) ، عن أبي سعيد وأبي هريرة ، قال ابن كثير رحمه الله بعد ذكر طرق أخرى ورد بها هذا الحديث: وهذه الطرق كلها ضعيفة. انظر: البداية والنهاية ، نقلاً عن الاثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (98/1).

إلى عمر بن عبد العزيز ـ واليه على المدينة ـ يأمره بجلده مئة سوط وبحبسه، فجلده عمر مئة سوط، وبرد له ماءً في جرّة ثم صبه عليه في غداة باردة فكزّ[1]، فمات فيها. وكان عمر قد أخرجه من السجن حين اشتد وجعه، وندم على ما صنع منه، وحزن عمر على موت خبيب، فقد روى مصعب بن عبد الله عن مصعب بن عثمان: أنهم نقلوا خبيباً إلى دار عمر بن مصعب بن الزبير ببقيع الزبير، واجتمعوا عنده حتى مات، فبينما هم جلوس، إذ جاءهم الماجشون يستأذن عليهم وخبيب مسجى بثوبه. وكان الماجشون مع عمر بن عبد العزيز في ولايته على المدينة. فقال عبد الله بن عروة: ائذنوا له. فلما دخل قال: كأن صاحبكم في مرية من موته اكشفوا له عنه، فكشفوا عنه، فلما راه الماجشون انصرف. قال الماجشون: فانتهيت إلى دار مروان، فقرعت الباب ودخلت، فوجدت عمر كالمرأة الماخض قائماً وقاعداً، فقال لي: ما وراءك ؟ فقلت: مات الرجل. فسقط على الأرض فزعاً، ثم رفع رأسه يسترجع، فلم يزل يعرف فيه حتى مات.

واستعفى من المدينة، وامتنع من الولاية. وكان كلما قيل له: إنك قد صنعت كذا فأبشر، فيقول: كيف بخبيب[2]؟! ولم يزل يذكرها ويتصورها أمام عينه حتى مات[3] .

ومن الأدلة على صلاح عمر بن عبد العزيز وقت ولايته على المدينة غير ما ذكر: ما رواه أبو عمر مولى أسماء بنت أبي بكر قال: فأتيته في مجلسه الذي يصلي فيه الفجر والمصحف في حجره، ودموعه تسيل على لحيته[4] . وحدّث ابن أبي الزناد عن أبيه، قال: كان عمر بن عبد العزيز وهو أمير على المدينة إذا أراد أن يجود بالشيء قال: ابتغوا أهل بيت بهم حاجة[5] .

4 ـ عظة مزاحم مولى عمر بن عبد العزيز له:

حبس عمر رجلاً بالمدينة، وجاوز عمر في حبسه القدر الذي يستحقه، فكلَّمه مزاحم في إطلاقه، فقال له عمر: ما أنا بمخرجه حتى أبلغ في الحيطة عليه بما هو أكثر مما مرّ، فقال مزاحم مغضباً: يا عمر بن عبد العزيز، إني أحذرك ليلة تمخض بالقيامة، وفي صبيحتها تقوم الساعة، يا عمر ! ولقد كدت أنسى اسمك مما أسمع: قال الأمير

([1]) كزّ الرجل: فهو مكزوز: أصابه داء الكزاز ، وهو يبس وانقباض من البرد.

([2]) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، ص 43 ، 44.

([3]) المصدر السابق نفسه.

([4]) المصدر السابق نفسه.

([5]) المصدر السابق نفسه؛ الاثار الواردة (66/1).

قال الأمير قال الأمير، قال عمر: إن أول من أيقظني لهذا الشأن مزاحم، فوالله ما هو إلا أن قال ذلك، فكأنما كشف عن وجهي غطاء[1] . وهذه القصة تبين لنا أهمية الصديق الصالح المخلص الذي يذكرك بالله حين الغفلة.

5 . بين عمر بن عبد العزيز والحجّاج في خلافة الوليد:

ذكر ابن الجوزي أن عمر بن عبد العزيز قد استعفى من المدينة كما مرّ ذكره، ولكن ذكر غيره أنه عزل عنها، ففي سنة 92 هـ عقد الخليفة الوليد لواء الحج للحجاج بن يوسف الثقفي ليكون أميراً على الحج، ولما علم عمر بن عبد العزيز بذلك، كتب رحمه الله تعالى إلى الخليفة يستعفيه أن يمرَّ عليه الحجاج بالمدينة المنورة، لأن عمر بن عبد العزيز كان يكره الحجّاج ولا يطيق أن يراه، لما هو عليه من الظلم، فامتثل الوليد لرغبة عمر، وكتب إلى الحجّاج: إن عمر بن عبد العزيز كتب إليَّ يستعفيني من ممرك عليه، فلا عليك أن لا تمر بمن كرهك فتنحَّ عن المدينة[2] .

وقد كتب عمر بن عبد العزيز وهو والٍ على المدينة إلى الوليد بن عبد الملك يخبره عما وصل إليه حال العراق من الظلم والضيم والضيق بسبب ظلم الحجّاج وغشمه، مما جعل الحجّاج يحاول الانتقام من عمر لاسيما وقد أصبح الحجاز ملاذاً للفارين من عسف الحجاج وظلمه ؛ حيث كتب الحجّاج إلى الوليد: إن من قبلي من مُرّاق أهل العراق وأهل الثقاف قد جلوا عن العراق، ولجؤوا إلى المدينة ومكة، وإن ذلك وهن. فكتب إليه يشير عليه بعثمان بن حبان، وخالد بن عبد الله القسري، وعزل عمر بن عبد العزيز[3] .

وقد كان ميل الوليد لسياسة الحجّاج واضحاً، وكان يظن بأن سياسة الشدة والعسف هي السبيل الوحيد لتوطيد أركان الدولة، وهذا ما حال بينه وبين الأخذ باراء عمر بن عبد العزيز ونصائحه، وقد أثبتت الأحداث فيما بعد أن ما كان يراه عمر أفضل مما كان يسير عليه الوليد، وذلك بعد تولي عمر الخلافة وتطبيقه لما كان يشير به[4] .

6 . عودة عمر بن عبد العزيز إلى دمشق:

خرج عمر بن عبد العزيز من المدينة المنورة وهو يبكي ومعه خادمه مزاحم، فالتفت إلى مزاحم وقال: يا مزاحم، نخشى أن نكون ممن نفت المدينة[5] ، يشير بذلك إلى قول رسول الله ﷺ: «ألا وإن المدينة كالكير يخرج الخبث،

([1]) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي ، ص 140.

([2]) سيرة عمر بن عبد العزيز ومناقبه ، لابن الحكم ، ص 24.

([3]) تاريخ الطبري(383/7).

([4]) أثر العلماء في الحياة السياسية ، ص 165.

([5]) سيرة عمر بن عبد العزيز ومناقبه ، لابن الحكم ، ص 27.

لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرارها، كما ينفي الكير خبث الحديد»[1]. وقال مزاحم: ولما خرج عمر بن عبد العزيز من المدينة نظرت فإذا القمر في الدبران[2] ـ كأنه تشاءم من ذلك ـ فقال: فكرهت أن أقول ذلك له، فقلت: ألا تنظر إلى القمر ما أحسن استواءه في هذه الليلة! فنظر عمر فإذا هو بالدبران، فقال: كأنك أردت أن تعلمني أن القمر بالدبران ! يا مزاحم !

إنا لا نخرج بشمس ولا بقمر ولكن نخرج بالله الواحد القهار[3].

وسار عمر حتى وصل السويداء، وكان له فيها بيت ومزرعة، فنزل فيها فأقام مدة يرقب الأوضاع عن بعد، ثم رأى أن مصلحة المسلمين تقتضي أن تكون إقامته في دمشق، بجوار الخليفة، لعله بذلك يستطيع أن يمنع ظلماً، أو يشارك في إحقاق حق، فانتقل إلى دمشق فأقام بها[4] .

ولم يكن عمر بن عبد العزيز على وفاق تام مع الخليفة الوليد بن عبد الملك، ولذلك فإن إقامته في دمشق بجوار الوليد لم تخلُ من مشاكل، فالوليد يعتمد في تثبيت حكمه على ولاة أقوياء قساة يهمهم إخضاع الناس بالقوة، وإن رافق ذلك كثير من الظلم، بينما يرى عمر أن إقامة العدل بين الناس كفيل باستقرار الملك وائتمارهم بأمر السلطان، فكان رحمه الله يقول: الوليد بالشام، والحجّاج بالعراق، ومحمد بن يوسف ـ أخ الحجّاج ـ في اليمن، وعثمان بن حيان بالحجاز، وقرة بن شريك في مصر، .. امتلأت والله الأرض جوراً[5] .

7 ـ نصح عمر للوليد بالحد من صلاحيات عماله في القتل:

سلك عمر بن عبد العزيز بعض الطرق والوسائل لإصلاح هذا الوضع، فمن ذلك نصحه للوليد بالحد من صلاحيات عماله في القتل، وقد نجح في بادأى الأمر في استصدار قرار يمنع أي والٍ من القتل إلا بعد علم الخليفة وموافقته على ذلك.

فيذكر ابن عبد الحكم: أن عمر بن عبد العزيز دخل على الوليد بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين إن عندي نصيحة، فإذا خلا لك عقلك، واجتمع فهمك فسلني عنها، قال: ما يمنعك منها الان؟ قال: أنت أعلم، إذا

---

(1) مسلم ، كتاب الحج ، باب: المدينة تنفي شرارها.

(2) الدبران: نجم بين الثريا والجوزاء ، ويقال له: التابع والتويبع ، وهو من منازل القمر ، سمي دبراناً لأنه يدبر الثريا؛ أي: يتبعها.

(3) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، ص 27.

(4) البداية والنهاية(683/12).

(5) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، ص 146؛ أثر العلماء في الحياة السياسية ، ص 162.

اجتمع لك ما أقول؛ فإنك أحق أن تفهم؛ فمكث أياماً ثم قال: يا غلام ! من بالباب؟ فقيل له: ناس وفيهم عمر بن عبد العزيز، فقال: أدخله، فدخل عليه فقال: نصيحتك يا أبا حفص، فقال عمر: إنه ليس بعد الشرك إثم أعظم عند الله من الدم، وإن عمالك يقتلون، ويكتبون: إن ذنب فلان المقتول كذا وكذا، وأنت المسؤول عنه والمأخوذ به، فاكتب إليهم ألا يقتل أحد منهم أحداً حتى يكتب بذنبه ثم يشهد عليه، ثم تأمر بأمرك على أمر قد وضح لك. فقال: بارك الله فيك يا أبا حفص ومنع فقدك. عليَّ بكتاب، فكتب إلى أمراء الأمصار كلهم، فلم يحرج ذلك إلا الحجّاج؛ فإنه أمضَّه، وشق عليه وأقلقه . وظن أنه لم يكتب إلى أحد غيره، فبحث عن ذلك، فقال: من أين ذهبنا؟ أو من أشار على أمير المؤمنين بهذا؟ فأخبر أن عمر بن عبد العزيز هو الذي فعل ذلك، فقال: هيهات ! إن كان عمر فلا نقض لأمره.

ثم إن الحجّاج أرسل إلى إعرابي حروري ـ من الخوارج ـ جافٍ من بكر بن وائل، ثم قال له الحجّاج: ما تقول في معاوية؟ فنال منه. قال: ما تقول في يزيد؟ فسبه. قال: فما تقول في عبد الملك؟ فظلَّمه. قال: فما تقول في الوليد؟ فقال: أجورهم حين ولاك وهو يعلم عداءك وظلمك. فسكت الحجّاج وافترصها منه[1] ، ثم بعث به إلى الوليد وكتب إليه: أنا أحوط لديني، وأرعى لما استرعيتني وأحفظ له من أن أقتل أحداً لم يستوجب ذلك، وقد بعثت إليك ببعض من كنت أقتل على هذا الرأي فشأنك وإياه. فدخل الحروري على الوليد وعنده أشراف أهل الشام وعمر فيهم، فقال له الوليد: ما تقول فيّ؟ قال: ظالم جبار. قال: ما تقول في عبد الملك؟ قال: جبار عاتٍ. قال فما تقول في معاوية؟ قال: ظالم. قال الوليد لابن الريان: اضرب عنقه، فضرب عنقه، ثم قام فدخل منزله وخرج الناس من عنده، فقال: يا غلام اردد عليّ عمر، فرده عليه فقال: يا أبا حفص ! ما تقول بهذا؟ أصبنا أم أخطأنا؟ فقال عمر: ما أصبت بقتله، ولغير ذلك كان أرشد وأصوب، كنت تسجنه حتى يراجع الله عز وجل أو تدركه منيته، فقال الوليد: شتمني وشتم عبد الملك وهو حروري، أفتستحل ذلك؟ قال: لعمري ما أستحله، لو كنت سجنته إن بدا لك أو تعفو عنه، فقام الوليد مغضباً، فقال ابن الريان لعمر: يغفر الله لك يا أبا حفص، لقد راددت أمير المؤمنين حتى ظننت أنه سيأمرني بضرب عنقك[2]، وهكذا احتال الحجّاج على الوليد ليصرفه على الأخذ برأي عمر في الحد من سرف الحجّاج وأمثاله في القتل[3] .

([1]) افترصها: انتهزها.

([2]) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، ص 119 ـ 121؛ أثر العلماء في الحياة السياسية ، ص 164.

([3]) أثر العلماء في الحياة السياسية ، ص 164.

8. رأي عمر بن عبد العزيز في التعامل مع الخوارج:

فبالإضافة إلى الموقف الذي مرّ ذكره انفاً. في شأن الحروري الذي بعث به الحجّاج. وردت روايات توضح الموقف نفسه؛ فعن ابن شهاب: أن عمر بن عبد العزيز أخبره أن الوليد أرسل إليه بالظهيرة، فوجده قاطباً بين عينيه، قال: فجلست وليس عنده إلا ابن الريان، قائم بسيفه، فقال: ما تقول فيمن يسبُّ الخلفاء؟ أترى أن يقتل؟ فسكت، فانتهرني، وقال: ما لك؟ فسكت، فعاد لمثلها، فقلت: أَقَتَلَ يا أمير المؤمنين؟ قال: لا، ولكنه سب الخلفاء، قلت: فإني أرى أن ينكل، فرفع رأسه إلى ابن الريان، فقال الوليد: إنه فيهم لتائه.

9. نصحه الوليد عندما أراد خلع سليمان والبيعة لابنه:

ومن اخر مواقفه التي ذكرت لعمر بن عبد العزيز في عهد الوليد بن عبد الملك نصحه للوليد عندما أراد خلع سليمان والبيعة لابنه عبد العزيز من بعده، فوقف عمر من ذلك موقفاً حازماً؛ حيث لم يستجب لأمر الوليد في ذلك، وقال حين أراده على ذلك: يا أمير المؤمنين إنما بايعنا لكما في عقدة واحدة؛ فكيف نخلعه ونتركك؟! فغضب الوليد على عمر، وحاول استخدام الشدة معه لعله يوافقه على ما أراد، فيذكر أنه أغلق عليه الدار وطين عليه الباب حتى تدخلت أم البنين أخته وزوجة الوليد ففتح عنه بعد ثلاث وقد ذبل ومالت عنقه[1] .

خامساً: عمر في عهد سليمان بن عبد الملك:

في عهد سليمان تهيأت الفرص لعمر بن عبد العزيز بقدر كبير، فظهرت اثاره في مختلف الجوانب، فبمجرد تولي سليمان الخلافة؛ قرَّب عمر بن عبد العزيز وأفسح له المجال واسعاً؛ حيث قال: يا أبا حفص إنا ولينا ما قد ترى، ولم يكن بتدبيره علم، فما رأيت من مصلحة العامة فمر به[2] . وجعله وزيراً ومستشاراً ملازماً له في إقامته أو سفره، وكان سليمان يرى أنه محتاج له في صغيره وكبيره، فكان يقول: ما هو إلا أن يغيب عني هذا الرجل فما

([1]) سير أعلام النبلاء(148/5 ، 149)؛ أثر العلماء ، ص 167.

([2]) المصدر السابق نفسه؛ نقلاً عن العلماء ، ص 168.

أجد أحداً يفقه عني[1] . وفي موضع اخر قال: يا أبا حفص ما اغتممت بأمر ولا أكربني أمر إلا خطرت فيه على بالي [2] .

1 . أسباب تقريب سليمان لعمر:

والذي دفع سليمان إلى إفساح المجال أمام عمر بهذه الصورة يعود في نظري إلى عدة أسباب ؛ منها:

أ . شخصية سليمان بن عبد الملك: حيث لم يكن مثل أخيه الوليد معجباً بنفسه معتداً برأيه وواقعاً تحت تأثير بعض ولاته، بل كان سليمان على العكس من ذلك؛ غير معتد برأيه خالياً من التأثيرات الأخرى عليه.

ب . قناعة سليمان بما يتمتع به عمر من نظرات واراء صائبة.

جـ موقف عمر من محاولة الوليد لخلع سليمان، مما جعل سليمان يشكر ذلك لعمر، وقد أشار لهذا الذهبي، حيث قال بعد عرضه لموقف عمر: فلذلك شكر سليمان عمر وأعطاه الخلافة بعده[3] .

2 . تأثير عمر على سليمان في إصدار قرارات إصلاحية:

فقد كان لعمر أثر كبير على سليمان في إصدار عدد من القرارات النافعة، ومن أهمها: عزل ولاة الحجّاج، وبعض الولاة الاخرين، كوالي مكة خالد القسري، ووالي المدينة عثمان بن حيان[4] ، ومنها: الأمر بإقامة الصلاة في وقتها، فأورد ابن عساكر عن سعيد بن عبد العزيز: أن الوليد بن عبد الملك كان يؤخر الظهر والعصر، فلما ولي سليمان كتب إلى الناس . عن رأي عمر . أن الصلاة كانت قد أميتت فأحيوها[5] ، وهناك أمور أخرى أجملها الذهبي بقوله: مع أمور جليلة كان يسمع من عمر فيها[6] .

3 . إنكاره على سليمان بن عبد الملك في تحكيمه كتاب أبيه:

كلّم عمر بن عبد العزيز سليمان بن عبد الملك في ميراث بعض بنات عبد العزيز من بني عبد الملك، فقال له سليمان بن عبد الملك: إن عبد الملك كتب في ذلك كتاباً منعهن ذلك، فتركه يسيراً ثم راجعه فظن سليمان أنه اتهمه فيما ذكر من رأي عبد الملك في ذلك الأمر، فقال سليمان لغلامه: ائتني بكتاب عبد الملك، فقال له عمر:

([1]) المعرفة والتاريخ ، للفسوي (598/1).

([2]) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، ص 28؛ أثر العلماء ص 168.

([3]) سير أعلام النبلاء (149/5).

([4]) أثر العلماء على الحياة السياسية ، ص 169.

([5]) تاريخ دمشق؛ نقلاً عن أثر العلماء على الحياة السياسية ، ص 170.

([6]) سير أعلام النبلاء (125/5).

أبالمصحف دعوتَ يا أمير المؤمنين؟ فقال أيوب بن سليمان: ليوشكن أحدكم أن يتكلم الكلام تضرب فيه عنقه، فقال له عمر: إذا أفضى الأمر إليك فالذي دخل على المسلمين أعظم مما تذكر، فزجر سليمانُ أيوبَ، فقال عمر: إن كان جهل فما حلمنا عنه[1] .

فهذا موقف من مواقف الجرأة في قول الحق الذي يُحمد لعمر؛ حيث اعتبر سليمان بن عبد الملك كتابة أبيه شرعاً لا يمكن تغييره، فنبهه عمر إلى أن الكتاب الذي لا ينقض ولا يغيّر هو كتاب الله تعالى وحده، وهكذا يصل الطغيان بضحاياه إلى تعظيم شأن الاباء والأجداد الذين ورّثوا ذلك المجد الزائل لأبنائهم إلى الحد الذي يعتبرون فيه قضاءهم شرعاً نافذاً من غير نظر في موافقته لحكم الإسلام أو مخالفته، وموقف يذكر لسليمان حيث وبّخ ولده الذي هدد عمر أن قال كلمة الحق، وهذا يدل على ما يتصف به سليمان من سرعة الرجوع إلى الحق إذا تبين له[2] .

4 . إنكاره على سليمان بن عبد الملك في الإنفاق:

قدم سليمان بن عبد الملك المدينة فأعطى بها مالاً عظيماً، فقال لعمر بن عبد العزيز: كيف رأيت ما فعلنا يا أبا حفص؟ قال: رأيتك زدت أهل الغنى غنى، وتركت أهل الفقر بفقرهم[3] . فهذا تقويم جيد من عمر بن عبد العزيز لعمل سليمان بن عبد الملك، فقد كان سليمان ـ لجهله بدقائق أحكام الشريعة في مجال الإنفاق ـ يظن أنه بإنفاقه ذلك المال الكثير على الرعية قد عمل صالحاً، فأفاده عمر بن عبد العزيز بأنه قد أخطأ حينما صرف ذلك المال لغير مستحقيه وحرم منه أهله[4] ، فقد بيَّن عمر رحمه الله أهمية التفريق بين بذل الخير وصرفه لمستحقيه.

5 . حث عمر سليمان على رد المظالم:

خرج سليمان ومعه عمر إلى البوادي، فأصابه سحاب فيه برق وصواعق، ففزع منه سليمان ومن معه، فقال عمر: إنما هذا صوت نعمة؛ فكيف لو سمعت صوت عذاب؟! فقال سليمان: خذ هذه المئة ألف درهم وتصدق بها،

([1]) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، ص 31.
([2]) التاريخ الإسلامي (15/30، 31).
([3]) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، ص 131.
([4]) التاريخ الإسلامي (15/29).

فقال عمر: أو خير من ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: وما هو؟ قال: قوم صحبوك في مظالم لم يصلوا إليك، فجلس سليمان فرد المظالم[1] ، ويظهر عند عمر وضوح فقه ترتيب الأولويات، فرد المظالم مقدم على بذل الصدقات.

6 . أرى دنيا يأكل بعضها بعضاً:

أقبل سليمان بن عبد الملك وهو أمير المؤمنين، ومعه عمر بن عبد العزيز على معسكر سليمان، وفيه تلك الخيول والجمال والبغال والأثقال والرجال، فقال سليمان: ما تقول يا عمر في هذا؟ قال: أرى دنيا يأكل بعضها بعضاً، وأنت المسؤول عن ذلك كله. فلما اقتربوا من المعسكر، إذا غراب قد أخذ لقمة في فيه من فسطاط سليمان وهو طائر بها ونعب نعبة[2] ، فقال له سليمان: ما تقول في هذا يا عمر؟ فقال: لا أدري. فقال: ما ظنك أنه يقول؟ قال: كأنه يقول: من أين جاءت؟ وأين يذهب بها؟ فقال له سليمان: ما أعجبك ! فقال عمر: أعجب مني من عرف الله فعصاه، ومن عرف الشيطان فأطاعه[3] .

7 . هم خصماؤك يوم القيامة:

لما وقف سليمان وعمر بعرفة جعل سليمان يعجب من كثرة الناس، فقال له عمر: هؤلاء رعيّتُك اليوم، وأنت مسؤول عنهم غداً، وفي رواية: وهم خصماؤك يوم القيامة، فبكى سليمان وقال: بالله أستعين [4] .

8 . زيد بن الحسن بن علي مع سليمان:

كان زيد بن الحسن بن علي قد أجاب الوليد بن عبد الملك في مسألة خلع سليمان خوفاً من الوليد، وكتب بموافقته من المدينة إلى الوليد، فلما استخلف سليمان وجد الكتاب، فبعث إلى واليه على المدينة، أن يسأل زيداً عن أمر الكتاب، فإن هو اعترف به فليبعث بذلك إليه، وإن أنكر عليه اليمين أمام منبر رسول الله ﷺ، فلما بعث باعترافه إلى سليمان، كتب سليمان إلى والي المدينة أن يضربه مئة سوط ويمشيه حافياً.. فحبس عمر الرسول وقال: لا تخرج حتى أكلم أمير المؤمنين فيما كتب في زيد بن حسن لعلي أطيب نفسه فيترك هذا الكتاب. فجلس

([1]) سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص 33؛ أثر العلماء في الحياة السياسية ، ص 170.

([2]) نعب الغراب: صوَّت أو مد عنقه وحرك رأسه في صياحه.

([3]) البداية والنهاية (685/12).

([4]) المصدر السابق نفسه.

الرسول فمرض سليمان، فقال للرسول: لا تخرج فإن أمير المؤمنين مريض، فلما توفي سليمان وأفضى الأمر إلى عمر دعا بالكتاب ومزقه[1] .

وظل عمر بن عبد العزيز قريباً من سليمان طيلة مدة خلافته يحوطه بنصحه ويشاركه مسؤولياته[2] ، ويرى الدكتور يوسف العش أن سياسة عمر بن عبد العزيز ومنطلقاتها بدأت منذ بداية خلافة سليمان، نعم إن سليمان كان يشتط حيناً في سياسته، فيتخذ تدابير لعل عمر لا يقرها، لكن عمر بن عبد العزيز كان بالرغم من ذلك راجح القوة في خلافته، وسياسة عمر لم تتغير، فهو في دمشق مثله في المدينة، على أنه في دمشق يستطيع أن يفعل أكثر من المدينة، والأمر المهم عنده هو منع الجور[3]والظلم والعسف، ونلاحظ أن عمر بن عبد العزيز تعامل مع سنة التدرج وفقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في رد المظالم ومنعها، وعندما وصل للخلافة ازداد في إحقاق العدل ومحاربة الظلم؛ لأن الصلاحيات المتاحة كانت أكبر، فهو نصح عمه عبد الملك وذكره بالآخرة مع جبروته وظلمه، ولم يتقاعس في عهد ابن عمه الوليد، وتقدم خطوات ووفق حسب الإمكان في عهد سليمان، وأتيحت له الفرصة في خلافته، وبالتالي لا نقول إن ما حدث لعمر على مستواه الشخصي انقلاب وإنما الانقلاب في توظيف الدولة لخدمة الشريعة في كافة شؤون الحياة ولو كان على حساب العائلة الحاكمة، التي كانت لها مخصصاتها وصلاحياتها، والتي اعتبرها عمر بن عبد العزيز حقوقاً للأمة يجب ردها إلى بيت المال أو إلى أصحابها الأصليين.

سادساً: خلافة عمر بن عبد العزيز:

ومن حسنات سليمان عبد الملك قبوله لنصيحة الفقيه العالم رجاء بن حيوة الكندي الذي اقترح على سليمان في مرض موته أن يولي عمر بن عبد العزيز، وكانت وصية لم يكن للشيطان فيها نصيب[4]، قال ابن سيرين: يرحم الله سليمان ! افتتح خلافته بإحياء الصلاة، واختتمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز.

وكانت سنة وفاته سنة 99 هـ، وصلى عليه عمر بن عبد العزيز، وكان منقوش في خاتمه: (أؤمن بالله مخلصاً)[5] .

وتعددت الروايات في قصة استخلاف سليمان لعمر، وقد ذكرت بعضها في حديثي عن عهد سليمان، ومن الروايات أيضاً ما ذكره ابن سعد في طبقاته، عن سهيل بن أبي سهيل قال: سمعت رجاء بن حيوة يقول: لما كان

---

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الحكم ، ص 104.

(2) أثر العلماء في الحياة السياسية ، ص 173.

(3) الدولة الأموية ، يوسف العش ، ص 254.

(4) عصر الدولتين الأموية و العباسية ، للصَّلابي ، ص 37.

(5) سير أعلام النبلاء(5/111 ، 112).

يوم الجمعة لبس سليمان بن عبد الملك ثياباً خضراً من خز، ونظر في المراة فقال: أنا والله الملك الشاب، فخرج إلى الصلاة يصلي بالناس الجمعة فلم يرجع حتى وعك، فلما ثقل كتب كتاب عهده إلى ابنه أيوب، وهو غلام لم يبلغ، فقلت: ما تصنع يا أمير المؤمنين؟ إنه مما يحفظ به الخليفة في قبره أن يستخلف الرجل الصالح، فقال سليمان: كتاب أستخير الله فيه، وأنظر، ولم أعزم عليه، فمكث يوماً أو يومين، ثم خرقه ثم دعاني، فقال: ما ترى في داود بن سليمان؟ فقلت: هو غائب بقسطنطينية، وأنت لا تدري أحي هو أم ميت. قال: يا رجاء فمن ترى ؟ قال: فقلت: رأيك يا أمير المؤمنين ! وأنا أريد أن أنظر من يذكر. فقال: كيف ترى في عمر بن عبد العزيز؟ فقلت: أعلمه والله فاضلاً خياراً مسلماً. فقال: هو على ذلك، والله لئن وليته ولم أولِّ أحداً من ولد عبد الملك لتكونن فتنة ولا يتركونه أبداً يلي عليهم إلا أن أجعل أحدهم بعده. ويزيد بن عبد الملك غائب على الموسم. قال: فيزيد بن عبد الملك أجعله بعده، فإن ذلك مما يسكنهم ويرضون به، قلت: رأيك، قال: فكتب بيده: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز، إني وليته الخلافة من بعدي، ومن بعده يزيد بن عبد الملك، فاسمعوا له وأطيعوا، واتقوا الله، ولا تختلفوا، فيطمع فيكم. وختم الكتاب.

فأرسل إلى كعب بن حامد صاحب الشرطة أن مرْ أهل بيتي فليجتمعوا، فأرسل إليهم كعب، فجمعهم، ثم قال سليمان لرجاء بعد اجتماعهم: اذهب بكتابي هذا إليهم، فأخبرهم أنه كتابي، ومرهم فليبايعوا من وليت. قال: ففعل رجاء، فلما قال لهم ذلك رجاء قالوا: سمعنا وأطعنا لمن فيه، وقالوا: ندخل فنسلم على أمير المؤمنين، قال: نعم. فدخلوا فقال لهم سليمان: هذا الكتاب. وهو يشير لهم وهم ينظرون إليه في يد رجاء بن حيوة. هذا عهدي، فاسمعوا، وأطيعوا وبايعوا لمن سميت في هذا الكتاب. قال: فبايعوا رجلاً رجلاً. قال: ثم خرج بالكتاب مختوماً في يد رجاء.

قال رجاء: فلما تفرقوا جاءني عمر بن عبد العزيز فقال: يا أبا المقدام، إن سليمان كانت لي به حرمة ومودة، وكان بي براً ملطفاً، فأنا أخشى أن يكون قد أسند إلي من هذا الأمر شيئاً، فأنشدك الله وحرمتي ومودتي، إلا أعلمتني إن كان ذلك حتى أستعفيه الان قبل أن يأتي حال لا أقدر فيها على ما أقدر الساعة. فقال رجاء: لا والله ما أنا بمخبرك حرفاً واحداً. قال: فذهب عمر غضبان.

قال رجاء: ولقيني هشام بن عبد الملك، فقال: يا رجاء، إن لي بك حرمة ومودة قديمة وعندي شكر، فأعلمني أهذا الأمر إليّ؟ فإن كان إلي علمت، وإن كان إلى غيري تكلمت، فليس مثلي قصر به، ولا نُحِّيَ عنه هذا الأمر، فأعلمني فلك الله لا أذكر اسمك أبداً. قال رجاء: فأبيت وقلت لا والله لا أخبرك حرفاً واحداً مما أسر إلي، فانصرف

هشام..، وهو يضرب بإحدى يديه على الأخرى، وهو يقول: فإلى من إذا نُحيت عني؟ أتخرج من بني عبد الملك؟ فوالله إني لعين بني عبد الملك.

قال رجاء: ودخلت على سليمان بن عبد الملك، فإذا هو يموت. قال: فجعلت إذا أخذته سكرة من سكرات الموت، حرفته إلى القبلة، فجعل يقول وهو يفأق: لم يأنِ ذلك بعد يا رجاء. حتى فعلت ذلك مرتين. فلما كانت الثالثة قال: من الان يا رجاء، إن كنت تريد شيئاً أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال: فحرفته، ومات، فلما أغمضته سجيته بقطيفة خضراء وأغلقت الباب، وأرسلت إليَّ زوجته تنظر إليه، كيف أصبح ؟ فقلت: نام وقد تغطى، فنظر الرسول إليه، مغطى بالقطيفة فرجع، فأخبرها، فقبلت ذلك وظنت أنه نائم.

قال رجاء: وأجلست على الباب من أثق به، وأوصيته أن لا يريم حتى اتيه، ولا يدخل على الخليفة أحداً. قال: فخرجت، فأرسلت إلى كعب بن حامد العنسي، فجمع أهل بيت أمير المؤمنين، فاجتمعوا في مسجد دابق، فقلت: بايعوا، قالوا: قد بايعنا مرة ونبايع أخرى ؟! قلت: هذا أمير المؤمنين، بايعوا على ما أمر به، ومن سمى في هذا الكتاب المختوم، فبايعوا الثانية رجلاً رجلاً.

قال رجاء: فلما بايعوا بعد موت سليمان، رأيت أني قد أحكمت الأمر، قلت: قوموا إلى صاحبكم فقد مات. قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، وقرأت عليهم الكتاب، فلما انتهيت إلى ذكر عمر بن عبد العزيز نادى هشام: لا نبايعه أبداً. قال: قلت: أضرب والله عنقك، قم فبايع. فقام يجر رجليه.

قال رجاء: وأخذت بضبعي عمر، فأجلسته على المنبر وهو يسترجع، لما وقع فيه، وهشام يسترجع لما أخطأه ! فلما انتهى هشام إلى عمر، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون ـ أي

حين صار هذا الأمر إليك على ولد عبد الملك ـ قال: فقال عمر: نعم، فإنا لله وإنا إليه راجعون، حين صار إلي ـ لكراهتي له[1] .

وقال أبو الحسن الندوي على موقف رجاء بن حيوة: وكان لرجاء مأثرة لا ينساها الإسلام، ولا أعرف رجلاً من ندماء الملوك ورجالهم انتفع بقربه ومنزلته عند الملوك مثل انتفاعه، وانتهز الفرصة مثل انتهازه، وأسدى للإسلام

(1) تاريخ الطبري (445/7)؛ الطبقات (335/5 ـ 338).

خدمة مثله[1]، فرحم الله رجاء بن حيوة فقد رسم منهجاً لمن يجلس مع الملوك من العلماء كيف يعز الإسلام ويذكر الخلفاء بالله وينتهز الفرص المناسبة لخدمة دين الله.

1 . منهج عمر في إدارة الدولة من خلال خطبته الأولى:

صعد عمر المنبر، وقال في أول لقاء مع الأمة بعد استخلافه: أيها الناس ! إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعتُ ما في أعناقكم من بيعتي، فاختاروا لأنفسكم.
فصاح الناس صيحة واحدة: قد اخترناك يا أمير المؤمنين، ورضينا بك، فلِ أمرنا باليُمن والبركة.
وهنا شعر أنه لا مفر من تحمُّل مسؤولية الخلافة، فأضاف قائلاً يحدد منهجه وطريقته في سياسة الأمة المسلمة[2] : أما بعد؛ فإنه ليس بعد نبيكم نبي، ولا بعد الكتاب الذي أنزل عليه كتاب، ألا إن ما أحل الله حلال إلى يوم القيامة، ألا إني لست بقاضٍ، ولكني منفذ، ألا وإني لست بمبتدع ولكني متبع، ألا إنه ليس لأحد أن يطاع في معصية الله، ألا إني لست بخيركم، ولكني رجل منكم، غير أن الله جعلني أثقلكم حملاً.
أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس، و إلا فلا يقربنا: يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها، ويعيننا على الخير بجهده، ويدلنا من الخير على ما نهتدي إليه، ولا يغتابن عندنا الرعية، ولا يعترض فيما لا يعنيه.
أوصيكم بتقوى الله، فإن تقوى الله خلف من كل شيء وليس من تقوى الله عز وجل خلف، واعملوا لاخرتكم، فإنه من عمل لاخرته كفاه الله تبارك وتعالى أمر دنياه، وأصلحوا سرائركم، يصلح الله الكريم علانيتكم، وأكثروا من ذكر الموت، وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم، فإنه هادم اللذات... وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها عز وجل، ولا في نبيها ﷺ، ولا في كتابها، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم، وإني والله لا أعطي أحداً باطلاً، ولا أمنع أحداً حقاً.

---

[1] رجال الفكر والدعوة، للندوي (40/1).
[2] عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم ، ماجدة فيصل، ص 102.

ثم رفع صوته حتى أسمع الناس فقال: يا أيها الناس، من أطاع الله وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له، أطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم. وإن من حولكم من الأمصار والمدن فإن هم أطاعوا كما أطعتم فأنا وليكم، وإن هم نقموا فلست لكم بوالٍ[1] ، ثم نزل.

وهكذا عقدت الخلافة لعمر بن عبد العزيز في ذلك اليوم، وهو يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين[2].

ويظهر لنا من هذه الخطبة السياسة التي قرر عمر بن عبد العزيز اتباعها في الحكم؛ وهي:

أ ـ التزامه بالكتاب والسنة، وأنه غير مستعد للاستماع إلى أي جدل في مسائل الشرع والدين على أساس أنه حاكم منفذ، وأن الشرع بيّن من حيث تحليل ما أحل الله وتحريم ما حرم الله، ورفضه للبدعة والاراء المحدثة.

ب ـ حدد لمن يريد أن يتصل به ويعمل معه من رعيته أن يكون اتصاله معه لخمسة أسباب:

ـ أن يرفع إليه حاجة من لا يستطيع أن يصل إلى الخليفة، أي أنه جعل المقربين منه همزة وصل بينه، وبين من لا يستطيعون الوصول إليه، فيعرف بذلك حوائج الناس، وينظر فيها.

ـ أن يعينه على الخير ما استطاع، أي أن علاقة هؤلاء به تقوم على أساس نزعة الخير يعين الخليفة عليه، وبالتالي يحذره من أي شر.

ـ فرض على من يقترب إليه فريضة أن يرشده، ويهديه إلى ما فيه خير الأمة، وخير الدين.

ـ نهى من يريد أن يتقرب إليه، عن أن يغتاب إليه أحداً.

ـ أن لا يتدخل أي متقرب منه في شؤون الحكم، وفيما لا يعنيه عامة.

لقد كان يدرك مدى تأثير البطانة والمقربين من الحاكم على الحاكم وعلى الرعية، وعلى أسلوب الحكم، فاثر أن ينبه الناس حتى يتركوه يحكم بما ارتضى في نطاق شرع الله، دون أن يبعدهم نهائياً؛ لأنه أجاز لهؤلاء المقربين أن يدلوه على الخير، ويعينوه عليه، وأن ينقلوا إليه حاجة المحتاج[3] .

([1]) انظر مع بعض الاختلاف: الطبقات(340/5)؛ سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الحكم ، ص 35 ، 36؛ عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم ، ص 104.

([2]) البداية والنهاية(657/12).

([3]) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم ، ص 105.

جـ كما أنه حذر الناس من عواقب الدنيا لو أساؤوا فيها، وطلب إليهم أن يصلحوا سرائرهم ويحذروا الموت، ويتعظوا به.

د ـ قطع على نفسه عهداً بأن لا يعطي أحداً باطلاً، ولا يمنع أحداً حقاً، وأنه أعطاهم حقاً عليه، وهو أن يطيعوه ما أطاع الله، وأنه لا طاعة له عليهم إذا عصاه سبحانه وتعالى.

هذه هي الخطوط العريضة لسياسة عمر، ذكرها في أول لقاء له مع الرعية وأهل الحل والعقد في المسجد بعد بيعته، فدولته قد حدّدها بالسير على كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وقد اثر أن لا يدع لأي عامل من عماله حجة عليه بعد ذلك، ففصل ما أجمل في خطبته الأولى في كتب أرسلها إلى عماله، وقد كانت هذه الكتب نوعين: ـ كتب إلى العمال يبصِّرهم بما يجب عليهم أن يلتزموا به في مسلكهم الشخصي، والخاص إزاء الرعية، وسوف نتحدث عن ذلك بإذن الله.

ـ وكتب إلى عماله القواعد التي حددت سياستهم، وطريقة تعاملهم مع أفراد الرعية من المسلمين، وغير المسلمين، ممن كانوا يسكنون دار الإسلام.

وعمر في هذه الكتب ـ كما سيظهر بإذن الله ـ تكلم عن موقفه كفقيه متبحر في أصول الدين[1] ، وسيأتي الحديث عن منهجه من خلال أعماله.

2 ـ الحرص على العمل بالكتاب والسنة:

من أهم ما يميز منهج عمر في سياسته، حرصه على العمل بالكتاب والسنة ونشر العلم بين رعيته وتفقيههم في الدين وتعريفهم بالسنة، ومنطلق عمر في ذلك فهمه لمهمة الخلافة، فهي حفظ الدين وسياسة الدنيا به[2] ، فهو يرى أن من أهم واجباته تعريف رعيته بمبادئ دينهم وحملهم على العمل بها، فورد عنه أنه قال في إحدى خطبه: إن للإسلام حدوداً وشرائع وسنناً؛ فمن عمل بها استكمل الإيمان، ومن لم يعمل بها لم يستكمل الإيمان، فلأن أعش أعلمكموها وأحملكم عليها، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص[3] . وقال أيضاً: فلو كان كل بدعة

([1]) المصدر السابق نفسه ، ص 106.

([2]) الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، ص 5.

([3]) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، ص 60.

يميتها الله على يدي وكل سنة يعيشها الله على يدي ببضعة من لحمي حتى يأتي اخر ذلك على نفسي كان في الله يسيراً. وفي موضع اخر قال: والله لولا أن أنْعِشَ سُنَّةً، أو أسير بحق، ما أحببت أن أعيش فواقاً[1] .

لهذا بادر عمر في تنفيذ هذه المسؤولية المهمة، فبعث العلماء في تعليم الناس وتفقيههم إلى مختلف أقاليم الدولة وفي حواضرها وبواديها، وأمر عماله على الأقاليم بحثِّ العلماء على نشر العلم، فقد جاء في كتابه الذي بعث إلى عماله: ومر أهل العلم والفقه من جندك فلينشروا ما علمهم الله من ذلك، وليتحدثوا به في مجالسهم[2] ، ومما كتب به إلى بعض عماله: أما بعد فأْمر أهل العلم أن ينشروا العلم في مساجدهم، فإن السنة كانت قد أميتت[3] .

كما أمر عماله أن يجروا الرواتب على العلماء ليتفرغوا لنشر العلم[4]، وانتدب العديد من العلماء لتفقيه الناس في الدين، فبعث يزيد بن أبي مالك الدمشقي والحارث بن يمجد الأشعري يفقهان الناس والبدو[5] ، وذكر الذهبي أن عمر ندب يزيد بن أبي مالك ليفقه بني نمير ويقرئهم، وبعث نافع مولى ابن عمر إلى أهل مصر ليعلمهم السنن[6]، وكان قد بعث عشرة من الفقهاء إلى إفريقية يفقهون أهلها وسيأتي الحديث عنهم بإذن الله.

ولم تنحصر مهمة هؤلاء العلماء في التعليم فحسب، بل منهم من أسند إليه بعض الولايات، ومنهم من تولى القضاء، وأسهم أكثرهم بالإضافة إلى نشر العلم في مجال الدعوة والجهاد في سبيل الله، وهذا الاهتمام الذي تميز به منهج عمر لتعليم الناس وتفصيلهم لأمور دينهم له أبعاد سياسية واثار أمنية، ذلك أن نشر الوعي الديني الصحيح والفقه فيه بين أفراد الرعية له أثر في حماية عقول أبناء الأمة من عبث الأفكار التي ينعكس خطرها على الاستقرار السياسي والأمني، كأفكار الخوارج[7]وغيرهم.

3 . الشورى في دولة عمر بن عبد العزيز:

([1]) الفواق: مابين الحلبتين من الوقت ، أو ما بين فتح اليد وقبضها على الضرع.

([2]) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، ص 73.

([3]) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، ص 76.

([4]) البداية والنهاية؛ نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية ، ص 179.

([5]) مختصر تاريخ دمشق (175/6)؛ أثر العلماء ، ص 179.

([6]) سير أعلام النبلاء (438/5).

([7]) أثر العلماء في الحياة السياسية ، ص 180.

قال تعالى: {وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٨} [سورة الشورى:38] . وقال تعالى: {فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ} [سورة آل عمران:159]. وقد اهتم بن عبد العزيز بتفعيل مبدأ الشورى في خلافته، ومن أقواله في الشورى: إن المشورة والمناظرة باب رحمة ومفتاح بركة لا يضل معهما رأي، ولا يفقد معهما حزم[1] ، وكان أول قرار اتخذه عمر بعدما ولي أمر المدينة للوليد بن عبد الملك، يتعلق بتطبيق مبدأ الشورى، وجعله أساساً في إمارته، حين دعا من فقهاء المدينة وكبار علمائها، وجعل منهم مجلساً استشارياً دائماً[2] .كما مر معنا . حري بمن جعل الشورى أحد مبادئ إمارته حين كانت مسؤوليته جزئية أن يطبقه وقت المسؤولية الكاملة، والمهمة العظمى، ألا وهي ولاية أمر المسلمين كافة، وقد تبين مبدأ الشورى من أول يوم في خلافته، وقال للناس: أيها الناس، إني قد ابتليت بهذا الأمر، من غير رأي كان مني فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي، (فاختاروا لأنفسكم)، فصاح الناس صيحة واحدة: قد اخترناك يا أمير المؤمنين، ورضينا بك فَلِ أمرنا باليمن والبركة[3] .

وبذلك خرج عمر من مبدأ توريث الولاية الذي تبناه معظم خلفاء بني أمية إلى مبدأ الشورى والانتخاب، ولم يكتفِ عمر باختياره ومبايعة الحاضرين، بل يهمه رأي المسلمين في الأمصار الأخرى ومشورتهم، فقال في خطبته الأولى . عقب توليه الخلافة .: .. وإن من حولكم من الأمصار والمدن إن أطاعوا كما أطعتم، وإن هم أبوا فلست لكم بوالٍ، ثم نزل[4].

وقد كتب إلى الأمصار الإسلامية فبايعت كلها، وممن كتب لهم يزيد بن المهلب يطلب إليه البيعة بعد أن أوضح له أنه في الخلافة ليس براغب، فدعا يزيد الناس إلى البيعة فبايعوا[5].

وبذلك يتضح أنه لم يكتف بمشورة من حوله، بل امتد الأمر إلى جميع أمصار المسلمين، ونستنتج من موقف عمر هذا ما يلي:

أ . أن عمر كشف النقاب عن عدم موافقة الأصول الشرعية في تولي معظم الخلفاء الأمويين.

([1]) أدب الدنيا والدين، للماوردي ، ص 189.

([2]) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز ، ص 283.

([3]) سيرة مناقب عمر بن عبد العزيز ، ص 56.

([4]) البداية والنهاية (657/12).

([5]) تاريخ الطبري؛ نقلاً عن النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر ، ص 285.

ب ـ حرص عمر على تطبيق الشورى في أمر يخصه هو، ألا وهو توليه الخلافة.

جـ أن من طبق مبدأ الشورى في أمر مثل تولي الخلافة حريٌّ بتطبيقه فيما سواه.

وكان عمر يستشير العلماء، ويطلب نصحهم في كثير من الأمور؛ أمثال: سالم بن عبد الله، ومحمد بن كعب القرطبي، ورجاء بن حيوة وغيرهم، فقال: إني قد ابتليت بهذا الأمر فأشيروا عليّ[1]. كما كان يستشير ذوي العقول الراجحة من الرجال[2] .

وقد حرص عمر على إصلاح بطانته لما تولى الخلافة، فقرب إلى مجلسه العلماء وأهل الصلاح، وأقصى عنه أهل المصالح الدنيوية والمنافع الخاصة، ولم يكتفِ ـ رحمه الله ـ بانتقاء بطانته، بل كان زيادة على ذلك يوصيهم ويحثهم على تقويمه، فقال لعمر بن مهاجر: إذا رأيتني قد ملت عن الحق فضع يدك في تلبابي ثم هزني، ثم قل: يا عمر ما تصنع[3] ؟! وقد كان لهذا المسلك أثر في تصحيح سياسته التجديدية ونجاحها، حيث كان لبطانته أثر في شد أزره، وسداد رأيه وصواب قراره[4]، فمن أسباب نجاح عمر بن عبد العزيز تقريبه لأهل العلم والصلاح وانشراح صدره لهم ومشاركتهم معه لتحمل المسؤولية، فنتج عن ذلك حصول الخير العميم للإسلام والمسلمين.

4 ـ العدل في دولة عمر بن عبد العزيز:

قال تعالى : {۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ } [سورة النحل:90] ، وأَمْرُ اللهِ بفعلٍ كما هو معلوم يقتضي وجوبه. قال تعالى: {۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥} [سورة النساء:135] ، وللعدل صورتان:

---

(1) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ، ص 16.

(2) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز ، ص 285.

(3) أثر العلماء في الحياة السياسية ، ص 175إلى 177.

(4) المصدر السابق نفسه ، ص 178.

صورة سلبية: بمنع الظلم وإزالته عن المظلوم، أي: بمنع انتهاك حقوق الناس المتعلقة بأنفسهم وأعراضهم وأموالهم، وإزالة اثار التعدي الذي يقع عليهم، وإعادة حقوقهم إليهم، ومعاقبة المعتدي عليها فيما يستوجب العقوبة[1] .

وصورة إيجابية: وتتعلق أكثر ما تتعلق بالدولة، وقيامها بحق أفراد الشعب في كفالة حرياتهم وحياتهم المعاشية، حتى لا يكون فيهم عاجز متروك، ولا ضعيف مهمل، ولا فقير بائس، ولا خائف مهدد، وهذه الأمور كلها من واجبات الحاكم في الإسلام[2] .

وقد قام أمير المؤمنين عمر بهذا الركن العظيم والمبدأ الخطير على أتم وجه، وكان يرى أن المسؤولية والسلطة هي القيام بحقوق الناس والخضوع لشروط بيعتهم، وتحقيق مصلحتهم المشروعة، فالخليفة أجير عند الأمة، وعليه أن ينفذ مطالبها العادلة حسب شروط البيعة[3] ، وقد أحب الاستزادة من فهم صفات الإمام العادل وما يجب أن يقوم به ليتصف بهذه الخصلة الفريدة الحميدة، فكتب إلى الحسن البصري يسأله في ذلك فأجابه الحسن: الإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده يسعى لهم صغاراً، ويعلمهم كباراً، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرّة الرفيقة بولدها، حملته كرهاً، ووضعته كرهاً، وربته طفلاً، تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتمّ بشكايته، والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصيّ اليتامى، وخازن المساكين؛ يربِّي صغيرهم، ويمون كبيرهم. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كقلب بين الجوانح، تصلح الجوانح بصلاحه، وتفسد بفساده. والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويُسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين، فيما ملَّكك الله كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله، فبدَّد، وشرَّد العيال، فأفقر أهله وفرَّق ماله [4] .

أ . سياسته في رد المظالم:

. أمير المؤمنين يبدأ بنفسه:

([1]) عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين ، عبد الستار الشيخ ، ص 222.

([2]) المصدر السابق نفسه؛ نظام الإسلام ، محمد المبارك ، ص 45 . 46.

([3]) عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء ، عبد الستار ، ص 223.

([4]) عمر بن عبد العزيز ، عبد الستار الشيخ ، ص 224.

تنفيذاً لما أراده عمر من رد المظالم مهما كانت صغيرةً أو كبيرةً بدأ بنفسه، روى ابن سعد: أنه لما رد عمر بن عبد العزيز المظالم، قال: إنه لينبغي أن أبدأ بأول من نفسي[1] . وهذا الفعل جعله قدوة للاخرين، فنظر إلى ما في يديه من أرض، أو متاع، فخرج منه حتى نظر إلى فص خاتم. فقال: هذا مما كان الوليد بن عبد الملك أعطانيه مما جاءه من أرض المغرب، فخرج منه[2] . وكان ذلك لإصراره على قطع كل شك بيقين، وحتى يطمئن إلى أن ما في يده لا شبهة فيه لظلم أو مظلمة حتى ولو كان ورثه، خصوصاً وأن القصص والحكايات كانت كثيرة يتناقلها الناس عن مظالم ارتكبت على عهد خلفاء بني أمية، وعمالهم وقد بلغ به حرصه على التثبت أنه نزع حلي سيفه من الفضة، وحلاه بالحديد، قال عبد العزيز بن عمر: كان سيف أبي محلى بفضة، فنزعها وحلاه حديداً [3] ، وكان خروجه مما بيده من أرض أو متاع بعدة طرق كالبيع، ذلك أنه حين استخلف نظر إلى ما كان له من عبد، وإلى لباسه وعطره وأشياء من الفضول، فباع كل ما كان به عنه غني، فبلغ ثلاثة وعشرين ألف دينار، فجعله في السبيل[4] .

أو عن طريق ردها إلى أصحابها الأصليين، وهذا ما فعله بالنسبة للقطائع التي أقطعه إياها قومه.

يروي ابن الجوزي عن إسماعيل بن أبي حكيم أنه قال: كنا عند عمر بن عبد العزيز حتى تفرق الناس ودخل إلى أهله للقائلة، فإذا منادٍ ينادي: الصلاة جامعة. قال: ففزعنا فزعاً شديداً مخافة أن يكون قد جاء فتق من وجه من الوجوه أو حدث. قال جويرية: وإنما كان أنه دعا مزاحماً فقال: يا مزاحم، إن هؤلاء القوم قد أعطونا عطايا والله ما كان لهم أن يعطوناها، وما كان لنا أن نقبلها، وإن ذلك قد صار إليَّ ليس علي فيه دون الله محاسب.

فقال له مزاحم: يا أمير المؤمنين، هل تدري كم ولدك؟ هم كذا وكذا، قال: فذرفت عيناه، فجعل يستدمع ويقول: أكِلهم إلى الله؟

قال: ثم انطلق مزاحم من وجهه ذلك حتى استأذن على عبد الملك، فأذن له. وقد اضطجع للقائه. فقال له عبد الملك: ما جاء بك يا مزاحم هذه الساعة؟ هل حدث حدث؟ قال: نعم، أشد الحدث عليك وعلى بني أبيك. قال: وما ذاك؟ قال: دعاني أمير المؤمنين. فذكر له ما قاله عمر. فقال عبد الملك: فما قلت له؟ قال: قلت له: يا أمير المؤمنين، تدري كم ولدك؟ هم كذا وكذا قال: فما قال لك؟ قال: جعل يستدمع ويقول: أكِلهم إلى الله تعالى. قال عبد الملك: بئس وزير الدين أنت يا مزاحم ! ثم وثب فانطلق إلى باب أبيه عمر، فاستأذن عليه، فقال له

([1]) الطبقات (341/5).

([2]) المصدر السابق نفسه (341/5 . 342).

([3]) المصدر السابق نفسه (355/5)؛ عمر وسياسته في رد المظالم ، ص 205.

([4]) المصدر السابق نفسه.

الاذن: أما ترحمونه ليس له من الليل والنهار إلا هذه الوقعة؟! قال عبد الملك: استأذن لي، لا أم لك. فسمع عمر الكلام، فقال: من هذا؟ قال: هذا عبد الملك. قال: ائذن له. فدخل عليه ـ وقد اضطجع عمر للقائلة ـ فقال: ما حاجتك يا بني هذه الساعة؟ قال: حديث حدثنيه مزاحم. قال: فأين وقع رأيك من ذلك؟ قال: وقع رأيي على إنفاذه. قال: فرفع عمر يديه. ثم قال: الحمد لله الذي جعل لي من ذريتي من يعينني على أمر ديني. نعم يا بني أصلي الظهر، ثم أصعد المنبر فأردها علانية على رؤوس الناس. فقال عبد الملك: يا أمير المؤمنين، ومن لك إن بقيت إلى الظهر أن تسلم لك نيتك إلى الظهر. قال عمر: قد تفرق الناس ورجعوا للقائلة، فقال عبد الملك: تأمر مناديك ينادي: الصلاة جامعة، فيجتمع الناس. فنادى المنادي: الصلاة جامعة. قال: فخرجت فأتيت المسجد فجاء عمر فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد، فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا، والله ما كان لهم أن يعطوناها وما كان لنا أن نقبلها. وإن ذلك قد صار إلي ليس علي فيه دون الله محاسب، ألا وإني قد رددتها، وبدأت بنفسي وأهل بيتي: اقرأ يا مزاحم.

قال: وقد جيء بسفط قبل ذلك، أو قال: جرنة فيها تلك الكتب. قال: فقرأ مزاحم كتاباً منها، فلما فرغ من قراءته ناوله عمر ـ وهو قاعد على المنبر وفي يده جلم ـ قال: فجعل يقصه بالجلم. واستأنف مزاحم كتاباً اخر ... فجعل يقرؤه، فلما فرغ منه دفعه إلى عمر فقصه، ثم استأنف كتاباً اخر... فما زال حتى نودي بصلاة الظهر[1] .

ومن بين ما ردَّه عمر مما كان في يده من القطائع جبل الورس باليمن، وقطائع باليمامة[2] ، إلى جانب فدك وخيبر[3]، والسويداء، فخرج منها جميعاً إلا السويداء، فقد قال عمر فيها: ما من شيء إلا وقد رددته في مال المسلمين إلا العين التي بالسويداء؛ فإني عمدت إلى أرض براح ليس فيها لأحد من المسلمين ضربة سوط، فعملتها من صلب عطائي الذي يجمع لي مع جماعة المسلمين، وقد جاءت غلتها مئتا دينار[4] .

وأما قرية فدك ـ التي تقع شمال المدينة ـ فقد كانت تغل في السنة عشرة الاف دينار تقريباً، فلما ولي عمر الخلافة سأل عنها وفحصها، فأخبر بما كان من أمرها في عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان...فكتب ـ بناء على ذلك ـ إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم كتاباً قال فيه: أما بعد فإني نظرت في أمر فدك وفحصت عنه،

([1]) سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص 107 ـ 108.

([2]) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم ، ص 207.

([3]) المصدر السابق نفسه.

([4]) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، ص 40.

فإذا هو لا يصلح لي، ورأيت أن أردها على ما كانت عليه في عهد رسول الله وأبي بكر وعمر وعثمان، وأترك ما حدث بعدهم، فإذا جاءك كتابي هذا فاقبضها وولِّها رجلاً يقوم فيها بالحق والسلام[1] .

وأما الكتيبة فهي حصن من حصون خيبر، وعندما تولى عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله على المدينة أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم يقول: افحص لي عن الكتيبة، أكانت من خمس رسول الله ﷺ من خيبر، أم كانت لرسول الله خاصة؟ قال أبو بكر: فسألت عمرة بنت عبد الرحمن فقالت: إن رسول الله ﷺ لما صالح بني أبي الحقيق جزأ النطاة والشق خمسة أجزاء، فكانت الكتيبة جزءاً منها، وأعادها عمر بن عبد العزيز إلى ما كانت إليه في عهد رسول الله[2] .

كما أرجع عمر للرجل المصري الذي أرضه بحلوان بعد أن عرف أن والده عبد العزيز قد ظلم المصري فيها، وحتى الدار التي كان والده عبد العزيز بن مروان قد اشتراها من الربيع بن خارجة الذي كان يتيماً في حجره، ردها عليه، لعلمه أنه لا يجوز اشتراء الولي ممن يلي أمره.

ثم التفت إلى المال الذي كان يأتيه من جبل الورس باليمن، فرده إلى بيت مال المسلمين رغم شدة حاجة أهله إلى هذا المال، لكنه كان يؤثر الحياة الآخرة على الحياة الدنيا، كما أمر عمر بن عبد العزيز مولاه مزاحماً بردِّ المال الذي كان يأتيه من البحرين كل عام إلى مال الله[3] .

وهكذا بدأ عمر بنفسه يضرب المثل ويكون الأسوة أمام رعيته حين رد من أملاكه كل ما شابته شائبة الظلم، أو الشك في خلاص حقه فيه، فرد كل ذلك إلى أصحابه، انطلاقاً من تمسكه بالزهد، وإيمانه بردِّ المظالم إلى أصحابها تقوىً لله، ووضعاً للحق في نصابه، وبعد أن انتهى من رد كل مال شك بأنه ليس له فيه حق؛ اتجه إلى زوجته فاطمة بنت عبد الملك . وكان لها جوهر . فقال لها عمر: من أين صار هذا المال إليك؟ قالت: أعطانيه أمير المؤمنين، قال: إما أن ترديه إلى بيت المال وإما أن تأذني لي في فراقك، فإني أكره أن أكون أنا وأنت وهو في بيت[4] ، وقد أوضح عمر لها سبب كرهه له بقوله: قد علمت حال هذا الجوهر وما صنع فيه أبوك، ومن أصابه، فهل لك أن أجعله في تابوت ثم أطبع عليه وأجعله في أقصى بيت مال المسلمين وأنفق ما دونه، وإن خلصت إليه

([1]) الطبقات (389/5)؛ عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم ، ص 208.

([2]) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم ، ص 209.

([3]) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم ، ص 212.

([4]) المصدر السابق نفسه؛ الطبقات (293/5).

أنفقته، وإن مت قبل ذلك فلعمري ليردنه إليك. قالت له: افعل ما شئت، وفعل ذلك. فمات ـ رحمه الله ـ ولم يصل إليه، فرد ذلك عليها أخوها يزيد بن عبد الملك، فامتنعت من أخذه، وقالت: ما كنت لأتركه ثم اخذه، وقسمه يزيد بين نسائه ونساء بنيه[1].

ـ رد مظالم بني أمية:

وإذا كان عمر قد بدأ بنفسه في رد المظالم؛ فقد ثنَّى في ذلك بأهل بيته وبني عمومته وبإخوته من أفراد البيت الأموي، وفور فراغه من دفن ابن عمه سليمان بن عبد الملك، فقد رأى ما أذهله؛ وهو: أن أبناء عمه من الأمويين أدخلوا الكثير من مظاهر السلطان التي لم تكن موجودة على عهد النبي ﷺ، أو خلفائه الراشدين، فأنفقوا الكثير من المال من أجل الظهور بمظاهر العظمة والأبهة أمام رعيتهم، ومن تلك المظاهر: المراكب الخلافية التي تتألف من براذين وخيول وبغال، ولكل دابة سائس، ومنها أيضاً تلك السرادقات والحجرات والفرش والوطاءات التي تعد من أجل الخليفة الجديد، وفوجأى بتلك الثياب الجديدة وقارورات العطر والدهن التي أصبحت له بحجة أن الخليفة الراحل لم يصبها؛ فهي من حقه بصفته الخليفة الجديد، وهذا كله إسراف وتبذير لا مبرر له يتحمله بيت مال المسلمين، وهو بأمسِّ الحاجة لكل درهم فيه لينفق في وجهه الصحيح الذي بينه الله ورسوله، وهنا أمر مولاه مزاحماً فور تقديم هذه الزينة له ببيعها، وضم ثمنها إلى بيت مال المسلمين[2] .

ولقد كانت لعمر بن عبد العزيز سياسة محددة في رد المظالم من أفراد البيت الأموي تكون لديه خطوطها فور تسلمه زمام الخلافة، حين وفد عليه أفراد البيت الأموي عقب انصرافه من دفن سليمان يسألونه ما عودهم الخلفاء الأمويون من قبله، وحين أراد عبد الملك أن يرد أفراد البيت الأموي عن أبيه كشف له أبوه عن سياسته تلك حين قال له: وما تبلغهم؟ قال: أقول: أبي يقرئكم السلام ويقول لكم: {قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ۝١٣} [سورة الزمر:13]. ثم أوضحها له مرة أخرى حين جاءه يطالبه بالإسراع باستخلاص بأيدي الأمويين من مظالم، فقال: يا بني، إن قومك قد شدوا هذا الأمر عقدة عقدة، وعروة عروة، ومتى ما أريد مكايدتهم على انتزاع ما في أيديهم لم امن أن يفتقوا عليّ فتقاً تكثر فيه الدماء، والله لزوال الدنيا أهون عليَّ من أن يهراق في سببي محجمة من دم، أو ما ترضى أن لا يأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميت فيه بدعة ويحيي فيه سنة حتى

([1]) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، ص 52 ، 53.
([2]) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم ، ص 213.

يحكم الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الحاكمين[1]؟! ثم زاد في توضيح سياسته تلك حينما قال له ولده عبد الملك: ما يمنعك أن تمضي الذي تريد؟ فوالذي نفسي بيده ما أبالي لو غلت بك وبي القدور، قال: وحق هذا منك، قال: نعم والله ! قال عمر: الحمد لله الذي جعل من ذريتي من يعينني على أمر ديني، إني لو باهتُّ الناس بالذي تقول لم امن أن ينكروها، فإذا أنكروها لم أجد بداً من السيف، ولا خير في خير لا يجيء إلا بالسيف، يا بني ! إني أروض الناس رياضة صعبة، فإن بطأ بي عمر أرجو أن ينفذ الله مشيئتي وأن تعدو منيتي، فقد علم الله الذي أريده[2] .

وهكذا يتبع عمر أسلوب الحكمة والحسنى في تنفيذ سياسته، وتطبيقاً لهذه السياسة فإنه قد مهَّد لهذه الخطوة الحاسمة، والخطيرة بخطوات تسبقها خروجه هو أولاً مما بيده من مظالم، وردّها إلى أصحابها، أو بيت المال، ثم اتجه إلى أبناء البيت الأموي، فجمعهم وطلب إليهم أن يخرجوا مما بأيدهم من أموال وإقطاعات أخذوها بغير حق[3] .

وشهدت الأيام الأولى من خلافة عمر تجريداً واسع النطاق لكثير من أموال وأملاك بني أمية، ظلت تنمو في الماضي وتتضخم لكونهم العائلة الحاكمة ليس إلا.. وها هي الان ترد إلى بيت مال المسلمين لكي يأخذ العدل مجراه، وتعود أموال المسلمين إلى المسلمين، لا يستأثر بها أحد دون أحد، ولا حزب دون حزب.. أموال وأملاك من شتى الصنوف والأنواع، جمعت بمختلف الطرق وسائر الأساليب؛ جرَّد عمر بني أمية منها ومزق مستنداتها واحدة واحدة، وردها إلى مكانها الصحيح: مظالم وجوائز وهدايا ومخصصات استثنائية وضياع وقطاع، جمعت كلها على شكل ممتلكات ثابتة ونقود سائلة بلغت في تقدير عمر شطراً كبيراً من أموال الأمة جاوزت النصف[4] .

ولا تمضي سوى أيام معدودات حتى يجد بنو أمية أنفسهم مجردين إلا من حقهم الطبيعي المشروع، فيضجون ضد سياسة عمر هذه ويعلنون معارضتهم الصارمة لها، فماذا يكون جواب عمر ؟ انظروا: والله لوددت أن ألا تبقى في الأرض مظلمة إلا ورددتها على شرط ألا أرد مظلمة إلا سقط لها عضو من أعضائي أجد ألمه ثم يعود كما كان حياً، فإذا لم يبق مظلمة إلا رددتها سألت نفسي عندها[5] ، ولكن بني أمية لم ييأسوا من هذا الحزم والعزم إزاء حقوق الأمة، وهم الذين ما خطر ببالهم يوماً أن يجردوا هذا التجريد، فاجتمعوا وطلبوا من أحد أولاد الوليد. وكان

---

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، ص 260 ـ 263.

(2) المصدر السابق نفسه ، ص 262 ـ 263.

(3) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم ، ص 215.

(4) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، ص 115.

(5) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، ص 147 ـ 151.

كبيرهم ونصيحهم ـ أن يكتب إلى عمر، فكتب إليه: أما بعد، فإنك أنسيت ممن كان قبلك من الخلفاء، وسرت بغير سيرتهم، وسميتها المظالم نقصاً لهم لأعمالهم، وشاتماً لمن كان بعدهم من أولادهم، ولم يكن ذلك لك، فقطعت ما أمر الله أن يوصل، وعملت بغير الحق في قرابتك، وعمدت إلى أموال قريش ومواريثهم وحقوقهم فأدخلتهم بيت مالك ظلماً وجوراً وعدواناً، فاتق الله يابن عبد العزيز وأرجعه، فإنك قد أوشكت لم تطمئن على منبرك إن خصصت ذوي قربتك بالقطيعة والظلم، فوالله الذي خص محمداً ﷺ بما خصه من الكرامة لقد ازددت من الله بعداً في ولايتك هذه التي تزعم أنها بلاء عليك، وهي كذلك، فاقتصد في بعض ميلك وتحاشيك[1] .

ويظهر في هذا الكتاب مآخذ الأمويين على سياسة عمر؛ وهي:

ـ خالف سيرة من قبله من الخلفاء وأزرى بهم وعاب أعمالهم.

ـ أساء إلى أولاد من قبله من الخلفاء.

ـ لم يكن عمله منسجماً مع الحق.

ـ إن قطيعة أهل بيته يهدد مكانه من الخلافة.

ولا ريب أن سياسة عمر بن عبد العزيز تهدد مكانة الأسرة الأموية وتضعف مراكز قوتها، وقد تؤدي إلى دفعها لاتخاذ مواقف مهددة للخليفة القائم، وفي هذا خطر كبير عليه وعلى الخلافة[2]، وكان رد عمر حمماً من نار الحق تتفجر في كل كلمة فيها: .. ويلك وويل أبيك ما أكثر طلابكما وخصمائكما يوم القيامة !!. رويدك فإنه لو طالت بي حياة، وردَّ الله الحق إلى أهله، تفرغت لك ولأهل بيتك، فأقمت على المحجة البيضاء، فطالما تركتم الحق وراءكم[3].

ـ بنو أمية يلجؤون إلى أسلوب الحوار الهادئ:

وما أن يئس بنو أمية أمام صمود عمر إزاء معارضتهم الجماعية الشديدة هذه، لجؤوا إلى أسلوب الحوار الهادأى، علَّهم يصلون عن طريقه إلى ما يشتهون، فيتكلمون معه يوماً مستثيرين فيه نزعة القربى وعاطفة الرحم، فيجيبهم:

---

(1) المصدر السابق نفسه، ص 126 ـ 127؛ عمر بن عبد العزيز ، صالح العلي ، ص 194.

(2) عمر بن عبد العزيز ، صالح العلي ، ص 195.

(3) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، ص 147 ـ 151.

أن يتسع مالي لكم، وأما هذا المال ـ أي المال العام ـ فحقكم فيه كحق أي رجل من المسلمين. والله أني لا أرى أن الأمور لو استحالت حتى يصبح أهل الأرض يرون مثل رأيكم لنزلت بهم بائقة من عذاب الله[1] .

ودخل عليه هشام بن عبد الملك يوماً فقال: يا أمير المؤمنين ! إني رسول قومك إليك، وإن في أنفسهم ما جئت لأعلمك به: إنهم يقولون: استأنف العمل برأيك فيما تحت يدك، وخلِّ بين من سبقك وبين ما ولوا بما عليهم ولهم، وببديهة يجيب عمر: أرأيت إن أتيت بسجلين: أحدهما من معاوية، والاخر من عبد الملك؛ فبأي السجلين اخذ؟ قال هشام: بالأقدم. فأجاب عمر: فإني وجدت كتاب الله الأقدم، فأنا حامل عليه من أتاني ممن تحت يدي وفيما سبقني[2] .

ـ بنو أمية يرسلون عمة عمر بن عبد العزيز:

فعندما عجز الرجال من بني أمية عن جعل عمر يخاف أو يلين عن سياسته إزاءهم، لجؤوا إلى عمته فاطمة بنت مروان، وكانت عمته هذه لا تحجب عن الخلفاء، ولا يرد لها طلب أو حاجة، وكانوا يكرمونها ويعظمونها، وكذلك كان عمر يفعل معها قبل استخلافه، فلما دخلت عليه عظمها وأكرمها كعادته، وألقى لها وسادة لتجلس عليها. فقالت: إن قرابتك يشكونك ويذكرونك أنك أخذت منهم خير غيرك، قال: ما منعتهم حقاً أو شيئاً كان لهم، ولا أخذت منهم حقاً أو شيئاً كان لهم، فقالت: إني رأيتهم يتكلمون، وإني أخاف أن يهيجوا عليك يوماً عصيباً. فقال: كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا وقاني الله شره. قال: فدعا بدينار، وجنب، ومجمرة، فألقى ذلك الدينار بالنار، وجعل ينفخ على الدينار وإذا احمر تناوله بشيء، فألقاه على الجمر فنشى وقتر، فقال: أي عمه أما ترثين لابن أخيك من هذا[3] ؟ وتؤخذ العمة بهذا المشهد المؤثر، وتلتفت إلى عمر طالبة منه أن يستمر في الكلام، واسمعوه يقول وكأنه يرسم لوحة فنية رائعة للعدالة الاجتماعية التي جاء بها الإسلام لكي يجعلها تفجر الخير والنعيم على الجميع، قال: إن الله بعث محمداً ﷺ رحمة ولم يبعثه عذاباً إلى الناس كافة، ثم اختار له ما عنده وترك للناس نهراً شربهم فيه سواء، ثم ولي أبو بكر وترك النهر على حاله، ثم ولي عمر فعمل عملهما، ثم لم يزل النهر يستقي

([1]) سيرة عمر ، لابن الجوزي ، ص 114 . 115.

([2]) المصدر السابق نفسه، ص 118 . 119؛ ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز ، د. عماد الدين خليل ، ص 117 ، 118.

([3]) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، ص 117.

منه يزيد ومروان وعبد الملك وابنه الوليد وسليمان أبناء عبد الملك، حتى أفضى الأمر إليَّ وقد يبس النهر الأعظم، فلم يروِ أصحابه حتى يعود إلى ما كان عليه، فقالت: حسبك، قد أردت كلامك، فأما إذا كانت مقالتك هذه فلا أذكر شيئاً أبداً. فرجعت إليهم فأخبرتهم كلامه[1] ، وجاء في رواية: إنها قالت لهم: .. أنتم فعلتم هذا بأنفسكم، تزوجتم بأولاد عمر بن الخطاب فجاء يشبه جده. فسكتوا[2] .

. تلاشي المعارضة الجماعية لبني أمية:

وسرعان ما تلاشت السمة الجماعية لمعارضة بني أمية بعد ما رأوا من جد عمر إزاء أموال الأمة، وقالوا: ليس بعد هذا شيء[3] . ومن ثم أخذ كل منهم يسعى على انفراد ليسترد ما يستطيع استرداده من الأموال، ولكن عمر الذي وقف تجاه رغباتهم مجتمعين، أحرى به الان أن يتصدى لكل واحد منهم على انفراد ويعلمه أنّ حق الأمة لا يمكن أن يكون موضع مساومة في يوم من الأيام [4] .

أ . رد الحقوق لأصحابها:

لم يقف عمر عند حد استرداد الأموال من بني أمية وردها إلى بيت المال، بل يخطو خطوة أخرى، ويعلن لأبناء الأمة الإسلامية أن كل من له حق على أمير أو جماعة من بني أمية أو لحقته منهم مظلمة، فليتقدم بالبينة لكي يرد عليه حقه.. وتقدم عدد من الناس بظلامتهم وبيّناتهم، وراح عمر يردها واحدة بعد الأخرى: أراضٍ ومزارع وأموال وممتلكات[5] . ومرة بعث إليه واليه على البصرة برجل اغتصبت أرضه، فرد عمر هذه الأرض إليه، ثم قال له: كم أنفقت في مجيئك إلي؟ قال: يا أمير المؤمنين ! تسألني عن نفقتي وأنت قد رددت علي أرضي وهي خير من مئة ألف؟ فأجابه عمر: إنما رددت عليك حقك، ثم ما لبث أن أمر له بستين درهماً كتعويض له عن نفقات سفره[6].

([1]) الكامل في التاريخ (270/3).

([2]) المصدر السابق نفسه (271/3).

([3]) عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، ص 58 ، 59؛ ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز ، ص 119

([4]) ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر ، ص 119.

([5]) المصدر السابق نفسه، ص 120.

([6]) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، ص 146 ، 147.

وقد قال ابن موسى: ما زال عمر بن عبد العزيز يردّ المظالم منذ يوم استخلف إلى يوم مات[1]، وذات يوم قدم عليه نفر من المسلمين وخاصموا روح بن الوليد بن عبد الملك في حوانيت[2] ، قد قامت لهم البينة عليه، فأمر عمر روحاً برد الحوانيت إليهم، ولم يلتفت لسجل الوليد، فقام روح فتوعدهم، فرجع رجل منهم وأخبر عمر بذلك، فأمر عمر صاحب حرسه أن يتبع روحاً فإن لم يرد الحوانيت إلى أصحابها فليضرب عنقه، فخاف روح على نفسه وردّ إليهم حوانيتهم[3] .

وردّ عمر أرضاً كان قوم من الأعراب أحيوها، ثم انتزعها منهم الوليد بن عبد الملك فأعطاها بعض أهله، فقال عمر: قال رسول الله ﷺ: «.. من أحيا أرضاً ميتة فهي له»[4] ، ولقد أحبّ ال البيت وأعاد إليهم حقوقهم، وقال مرة لفاطمة بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنهما: يا بنت علي ! والله ما على ظهر الأرض أهل بيت أحبّ إليَّ منكم، ولأنتم أحب إليَّ من أهل بيتي[5] .

ب . عزله جميع الولاة والحكام الظالمين:

لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة، عمد إلى جميع الولاة والحكام المسؤولين الظالمين فعزلهم عن مناصبهم، ومنهم: خالد بن الريان، وصاحب حرس سليمان بن عبد الملك الذي كان يضرب كل عنق أمره سليمان بضربها، وعين محله عمرو بن مهاجر الأنصاري، فقال عمر بن عبد العزيز: يا خالد ! ضع هذا السيف عنك، اللهم إني قد وضعت لك خالد بن الريان اللهم لا ترفعه أبداً، ثم قال لعمرو بن مهاجر: والله ! إنك لتعلم يا عمرو، إنه ما بيني وبينك قرابة إلا قرابة الإسلام، ولكني سمعتك تكثر تلاوة القران، ورأيتك تصلي في موضع تظن ألا يراك أحد، فرأيتك حسن الصلاة، خذ هذا السيف قد وليتك حرسي[6] .

وهكذا يعزل عمر الظالمين وهذا أسلوبه في اختيار الولاة والقضاة والكتاب وغيرهم، إنه يبحث عن أصلح الناس ديناً وأمانة، ولما انتقد أحد ولاته الذين اختارهم نكت بين عينيه بالخيزرانة في سجدته وقال: هذه غرتني منك.

([1]) الطبقات ، لابن سعد (341/5).

([2]) الحوانيت: جمع حانوت ، وهو محل التجارة.

([3]) سيرة عمر ، لابن عبد الحكم ، ص 60.

([4]) صحيح الجامع ، للألباني ، رقم (2766).

([5]) سيرة ومناقب عمر ، لابن الجوزي ، ص 131؛ السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز ، ص 45.

([6]) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، ص 50.

يريد سجدته أي: أثر السجود في وجهه، فهذه علامة من علامات صلاح الرجل، وهي دليل على كثرة السجود، ومن أجل ذلك اختاره عمر بن عبد العزيز، وعمر لا يكتفي بمظهر الرجل ولكنه يختبره أيضاً، قد رأى رجلاً كثير الصلاة، وأراد أن يمتحنه ليوليه، فأرسل إليه رجلاً من خاصته فقال:

يا فلان ! إنك تعلم مقامي عند أمير المؤمنين، فما لي لو جعلته يوليك على أحد البلدان؟ فقال الرجل: لك عطاء سنة، فرجع الرجل إلى عمر وأخبره بما كان من هذا الرجل، فتركه لأنه سقط في الاختبار[1] .

وكان من ضمن من عزلهم عمر بن عبد العزيز: أسامة بن زيد التنوخي، وكان على خراج مصر، لأنه كان غاشماً ظلوماً يعتدي في العقوبات بغير ما أنزل الله عز وجل، يقطع الأيدي في خلاف ـ دون تحقق شروط القطع ـ فأمر به عمر بن عبد العزيز أن يحبس في كل جُنُد[2] سنة، ويقيد ويحل عنه القيد عند كل صلاة، ثم يرد في القيد، فحبس بمصر سنة، ثم فلسطين سنة، ثم مات عمر وولي يزيد بن عبد الملك الخلافة فردّ أسامة على مصر في عمله[3] .

وكتب عمر بن عبد العزيز بعزل يزيد بن أبي مسلم عن إفريقية وكان عامل سوء يظهر التأله والنفاد لما أمر به السلطان مما جل أو صغر من السيرة بالجور، والمخالفة للحق، وكان في هذا يكثر التسبيح والذكر، ويأمر بالقوم فيكونون بين يديه يعذبون، وهو يقول: سبحان الله والحمد لله شد يا غلام موضع كذا وكذا، لبعض مواضع العذاب، وهو يقول: لا إله إلا الله والله أكبر، شد يا غلام شد موضع كذا وكذا، فكانت حالته تلك شر الحالات، فكتب عمر بعزله[4] ، وهكذا استمر عمر في عزل الولاة الظلمة وتعيين الصالحين، وسيأتي الحديث عن فقه عمر في تعامله مع الولاة في محله بإذن الله تعالى.

جـ رفع المظالم عن الموالي:

تعرض الموالي قبل عمر بن عبد العزيز للمظالم، فقد فرضت الجزية على من أسلم منهم، كما منعوا من الهجرة، مثلما حدث للموالي في العراق ومصر وخراسان، وفي عهد عبد الملك أوقع الحجّاج بالموالي ظلماً عظيماً، فقد

([1]) فقه عمر بن عبد العزيز ، د.محمد شقير(91/1).

([2]) الجند: المدينة ، وقيل: مدن الشام.

([3]) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، ص 32.

([4]) المصدر السابق نفسه ، ص 32 ـ 33.

عمل على إبقاء الجزية على من أسلم منهم، وحرمهم من الهجرة من قراهم، وهذا ما دفعهم للاشتراك في ثورة ابن الأشعث ضد الحجّاج، كما وقع الظلم على الموالي في مصر وخراسان.

فلما تولى عمر بن عبد العزيز أزال تلك المظالم التي لحقت بهؤلاء الموالي وكتب إلى عماله يقول: فمن أسلم من نصراني أو يهودي أو مجوسي من أهل الجزيرة اليوم فخالط المسلمين في دارهم، وفارق داره التي كان بها، فإن له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وعليهم أن يخالطوه، وأن يواسوه غير أرضه وداره، إنما هي من فيء الله على المسلمين عامة، ولو كانوا أسلموا عليها قبل أن يفتح الله للمسلمين كانت لهم، ولكنها فيء الله على المسلمين عامة[1] .

وكتب إلى عامله على مصر حيان بن شريح ـ يقول: وأن تضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة، فإن الله تبارك وتعالى قال: { فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥} [سورة التوبة:5]، وقال: {قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ۝٢٩} [سورة التوبة:29] . إلا أن هذا العامل أرسل إلى عمر يقول: أما بعد ، فإن الإسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن نابتة عشرون ألف دينار أتممتها عطاء أهل الديوان، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل[2] . وجاء رد عمر: أما بعد، فقد بلغني كتابك وقد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك، وقد أمرت رسولي يضربك على رأسك عشرين سوطاً، فضع الجزية عن من أسلم ـ قبح الله رأيك ـ فإن الله إنما بعث محمداً ﷺ هادياً ولم يبعثه جابياً، ولعمري ولعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على دينه[3]. وفي رواية ابن سعد: أما بعد، فإن الله بعث محمداً داعياً ولم يبعثه جابياً، فإذا أتاك كتابي هذا فإن كان أهل الذمة أسرعوا في الإسلام وكسروا الجزية فاطوِ كتابك وأقبل[4].

ولم يكن عامل عمر على مصر هو الوحيد الذي طلب من عمر السماح له في أخذ الجزية ممن أسلم، فها هو عامله على الكوفة ـ عبد الحميد بن عبد الرحمن ـ يسأله أخذ الجزية المتراكمة على اليهود والنصارى والمجوس الذين أسلموا، فجاءه رد عمر الواضح أيضاً يقول: كتبت إلي تسألني عن أناس من أهل الحيرة يسلمون من اليهود

([1]) المصدر السابق نفسه، ص 78 ـ 79.

([2]) الخطط ، للمقريزي (78/1)؛ عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم ، ص 233.

([3]) المصدر السابق نفسه.

([4]) الطبقات (384/5).

والنصارى والمجوس وعليهم جزية عظيمة، وتستأذنني في أخذ الجزية منهم، وإن الله جل ثناؤه بعث محمداً ﷺ داعياً إلى الإسلام ولم يبعثه جابياً، فمن أسلم من أهل تلك الملل فعليه في ماله الصدقة ولا جزية عليه، وميراثه ذوي رحمه إذا كان منهم يتوارثون أهل الإسلام، وإن لم يكن له وارث فميراثه في بيت مال المسلمين الذي يقسم بين المسلمين، وما أحدث من حدث ففي مال الله الذي يقسم بين المسلمين يعقل عنه منه والسلام[1] .

كما كتب إليه عامله على البصرة ـ عدي بن أرطأة ـ يقول: أما بعد، فإن الناس كثروا في الإسلام، وخفت أن يقل الخراج. فكتب إليه عمر: فهمت كتابك، والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا[2] .

هذا إلى جانب إبطاله لمظلمة المنع من الهجرة التي أوقعها الحجّاج بالموالي في العراق، وهكذا أبطل عمر تلك المظالم التي أصابت الموالي، فترتب على ذلك أن أعاد إليهم حقوقهم المسلوبة والهدوء والطمأنينة إلى نفوسهم، وباتوا ينعمون بالمساواة والعدل مع غيرهم من أبناء الأمة الإسلامية[3] .

د ـ رفع المظالم عن أهل الذمة:

زاد عبد الملك في عهده الجزية على أهل قبرص وكان معاوية بن أبي سفيان غزا قبرص بنفسه، وصالحهم صلحاً دائماً على سبعة الاف دينار وعلى النصيحة للمسلمين، وإنذارهم عدوهم من الروم، ولم يزل أهل قبرص على صلح معاوية حتى ولي عبد الملك بن مروان، فزاد عليهم ألف دينار، فجرى ذلك إلى عهد عمر بن عبد العزيز فحطها عنهم[4] ، كما أصابت الزيادة فيما يجبى من جزية أهل الذمة في العراق، وقد وضعها عنهم عمر بن عبد العزيز كسياسة عامة التزم بها في أن يرفع المظالم عن أهل الذمة حتى يدعهم ينعمون بحياتهم في ظل الشرائع الإسلامية السمحة، ويؤيد ذلك ما جاء في كتابه إلى عامله على البصرة ـ عدي بن أرطأة: أما بعد، فإن الله سبحانه إنما أمر أن تؤخذ الجزية ممن رغب عن الإسلام واختار الكفر عتياً[5] ، وخسراناً مبيناً، فضع الجزية على من أطاق حملها، وخلِّ بينهم وبين عمارة الأرض، فإن في ذلك صلاحاً لمعاش المسلمين، وقوة على عدوهم، وانظر من قبلك من أهل الذمة ممن قد كبرت سنه، وضعفت قوته، وولت عنه المكاسب، فأجرِ عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه.

([1]) الخراج ، لأبي يوسف ص 142؛ عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم ، ص 234.

([2]) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، ص 99 ـ 100.

([3]) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم ، ص 234.

([4]) فتوح البلدان ، ص 159؛ عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم ، ص 240.

([5]) عتياً: العاتي المجاوز للحد في الاستكبار.

فلو أن رجلاً من المسلمين كان له مملوك كبرت سنه وضعفت قوته وولت عنه المكاسب؛ كان من الحق عليه أن يقوته حتى يفرق بينهما موت أو عتق، وذلك أنه بلغني أن أمير المؤمنين عمر مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس فقال: ما أنصفناك، إن كنا أخذنا منك الجزية في شبيبتك، ثم ضيعناك في كبرك ! قال: ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه[1] .

كما بلغت سياسة عمر بن عبد العزيز في وضع المظالم عن الناس ومساعدتهم أيضاً حين كتب إلى عامله على الكوفة يقول: انظر من كانت عليه جزية فضعف عن أرضه فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه، فإنا لا نريدهم لعام ولا لعامين[2].

وقد أمر عمر ولاته بالأخذ بالرحمة والرأفة بالناس، فقد منع تعذيب أهل البصرة وغيرهم لاستخراج الخراج منهم، وعندما أرسل إليه عامله على البصرة عدي بن أرطأة يقول: إن أناساً قبلنا لا يؤدون ما عليهم من الخراج حتى يمسهم شيء من العذاب، فكتب إليه عمر: أما بعد، فالعجب كل العجب من استئذانك إياي في عذاب البشر؛ كأني جنة لك من عذاب الله، وكأن رضاي ينجيك من سخط الله، وإذا أتاك كتابي هذا فمن أعطاك فاقبله عفواً وإلا فأحلفه، فوالله لأن يلقوا الله بخياناتهم أحب إليَّ من أن ألقاه بعذابهم. والسلام[3] .

ومما أصاب أهل الذمة من المظالم قبل عهد عمر بن عبد العزيز سبي بنات ونساء من لواتة بشمال إفريقية، ولكن عمر رد هذه المظلمة؛ يذكر أبو عبيد: أن عمر بن عبد العزيز كتب في اللواتيات: من أرسل منهن شيئاً فليس من ثمنها شيء وهو ثمن مرجها الذي استحلها به ـ أو كلمة تشبه الثمن ـ قال: ومن كانت عنده امرأة منهن فليخطبها إلى أبيها، وإلا فليردها إلى أهلها، قال أبو عبيد: قوله: اللواتيات ؛ هن من لواتة: فرقة من البربر، يقال لهم: لواتة، أراه قد كان لهن عهد، وهم الذين كان ابن شهاب يحدث: أن عثمان أخذ الجزية من البربر، ثم أحدثوا بعد ذلك فسبوا. فكتب عمر بن عبد العزيز بما كتب به[4] .

كما أرجع عمر بن عبد العزيز إلى أهل الذمة كل أرض أو كنيسة أو بيت اغتصب منهم[5] ، ومما رفعه عمر عن أهل الذمة من المظالم السخرة التي كانت على أساس أنه يحل للمسلمين أن يسخروا أهل الذمة لمصالحهم الشخصية

---

(1) الأموال ، لأبي عبيد ، ص 57.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 320؛ عمر وسياسته في رد المظالم ، ص 241.

(3) الخراج ، لأبي يوسف ، ص 129.

(4) فتوح البلدان ، ص 226 . 227.

(5) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم ، ص 245.

طالما أن هذا غير موجود في صلحهم[1] . فكتب إلى عماله يقول: ... ونرى أن توضع السخر عن أهل الأرض، فإن غايتها أمر يدخل فيه الظلم[2] .

وهكذا رد عمر بن عبد العزيز ما أصاب أهل الذمة من مظالم، فترتب على ذلك أن أعاد السكينة، والطمأنينة والهدوء إليهم، وأوضح لهم أن بإمكانهم أن يعيشوا في ظل الإسلام امنين مطمئنين تشملهم سماحة الدين ويظلهم عدله، وتستقيم أمورهم وشؤونهم في كنفه، لا يضارون ولا يستضعفون ولا يستعبدون، لهم حقوقهم المعلومة وعليهم واجباتهم المحددة ضمنها لهم الشارع الحكيم، وما تأسس من أحكام كتاب الله وسنة رسوله الكريم [3] .

هـ إقامة العدل لأهل سمرقند:

لما وصل خبر تولية عمر بن عبد العزيز الخلافة إلى سكان ما وراء النهر، اجتمع أهل سمرقند وقالوا لسليمان بن أبي السّري: إن قتيبة غدر بنا، وظلمنا وأخذ بلادنا، وقد أظهر الله العدل والإنصاف، فأذن لنا فليفد منا وفد إلى أمير المؤمنين، يشكو ظلامتنا، فإن كان لنا حق أعطيناه، فإن بنا إلى ذلك حاجة. فأذن لهم سليمان، فوجهوا منهم قوماً فقدموا على عمر، فكتب لهم عمر إلى سليمان بن السري: إن أهل سمرقند، قد شكوا إليَّ ظلماً أصابهم، وتحاملاً من قتيبة عليهم؛ أخرجهم من أرضهم، فإذا أتاك كتابي، فأجلس لهم القاضي فلينظر في أمرهم، فإن قضى لهم فأخرجهم[4] إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن يظهر عليهم قتيبة.

فأجلس سليمان جُمَيْعَ بن حاضر القاضي، فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء، فيكون صلحاً جديداً أو ظفراً عنوة، فقال أهل الصُّغد[5]: بل نرضى بما كان ولا نجدِّد حرباً، وتراضوا بذلك، فقال أهل الرأي: قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم، وأمنونا وأمنّاهم، فإن حكم لنا عدْنا إلى الحرب ولا ندري لمن يكون الظفر، وإن لم يكن لنا اجتلبنا عداوة في المنازعة، فتركوا الأمر على ما كان ورضوا ولم ينازعوا[6] .

([1]) المصدر السابق نفسه.

([2]) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، ص 83.

([3]) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم ، ص 248.

([4]) يعني: المسلمين الغزاة.

([5]) الصُّغد: قوم يسكنون بعض بلاد ما وراء النهر.

([6]) تاريخ الطبري (472/7).

أية دولة في القرن العشرين تحني رأسها هكذا للعدل كي يأخذ مجراه، وللحق كي يعود إلى أصحابه؟! وأي حاكم في تاريخ الشعوب التي لم تعرف الله، استجاب، هكذا، لنداءات المظلومين الذين سلبت حقوقهم، كهذه الاستجابة السريعة الحاسمة من عمر بن عبد العزيز؟! ألا إنه المسؤول الذي نذر نفسه للدفاع عن قيم الحق والعدل في أقطار الأرض، فبدونهما تفقد شريعة الله مقوماتها وأهدافها العليا[1] . فهذا مثل رفيع من عدل عمر، وإننا لنلاحظ في هذا الخبر عدة أمور:

. أن الناس يقبلون على التظلم والشكوى والمطالبة بالحقوق حينما يكون الحكام عادلين، لأنهم يعلمون أن دعواهم ستؤخذ مأخذ الجد وسينظر فيها بعدل، فهؤلاء المتظلمون قد سكتوا على ما هم فيه من الشعور بالظلم طيلة ولاية الوليد وسليمان، فلما رأوا عدل عمر بن عبد العزيز رفعوا قضيتهم.

. أن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لم يهمل قضيتهم، وإنما أحالها إلى القضاء الشرعي، وهذا مثل من الخضوع للإسلام والتجرد من هوى النفس، وكان باستطاعته أن يعمل كما يعمل كثير من المسؤولين، من إرسال خطابات الوعيد والتهديد والبحث عن رؤوس القوم وإجراء العقوبات المناسبة عليهم، ولكنه قد نذر نفسه لرفع المظالم وإقرار العدالة، وذلك لا يكون إلا بحكم الشرع والتحاكم إليه.

. أن أولئك القوم قد أسقط في أيديهم لما اطلعوا على كتاب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، ورأى أهل الرأي منهم أنهم خاسرون في كلا الحالين، سواء حكم لهم أو عليهم، وأن مصلحتهم في بقائهم على ما هم عليه، وبهذا زال تظلمهم وشعروا بعدالة الحكم الإسلامي[2] .

و . الاكتفاء باليسير من البينات في رد المظالم:

نظراً لمعرفة عمر بن عبد العزيز بغشم الولاة قبله وظلمهم للناس حتى أصبحت المظالم كأنها شيء مألوف، فإنه لم يكلف المظلوم بتحقيق البينة القاطعة على مظلمته، وإنما يكتفي باليسير من البينة، فإذا عرف وجه مظلمة الرجل ردها إليه دون أن يكلفه تحقيق البينة، فقد روى ابن عبد الحكم وقال: قال أبو الزناد: كان عمر بن عبد العزيز يرد المظالم إلى أهلها بغير البينة القاطعة، وكان يكتفي باليسير، إذ عرف وجه مظلمة الرجل ردها عليه، ولم يكلفه تحقيق

---

(1) ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز ، ص 68 .

(2) التاريخ الإسلامي (62/1516).

البينة، لما يعرف من غشم الولاة قبله على الناس، ولقد أنفذ بيت مال العراق في رد المظالم حتى حُمل إليه من الشام[1] .

فما أحسن ما فعله عمر بن عبد العزيز وما أحسن التيسير على الناس قدر المستطاع لأن فيه اختصاراً للوقت وتوفيراً للجهود[2] ، كما أن هذا العمل نستنبط منه قاعدة هامة في التفريق بين أصول التحقيق في القضاء العادي وبين أصول التحقيق في القضاء الإداري، وضعها عمر بن عبد العزيز، فالبينة القاطعة قد تستحيل إقامتها، وجمع عناصرها، فإذا كان الظلم واضحاً، اكتفى قاضي المظالم بالبينة اليسيرة[3] .

ز . وضع المكس[4] :

لما كان المكس من الظلم والبخس، لأنه جباية أو ضريبة تؤخذ من الناس بغير وجه شرعي، ولما كانت الزكاة على المسلم والجزية والعشور والخراج على الذمي كافية عما سواها، فقد نهى عمر عن المكس وشدد في ذلك ومنعه كما يأتي: عن محمد بن قيس قال: لما ولي عمر بن عبد العزيز وضع المكس عن كل أرض، ووضع الجزية عن كل مسلم[5] ، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطأة: أن ضع عن الناس...

والمكس، ولعمري ما هو بالمكس ولكنه البخس الذي قال الله فيه: . فمن أدى زكاة ماله فاقبل {وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿١٨٣﴾} ، ومن لم يأت فالله حسيبه[6] . وكتب إلى عامله عبد الله بن عوف على فلسطين: أن اركب إلى البيت الذي يقال له: المكس، فاهدمه ثم احمله إلى البحر فانسفه في اليم نسفاً[7]. نعلم مما سبق أن المكس دراهم تؤخذ من بائع السلع في الأسواق، وأن ذلك يصدق على الجمارك التي تؤخذ على السلع عند استيرادها في هذا الزمان، وأن عمر بن عبد العزيز يرى أن ذلك من الظلم فمنعه[8]. والحجة

---

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، ص 106 . 107.

(2) فقه عمر بن عبد العزيز (558/2).

(3) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي (565/2).

(4) المكس: دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع في الأسواق في الجاهلية ، أو هي الجباية.

(5) الطبقات الكبرى ، لابن سعد (345/5).

(6) المصدر السابق نفسه (383/5).

(7) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، ص 113.

(8) فقه عمر بن عبد العزيز، د. محمد شقير (561/2).

فيما فعله عمر بن عبد العزيز قول الله تعالى: {وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝١٨٣} [سورة الشعراء:183]

ح ـ رد المظالم وإخراج زكاتها:

قرر عمر بن عبد العزيز رد المظالم التي في بيوت المال، وأخذ زكاتها لسنة واحدة[1] ، عن مالك بن أنس عن أيوب السختياني: أن عمر بن عبد العزيز رد مظالم في بيوت الأموال، فرد ما كان في بيت المال، وأمر أن يزكى لما غاب عن أهله من السنين، ثم كتب بكتاب اخر: إني نظرت فإذا هو ضمار[2] لا يزكى إلا لسنة واحدة[3] ، وعن عمرو بن ميمون قال: أخذ الوالي في زمن عبد الملك مال رجل من أهل الرقة يقال له: أبو عائشة، عشرين ألفاً فأدخلت في بيت المال، فلما ولي عمر بن عبد العزيز أتاه ولده فرفعوا مظلمتهم إليه، فكتب إلى ميمون: ادفعوا إليهم أموالهم، وخذوا زكاة عامه هذا، فلولا أنه كان مالاً ضماراً أخذنا منه زكاة ما مضى[4].

هذا هو عمر بن عبد العزيز في دولته التي أقامها على العدل، وكان رحمه الله يعلم ولاته أنه بالعدل تستقيم الحياة بكل شؤونها، فلما أرسل إليه بعض عماله يقول: أما بعد، فإن مدينتنا قد خربت، فإن يرى أمير المؤمنين أن يقطع لنا مالاً نرمّها به فعل. فكتب إليه عمر: أما بعد، فقد فهمت كتابك، وما ذكرت أن مدينتكم قد خربت، فإذا قرأت كتابي هذا فحصِّنها بالعدل، ونَقِّ طرقها من الظلم، فإنَّه مرمَّتها والسلام[5] .

وكتب إلى بعض عماله: إن قدرت أن تكون في العدل والإحسان والإصلاح كقدر من كان قبلكم في الجور والعدوان والظلم، فافعل ولا حول ولا قوة إلا بالله[6] . وكتب إلى أبي بكر بن حزم: أن استبرأى الدواوين، فانظر إلى كل جورٍ جارَهُ مَنْ قبلي من حق مسلم أو معاهد فردَّه إليه، فإن كان أهل تلك المظلمة قد ماتوا فادفعه إلى ورثتهم[7] .

---

(1) المصدر السابق نفسه (566/2).

(2) المال الضمار: أي الذي لا يُرجى رجوعه.

(3) الطبقات الكبرى ، لابن سعد (342/5).

(4) مصنف ابن أبي شيبة (202/3).

(5) تاريخ الخلفاء للسيوطي ، ص 23؛ عمر بن عبد العزيز ، عبد الستار ، ص 226.

(6) الطبقات (383/5 ـ 384).

(7) المصدر السابق نفسه (342/5 ـ 343).

كان رحمه الله يواجه في تنفيذ ما يريده من العدل مصاعب ومشقات ومقاومة، وعقبات، فكان ينفق بعض المال في سبيل تهدئة بعض النفوس، لإنفاذ الحق، ونشر العدل، ورفع الظلم، دخل عليه ابنه عبد الملك ذات يوم، فقال: يا أبتِ ما يمنعك أن تمضي لما تريد من العدل؟! فوالله ما كنت أبالي لو غلت بي وبك القدور في ذلك ! قال: يا بني، إنما أروِّض الناس رياضة الصَّعْب، إني لأريد أن أحيي الأمور من العدل، فأوفِّر ذلك حتى أُخرج معه طمعاً من طمع الدنيا، فينفروا لهذا ويسكنوا لهذه[1] .

وقام برصد الجوائز لمن يدل على خير، أو ينبه على خطأ، أو يشير إلى وقوع مظلمة لم يستطع صاحبها إبلاغها، فكتب كتاباً أمر أن يُقرأ على الحجيج في المواسم وفي كل المحافل والمجامع؛ جاء فيه: أما بعد، فأيما رجل قدم علينا في رد مظلمة، أو أمر يصلح الله به خاصاً أو عاماً من أمر الدين، فله ما بين مئة دينار إلى ثلاثمئة دينار، بقدر ما يرى من الحسبة، وبعد الشقة. رحم الله امرأً لم يَتَكَاءده بُعد سفر، لعل الله يحيي به حقاً، أو يميت به باطلاً، أو يفتح من ورائه خيراً[2] .

ولاستعذابه حلاوة العدل ورحمته وتنعم الناس بتفيّؤ ظِلاله كان يقول: والله لوددت لو عدلت يوماً واحداً وأن الله تعالى قبضني[3] ، ومع أنه رأى ثمرات العدل التي قطف منها جميع الناس في خلافته إلا أن نفسه التوّاقة لكل شامخ ورفيع كانت تطمح للمزيد، ولقد عبر عن ذلك بقوله: لو أقمت فيكم خمسين عاماً ما استكملت العدل [4] .

وحتى الحيوانات نالهن عدله وإنصافه ورفع الظلم عنها، وإليك هذه المشاهد:

. النهي عن نخس الدابة بالحديدة وعن اللجم الثقال:

فقد أكد عمر بن عبد العزيز على الرفق بالحيوان وعدم ظلمه أو تعذيبه، قال أبو يوسف: حدثنا عبيد الله بن عمر: أن عمر بن عبد العزيز نهى أن يجعل البريد في طرف السوط حديدة ينخس بها الدابة، ونهى عن اللجم

([1]) عمر بن عبد العزيز ، عبد الستار الشيخ ، ص 226.

([2]) المصدر السابق نفسه، ص 227 ، تكاءده: شق عليه وصعب.

([3]) تهذيب الأسماء واللغات (23/2).

([4]) تاريخ ابن عساكر؛ نقلاً عن عمر بن عبد العزيز ، لعبد الستار ، ص 227.

الثقال[1] ، وقد أصدر أوامره بمنع استخدام اللجم الثقيلة مع الخيول والبغال، كما منع استخدام المناخس ذات الرؤوس الحديدية[2] .

. في تحديد حمولة البعير بستمئة رطل:

وحين بلغه أن قوماً يحملون على الجمال ما لا تطيق، وذلك في مصر، كتب إلى واليها يحدد أقصى حمولة للبعير بستمئة رطل، وطلب منه إبلاغ قراره هذا الناس وأمره بتنفيذه [3] .

هذه بعض الملامح السريعة على إقامة العدل في دولة عمر بن عبد العزيز، إن من أهداف التمكين إقامة المجتمع الذي تسود فيه قيم العدل ورفع الظلم، ومحاربته بكافة أشكاله وأنواعه، وهذا ما قام به عمر بن عبد العزيز رحمه الله.

5 . المساواة:

قال تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات: 13] . وقال الله ﷺ: « أيها الناس ! ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى»[4] ، وقد قام عمر بن عبد العزيز بتطبيق هذا المبدأ في دولته، وكان أول مؤشر على رغبته في تطبيق مبدأ المساواة، حين أقسم أنه يودُّ أن يساوي في المعيشة بين نفسه ولحمته التي هو منها وبين الناس[5] ، فقال: أما والله لوددت أنه بُدأى بي، وبلحمتي التي أنا منها، حتى يستوي عيشنا وعيشكم، أما والله، لو أردت غير هذا من الكلام، لكان اللسان به منبسطاً ولكنت بأسبابه عارفاً[6]. وقال في خطبة له: .. وما منكم من أحد تبلغنا حاجته إلا أحببت أن أسد من حاجته، ما قدرت عليه[7] .

([1]) مصنف ابن أبي شيبة (332/12)؛ فقه عمر بن عبد العزيز(573/2).

([2]) ملامح الانقلاب الإسلامي ، ص 71.

([3]) فقه عمر بن عبد العزيز ، محمد شقير (575/2).

([4]) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز ، ص 297.

([5]) المصدر السابق نفسه.

([6]) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، ص 112.

([7]) تاريخ الطبري؛ نقلاً عن النموذج الإداري من إدارة عمر ، ص 297.

كما أن عمر اتخذ مبدأ المساواة بين الناس، في الحقوق والواجبات في كافة مجالات الحياة، فلم يميز بين الناس في حقهم في تولي الوظائف والولايات، ولم يعط أحداً كائناً من كان شيئاً ليس له فيه حق، فقد ساوى بين أمراء وأشراف بني أمية وبين الناس، فمنع عنهم العطايا والأرزاق الخاصة، وقال لهم حين كلموه في ذلك: لن يتسع مالي لكم، وأما هذا المال ـ يقصد المال الذي في بيت مال المسلمين ـ فإنما حقكم فيه كحق رجل، بأقصى برك الغماد[1] . فكانت سياسته المالية تقوم على مبدأ المساواة، فبيت المال لجميع المسلمين، ولكل واحد منهم حق أن يأخذ منه أسوة بغيره، فلا يكون حكراً على فئات معينة من الناس.

ومن أعماله التي تدل على ترسيخه لمبدأ المساواة بين الناس ما أعلنه عندما رأى أمراء بني أمية قد استحوذوا على قطع واسعة من الأرض وجعلوها حمى يحرِمُ من الاستفادة منها عامة الناس، فقال: إن الحمى يباح للمسلمين عامة.. وإنما الإمام فيها كرجل من المسلمين، إنما الغيث ينزله الله لعباده، فهم فيه سواء[2] .

كما ساوى بين من أسلم من أهل الأديان الأخرى من النصارى واليهود وبين المسلمين، وعمل على كسر حاجز التنافر بينهم، فقال: ... فمن أسلم من نصراني أو يهودي أو مجوسي، من أهل الجزية اليوم، فخالط المسلمين في دارهم، وفارق داره التي كان بها، فإن له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وعليهم أن يخالطوه وأن يواسوه[3] . ويروي ابن سعد: أن عمر بن عبد العزيز جعل العرب والموالي في الرزق والكسوة والمعونة والعطاء سواء، غير أنه جعل فريضة المولى المعتق خمسة وعشرين ديناراً [4] .

وفي مجال المساواة بين الناس أمام القضاء، وأحكام الإسلام، نكتفي بهذا الدليل الذي كان عمر فيه أحد أطراف النزاع أمام القاضي، وتفصيل ذلك أنه: أتى رجل من أهل مصر عمر بن عبد العزيز، فقال له: يا أمير المؤمنين، إن عبد العزيز ـ يقصد والد عمر ـ أخذ أرضي ظلماً، قال: وأين أرضك يا عبد الله؟ قال: حلوان، قال عمر: أعرفها ولي شركاء ـ أي شركاء في حلوان ـ وهذا الحاكم بيننا، فمشى عمر إلى الحاكم فقضى عليه، فقال عمر: قد أنفقنا عليها، قال القاضي: ذلك بما نلتم غلتها، فقد نلتم منها مثل نفقتكم، فقال عمر: لو حكمت بغير هذا ما وليت لي أمراً أبداً، وأمر بردها[5].

([1]) بلد باليمن وهو أقصى حجر باليمن ، وقيل: موضع بمكة.

([2]) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، ص 81.

([3]) المصدرالسابق نفسه ، ص 79.

([4]) الطبقات (375/5).

([5]) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم ، ص 298.

وكان عمر يقيم وزناً لمبدأ المساواة بين المسلمين، حتى في الأمور العامة، ومن ذلك أمره بأن لا يُخَصَّ أناسٌ بدعاء المسلمين والصلاة عليهم، فكتب إلى أمير الجزيرة يقول: .. وقد بلغني أن أناساً من القُصَّاص قد أحدثوا صلاة على أمرائهم، عِدل ما يصلوا على النبي ﷺ، فإذا جاءك كتابي هذا، فمر القصاص، فليجعلوا صلاتهم على النبي ﷺ خاصة، وليكن دعاؤهم للمؤمنين والمسلمين عامة، وليدعوا ما سوى ذلك[1].

ومن ذلك يتضح اهتمام عمر بالمساواة بين عامة الناس حتى في الدعاء لهم، ولا يختص أحد بدعاء، فالمسلمون عامة في حاجة دعوة الله عز وجل لهم، والله سبحانه وتعالى جدير بالإجابة[2].

وقد طبق مبدأ المساواة بينه وبين عامة الناس، فقد حصل أن شتمه رجل بالمدينة لسبب أو لاخر، فلم يكن ما أمر به سوى ما قد يأمر به كما لو كان المشتوم أحد أفراد الأمة، ذلك ما حدث حين حُكم رجل في مسجد رسول الله ﷺ وأبو بكر بن محمد بن حزم والي عمر على المدينة في صلاته؛ فقطع عليهم الصلاة، وشهر السيف، فكتب أبو بكر إلى عمر، فأتي بكتاب عمر، فقرأى عليهم، فشتم عمر، والكتاب ومن جاء به، فهمَّ أبو بكر بضرب عنقه، ثم راجع عمر وأخبره أنه شتمه، وأنه همَّ بقتله: فكتب إليه عمر: لو قتلته لقتلتك به، فإنه لا يقتل أحد بشتم أحد، ألا أن يُشتم النبيُّ ﷺ، فإذا أتاك كتابي فاحبس على المسلمين شره، وادعه إلى التوبة في كل هلال، فإذا تاب فخلِّ سبيله[3] .

ولم يكتفِ عمر بالأخذ بمبدأ المساواة بنفسه فحسب، بل كان يأمر عماله وولاته بذلك، فقد كتب إلى عامله على المدينة يقول له: اخرج للناس فساوِ بينهم في المجلس والمنظر، ولا يكن أحد الناس اثر عندك من أحد، ولا تقولن هؤلاء من أهل بيت أمير المؤمنين، فإن أهل بيت أمير المؤمنين وغيرهم عندي اليوم سواء، بل أنا أحرى أن أظن بأهل بيت أمير المؤمنين؛ أنهم يقهرون من نازعهم[4] .

كانت تلك بعض مواقف عمر، وإن كانت متفاوتة، إلا أن فيها دلالة واضحة على أخذ عمر بمبدأ المساواة في دولته[5].

([1]) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، ص 273.

([2]) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر ، ص 299.

([3]) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، ص 142.

([4]) الطبقات (343/5)؛ النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص 301.

([5]) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص 301.

6 . الحريات في دولة عمر بن عبد العزيز:

إن مبدأ الحرية من المبادئ الأساسية التي قام عليها الحكم في دولة عمر بن عبد العزيز، ويقضي هذا المبدأ بتأمين وكفالة الحريات العامة للناس كافة ضمن حدود الشريعة الإسلامية وبما لا يتناقض معها، فقد اهتمَّ عمر بكافة صور الحرية الإنسانية، فجاء مستعرضاً لأنواع وصور الحرية، فأقر ما كان فيها موافقاً لتعاليم الإسلام، وأعاد ما لم يكن كذلك إلى دائرة التعاليم الإسلامية، وإليك بعض التفاصيل عن الحريات في دولة عمر بن عبد العزيز.

أ . الحرية الفكرية والعقدية:

حرص عمر بن عبد العزيز على تنفيذ قاعدة حرية الاعتقاد في المجتمع، وكانت سياسته حيال النصارى واليهود تلتزم بالوفاء بالعهود والمواثيق وإقامة العدل معهم ورفع الظلم، وعدم التضييق عليهم في معتقدهم ودينهم انطلاقاً من قوله تعالى: {لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ } [سورة البقرة:256] ، وكان عمر ينهج أسلوب الدعوة مع ملوك الهند، والقبائل الخارجة عن الإسلام، وسيأتي الحديث عن ذلك بالتفصيل بإذن الله تعالى، ولم يكره عمر أحداً من النصارى أو غيرهم على الدخول في الإسلام.

وأما حرية الفكر من حيث الرأي والتعبير، فقد أخذت نطاقاً واسعاً في إدارة الدولة، وقيادته لعماله ورعيته، فقد أتاح لكل متظلم أن يشكو من ظلمه، وأطلق للكلمة حريتها، وترك للناس حرية أن يقول كلُّ فرد ما يريد، وقد عبر عن هذا القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق بقوله: اليوم ينطق كل من كان لا ينطق[1] . إذا لم يخالف الشرع.

ب . الحرية السياسية:

كما أعلن عمر استئناف الحرّية السياسية التي منحها الإسلام للمسلمين؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، حتى وإن كان حاكماً أو والياً، فقد أعلن عمر في أول يوم من أيام حكمه الحرية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، منكراً على الناس واقعهم المظلم، وأن الإسلام لا يرضى السكوت عن الظلم، فقد خطب الناس يوماً فقال:

([1]) الطبقات ، لابن سعد (344/5).

... ألا لا سلامة لامرأى في خلاف السنة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الله، ألا وإنكم تسمون الهارب من ظلم إمامه: العاصي، ألا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم[1] .

ومما يدل على إعطاء عمر للناس الحرية السياسية، أن أول إجراء اتخذه عقب إعلان العهد له بالخلافة تنازله عن الخلافة، وطلب من الناس أن يختاروا خليفة، فإذا كانت الحرية السياسية تتجلى في ممارستها في موضعين: أولهما: المشاركة في اختيار الحاكم، عن طريق أهل الحل والعقد، وبيعة المسلمين ورضاهم، وثانيهما: إبداء الرأي والنصح للحكام، ونقد أعمالهم بمقاييس الإسلام[2] ، فإن عمر قد مارس الحرية السياسية في هذين الموضعين؛ فجعل لهم الخيار في توليه الخلافة قبل الوعظ والنصح[3] ، وسيأتي بيان ذلك في محله بإذن الله.

جـ الحرية الشخصية:

عمل عمر بن عبد العزيز على تحقيق وتدعيم الحرية الشخصية لأفراد الأمة الإسلامية، إذ بدا له بعض القيود على الهجرة أو ما يسمى بحرية التنقل، أو الغدو والرواح، فاتخذ إجراء فتح فيه باب الهجرة لمن يريد، إذ قال: .. وأما الهجرة فإنا نفتحها لمن هاجر من أعرابي فباع ماشيته، وانتقل من دار أعرابيته إلى دار الهجرة، وإلى قتال عدونا، فمن فعل ذلك فله أسوة المهاجرين فيما أفاء الله عليهم[4] ، كما قال في كتابه لعماله: .. وأن يفتح لأهل الإسلام باب الهجرة[5] .

وإذا كان ذلك موقفه من حرية الناس في الهجرة والتنقل فقد تجلى حرصه على مبدأ حرية الإنسان في أمر قلَّ من يراعيه، أو يهتم به، أمر يخص من هم في ملكه، ألا وهو تخييره لجواريه عقب تولي الخلافة بين العتق والإمساك على غير شيء، فقد علم أن لهنّ عليه حقوقاً لن يستطيع الإيفاء بها بعد توليه الخلافة، فترك لهنّ حرية الإقامة معه من غير شيء أو العتق، فتكون الواحدة منهنّ حرة حرية شخصية كاملة[6] ، فقد روى ابن عبد الحكم أن عمر خيّر جواريه، فقال: إنه قد نزل بي أمر شغلني عنكنّ، فمن اختارت منكنّ العتق أعتقتها، ومن أمسكتها لم يكن لها

([1]) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، ص 240.

([2]) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر ، ص 312.

([3]) المصدر السابق نفسه.

([4]) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، ص 79.

([5]) المصدر السابق نفسه، ص 78.

([6]) النموذج الإداري المستخلص ، ص 310.

مني شيء، فبكين بكاءً شديداً يأساً منه[1] .

د . حرية التجارة والكسب:

أما في حرية التجارة والكسب وابتغاء فضل الله في البر والبحر، كجزء من الحرية الاقتصادية، فقد أكد في كتاب له إلى عماله على ضرورة منح الناس حرية استثمار أموالهم، والاتجار بها في البر والبحر على حد سواء، فقد كتب إلى عماله: .. وإن من طاعة الله التي أنزل في كتابه أن يدعى الناس إلى الإسلام كافة، ... وأن يبتغي الناس بأموالهم في البر والبحر، ولا يمنعون ولا يحبسون[2] . وكتب أيضاً: .. وأما البحر، فإنا نرى سبيله سبيل البر، قال الله تعالى: {۞ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾} [سورة الجاثية:12] ، فأذن أن يتجر فيه من شاء، وأرى أن لا نحول بين أحد من الناس وبينه، فإن البر والبحر لله جميعاً سخرهما لعباده يبتغون فيهما من فضله، فكيف نحول بين عباد الله وبين معايشهم[3] . ويقول عمر في موضع اخر: ..

أطلق الجسور والمعابر للسابلة يسيرون عليها دون جعل[4]، لأن عمال السوء تعدوا غير ما أمروا به[5] .

وأما عن الأسعار والتسعير زمن عمر، فقد قال أبو يوسف: حدثنا عبد الرحمن بن شوبان عن أبيه قال: قلت لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، ما بال الأسعار غالية في زمانك وكانت في زمان من قبلك رخيصة؟ قال: إن الذين كانوا قبلي كانوا يكلفون أهل الذمة فوق طاقتهم، ولم يكونوا يجدون بداً من أن يبيعوا ويكسروا ما في أيديهم، وأنا لا أكلف أحداً إلا طاقته، فباع الرجل كيف شاء، قال: فقلت: لو أنك سعَّرت، قال: ليس إلينا من ذلك شيء إنما السعر إلى الله[6] .

وتشدد عمر في أمر السلع المحرمة، ومنع التعامل بها؛ فالخمر من الخبائث التي لا يجوز التعامل فيها بين المسلمين، لحرمتها ولضررها؛ حيث يؤدي شربها إلى استحلال الدم الحرام وأكل المال الحرام[7] ، ويقول عمر: فإنا من نجده

---

(1) سيرة عمر ، لابن عبد الحكم ، ص 121.

(2) المصدر السابق نفسه ، ص 94.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 98.

(4) الجعل: من الجعالة؛ وهو مايجعل للشخص على عمله.

(5) الإدارة الإسلامية ، محمد كرد ، ص 105.

(6) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز ، ص 48.

(7) المصدر السابق نفسه.

يشرب منه شيئاً بعد تقدمنا إليه فيه نوجعه عقوبة في ماله ونفسه ونجعله نكالاً لغيره[1].

ولقد أثمرت سياسة عمر في رد الحقوق وإطلاق الحرية الاقتصادية المنضبطة، حيث وفرت للناس الحوافز للعمل والإنتاج، وأزالت العوائق التي تحول دون ذلك، وهذا أدى إلى نمو التجارة، ونمو التجارة أدى إلى زيادة حصيلة الدخل الخاضع للزكاة، وهذا يؤدي بدوره إلى زيادة الزكاة، مما يؤدي إلى رفع مستوى الطبقات الفقيرة، وارتفاع قوتها الشرائية، والتي ستتوجه إلى الاستهلاك وبالتالي إلى زيادة الطلب على السلع والخدمات، وهذا كله يؤدي إلى انتعاش الاقتصاد، وارتفاع مستوى المعيشة وزيادة الرفاه[2] .

لقد كانت الحرية في دولة عمر بن عبد العزيز مصونة ومكفولة ولها حدودها وقيودها، ولذلك ازدهر المجتمع وتقدم في مدار الرقي، فالحرية حق أساسي للفرد والمجتمع، ليتمتع بها في تحقيق ذاته وإبراز قدراته، وسلب الحرية من المجتمع سلب لأهم مقوماته فهو أشبه بالأموات، إن الحرية في الإسلام إشعاع داخلي ملأ جنبات النفس الإنسانية بارتباطها بالله، فارتفع الإنسان بهذا الارتباط إلى درجة السمو والرفعة، فأصبحت النفس تواقة لفعل الصالحات، والمسارعة في الخيرات ابتغاء رب الأرض والسماوات، فالحرية في المجتمع الإسلامي دعامة من دعائمه تحققت في دولة عمر بن عبد العزيز في أبهى صورة انعكست أنوارها على صفحات الزمن[3].

* * *

---

(1) سيرة عمر، لابن عبد الحكم ، ص 103.

(2) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز ، ص 48؛ سياسة الإنفاق العام في الإسلام ، عوف محمد الكفراوي ، ص 372.

(3) المجتمع الإسلامي ، محمد أبو عجوة ، ص 245 مع التصرف.

المبحث الثاني

أهم صفاته ومعالم تجديده

أولاً: أهم صفاته:

إن شخصية عمر بن عبد العزيز تعتبر شخصية قيادية جذابة، وقد اتصف رضي الله عنه بصفات القائد الرباني، ومن أهم هذه الصفات: إيمانه الراسخ بالله وعظمته، وإيمانه بالمصير والمال، وخوفه من الله تعالى، والعلم الغزير، والثقة بالله، والقدوة، والصدق، والكفاءة والشجاعة، والمروءة والزهد، وحب التضحية، والتواضع، وقبول النصيحة، والحلم والصبر، وعلو الهمة، والحزم، والإدارة القوية، والعدل، والقدرة على حل المشكلات، وقدرته على التخطيط والتوجيه والتنظيم والمراقبة، وغير ذلك من الصفات.

وبسبب ما أودع الله فيه من الصفات الربانية استطاع أن يقوم بمشروعه الإصلاحي ويجدد كثيراً من معالم الخلافة الراشدة التي اندثرت أمام زحف الملك العضوض، واستطاع أن يتغلب على العوائق في الطريق، وتوجت جهوده الفذة بنتائج كبيرة على مستوى الفرد والمجتمع والدولة وأصبح منهج عمر بن عبد العزيز الإصلاحي التجديدي مناراً للعاملين على مجد الإسلام، وقد ترسم نور الدين زنكي خطوات عمر بن عبد العزيز في عهده، فحقق نجاحاً كبيراً للأمة في صراعها مع الصليبيين، وكان الفضل لله ثم الشيخ أبي حفص عمر محمد الخضر المتوفى عام 570 هـ والذي كان أحد شيوخ نور الدين زنكي؛ حيث كتب لنور الدين كتابه الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز لكي يسير عليها نور الدين زنكي في خطواته وجهاده.

وإن من أهم الصفات التي تجسدت في شخصية عمر بن عبد العزيز؛ هي:

1 ـ شدة خوفه من الله تعالى:

كانت ميزته الكبرى والسمة التي اتسم بها ودافعه إلى كل ذلك هو إيمانه القوي بالآخرة وخشية الله والشوق إلى الجنة، وليس لغير هذا الإيمان القوي الذي امتاز به عمر بن عبد العزيز أن يحفظ إنساناً في مثل شباب عمر بن عبد العزيز، وقوته وحريته وسلطانه ـ من إغراءات مادية قاهرة ـ ومن تسويلات الشيطان، والنفس المغرية، وتفرض

عليه المحاسبة الدقيقة للنفس، والاستقامة على طريق الحق[1] ، فقد كان مشتاقاً إلى الجنة مؤثراً الآخرة على الدنيا، مؤمناً بقوله تعالى: {يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخرة هِيَ دَارُ الْقَرَارِ *} [غافر: 39] فأدرك عمر بفطرته السليمة وعقيدته الصحيحة ، أن آخرة المسلم أولى باهتمامه من دنياه، يقول عمر في كتاب له إلى يزيد بن المهلب: .. لو كانت رغبتي في اتخاذ أزواج، واعتقال أموال، كان في الذي أعطاني من ذلك، ما قد بلغ بي أفضل ما بلغ بأحد من خلقه، ولكنِّي أخاف ـ فيما ابتليت به ـ حساباً شديداً، ومسألة عظيمة، إلا ما عافى الله ورحم[2] .

كما كان عمر شديد الخوف من الله تعالى، تقول زوجته فاطمة بنت عبد الملك: والله ما كان بأكثر الناس صلاة، ولا أكثرهم صياماً، ولكن والله ما رأيت أحداً أخوف لله من عمر، لقد كان يذكر الله في فراشه، فينتفض انتفاض العصفور من شدة الخوف، حتى نقول: ليصبحَنَّ الناس ولا خليفة لهم[3] ، وقال مكحول: لو حلفت لصدقت، ما رأيت أزهد ولا أخوف لله من عمر بن عبد العزيز[4] ، ولشدة خوفه من الله، كان غزير الدمع وسريعه، فقد: دخل عليه رجل وبين يديه كانون فيه نار، فقل: عظني. قال: يا أمير المؤمنين ما ينفعك من دخل الجنة، إذا دخلت أنت النار، وما يضرّك من دخل النار، إذا دخلت أنت الجنة، قال: فبكى عمر[5]حتى طفئ الكانون الذي بين يديه من دموعه، وقد كان جلّ خوفه ـ رحمه الله ـ من يوم القيامة، فيدعو الله، ويقول: اللهم إن كنت تعلم أني أخاف شيئاً دون القيامة، فلا تؤمن خوفي[6] ، ذلك اليوم الذي أحدث تغيراً جذرياً في مجرى حياته، ذلك اليوم الذي يقول عنه عمر: «..لقد عنيتم بأمر، لو عنيت به النجوم لانكدرت، ولو عنيت به الجبال لذابت، ولو عنيت به الأرض لتشققت، أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة، وأنكم صائرون إلى أحداهما»[7] .

نعم إن الخوف من الله، والرؤية الواضحة للحياة، والفناء والخلود، والإحساس بيوم الحساب، والانفعال بمشاهد الجنة والنار، هي التي تضع المسؤولين، وتجعلهم يرتعدون خوفاً إن هم انحرفوا قيد شعرة عما يريد الله[8] ، فالوعي

---

(1) النموذج الإداري المستخلص ، ص 140؛ نقلاً عن رجال الفكر ، للندوي.

(2) تاريخ الطبري؛ نقلاً عن النموذج الإداري ، ص 140.

(3) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، ص 42.

(4) تاريخ الخلفاء ، للسيوطي ، ص 221.

(5) سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص 90.

(6) تاريخ الخلفاء ، ص 224.

(7) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، ص 232.

(8) ملامح الانقلاب ، عماد الدين خليل ، ص 45.

والإحساس بيوم الحساب، وغيرها من الصفات الاعتقادية، تجعل القائد لا يخطو خطوة، ولا يقول قولاً، ولا يفعل فعلاً، إلا ربط ذلك بما يرضي الله عز وجل، وتلك الصفات والجوانب، لم تعط حقها من البحث والتحري في الدراسات القيادية الحديثة وهي أساس النجاح في القيادة، وأهم الصفات القيادية التي ينبغي للقائد أن يتحلى بها، وإن من أهم صفات عمر بن عبد العزيز، الإيمان الراسخ بالله واليوم الاخر، وشدة خوفه من الله، والوجل من يوم القيامة[1] .

2 . زهده:

فهم عمر بن عبد العزيز من خلال معايشته للقران الكريم ودراسته لهدي النبي الأمين ﷺ ومن تفكره في هذه الحياة بأن الدنيا دار ابتلاء واختبار، وإنها مزرعة للاخرة، ولذلك تحرّر من سيطرة الدنيا بزخارفها، وزينتها، وبريقها، وخضع وانقاد وأسلم لربه ظاهراً وباطناً، وكان وصل إلى حقائق استقرت في قلبه ساعدته على الزهد في هذه الدنيا،

ومن هذه الحقائق:

أ ـ اليقين التام بأننا: في هذه الدنيا أشبه بالغرباء، أو عابري سبيل، كما قال النبي ﷺ: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل[2] .

ب ـ وأن هذه الدنيا: لا وزن لها ولا قيمة عند رب العزة إلا ما كان منها طاعة لله ـ تبارك وتعالى ـ؛ إذ يقول النبي ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»[3].

جـ وأن عمرها قد قارب على الانتهاء: إذ يقول النبي ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، وأشار بالسبابة والوسطى[4] .

د ـ وأن الآخرة هي الباقية وهي دار القرار، فلهذه الأمور وغيرها زهد عمر بن عبد العزيز في الدنيا.

وأول الزهد الزهد في الحرام، ثم الزهد في المباح، وأعلى مراتب الزهد أن تزهد في الفضول وكل ما لك عنه غنى[5]، وكان زهد عمر بن عبد العزيز مبني على الكتاب والسنة، ولذلك ترك كل أمر لا ينفعه في اخرته، فلم يفرح بموجود وهي الخلافة، ولم يحزن على مفقود من أمور الدنيا، وقد ترك ما هو قادر على تحصيله من متاع الدنيا انشغالاً بما

([1]) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر ، ص 142.

([2])الترمذي ، كتاب الزهد ، رقم (2333) ، وهو حديث صحيح.

([3]) الترمذي ، كتاب الزهد ، رقم (2320).

([4]) مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، رقم (132 ـ 135).

([5]) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر ، ص 148.

هو خير في الآخرة، ورغبة في ما عند الله عز وجل[1] ، قال مالك بن دينار: الناس يقولون: مالك بن دينار زاهد، إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز الذي أتته الدنيا فتركها [2] .

قال ابن عبد الحكم: ولما ولي عمر بن عبد العزيز زهد في الدنيا، ورفض ما كان فيه وترك ألوان الطعام، فكان إذا صُنع له طعام هيأى على شيء وغطي، حتى إذا دخل اجتذبه فأكل[3]، فكان لا يهمه من الأكل إلا ما يسد جوعه ويقيم صلبه، وكانت نفقته وعياله في اليوم كما في الأثر، فعن سالم بن زياد: كان عمر ينفق على أهله في غدائه وعشائه كل يوم درهمين[4] ، وكان لا يلبس من الثياب إلا الخشن، وترك مظاهر البذخ والإسراف التي سادت قبله وأمر ببيعها، وأدخل أثمانها في بيت مال المسلمين[5] ، وهكذا فعل بالجواري والعبيد؛ حيث رد الجواري إلى أصحابهن إن كن من اللاتي أخذن بغير حق، ووزع العبيد؛ على العميان وذوي العاهات، وحارب كل مظاهر الترف والبذخ، والإسراف[6] .

وأما ما قيل عن زهده بالنسبة للنكاح، فقد روى ابن عبد الحكم فقال: وقالت فاطمة زوجته: ما اغتسل من جنابة منذ ولي حتى لقي الله غير ثلاث مرات، ويقال: ما اغتسل من جنابة حتى مات[7]، فهذا ينافي ما اشتهر به عمر بن عبد العزيز من حبه الشديد لهدي الرسول ﷺ، فيستبعد منه رحمه الله أن يترك السنة، وأن يقع في ظلم زوجاته وحقوقهن، فإن ترك الزواج وتحريم ذلك لا علاقة له بالزهد الإسلامي الذي بينه رسولنا ﷺ وهو دخيل على المجتمع المسلم، وهو ما تفتخر به بعض الفرق المنحرفة عن الإسلام وتدعي أنه من الزهد الإسلامي، ولهم في ذلك حكايات لا يشك من تأملها أنها لا تمت إلى الإسلام بصلة، ولهم في ذلك وصايا عجيبة وتوجيهات غريبة، فمن أقوالهم:

. من ترك النساء والطعام؛ فلابد له من ظهور كرامة.

. من تزوج فقد أدخل الدنيا بيته، فاحذروا من التزويج.

. لا يبلغ الرجل إلى منازل الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة، وأولاده كأنهم أيتام، ويأوي إلى منازل الكلام.

. من تعود أفخاذ النساء لا يفلح.

([1]) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (146/1).

([2]) حلية الأولياء (257/5).

([3]) سيرة عمر ، لابن عبد الحكم ، ص 43.

([4]) المصدر السابق نفسه، ص 38.

([5]) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (155/1).

([6]) المصدر السابق نفسه.

([7]) سيرة عمر ، لابن عبد الحكم ، ص50.

. من تزوج فقد ركن إلى الدنيا[1] . إلى غير ذلك من العجائب والغرائب.

وهذا المفهوم يخالف الإسلام دين التوسط والاعتدال، فقد قال رسول الله ﷺ: «فمن رغب عن سنتي فليس مني»[2].

وجملة القول: إن زهد عمر بن عبد العزيز كان مقيداً بالكتاب والسنة، وإن كثيراً مما نسب إليه في هذا الباب لا يصح لمخالفته هدي النبي ﷺ، ومن زهد عمر بن عبد العزيز في جمع المال، فقد كان على النقيض ممن يلي منصباً في وقتنا الحاضر؛ فقد كانت غلته حين استخلف أربعين ألف دينار، ثم أصبحت حين توفي أربعمئة دينار، ولو بقي لنقصت[3] ، حيث لم يرتزق رحمه الله من بيت المسلمين شيئاً[4] ، فقد كان رحمه الله من زهاد زمانه إن لم يك أزهدهم، فكان يقول: إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر، تسر قليلاً وتحزن طويلاً[5] .

وأخباره في الزهد كثيرة؛ ذكر منها الشيخ أبو حفص عمر بن محمد الخضر المعروف بالملاء حوالي ثمانية وعشرين أثراً[6] ، لقد وصل عمر بن عبد العزيز إلى مرحلة متقدمة في الزهد والتحلي بصفات الزاهدين، وذلك ما لا يستطيع الوصول إليه أصحاب العيش في الظروف المادية في وقتنا الحاضر، الذي طغت فيه المادة على كل شيء في الحياة، وأصبح الناس يقيسون بعضهم البعض بما يملك من الدنيا وحطامها، حسبنا من قادة وزعماء هذا العصر المادي إن لم يتصفوا بصفة الزهد، على أقل تقدير، أن يكفوا أنفسهم عن الطمع، والجشع، وأن يسعوا إلى الكسب الحلال، وأن يعملوا على قهر رغباتهم الدنيوية، لينالوا ما تاقت إليه نفس عمر بن عبد العزيز إلى ما هو أسمى من الدنيا.. إلى جنات النعيم[7].

ونختم حديثنا عن الزهد عند عمر بن عبد العزيز بهذا الأثر: فقد قال لمولاه مزاحم: إني قد اشتهيت الحج، فهل عندك شيء؟ قال: بضعة عشر ديناراً. قال: وما تقع مني؟ ثم مكث قليلاً، ثم قال له: يا أمير المؤمنين تجهّز، فقد جاءنا مال سبعة عشر ألف ديناراً من بعض مال بني مروان، قال: اجعلها في بيت المال، فإن تكن حلالاً فقد أخذنا منها ما يكفينا، وإن تكن حراماً فكفانا ما أصابنا منها، قال مزاحم: فلما رأى عمر ثقل ذلك علي، قال:

([1]) الطبقات ، للشعراني (34/1).

([2]) فتح الباري على صحيح البخاري (104/9).

([3]) حلية الأولياء (257/5).

([4]) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، ص 186.

([5]) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر ، ص 151.

([6]) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (366/1 إلى 378).

([7]) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر ، ص 151.

ويحك يا مزاحم لا يكثرن عليك شيء صنعته لله، فإن لي نفساً توّاقة لم تَتُق إلى منزلة فنالتها إلا تاقت إلى ما هي أرفع منها، حتى بلغت اليوم المنزلة التي ليس بعدها منزلة، وإنها اليوم قد تاقت إلى الجنة[1] .

3 . تواضعه:

قال تعالى: {وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾} [سورة الفرقان:63]. قال ابن القيم: أي يمشون بسكينة ووقار متواضعين[2] . وقال ﷺ: «إن الله أوحى إليّ: أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»[3] . وهذه الصفة الحميدة كانت إحدى الصفات الأساسية التي تميز بها عمر بن عبد العزيز، فقد أدى زهد عمر إلى تواضعه، لأن شرط الزهد الحقيقي هو التواضع لله[4] .

وقد كان تواضع عمر في جميع أمور حياته ومعاملاته، فذلك ما يتطلبه الأمر من قائد خاف الله، ورجا ما عنده، وأراد الطاعة والولاء من رعيته[5]، ومما يذكر من تواضع عمر جوابه لرجل ناداه: يا خليفة الله في الأرض، فقال له عمر: مه ! إني لما ولدت اختار لي أهلي اسماً فسموني عمر، فلو ناديتني: يا عمر، أجبتك، فلما اخترت لنفسي الكُنى فكنيت بأبي حفص، فلو ناديتني يا أبا حفص أجبتك، فلما وليتموني أموركم سميتموني: أمير المؤمنين، فلو ناديتني يا أمير المؤمنين أجبتك، وأما خليفة الله في الأرض، فلست كذلك، ولكن خلفاء الله في الأرض: داود والنبي ﷺ وشبهه[6] ، مشيراً على قوله تعالى: {يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ } [سورة ص:26]

ومن تواضعه أن نهى الناس عن القيام له، فقال: يا معشر الناس ! إن تقوموا نَقُم، وإن تقعدوا نقعد، فإنما يقوم الناس لرب العالمين، وكان يقول للحرس: لا تبتدئوني بالسلام، إنما السلام علينا لكم[7] .

وكان متواضعاً حتى في إصلاح سراجه بنفسه، فقد كان عنده قوم ذات ليلة في بعض ما يحتاج إليه، فغشى سراجه، فقام إليه فأصلحه، فقيل له: يا أمير المؤمنين! ألا نكفيك؟ قال: وما ضرني؟ قمت وأنا عمر بن عبد العزيز، ورجعت

([1]) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، ص 62.

([2]) مدارج السالكين (340/2).

([3]) مسلم ، رقم (2865).

([4]) عمر بن عبد العزيز ، للزحيلي ، ص 105.

([5]) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر ، ص 152.

([6]) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، ص 46.

([7]) المصدر السابق نفسه ، ص 34 . 35.

وأنا عمر بن عبد العزيز[1] ، ومن تواضعه أيضاً: قال يوماً لجارية له: يا جارية روّحيني، قال: فأخذت المروحة فأقبلت تروحه، فغلبتها عينها فنامت، فانتبه عمر، فإذا هو بالجارية قد احمرّ وجهها، وقد عرقت عرقاً شديداً ـ وهي نائمة ـ فأخذ المروحة وأقبل يروحها، قال:

فانتبهت، فوضعت يدها على رأسها فصاحت، فقال لها عمر: إنما أنت بشر مثلي أصابك من الحر ما أصابني، فأحببت أن أروحك مثل الذي روحتني[2] .

وكان يمتنع عن كثرة الكلام ـ وهو العالم الفصيح المفوّه ـ خشية على نفسه من المباهاة بما عنده، أو يظن الناس به ذلك، فكان يقول: إنه ليمنعني من كثير من الكلام مخافة المباهاة[3] . ودخل عليه رجل فقال له: يا أمير المؤمنين، إن من كان قبلك كانت الخلافة لهم زيناً، وأنت زين الخلافة، وإنما مثلك كما قال الشاعر:

إذا الـدرّ زانَ حســـنَ وجـوهٍ كـانَ للـدرِّ حســـنُ وجهِـكِ زينـا

فأعرض عنه[4] . وقال له رجل: جزاك الله عن الإسلام خيراً. فقال: لا بل جزى الله الإسلام عني خيراً[5]. ودخل عليه رجل، وهو في ملأٍ من الناس فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فقال: عُمّ سلامك[6] .

وهكذا أمير المؤمنين عمر، يخفض الجناح للمؤمنين، ولا يتكبر على أحد من عباد الله، ولم تزده الخلافة إلا تواضعاً ورأفة ورحمة، ولم يحمله المنصب إلا على الإخبات والخضوع لسلطان الحق، يصلح سراجه بنفسه، ويجلس بين يدي الناس على الأرض، ويأبى أن يسير الحراس والشُّرط بين يديه، ويعنّف من يعظمه أو يخصه بسلام من بين الجالسين، ويتأبى أن يتميز على الناس بمركب، أو مأكل، أو ملبس، أو مشرب[7] .

4 ـ ورعه:

من صفات أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الورع، والورع هو الإمساك عما قد يضر، فتدخل المحرمات والشبهات لأنها قد تضر، فإنه من اتقى الشبهات استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي حول

([1]) المصدر السابق نفسه، ص 39.

([2]) أخبار أبي حفص ، للآجري ، ص 86.

([3]) المصدر السابق نفسه ، ص 84.

([4]) سير أعلام النبلاء (36/5)؛ الحلية (329/5).

([5]) سير أعلام النبلاء (147/5)؛ الحلية (331/5).

([6]) الطبقات (384/5).

([7]) عمر بن عبد العزيز ، لعبد الستار الشيخ ، ص 123.

الحمى يوشك أن يواقعه[1] ، والورع في الأصل الكف عن المحارم والتحرج منها، ثم استعير للكف عن الحلال المباح[2] .

وللدلالة على ما كان يتصف به عمر من الورع، وتحري السلامة من الشبهات، فقد روي أنه كان: يعجبه أن يتأدم بالعسل، فطلب من أهله يوماً عسلاً فلم يكن عنده، فأتوه بعد ذلك بالعسل، فأكل منه، فأعجبه، فقال لأهله: من أين لكم هذا؟ قالت امرأته: بعثت مولاي بدينارين على بغل البريد، فاشتراه لي، فقال: أقسمت عليك لما أتيتني به، فأتته بُعكَّة[3]، فيها عسل، فباعها بثمن يزيد على الدينارين، ورد عليها مالها، وألقى بقيته في بيت مال المسلمين، وقال: أنصبت دواب المسلمين في شهوة عمر [4] .

ومن ورعه أنه: كان له غلام يأتيه بقمقم[5] ، من ماء مسخن، يتوضأ منه، فقال للغلام يوماً: أتذهب بهذا القمقم إلى مطبخ المسلمين، فتجعله عنده، حتى يسخن، ثم تأتي به؟ قال: نعم أصلحك الله، قال: أفسدته علينا، قال: فأمر مزاحماً أن يغلي ذلك القمقم، ثم ينظر ما يدخل فيه من الحطب، ثم يحسب تلك الأيام، التي كان يغليه فيها، فيجعله حطباً في المطبخ[6] .

ومن أمثلة ورعه: كان لا يقبل أية هدية من عماله أو من أهل الذمة خوفاً من أن يكون ذلك من باب الرشوة، فعن عمرو بن مهاجر قال: اشتهى عمر بن عبد العزيز تفاحاً فقال: لو كانت لنا . أو عندنا . شيء من التفاح، فإنه طيب الريح طيب الطعم فقام رجل من أهل بيته فأهدى إليه تفاحاً، فلما جاء به الرسول، قال عمر: ما أطيب ريحه وأحسنه، ارفعه يا غلام، فأقرئ فلاناً السلام وقل له: إن هديتك قد وقعت منا بموقع بحيث تحب، فقلت: يا أمير المؤمنين ! ابن عمك ورجل من أهل بيتك، وقد بلغك أن النبي ﷺ كان يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، قال: ويحك؟ إن الهدية كانت للنبي هدية وهي لنا اليوم رشوة[7] .

ومن ورعه: أنه كان لا يرى لنفسه أن تشم رائحة مسك أتته من أموال المسلمين، فعندما وضعت بين يديه مسكة

([1]) الفتاوى (615/10).

([2]) لسان العرب (288/8).

([3]) العكة: وعاء من جلد ماعز يدبغ ويخصص للسمن والعسل.

([4]) أخبار أبي حفص ، للآجري ، ص 54.

([5]) القمقم: هو مايسخن فيه الماء من نحاس وغيره.

([6]) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، ص 40

([7]) سيرة عمر ، لابن الجوزي ، ص 197.

عظيمة فأخذ بأنفه، فقيل: يا أمير المؤمنين إنما هو ريح، قال: وهل ينتفع منها إلا بريحها؟! [1] .

وكان يحترز من استعمال أموال المسلمين العامة، فكان يسرج السراج من بيت المال إذا كان في حاجة المسلمين، فإذا فرغ من حوائجهم أطفأها ثم أسرج عليه سراجه الخاص به من ماله الخاص[2] .

وقد ذكر المؤرخون كثيراً من الأمثلة التي تدل على ورعه، فقد اعتبر أن البعد عن أموال المسلمين حتى في الأشياء اليسيرة القليلة هو من باب الابتعاد عن الشبهة، فكان بعيداً عن الشبهات[3]احتياطاً لدينه، وذلك أن الأمور ثلاثة كما قال هو بنفسه:

1 . أمر استبان رشده، فاتبعه.

2 . وأمر تبين خطؤه، فاجتنبه.

3 . وأمر أشكل عليك، فتوقف عنه[4] .

وكان رحمه الله ورعاً حتى في الكلام؛ فعندما قيل له: ما تقول في أهل صفين؟ قال: تلك دماء طهر الله يدي منها، فلا أحب أن أُخضب لساني بها[5] .

وهكذا يتضح أن ورع عمر كان في شأنه كله، في مأكله وحاجته وشهوته، ومال المسلمين، وفي كافة أمور حياته، ذلك الورع النابع مع الإيمان القوي، والشعور بالمسؤولية واستحضاره الآخرة، فقد كانت صفة الورع من صفاته الجلية، فقد بلغ به مبلغاً جعله يشتري مكان قبره الذي سيوارى فيه، فلا يكون له من الدنيا شيء دون مقابل حتى موضع قبره[6] .

5 . حلمه وصفحه وعفوه:

ومن الصفات التي تجسدت في شخصية عمر بن عبد العزيز: الحلم والصفح والعفو، فعن شيخ من الخناصريين قال: كان لعمر بن عبد العزيز ابن له من فاطمة، فخرج يلعب مع الغلمان، فشجه غلام، فاحتملوا ابن عمر

---

(1) المصدر السابق نفسه ، ص 200؛ كتاب الورع ، لابن أبي الدنيا ، ص 73، وقال محقق الكتاب: إسناد الأثر جيد.

(2) . الآثار الواردة في عمر بن عبد العزيز في العقيدة (164/1).

(3) المصدر السابق نفسه (165/1).

(4) العقد الفريد (397/4)؛ الآثار الواردة (165/1).

(5) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، ص 195.

(6) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر ، ص 156.

والذي شجَّه فأدخلوهما على فاطمة، فسمع عمر الجلبة وهو في بيت اخر فخرج، وجاءت امرأة فقالت: هذا ابني وهو يتيم، قال: أله عطاء؟ قالت: لا. قال: فاكتبوهُ في الذرية، فقالت فاطمة: فعل الله به وفعل إن لم يشجه مرة أخرى، فقال عمر: إنكم أفزعتموه[1] .

وعن إبراهيم بن أبي عبلة قال: غضب عمر بن عبد العزيز يوماً غضباً شديداً على رجل، فأمر به فأحضر وجرّد وشُدَّ في الحبال، وجيء بالسياط فقال: خلُّوا سبيله، ثم قال: أما أني لولا أن أكون غضبانَ لسُؤْتُك. وتلا: {وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ} [سورة آل عمران:134]

وعن عبد الملك قال: قام عمر بن عبد العزيز إلى قائلته، وعرض له رجل بيده طومار[2]، فظن القوم أنه يريد أمير المؤمنين، فخاف أن يُحبس دونه فرماه بالطومار، فالتفت عمر فوقع في وجهه فشجه. قال: فنظرت إلى الدماء تسيل على وجهه وهو قائم في الشمس، فلم يبرح حتى قرأ الطومار وأمر له بحاجته وخلَّى سبيله[3] .

وروي أن رجلاً نال من عمر فلم يجبه. فقيل له: ما يمنعك منه؟ قال: التقيُّ مُلجم[4] .

وعن حاتم بن قدامة أن رجلاً قام إلى عمر بن عبد العزيز وهو يخطب، فقال له: أشهد أنك من الفاسقين. فقال له عمر: وما يدريك؟ وأنت شاهد زور فلا نجيز شهادتك[5].

وروي أن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة خرج ليلة في السحر إلى المسجد ومعه حرسي فمرا برجل نائم على الطريق فعثر به عمر. فقال له: أمجنون أنت؟ فقال عمر: لا؛ فهمَّ الحرسي به. فقال له عمر: مه، فإنه سألني أمجنون أنت؟ فقلت: لا[6] .

وروي أن رجلاً قام إلى عمر بن عبد العزيز وهو على المنبر فنال منه وأغضبه، فقال له عمر: يا هذا ! أردت أن يستفزني الشيطان مع عزة السلطان أن أفعل بك اليوم ما تفعل بي غداً مثله. اذهب غفر الله لي ولك[7] . وقيل: أتى ولد لعمر بن عبد العزيز وهو يبكي، فقال له: ما شأنك؟ فقال: ضربني فلان العبد. فجيء به. فقال له:

---

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، ص 207؛ الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (423/2).

(2) الطومار: صحيفة مطوية.

(3) حلية الأولياء (311/5).

(4) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، ص 208.

(5) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (424/2).

(6) المصدر السابق نفسه (425/2).

(7) المصدر السابق نفسه.

ضربته؟ قال: نعم. فقال له: اذهب فلو أني معاقب أحداً على الصدق لعاقبتك، اذهب، ولم يكلمه[1] . والمواقف في حلمه وصفحه وعفوه كثيرة، وهذا غيض من فيض.

6 . صبره:

ومن صفاته رحمه الله الصبر والشكر، روي: أنه لما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز، حضر عند قبره فقال: لا تعمقه؛ فإن ما علا من الأرض أفضل مما سفل منها[2] ، وروي أنه حين مات عبد الملك ولده، وسهل بن عبد العزيز أخوه ومزاحم مولاه، قال رجل من أهل الشام: والله لقد ابتلي أمير المؤمنين ببلاء عظيم: مات ولده عبد الملك لا والله إن رأيت ولداً كان أنفع لوالده منه، ثم أصيب أمير المؤمنين بأخ لا والله ما رأيت أخاً أنفع لأخ منه. قال: وسكت عن مزاحم. فقال عمر بن عبد العزيز: لم سكت عن مزاحم، فوالله ما هو أدنى الثلاثة عندي، رحمك الله يا مزاحم مرتين أو ثلاثاً، والله لقد كنت كفيت كثير الدنيا، ونعم الوزير كنت في أمر الآخرة[3] .

وعن حفص بن عمر قال: لما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز جعل أبوه يثني عليه عند قبره، فقال مسلمة: أرأيت لو بقي أكنت تولِّيه؟ قال: لا. قال: فأنت تثني عليه بهذا الثناء، قال: إني أخاف أن يكون زيِّن لي من المحبة له ما يزين في عين الوالد من حبِّ ولده[4] .

وخطب عمر في خطبته فقال: ما من أحد يصاب بمصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون؛ إلا كان الذي أعطاه الله من الأجر فيها أفضل مما أخذ منه، وقال: الرضا قليل، والصبر معتمد المؤمن. وقال: من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح، ومن لم يَعدَّ كلامه من عمله كثرت خطاياه، والرضا قليل، ومعول المؤمن على الصبر[5].

وكان من أجلِّ ما صبر عليه عمر في حياته: أمر الخلافة، فقد قال: والله ما قعدت مقعدي هذا إلا خوفاً أن يثبت عليه من ليس بأهل، ولو أني أطاع فيما أعمل لسلمتها إلى مستحقيها ـ يعني الخلافة ـ ولكنني أصبر حتى يأتي الله بأمر من عنده، أو يأتي بالفتح[6] .

([1]) المصدر السابق نفسه .

([2]) المصدر السابق نفسه (427/2).

([3]) المصدر السابق نفسه.

([4]) المصدر السابق نفسه (428/2).

([5]) المصدر السابق نفسه.

([6]) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر ، ص 144.

7 . الحزم:

لقد اتسم عمر بن عبد العزيز بهذه الصفة، في وقت أكثر ما يكون فيه أمر الأمة والخلافة في حاجة إلى الحزم، وبخاصة فيما يتعلق بالولاة والأمراء والعمال، وللدلالة على تحلّي عمر بصفة الحزم وضبط الأمور، وعدم التهاون فيما يراه ضرورياً لخدمة الصالح العام، وما يصلح به أمر المسلمين، فلقد أخذ حزم عمر صوراً مختلفة ومجالات عدة، كحزمه مع أمراء وأشراف بني أمية، ومع الذين يريدون شق عصا المسلمين والخروج على جادتهم وإثارة الفتن وسفك الدماء، وغير ذلك من الأمور، فقد كان أول مؤشر على حزمه موقفه من بني مروان، إذ قال لهم: أدوا ما في أيديكم ولا تُلجئوني إلى ما أكره، فأحملكم على ما تكرهون، فلم يجبه أحد منهم. فقال: أجيبوني، فقال رجل منهم: والله لا نخرج عن أموالنا التي صارت إلينا من ابائنا، فنُفقِّر أبناءنا ونكفر اباءنا، حتى تتزايل رؤوسنا، فقال عمر: أما والله لولا أن تستعينوا عليَّ بمن أطلب هذا الحق له، لأضرعت خدودكم عاجلاً، ولكني أخاف الفتنة، ولئن أبقاني الله لأُردَّنَّ إلى كل ذي حق حقه إن شاء الله[1] .

وكان إذا وقع في أمر مضى فيه، وجاءه يوماً كتاب من بعض بني مروان فأغضبه فاشتاط[2]ثم قال: إن لله من بني مروان يوماً . وقيل: . وذبحاً . وايم الله، لئن كان ذلك الذبح على يدي ...، فلما بلغهم ذلك كفوا، وكانوا يعلمون صرامته، وأنه إذا وقع في أمر مضى فيه [3] .

وأما فيما يتعلق بمن يريد شق عصا المسلمين والخروج عليهم، فقد اتبع معهم أسلوب الحوار والمناظرة . وهم الخوارج الذين ثاروا ضد بني أمية بقيادة شوذب الخارجي 100 هـ ليقف على ما دفعهم إلى ذلك، ويرى إن كان الحق معهم نظر في أمره، وإلا فليدخلوا فيما دخل فيه الناس، إلا أنه في الوقت نفسه قرن إجراءاته تلك بشيء من الحزم والصلابة، عندما يصل الأمر إلى مرحلة سفك دماء المسلمين أو الإفساد، إذ كتب إلى عامله على العراق يقول: لا تحركهم إلا أن يسفكوا دماً، أو يفسدوا في الأرض، فإن فعلوا فخلِّ بينهم وبين ذلك، وانظر رجلاً طيباً حازماً فوجهه إليهم، ووجه معه جنداً، وأوصه بما أمرتك به[4] .

وهكذا كان عمر في حزمه، فقد أخذ الإجراءات والمواقف الحازمة والتي كانت على درجة كبيرة من الأهمية

([1]) العقد الفريد (173/5).

([2]) استشاط الرجل: أي احتد كأنه التهب في غضبه.

([3]) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر ، ص 158.

([4]) تاريخ الطبري (459/7).

والحساسية، وكان لذلك الحزم مردود إيجابي كبير على سير الأمور وتنفيذ ما كان يسعى لتحقيقه من العدل والطمأنينة ومعالم الخلافة الراشدة[1] .

8 . العدل:

إن صفة العدل من أبرز صفات عمر بن عبد العزيز القيادية على الإطلاق، وقد تحدثت عن العدل في دولته وسياسته في رد المظالم فيما مضى، ولقد أجمع العلماء قاطبة على أنه ـ أي عمر بن عبد العزيز ـ من أئمة العدل، وأحد الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين [2] .

ولعل عدل عمر من أهم أسبابه يرجع إلى إيمانه بأن العدل أحد نواميس الله في كونه، ويقينه التام بأن العدل ثمرة من ثمرات الإيمان، وأنه من صفات المؤمنين المحبين لقواعد الحق، وإلى إحساس عمر بوطأة الظلم للناس في خلافة من سبقه من الخلفاء والأمراء الأمويين، بالإضافة إلى السبب الأهم وهو: ما أمر الله به من العدل والإحسان، وأنهما الأسس العامة لأحكام الشرائع السماوية، وما نماه الإسلام في نفس عمر، من حب للعدل وإحياء لقيمه [3]، وإليك هذه الصور من عدله والتي لم أذكرها فيما مضى:

ما رواه الاجري من أن رجلاً ذمّياً من أهل حمص قدم على عمر، فقال: يا أمير المؤمنين: أسألك كتاب الله عز وجل، قال: وما ذاك، قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي ـ والعباس جالس ـ فقال له: يا عباس ! ما تقول؟ قال: أقطعنيها يا أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، وكتب لي بها سجلاً، فقال عمر: ما تقول يا ذمي؟ قال: يا أمير المؤمنين ! أسألك كتاب الله عز وجل. فقال عمر: كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك، فاردد عليه يا عباس ضيعته، فردّها عليه [4] .

ومن مواقفه العادلة ما حدّث به الحكم بن عمر الرعيني، قال: شهدت مسلمة بن عبد الملك يخاصم أهل دير إسحاق عند عمر بن عبد العزيز بالناعورة[5] ، فقال عمر لمسلمة: لا تجلس على الوسائد، وخصماؤك بين يدي، ولكن وَكِّل بخصومتك من شئت، وإلا فجاثي القوم بين يدي، فوكل مولى له بخصومته ـ يعني مسلمة ـ فقضى عليه

([1]) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر ، ص 163.

([2]) البداية والنهاية؛ نقلاً عن النموذج الإداري ، ص 163.

([3]) النموذج الإداري ، ص 163 ، 164.

([4]) أخبار أبي حفص ، ص 58.

([5]) الناعورة: موضع بين حلب وبالس ، يبعد عن حلب ثمانية أميال.

بالناعورة[1] . وهذا قليل من كثير، مما أوردته كتب السير عن عدل عمر.

9 . تضرعه ودعاؤه واستجابة الله لدعائه:

كان عمر بن عبد العزيز كثير التضرع والدعاء، فقد كان يقول: يا رب خلقتني ونهيتني ووعدتني بثواب ما أمرتني، ورهبتني عقاب ما نهيتني عنه، وسلطت علي عدواً أسكنته صدري وأجريته مجرى دمي، إن أهمّ بفاحشة شجعني، وإن أهم بصالحة ثبطني، لا يغفل إن غفلت، ولا ينسى إن نسيت، ينصب لي في الشهوات، ويتعرض لي في الشبهات، وإلا تصرف عني كيده يستذلني، اللهم فاقهر سلطانه علي بسلطانك عليه حتى أحبسه بكثرة ذكري لك فأكون مع المعصومين بك، ولا حول ولا قوة إلا بالله[2] . وكان يقول: اللهم أصلح من كان في صلاحه صلاح أمة محمد ﷺ، اللهم أهلك من كان في هلاكه صلاح أمة محمد ﷺ[3] . وكان يدعو بهذا: اللهم ألبسني العافية حتى تهنّيني المعيشة، واختم لي بالمغفرة حتى لا تضرني الذنوب، واكفني كل هول دون الجنة حتى تبلغنيها برحمتك يا أرحم الراحمين[4]. وكان يقول: اللهم إني أطعتك في أحب الأشياء إليك وهو التوحيد، ولم أعصِك بأبغض الأشياء إليك وهو الشرك، فاغفر لي ما بينهما[5] .وكان يقول: اللهم إني أعوذ بك أن أُبدل نعمتك كفراً، أو أن أكفرها بعد موتها، أو أن أنساها فلا أثني بها[6] . وكان كثيراً ما يدعو بهذا الدعاء: اللهم رضني بقضائك، وبارك لي في قدرك، حتى لا أحب تعجيل شيء أخرته، ولا تأخير شيء عجلته[7] .

وكان رحمه الله مستجاب الدعوة، فروى ابن الحكم أن ابن الريان كان سيافاً للوليد بن عبد الملك، فلما ولي عمر الخلافة قال: إني أذكر وتيهه، ثم قال: اللهم إني قد وضعته لك فلا ترفعه، فما رئي شريف قد خمد ذكره مثله حتى لا يذكر[8]، وقد دعا عمر رحمه الله حين حج وأخبر قبل دخوله إلى مكة بقلة الماء فيها، فدعا عند ذلك، فأجاب الله دعاءه، فسقوا، وهذا حين كان أميراً على المدينة[9] ، كما دعا على غيلان القدري حين ناظره فقال: اللهم إن

---

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، ص 91.
(2) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (341/1).
(3) المصدر السابق نفسه (342/1).
(4) المصدر السابق نفسه (343/1).
(5) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، ص 230.
(6) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (343/1).
(7) المصدر السابق نفسه (344/1).
(8) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، ص 30.
(9) البداية والنهاية؛ نقلاً عن الاثار الواردة (183/1).

كان عبدك غيلان صادقاً، وإلا فاصلبه، فصلب بعد في خلافة هشام بن عبد الملك[1].

ثانياً: معالم التجديد عند عمر بن عبد العزيز:

يرى المتتبع لأقوال العلماء والمؤرخين والمهتمين بدراسة الحركة التجديدية، إجماعاً تاماً على عدّ الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز المجدد الأول في الإسلام[2]، وكان أول من أطلق عليه ذلك الإمام محمد بن شهاب الزهري، ثم تبعه على ذلك الإمام أحمد بن حنبل، فقال: يروى في الحديث: «إن الله يبعث على رأس كل مئة عام من يصحح لهذه الأمة أمر دينها»، فنظرنا في المئة الأولى فإذا هو عمر بن عبد العزيز[3]، وتتابع العلماء على عدّه أول المجددين وذكر بعض أهل العلم أنه من المقصودين بحديث رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها أمر دينها»[4] .

ولا شك أن عمر بن عبد العزيز خليق بأن يكون ممن يحمل عليه هذا الحديث، فقد كان عالماً عاملاً، همه كله، وعزمه، وهمته، اناء الليل والنهار إحياء السنن وإماتة البدع ومحدثات الأمور ومحوها، وكسر أهلها باللسان، والسنن[5].

يقول ابن حجر العسقلاني: إن اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر في نوع من أنواع الخير، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد، إلا أن يدعى ذلك في عمر بن عبد العزيز، فإنه كان القائم بالأمر على رأس المئة الأولى باتصافه بجميع صفات الخير وتقدمه فيها، ومن ثم أطلق أحمد أنهم كانوا يحملون الحديث عليه، وأما من جاء بعده فالشافعي، وإن كان متصفاً بالصفات الجميلة إلا أنه لم يكن القائم بأمر الجهاد والحكم بالعدل[6] .

ومع أن بعض العلماء رأى أن مقام المجدد الكامل لا يستحقه إلا مهدي اخر الزمان، وأنه لم يولد في الأمة المسلمة مجدد كامل حتى الان، وإن كان عمر بن عبد العزيز أوشك أن يبلغ مرتبة المجددية الكاملة لو أنه استطاع إلغاء

([1]) الشريعة ، للآجري (438/1).

([2]) عون المعبود ، العظيم ابادي (393/11)؛ جامع الأصول (322/11).

([3]) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، ص 74.

([4]) المجددون في الإسلام ، للصعيدي ، ص57؛ موجز تاريخ ، للمودودي ، ص 63.

([5]) الاثار الواردة عن عمر في العقيدة (177/1).

([6])فتح الباري (295/13).

طريقة الحكم الوراثية، وإعادة انتخاب الخليفة عن طريق الشورى[1] .

وسواء استحق عمر بن عبد العزيز لقب المجدد الكامل أم لا، فإن الأعمال التجديدية التي قام بها، والجهود الكبيرة التي بذلها لاستئناف الحياة الإسلامية، وإعادتها إلى نقائها وصفائها زمن الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين تجعله على رأس المجددين الذين جاد بهم الزمان حتى يومنا هذا، وقد ساعده على ذلك موقعه الذي تبوأه على رأس خلافة قوية، منيعة الجانب، مترامية الأطراف.

ولكي ندرك حجم الأعمال التجديدية التي اضطلع بها هذا الخليفة، وقدر الإصلاح الذي أحدثه، ينبغي أن نقف على حجم الانحرافات التي طرأت على الحياة الإسلامية والتغيّر والانقلاب الذي حدث للخلافة الإسلامية، ولعلنا لا نجانب الحقيقة إذا حصرنا الانحراف في ذلك الوقت بنظام الحكم، وما نتج عن ذلك من مظالم وفساد، وأما الحياة العامة فكانت أنوار النبوة لا زالت ذات أثر بالغ فيها، وكان الدين صاحب السلطان الأول في قلوب الناس[2] .

1 . من إصلاحات عمر وأعماله التجديدية:

أ . الشورى:

قد مرّ معنا أن عمر بن عبد العزيز في أول لقاء له مع الناس حمد الله وأثنى عليه وقال: يا أيها الناس ! إني قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأي كان مني فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي، فاختاروا لأنفسكم، فصاح الناس صيحة واحدة: قد اخترناك يا أمير المؤمنين، ورضينا بك: فَلِ أمرنا باليُمن والبركة[3] . وبهذا يكون عمر قد قام بأول عمل تجديدي، حيث أعفى الناس من الملك العضوض، ولم يجبرهم على القبول بمن لم يختاروه، بل رد الأمر إليهم وجعله شورى بينهم [4] .

ب . الأمانة في الحكم وتوكيل الأمناء:

فقد تواترت النقول المفيدة أنه بلغ من حرصه على ذلك أقصى المراتب، فقد استشعر عظم المسؤولية وضخامة الحمل منذ اللحظة الأولى لاستلامه الخلافة، فقال لمن سأله: ما لي أراك مغتماً؟ قال: لمثل ما أنا فيه فليُغتم، ليس

---

(1) موجز تاريخ تجديد الدين ، للمودودي ، ص 69.

(2) عمر بن عبد العزيز ، للندوي ، ص 10.

(3) سيرة ومناقب عمر ، لابن الجوزي ، ص 65.

(4) التجديد في الفكر الإسلامي ، د. عدنان محمد ، ص 79.

أحد من الأمة إلا وأنا أريد أن أوصل إليه حقه غير كاتب إليّ فيه، ولا طالبه مني[1] . وقال: لست بخير من أحد منكم، ولكن أثقلكم حملاً[2] .

وكان يطالب عمّاله باختيار أصحاب الكفاءة والدين فيمن يولونه شأناً من شؤون المسلمين، فقد كتب إلى أحد عمّاله: لا تولين شيئاً من أمر المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم، والتوفير عليهم، وأداء الأمانة فيما استرعى[3] .

ولم تكن سياسته في التورع عن أموال المسلمين سياسة طبقها على خاصة نفسه فقط، بل ألزم بها عمّاله وولاته، فقد كتب إلى عامله أبي بكر بن حزم: أن أدق قلمك، وقارب بين أسطرك، فإني أكره أن أخرج من أموال المسلمين مالاً ينتفعون به[4] .

وقد ساس رعيته سياسة رحيمة، وأمَّن لهم عيشاً رغيداً، وكفاهم مذلة السؤال، فقسم فضول العطاء في أهل الحاجات[5] ، وقسم في فقراء أهل البصرة ثلاثة دراهم لكل إنسان، وأعطى الزمنى خمسين خمسين[6] ، وطلب من عماله أن يجهزوا من أراد أداء فريضة الحج[7]، وكتب إلى عماله: أن اعملوا خانات في بلادكم؛ فمن مر بكم من المسلمين، فاقروهم يوماً وليلة، وتعهدوا دوابهم؛ فمن كانت به علّة فاقروهم يومين وليلتين، فإن كان منقطعاً به فقوّوه بما يصل به إلى بلده [8] .

وقد عزّ في زمن عمر وجود من يقبل الزكاة؛ يقول عمر بن أسيد: والله ما مات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون، فما يبرح يرجع بماله كله؛ قد أغنى عمر الناس[9] .

وكانت حرمة المسلمين فوق كل الأموال فقد كتب إلى عماله: أن فادوا بأسارى المسلمين، وإن أحاط ذلك بجميع مالهم[10] .

---

(1) سير أعلام النبلاء (586/5).

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) تاريخ الطبري؛ نقلاً عن التجديد في الفكر الإسلامي ، ص 81.

(4) سير أعلام النبلاء (595/5).

(5) تاريخ الطبري؛ نقلاً عن التجديد في الفكر الإسلامي ، ص 81.

(6) تاريخ الطبري (474/7).

(7) المصدر السابق نفسه.

(8) المصدر السابق نفسه (472/7).

(9) سير أعلام النبلاء (588/5).

(10) سيرة عمر ، لابن الجوزي ، ص 120.

ولاتزال خلافة عمر بن عبد العزيز حجة تاريخية، على كل أولئك الذين يشككون في إمكانية إقامة نظام اقتصادي إسلامي، وبرهاناً ساطعاً على أن الاحتكام للشريعة الربانية هو وحده الذي يكفل للناس السعادة في الدنيا والآخرة[1] .

جـ مبدأ العدل:

فقد كان فيه لعمر القدح المعلَّى، وكان بحق وارثاً فيه لجدّه لأمه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد ضرب فيه على النقود عبارة: أمر الله بالوفاء والعدل[2]، وطلب أن لا يقام على أحد حد إلا بعد علمه[3] ، وكتب لعامله الجراح بن عبد الله الحكمي أمير خراسان: يابن أم جراح ! لا تضربن مؤمناً ولا معاهداً سوطاً إلا في حق، واحذر القصاص، فإنك صائر إلى من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وتقرأ كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا إحصاها[4] .

وأنصف أهل الذمة، وأمر أن لا يعتدى عليهم أو على معابدهم، وكتب إلى عماله: لا تهدموا كنيسة ولا بيعة، ولا بيت نار صولحتم عليه[5] ، وقد رفع المكس وحطّ العشور والضرائب التي فرضتها الحكومات السابقة، وأطلق للناس حرية التجارة في البر والبحر، وقد تبرأ من المظالم التي كان يرتكبها بنو أمية، وتبرأ من الحجّاج وأفعاله، و أنكر على عمّاله الاستنان بسنته[6] .

د . إحياؤه مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

أخذت الخلافة تتراجع عن الغاية التي قامت من أجلها؛ وهي حراسة الدين، فنهض عمر بهذا المبدأ ورفع لواءه وأعلى شأنه وجعله المهيمن والمقدّم على ما سواه، وما حقق عمر مما حققه من أعمال وإنجازات إلا انطلاقاً من خوفه الشديد من الله، وطلبه فيما فعله مرضاته، وقد ساعده على ذلك أنه كان من أجلة العلماء التابعين وأئمة الاجتهاد[7]؛حتى قال عنه عمر بن ميمون: كان العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلامذة[8] ، وقد كان لسلامة دينه

([1]) خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز ، ص 41 . 42.

([2]) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، ص 98.

([3]) تاريخ الطبري (474/7).

([4]) تاريخ الطبري (464/7).

([5]) المصدر السابق نفسه (477/7).

([6]) سيرة ومناقب عمر ، ص 107 . 108.

([7]) التجديد في الفكر الإسلامي ، ص 85.

([8]) سير أعلام النبلاء (518/5).

وصدق عقيدته الأثر البالغ في تجديده وإصلاحاته، فقد حارب الأهواء والبدع، وشدد النكير على أهلها[1] . وسيأتي بيان ذلك بالتفصيل بإذن الله تعالى.

وقد نقل عنه الإمام الأوزاعي قوله: إذا رأيت قوماً يتناجون في دينهم بشيء دون العامة، فاعلم أنهم على تأسيس ضلالة[2].

وكان يرى أنه لا قيمة لحياته لولا سنة يحييها، أو بدعة يميتها[3]، وقد اهتم اهتماماً شديداً بديانة الناس وأخلاقهم، فكتب إلى عمّاله: اجتنبوا الأشغال عند حضور الصلوات؛ فمن أضاعها فهو لما سواها من شرائع الإسلام أشدّ تضييعاً[4] .

والناظر في رسائل عمر وخطبه ومواعظه وهي أكثر من أن تحصى ؛ يرى إيماناً قوياً، ومراقبة جلية، وخوفاً من يوم يقف فيه الناس بين يدي رب العالمين.

وقد أثرت شخصية عمر وسياسته العادلة تأثيراً بالغاً في حياة العامة وميولهم وأذواقهم ورغباتهم[5]؛ يدل على ذلك ما ذكره الطبري في تاريخه مقارناً عهد عمر بعهود من سبقه من الحكام السابقين: كان الوليد صاحب بناء واتخذ المصانع والضياع، وكان الناس يلتقون في زمانه، فكان يسأل بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع، فولي سليمان فكان صاحب نكاح وطعام، فكان الناس يسأل بعضهم عن التزويج والجواري، فلمّا ولي عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل: ما وراءك الليلة؟ وكم تحفظ من القران؟ ومتى تختم ؟ ومتى ختمت ؟ وما تصوم من الشهر[6]؟

ولم يكتف عمر بإقامة الدين داخل دولته، بل وجّه عنايته إلى غير المسلمين، ودعاهم إلى الدخول في الإسلام، وراسل ملوك الهند وملوك ما وراء النهر، ووعدهم أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، فأسلم الكثير منهم وتسموا بأسماء[7] العرب.

ولعل من أجل الأعمال التي خدم بها هذا الدين أمره بتدوين العلوم الإسلامية، وخاصة علم الحديث، وسيأتي بيان ذلك بالتفصيل بإذن الله تعالى.

---

(1) التجديد في الفكر الإسلامي ، ص 86.

(2) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، ص 83.

(3) التجديد في الفكر الإسلامي ، ص 86.

(4) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، ص221.

(5) التجديد في الفكر الإسلامي ، 86.

(6) تاريخ الطبري؛ نقلاً عن التجديد في الفكر الإسلامي ، 87.

(7) خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز ، للندوي ، ص 30.

كل هذه الأعمال العظيمة والإصلاحات الجليلة حققها عمر في مدة خلافته الوجيزة، فغدا درة للأمة، ومنارة يستهدي بنورها الملتمسون دروب التجديد والإصلاح[1] .

2 . من شروط المجدد وصفاته:

نستطيع أن نحدِّد أهم شروط المجدد والصفات التي ينبغي أن تتوافر فيه حتى يعد من المجددين من خلال سيرة عمر بن عبد العزيز رحمه الله.

أ . أن يكون المجدد معروفاً بصفاء العقيدة وسلامة المنهج:

وذلك لأن من أخصِّ مهمات التجديد إعادة الإسلام صافياً نقياً من كل العناصر الدخيلة، وهذا لا يحصل إلا إذا كان المجدد من السائرين على منهج الرسول ﷺ وصحابته الكرام، ومن الطائفة الناجية المنصورة التي جاء وصفها بأنها فرقة من ثلاث وسبعين فرقة، وأنها تلزم ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه في عقيدته، ومنهجه وتصوراته[2] وهذا الشرط قد توفَّر في عمر بن عبد العزيز، وسوف نوضحها في اثاره العقدية عند دراستها بإذن الله تعالى.

ب . أن يكون عالماً مجتهداً:

وهذا الشرط تحقق في عمر بن عبد العزيز؛ فقد واجه المشكلات التي تولدت في عصره، واجتهد في وضع الحلول الشرعية لها، وفي الحقيقة: إن رتبة الاجتهاد ليست عسيرة إلى الحد الذي تصوره بعض كتب أصول الفقه، وممن ذهب إلى وضع شروط يكاد يكون من المحال الإحاطة بها، حيث أوجبوا أن يحيط المجتهد بعلوم الالة كلها من نحو ولغة وبلاغة، وبعلوم الشريعة من تفسير وحديث وأصول فقه وعلوم قران ومصطلح حديث وسيرة، وبعلمي المنطق وعلم الكلام، وغير ذلك مما يصعب الإحاطة به[3] ، والصواب أن الاجتهاد سهل ميسور، لمن كانت عنده أهلية النظر، والمهم أن نعلم أن المجدد يشترط فيه أن يكون محيطاً بمدارك الشرع، قادراً على الفهم والاستنباط، مطَّلعاً على أحوال عصره، فقيهاً بواقعه[4] .

([1]) التجديد في الفكر الإسلامي ، ص 87.

([2]) المصدر السابق نفسه ، ص 46.

([3]) عون المعبود (392/11).

([4]) التجديد في الفكر الإسلامي ، ص 46.

يقول المناوي: إن على المجدد أن يكون: قائماً بالحجة، ناصراً للسنة، له ملكة رد المتشابهات إلى المحكمات، وقوة استنباط الحقائق والنظريات، من نصوص الفرقان وإرشاداته ودلالاته واقتضاءاته، من قلب حاضر وفؤاد يقظان[1]. ويقول العظيم ابادي: إن المجدد للدين لابد أن يكون عالماً بالعلوم الدينية الظاهرة والباطنة، ناصراً للسنة، قامعاً للبدعة[2]، ويقول المودودي: من الخصائص التي لابد أن يتصف بها المجدد؛ هي: الذهن الصافي، والبصر النفاذ، والفكر المستقيم بلا عوج، والقدرة النادرة على تبيين سبيل القصد بين الإفراط والتفريط، ومراعاة الاعتدال بينهما، والقوة على التفكير المجرد عن تأثير الأوضاع الراهنة، والعصبيات الراسخة على طول القرون، والشجاعة والجرأة على مزاحمة سير الزمان المنحرف[3] ، ويقول في تعداده لعمل المجدد: الاجتهاد في الدين، والمراد به أن يفهم المجدد كليات الدين، ويتبين اتجاه الأوضاع المدنية والرقي العمراني في عصره، ويرسم طريقاً لإدخال التعبير والتعديل على صورة التمدن القديمة المتوارثة، يضمن للشريعة سلامة روحها وتحقيق مقاصدها، ويمكّن الإسلام من الإمامة العالمية في رقي المدنية الصحيح.

جـ أن يشمل تجديده ميداني الفكر والسلوك في المجتمع:

وذلك لأن تصحيح الانحراف من أخص المهمات التي ينبغي أن يقوم بها المجدد، ومعلوم أن الانحراف يطرأ على السلوك كما يطرأ على الفكر، بل إن غالب الانحرافات السلوكية منشؤها الخرافات الفكرية، فيقوم المجدد بتصويب الأفهام والأفكار، وتخليصها مما داخلها من شكوك وشبهات، ويحيي العلم النافع، والفهم الصحيح للإسلام، ويبثه بين الناس، وينشره بالتدريس، وتأليف الكتب، وغير ذلك من الوسائل المتاحة، ثم يعمد إلى إصلاح سلوك الناس وتقويم أخلاقهم، وتزكية نفوسهم، وإبطال التقاليد المخالفة للشريعة، وإعلان الحرب على البدع والخرافات، والمنكرات المتفشية في حياة الناس، ومواجهة الفساد بمختلف أشكاله وصوره، وخاصة الفاسد في الحكم والإمارة، بهذا يكون المجدد قد جمع بين القول والفعل، والعلم والعمل، وقد أشار السلف إلى هذا الشرط بقولهم عن المجدد: إنه ينصر السنة ويقمع البدعة[4].

([1]) فيض القدير ، للمناوي (14/1).

([2]) عون المعبود (319/11).

([3]) موجز تاريخ تجديد الدين ، للمودودي ، ص 52.

([4]) عون المعبود (391/11)؛ التجديد في الفكر الإسلامي ، ص 48.

د . أن يعم نفعه أهل زمانه:

وذلك لأن المجدِّد رجل مرحلة زمنية، تمتد قرناً من الزمن، فلابد إذن من أن يكون منارة يستضيء بها الناس ويسترشدون بهداها، حتى مبعث المجدد الجديد على الأقل، وهذا يقتضي أن يعم علم المجدد ونفعه أهل عصره، وأن تترك جهوده الإصلاحية أثراً بيناً في فكر الناس وسلوكهم، وغالباً ما يتم تحقيق ذلك عبر من يربيهم من تلامذة، وأصحاب أوفياء، يقومون بمواصلة مسيرته الإصلاحية وينشرون كتبه وأفكاره ويؤسسون مدارس فكرية تترسم خطاه في الإصلاح والتجديد[1] .

3 . قول رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها»[2]. والدروس والعبر والفوائد المستنبطة منه:

يعد هذا الحديث إحدى البشائر بحفظ الله لهذا الدين مهما تقادم الزمان، وبكفالته سبحانه إعزاز هذه الأمة ببعثة المجددين الربانيين الذين يحيونها بعد موات، ويوقظونها من سبات، بما يحملونه من الهدى والنور، وأن هذا الحديث يمنح المسلم طاقة من الأمل الأكيد، بأن المستقبل للإسلام مهما تكاثرت قوى الشر، وتعاظم طغيان أهل الباطل، وبأن النور سيسطع مهما احلولك الليل، واشتد الظلام.

ونحن في الوقت الحاضر بحاجة ماسّة لتأكيد هذا المعنى، ونشره بين الناس، حتى نقاوم موجات اليأس والقنوط التي عمَّت النفوس، فجعلتها تستسلم للذل والخضوع والخنوع، بحجة أننا في اخر الزمان، وأنه لا فائدة ولا رجاء من كل جهود الإصلاح التي تبذل؛ لأن الإسلام في إدبار والكفر في إقبال، وها قد ظهرت علامات الساعة الصغرى، ونحن في انتظار العلامات الكبرى التي سيعقبها قيام الساعة، وقد يستدل أصحاب هذا الاتجاه ببعض الأحاديث، ويفهمونها على غير الوجه المراد منها[3] ، من ذلك استدلالهم بحديث أنس رضي الله عنه عند البخاري: «لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شرٌّ منه، حتى تلقوا ربكم»[4]، وحديث: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء»[5] . وينسون أنه لا يجوز أن نفهم هذه الأحاديث بمعزل عن الأحاديث الأخرى التي تحمل البشرى

([1]) التجديد في الفكر الإسلامي ، ص 48.

([2]) سلسلة الأحاديث الصحيحة (151/2).

([3]) التجديد في الفكر الإسلامي ، ص 55.

([4]) البخاري ، رقم (6541) ، كتاب الفتن.

([5]) مسلم ، كتاب الإيمان ، رقم (208).

والأمل للأمة، مثل حديث: «مثل أمتي مثل المطر لا يُدرى أوله خير أو اخره»[1] ، وفي قوم دون غيرهم، وفي زمن دون زمن، كما ذكر ابن القيم[2] ،

ولذلك شهد التاريخ الإسلامي حقباً من الظهور والإشراق كعهد عمر بن عبد العزيز[3]، ونور الدين، وصلاح الدين، ويوسف بن تاشفين، ومحمد الفاتح، وغيرهم.

وتجب الإشارة هنا إلى أن حديث التجديد الذي نحن بصدد شرحه، وكذا الأحاديث التي تحمل البشرى بعودة الإسلام إلى واجهة الحياة، وإن كانت أخباراً يقينية صدرت عن الصادق المعصوم، ولا بد أن تتحقق كما أخبر، إلا أنها تحمل في مضمونها تكليفاً واستنهاضاً لعزمات المسلمين بوجوب السعي الدؤوب لتحقيق نصر الله لهذا الدين وإعزاز أهله كما هي سنة الله في ترتيب المسببات على الأسباب[4] .

أ . في قوله ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة»[5]:

إن هذا المبعوث لم يعد همه نفسه فقط، بل تجاوز ذلك ليعيش لهذه الأمة، فهو صاحب عزيمة وهمة، يعيش هموم أمته ويبذل قصارى جهده مواصلاً عمل النهار بالليل، لينقذ هذه الأمة من وهدتها، ويعيد لها ثقتها بدينها، ويردها إلى المنهج الصحيح، مصابراً على ما يعترض سبيله من عقبات، ومغالباً كل المشقات والتحديات، ليصل إلى رفعة هذه الأمة وعودة مجدها[6] .

ب . قوله: «على رأس كل مئة سنة»[7] :

الرأس في اللغة يمكن أن يراد به أول الشيء، كما يمكن أن يراد به اخره [8] ، وقد اختلف العلماء في المراد من الرأس في هذا الحديث، فقال بعضهم: المراد: أول المئة وقال اخرون: المراد اخرها[9] ، وهذا ما اختاره ابن حجر[10]

([1]) سنن الترمذي ، رقم (2795) صحيح.

([2]) مدارج السالكين (196/3).

([3]) التجديد في الفكر الإسلامي ، ص 56.

([4]) الاجتهاد للتجديد ، عمر عبيد حسنة ، ص 7.

([5]) سلسلة الأحاديث الصحيحة (151/2).

([6]) التجديد في الإسلام؛ نقلاً عن التجديد في الفكر الإسلامي ، ص 57.

([7]) سلسلة الأحاديث الصحيحة (151/2).

([8]) عون المعبود (386/11).

([9]) المصدر السابق نفسه.

([10]) فتح الباري (295/13).

، والطيبي[1] ، والعظيم ابادي[2] ، وقد احتج العظيم ابادي لاختياره بكون الإمامين الزهري وأحمد بن حنبل وغيرهما من الأئمة المتقدمين والمتأخرين، اتفقوا على أن من المجددين على رأس المئة الأولى عمر بن عبد العزيز رحمه الله، وعلى رأس المئة الثانية الإمام الشافعي رحمه الله، وقد توفي عمر بن عبد العزيز سنة إحدى ومئة، وله أربعون سنة، ومدة خلافته سنتان ونصف، وتوفي الشافعي سنة أربع ومئتين[3]، ولا يمكن عد عمر بن عبد العزيز مجدد المئة الأولى باعتباره أولها؛ لأنه لم يكن مولوداً أولها فضلاً عن أن يكون مجددها، وكذا الإمام الشافعي لم تكن ولادته بداية المئة الثانية فضلاً عن أن يكون مجددها[4] .

جـ هل يشترط لعد المجدد أن تقع وفاته على رأس المئة؟:

يشترط بعض العلماء لاستحقاق المجدد هذا الوصف أن تقع وفاته على رأس القرن، إلا أن هذا الرأي مرجوح؛ لأن كلمة (البعث) في الحديث تدلُّ على الإرسال والإظهار، والموت قبض وزوال، فالمقصود من الحديث: أن المجدد من تأتي عليه نهاية القرن وقد ظهرت أعماله التجديدية، واشتهر بالصلاح وعمّ نفعه، ولا يشترط أن تقع وفاته قبيل نهاية القرن، أو أن يبقى حياً حتى يدخل عليه القرن التالي[5] .

د . هل مجدد القرن واحد أو متعدد؟:

أثار قوله ﷺ: «من يجدد لها دينها» سؤالاً في الماضي والحاضر، هو: هل المقصود بلفظة (من) الواردة في الحديث فرداً واحداً من أفراد الأمة وأفذاذها يحيي الله بها دينها، أم المراد بها ما هو أوسع من ذلك فيشمل الأفراد والجماعات، وذهب كثير من العلماء إلى أن المجدد فرد واحد، ونسب السيوطي هذا الرأي إلى الجمهور، فقال في أرجوزته عن المجددين:

وكــونُــه فــرداً هُــوَ المشـــــهـــورُ   [6]قــد نطقَ الحــديــثُ والجمـهورُ

([1]) عون المعبود (389/11).

([2]) المصدر السابق نفسه (387/11).

([3]) المصدر السابق نفسه.

([4]) التجديد في الفكر الإسلامي ، ص 58.

([5]) المصدر السابق نفسه ، ص 61.

([6]) عون المعبود (394/11).

وذهب فريق اخر من العلماء إلى أن كلمة (من) في الحديث للعموم في أصل وضعها اللغوي[1] ، فتشمل الواحد والجماعة على حد سواء[2]، ومن هؤلاء العلماء ابن حجر وابن الأثير والذهبي وابن كثير والمناوي والعظيم ابادي[3]، ويتبين من خلال البحث أن حمل لفظة (من) في الحديث عن العموم أولى، لأن التاريخ والواقع يثبت وجود أكثر من مجدد رأس كل قرن من القرون الخوالي، ولأن مهمة التجديد مهمة ضخمة واسعة؛ لكونها لا تقتصر على جانب من جوانب الدين، ولأن رقعة الأمة الإسلامية تمتد على مساحة شاسعة يصعب معها على فرد بل مجموعة أفراد أن يقوموا بعملية التجديد الشامل المطلق[4] .

هـ المجدد هو دين الأمة وليس الدين نفسه:

يلاحظ المتأمل في قوله ﷺ: «من يجدد لها دينها» أنه أضاف الدين إلى الأمة، ولم يقل يجدد لها الدين، وذلك لأن الدين بمعنى المنهج الإلهي الذي بعث الله به رسوله ﷺ، وما اشتمل عليه من عقائد وعبادات وأخلاق وشرائع تنظم علاقة العبد بربه وعلاقته بغيره من بني جنسه، ثابت كما أنزله الله لا يقبل التغيير ولا التجديد، وأما دين الأمة بمعنى علاقة الأمة بالدين ومدى تمسكها وتخلقها به وترجمتها له واقعاً ملموساً على الأرض، فهو المعنى القابل للتجديد ليعيد الناس إلى المستوى الذي ينبغي أن يكونوا عليه بعلاقتهم مع الدين[5] .

* * *

---

(1) التجديد في الفكر الإسلامي ، ص 61.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) المصدر السابق نفسه ، ص 62 ، 63.

(4) المصدر السابق نفسه ، ص 65.

(5) من أجل صحوة إسلامية ، للقرضاوي ، ص 26 . 27.

المبحث الثالث

اهتمام عمر بن عبد العزيز بعقائد أهل السنة

اهتم عمر بن عبد العزيز بعقائد أهل السنة وحرص على تعلمها وتعليمها وبثها بين الناس، وتناثرت أقواله في عقائد أهل السنة بين المراجع والمصادر الإسلامية من عقائد وتفسير وحديث وفقه وغيرها، وقام الأستاذ حياة بن محمد بن جبريل بجمع الكثير منها، ونال بهذا الجهد العلمي رسالة الماجستير، والكثير ممن كتب عن حياة عمر بن عبد العزيز لم يسلط الأضواء على هذا البعد المهم في حياته والمتعلق بحرصه على توعية الناس وتعليمه المعتقد الصحيح الذي جاء ذكره في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومن أهم الجوانب العقائدية التي تحدث فيها عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

أولاً: توحيد الألوهية:

توحيد الألوهية أساس دين الإسلام، بل هو أساس كل دين سماوي، به أرسل به جميع الرسل وأنزلت عليهم جميع الكتب، وهو الذي دعا إليه كل رسول من ادم عليه السلام إلى نبينا محمد ﷺ، بل هو الغاية من خلق الجن والإنسان، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦*} [الذاريات: 56] . وكان سلف هذا الأمة رحمهم الله يهتمون بهذا النوع من التوحيد ، وممن كان له إسهام في هذه المسألة عمر بن عبد العزيز[1] .

وقبل بيان ما أثر عنه فمن الأهمية بمكان بيان المقصود من توحيد الألوهية عند إطلاقه: فعرف بأنه: استحقاق الله سبحانه وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له[2] . وعرفه بعض الباحثين بأنه: توحيد الله بأفعال العباد، وهو المعبر عنه بتوحيد الطلب والقصد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، ومحبته وخوفه ورجاؤه والتوكل عليه والرهبة والرغبة منه وإليه وحده، والتقرب إليه بسائر العبادات البدنية والمالية دون إشراك أحد أو شيء من خلقه[3] ، وقد ورد عن عمر بن عبد العزيز اثار في الدعاء والتبرك والخوف والرجاء والتوكل والشكر:

---

(1) الاثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (199/1).

(2) شرح العقيدة الطحاوية (29/1).

(3) رسالة توحيد الألوهية أساس الإسلام ، للباحث حامد عبد القادر الأحمدي ، ص 7 ، مطبوع على الالة الكاتبة؛ نقلاً عن الاثار الواردة عن عمر في العقيدة (200/1).

1 . الدعاء:

أ . مر عمر بن عبد العزيز برجل في يده حصاة يلعب بها وهو يقول: اللهم زوجني من الحور العين، فقام إليه فقال: بئس الخاطب أنت، ألا ألقيت الحصاة، وأخلصت إلى الله الدعاء[1] . وفي هذا الأثر بيَّن عمر بن عبد العزيز أن من شروط الدعاء الإخلاص وحضور القلب، وهذا ما دل عليه الكتاب والسنة؛ قال تعالى: { فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١٤} [سورة غافر:14] ، وقال ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه»[2] .

ب . قال عمر بن عبد العزيز: اللهم إني أطعتك في أحب الأشياء إليك وهو التوحيد، ولم أعصِك في أبغض الأشياء إليك وهو الكفر، فاغفر لي ما بينهما[3] . فهنا توسل عمر بن عبد العزيز بالطاعة والتوحيد وطلب الغفران من الله تعالى، ولا شك أن التوسل بالأعمال الصالحة مشروع كحديث الثلاثة الذين أووا إلى الغار [4] ، فإنهم توسلوا بأعمالهم الصالحة ليجيب الله دعاءهم ويفرج كربتهم، وقد توسل المؤمنون بأعمالهم الصالحة من الإيمان، وقدموه قبل الدعاء، قال تعالى: { رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣} [سورة آل عمران:193] ، فإنهم قدموا الإيمان قبل الدعاء وأمثال ذلك كثير[5] .

جـ حصلت زلزلة بالشام، فكتب عمر بن عبد العزيز: أما بعد: فإن هذا الرجف شيء يعاتب الله به العباد، وقد كتب إلى أهل الأمصار أن يخرجوا يوم كذا من شهر كذا، فمن كان عنده شيء فليتصدق[6] .

قال الله عز وجل: {قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥ } [سورة الأعلى: 15-14] ، وقولوا كما قال ادم: {قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣} [سورة الأعراف:23] ، وقولوا كما قال نوح عليه السلام: { تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٤٧} [سورة هود:47] ، قولوا كما

([1]) الحلية (287/5)؛ سيرة عمر ، لابن الجوزي ، ص 84.

([2]) سنن الترمذي (483/5)؛ صحيح سنن الألباني ، رقم (2766).

([3]) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، ص 242.

([4]) مسلم ، رقم (2743).

([5]) الاثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (219/1).

([6]) سيرة عمر ، لابن عبد الحكم ، ص 64؛ الحلية (304/5 ، 305).

قال يونس عليه السلام: { لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧} [سورة الأنبياء:87] ، فقد أمر رحمه الله الرعية بالالتجاء إلى الله تعالى والتصدق والاستغفار والخروج إلى المصلى عندما حصلت الزلزلة بالشام[1].

د . قال ميمون بن مهران: كنت عند عمر بن عبد العزيز فكثر بكاؤه ومسألته ربه الموت، فقلت: لم تسأل الموت، وقد صنع الله على يديك خيراً كثيراً، أحيا بك سنناً، وأمات بك بدعاً ؟! قال: أفلا أكون مثل العبد الصالح حين أقر الله عينه وجمع له أمره قال: { ۞رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١} [سورة يوسف:101] ؟! وقد طلب الدعاء له بالموت على الإيمان ودعا به اقتداء بالصالحين، فهذا الدعاء من سنن المرسلين وهو من شعار الصالحين، وقد يكون أيضاً دعا به . رحمه الله . خوفاً من الفتنة في الدين، لاسيما عند وفاة أعوانه: ابنه عبد الملك، ومولاه مزاحم، وأخيه سهل، كما جاء في بعض الروايات[2] .

2 . الشكر:

عن يحيى بن سعيد قال: بلغني أن عمر بن عبد العزيز قال: ذكر النعم شكرها[3]، وقال عمر بن عبد العزيز: شيدوا نعم الله عز وجل بالشكر لله تعالى[4]، وكتب إلى بعض عماله فقال: .. أوصيك بتقوى الله، وأحثك على الشكر فيما عندك من نعمته واتاك في كرامته، فإن نعمه يمدها شكره ويقطعها كفره[5]. حث عمر بن عبد العزيز على شكر الخالق، فتبارك وتعالى على نعمه الكثيرة والائه الجسيمة، وهذا ما دلَّ عليه الكتاب والسنة، قال تعالى: {يوَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢} [سورة البقرة:172] ، وقال عز وجل: { فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ } [سورة البقرة:152]. والشكر يستلزم المزيد؛ قال تعالى:{وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ٧} [سورة إبراهيم:7] ، وما أثر عن عمر . رحمه الله تعالى . في هذا الجانب يبين منهج السلف في التعامل مع النعم التي ينعمها الخالق على عباده[6] .

(1) الاثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (220/1).

(2) العقد الفريد (396/4)؛ الاثار الواردة (224/1).

(3) مصنف ، ابن أبي شيبة ، (240/8).

(4) ابن أبي الدنيا ،كتاب الشكر لله تعالى ، ص 19.

(5) ابن أبي الدنيا ، ذم الدنيا ، ص 81.

(6) الاثار الواردة (230/1).

3 . التوكل:

قال الحكم بن عمر: كان لعمر بن عبد العزيز ثلاثمئة حرسيّ وثلاثمئة شرطي، فشهدته يقول لحرسه: إن لي عندكم بالقدر حاجزاً، وبالأجل حارساً، من أقام منكم فله عشرة دنانير، ومن شاء فليلحق بأهله[1] . ولما خرج عمر بن عبد العزيز من المدينة نظر مولاه مزاحم إلى القمر، فإذا القمر في الدبران[2] ، قال: فكرهت أن أقول ذلك له، فقلت: ألا تنظر إلى القمر ما أحسن استواءه في هذه الليلة، فنظر عمر فإذا هو بالدبران، فقال: كأنك أردت أن تعلمني أن القمر بالدبران ! يا مزاحم إنا لا نخرج بشمس ولا قمر، ولكننا نخرج بالله الواحد القهار[3] . يظهر حرص عمر على التوكل مع الأخذ بالأسباب المشروعة، والتوكل هو الاعتماد على الله مع الأخذ بالأسباب، وهو أصل من أصول التوحيد؛ قال تعالى: {فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ} [هود: 125] ، وقال عز وجل: {وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ} [سورة الفرقان:58] والتوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المكروه ، ويدفع بها المكروه، فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل، ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب. وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها[4] .

4 . في الخوف والرجاء:

عن يزيد بن عياض بن جعدبة، قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى سليمان بن أبي كريمة: إن أحق العباد بإجلال الله والخشية منه من ابتلاه بمثل ما ابتلاني به، ولا أحد أشد حساباً ولا أهون على الله إن عصاه مني؛ فقد ضاق بما أنا فيه ذرعي، وخفت أن تكون منزلتي التي أنا بها هلاكاً، إلا أن يتداركني الله منه برحمة، وقد بلغني أنك تريد الخروج في سبيل الله، فأحب يا أخي إذا أخذت موقفك أن تدعو الله أن يرزقني الشهادة، فإن حالي شديدة وخطري عظيم، فأسأل الله الذي ابتلاني بما ابتلاني به أن يرحمني ويعفو عني[5] .

وقال ربيع بن سبرة لعمر بن عبد العزيز وقد هلك ابنه وأخوه ومولاه مزاحم في أيام: يا أمير المؤمنين ما رأيت رجلاً أصيب في أيام متوالية بأعظم من مصيبتك، ما رأيت مثل ابنك ابناً، ولا مثل أخيك أخاً، ولا مثل مولاك مولى،

([1]) سير أعلام النبلاء (136/5).

([2]) لاثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (235/1).

([3]) سيرة عمر ، لابن عبد الحكم ، ص 32.

([4]) مدارج السالكين (125/2).

([5]) الطبقات (394/5 . 395)؛ الاثار الواردة (240/1).

قال: فنكس ساعة ثم قال لي: كيف قلت يا ربيع؟ فأعدتها عليه. فقال: لا، والذي قضى عليهم الموت؛ ما أحب أن شيئاً من ذلك كان لم يكن من الذي أرجو من الله فيهم[1] .

وعن قتادة: أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى ولي العهد من بعده: بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى يزيد بن عبد الملك: السلام عليك: فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإني كتبت إليك وأنا دنف[2] من وجعي، وقد علمتني أني مسؤول عما وليت يحاسبني عليه مليك الدنيا والآخرة، ولست أستطيع أن أخفي عليه من عملي شيئاً؛ يقول:{فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧} [سورة الأعراف:7] ، فإن يرضى عني الرحيم فقد أفلحت ونجوت من الهول الطويل، وإن سخط عليَّ فيا ويح نفسي إلى ما أصير، أسأل الله الذي لا إله إلا هو أن يجيرني من النار برحمته، وأن يمن علي برضوانه والجنة[3] .

ومن كلام عمر يتبين لنا جمعه بين الخوف والرجاء ولا شك أن الجمع بين الخوف والرجاء هو من عقيدة السلف الصالح، وهو توسط المؤمن بين الأمن من مكر الله واليأس من روح الله، فالسلف كانوا يخافون ربهم، ويرجون رحمته[4] ، وهم سائرون على ما قال تعالى:

{أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ۝٥٧} [سورة الإسراء:57] . وقد مدح الله أهل الخوف والرجاء بقوله:{أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ} [سورة الزمر:9]

* حياته مع الناس:

1 . اهتمامه بإصلاح المجتمع:

كان اهتمامه بإصلاح المجتمع كبيراً، وعمل على إزالة ما يتفشَّى فيه من المنكرات، وقد كتب في ذلك إلى أحد ولاته كتاباً طويلاً بليغاً، نورد بعض فقراته للأهمية وعظيم الفائدة، وفيه يقول: أما بعد فإنه لم يظهر المنكر في قوم قط ثم لم ينههم أهل الصلاح منهم إلا أصابهم الله بعذاب من عنده أو بأيدي من يشاء من عباده، ولا يزال الناس

([1]) المعرفة والتاريخ ، للفسوي (610/1)؛ الاثار الواردة (241/1).

([2]) دنف الرجل من مرضه : براه المرض حتى أشفى على الهلاك.

([3]) سيرة عمر ، لابن الجوزي ، ص 244.

([4]) الاثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (245/1).

معصومين من العقوبات والنِّقمات ما قمع فيهم أهل الباطل، واستخفي فيهم بالمحارم، فلا يظهر من أحد منهم محرَّم إلا انتقموا ممن فعله، فإذا ظهرت فيهم المحارم فلم ينههم أهل الصلاح نزلت العقوبات من السماء إلى الأرض على أهل المعاصي والمداهنين لهم، ولعل أهل الإدهان أن يهلكوا معهم وإن كانوا مخالفين لهم، فإني لم أسمع الله تبارك وتعالى فيما نزَّل من كتابه عند مَثُلَة أهلك بها أحداً نجَّى أحداً من أولئك، إلا أن يكونوا الناهين عن المنكر، ويسلط الله على أهل تلك المحارم إن هو لم يُصبهم من عنده أو بأيدي من يشاء من عباده من الخوف والذل والنِّقم، فإنه ربما انتقم بالفاجر من الفاجر وبالظالم من الظالم، ثم صار كلا الفريقين بأعمالهما إلى النار، فنعوذ بالله أن يجعلنا ظالمين، أو أن يجعلنا مداهنين للظالمين.

وإنه قد بلغني أنه قد كثر الفجور فيكم، وأمن الفسَّاق في مدائنكم وجاهروا من المحارم بأمر لا يحب الله تعالى من فعله، ولا يرضى المداهنة فيه، كان لا يُظهِر مثلَه علانية قومٌ يرجون لله وقاراً ويخافون منه غيراً، وهم الأعزون الأكثرون من أهل الفجور، وليس بذلك مضى أمر سلفكم، ولا بذلك تمت نعمة الله تعالى عليهم، بل كانوا كما قال تعالى: {أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ } [الفتح: 29]. { أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ} [المائدة: 54]

ولعمري إن من الجهاد في سبيل الله الغلظة على أهل محارم الله تعالى بالأيدي والألسن والمجاهدة لهم فيه، وإن كانوا الاباء، وإنما سبيل الله طاعته، ولقد بلغني أنه بطأ بكثير من الناس عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اتقاء التلاوم: أن يقال: فلان حسن الخلق قليل التكلُّف، مقبل على نفسه، وما يجعل الله أولئك أحاسنكم أخلاقاً، بل أولئك أسوؤكم أخلاقاً، وما أقبل على نفسه من كان كذلك، بل أدبر عنها، ولا سلم من الكلفة لها، بل وقع فيها، إذ رضي لنفسه من الحال غير ما أمر الله أن يكون عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[1] .

ففي هذا الكتاب المهم يبين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى سنة الله جل وعلا التي لا تتخلف، وهي: أن أيَّ مجتمع يجاهر فيه أهل الفساد بمعاصيهم، ثم لا ينهاهم أهل الصلاح ولا ينكرون عليهم؛ فلا بد أن يصيبهم الله تعالى بإحدى ثلاث: أن يصيبهم الله بعذاب من عنده، أو أن يصيبهم بعذاب على أيدي من يشاء من عباده، وقد يكون هؤلاء من الظلمة الجبارين فينتقم الله بهم من العصاة الفجار، أو يصيبهم الله بالخوف والجوع والذل وأنواع النِّقم والمصائب.

([1]) سيرة عمر ، لابن عبد الحكم ، ص 160.

ويبين عمر في هذا الكتاب أن السكوت عن أهل المعاصي المجاهرين ليس من عمل الصحابة رضي الله عنهم، بل قد وصفهم الله تعالى بالشدة والغلظة على المخالفين المجاهرين بالمعاصي، ويذكر أن من الجهاد في سبيل الله تعالى الغلظة على منتهكي محارم الله والإنكار عليهم بالأيدي والألسن وإن كانوا من أقرب الأقارب، وهذا التوسع في معنى الجهاد له أدلته الشرعية مثل قول الله جل وعلا: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ *} [التحريم: 9]. وإنما يكون جهاد المنافقين بالإنكار عليهم والشدة معاملتهم[1].

ويصحح عمر في هذا الكتاب مفهوماً خاطئاً عند بعض الناس، وهو وصفهم القاعد عن إنكار المنكر بأنه حسن الخلق قليل التكلف مقبل على نفسه، حيث يبين أن هذا سيِّئ الخلق، حيث يتعامل مع المخالفين بالسلبية وعدم المبالاة، مع أنهم بحاجة إلى الشفقة والرحمة، وإنما يظهر ذلك بمحاولة إصلاحهم، ويرد على قولهم بأنه قليل التكلف مقبل على نفسه بأنه لم يقبل على نفسه بمحاولة إنقاذها من النار ورفع درجتها في الجنة، بل أقبل على هلكتها، حيث إن السكوت عن الإنكار معصية يحاسب عليها مرتكبها، وقد تورده إلى النار، وإذا كان في مفهوم الناس أن الساكت قليل التكلف؛ فإنه قد تكلف أمراً عظيماً حيث خالف أمر الله تعالى ورسوله ﷺ بما وجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[2].

وكانت كتب عمر بن عبد العزيز كلها في إصلاح المجتمع كما جاء في خبر إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال: ما كان يقدم على أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم كتاب من عمر إلا فيه رد مظلمة أو إحياء سنة أو إطفاء بدعة أو قَسْم أو تقدير عطاء أو خير، حتى خرج من الدنيا[3] .

2 . تذكيره الناس بالآخرة:

خطب عمر بن عبد العزيز ذات يوم فقال: إني لم أجمعكم لأمر أحدثته، ولكني نظرت في أمر معادكم وما أنتم إليه صائرون فوجدت المصدِّق به أحمق، والمكذب به هالكاً. ثم نزل[4] .

وهذه خطبة بليغة على قصرها، فإنها تذكرة حية بمصير الإنسان بعد الموت، فالذي يؤمن بالبعث بعد الموت وما قبله من عذاب القبر ونعيمه، وما بعد ذلك من الحساب والمصير إلى النعيم الدائم أو إلى الشقاء الدائم، ثم لا يعد

([1]) التاريخ الإسلامي (15 ، 130/16).

([2]) المصدر السابق نفسه (15 ، 130/16).

([3]) طبقات ابن سعد (342/5).

([4]) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، ص 42.

العدة الكافية لذلك اليوم يعتبر حقاً أحمق؛ حيث لم يستعمل عقله في الإعداد لمستقبله بعد الموت مع إيمانه بما سيكون فيه[1] .

ومن خطبه في تذكير الناس بالموت والآخرة، فقد بين عمر في بعض خطبه أن الإنسان خلق للأبد ولكنه من دار إلى دار ينقل؛ قال عمر: إنما خلقتم للأبد، ولكنكم من دار إلى دار تنقلون[2].

وقال في إحدى خطبه: يا أيها الناس، لا تغرنكم الدنيا والمهلة فيها، فعن قليل عنها تنقلون وإلى غيرها ترحلون، فالله الله عباد الله في أنفسكم فبادروا بها الفوت قبل حلول الموت، ولا يطل بكم الأمد، فتقسو قلوبكم فتكونوا كقوم دعوا إلى حظهم فقصروا عنه بعد المهلة، فندموا على ما قصروا عند الآخرة[3] .

وقد تحدث عمر بن عبد العزيز عن الموت والآخرة والاستعداد للقاء الله كثيراً في خطبه ومواعظه رحمه الله.

3 . تصحيح المفاهيم الخاطئة:

قال عمر في إحدى خطبه: أما بعد أيها الناس فلا يطولن عليكم الأمد، ولا يبعدن عليكم يوم القيامة، فإن من وافته منيته فقد قامت قيامته، لا يستعتب من شيء ولا يزيد في حسن، ألا لا سلامة لامرئ في خلاف السنة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الله، ألا وإنكم تعدون الهارب من ظلم إمامه عاصياً، ألا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم، ألا وإني أعالج أمراً لا يعين عليه إلا الله، قد فني عليه الكبير، وكبر عليه الصغير، وفصح عليه الأعجمي، وهاجر عليه الأعرابي، حتى حسبوه ديناً لا يرون الحق غيره، ثم قال: إنه لحبيب عليّ أن أوفر أموالكم وأعراضكم إلا بحقها ولا قوة إلا بالله[4] .

ففي هذه الخطبة يُذَكِّر عمر بن عبد العزيز المسلمين بقرب يوم القيامة، فإن من وافته منيته قامت قيامته، فلينظر إلى الموت الذي قد يفاجئه في أية لحظة، وحينها لا يستطيع أن يعتذر من أعماله السيئة التي سوّد بها صحيفته، ولا يستطيع أن يستزيد من عمل صالح يبيِّض به صحيفته، ويندم حينما لا ينفع الندم على ما فاته في حياته يوم أن كان قادراً على التوبة النصوح والتزود بالعمل الصالح، ثم يبين أن السلامة كل السلامة من اتباع سنة رسول الله

([1]) التاريخ الإسلامي (15 ، 118/16).
([2]) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (448/2).
([3]) المصدر السابق نفسه (449/2).
([4]) سيرة عمر ، لابن عبد الحكم ، ص 43.

ﷺ، وهذا بيان لأحد عنصري العمل الصالح، وهما: الإخلاص لله تعالى ومتابعة السنة، وهو بهذا يعالج واقعاً لا ينقص العمل فيه الإخلاص، وإنما ينقصه اتباع السنة، حيث فشت البدع بعد انقراض عهد الصحابة رضي الله عنهم، وفساد بعض الولاة الذين يحاربون بعض السنن التي لا تتفق مع أهوائهم.

ثم بيَّن أحد العواصم التي تعصم من انتشار البدع وفساد أمور الأمة؛ حيث قال: ولا طاعة لمخلوق في معصية الله. فإذا كان بعض الولاة قد تسول لهم نفوسهم الأمارة بالسوء أو مجاملة الاخرين بأن يأمروا الناس بمعصية الله، أو يمهدوا السبل لذلك، فإنه لا طاعة لهم، وبهذا ينقطع سبب مهم من أسباب سريان تلك المخالفات، وهو ما لولاة الأمر من طاعة على الأمة، فإذا تحددت هذه الطاعة بطاعة الله تعالى لم يكن لهوى النفوس تأثير على انتشار الفساد في المجتمع وتصبح الكلمة لأهل الإصلاح.

ثم يبين أن ما جرى عليه العرف من اعتبار الهارب من إمامه الظالم عاصياً ليس له اعتبار في النظر الشرعي؛ لأن تصرفه هذا هو أحد الأسباب التي يتخذها للخلاص من الظلم، وأولى من يوصف بالمعصية من وقع منه الظلم، وكون عمر يبين هذا وهو في أعلى موقع من المسؤولية ـ كخليفة ـ دليل على تجرده من حظ النفس ومن العصبية للقرابة، وإخلاصه لله تعالى.

ثم يصف الواقع الاجتماعي الذي اختلطت فيه العادات بالدين والبدع بالسنن، ونشأ عليه أفراد المجتمع، وتربّى على توجيهه من أسلم من العجم، ومن هاجر من الأعراب حتى حسبوه هو الدين، وحينما يختلط العرف الاجتماعي فيتسرب إلى العرف الإسلامي بعض الأعراف الجاهلية؛ فإن ذلك يؤثر على تربية أفراد المجتمع وتتشربه قلوبهم ؛ لأن الأعراف الجاهلية تميل إلى تلبية أهواء النفوس وإن كانت منحرفة جائرة، فيصعب بعد ذلك على المصلحين أن يخلّصوا العرف الاجتماعي الإسلامي من تلك الأخلاط المتسرّبة المتراكمة على مر الزمن، لأن كل انحراف له أنصاره ومؤيدوه، وليس كل أفراد المجتمع يفهمون الأمور على حقيقتها، وحينما يقوم المصلحون بمحاولة التنقية يقوم دعاة السوء بتشويه إصلاحهم ودعوة الناس إلى البقاء على الموروثات، لأن كونها موروثات يعطيها في نظر بعض الناس شيئاً من القداسة، ولكن حينما ينبع الإصلاح من أعلى قمة في المسؤولية كما هو الحال في عهد عمر بن عبد العزيز؛ فإن نتائج الإصلاح تكون كبيرة وسريعة المفعول، لأن معه ما خوَّله الله تعالى من طاعة الرعية ما دام في طاعة الله تعالى، إلى جانب قوة السلطان المعهودة[1] .

([1]) التاريخ الإسلامي (15 ، 121/16).

4 . إنكاره العصبية القبلية:

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الضحاك بن عبد الرحمن، وكان مما جاء في كتابه: إن ما هاجني على كتابي هذا أمر ذكر لي عن رجال من أهل البادية، ورجال أمروا حديثاً، ظاهر جفاؤهم، قليل علمهم بأمر الله، اغتروا فيه بالله غرة عظيمة، ونسوا فيه بلاءه نسياناً عظيماً، وغيروا فيه نعمه تغييراً لم يكن يصلح لهم أن يبلغوه، وذكر لي أن رجالاً من أولئك يتحاربون إلى مُضر وإلى اليمن، يزعمون أنهم لهم ولاية على من سواهم، وسبحان الله وبحمده ما أبعدهم من شكر نعمة، وأقربهم من كل مهلكة ومذلة وصُغُر، قاتلهم الله أية منزلة نزلوا، ومن أي أمان خرجوا، أو بأي أمر لصقوا، ولكن قد عرفت أن الشقي بنيته يشقى، وأن النار لم تخلف باطلاً. أو لم يسمعوا إلى قول الله في كتابه: {إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾} [سورة الحجرات:10] . وقوله: { ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾} [سورة المائدة:3]

وقد ذكر لي مع ذلك أن رجالاً يتداعون إلى الحلف، لا حلف في الإسلام، قال: وما كان من حلف في الجاهلية فلم يزده الإسلام إلا شدة، فكان يرجو أحد من الفريقين حفظ حلفه الفاجر الاثم الذي فيه معصية الله ومعصية رسوله، وقد ترك الإسلام حين انخلع منه، وأنا أحذر كل من سمع كتابي هذا ومن بلغه أن يتخذ غير الإسلام حصناً أو دون الله ودون رسوله ودون المؤمنين وليجة، تحذيراً بعد تحذير، وأذكرهم تذكيراً بعد تذكير، وأشهد عليهم الذي هو اخذ بناصية كل دابَّة، والذي هو أقرب إلى كل عبد من حبل الوريد، وإني لم الُكم بالذي كتبت به إليكم نصحاً، مع أني لو أعلم أن أحداً من الناس يحرّك شيئاً ليُؤخذ له به أو ليدفع عنه . أحرص . والله المستعان . على مذلته؛ من كان: رجلاً أو عشيرة أو قبيلة أو أكثر من ذلك، فادع إلى نصيحتي وما تقدمت إليكم به، فإنه هو الرشد ليس له خفاء، ثم ليكن أهل البر وأهل الإيمان عوناً بألسنتهم، وإن كثيراً من الناس لا يعلمون. نسأل الله أن يخلف فيما بيننا بخير خلافة في ديننا وأُلفتنا وذات بيننا، والسلام[1] .

في هذا الكتاب يعالج أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز انحرافاً خطيراً طرأ على المجتمع الإسلامي انداك، وهو أن طائفة من المسلمين الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم، ولم تعمر أفكارهم بالعلم الشرعي، فقد اتخذوا لأنفسهم علاقات من روابط الجاهلية التي تقوم على القبائل والعشائر، فيعطي الواحد منهم ولاءه لقبيلته سواء بالحق أو

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الحكم ، ص 103 . 106.

بالباطل، وسواء بالعدل أو بالظلم، ويجعل من قبيلته قضية يهتم لها ويدافع عنها ويدعو لها، حتى أصبحوا بها إخوة في الله متحابين بعد أن كانوا أعداء متحاربين، وسادوا بجماعتهم العالم، وقد استفحلت هذه القضية حتى أصبح بعض المجاهدين يتحاربون بينهم بدعوى قبليَّة، مما سبب تأخراً في تقدم الجهاد، وجرأ أصحاب البلاد المفتوحة على الانتقاض على المسلمين مرة بعد مرة، ووصلت الحال في بعض البلاد إلى أنه كلما تولى رجل له قبيلة في تلك البلاد قرب أفراد قبيلته وقواهم وتقوَّى بهم، فتحدث الفتنة وتثور القبائل الأخرى، وما ذاك إلا بسبب طرح رابطة الإسلام التي هي نعمة كبرى على المسلمين، واتخاذ الروابط الجاهلية بديلاً عنها[1] .

5 . رفضه للقيام بين يديه:

لما ولي عمر بن عبد العزيز قام الناس بين يديه، فقال: يا معشر المسلمين إن تقوموا نقم، وإن تقعدوا نقعد، فإنما يقوم الناس لرب العالمين، وإن الله فرض فرائض وسن سنناً، من أخذ بها لحق ومن تركها مُحِق[2] .

أراد عمر أن يقضي على العادات الموروثة التي أشبه بها الولاة انذاك الأكاسرة والقياصرة، وعزم بشكل صارم على العودة بالأمة إلى منهج الخلفاء الراشدين، وعمر هنا يحجِّم دافعين قويين يدفعانه إلى مجاراة عشيرته في مظاهرهم.. أولهما: طموح النفس نحو الظهور وفرض السلطة والهيبة في قلوب الناس، وثانيهما: رغبة عشيرته الملحة في الإبقاء على هذه المظاهر، وتشنيعهم عليه في مخالفة ما كان عليه أسلافه، ولكنه تغلب على هذين الدافعين بحزم وإيمان قوي، وكان الدافع الذي يدفعه إلى التواضع ورفض المظاهر الدنيوية هو خوفه من الله تعالى، ورغبته فيما عنده، وطموح فكره نحو الآخرة وتجاوز المستقبل الدنيوي، وكان هذا الدافع أقوى بكثير من الجواذب الأرضية، فنجح في إلجام نفسه عن هواها، وإسكات أصحاب المظاهر الخادعة، وتصحيح مفاهيم المجتمع فيما يجب أن تكون عليه الولاة والعلاقة بينهم وبين الرعية. وفي قوله: إن الله فرض فرائض. بيان لأسباب السعادة والشقاوة الحقيقية في الدنيا والآخرة، فمن طبقها لحق بركب المتقين في الدنيا، وأكرم به من رفقة صالحة، وسيق يوم القيامة إلى رضوان الله تعالى والجنة، وأكرم به من مال وعاقبة[3] .

6 . تقديره أهل الفضل:

ذكر الحافظ ابن كثير: أن ولد قتادة بن النعمان وفد على عمر بن عبد العزيز فقال له: من أنت؟ فقال مرتجلاً:

([1]) التاريخ الإسلامي (15 ، 124/16).

([2]) تاريخ دمشق؛ نقلاً عن التاريخ الإسلامي (15 ،114/16).

([3]) التاريخ الإسلامي (15 ، 115/16).

أنا ابن الذي سالت على الخدِّ عينه فرُدَّت بكفِّ المصطفى أحسن الـرَّدِّ

فعادتْ كما كانتْ لأولِ أمرِهَا فيا حُسْنَها عيناً ويا حُسْنَ ما رَدِّ

فقال عمر بن عبد العزيز عند ذلك:

تلكَ المكارمُ لا قعبانَ من لبنٍ شيبا بماءٍ فعادا بعدُ أبوالا

ثم وصله وأحسن جائزته رضي الله عنه [1] .

ففي هذا الخبر موقف لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى في إكرام ولد قتادة بن النعمان لما وفد عليه حينما عرف نفسه بما حدث لأبيه رضي الله عنه في هذا الخبر على يد رسول الله ﷺ، وهذا يدل على تفوق عمر بن عبد العزيز في المجال الأخلاقي، وذلك بتقدير أهل الفضل، والتقدم في خدمة الإسلام والمسلمين، فإن ما حدث لقتادة رضي الله عنه من اقتلاع عينه بتلك الصورة شاهد على إيغاله في القتال وتعرضه للمهالك، كما أنه شرف له أن تمثلت فيه تلك المعجزة النبوية[2].

ومن تقديره لأهل الفضل ما قام به لزياد مولى ابن عياش، فقد قدم عليه زياد مولى ابن عياش، وأصحاب له، فأتى الباب وبه جماعة من الناس فأذن له دونهم، فدخل عليه فنسي أن يسلم عليه بالخلافة، ثم ذكر فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال له عمر: والأُولى لم تضرني، ثم نزل عمر عن موضع كان عليه إلى الأرض، وقال: إني أعظم أن أكون في موضع أعلو فيه على زياد، فلما قضى زياد ما يريد خرج، فأمر عمر خازن بيت المال أن يفتحه لزياد ومن معه يأخذون منه حاجتهم، فنظر إليه خازن بيت المال فاقتحمته عينه أن يكون يُفتح لمثله بيت المال ويسلَّطُ عليه ـ وهو به غير عارف ـ ففعل الخازن ما أمر به، فدخل زياد فأخذ لنفسه ولأصحابه بضعاً وثمانين درهماً أو بضعاً وتسعين درهماً، فلما رأى ذلك الخازن قال: أمير المؤمنين أعلم بمن يسلط على بيت المال[3] .

---

(1) سيرة عمر ، لابن الجوزي ، ص 96؛ التاريخ الإسلامي (15 ، 22/16).

(2) التاريخ الإسلامي (15 ، 23/16).

(3) سيرة عمر ، لابن عبد الحكم ، ص 53؛ التاريخ الإسلامي (24/15).

ففي هذا الخبر صورة من تواضع عمر بن عبد العزيز رحمه الله وتقديره للعلماء الربانيين؛ فهو أولاً لم يبال بلقب الخلافة وهو أعلى لقب عند المسلمين، والمناصب لها فتنة يقع في حبائلها من اغتروا بالجاه والمنزلة الدنيوية، أما أقوياء الإيمان؛ فإن شخصيتهم لا تتغير بعد المنصب، بل يظلون على ما هم عليه من التواضع، وربما زادوا تواضعاً في مقابلة احترام الناس لهم. ثم هو ثانياً نزل من مكانه حتى لا يعلو ذلك العالم الرباني زياد بن أبي زياد مولى عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة، وكون ذلك العالم من الموالي لا ينزل من قدره عند عمر، فإن العبرة بالعلم والتقوى لا بشرف النسب، وموقف كريم لهذا العالم الرباني حيث لم يأخذ من بيت المال إلا ذلك القدر الزهيد مع أنه قد مكن منه، وهذا مثال رفيع من أمثلة الزهد والورع، وحينما تكون النفوس كبيرة والعقول راجحة فإنها تعف عن متاع الدنيا الذي يتنافس عليه الصغار، وتطمح ببصرها نحو نعيم الآخرة الخالد الذي يتنافس فيه الكبار(1) .

7 . المرء بأصغريه قلبه ولسانه:

كان بين وفد المهنئين لعمر بالخلافة من أهل الحجاز غلام صغير، وكان الوفد قد اختار الغلام ليتكلم عنهم، وهو أصغرهم، فلما بدأ بالكلام قال له عمر: مهلاً يا غلام ليتكلم من هو أسن منك، فقال الغلام: مهلاً يا أمير المؤمنين، المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، فإذا منح الله العبد لساناً لافظاً وقلباً حافظاً، فقد استجاد له الحلية (2)، يا أمير المؤمنين لو كان التقدم بالسن لكان في الأمة من هو أسن منك. أي: أحق بمجلسك هذا من هو أكبر منك سناً(3) .. فقال عمر: تحدث يا غلام، قال: نعم يا أمير المؤمنين، نحن وفود التهنئة لا وفود المرزئة(4)، قدمنا إليك من بلدنا، نحمد الله الذي منَّ بك علينا، لم يخرجنا إليك رغبة ولا رهبة، أما الرغبة فقد أتانا منك إلى بلدنا، وأما الرهبة فقد أمّننا الله بعدلك من جورك(5) ، فأعجب عمر بفصاحة الغلام وعلمه، وسداد رأيه، فما كان من عمر إلا أن شجعه على ذلك، وزاده ثقة بنفسه وجراءة ليكون هذا الحادث موقفاً تربوياً يتعلم فيه الغلام في حضرة خليفة المسلمين، فطلب منه الموعظة، فقال:

---

(1) التاريخ الإسلامي (15، 24/16).

(2) استجاد له الحلية: استحق أن يتكلم.

(3) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز ، ص 79.

(4) الارتزاء: انتقاص الشيء. والمرزئة: الرزيئة وهي المصيبة.

(5) مروج الذهب (197/3).

عظنا يا غلام وأوجز، فقال: نعم يا أمير المؤمنين، إن أناساً من الناس غرهم حلم الله عنهم، وطول أملهم وحسن ثناء الناس عليهم، فلا يغرنك حلم الله عنك، وطول أملك، وحسن ثناء الناس عليك فتزل قدمك، ثم نظر عمر في سن الغلام فإذا هو قد أتت عليه بضع عشرة سنة، فأنشأ يقول:

تعلَّمْ فليسَ المرءُ يولدُ عالماً ... وليسَ أخو علمٍ كمنْ هو جاهلُ

وإنَّ كبيرَ القومِ لا علم عندَهُ ... صغيرٌ إذا التفتْ عليهِ المحافلُ[1]

8 . امرأة مصرية تشتكي لعمر:

كان عمر يتابع أمور المسلمين ويفتح الأبواب على مصراعيها لسماع أخبارهم، فقد كان بريد عمر بن عبد العزيز لا يعطيه أحدٌ من الناس إذا خرج كتاباً إلا حمله، فخرج بريد من مصر فدفعت إليه فرتونة السوداء مولاة ذي أصبح كتاباً تذكر فيه أن لها حائطاً قصيراً، وأنه يقتحم عليها فيسرق دجاجها، فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء مولاة ذي أصبح، بلغني كتابك وما ذكرتِ من قصر حائطك، وأنه يدخل عليك فيسرق دجاجك، فقد كتبت كتاباً إلى أيوب بن شرحبيل . وكان أيوب عامله على صلاة مصر وحربها . آمره أن يبني لك ذلك ويحصنه لك مما تخافين إن شاء الله. وكتب إلى أيوب بن شرحبيل: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى ابن شرحبيل، أما بعد: فإن فرتونة مولاة ذي أصبح كتبت تذكر قصر حائطها، وأنه يسرق منه دجاجها، وتسأل تحصينه لها، فإذا جاءك كتابي هذا فاركب أنت بنفسك إليه حتى تحصنه لها.

فلما جاء الكتاب إلى أيوب ركب ببدنة حتى أتى الجيزة يسأل عن فرتونة حتى وقع عليها، وإذا هي سوداء مسكينة فأعلمها بما كتب به أمير المؤمنين وحصنه لها[2] .

9 . اهتمامه بفداء الأسرى:

كتب إلى الأسارى بالقسطنطينية: أما بعد فإنكم تعدون أنفسكم أسارى، معاذ الله ! بل أنتم الحبساء في سبيل الله، واعلموا أنني لست أقسم شيئاً بين رعيتي إلا خصصت أهليكم بأوفر نصيب وأطيبه، وإني قد بعثت إليكم

---

(1) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز ، ص 98.

(2) سيرة عمر ، لابن عبد الحكم ، ص 163 . 164؛ التاريخ الإسلامي (15 ،77/16).

خمسة دنانير، ولولا أني خشيت إن زدتكم أن يحبسه طاغية الروم عنكم لزدتكم، وقد بعثت إليكم فلان بن فلان يفادي صغيركم وكبيركم، ذكركم وأنثاكم، حركم ومملوككم بما سئل به، فأبشروا ثم أبشروا، والسلام عليكم[1] .

وفي هذا الكتاب يتجلى سمو أخلاق عمر وعظم شعوره بالمسؤولية كنموذج راقٍ لحاكم مسلم يخاف الله فيراعيه، ويتقي الله في حقوق رعيته بمنتهى الإخلاص والأمانة ؛ حيث واسى أسرى المسلمين لدى الروم، حيث شبههم بالمرابطين الذين حبسوا أنفسهم في سبيل الله تعالى، فهم بهذا ينالون أجر المرابطين، وإن جانب هذه المواساة المعنوية فإنه قد واساهم بالمال الذي أمدهم به، وأزاح الهمّ عنهم بما أخبرهم به من كفالة أسرهم في حال غيبتهم، كما أنه وعدهم بمفاداتهم لفك أسرهم، وهذه معاملة كريمة يستحقها هؤلاء الأسرى الذين خرجوا بأنفسهم لحماية الإسلام ونصره[2] .

10 . قضاء ديون الغارمين:

كتب إلى عماله: أن اقضوا عن الغارمين، فكُتب إليه: إنّا نجد الرجل له المسكن والخادم، وله الفرس، وله الأثاث في بيته، فكتب عمر: لا بد للرجل من المسلمين من مسكن يأوي إليه رأسه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوه، وأثاث في بيته، ومع ذلك فهو غارم، فاقضوا عنه ما عليه من الدين[3] .

ففي هذا الخبر يأمر أمير المؤمنين عمر بقضاء الديون عن الغارمين وإن كانوا يملكون المسكن والأثاث والخادم والفرس، وهو مظهر عظيم من مظاهر الرحمة والمواساة، والاهتمام بشؤون الرعية، وهكذا يتصرف الأئمة العادلون بأموال الأمة، حيث يغنون بها فقيرها، ويجبرون بها كسيرها، ويفكون بها أسيرها، ويقضون بها عن معسرها، ويسدون بها خلة معوزها[4] .

11 . خبر الأسير الأعمى عند الروم:

أرسل عمر بن عبد العزيز إلى صاحب الروم رسولاً، فأتاه وخرج من عنده يدور، فمر بموضع، فسمع فيه رجلاً يقرأ القران ويطحن، فأتاه فسلم عليه، فلم يرد عليه السلام ـ مرتين أو ثلاثاً ـ، ثم سلم عليه فقال له: وأنّى بالسلام في

([1]) سيرة عمر ، لابن عبد الحكم ، ص 163 ـ 164 .

([2]) التاريخ الإسلامي (15 ،77/16).

([3]) سيرة عمر ، لابن عبد الحكم ، ص 163 ، 164 .

([4]) التاريخ الإسلامي (15 ،77/16).

هذا البلد؟! فأعلمه أنه رسول عمر إلى صاحب الروم، قال له: ما شأنك؟ فقال: إني أسرت في موضع كذا وكذا، فأتي بي إلى صاحب الروم، فعرض علي النصرانية فأبيت، وقال لي: إن لم تفعل سملت عينيك، فاخترت ديني على بصري، فسمل عيني وصيَّرني إلى هذا الموضع، يرسل إلي كل يوم بحنطة أطحنها وبخبزة اكلها، فسار الرسول إلى عمر بن عبد العزيز فأخبره خبر الرجل، قال: فما فرغت من الخبر حتى رأيت دموع عمر قد بلّت ما بين يديه، ثم أمر، فكتب إلى صاحب الروم: أما بعد: فقد بلغني خبر فلان بن فلان فوصف له صفته، وأنا أقسم بالله لئن لم ترسله إلي لأبعثنَّ إليك من الجنود جنوداً يكون أولها عندك واخرها عندي.

ولما رجع إليه الرسول قال: ما أسرع ما رجعت! فدفع إليه كتاب عمر بن عبد العزيز، فلما قرأه قال: ما كنا لنحمل الرجل الصالح على هذا، بل نبعث إليه به، قال: فأقمت أنتظر متى يخرج به، فأتيته ذات يومٍ، فإذا هو قاعد قد نزل عن سريره أعرف في وجهه الكابة، فقال: تدري لم فعلت هذا؟ فقلت: لا ـ وقد أنكرت ما رأيت ـ فقال: إنه قد أتاني من بعض أطرافي أن الرجل الصالح قد مات، ولذلك فعلت ما فعلت، ثم قال: إن الرجل الصالح إذا كان بين القوم السوء لم يترك بينهم إلا قليلاً حتى يخرج من بين أظهرهم. فقلت له: أتأذن لي أن أنصرف ـ وأيست من بعثه الرجل معي ـ فقال: ما كنا لنجيبه إلى ما أمر في حياته، ثم نرجع فيه بعد مماته، فأرسل معه الرجل[1] .

12 ـ المرأة العراقية التي فرض لبناتها من بيت المال:

قدمت امرأة من العراق على عمر بن عبد العزيز، فلما صارت إلى بابه قالت: هل على أمير المؤمنين حاجب؟ فقالوا: لا، فلجي إن أحببت، فدخلت المرأة على فاطمة وهي جالسة في بيتها، وفي يدها قطن تعالجه، فسلمت، فردت عليها السلام وقالت لها: ادخلي، فلما جلست المرأة رفعت بصرها ولم تر شيئاً له بال، فقالت: إنما جئت لأعمر بيتي من هذا البيت الخرب، فقالت لها فاطمة: إنما خرَّب هذا البيت عمارة بيوت أمثالك، قال: فأقبل عمر حتى دخل الدار، فمال إلى بئر في ناحية الدار فانتزع منها دلاء فصبها على طين كان بحضرة البيت ـ وهو يكثر النظر إلى فاطمة ـ فقالت لها المرأة: استتري من هذا الطيّان؛ فإني أراه يديم النظر إليك، فقالت: ليس هو بطيان، هو أمير المؤمنين.

قال: ثم أقبل عمر فسلم ودخل بيته، فمال إلى مصلى كان له في البيت يصلي فيه، فسأل فاطمة عن المرأة، فقالت: هي هذه، فأخذ مكتلاً له فيه شيء من عنب فجعل يتخير لها خيره يناولها إياه، ثم أقبل عليها وقال: ما

([1]) سيرة عمر ، لابن عبد الحكم ، ص 168.

حاجتك؟ فقالت: امرأة من أهل العراق لي خمس بنات كُسْلٌ كسْد، فجئتك أبتغي حسن نظرك لهنَّ، فجعل يقول: كسل كسد، ويبكي، فأخذ الدواة والقرطاس فكتب إلى والي العراق، فقال: سمي كبراهنّ، فسمتها ففرض لها، فقالت المرأة: الحمد لله، ثم سأل عن الثانية والثالثة والرابعة، والمرأة تحمد الله ففرض لها، فلما فرض للأربعة استفزها الفرح فدعت له فجزته خيراً، فرفع يده وقال: كنا نفرض لهنّ حيث كنت تولين الحمد أهله، فمري هؤلاء الأربع يفضن على هذه الخامسة. فخرجت بالكتاب حتى أتت به العراق، فدفعته إلى والي العراق، فلما ذهبت إليه بالكتاب بكى واشتد بكاؤه، وقال: رحم الله صاحب هذا الكتاب، فقالت: أمات؟ قال: نعم، فصاحت وولولت، فقال: لا بأس عليك، ما كنت لأرد كتابه في شيء، فقضى حاجتها وفرض لبناتها[1] .

13 . إحياؤه لسنة العطاء:

قال عمر بن عبد العزيز: إنه لا يحل لكم أن تأخذوا لموتاكم، فارفعوهم إلينا واكتبوا لنا كل منفوس[2] نفرض له[3] . وفي رواية أخرجها ابن سعد من خبر أبي بكر بن حزم قال: كنا نخرج ديوان أهل السجون فيخرجون إلى أعطياتهم بكتاب عمر بن عبد العزيز، وكتب إليّ: من كان غائباً قريب الغيبة فأعطِ أهل ديوانه، ومن كان منقطع الغيبة، فاعزل عطاءه إلى أن يقدم أو يأتي نعيه، أو يوكل عندك بوكالة ببينة على حياته فادفعه إلى وكيله[4] .

وبهذا أحيا عمر بن عبد العزيز سنة العطاء الإسلامي التي كانت في عهد الخلفاء الراشدين وعهد معاوية رضي الله عنهم، ثم اندثرت بعد ذلك واقتصر العطاء على بعض وجهاء الأمة، وكان بنو أمية يأخذون من ذلك الشيء الكثير على مراتبهم، فلما قسم عمر بن عبد العزيز ذلك على الأمة شمل جميع أفرادهم، وهذا من أبرز مواقفه[5] وإصلاحاته التجديدية.

14 . إغناؤه المحتاجين عن المسألة:

قدم على عمر بن عبد العزيز بعض أهل المدينة، فجعل يسأله عن أهل المدينة. فقال: ما فعل المساكين الذين كانوا يجلسون في مكان كذا وكذا؟ قال: قد قاموا منه يا أمير المؤمنين، قال: ما فعل المساكين الذين كانوا يجلسون

([1]) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، ص 169.

([2]) أي: مولود في حال نفاس أمه.

([3]) طبقات ابن سعد (346/5).

([4]) المصدر السابق نفسه (348/5).

([5]) التاريخ الإسلامي (15 ، 138/16).

في مكان كذا وكذا؟ قال: قد قاموا منه وأغناهم الله. قال: وكان من أولئك المساكين من يبيع الخبط[1]للمسافرين، فالتمس ذلك منهم بعد، فقالوا: قد أغنانا الله عن بيعه بما يعطينا عمر بن عبد العزيز[2] .

وهذا من نتائج المنهج العادل الذي سلكه عمر بن عبد العزيز في توزيع أموال المسلمين، حيث حُرِمَت القلة المتمكنة من الإسراف وأصبح ما يصرف لفرد من هذه الفئة يصرف لعشرات المسلمين، فوصل المال العام إلى فئات من لم يكن يصل إليها من قبل، فاستغنوا به عن بعض الأعمال الشاقة التي كانت تُدِرُّ عليهم مبالغ زهيدة[3].

15 . دفع المهور من بيت المال:

اهتمّ عمر بن عبد العزيز بأداء مهور الزواج من بيت المال لمن لم يستطع توفير ذلك، فقال أبو العلاء: قُرِئ كتاب عمر بن عبد العزيز رحمه الله في مسجد الكوفة وأنا أسمع: من كانت عليه أمانة لا يقدر على أدائها فأعطوه من مال الله، ومن تزوج امرأة لا يقدر أن يسوق إليها صداقها فأعطوه من مال الله[4] .

وهذا قرار مهم في إصلاح المجتمع، لأن صلاحه يتوقف على تحصين أبنائه بالزواج وظفرهم بالسعادة الزوجية، وقد يكون المهر عائقاً لبعض الفقراء دون الزواج، خصوصاً في حال غلاء المهور، فإذا كانت الدولة توفر ذلك لمن لا يستطيع ذلك، فإنها تسهم في تكوين المجتمع الصالح وحفظه من أسباب الفساد والاضطراب[5] .

16 . جهوده في التقريب بين طبقات المجتمع:

قال يونس بن أبي شبيب: شهدت عمر بن عبد العزيز في بعض الأعياد وقد جاء أشراف الناس حتى حفُّوا بالمنبر وبينهم وبين الناس فرجة،

فلما جاء عمر صعد المنبر وسلم عليهم، فلما رأى الفرجة أومأ إلى الناس: أن تقدموا، فتقدموا حتى اختلطوا بهم[6]

.

لقد دأب الولاة من بعد عهد أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه على رفع طبقات من الناس وتمييزهم على غيرهم بالعطاء والمجالس وغير ذلك، وسرى ذلك في الأمة حتى أصيب بعض أفرادها بالضعف وأصبحوا يرون أنهم ليسوا

([1]) الخبط: نوع من ورق الشجر تأكله الإبل.

([2]) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (151/1).

([3]) التاريخ الإسلامي (15، 138/16).

([4]) طبقات ابن سعد (374/5).

([5]) التاريخ الإسلامي (15، 139/16).

([6]) طبقات ابن سعد (387/5).

أهلاً للجلوس مع أفراد الطبقات المميزة الذين أصبح الناس يطلقون عليهم اسم (الأشراف)، ولقد بلغ الضعف بعامة المجتمع إلى عدم التجاسر على الاقتراب من أفراد الطبقة الخاصة حتى في المساجد التي من المفترض فيها أن يتنافس المصلون على القرب من الإمام لما في ذلك من زيادة الثواب، فلما تولى الخلافة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز كان من أجلِّ اهتماماته أن يقارب بين فئات المجتمع، فذلك بأن يضع من سمعة الطبقات العالية وأن يزيل كبرياءهم، وأن يرفع من شأن الطبقات المستضعفة وأن يقوي معنوياتهم ويزيل شعورهم بالضعف، فكان من جهوده في ذلك المساواة بينهم في العطاء، ولا شك أن المال له أهمية كبرى في الرفع من شأن الناس وخفضهم، وفي هذا الخبر تبين لنا اهتمامه في هذا المجال بالإشارة إلى عموم الناس ليقتربوا من الخاص، ويختلطوا بهم حتى تزول تلك الفجوة بين المسلمين التي خلفها ظلم الولاة وسوء إدارتهم[1] .

17 . شعوره الكبير بالمسؤولية تجاه أفراد المجتمع:

قالت فاطمة بنت عبد الملك زوجة عمر: .. إن عمر رحمة الله عليه كان قد فَرَّغ للمسلمين نفسه، ولأمورهم ذهنه، وكان إذا أمسى مساء لم يفرغ فيه من حوائج يومه وصل يومه بليلته، إلى أن أمسى مساء وقد فرغ من حوائج يومه، فدعا بسراجه الذي كان من ماله، فصلى ركعتين ثم أقعى واضعاً رأسه على يديه، تسيل دموعه على خديه، يشهق الشهقة يكاد ينصدع قلبه لها، وتخرج لها نفسه حتى برق الصبح فأصبح صائماً، فدنوت منه فقلت: يا أمير المؤمنين أليس كان منك ما كان؟ قال: أجل فعليك بشأنك وخلِّيني وشأني، قالت: فقلت: إني أرجو أن أتَّعظ، قال: إذاً أخبرك، إني نظرت فوجدتُني قد وليت أمر هذه الأمة أسودها وأحمرها، ثم ذكرت الفقير الجائع، والغريب الضائع، والأسير المقهور، وذا المال القليل والعيال الكثير، وأشباه ذلك في أقاصي البلاد وأطراف الأرض، فعلمت أن الله سائلي عنهم، وأن رسول الله ﷺ حجيجي فيهم، فخفت أن لا يقبل الله تعالى مني معذرة فيهم، ولا تقوم لي مع رسول الله ﷺ حجة، فرحمت والله يا فاطمة نفسي رحمة دمعت لها عيني، ووجع لها قلبي، فأنا كلما ازددت لها ذكراً ازددت منها خوفاً، فاتَّعظي إن شئت أو ذَرِي[2] .

وهذا تقدير بالغ من عمر رحمه الله للمسؤولية التي تحملها، حيث تذكر ضعفاء المسلمين وأصحاب الحاجات، بالرغم مما يبذله من جهد متواصل في التعرف على أحوال الأمة، ولكن لما كان هذا الأمر غير محصور خشي أن يكون قد لقي من المسلمين من لم تُرفع إليه حاجته، فيكون مسؤولاً عنه، وفي تذكره للحساب والجنة والنار دليل

([1]) التاريخ الإسلامي (15 ،140/16).

([2]) سيرة عمر ، لابن عبد الحكم ، ص 170؛ التاريخ الإسلامي (15 ،107/16).

على عمق إيمانه بالغيب حتى أصبح أمامه كالمشاهد، فأصبح ذلك دافعاً له إلى العدل والرحمة، والمبالغة في تفقد أحوال الأمة، وفي بكائه الشديد دلالة على عظمة خوفه من الله عز وجل، وقد عصمه الله تعالى بهذا الخوف، فارتفع بفكره وسلوكه عن المغريات، وقوي أمام جميع التحديات، فكلما عظم عليه خطب مجابهة الناس تذكر النار والحساب، فهان عليه كل خطب عظيم، وصغر في نظره كل أمر جسيم [1] .

18 . في الإنفاق على الذمي إذا كبر ولم يكن له مال:

الإسلام دين العدالة والسماحة والاهتمام بالضعيف، والإسلام يهتم بكل من يعيش على أرضه ولو كان على غير دين الإسلام، وعمر بن عبد العزيز يُجَسِّد هذه القيم الرفيعة بتطبيقه أحكام هذا الدين، فيقرر أن الذمي إذا كبر ولم يكن له مال ولا حميم ينفق عليه فإن نفقته في بيت مال المسلمين[2]، فقد روى ابن سعد: قال عمر بن بهرام الصرّاف: قرئ كتاب عمر بن عبد العزيز علينا: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عدي بن أرطأة ومن قبله من المسلمين والمؤمنين، سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فانظر أهل الذمة فارفق بهم، وإذا كبر الرجل منهم وليس له مال فأنفق عليه، فإن كان له حميم فمر حميمه ينفق عليه[3].

19 . أكله مع أهل الكتاب:

كان عمر بن عبد العزيز يجعل كل يوم من ماله درهماً في طعام المسلمين ثم يأكل معهم، وكان ينزل بأهل الذمة فيقدمون له من الحلبة المنبوتة والبقول وأشباه ذلك مما كانوا يضعون في طعامهم، فيعطيهم أكثر من ذلك ويأكل معهم، فإن أبوا أن يقبلوا ذلك منه لم يأكل منه[4] .

20 . عمر والشعراء:

لما استخلف عمر بن عبد العزيز وفد الشعراء إليه، فأقاموا ببابه أياماً لا يؤذن لهم، فبينما هم كذلك وقد أزمعوا على الرحيل إذ مر بهم رجاء بن حيوة . وكان من خطباء أهل الشام . فلما راه جرير داخلاً على عمر أنشأ يقول:

يا أيُّهـا الرجـلُ المرخِي عمـامتَـهُ   هـذا زمـانُـكَ فاسـتـأذنْ لنا عُمَرا

قال: فدخل ولم يذكر من أمرهم شيئاً، ثم مرّ بهم عدي بن أرطأة، فقال له جرير:

([1]) التاريخ الإسلامي (15، 108/16).

([2]) فقه عمر بن عبد العزيز (353/2).

([3]) الطبقات الكبرى (380/5).

([4]) حلية الأولياء (315/5 . 316)؛ فقه عمر بن عبد العزيز (356/2).

يا أيهـا الرجـلُ المرخِي مطيتَـهُ	هـذا زمـانُـكَ إنِّي قـدْ مضَـــى زمَني
أبلِغْ خليفَتنـا إنْ كنـتَ لاقِيـه	أنَّي لدى الباب كالمصـــفودِ في قرنِ
لا تنسَ حـاجتَنـا لُقِّيْـتَ مغفرةً	قد طالَ مُكثِي عنْ أهلي وعنْ وطني

فدخل عدي على عمر، فقال: يا أمير المؤمنين، الشعراء ببابك وسهامهم مسمومة وأقوالهم نافذة، قال: ويحك يا عدي ما لي وللشعراء؟! قال: أعز الله أمير المؤمنين، إن رسول الله ﷺ أسوة، قال: كيف؟ قال: امتدحه العباس بن مرداس السلمي فأعطاه حلة قطع بها لسانه، قال: أو تروي من قوله شيئاً؟ قال: نعم، فأنشده يقول:

رأيـتُـكَ يا خـيرَ الـبريـةِ كـلِّـهـا	نشــرتَ كتـاباً جـاءَ بالحقِّ معلمـا
شـــرعتَ لنا دينَ الهُدى بعد جَوْرِنا	عنِ الحقِّ لما أصـــبحَ الحقُّ مظلمـا
ونورتَ بالتبيـانِ أمراً مـدلســـاً	وأطفـأتَ بالـقرانِ ناراً تضـــرمـا

قال: ويحك يا عدي، من بالباب منهم، فذكر له أسماء الشعراء، عمر بن عبد الله بن ربيعة، والفرزدق، والأخطل، وجرير، فرد الجميع إلا جريراً فسمح له بالدخول، فدخل جرير وهو يقول:

إنَّ الـذي بعـثَ الـنبيَّ محـمـداً	جَعَـلَ الخلافـةَ للإمـامِ العـادلِ
وسِـــعَ الخلائـقَ عـدلُـهُ ووفـاؤُه	حتى ارعوى فـأقـامَ ميـلَ المـائـلِ
إني لأرجـو مـنـكَ خيراً عـاجـلاً	والنفسُ مولعـةٌ بحـبِّ العـاجِـل

فلما مثل بين يديه قال: ويحك يا جرير، اتق الله ولا تقل إلا حقاً[1]، فأنشأ جرير يقول:

أأذكر الجهـدَ والبلوى التي نزلـتْ	أَمْ قَـدْ كفـاني بمـا بُلِّغْـتَ من خيري
كمْ باليمامةِ مـــــن شــعثاءَ أرملةٍ	ومن يتيمٍ ضــعيفِ الصـــوتِ والنَّظَرِ
ممـن يعـدُّكَ تكفـي فقـد والِـدِه	كـالفَرخِ في العشِّ لم ينهضْ ولم يطرِ
يـدعوكَ دعوةَ ملهوفٍ كـأنَّ بـهِ	خبلاً مــــن الجِنَّ أو مسّاً من البشرِ
خـليـفـةَ الله مـاذا تأمـرون بـنـا	لســـنـا إليكم ولا في حـال منتظر
مـا زلـتُ بعـدكَ في هـمٍّ يُؤرِّقُني	قد طالَ في الحيِّ إصعادي ومنحدري
لا ينفعُ الحـاضــرُ المجهودُ بادينـا	ولا يعودُ لنـا بادٍ علـى حضـــرِ
إنا لنرجو إذا مـا الغيـثُ أخلفَنَـا	من الخليفةِ ما نرجو مـــــن المطرِ

(1) المنتظم (37/7).

نالَ الخلافـةَ إذ كـانـتْ لـه قـدراً كمـا أتى ربَّـهُ موســـى على قـدرِ
هذي الأراملُ قد قضَّـــيتَ حاجَتَها فمنْ لحِـاجَـةِ هـذا الأرمـلِ الـذَّكَرِ
الخيرُ مـا دمـتَ حيّـاً لا يفـارِقُنـا بوركـتَ يا عمرَ الخيراتِ من عمرِ

فقال: يا جرير ما أرى لك فيما ها هنا حقاً، قال: بلى يا أمير المؤمنين أنا ابن سبيل ومنقطع. فأعطاه من صلب ماله مئة درهم... ثم خرج، فقال له الشعراء: ما وراءك؟ قال: ما يسوؤكم، خرجت من عند أمير المؤمنين وهو يعطي الفقراء ويمنع الشعراء، وإني عنه لراضٍ، ثم أنشأ يقول:

رأيتُ رُقَى الشـــيطانِ لا تســـتفزُّه وقد كانَ شـــيطاني مِنَ الجِنِّ راقيا[1]

وهذا منهج جديد في عهد الدولة الأموية للتعامل مع الشعراء، فقد كان الشعراء يمدحون الملوك والأمراء طلباً لرفدهم، ويدخلون في قصائدهم المبالغات والكذب، إلى أن تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز، فقصدوه، فكان موقفه من الشعراء كما تبين من الخبر المذكور، فقطع تلك العادة التي تفسد بنية المجتمع وتشجع على سيادة الأخلاق السيئة من الكذب والتغرير والنفاق، فقطع تلك العادة السيئة ولم تعد إلى الظهور إلا بعد وفاته[2]، ولقد اعترف جرير بأن الشياطين كانوا من وراء الشعراء في استفزاز الأمراء الممدوحين، وأن عمر بن عبد العزيز قد تميز بحصانته من أولئك الشياطين[3] .

21 . تأثره بشعر الزهد وعلاقته بسابق البربري:

قرّب عمر بن عبد العزيز من الشعراء من التزم شعر الزهد وذكر الموت والخوف من الآخرة، ويبدو أن أقرب الشعراء لقلب عمر هو سابق البربري[4] ، فكان يعظ عمر وينشده الشعر فيتأثر عمر ويبكي، وذات يوم دخل سابق البربري وهو ينشد شعراً، فانتهى في شعره إلى هذه الأبيات:

---

(1) المنتظم (99/7).

(2) التاريخ الإسلامي (15 ،174/16).

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) شاعر من الزهاد له كلام في الحكمة والرقائق ، وهو من موالي بني أمية ، والبربري لقب له ، ولم يكن من البربر ، سكن الرقة ، وكان يفد على عمر بن عبد العزيز. الأعلام (69/3).

فكمْ من صـــحيحٍ باتَ للموتِ آمناً أتَتْـه المنـايا بغتـةً بعـدمـا هَجَعَ

فلمْ يســـتطعْ إذ جـاءه الموتُ بغتـةً فـراراً ولا منْـهُ بقـوَّتِـــــــهِ امتنعَ

فـأصـــبَحَ تبكيـهِ النســـاءُ مُقَنَّعـاً ولا يســـمع الداعي وإن صـــوته رفعَ

وقُرِّبَ مـــــــن لحدٍ فصـــارَ مقيلَه وفـارقَ مـا قـدْ كـانَ بالأمس قَدْ جَمَعَ

قال الرواي ميمون بن مهران: فلم يزل عمر يبكي ويضطرب حتى غشي عليه، فقمنا فانصرفنا عنه[1] .

وقد قال سابق البربري قصيدة طويلة فيها مواعظ وحكم، تأثر بها عمر بن عبد العزيز تأثراً بالغاً؛ وهي:

بســـمِ الذي أنزلتْ من عندِهِ السُّـوَرُ الحـمـدُ لله أمـا بـعـدُ يا عـمـرُ

إن كنـتَ تعلمُ مـا تأتي ومـا تـذرُ فكنْ على حَـذَرٍ قـد ينفعُ الحـذرُ

واصـبرْ على القدرِ المجلوبِ وارضَ به وإن أتاكَ بمـا لا تشـــتهي القـدَرُ

فما صـــفا لامرئ عيشٌ يُسَـــرُّ بهِ إلا ســـيتبعُ يومـاً صـــفْوَه كَـدَرُ

واســـتخبرِ الناسَ عمَّا أنت جاهلُه إذا عميـتَ فقـدْ يجلُو العَمَى الخبرُ

قـد يرعوي المرءُ يومـاً بعـد هفوتِـهِ وتحـكـمُ الجـاهـلَ الأيامُ والـعِـبَرُ

من يطلـبِ الجورَ لا يظفرْ بحـاجتِـهِ وطـالـبُ الحقِّ قـد يُهـدى لـه الظَّفَرُ

وفي الهدى عبرٌ تُشْـــفَى القلوبُ بها كالغيثِ ينضُـرُ عن وسميِّه الشـجرُ[6]

وليسَ ذو العلمِ بالتقوى كجـاهِلهـا ولا البصـــيرُ كأعمى ما له بَصـــرُ

والرُّشـــدُ نافلةٌ تُهدى لصـــاحِبِها والغيُّ يكرهُ منه الوِرْدُ والصَّـــدرُ[7]

المرءَ أمرٌ وهو يحقرُهُ[2] وقـد يوبق والشـــيءُ يا نفسُ ينمى وهو يُحْتَضِـرُ

لا يشبعُ النفسَ شـــيءٌ حين تُحْرِزُهُ ولا يـــزالُ لهـــا في غـــيره وَطَـرُ

ولا تزالُ، وإن كـانـتْ لها ســـعـةٌ لهـا إلى الشـــيءِ لم تظفرْ بـه نَظَرُ

وكـلُّ شـــــيءٍ لـه حـالٌ تـغـيِّرُه كمـا تُغيِّرُ لونَ اللِّمَّـةِ الغِيَرُ[8]

والـذكرُ فيـه حيـاةٌ للقلوبِ كمـا يحيي البلادَ إذا مـا مـاتَـتِ المطرُ

([1]) الكتاب الجامع لسيرة عمر (612/2)؛ سيرة عمر بن عبد العزيز ، عفت وصال حمزة ، ص 184.

([2]) يوبق: يُهلك من وبق.

([6]) الوسمي: المطر في أول الربيع.

([7]) الورد: الماء الذي يورد ، والقوم يردون الماء. الصدر: الرجوع عن الماء.

([8]) الغير: كل ما تغير الأحداث.

والعلم يجلُو العَمَى عن قلبِ صاحبهِ ... كما يُجلّي سوادَ الظلمةِ القَمَرُ

لا ينفعُ الذكرُ قلباً قاسياً أبداً ... وهل يلينُ لقولِ الواعظِ الحجرُ؟

والموتُ جسرٌ لمن يمشي على قدمٍ ... إلى الأمورِ التي تُخشى وتُنتظَرُ

فهمْ يمرّونَ أفواجاً وتجمُعُهم ... دارٌ إليها يصيرُ البدوُ والحَضَرُ

أسلمَهُ[1]من كان في معقلٍ للحِرزِ ... أو كانَ في خمرٍ لم ينجِهِ خَمَرُ

حتى متى أنا في الدنيا أخو كَلَفٍ ... [7]في الخيرِ مني لَذَّاتِها صَعَرُ

ولا أرى أثراً للذكرِ في جَسَدي ... والماءُ في الحجرِ القاسي لَهُ أثَرُ

لو كان يُسْهِرُ عيني ذكرُ اخرتي ... كما يُؤرّقني للعاجِلِ الشَّهَرُ

إذاً لداويتُ قلباً قد أضرَّ بِهِ ... طولُ السقامِ ووهنُ العظمِ يَنْجَبِرُ

ما يلبثُ الشيءُ أن يبلى إذا اختلفتْ ... [8]يوماً على نقضِهِ الروحاتُ والبكَرُ

والمرءُ يصعدُ ريعانُ الشبابِ به ... [9]وكلُّ مصعدةٍ يوماً ستنحدرُ

وكلُّ بيتٍ خرابٌ بعد جِدَّتِهِ ... ومِنْ وراءِ الشبابِ الموتُ والكَبَرُ

[2] بينا يُرى الغُصن لَدْناً في أرومَتِهِ ... ريَّانَ أضحى حُطاماً جوفُهُ نَخِرُ

وكم من جمع أشت الدهر شملهم ... وكل شمل جميع سوف ينشر

وربَّ أصيد سامي الطرفِ معتصب ... بالتاج نيرانُهُ للحربِ تستعرُ

يظلُّ مفترِشَ الديباجِ محتجباً ... عليه تبنى قباب الملكِ والحَجرُ

قد غادرته المنايا وهو مستلبٌ ... [10]مُجَدَّلٌ تربُ الخدَّين منعفِرُ

أبعد ادمَ ترجونَ البقاءَ وهلْ ... تبقى فروعٌ لأصلٍ حين يَنْعَقِرُ

لهمْ بيوتٌ بمستنِّ السيولِ وهل ... يبقى على الماءِ بيتٌ أُسُّهُ مَدَرُ

إلى الفناءِ وإن طالتْ سلامتُهُم ... مصيرُ كلِّ بني أنثى وإن كَثُرُوا

[3]إنَّ الأمورَ إذا استقبلتَها اشتبهتْ ... وفي تدبُّرِها التبيانُ والعِبَرُ

والمرءُ ما عاشَ في الدُّنيا له أملٌ ... إذا انقضى سفرٌ منها أتى سفرُ

([1]) الحِرز: المكان المنيع يلجأ إليه.

([2]) لدناً: طرياً ليناً .

([3]) اشتبهت: اشتبه: اختلط الأمر عليه.

([7]) صَعَر: صعر خده: أماله كبراً.

([8]) الروحات والبكر: روحة من الرواح ، ويقابله الصباح البكر: أول النهار.

([9]) أي بعد كل صعود نزول: ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع.

([10]) مُجَدَّل: جَدَّل: صرع ، وفي حديث علي رضي الله عنه: يعز علي أبا محمد أن أراك مجدّلاً تحت النجوم.

لهـا حـلاوةُ عـيـشٍ غـيرُ دائـمـةٍ وفي العواقـبِ منهـا المرُّ والصَّـــبْرُ

إذا انقضـــــتْ زُمَرُ اجـالهـا نزلـتْ على منـازِلِهـا من بعـدهـا زُمَرُ[1]

والبُـهْمُ يزجرهـا الراعي فتنزجرُ[2]

وليس يزجرُكُم مـا توعـظونَ بـه كمـا البهـائمُ في الـدُّنيـا لهـا جَزَرُ

أصـــبحتم جَزَراً للموت يقبضـــكُم غِبَّـاً وخيمـاً، وكفرُ النعمـةِ البَطَرُ

لا تبطروا واهجروا الـدُّنيـا فـإنَّ لهـا ولـيـسَ مِـنْ أمـةٍ إلا لهـا غُـرَرُ[3]

ثم اقتـدوا بالأُلى كـانوا لكم غُرَراً وتصـبروا عن هوى الدنيا كما صَـبَرُوا

حتى تكونوا على منهـاجِ أوَّلِكم وكـلُّ حبـلٍ عليهـا ســـوف ينبتِرُ[4]

ما لي أرى الناسَ والدنيـــــا موليةٌ جهلاً وإن نَقَصَـتْ دنياهُمُ شعروا[5]

لا يشـــعرون بما في دينهم نَقَصـــوا

وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يتمثل بالشعر كثيراً ومن تلك الأبيات التي ترنّم بها:

ولا خيرَ في عيشِ امرئ لم يكنْ لـه منَ اللهِ في دارِ القرارِ نصـــيـبُ[6]

ومن ذلك أيضاً:

تُسَـــرُّ بمـا يَبْلى[7] وتفرحُ بالمنَى كمـا اغترَّ باللـذاتِ في النَّومِ حـالمُ

نهـارُكَ يا مغرورُ ســـهْوٌ وغفلـةٌ ولـيـلُـكَ نـومٌ والـرّدَى لـك لازمُ

وســـعيُك فيما ســـوفَ تكرهُ غِبَّه كـذلـك في الـدنيـا تعيشُ البهـائمُ[8]

([1]) الزمر: مفردها زمرة ؛ وهي الفوج والجماعة.

([2]) انزجر: انقاد . أي: أن الحيوانات تنقاد لراعيها إذا دعاها.

([3]) الغُرر: غُرّة. وغرة القوم: شريفهم وسيدهم.

([4]) ينبتر: انبتر: انقطع.

([5]) سيرة عمر بن عبد العزيز ، عفت وصال ، ص 187؛ الكتاب الجامع لسيرة عمر (81/1).

([6]) البداية والنهاية (707/12).

([7]) يبلى: يفنى.

([8]) البداية والنهاية (707/12).

وذات يوم نظر عمر بن عبد العزيز، وهو في جنازة إلى قوم قد تلثَّموا من الغبار والشمس، وانحازوا إلى الظلّ، فبكى وأنشد:

من كانَ حين تصيبُ الشمسُ جبهتَهُ	أو الغبارُ يخافُ الشَّــينَ والشــعَثَا
ويألفُ الظــلَّ كي تبقى بشاشتُهُ	فســوف يســكنُ يوماً راغماً جَدَثا
في قعرِ مُظلمــةٍ غبراءَ موحشــةٍ	يطيـلُ في قعرِهـا تحـت الثَّرى لُبثـا
تجـهَّـزي بجـهـاز تـبـلُـغـين بـه	يا نفس قبل الرّدى لم تُخلقي عبثا[1]

22. بين الشاعر دكين بن رجاء وعمر بن عبد العزيز:

قال دكين: امتدحت عمر بن عبد العزيز وهو والي المدينة، فأمر لي بخمس عشرة ناقة كرائم صعاباً[2]، فكرهت أن أرمي بها الفجاج فتنتشر عليَّ، ولم تطب نفسي ببيعها، فقدمت علينا رفقة من مُضر، فسألتهم الصحبة، فقالوا: إن خرجت في ليلتك، فقلت: إنّي لم أودِّع الأمير، ولا بدَّ من وداعه، قالوا: إنّه لا يحتجب عن طارق ليل، فأتيته، فاستأذنت عليه، فأذن لي، فدخلت وعنده شيخان أعرفهما، فودّعته. فقال لي: يا دكين، إنَّ لي نفساً توّاقة، فإن أنا صرت إلى أكثر ممّا أنا فيه، فبعَيْنٍ ما أرَيَنَّك، فقلت: أشهد لي عليك بذلك، فقال: أُشهد الله به، قلت: ومن خَلْقِهِ؟ قال: هذين الشخصين، فأقبلت على أحدهما فقلت: من أنت أَعرفُك؟ قال: سالم بن عبد الله، قلت: لقد استسمنت الشاهد، وقلت للاخر: من أنت؟ قال: أبو يحيى مولى الأمير[3] ، فخرجت بهنَّ إلى بلدي، فرمى الله في أذنابهنَّ بالبركة حتى اعتقدت منهنَّ الإبل والغلمان،فإني لبصحراء فلج[4] ، إذ نا ع ٍ ينعى سليمان بن عبد الملك، قلت: فمن القائم بعده ؟ قال: عمر بن عبد العزيز، فتوجهت نحوه، فلقيني جرير بالطريق جائياً من عنده، فقلت: يا أبا حزرة من أين؟ فقال: من عند من يعطي الفقراء ويمنع الشعراء، ولكن عوِّل عليه في مال ابن السبيل، فانطلقت فإذا هو في عرصة داره[5] قد أحاط به الناس، فلم يمكنِّي الرِّجْل إليه، فناديت:

---

[1] المصدر السابق نفسه (706/12).ؤ
[2] الصعاب: جمع صعبة ، وهي نقيض الذلول: والصعبة التي لم تركب بعد.
[3] الشعر ، لابن قتيبة (611/2).
[4] فلج: موضع في الصحراء.
[5] عرصة الدار: وسطها.

يا عـــمـــرَ الخـــيراتِ والمـــكـــارمِ [1]وعُـمرَ الـدَّسـائعِ العظـائمِ
إنِّي امـرؤٌ مـنْ قَـطَـنِ بْـنِ دارمِ أطـلـبُ دَيْـنـاً مـن أخٍ مـكـارمِ
إذ نـنـتـجـي واللهُ غـيرُ نائـمِ [2]في ظلمـةِ الليـلِ وليـلٍ عـاتمِ
عـنـدَ أبي يَحـيى وعـنـدَ سـالمِ

فقام أبو يحيى فقال: يا أمير المؤمنين، لهذا البدوي عندي شهادة عليك، قال: أعرفها: ادنُ منِّي يا دُكين، أنا كما ذكرت لك، إنَّ نفسي لم تنل أمراً إلا تاقت إلى ما هو فوقه، وقد نلت غاية الدنيا، فنفسي تتوق إلى الآخرة، والله ما رزأت من أموال الناس شيئاً فأعطيك منه، وما عندي إلا ألفا درهم، أعطيك أحدهما. فأَمَرَ لي بألف، فو الله ما رأيت ألفاً كان أعظم بركة منه[3] . ودكين هو القائل:

إذا المرءُ لم يدنسْ من اللُّؤمِ عِرضُـهُ فـكـلُّ رداءٍ يـرتـديـهِ جمـيـلُ
وإنْ هو لَمْ يُضْـرِعِ عن اللُّؤمِ نَفْسَـهُ [4]فليسَ إلى حسنِ الثَّناء سبيلُ

* من معالم عمر بن عبد العزيز في التغيير الاجتماعي:

ومن خلال حياة عمر بن عبد العزيز الاجتماعية يمكننا معرفة معالم منهجه في التغيير الاجتماعي؛ والتي من أهمها:

1 . القدوة:

حيث ضرب من نفسه مثالاً رائعاً في الزهد والورع ومحاسبة النفس والأهل والعشيرة، وإقامة الشرع على نفسه ومن حوله.

2 . التدرج والمرحلية:

حيث أخذ بسنة التدرج في الإصلاح الاجتماعي، وإماتة البدع وإحياء السنن، كما مرّ معنا.

3 . فهم النفوس البشرية:

([1]) الدسائع: العطايا والرغائب الواسعة.
([2]) ننتجي: نتناجى.
([3]) الشعر والشعراء ، لابن قتيبة (612/2).
([4]) المصدر السابق نفسه.

ولهذا كان يتبع مع الناس أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة، ويرغّب ويرهب، ويعطي شيئاً من الدنيا لتهدئة النفوس ثم أخذها للحق وإقامة العدل وإزالة الظلم.

4 . ترتيب الأولويات:

فقد قدم رد المظالم على غيرها من الأعمال، ولهذا انتهج سياسة واضحة في رد المظالم، بدأ بنفسه، ثم أهله وعشيرته، وعزل الولاة الظلمة، وعيَّن الأخيار من أهل الكفاءة والأمانة والعلم، لإقامة العدل وتطبيق الشرع... إلخ.

5 . وضوح الرؤية في خطواته الإصلاحية:

حيث جدّد مفهوم الشورى وبيعة الحاكم وحق الأمة في الاختيار، عمل على توكيل الأمناء على الولايات، نشره للعدل في كافة الدولة، إحياؤه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حرصه على سلامة معتقد الأمة الصحيح، ومحاربته للمعتقدات الفاسدة، اهتمامه بالعلماء وتوظيفهم لخدمة الإسلام من خلال الدعوة والعلم والتعليم والتزكية، ...إلى اخر ذلك من الأعمال في مجال الاقتصاد، والسياسة والاجتماع؛ حيث كان يملك رؤية إصلاحية تجديدية شاملة .كما سوف يتضح من خلال هذا الكتاب.

6 . التقيد بالقران الكريم والسنة النبوية:

وكذلك التقيد بهدي الخلفاء الراشدين في رؤيته الإصلاحية، وبذلك يمكننا القول بأن وضوح الرؤية انبثق من خلال ثوابت راسخة متمثلة في المرجعية الشرعية للرؤية الإصلاحية الشاملة التي قام بها عمر بن عبد العزيز، والتي من جوانبها الحياة الاجتماعية.

ثانياً: عمر بن عبد العزيز، والعلماء:

كانت أيام سليمان بن عبد الملك بداية لمشاركة العلماء في مسؤوليات الدولة، وقربهم من مصدر القرار السياسي وتأثيرهم فيه، فلما جاء عهد عمر بن عبد العزيز أصبحت مشاركة العلماء في إدارة شؤون الدولة قوية فعالة، وشاملة متنوعة، فعلى رأس الدولة عمر وهو يعد من أبرز العلماء وكبار الفقهاء، وساس الدولة كعالم وليس كملك، وتوسعت دائرة مشاركة العلماء في عهده، فبدأت في مركز اتخاذ القرار في العاصمة؛ حيث أحاط عمر نفسه بجملة من العلماء للإشارة عليه ومعاونته، وأبعد من سواهم، فأصبحوا فرسان الحلبة وحدهم، فساهموا في صياغة سياسة

الدولة صياغة شرعية خالصة، وامتدت مشاركتهم في المسؤولية إلى بقية مرافق الدولة، فأسندت إليهم مختلف المناصب والأعمال، ولا يعدو القول الحقيقة إذا قلنا: إن الدولة في عهد عمر بن عبد العزيز كانت دولة العلماء، فهي نموذج لما ينبغي أن تكون عليه الدولة الإسلامية؛ اتحدت فيها السلطة التشريعية مع السلطة التنفيذية على أحسن حال[1] .

وقد اتسعت مشاركة العلماء في عهد عمر بن عبد العزيز بشكل لم يسبق له مثيل في الدولة الأموية، ويرجع السبب في ذلك إلى أمور، أهمها: حرص عمر على تقريب العلماء وجعلهم بطانته ووزراءه وأعوانه، ويتعلق السبب الاخر بالعلماء؛ حيث لم ير أحد من العلماء لنفسه أي مبرر في البعد عن عمر والمشاركة في أعماله، فمن كان منهم يرى اعتزال الخلفاء والأمراء من منطلق أن على العلماء أن يصونوا العلم ولا يذهبوا للسلاطين ابتداء، بل على السلاطين أن يقدروا العلم والعلماء ويسعوا إليهم، من كان يرى ذلك فقد تحقق له شرطه؛ حيث كان عمر يقصد العلماء ويبعث إليهم، ومن كان يرى اعتزال الخلفاء والأمراء خوفاً على دينه من مخالطتهم لم يعد لهذا المحذور وجود؛ حيث إن مجالس عمر ومخالطته تعين المرء على دينه، لهذا أقبل العلماء على عمر، ورأوا أن من الواجب عليهم تحمل عبء المسؤولية الملقاة على عاتقه، ولم يعد لمعتذر عذر، بل أقبلوا عليه[2] ، وقالوا كما ذكر ابن عساكر: ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف فعله قوله[3] . فهذا ميمون بن مهران الذي يقول: لا تدخل على سلطان وإن قلت: امره بطاعة، والذي يقول: لا تعرف الأمير ولا تعرف من يعرفه، ومع هذا لا يجد لنفسه بُدّاً من العمل عند عمر بن عبد العزيز ومشاركته[4] .

وتتجلى مشاركة العلماء في عهد عمر في عدة مظاهر؛ أهمها:

1 . قربهم من الخليفة وشد أزره للسير في منهجه الإصلاحي:

أسهم العلماء في مساعدة عمر بن عبد العزيز في السير في منهجه الإصلاحي؛ حيث أيدوه فيما اتخذه من قرارات إصلاحية، كما كان لبعضهم أثر في اتخاذ عمر لبعض تلك القرارات. فمن ذلك ما أثر عن العالم العامل عراك بن

([1]) أثر العلماء في الحياة السياسية ، ص 114.

([2]) المصدر السابق نفسه، ص 196.

([3]) مختصر تاريخ ابن عساكر؛ نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية ، ص 197.

([4]) البداية والنهاية؛ نقلاً عن أثر العلماء ، ص 197.

مالك [1]، فقد ذكر ابن عمه أنه كان من أشد أصحاب عمر بن عبد العزيز على بني مروان في انتزاع ما حازوا من الفيء والمظالم من أيديهم، وقد تعرض بسبب هذا الموقف لغضب بني أمية فيما بعد، فنفاه يزيد بن عبد الملك بعد توليه الخلافة إلى دهلك[2] .

وكان عراك بن مالك الغفاري شيخاً كبيراً ومحدثاً تابعياً ثقة من خيار التابعين، وكان زاهداً عابداً، وقد انتفع به أهل تلك الجزيرة التي نفي إليها[3] ، وكان هذا التابعي الجليل يسرد الصوم؛ وقال فيه عمر بن عبد العزيز: ما أعلم أحداً أكثر صلاة من عراك بن مالك، وقد مات في منفاه رحمه الله في إمرة يزيد بن عبد الملك عام 104 هـ[4] .

وكان ميمون بن مهران من المقربين من عمر بن عبد العزيز؛ فقد روى ابنه عمر بن ميمون بن مهران عن أبيه قال: ما زلتُ ألطف في أمر الأمة أنا وعمر بن عبد العزيز، حتى قلت له: ما شأن هذه الطوامير التي تكتب فيها بالقلم الجليل وهي من بيت المال، فكتب إلى الافاق لتركه، فكانت كتبه نحو شبر[5] .

وميمون بن مهران قال عنه الذهبي: الإمام الحجة عالم الجزيرة ومفتيها [6] ، وقال عنه عمر بن عبد العزيز: إذا ذهب هذا وضرباؤه، صار الناس بعده رجراجة[7]، وكان يكبر عمر بن عبد العزيز بعشرين سنة[8].

وكان ميمون بن مهران من علماء السلف وممَّن له مواقف وأقوال في نصرة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ فمن أقواله: لا تجالسوا أهل القدر، ولا تسبوا أصحاب محمد ﷺ، ولا تَعَلَّموا النجوم[9] . وكتب ذات يوم إلى عمر بن عبد العزيز: إني شيخ كبير رقيق، كلَّفتني أن أقضي بين الناس، وكان على الخراج والقضاء بالجزيرة، فكتب إليه: إني لم أُكَلِّفك ما يُعنِّيك اجْب الطَّيِّبَ من الخراج، واقضِ بما استبان لك، فإذا لُبس عليك شيء، ارفعه إليّ، فإن الناس لو كان إذا كبُر عليهم أمرٌ تركوه لم يقم دين ولا دنيا[10] .

([1]) عراك بن مالك الغفاري المدني ، أحد العلماء العاملين.

([2]) جزيرة في بحر اليمن ، ضيقة حرجة ، كان بنو أمية إذا سخطوا على أحد نفوه إليها. سير أعلام النبلاء (64/5).

([3]) انتشار الإسلام في القرن الإفريقي خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، ص 38 ، 39.

([4]) سير أعلام النبلاء (64/5).

([5]) المصدر السابق نفسه (133/5).

([6]) المصدر السابق نفسه (71/5).

([7]) رجراجة: رعاع الناس وجهالهم. سير أعلام النبلاء (72/5).

([8]) المصدر السابق نقسه.

([9]) المصدر السابق نفسه (73/5).

([10]) المصدر السابق نفسه (74/5).

ومن أقوال ميمون بن مهران: لا يكون الرجل تقياً حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه، وحتى يعلم من أين ملبسه ومطعمه ومشربه[1]. وقال: ثلاثة تُؤدَّى إلى البرِّ والفاجر: الأمانة، والعهد، وصلة الرحم[2] . قال رجل لميمون بن مهران: يا أبا أيوب، ما يزال الناس بخير ما أبقاك الله لهم، قال: أقبل على شأنك: ما يزال الناس بخير ما اتقوا ربهم[3] . وقال: من أساء سراً، فليتب سراً، ومن أساء علانية، فليتب علانية، فإن الناس يعيرون ولا يغفرون، والله يغفر ولا يعيّر[4] .

وعن جعفر بن برقان قال: قال لي ميمون بن مهران: يا جعفر قل في وجهي ما أكره، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره[5] ، وعن أبي المليح قال: قال ميمون: إذا أتى رجل باب سلطان، فاحتجب عنه، فليأت بيوت الرحمن، فليصلِّ ركعتين، وليسأل حاجته[6] .

وعن ميمون بن مهران قال: ثلاث لا تبلون نفسك بهنَّ: لا تدخل على السلطان، وإن قلت: امره بطاعة الله، ولا تصغين بسمعك إلى هوى، فإنك لا تدري ما يعلق بقلبك منه، ولا تدخل على امرأة ولو قلت: أعلمها كتاب الله[7]. وقال: ما نال رجل من جسيم الخير ـ نبي ولا غيره ـ إلا بالصبر[8] . وتوفي ميمون رحمه الله سنة سبع عشرة ومئة[9] ، وقيل: سنة ست عشرة[10] .

2 ـ تعهدهم عمر بالنصح والتذكير بالمسؤولية:

يعتبر عمر بن عبد العزيز أكثر خليفة وجهت إليه النصائح والتوجيهات في عهد بني أمية؛ فقد شهد أكبر عدد من الرسائل بين الخليفة والعلماء، ولو استعرضنا أولئك العلماء الذين وجهوا النصح والتذكير لعمر وما كتبوه من

([1]) المصدر السابق نفسه.
([2]) المصدر السابق نفسه.
([3]) المصدر السابق نفسه (75/5).
([4]) المصدر السابق نفسه.
([5]) المصدر السابق نفسه.
([6]) المصدر السابق نفسه.
([7]) المصدر السابق نفسه (77/5).
([8]) المصدر السابق نفسه (78/5).
([9]) المصدر السابق نفسه.
([10]) المصدر السابق نفسه.

رسائل لطال بنا الحديث، ولكن نذكر منهم على سبيل المثال: سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ومحمد بن كعب القرظي، وأبا حازم سلمة بن دينار، والقاسم بن مخيمرة، والحسن البصري وغيرهم.

وكانت نصائح العلماء تتضمن عدداً من التوجيهات التي لها صلة بمنهج عمر السياسي، مما يؤكد أن عمر بن عبد العزيز استقى منهجه من المنهل الذي نبعت منه هذه التوجيهات[1]، فمما جاء في موعظة محمد بن كعب القرظي: .. يا أمير المؤمنين ! افتح الأبواب، وسهل الحجاب، وانصر المظلوم، ورد الظالم [2]، وبمثل هذا المعنى جاءت موعظة القاسم بن مخيمرة حيث قال لعمر: .. بلغنا أن من ولي على الناس فاحتجب عن فاقتهم وحاجتهم احتجب الله عن فاقته وحاجته يوم يلقاه. قال عمر: فما تقول ؟ ثم أطرق طويلاً وبرز للناس[3] .

وجاء في إحدى رسائل الحسن البصري لعمر: ... أما بعد يا أمير المؤمنين ! فكن للمثل أخاً، وللكبير ابناً، وللصغير أباً، وعاقب كل واحد منهم بذنبه على قدر جسمه، ولا تضربن لغضبك سوطاً واحداً فتدخل النار[4]، وقد كان عمر كما سلف يحرص على تطبيق مثل هذا التوجيه ويأمر عماله بذلك[5] .

ومما جاء في رسالة سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ المليئة بالتوجيهات: .. فإنه قد كان قبلك رجال عملوا وأحيوا ما أحيوا وأتوا ما أتوا حتى ولد في ذلك رجال ونشؤوا فيه وظنوا أنها السنة فسدوا على الناس أبواب الرخاء، فلم يسدوا منها باباً إلا فتح الله عليهم باب بلاء، فإن استطعت ـ ولا قوة إلا بالله ـ أن تفتح على الناس أبواب الرخاء فافعل، فإنك لن تفتح باباً إلا سد الله الكريم عنك باب بلاء، وما يمنعك من نزع عامل أن تقول: لا أحد يكفيني عمله، فإنك إذا كنت تنزع لله وتستعمل لله أتاح الله لك أعواناً فأتاك بهم. وجاء فيها أيضاً: .. فمن بعثت من عمالك إلى العراق فانهه نهياً شديداً بالعقوبة عن أخذ الأموال وسفك الدماء إلا بحقها. المال المال يا عمر والدم؛ فإنه لا نجاة لك من هول جهنم من عامل بلغك ظلمه ثم لم تغيره [6] .

وهذه التوجيهات هي عين سياسة عمر في السعي لإغناء رعيته وانتقائه لعماله ومحاسبته لهم[7].

---

(1) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية ، ص 199.
(2) المصدر السابق نفسه.
(3) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، ص 113.
(4) المصدر السابق نفسه، ص 103.
(5) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية ، ص 199.
(6) سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص 103.
(7) أثر العلماء في الحياة السياسية ، ص 199.

3 . مشاركتهم في تولي مختلف مناصب الدولة وأعمالها:

لم تقتصر مشاركة العلماء لعمر بن عبد العزيز على الإشارة عليه وتقديم النصح له، بل تعدَّت ذلك إلى تولي عدد من المناصب في مختلف الأقاليم، وأهم هذه المناصب وأكثرها أثراً في سياسة الدولة: الإمارة على الأقاليم، وبيت المال[1] ، وحين نتتبع ولاة عمر على الأقاليم نجد أن جلَّهم من العلماء؛ فمن ذلك: الإمام الثقة والأمير العادل عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب على ولاية الكوفة[2]، والعالم القدير أبو بكر بن عمر بن حزم على المدينة[3]، والإمام الكبير إسماعيل بن أبي المهاجر على إفريقية[4]، والفقيه المحدث عدي بن عدي الكندي على الجزيرة الفراتية وأرمينية وأذربيجان[5] ، والإمام القاضي عبادة بن نسي على الأردن[6] ، والثقة الصالح عروة بن عطية السعدي على اليمن[7]، والقاضي الفاضل سالم بن وابصة العبدي على الرقة[8] .

وأما بيت المال فقد تولى العمل فيه عدد من العلماء؛ ومنهم: العالم الجليل ميمون بن مهران على خراج الجزيرة[9] ، والثقة الصالح صالح بن جبير الصدائي على الخراج لعمر بن عبد العزيز[10] ، والعالم وهب بن منبه على بيت مال اليمن، وأبو زناد، وتولى عمر بن ميمون البريد لعمر بن عبد العزيز[11] .

ولا شك أنه كان لهذه المشاركة الواسعة من العلماء بتوليهم الإمارة، وبيوت الأموال في مختلف الأقاليم الأثر الكبير في ضبط شؤون الدولة الإدارية والمالية، وما ترتب على ذلك من اثار حسنة في الحياة السياسية في عهد عمر بن عبد العزيز[12] .

([1]) المصدر السابق نفسه، ص 200.

([2]) سير أعلام النبلاء (149/5).

([3]) المعرفة والتاريخ (645/1).

([4]) سير أعلام النبلاء (213/5).

([5]) مختصر تاريخ دمشق (32/16).

([6]) سير أعلام النبلاء (323/5).

([7]) تهذيب التهذيب (186/6).

([8]) تاريخ دمشق؛ نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية ، ص 201.

([9]) سيرة عمر ، لابن الجوزي ، ص 78.

([10]) أثر العلماء في الحياة السياسية ، ص 202.

([11]) المصدر السابق نفسه.

([12]) المصدر السابق نفسه.

ثالثاً: المدارس العلمية في عهد عمر بن عبد العزيز والدولة الأموية:

تحدثت في كتابي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن المدارس العلمية، واتخاذه من عاصمة الدولة مدرسة يتخرج منها العلماء والدعاة والولاة والقضاة، فنشطت المدارس العلمية في مكة والمدينة والبصرة والكوفة والشام ومصر وغيرها، وأشرف الصحابة الكرام على تعليم وتربية الناس فيها، واستطاعت تلك المدارس أن تخرج كوادر علمية وفقهية ودعوية متميزة، ساندت المؤسسة العسكرية التي قامت بفتح العراق وإيران والشام ومصر وبلاد المغرب، واستطاع علماء الصحابة الذين تفرغوا لدعوة الناس وتربيتهم أن ينشئوا جيلاً من العارفين للدين الإسلامي من أبناء المناطق المفتوحة، وقد استطاعوا أن يتغلبوا على مشكلة إعاقة الحاجز اللغوي، بل تعلم الكثير من الأعاجم لغة الإسلام، وأصبح كثير من رواد حركة العلم بعد عصر الصحابة من العجم.

لقد أثرت المدارس العلمية والفقهية في المناطق المفتوحة، وشكلت جيلاً من التابعين نقلوا إلى الأمة علم الصحابة، وأصبحوا من ضمن سلسلة السند التي نقلت للأمة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ويرجع الفضل في نقل ما تلقاه الصحابة من علم من الرسول بالدرجة الأولى بعد الله إلى مؤسسي المدارس العلمية بمكة والمدينة والبصرة والكوفة وغيرها من الأقطار[1].

وقد استمرت مدارس التابعين في النشاط العلمي في عهد الدولة الأموية، وكثير من العلماء الذين تخرجوا من تلك المدارس أعانوا عمر بن عبد العزيز على مشروعه الإصلاحي التجديدي الراشدي المنضبط بمنهاج النبوة، ومن أهم تلك المدارس:

1 . مدرسة الشام:

تأسست في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وأشهر مؤسسيها من الصحابة: معاذ بن جبل، وأبو الدرداء، وعبادة بن الصامت رضي الله عنهم، وحمل التابعون الراية العلمية والتربوية والدعوية بعد الصحابة؛ ومن أشهرهم:

أ . الإمام الفقيه أبو إدريس الخولاني، عائذ بن عبد الله:

قاضي دمشق وعالمها، روى عن أبي الدرداء وأبي هريرة وابن عباس وخلق غيرهم، كان أبو إدريس عالم الشام بعد أبي الدرداء قال: أدركت أبا الدرداء ووعيت عنه، وعبادة بن الصامت، وشداد بن أوس، ووعيت عنهما[2] .

(1) الدور السياسي للصفوة ، ص 462 إلى 463.

(2) سير أعلام النبلاء (275/4).

كان أبو إدريس ثقة من أهل الفقه في الدين وعلم الحلال والحرام، وكان من أحسن الناس تلاوة للقران، فعن يزيد بن عبيدة: أنه رأى أبا إدريس في زمن عبد الملك بن مروان، وأن حلق المسجد بدمشق يقرؤون القران، يدرسون جميعاً، وأبو إدريس جالس إلى بعض العمد، فكلما مرت حلقة باية سجدة بعثوا إليه يقرأ بها، وأنصتوا له، وسجد بهم جميعاً... حتى إذا فرغوا من قراءتهم قام أبو إدريس يقصُّ[1].

وعن يزيد بن أبي مالك، قال: كنا نجلس إلى أبي إدريس الخولاني فيحدثنا، فحدث يوماً عن بعض مغازي رسول الله ﷺ حتى استوعب الغزاة، فقال له رجل من ناحية المجلس: أحضرت هذه الغزوة؟ فقال: لا، فقال الرجل: قد حضرتها مع رسول الله، ولأنت أحفظ لها مني[2] . وقد عزل عبد الملك بن مروان بلال بن أبي الدرداء عن القضاء، وولى أبا إدريس[3]. ثم إن عبد الملك عزل أبا إدريس عن القصص، وأقره على القضاء، فقال أبو إدريس: عزلتموني عن رغبتي وتركتموني في رهبتي[4]. توفي عام 80 هـ[5] .

ب . الفقيه قبيصة بن ذؤيب الدمشقي:

روى عن عمر بن الخطاب وأبي الدرداء وعبد الرحمن بن عوف وخلق غيرهم. كان قبيصة من علماء التابعين ثقة مأموناً كثير الحديث، قال الشعبي: كان أعلم الناس بقضاء زيد بن ثابت[6] ، قال عنه مكحول: ما رأيت أحداً أعلم من قبيصة[7] ، وعن ابن شهاب، قال: كان قبيصة بن ذؤيب من علماء هذه الأمة[8] ، توفي سنة 86 هـ، وقيل: 87 هـ، وقيل: 88 هـ[9] . وقد توسعت في ترجمته عند حديثي عن عبد الملك.

جـ رجاء بن حيوة الفلسطيني:

([1]) المصدر السابق نفسه (274/4).

([2]) المصدر السابق نفسه (275/4).

([3]) المصدر السابق نفسه.

([4]) المصدر السابق نفسه.

([5]) المصدر السابق نفسه (276/4).

([6]) المصدر السابق نفسه (283/4).

([7]) المصدر السابق نفسه.

([8]) المصدر السابق نفسه.

([9]) المصدر السابق نفسه.

من أجلة التابعين وشيخ أهل الشام، حدث عن معاذ بن جبل وأبي الدرداء وعبادة بن الصامت وطائفة[1] ، كان شامياً ثقة فاضلاً كثير العلم[2] ، ويروى عن رجاء بن حيوة أنه قال: من لم يؤاخِ إلا من لا عيب فيه قلَّ صديقه، ومن لم يرضَ من صديقه بالإخلاص له دام سخطه، ومن عاتب إخوانه على كل ذنب كثر عدوُّه[3] .

كان رجاء كبير المنزلة عند سليمان بن عبد الملك وعند عمر بن عبد العزيز، وأجرى الله على يديه الخيرات، ثم إنَّه بعد ذلك أُخِّر، فأقبل على شأنه[4] ، توفي سنة 112هـ[5] .

د . مكحول الشامي الدمشقي:

عالم أهل الشام، عداده في أواسط التابعين من أقران الزهري، سمع من واثلة بن الأسقع وواثلة اخر من مات من الصحابة بدمشق[6] ، وتوفي عام 85 هـ وله ثمان وتسعون سنة[7]، قال عنه الزهري: العلماء أربعة: سعيد بن المسيب بالمدينة والشعبي بالكوفة، والحسن بالبصرة، ومكحول بالشام[8] . وكان مكحول أفقه أهل الشام، ولم يكن في زمنه أبصر بالفتيا منه[9] ، توفي 112 هـ وقيل: 113 هـ وقيل، غير ذلك [10] .

هـ عمر بن عبد العزيز:

وهو من علماء المدرسة الشامية والمدينة، وذلك بعد انتقاله إلى الشام وقيامه بأعباء الخلافة، وكان معروفاً بالفقه، بصيراً بالسنة، يرجع إليه القضاة في الأمور التي يختلفون فيها[11] . وقد بدأتُ بالمدرسة الشامية لأنها ترعرعت في عاصمة الخلافة الأموية.

و . بلال بن سعد السكوني:

([1]) المصدر السابق نفسه (559/4).

([2]) الفتوى: نشأتها وتطورها ، د. حسين الملاح ، ص 85.

([3]) سير أعلام النبلاء (558/4).

([4]) المصدر السابق نفسه (560/4).

([5]) المصدر السابق نفسه (561/4).

([6]) المصدر السابق نفسه (386/3).

([7]) المصدر السابق نفسه.

([8]) المصدر السابق نفسه (158/5).

([9]) المصدر السابق نفسه (159/5).

([10]) المصدر السابق نفسه (159/5 ، 160).

([11]) الدعوة إلى الله في العصر العباسي الأول (54/1).

الإمام الرباني الواعظ أبو عمرو الدمشقي شيخ أهل دمشق، كان لأبيه صحبة، كان بليغ الموعظة، حسن القصص، نافعاً للعامة، وكان لأهل الشام كالحسن البصري بالعراق، وكان قارئ أهل الشام جهير الصوت[1] ، يقول الأوزاعي: لم أسمع واعظاً قط أبلغ من بلال بن سعد[2] ، ومن مواعظه العميقة: يا أهل التُّقى إنكم لم تُخلقوا للفناء، وإنما تُنقلون من دار إلى دار، كما نُقلتم من الأصلاب إلى الأرحام، ومن الأرحام إلى الدنيا،ى ومن الدنيا إلى القبور، ومن القبور إلى الموقف، ومن الموقف إلى الخلود في جنة أو نار[3] .

ومن أقواله: لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر من عصيت[4] . وقال الأوزاعي: سمعته يقول: والله لكفى به ذنباً أن الله يزهدنا في الدنيا ونحن نرغب فيها[5] . وقد توفي سنة نيف وعشرة ومئة.

2 . المدرسة المدنية:

لما انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى كانت المدينة عاصمة الدولة الإسلامية وموطن الخلافة، وفيها تفتق عقل الصحابة في استخراج أحكام إسلامية، تصلح لما جدَّ من شؤون في المجتمعات الإسلامية، بعد الفتوح التي كثرت، وفي عهد عمر بن الخطاب بلغ فقهاء الصحابة المفتون (130) مئة وثلاثين صحابياً، وكان المكثرون منهم سبعة: عمر، وعلي، وعبد الله بن مسعود، وعائشة، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر[6]، وورث علماء التابعين الفقه والعلم والتربية والدعوة، وأما أشهر علماء التابعين: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وعمرة بنت عبد الرحمن بن سعد الأنصارية، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وسليمان بن يسار، ونافع مولى ابن عمر[7] ، وقد تحدثت عن دور فقهاء وعلماء التابعين بالمدينة في نشأة عمر بن عبد العزيز.

---

(1) سير أعلام النبلاء (5/90 ، 91).

(2) المصدر السابق نفسه (5/91).

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) المصدر السابق نفسه.

(5) المصدر السابق نفسه (5/92).

(6) المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدي (2/45).

(7) الفتوى ، د. حسين الملاح ، ص 81 ، 82.

3. المدرسة المكية:

احتلَّت هذه المدرسة المكانة في قلوب المؤمنين، الساكنين والثائبين على بلد الله الحرام، الحجاج والعمار والزوار، بل أخذت مكة بألباب كل مؤمن راها أو تمنَّى أن يراها، ولقد كان العلم بمكة يسير زمن الصحابة، ثم كثر في أواخر عصرهم وكذلك في أيام التابعين، وزمن أصحابهم، كابن أبي نجيح، وابن جريج[1] ، إلا أن مكة اختصت زمن التابعين بحبر الأمة وترجمان القران ابن عباس رضي الله عنهما الذي صرف جل همه، وغاية وسعه إلى علم التفسير، وربى أصحابه على ذلك، فنبغ منهم أئمة كان لهم قصب السبق بين تلاميذ المدارس في التفسير، وقد ذكر العلماء مجموعة من الأسباب أدت إلى تفوق المدرسة المكية في هذا العلم، وأهم هذه الأسباب والأساس فيها: إمامة ابن عباس رضي الله عنهما وأستاذيته لها[2] . ومن أشهر علماء التابعين في المدرسة المكية:

أ. مجاهد بن جبر المكي:

أخذ الفقه والتفسير عن ابن عباس وغيره من الصحابة، كان فقيهاً عالماً ثقة من أوعية العلم[3]، وعن مجاهد قال: عرضت القران ثلاث عرضات على ابن عباس، أَقِفُه عند كل اية، أسأله فيم نزلت ؟ وكيف كانت[4] ؟ وقال قتادة: أعلم من بقي بالتفسير مجاهد[5] ، وقال مجاهد: صحبت ابن عمر وأنا أريد أن أخدمه فكان يخدمني[6] ، وقدم مجاهد على سليمان بن عبد الملك، ثم على عمر بن عبد العزيز، وشهد وفاته.

وعن مجاهد قال: قال لي عمر بن عبد العزيز في مرض وفاته: يا مجاهد ! ما يقول الناس فيّ ؟ قلت: يقولون: مسحور، قال: ما أنا بمسحور، ثم دعا غلاماً له فقال: ويحك، ما حملك على أن سقيتني السُّمَّ؟ قال: ألف دينار أُعطيتها وأن أُعتق، قال: هاتها، فجاء بها، فألقاها في بيت المال، وقال: اذهب حيث لا يراك أحد[7].

([1]) المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدي (48/2).

([2]) تفسير التابعين ، د. محمد الخضري (371/1).

([3]) الفتوى ، د. حسين الملاح ، ص 80.

([4]) سير أعلام النبلاء (451/4).

([5]) المصدر السابق نفسه.

([6]) المصدر السابق نفسه (452/4).

([7]) المصدر السابق نفسه (453/4).

وقال مجاهد: ما أدري أي النعمتين أعظم، أن هداني للإسلام، أو عافاني من هذه الأهواء[1] . قال الذهبي معلقاً على قول مجاهد: مثل الرّفض والقدر والتجهّم[2] .

وعن عبد الوهاب بن مجاهد، قال: كنت عند أبي فجاء ولده يعقوب، فقال: يا أبتاه، إن لنا أصحاب يزعمون أن إيمان أهل السماء وأهل الأرض واحد. فقال: يا بني ما هؤلاء بأصحابي، لا يجعل الله من هو منغمس في الخطايا كمن لا ذنب له[3] .

ومات مجاهد سنة اثنتين ومئة وهو ساجد[4] ، وكان عمره ثلاثاً وثمانين سنة[5] .

ب . عكرمة مولى ابن عباس:

كان مكياً تابعياً ثقة من أعلم التابعين، روى عن ابن عباس وعائشة وأبي هريرة وابن عمر، وابن عمرو، وعقبة بن عامر، وعلي بن أبي طالب[6]، قال: طلبت العلم أربعين سنة، وكنت أفتي بالباب وابن عباس بالدار. وعن عكرمة: أن ابن عباس رضي الله عنهما قال له: انطلق فأفتِ الناس وأنا لك عون، قلت: لو أن هذا الناس ومثلهم مرتين لأفتيتهم. قال ابن عباس: انطلق فأفتهم، فمن جاءك يسألك عما يعنيه فأفته، ومن سألك عما لا يعنيه فلا تُفته، فإنك تطرح عنك ثلثي مؤونة الناس[7] .

وكان عكرمة كثير الأسفار، ونزل على عبد الرحمن الحسّاس الغافقي، وصار إلى إفريقية[8] .

وقد اتهم عكرمة بالصفرية فرقة من فرق الخوارج ولم تثبت هذه التهمة بسند صحيح وإنما بصيغة يقال[9]، وقد دافع علماء الجرح والتعديل عن عكرمة، كأبي حاتم الرازي، وابن حبان، والعجلي، وابن منده وابن عبد البر ونقل ذلك

---

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) المصدر السابق نفسه (455/4).

(4) طبقات ابن سعد (467/5)؛ سير أعلام النبلاء (455/4).

(5) سير أعلام النبلاء (456/4).

(6) المصدر السابق نفسه (13/5).

(7) المصدر السابق نفسه (15/5).

(8) المصدر السابق نفسه.

(9) براءة السلف مما نسب إليهم من انحراف في الاعتقاد ، ص 39.

ابن حجر في مقدمة الفتح وقال: لا تثبت عنه بدعة[1]. وقال البخاري: ليس أحد من أصحابنا إلا هو يحتج بعكرمة[2] ، توفي سنة 105 هـ[3] .

جـ عطاء بن أبي رباح:

مفتي الحرم وأحد الفقهاء الأئمة، روى عن ابن عباس وأبي هريرة وأم سلمة وعائشة ورافع بن خديج وزيد بن أرقم وابن الزبير، وابن عمرو وابن عمر وجابر ومعاوية وأبي سعيد وعدد من الصحابة[4] .

وكان ثقة فقيهاً عالماً كثير الحديث، انتهت إليه فتوى أهل مكة. قال عنه ابن عباس: يا أهل مكة تجتمعون علي وعندكم عطاء؟! ولسعة علمه وجلالة قدره كانوا في عهد بني أمية يأمرون في الحج منادياً يصيح: لا يفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح، توفي سنة 115 هـ[5] .

هؤلاء بعض علماء التابعين من المدرسة المكية الذين نهضوا بعبء الدعوة والتعليم وإتمام البناء العلمي[6] .

4 ـ المدرسة البصرية:

وهي منافسة للكوفة في كل الفنون، وقد نزلها من الصحابة جمع كثير، منهم: أبو موسى الأشعري، وعمران بن حصين، وأنس بن مالك وغيرهم، ويعتبر أنس بن مالك رضي الله عنه شيخ السادة من علماء التابعين؛ أمثال: الحسن البصري، وسليمان التيمي، وثابت البناني، وربيعة بن أبي عبد الرحمن، وإبراهيم بن أبي ميسرة، ومحمد بن سيرين، وقتادة وغيرهم[7] . ومن أشهر علماء المدرسة البصرية:

أ ـ محمد بن سيرين البصري:

---

(1) مقدمة الفتح ، ص 428.

(2) سير أعلام النبلاء (31/5).

(3) المصدر السابق نفسه (34/5).

(4) المصدر السابق نفسه (79/5).

(5) الفتوى ، د. حسين الملاح ، ص 81؛ سير أعلام النبلاء (78/5).

(6) الدعوة إلى الله في العصر العباسي الأول (41/1).

(7) تفسير التابعين (4239/1)؛ عمر بن الخطاب ، للصَّلابي ، ص 260.

كان مولى أنس بن مالك، سمع من ابن عباس، وابن عمر، وأبي هريرة وخلق سواهم[1]، وعن حبيب بن الشهيد قال: كنت عند عمرو بن دينار فقال: والله ما رأيت مثل طاوس، فقال أيوب السختياني وكان جالساً: والله لو رأى محمد بن سيرين لم يقله[2] ، وقال عثمان البتي: لم يكن بالبصرة أعلم بالقضاء من ابن سيرين[3] .

وكان الحسن البصري يقدمه على غيره، فعن ثابت البُناني، قال: كان الحسن متوارياً من الحجّاج فماتت بنت له، فبادرت إليه رجاء أن يقول لي: صلّ عليها، فبكى حتى ارتفع نحيبه، ثم قال لي: اذهب إلى محمد بن سيرين، فقل له: ليُصل عليها، فعرف حين جاء الحقائق، أنه لا يعدل بابن سيرين أحداً[4] .

وكان محمد بن سيرين يصوم يوماً ويفطر يوماً [5] ، وكان قد اشتهر بتفسير الأحلام، وهو أشهر من أن يعرف في هذا الباب، قال عنه الذهبي: قد جاء عن ابن سيرين في التعبير عجائب، وكان له في ذلك تأييد إلهي[6]. وكان يلبس الثياب الثمينة والطيالس والعمائم[7] ، وكان صاحب ضحك ومزاح[8] .

وكان باراً بأمه، قالت حفصة بنت سيرين: كانت والدة محمد حجازية، وكان يعجبها الصبغ، وكان محمد إذا اشترى لها ثوباً اشترى ألين ما يجد، فإذا كان عيد، صبغ لها ثياباً، وما رأيته رافعاً صوته عليها، كان إذا كلمها كالمصغي إليها[9] ، وعن ابن عون: أن محمداً كان إذا كان عند أمه لو راه رجل لا يعرفه ظن أن به مرضاً من خفض كلامه عندها[10] .

وقال ابن عون: كانوا إذا ذكروا عند محمد رجلاً بسيئة ؛ ذكره هو بأحسن ما يعلم. وجاءه ناس فقالوا: إنا نلنا منك فاجعلنا في حلّ، قال: لا أُحلّ لكم شيئاً حرّمه الله[11] .

([1]) سير أعلام النبلاء (606/4).

([2]) المصدر السابق نفسه (608/4).

([3]) المصدر السابق نفسه.

([4]) المصدر السابق نفسه (610/4).

([5]) المصدر السابق نفسه (615/4).

([6]) المصدر السابق نفسه (618/4).

([7]) المصدر السابق نفسه (619/4).

([8]) المصدر السابق نفسه (613/4).

([9]) المصدر السابق نفسه (619/4).

([10]) المصدر السابق نفسه (620/4).

([11]) المصدر السابق نفسه.

توفي ابن سيرين بعد الحسن البصري بمئة يوم، سنة عشر ومئة[1] .

ب . قتادة بن دعامة السدوسي:

كان من أوعية العلم، روى عن بعض الصحابة وكبار التابعين، وكان ثقة حجة في الحديث[2] ، قال عنه أحمد بن حنبل: كان قتادة عالماً بالتفسير وباختلاف العلماء، ثم وصفه بالفقه والحفظ، وقال: قلما تجد من يتقدمه[3] . وقال: كان قتادة أحفظ أهل البصرة، لا يسمع شيئاً إلا حفظه؛ قرئت عليه صحيفة جابر مرة واحدة فحفظها[4]. قال سلام بن مطيع: كان قتادة يختم القران في سبع، وإذا جاء رمضان ختم في كل ثلاث[5]. قال عنه الذهبي: حافظ العصر، قدوة المفسرين والمحدثين[6]، كان رأساً في العربية والغريب وأيام العرب وأنسابها[7]، وكان من تلاميذ الحسن البصري، وجالسه اثنتي عشرة سنة، وصلى معه الصبح ثلاث سنين[8] ، توفي سنة ثماني عشرة ومئة[9].

5 . المدرسة الكوفية:

نزل الكوفة ثلاثمئة من أصحاب الشجرة، وسبعون من أهل بدر رضي الله عنهم أجمعين، وقد اهتم عمر بالكوفة، ووجه إليها عبد الله بن مسعود، واجتهد ابن مسعود في إيجاد جيل يحمل دعوة الله فهماً وعلماً، وكان له الأثر البالغ في نفوس الملازمين له، أو من جاء بعدهم، وقد اشتهر مجموعة من تلاميذ ابن مسعود بالفقه والعلم والزهد والتقوى، منهم: علقمة بن قيس، مسروق بن الأجدع، عبيدة السلماني، الأسود بن يزيد، ومرة الجعفي[10] وغيرهم، ومن أشهر علماء التابعين في المدرسة الكوفية:

أ . عامر بن شرحبيل الشعبي:

كان علامة عصره ومن أفقههم، روى عن عائشة وابن عمر وسعد بن أبي وقاص،

([1]) المصدر السابق نفسه (621/4).

([2]) الفتوى ، د. حسين الملاح ، ص 84.

([3]) سير أعلام النبلاء (276/4).

([4]) المصدر السابق نفسه (277/4).

([5]) المصدر السابق نفسه (276/4).

([6]) المصدر السابق نفسه (270/4).

([7]) المصدر السابق نفسه (277/4).

([8]) المصدر السابق نفسه (283/4).

([9]) المصدر السابق نفسه.

([10]) فصل الخطاب في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ص 264

وعبد الله بن عمر وجمهرة غيرهم، حتى قيل: إنه أدرك خمسمئة من الصحابة[1] ، لذلك كان صاحب اثار كثير العلم والفقه. قال محمد بن سيرين: لقد رأيته يستفتى والصحابة متوافرون بالكوفة، ورغم هذا العلم الواسع فقد كان ينقبض عند الفتوى، وكثيراً ما يقول: لا أدري، لأنه كان يعتبرها نصف العلم[2] . وقد قال الشعبي: إنا لسنا بالفقهاء، ولكنّا سمعنا الحديث فرويناه، ولكن الفقهاء من إذا علم عمل[3] . ومن نكاته اللاذعة: ما رواه الأعمش قال: أتى رجل الشعبيَّ، فقال: ما اسم امرأة إبليس؟ قال: ذاك عرس ما شهدته[4] . توفي سنة أربع ومئة، وقيل: ست ومئة، وقيل: خمس ومئة[5] .

ب . حمّاد بن أبي سلمة:

فقيه أهل العراق، روى عن أنس بن مالك، وتتلمذ على يدي إبراهيم النخعي، وهو أنبل أصحابه وأفقههم وأقيسهم وأبصرهم بالمناظرة [6] . وكان أحد العلماء الأذكياء والكرام الأسخياء، له ثروة وحشمة وتجمُّل[7] ، وكان أفقه أهل الكوفة عليّ وابن مسعود، وأفقه أصحابها علقمة، وكان أفقه أصحابه إبراهيم، وأفقه أصحاب إبراهيم حماد، وأفقه أصحاب حماد أبو حنيفة، وأفقه أصحابه أبو يوسف، وانتشر أصحاب أبي يوسف في الافاق، وأفقههم محمد، وأفقه أصحاب محمد أبو عبد الله الشافعي[8] رحمهم الله تعالى. وقد توفي حماد سنة عشرين ومئة[9].

6 . المدرسة اليمنية:

من أشهر علمائها من الصحابة الذين ساهموا في دخول الإسلام فيها: معاذ بن جبل، وعلي بن أبي طالب، وأبو موسى الأشعري وغيرهم، ومن أراد التوسع فليراجع الرسالة العلمية للدكتور عبد الله الحميري (الحديث والمحدثون في اليمن في عصر الصحابة). ومن أشهر علماء التابعين في المدرسة اليمنية:

أ . طاوس بن كيسان:

([1]) سير أعلام النبلاء (298/4).

([2]) الفتوى ، د. الملاح ، ص 83.

([3]) سير أعلام النبلاء (303/4).

([4]) المصدر السابق نفسه (312/4).

([5]) المصدر السابق نفسه (318/4).

([6]) الفتوى ، د. الملاح ، ص 83.

([7]) سير أعلام النبلاء (231/4).

([8]) المصدر السابق نفسه (236/4).

([9]) المصدر السابق نفسه.

فقيه أهل اليمن وقدوتهم، وأعلمهم بالحلال والحرام، من سادات التابعين، روى عن ثلة من الصحابة الكرام، كزيد بن ثابت وأبي هريرة، وزيد بن أرقم، وابن عباس، وهو معدود من كبراء أصحابه[1] . وروى عن معاذ مرسلاً[2]. كان من أبناء الفرس الذين جهزهم كسرى لأخذ اليمن له[3]، كان فقيهاً جليلاً بركة لأهل اليمن[4] . أدرك خمسين من أصحاب رسول الله ﷺ[5]. قال له عمر بن عبد العزيز في عهد سليمان: ارفع حاجتك إلى أمير المؤمنين. قال: ما لي إليه حاجة؛ فكأن عمر عجب من ذلك[6] .

ومن أقواله: لا يتم نسك الشاب حتى يتزوج[7] . وقال: البخل أن يبخل الرجل بما في يديه، والشح أن يحب أن يكون له ما في أيدي الناس[8]. وقال عنه قيس بن سعد: الطاوس فينا مثل ابن سيرين فيكم. وقال ابن المديني: كان سفيان لا يعدل من أصحاب ابن عباس بطاوس أحداً[9] . وكان رحمه الله معتزلاً الأمراء والسلاطين إلا إذا أكره على عمل لهم، وإذا طلب منه أداء نصيحة فإنه لا يجامل أحداً ويصدع بالحق، توفي بمكة سنة ست ومئة للهجرة[10] .

ب . وهب بن منبه:

أبو عبد الله وهب بن منبه من أبناء فارس كان ينزل ذمار[11] . وكان ممن قرأ الكتب ولزم العبادة وواظب على العلم وتجرد للزهادة[12] . وقال عنه الذهبي: الإمام العلامة، الأخباري القصصي. وقال العجلي: تابعي ثقة، كان على قضاء صنعاء، وذكره شيرازي في فقهاء التابعين باليمن[13] .

---

(1) المصدر السابق نفسه (39/5).

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) المصدر السابق نفسه (38/5).

(4) الفتوى نشأتها وتطورها . أصولها وتطبيقاتها ، ص 85.

(5) سير أعلام النبلاء (43/5).

(6) المصدر السابق نفسه (41/5).

(7) المصدر السابق نفسه (42/5).

(8) المصدر السابق نفسه (48/5).

(9) الطبقات (541/5)؛ أثر العلماء في الحياة السياسية ، ص 666.

(10) سير أعلام النبلاء (49/5).

(11) سير أعلام النبلاء (49/5).

(12) علماء الأمصار ، للبستي ، ص 123.

(13) طبقات الفقهاء ، ص 66.

وكان صاحب حكمة وفطنة، وكان له أثر في محاربة الخوارج في اليمن وتحذير الناس من ارائهم[1]، وإليك حواره مع أبي شمَّر الخولاني لما دخل على وهب بن منبه برفقة داود بن قيس، وتكلم داود لوهب وقال عن صاحبه أبي شمّر الخولاني: إنه من أهل القران والصلاح، والله أعلم بسريرته، فأخبرني أنه عرض له نفر من أهل حروراء ـ يعني الخوارج ـ فقالوا له: زكاتك التي تؤديها إلى الأمراء لا تجزئ عنك، لأنهم لا يضعونها في موضعها، فأدِّها إلينا، ورأيت يا أبا عبد الله أن كلامك أشفى له من كلامي، فقال: يا ذا خولان ! أتريد أن تكون بعد الكبر حرورياً تشهد على من هو خير منك بالضلالة؟! فماذا أنت قائل لله غداً حين يقفك الله ومن شهدت عليه ؟ فالله يشهد له بالإيمان، وأنت تشهد عليه بالكفر، والله يشهد له بالهدى وأنت تشهد عليه بالضلالة، فأين تقع إذا خالف رأيك أمر الله وشهادتك شهادة الله؟ أخبرني يا ذا خولان ! ماذا يقولون لك؟ فتكلم عن ذلك وقال لوهب: إنهم يأمرونني أن لا أتصدق إلا على من يرى رأيهم، ولا أستغفر إلا له، فقال: صدقت، هذه محنتهم الكاذبة، فأما قولهم في الصدقة، فإنه قد بلغني أن رسول الله ﷺ ذكر أن امرأة من أهل اليمن دخلت النار في هرة ربطتها[2] ، أفإنسان مما يعبد الله يوحده ولا يشرك به أحب إلى الله أن يطعمه من جوع أو هرة؟ والله يقول: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا *} [الإنسان: 8]. قولهم: لا يستغفر إلا لمن يرى رأيهم أهم خير أم الملائكة ؟ والله يقول: {وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ} [الشورى: 5] فوالله ما فعلت الملائكة ذلك حتى أمروا به: {لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾} [سورة الأنبياء:27] . وجاء مفسراً: {* وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا} [غافر:7]

واستمر معه في الحوار والنقاش إلى أن قال ذو خولان: فما تأمرني؟ قال: انظر زكاتك فأدها إلى من ولاه الله أمر هذه الأمة، وجمعهم عليه، فإن الملك من الله وحده وبيده يؤتيه من يشاء، فإذا أديتها إلى والي الأمر برئت منها، وإن كان فضل فصِلْ به أرحامك ومواليك وجيرانك والضيف، فقال: أشهد أني نزلت عن رأي الحخرؤرورية[3] .

توفي وهب رحمه الله سنة عشر ومئة في خلافة هشام بن عبد الملك[4]، وقيل: إن يوسف بن عمر والي اليمن ضربه حتى قتله[5] ، ولعل ذلك بسبب موقف وهب من جور يوسف بن عمر المشهور بعنفه وظلمه[6] .

---

(1) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية ، ص 667.

(2) مسلم ، رقم (2242).

(3) سير أعلام النبلاء (555/4). الحرورية: الخوارج.

(4) سير أعلام النبلاء (556/4)؛ أثر العلماء في الحياة السياسية ، ص 667.

(5) سير أعلام النبلاء (556/4).

(6) أثر العلماء في الحياة السياسية ، ص 667.

7 . المدرسة المصرية:

تكونت في مصر مدرسة كان شيوخها من الصحابة الذين رحلوا إليها أيام الفتح ونزلوا في موضع الفسطاط والإسكندرية، ومن هؤلاء: عمرو بن العاص، عبد الله بن عمرو بن العاص، الزبير بن العوام، وكان من أكثر الصحابة تأثيراً في مصر عقبة بن عامر رضي الله عنه[1]، وغير ذلك من الصحابة يرجع إليهم الفضل في دعوة الناس وتوجيههم نحو دينهم[2] ، وجاءت طبقة التابعين، وكان منهم أئمة ودعاة، ومن هؤلاء:

. يزيد بن أبي حبيب:

الإمام الحجة، مفتي الديار المصرية، أبو رجاء الأزدي، كان من جلة العلماء العاملين، ارتفع بالتقوى مع كونه مولى أسود[3] . قال عنه الليث بن سعد: يزيد بن أبي حبيب سيدنا وعالمنا[4] . توفي سنة ثمانٍ وعشرين ومئة[5] .

8 . مدرسة شمال إفريقية:

دخل القادة الفاتحون شمال إفريقية وكان على رأسهم عمرو بن العاص، ثم عبد الله بن سعد بن أبي السرح رضي الله عنهم، ثم تابع معاوية بن حديج فتح إفريقية، وولاه معاوية بن أبي سفيان على مصر وإفريقية، وجاء بعده عقبة بن نافع الفهري فاختط مدينة القيروان، وسار في الناس سيرة حسنة، وكان من خيار الولاة والدعاة الذين جاهدوا ودعوا بالسيف والكلمة، ثم قام على إفريقية ولاة صالحون ساروا على النهج نفسه[6] .

وفي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز بعث إسماعيل بن أبي المهاجر والياً على إفريقية سنة مئة، فكان داعية إلى الإسلام بلسانه وأعماله وأخلاقه، فأحبه الناس، وأحبوا دينه، وحرص على دعوة البربر إلى الإسلام، فاستجابوا لدعوته، وأسلموا على يديه، واهتم إسماعيل بتعليم الناس أحكام الشريعة، وتفقيههم في الحلال والحرام، وكان عمر بن عبد العزيز بعث معه عشرة من التابعين من أهل العلم والفضل، وأهل إفريقية يومئذ من الجهل بحيث لا يعرفون أن الخمر حرام، حتى وصل هؤلاء فعلموا الناس الحلال والحرام[7].

---

(1) عمر بن الخطاب ، للصلابي ، ص 270.

(2) الدعوة إلى الله في العصر العباسي الأول (57/1).

(3) سير أعلام النبلاء (31/6).

(4) المصدر السابق نفسه (32/6).

(5) المصدر السابق نفسه.

(6) البيان المغرب ، للمراكشي (19/1)؛ الدعوة إلى الله (61/1).

(7) المصدر السابق نفسه (48/1)؛ الدعوة إلى الله في العصر العباسي الأول (62/1).

وسيأتي الحديث عن الفقهاء العشرة في محله بإذن الله.

ومن خلال ما سبق من الحديث عن المدارس العلمية يظهر أهمية توريث العلم والخبرات الدعوية عند السلف، وامتداد ذلك يشمل أقاليم الدولة الإسلامية، ونستفيد أيضاً أهمية تفريغ مجموعة من أذكياء الأمة للتعلم والتعليم والإفتاء والإرشاد والوعظ ونشره بين الناس.

رابعاً: منهج التابعين في تفسير القران الكريم:

سلك التابعون منهاجاً واضحاً في تفسير القران الكريم، فكانوا يفسرون القران بالقران، والقران بالسنة، والقران بأقوال الصحابة، واللغة العربية، والاجتهاد وقوة الاستنباط.

1 . تفسير القران بالقران:

تعددت طرق التابعين في تفسير القران بالقران؛ ومن هذه الطرق:

أ . نظائر القران الكريم:

كتفسير الآية بآية أخرى تحمل الموضوع نفسه وإن اختلف اللفظ، وقد أكثر التابعون من ذلك، ومن ذلك: ما ورد عن مجاهد في تفسير الكلمات في قوله تعالى :{فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ } [سورة البقرة:37] قال: قوله: {قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا} [الأعراف: 23]. حتى فرغ منها[1] .

وجاء عن عكرمة، والحسن في تفسير قوله تعالى: {وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً *} [الإسراء: 110]. قال: وكان رسول الله ﷺ إذا صلى يجهر بصلاته، فآذى ذلك المشركين بمكة حتى أخفى صلاته هو وأصحابه، فلذلك قال: : {وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً *} .

وقال في الأعراف: : {وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغَدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ *} [الأعراف: 205]. وفي تفسير قوله تعالى: { * قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخرة عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * } [البقرة: 94].قال قتادة: وذلك أنهم قالوا: { لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى }[البقرة: 111]. وقالوا: { حْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ } [المائدة: 18]. فقيل لهم:{فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *}[البقرة: 94].[2]

([1]) تفسير الطبري (545/1)؛ زاد المسير (69/1).

([2])فتح القدير (545/1)؛ تفسير التابعين (614/2).

ب . الأشباه:

والمراد بالأشباه تفسير الاية بما يشبهها من الايات؛ كتفسير الاية بالايات التي تحمل بعض معناها مع تقارب اللفظ[1] ، فمن ذلك ما ورد عن مجاهد في تفسير النفس بالغير، فإنه قال في تفسير قوله تعالى: {لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا} [النور: 12]. قالوا لهم خيراً ، ألا ترى أنه يقول: {وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ} [النساء: 29] ؟ يقول: بعضكم بعضاً، و {فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ} [النور: 61]. قال: يسلم بعضكم على بعض[2]. ففسر مجاهد هنا النفس بالغير ، واستدل بورود ذلك في ايات متشابهة في القران تدل على هذا الجزء من المعنى [3] .

ج الدلالة على التفسير بالسياق:

وفي هذا النوع يلحظ المفسّر منهم سياق الاية فيربطها بما قبلها، أو بما بعدها سواء كان ذلك في الاية نفسها، أو في مجموعة من الايات[4]، مثل تفسير قوله تعالى: هي {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ} [الأنعام: 83]. قال مجاهد في تفسيرها: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} [الأنعام: 82] [5]

هـ بيان المجمل:

وفي هذا الطريق يقوم المفسر بالنظر في ايات القران التي فيها إجمال، وينظر في الايات الأخرى التي يمكن أن تكون بياناً لهذا الإجمال، كحمل المجمل على المبين، ومن ذلك ما ورد عن مجاهد في تفسير قوله تعالى: {خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا*} [نوح: 41]: قال: من تراب ، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم ما ذكر حتى يتم خلقه[6] . فأشار بقوله إلى الايات التي فيها ذكر ذلك مثل قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ *ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ *ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ *}[المؤمنون: 12 . 14].

---

(1) تفسير التابعين (615/2).

(2) تفسير الطبري (96/18)؛ تفسير التابعين (615/2).

(3) تفسير التابعين (616/2).

(4) المصدر السابق نفسه (617/2).

(5)تفسير الطبري (505/11).

(6) تفسير الطبري (26/29)؛ الدر المنثور (291/8).

و ـ تفسير العام بالخاص:

وفي هذا يعمد المفسر منهم إلى اية ظاهرها العموم فيحملها على معنى اخر ذكرت فرداً من أفراد العموم[1] ، كقوله تعالى: {مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ} [النساء: 123]. قال الحسن البصري: الكافر ، ثم قرأ: {وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ*} قال: من الكفار[2].

وفي رواية عنه قال: {وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ *} يعني الفار، لا يعني بذلك أهل الصلاة [3]. فالاية الأولى جاء فيها العموم في لفظة (من) ليعم المؤمن والكافر، فجاء الحسن فبين أنها خاصة بالكافر مستدلاً بأسلوب الحصر في الآية الثانية [4]. وأصرح من ذلك ما جاء عنه في تفسير الاية نفسها أنه قال: [النساء: 123] إنما ذلك لمن أراد الله ، فأما من أراد كرامته، فإنه من أهل الجنة [الأحقاف: 16] [5]

ز ـ التفسير باللازم:

المراد بالتفسير باللازم أن المفسر لا يذكر صراحة تفسيراً للاية التي هو بصددها، بل يذكر شيئاً من لوازم ذلك، ويربطه باية أخرى، فمن ذلك ما جاء عن سعيد بن جبير في تفسير قوله تعالى :{إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ } [البقرة: 156]، فقد قال: لو أعطيها أحد لأعطيها يعقوب، ألم تسمع: { يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ } [سورةيوسف:84][6]. أنه لم يكن يعرف { إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ *}، وإلا لقالها، بدلاً من تأسُّفه على ذهاب يوسف[7].

ح ـ توضيح المبهم:

ومن طرق التفسير التي اتبعها التابعون ـ أيضاً ـ: إيضاح مبهم اية باية أخرى لإزالة الإبهام[8] ، ومن ذلك ما قام به عكرمة من رفع الإبهام الواقع في لفظة (الحين) استدل بالاية التي تبين أن المراد منه سنة؛ فعنه أنه قال: أرسل إليّ

([1]) تفسير التابعين (621/2).

([2]) تفسير الطبري (237/9)؛ زاد المسير (210/2).

([3]) تفسير الطبري (238/9).

([4]) تفسير التابعين (623/2).

([5]) المصدر السابق نفسه.

([6]) تفسير الطبري (224/3).

([7]) تفسير التابعين (623/2).

([8]) المصدر السابق نفسه (624/2).

عمر بن عبد العزيز فقال: يا مولى ابن عباس: إني حلفت أن لا أفعل كذا وكذا حيناً، فما الحين الذي تعرف به؟ قلت: إن من الحين حيناً لا يدرك، ومن الحين حيناً يدرك، وأما الحين الذي لا يدرك فقول الله: {هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا *} [الإنسان: 1]. واللهِ يدري الإنسان كم أتى له إلى أن خلق، وأما الذي يدرك فقوله: {تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا} [إبراهيم: 25] ؛ فهو بين العام إلى العام المقبل، فقال: أصبت يا مولى ابن عباس، ما أحسن ما قلت[1] .

ط . بيان معنى (لفظ)، أو إيضاح مشكلة:

وقد كثر هذا النوع في تفسير التابعين، فصاروا يتناولون ايات القران بالتفسير بايات أخرى تبين هذا المعنى، وتلكم الألفاظ[2] ، ومثال ذلك كتفسير الحسن البصري {يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ *تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ *} [النازعات: 6 . 7]. قال: النفختان، أما الأولى فتميت الأحياء، وأما الثانية فتحيي الموتى، ثم تلا الحسن: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ }[3] [الزمر: 68]. والأمثلة كثيرة على تفسير التابعين للقران بالقران، ومن أراد المزيد فليراجع تفسير التابعين[4].

2 . تفسير القران بالسنة:

لا شك أن السنة مبينة للقران موضحة له، قال الشاطبي: وهي راجعة في معناها إلى الكتاب، فهي تفصيل مجمله وبيان مشكله، وبسط مختصره[5] ، وذلك لأن النبي ﷺ هو أعلم بكلام الله وأكثر قدرة على فهم نصوص الايات من غيره مع ما أوحاه الله تعالى إليه من المعاني، فهو ﷺ:

{وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى *إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى}[النجم: 3 . 4]، وقال ﷺ: «ألا إني أوتيت القران ومثله معه»[6].

يقول ابن تيمية: فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: أن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القران بالقران... إلى أن يقول: فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقران وموضحة له، قال الإمام أبو عبد الله

([1]) تفسير الطبري (581/16).

([2]) تفسير التابعين (626/2).

([3]) تفسير الطبري (31/30)؛ تفسير التابعين (627/2).

([4]) تفسير التابعين (608/2 إلى 627).

([5]) المصدر السابق نفسه (628/2)؛ الموافقات (12/4).

([6]) سنن أبي داود ، رقم (4604).

محمد بن إدريس الشافعي: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القران، قال تعالى: {إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾} [سورة النساء:105] . وقال تعالى: {وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾} [سورة النحل:44] . وقال تعالى: {وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾} [سورة النحل:64] [1]

وقد اتفق العلماء على أن الأخذ بالسنة واجب، والعمل بها حتم، وتحكيمها فرض، بل جاء عن مكحول التابعي أنه قال: القران أحوج إلى السنة، من السنة إلى القران[2].

وقد كثر عن التابعين النقول التي تدل على شدة متابعتهم للسنة، قال ربيعة للزهري: إذا سُئلت عن مسألة فكيف تصنع ؟ قال: أحدِّث فيها بما جاء عن النبي ﷺ؛ فإن لم يكن عند النبي ﷺ فعن أصحابه، فإن لم يكن عند أصحابه اجتهدت رأيي[3] .

ومما يدل على عظيم احتفائهم وعنايتهم بالمروي عنه ﷺ: أنه قل أن نجدهم يخالفون ما صح عنه ﷺ من تفسيره، وفيما يلي بعض الأمثلة الدالة على ذلك:

أ. فمن هذا ما جاء عنه ﷺ في تفسير قوله تعالى: {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ *} [الفاتحة: 7]. قال ﷺ: «اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضلال»[4] . وبذلك فسرها: مجاهدٌ[5] ، وسعيد بن جبير[6] وغيرهما. قال ابن حاتم: لا أعلم خلافاً بين المفسرين في تفسير { المغضوب عليهم } باليهود، و {ولا الضالين } بالنصارى[7]

---

(1) الفتاوى (363/13).

(2) تفسير التابعين (629/2)؛ تفسير الطبري (30/1).

(3) جامع بيان العلم وفضله (75/2)؛ تفسير التابعين (637/2).

(4) موارد الظمان في زوائد ابن حبان ، رقم (224).

(5) تفسير الطبري (188/1).

(6) الدر المنثور (41/1).

(7) تفسير ابن أبي حاتم ، رقم (22)؛ تفسير التابعين (638/2).

ب ـ ومنه أيضاً ما صح عنه ﷺ في بيان قوله تعالى: [البقرة: 187]. {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ} ﷺ: «هو سواد الليل وبياض النهار»[1]، ولم يخالف في ذلك أحد من التابعين، وبه قال الحسن[2] ، وقتادة[3] .

جـ من ذلك ما جاء عنه عليه الصلاة والسلام في تفسير معنى الظلم الذي ورد في قوله تعالى: {ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ} [سورة الأنعام:82] . قال ﷺ حين شق ذلك على أصحابه فقالوا: أيُّنا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال: «ليس بذلك، ألم تسمعوا قول لقمان : {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ *} [لقمان: 13] [4] ». وهذا هو المنقول عن التابعين قال به إبراهيم النخعي، وقتادة، ومجاهد، وسعيد بن جبير [5] .

د ـ ومنه ما جاء عنه ﷺ في تفسيره للسبع المثاني في قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ*} [الحجر: 87]. قال ﷺ لأبي سعيد بن المعلى: «ألا أعلمك أعظم سورة في القران قبل أن أخرج من المسجد؟» فذهب النبي ﷺ ليخرج، فذكرته، فقال: «الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني، والقران العظيم الذي أوتيته»[6] . وهذا التفسير هو المروي عن سعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، وقتادة[7] .

هـ ومن ذلك: بيانه ﷺ لمعنى: الأمة الوسط، التي وردت في قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ} [البقرة: 143]. ففي الحديث عن ﷺ في قوله: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا } قال: «عدُولاً» [8] وبهذا التفسير قال مجاهد ، وعطاء وقتادة [9] ، هذه بعض الأمثلة التي اعتمدها التابعون في تفسير القرآن الكريم بالسنة النبوية .

3 ـ تفسير القران بأقوال الصحابة:

---

(1) البخاري ، كتاب التفسير؛ الفتح (182/8).

(2) تفسير الطبري (510/3).

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) البخاري ، كتاب التفسير؛ الفتح (294/8).

(5) تفسير التابعين (639/2).

(6) لبخاري ، كتاب التفسير؛ الفتح (381/8).

(7) تفسير التابعين (641/2).

(8) مجمع الزوائد (316/6)؛ رواه أحمد (9/3) صحيح.

(9) تفسير التابعين (641/2).

إن التابعين ما علموا كيفية التلقي من الكتاب والسنة، وكذلك الاجتهاد، ونحو ذلك إلا بسبب تربيتهم على أيدي الصحابة وخبرتهم بمناهجهم الاستدلالية، وتعلمهم لطرق الاستنباط وتلقيهم الرواية النبوية، ورؤيتهم التطبيق العملي لذلك كله، ولقد استوعب التابعون رسالة الصحابة وعرفوا فضلهم، فها هو مجاهد يقول: العلماء أصحاب محمد ﷺ[1] ، وكان التابعون يقدمون قول الصحابي على قولهم؛ يقول الشعبي: إذا اختلف الناس في شيء فانظر كيف صنع عمر؟ فإن عمر لم يكن يصنع شيئاً حتى يشاور، فقال أشعث . راوي الأثر .: فذكرت ذلك لابن سيرين فقال: إذا رأيت الرجل يخبرك أنه أعلم من عمر فاحذره[2] . وكان منهج التابعين في الأخذ عن الصحابة يدور حول:

أ . إذا كان تفسير الصحابي يرفعه للنبي ﷺ، فهذا هو المطلب الرئيس، والغاية القصوى، وليس بعده قول، وكذلك ما كان من تفسير الصحابي، وهو وارد في سبب النزول بالصيغة الصريحة[3]، وكذلك فيما لا مجال للرأي فيه، فهذا يقفون عنده لا يجاوزونه، لأن الصحابي شاهد التنزيل، ومثال ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ *} [الأنعام: 61]. فقد قال فيها ابن عباس رضي الله عنهما: إن لملك الموت أعواناً من الملائكة. رواه عنه إبراهيم[4] . ولذا جاءت الرواية من تفسير إبراهيم نفسه بالاقتصار على قول ابن عباس، ولم يزد عليه شيئاً، فقال: أعوان ملك الموت[5] ، وكذا جاء عن قتادة، ومجاهد، والربيع[6] .

ب . وإذا كان التفسير الوارد عن الصحابي من باب الاجتهاد، وجارياً على مقتضى اللغة، فإنهم في الغالب لا يخالفونه، فإن الصحابة أهل اللسان والبيان والفهم، ولأجل ذلك اعتمد مجاهد تفسير ابن عباس دون غيره عندما تعرض لتفسير قوله تعالى: {فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ} [الأنعام: 98]. فقد قال ابن عباس: المستقر بالأرض،

([1]) إعلام الموقعين (16/1)؛ تفسير التابعين (651/2).

([2]) الحلية (320/4)؛ تفسير التابعين (653/2).

([3]) أي: سبب نزول كذا هو كذا وكذا ، أو حدث كذا ونزل كذا.

([4]) تفسير الطبري (410/11)؛ زاد المسير (55/3).

([5]) تفسير الطبري (410/11).

([6]) تفسير التابعين (658/2).

والمستودع عند الرحمن[1]. وجاءت رواية عن ابن عباس: أن المستقر في الرحم، والمستودع في الصلب[2] ، موافقة للرواية الثانية لشخصية أخرى، وهكذا كان حال ابن جبير في تفسير الاية[3] .

ج **إذا تعارضت الأقوال المنقولة عن الصحابة**، فإن التابعين يسلكون مسلك الترجيح بينها، والترجيح قد يكون باللغة، أو بالحديث، أو بقول صحابي اخر يجمع بين الأقوال، فمن الأول ما جاء في تفسير قوله تعالى: {أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ } [سورة الإسراء:78] . جاء عن ابن عباس في تفسيرها أن دلوكها غروبها [4] وجاء عنه أن دلوكها : زيغها بعد نصف النهار [5] وجاء عن ابن مسعود أن دلوكها غروبها [6] , وجاء عنه أيضا أن دلوكها ميلها يعني : الزوال [7] . فاختار قتادة أن دلوكها زوالها ، ففسرها به [8] ، مع انه نقل القول بغروبها عن ابن مسعود [9] ، ولعل سبب هذا الاختيار هو أن اللغة تدل على أن الدلوك هو الميل ، فيكون المراد صلاة الظهر، ورجحه ابن جرير ، وناقش الأول [10] .

وقد يكون الترجيح لأثر مرفوع، ومنه ما جاء عن قتادة وهو يحدث عن سعيد بن المسيب، قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ مختلفين في الصلاة الوسطى، وشبك بين أصابعه[11] ، فرجح الحسن أنها صلاة العصر[12] ، متابعاً في ذلك عدداً من الصحابة رضي الله عنهم، والمرجح هنا هو الأثر المرفوع الذي رواه الحسن عن سمرة: أن النبي ﷺ قال: «الصلاة الوسطى صلاة العصر»[13] .

وقد يكون الترجيح بقول صحابي اخر يقدَّم به عموم الاية على ما ورد في خصوصها، ويجمع به بين الأقوال، فمن ذلك تفسيرهم لقوله تعالى: {إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١}[سورة الكوثر:1] . فقد جاء تفسير الكوثر عن جمع من

---

(1) المصدر السابق نفسه.
(2) تفسير الطبري (570/11)؛ زاد المسير (92/3).
(3) تفسير الطبري (570/11).
(4) المصدر السابق نفسه (134/15).
(5) فتح القدير (254/3).
(6) زاد المسير (72/5).
(7) فتح القدير (254/3).
(8) زاد المسير (72/5).
(9) المصدر السابق نفسه.
(10) تفسير الطبري (136/15 ، 137).
(11) زاد المسير (282/1).
(12) تفسير التابعين (282/2).
(13) تفسير الطبري (194/5) ، رقم (5438).

الصحابة أنه نهر في الجنة [1] ، وعن ابن عباس : أنه الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه [2]، وتابعه على ذلك سعيد بن جبير ، فقال أبو بشر لسعيد : إنا كنا نسمع أنه نهر في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه [3] ، فهنا رجح ابن جبير العموم في الآية مستندا لقول ابن عباس ، ولم يذهب إلى الخصوص في الأثر الوارد في ذلك ، أما إذا لم يكن ثمة مروي عن الصحابة في ذلك ، فعندئذ يدخل منهم من يدخل في باب الاجتهاد [4] .

وقد أدت الرواية عن الصحابة والاعتماد عليها في التفسير إلى ظهور نتائج واثار ترتبت على ذلك؛ منها: حفظ أخبار الصحابة ومعرفة دقيق أحوالهم والتمييز بينهم، والالتزام بمناهجهم والإفادة منها، وتبني أقوالهم[5] .

4 . اللغة العربية:

لقد تنوعت مشارب التابعين في اعتمادهم على اللغة وجعلها مصدراً من مصادر التفسير؛ وذلك لعدة أسباب؛ منها: معرفة لغة العرب ومعرفة عادات العرب وأخبارهم، والإلمام بأشعار العرب، ومعرفة فقه اللغة من الاشتقاق، والإيجاز والحذف، والتقديم والتأخير، وغير ذلك من الأسباب[6] .

5 . الاجتهاد:

ظهرت اجتهادات التابعين في التفسير، حتى إبان عهد الصحابة، وشملت اجتهاداتهم مواطن كثيرة، غالبها مما سكت عنه الصحابة؛ ومن أهمها:

أ . بيان المراد من النص، وذلك إذا كان النص خفيَّ الدلالة بسبب إجمال في اللفظ أو التركيب.

ب . استنباط بعض الأحكام من النصوص القرانية.

جـ بيان الفروق بين ما تشابه من الكلمات، والمعاني، والتفسير بين النظائر.

د . العناية الفائقة بدقائق من علم الكتاب العزيز، كمباحث عد الايات، والكلمات في القران الكريم[7]وغيرها.

وقد كان لاجتهاد التابعين في تفسير الايات مميزات منها:

([1]) زاد المسير (248/9).

([2]) الدر المنثور (649/8).

([3]) زاد المسير (248/9).

([4]) تفسير التابعين (661/2).

([5]) المصدر السابق نفسه (672/2 إلى 677).

([6]) المصدر السابق نفسه (689/2 إلى 707).

([7]) تفسير التابعين (711/2).

. تنوع عبارات الاجتهاد وتعددها.

. الإيجاز غير المخلِّ.

. عمق التأمل ودقة التفسير.

. قوة الاستنباط.

خامساً: جهود عمر بن عبد العزيز والتابعين في خدمة السنة:

نهى رسول الله ﷺ عن كتابة غير القران في أول الأمر، مخافة اختلاط غير القران به، واشتغال الناس عن كتاب ربهم بغيره، ثم جاء بعد ذلك الإذن النبوي بالكتابة والإباحة المطلقة لتدوين الحديث الشريف فنسخ الأمر، وصار الأمر إلى الجواز[1] .

وقد ثبت أن كثيراً من الصحابة قد أباحوا تدوين الحديث وكتبوه لأنفسهم، وكتب طلابهم بين أيديهم، وأصبحوا يتواصلون بكتابة الحديث وحفظه[2] . وقام الجهابذة من أهل العلم، والغيورين من المسلمين بجهود جبارة لتدوين السنة المطهرة وجمع الحديث النبوي، وتنقيته من شوائب الوضع، وبذلوا في ذلك مهجهم وأوقاتهم، فأسهروا ليلهم، وضربوا في الأرض نهارهم، وأصَّلوا لذلك أصولاً، وقعّدوا قواعد، حتى أثمرت تلك الجهود المباركة هذه الدواوين العظيمة، التي يعكف المسلمون على قراءتها وحفظها والعمل بها، والفضل كل الفضل لله ثم لأولئك البررة الذين كانوا السبب في جمعها، وليس لهم مكافأة أعظم من أجر الله الجزيل لهم يوم القيامة إن شاء الله تعالى[3].

ولعل طلائع التدوين الرسمي للحديث النبوي، الذين قامت به جهة مسؤولة في الدولة الإسلامية، كان على يدي عبد العزيز بن مروان . والد عمر . عندما كان أميراً على مصر كما مرّ معنا، بيد أن التدوين الذي اتى ثماره هو ما قام به أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، وقد تجلى ذلك في إرشاداته لكتابة العلم وتدوين الحديث، وأوامره للخاصة والعامة بذلك، فمن إرشاداته قوله: أيها الناس قيدوا العلم بالشكر، وقيدوا العلم بالكتابة[4] .

لكن أمير المؤمنين عمر لم يكتفِ بهذا الإرشاد العام والحض على حفظ العلم بكتابته، بل سعى . بحكمه خليفة المسلمين . إلى إصدار أوامره إلى بعض الأئمة العلماء بجمع سنن وأحاديث رسول الله ﷺ، وقد حمله على ذلك

---

(1) عمر بن عبد العزيز ، عبد الستار الشيخ ، ص 74.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 75.

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) المصدر السابق نفسه، ص 76.

ما راه عند كثير من التابعين في إباحة كتابة الحديث، وهم قد حملوا علماً كثيراً، فخشي عمر على ضياعه، خاصة وأنه ليس دائماً تتوفر الحفظة الواعون لنقله، دونما احتياج إلى كتابة الكتب والرجوع إليها للاستذكار، وثمة سبب اخر يضاهي سابقه في الأهمية، وهو: فشوّ الوضع ودسّ الأحاديث المكذوبة، وخلطها بالصحيح من كلام النبي ﷺ، بسبب الخلافات المذهبية والسياسية، وإلى هذا يشير كلام الإمام الزهري: لولا أحاديث تأتينا من قبل المشرق ننكرها لا نعرفها، ما كتبت حديثاً ولا أذنت في كتابته[1] .

ورأي الزهري هذا كان رأي كثير من أئمة ذلك العصر، حيث خافوا على الحديث النبوي من الضياع، واختلاطه بالمكذوب، مما حفز العلماء على حفظ السنة بتدوينها، وجاء رأي السلطة العليا ممثلاً بالخليفة الورع العالم المجتهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، فاتخذ خطوة حاسمة بتدوين سنن رسول الله ﷺ، وجعل من مسؤوليات الدولة حفظ السنة المطهرة[2] . وإليك خطواته ومجهوداته في هذا الشأن:

1 . كتب إلى الإمام الثبت أمير المدينة وأعلم أهل زمانه بالقضاء، أبي بكر بن حزم، يأمره بذلك، ففي صحيح البخاري: وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم: انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ، فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺ، ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يعلم ما لم يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً[3] ، وروى ابن سعد عن عبد الله بن دينار . قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ أو سنّة ماضية أو حديث عمرة بن عبد الرحمن، فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب أهله[4].

2 . كذلك وجَّه كتاباً بهذا الشأن إلى الإمام الحجة ابن شهاب الزهري، فقد ذكر ابن عبد البر عن ابن شهاب قال: أمرنا عمر بن عبد العزيز، بجمع السنن، فكتبناها دفتراً دفتراً، فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفتراً[5] ، وروى أبو عبيد أن عمر أمر ابن شهاب أن يكتب له السنّة في مصارف الزكاة الثمانية، فلبى الزهري أمره، وكتب له كتاباً مطولاً يوضح ذلك بالتفصيل[6] . ومن هنا قال ابن حجر: وأول من دون الحديث ابن شهاب

---

(1) المصدر السابق نفسه ، ص 77

(2) أصول الحديث ، محمد عجاج الخطيب ، ص 176 . 177 . 186.

(3) فتح الباري (1/194 . 195).

(4) الطبقات ، أصول الدين ، ص 177 . 179.

(5) جامع بيان العلم (1/91 . 92).

(6) الأموال ، ص 231 . 232.

الزهري على رأس المئة بأمر عمر بن عبد العزيز، ثم كثر التدوين ثم التصنيف، وحصل بذلك خير كثير، فللّه الحمد[1] .

3 . بل إن عمر وجه أوامره إلى أهل المدينة جميعاً يأمرهم ويحثهم على جمع حديث رسول الله ﷺ، يشارك في هذا كل من لديه علم، ولو كان بضعة أحاديث، فقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل المدينة: أن انظروا حديث رسول الله ﷺ فاكتبوه، فإني قد خفت دروس العلم وذهاب أهله[2] .

4 . ولم يقف عمر عند ذلك، بل عمَّمَ أوامره إلى جميع الأمصار في الدولة الإسلامية، ليقوم كل عالم بجمع وتدوين ما عنده من حديث رسول الله ﷺ، وما سمعه من أصحابه الكرام[3] ، وروي عنه: انظروا حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه واحفظوه، فإني أخاف دروس العلم وذهاب العلماء[4] .

وقد اهتم عمر رضي الله عنه باللغة العربية: فشجع أهل البلاد المفتوحة على تعلّمها وإتقانها، وكان يغدق عليهم ـ لذلك ـ العطايا، كما أنه يعاقب من يلحن بالعربية وينقص من عطائه، لما يعلم من أهمية العربية في فهم كتاب الله والسنة النبوية الشريفة[5] .

* منهج عمر بن عبد العزيز وطريقته في التدوين:

اتبع عمر في جمع الحديث النبوي وتدوينه منهجاً سديداً قويماً، وسلك فيه شروطاً صارمة، ووضع له أبعاداً هادفة مفيدة. ويتجلى ذلك في أربعة أمور:

1 . حسن اختياره للقائمين بهذا الأمر:

فأبو بكر بن حزم هو أحد أوعية العلم ومن أعلام عصره، قال فيه الإمام مالك: ما رأيت مثل ابن حزم أعظم مروءة ولا أتمَّ حالاً، ولا رأيت من أوتي مثل ما أوتي: ولاية المدينة، والقضاء، والموسم. وقال: كان رجل صدق، كثير الحديث. وقال ابن سعد: كان ثقة عالماً كبير الحديث توفي 120 هـ[6] .

([1]) فتح الباري (208/1)؛ أصول الحديث ص 178 ، 180.

([2]) سنن الدارمي (137/1).

([3]) عمر بن عبد العزيز ، عبد الستار الشيخ ، ص 79.

([4]) فتح الباري (195/1)؛ أصول الحديث ، ص 178.

([5])عمر بن عبد العزيز ، للشرقاوي ، ص 178.

([6]) سير أعلام النبلاء (313/5 ـ 314).

وأما الزهري، فهو العالم العَلَم، حافظ زمانه، وشهرته ملأت الافاق، قال فيه الليث بن سعد: ما رأيت عالماً قط أجمع من ابن شهاب، يحدث في الترغيب والترهيب، فتقول: لا يحسن إلا هذا، وإن حدَّث عن العرب والأنساب، قلت: لا يحسن إلا هذا. وإن حدّث عن القران والسنة، كان حديثه. وقال عمر بن عبد العزيز: عليكم بابن شهاب، فإنه ما بقي أحد أعلم بسنة ماضية منه[1] .

2 . أنه طلب ممّن يدوّن له السنة جمع الأحاديث مطلقاً وتدوينها:

وتتبع أحاديث أناس مخصوصين لما امتازوا بتدوين أحاديث معينة لأهميتها: فقد أمر ابن حزم بتدوين حديث عَمْرَة بنت عبد الرحمن لأنها من أثبت الناس بأم المؤمنين عائشة، والسيدة عائشة هي أعلم الناس بأحوال سيدنا رسول الله ﷺ وشؤونه الخاصة داخل بيته ومع أهله[2] .

وعمرة هذه هي: عمرة بنت عبد الرحمن بن سعد بن زُرارة الأنصارية النّجارية المدنية الفقيهة، تربية عائشة وتلميذتها، وجدّها سعد من قدماء الصحابة، وهو أخو النقيب الكبير أسعد بن زرارة، ذكرها ابن المديني فضخَّم أمرها وقال: عمرة إحدى الثقات العلماء بعائشة، الأثبات فيها[3] . وقال الزهري: أتيتها فوجدتها بحراً لا يُنْزَف[4]. توفيت عام 98 هـ، وقيل: 106 هـ[5] .

وذكرت إحدى الروايات أنه أمر ابن حزم بجمع وتدوين حديث عمر بن الخطاب. وذلك لما يقصده ابن عبد العزيز من تتبع سيرة الفاروق وأقضيته وسياسته في الصدقات، وكتبه إلى عماله فيها، وقد طلب ذلك أيضاً من سالم بن عبد الله بن عمر. وكل ذلك واضح من النهج الذي سلكه عمر بن عبد العزيز في الاقتداء بجده رضي الله عنهما.[6] كذلك كتب إلى ال عمرو بن حزم أن ينسخوا له كتاب النبي ﷺ لهم في الصدقات، كي يسير عليه في خلافته وفي تسيير أمور رعيته[7] .

([1]) سير أعلام النبلاء (328/5)؛ عمر بن عبد العزيز ، عبد الستار الشيخ ، ص 80.

([2]) عمر بن عبد العزيز ، عبد الستار الشيخ ، ص 81.

([3]) المصدر السابق نفسه؛ تهذيب التهذيب (466/12).

([4]) سير أعلام النبلاء (508/4)؛ نساء لهن تاريخ ، ص 155.

([5]) المصدر السابق نفسه (508/4).

([6]) عمر بن عبد العزيز ، عبد الستار الشيخ ، ص 81.

([7]) المصدر السابق نفسه.

3 . أنه ألزم من يدوّن السنة النبوية أن يميز الصحيح من السقيم:

ويتحرى الثابت من الحديث، وذلك واضح في رواية الدارمي؛ حيث يقول عمر لابن حزم: اكتب إليَّ بما ثبت عندك من الحديث عن رسول الله ﷺ وبحديث عمر. وعند الإمام أحمد في العلل: اكتب إليَّ من الحديث بما ثبت عندك عن رسول الله ﷺ وحديث عَمْرَة[1] . وهذه نقطة عظيمة الأهمية في تأسيس منهج التدوين على أسس راسخة، ثابتة صحيحة، قويمة مستقيمة[2] .

4 . تثبته من صحة الحديث والتحديث:

فعمر من كبار العلماء، وليس بأقل شأناً في العلم ممن أمرهم بالتدوين، لذلك قام بمشاركة العلماء في مناقشة بعض ما جمعوه، زيادة في التثبت[3] ، من ذلك ما رواه أبو الزناد عبد الله بن ذكوان القرشي قال: رأيت عمر بن عبد العزيز جمع الفقهاء، فجمعوا له أشياء من السنن، فإذا جاء الشيء الذي ليس العمل عليه قال: هذه زيادة ليس العمل عليها[4] .

* ثمرة هذا التدوين:

لقد اتت هذه الجهود الباكرة المباركة بعض أكلها، وتمثل ذلك بتلك الدفاتر التي جمعها الإمام الزهري، فأمر عمر بن عبد العزيز بنسخها عدة نسخ، ثم أرسل إلى كل بلد في دولته الكبيرة دفتراً منها، ويلاحظ أن كثيراً من العلماء جمع لنفسه مسموعاته، ليعود إليها كلما وجد في نفسه الحاجة إلى إتقان حفظها، أما التدوين الرسمي الذي تولّته الدولة، وعممت ثمرته على الأمصار، فكان بأمر عمر بن عبد العزيز.

ومن الثمرات الطيبة ـ أيضاً ـ ذلك المنهج السديد الذي اتبعه أمير المؤمنين عمر، بوضع الأسس والنقاط الهامة أثناء التدوين، فكانت نواة لمنهج واسع متكامل جاء بعده، وهذا كله ناتج من دقة فهمه، وغزارة علمه، ونفاذ بصيرته، وقبل ذلك وبعده توفيق الله تعالى له، ولئن كان عمر بن الخطاب قد أشار على الصديق بجمع القران، ففعل، فكان لهما الفضل الكبير على الأمة. ثم جاء عثمان فجمع الناس على مصحف واحد، وحرف واحد، ولهجة واحدة هي لهجة قريش، فإن الله سبحانه قد ادّخر لعمر بن عبد العزيز ـ نحسب ذلك ولا نزكي على الله أحداً ـ.

([1]) نقلاً عن مقدمة المسند ، ص 20 ، 23.

([2]) عمر بن عبد العزيز ، عبد الستار الشيخ ، ص 82.

([3]) المصدر السابق نفسه.

([4]) أصول الحديث ، ص 82.

تلك المنقبة العظيمة، والمكرمة الجليلة، في إصدار أوامر الخلافة بجمع السنة وتنقيحها وتدوينها، وجعل من أولويات الدولة حماية السنة التي هي المصدر الثاني للتشريع. وهذا من توفيق الله للعظماء، وكبار المصلحين، عندما تخلص سرائرهم لله، يوفقهم الله للحق ويدلهم على الخيرات، ويسدّد خطواتهم، ويهيّئ لهم من أمرهم رشداً[1] .

قال الشاعر الليبي أحمد رفيق المهدوي:

فـإذا أحــبَّ اللهُ باطـنَ عــبــدهِ	ظهـرتْ عـلـيـه مـواهـبُ الـفـتّـاحِ
وإذا صـــفــتْ لله نيـةُ مصـــلحٍ	[2]مـالَ الـعـبـادُ عـلـيـه بالأرواحِ

ويعتبر (التدوين الرسمي) بحق أحد الأعمال العظيمة والإنجازات الكبيرة التي تحققت في عهد عمر بن عبد العزيز[3] رحمه الله.

* جهود التابعين في خدمة السنة النبوية الشريفة:

تحمَّل التابعون الحديث النبوي عن الصحابة وضبطوا الإسناد مع الدقة والإتقان، وأصبح الحديث أمانة في أعناقهم، عليهم أن يجتهدوا في تبليغها وإيصالها إلى من وراءهم، لا سيما وقد ظهر في عصرهم بسبب الخلافات السياسية والكلامية وبسبب الزندقة المتمثلة في التظاهر بالإسلام مع كراهيته، ديناً، ودولة، وبسبب التعصب للجنس، واللغة والقبيلة، والبلد، وبسبب التكسب والارتزاق عن طريق القصص والوعظ، وبسبب الجهل من بعض الزهاد والعباد وغير ذلك من الأسباب، ظهر الكذب والوضع في الحديث، فانبرى هؤلاء يؤدون الأمانة ويقومون بواجبهم في مواجهة الكذابين والوضَّاعين، وكانت لهم في ذلك جهود ضخمة مشكورة[4] يمكن تلخيصها في الاتي:

1 . الالتزام بالإسناد ومطالبة الغير به:

أ . قال ابن سيرين: لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة، فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم[5] .

([1]) عمر بن عبد العزيز ، عبد الستار الشيخ ، ص 83.

([2]) الثمار الزكية للحركة السنوسية ، ص 198.

([3]) عمر بن عبد العزيز ، عبد الستار الشيخ ، ص 83.

([4]) التابعون وجهودهم في خدمة الحديث النبوي ، للشايجي ، ص 54 ، هذه الرسالة مع صغر حجمها ولكنها قيمة.

([5]) مسلم في مقدمته ، باب بيان الإسناد من الدين (15/1).

ب . جاء عن عتبة بن أبي الحكم: أنه كان عند إسحاق بن أبي فروة وعنده الزهري، قال: فجعل ابن أبي فروة يقول: قال رسول الله ﷺ: ...، فقال له الزهري: قاتلك الله يا بن أبي فروة ما أجرأك على الله ! لا تسند حديثك، تحدثنا بأحاديث ليس لها خطم ولا أزمة[1] .

2 . عقد الحلقات العلمية:

يقول ابن سيرين: قدمت الكوفة، وللشعبي حلقة علمية عظيمة، والصحابة يومئذ كثير[2] . وعن ابن شهاب قال: كان يقص لنا سعيد بن جبير كل يوم مرتين: بعد الفجر، وبعد العصر[3] .

3 . الحرص على أداء الحديث على وجهه:

يعني روايته بلفظه، فإن لم يتيسر ذلك رووه بالمعنى مراعين شروطه وضوابطه المعروفة[4]. فعن ابن عون قال: كان إبراهيم، والشعبي، والحسن، يأتون بالحديث على المعاني، وكان القاسم، وابن سيرين، ورجاء يعيدون الحديث على حروفه[5] . وقال ليث بن أبي سليم: كان طاوس يعد الحديث حرفاً حرفاً[6]، وقال جرير بن حازم: سمعت الحسن يحدث بالحديث: الأصل واحد، والكلام مختلق[7] .

4 . وضع معايير علمية لمعرفة حال الرواة تجريحاً وتعديلاً:

. مثل مقابلة روايات الضابطين ببعضها : كقول ابن شهاب الزهري: إذا حدثتني عَمْرَة ثم حدثني عروة صدق عندي حديث عمرة حديث عروة، فلما تبحرتهما إذا عروة بحر لا ينزف[8] .

. أو مقابلة حديث الراوي بحديث نفسه ولكن على فترات متباعدة: كما جاء أن هشام بن عبد الملك أراد التأكد من حفظ الزهري، فاختبره بنفسه؛ حيث سأله أن يملي على بعض ولده، فدعا بكتاب، فأملى عليه أربعمئة

---

(1) معرفة علوم الحديث ، للحاكم ، ص 6.

(2) تاريخ الإسلام ، ص 126 ، حوادث 104 هـ.

(3) سير أعلام النبلاء (336/4).

(4) التابعون وجهودهم في خدمة الحديث النبوي ، ص 58.

(5) سير أعلام النبلاء (559/4).

(6) المصدر السابق نفسه (465/5).

(7) الجامع لأخلاق الراوي واداب السامع (21/2).

(8) سير أعلام النبلاء (436/4).

حديث، ثم إن هشاماً قال له بعد شهر أو نحوه: يا أبا بكر إن ذلك الكتاب ضاع، فدعا بكتاب فأملاها عليه، ثم قابله هشام بالكتاب الأول فما غادر حرفاً[1] .

. أو بقلب الأسانيد والمتون: كما جاء عن حماد بن سلمة قال: كنت أسمع أن القصاص لا يحفظون الحديث، فكنت أقلب الأحاديث على ثابت: أجعل أنساً لابن أبي ليلى، وبالعكس، أشوشها عليه فيجيء بها على الاستواء[2].

. ومن معرفة المبتدع بإعراضه عن السنة إلى القران: عن أبي قلابة، قال: إذا حدثت الرجل بالسنة فقال: دعنا من هذا، وهات كتاب الله؛ فاعلم أنه ضال[3] .

. ومن ضرورة حفظ القران قبل الاشتغال بالحديث: عن حفص بن غياث قال: أتيت الأعمش فقلت: حدثني، قال: أتحفظ القران ؟ قلت: لا. قال: اذهب، فاحفظ القران، ثمّ هلمّ أحدثك، قال: فذهبت فحفظت القران، ثم جئته فاستقرأني، فقرأته، فحدثني.

5 . إجابة المستفتين، والقضاء بين الناس:

كان من جهود التابعين في خدمة السنة أداء: إجابة المستفتين، والقضاء بها بين الناس، هذا علقمة بن قيس النخعي يتفقه به أئمة، كإبراهيم، والشعبي، ويتصدى للإمامة والفتيا بعد علي وابن مسعود، وكان يشبه بابن مسعود في هديه، ودله، وسمته، وكان طلبته يسألونه ويفقهون به، والصحابة متوافرون[4] . وعن أبي الزناد قال: كان الفقهاء السبعة الذين يسألون بالمدينة، ويُنتهى إلى قولهم: سعيد بن المسيب، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وعروة، والقاسم، وعبيد الله بن عبد الله، وخارجة بن زيد، وسليمان بن يسار[5] . ولا شك أن إجابة المستفتين والقضاء بين الناس ما كان لهما أن يظهرا على أرض الواقع مع الدعة والراحة والنوم، وإنما تطلبا جهداً ووقتاً ونفقة للإعداد والتحضير، ثم الأداء[6].

([1]) السنة ومكانتها في التشريع ، ص 209.

([2]) سير أعلام النبلاء (222/5).

([3]) المصدر السابق نفسه (742/4).

([4]) المحدث الفاصل ، باب أوصاف الطالب وادابه ، ص 203.

([5]) سير أعلام النبلاء (438/4).

([6]) التابعون وجهودهم في خدمة الحديث النبوي ، ص 64.

6 . بيان حال الرواة لمعرفة من يحتج بحديثه ومن لا يحتج[1] :

كان من جهود التابعين في خدمة الحديث النبوي أداء بيان حال الرواة لمعرفة من يحتج بحديثه ومن لا يحتج:

أ . عن محمد بن سيرين قال: أدركت أهل الكوفة وهم يقدمون خمسة: من بدأ بالحارث الأعور ثنى بعبيدة السلماني، ومن بدأ بعبيدة ثنى بالحارث، ثم علقمة، ثم مسروق، ثم شريح[2] .

ب . وعن قتادة قال: إذا اجتمع لي أربعة لم ألتفت إلى غيرهم، ولم أبالِ من خالفهم: الحسن، وابن المسيب، وإبراهيم، وعطاء؛ هؤلاء أئمة الأمصار[3] .

هذه هي أهم الجهود التي بذلوها في خدمة الحديث النبوي، ومن أراد التوسع فليراجع السنة قبل التدوين [4]للدكتور محمد عجاج الخطيب، والتابعون وجهودهم في خدمة الحديث النبوي.

سادساً: منهج التزكية والسلوك عند التابعين، مدرسة الحسن البصري مثالاً:

* الحسن البصري في عهد عمر بن عبد العزيز والدولة الأموية:

يعتبر الحسن البصري من المعاصرين لعمر بن عبد العزيز، كما أنه كان له تأثير واضح في الحياة الدينية والاجتماعية في عهد الدولة الأموية، والحسن البصري هو أبو سعيد الحسن بن يسار . مولى زيد بن ثابت رضي الله عنه . من كبار التابعين، وإمام أهل البصرة، وحبر الأمة وقتها، وأمه (خيرة) مولاة أم المؤمنين أم سلمة . رضي الله عنها. ولد عام 21 هـ في المدينة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، ويقال: الحسن أرضعته أم سلمة . رضي الله عنها . حيث كانت أمه . خيرة . تخرج لشراء بعض الحاجيات، فيبكي الطفل فتأخذه أم سلمة بين يديها، وتضعه في حجرها، وتلقمه ثديها، فيدر الثدي لبناً، فيرضع الحسن، وبذلك تكون أمه من الرضاعة، وقد كانت فصاحته وعلمه من هذه البركة، ومن البديهي أن يتعرف الطفل الصغير على بيوت أمهات المؤمنين وينهل من معينهن، ويتأدب بأدبهن ويتخلق بأخلاقهن، ومن جهة أخرى يتتلمذ على كبار الصحابة في مسجد رسول الله ﷺ، كأبي موسى الأشعري، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم أجمعين.

---

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) سير أعلام النبلاء (91/4).

(3) المصدر السابق نفسه (83/5).

(4) السنة قبل التدوين ، ص 144 إلى 199.

وانتقل مع أبويه فيما بعد إلى (البصرة)، وإليها ينسب، فيقال: الحسن البصري، وكان عمره وقتها أربع عشرة سنة، فلزم مسجد البصرة ينهل من معين علمائها وخاصة حلقة حبر الأمة وعالمها عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وما هو إلا قليل حتى التف الناس حوله، وقصدوه من كل حدب وصوب، وكما قيل فيه كان قوله كفعله، لا يقول ما لا يفعل؛ سريرته كعلانيته، إذا أمر بمعروف كان أعمل الناس به، وإذا نهى عن منكر كان أترك الناس له، مستغنياً عما في أيدي الناس، زاهداً به، والناس محتاجون إليه بما عنده[1] .

1 . أسباب تأثيره في قلوب الناس:

جمع الله فيه من الفضائل والمواهب ما استطاع به أن يؤثّر في قلوب الناس، ويرفع به قيمة الدين وأهل الدين في المجتمع، فقد كان واسع العلم غزير المادة في التفسير والحديث، ولم يكن لأحد في ذلك العصر أن ينشر دعوته ويقوم بالإصلاح، إلا إذا كان متوفراً على هذين العلمين، وقد أدرك الصحابة وعاصر كثيراً منهم، ويظهر من حياته ومواعظه أنه درس هذا العصر دراسة عميقة وأدرك روحه وعرف كيف تطور المجتمع الإسلامي، ومن أين انحرف، وكان واسع الاطلاع، دقيق الملاحظة للحياة ومختلف الطبقات وعوائدها وأخلاقها وعِللها وأدوائها، كطبيب مارس العلاج مدة[2] .

وكان مع ذلك غاية في الفصاحة وحلاوة المنطق والتأثير في مستمعيه، يقول أبو عمرو بن العلاء: ما رأيت أفصح من الحسن البصري، والحجاج بن يوسف، والحسن أفصح منه[3] ، وكان اية في اتساع المعلومات ووفور العلم، قال الربيع بن أنس: اختلفت إلى الحسن عشر سنين، وما من يوم إلا أسمع منه ما لم أسمع قبله. وقال محمد بن سعد: كان الحسن جامعاً عالماً رفيعاً فقيهاً، ثقة مأموناً، عابداً ناسكاً، كثير العلم، فصيحاً، جميلاً وسيماً، وقدم مكة فأجلس على سرير، واجتمع الناس إليه، وقالوا: لم نرَ مثل هذا قط، وقد وصفه ثابت بن قُرة . كما نقل عنه أبو حيان التوحيدي. فقال: كان من ذراري النجوم علماً وتقوى، وزهداً وورعاً، وعفة ورقّة، وفقهاً ومعرفة، يجمع مجلسه ضروباً من الناس، هذا يأخذ عنه الحديث، وهذا يلقفُ منه التأويل[4] ، وهذا يسمع منه الحلال والحرام، وهذا يحكي به الفتيا، وهذا يتعلم الحكم والقضاء، وهذا يسمع الوعظ، وهو في جميع ذلك كالبحر اللّجلاج تدفقاً،

([1]) سير أعلام النبلاء (563/4 إلى 588) ، حياة الحسن البصري ، د. روضة الحضري؛ الحسن البصري إمام عصره وعلامة زمانه ، مرزوق علي إبراهيم؛ الحسن البصري ، مصطفى سعيد الخن؛ الزهد ، للحسن البصري. د. محمد عبد الرحيم محمد.

([2]) رجال الفكر والدعوة (67/1).

([3]) نظرات في التصوف الإسلامي ، د. محمد القهوجي ، ص 221.

([4]) التأويل: التفسير.

وكالسِّراج الوهاج تألقاً، ولا تُنسَ مواقفه ومشاهده بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عند الأمراء وأشباه الأمرء، بالكلام الفصل واللفظ الجزل[1].

وكان فوق ذلك كله ـ وهو سر تأثيره في القلوب، وسحره في النفوس، وخضوع الناس له ـ أنه كان صاحب عاطفة قوية، وروح ملتهبة، وكان من كبار المخلصين، وكان الذي يقوله يخرج من القلب فيدخل في القلب، وكان إذا ذكر الصحابة أو وصف الآخرة، أدمع العيون وحرك القلوب[2] ، قال عنه مطر الوراق: لما ظهر الحسن جاء كأنَّما كان في الآخرة فهو يخبر عمَّا عاين[3] . وقال عوف: ما رأيت رجلاً أعلم بطريق الجنة من الحسن[4]. فقد كان يتذوق الإيمان، ويتكلم عن عاطفة ووجدان، لذلك كانت حلقته في البصرة أوسع الحلقات، وانجذب الناس إليه انجذاب الحديد إلى المغناطيس ـ وذلك شأن أهل القلوب والإخلاص في كل زمان ..

وكان من أعظم ما امتاز به هو أنَّ كلامه كان أشبه ما سمع الناس بكلام النبوة، وقال الغزالي في إحياء علوم الدين: ولقد كان الحسن البصريُّ رحمه الله أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأقربهم هدياً من الصحابة رضي الله عنهم، اتّفقت الكلمة في حقه على ذلك[5].

وكانت نتيجة المواهب العظيمة والفضائل الكثيرة، أنه كان صاحب شخصية قوية جذابة حبيبة إلى النفوس، وكان الناس مأخوذين بسحرها، خاضعين لعظمتها، حتى قال ثابت بن قرّة الحكيم الحرّاني: إن الحسن من أفراد الأمة المحمدية التي تتباهى بهم على الأمم الأخرى[6] .

وكان من أعظم أسباب تأثير الحسن البصري في المجتمع، ونفوذه في القلوب والعقول، أنه ضرب على الوتر الحساس، ونزل أعماق المجتمع، ووصف أمراضه، وانتقده انتقاد الحكيم الرفيق، والناصح الشفيق، لقد كان عصره يغُصُّ بالدعاة والوعاظ، ولكنَّ المجتمع لم يتأثر لأحد كتأثره بالحسن، لأنه كان يَمسُّ قلبه وينزل في صميم الحياة، ويعارض التيار، لأنه كان ينعى على الإخلاد إلى الحياة والانهماك في الشهوات، وقد انتشر هذا المرض في الحياة، إنه كان يذكر بالموت ويستحضر الآخرة، والمترفون يتناسون ذلك ويُعلِّلون نفوسهم بالأماني الكاذبة والأحلام اللذيذة،

([1]) رجال الفكر والدعوة (68/1).

([2]) المصدر السابق نفسه.

([3]) سير أعلام النبلاء (573/4).

([4]) المصدر السابق نفسه (575/4).

([5]) رجال الفكر والدعوة (68/1).

([6]) المصدر السابق نفسه.

ويتضايقون بذكر ما يكدِّر عليهم الحياة ويُعكِّر صفو عيشهم، فكان دائماً في صراع مع الجاهلية، والجاهلية لا تخضع إلا لمن صارعها، ولا تعترف إلا بوجود الرجل الذي يحاربها، وكان الحسن البصري هو ذاك الرجل، فعظم تأثيره وكثر التائبون والمقْلعون عن المعاصي والحياة الجاهلية التي كانوا يعيشونها، وانطلقت موجة الإصلاح قوية مؤثرة، لأن الحسن لم يقتصر على مواعظ وخطب كان يُلقيها، بل كان يُعنى بتربية من يتصل به ويجالسه. فكان جامعاً بين الدعوة والإرشاد، وبين التربية العملية والتزكية الخُلقية والروحية، فاهتدى به خلائق لا يحصيهم إلا الله، وذاقوا حلاوة الإيمان وتحلوا بحقيقة الإسلام[1].

2 . ملامح التصوف السني عند الحسن البصري:

يعتبر الحسن البصري من علماء السلوك النادرين، وممن اهتموا بأمراض النفوس وعلاجها، وإحياء القلوب وإمدادها بالإيمان والمعاني الربانية السامية، وكان رحمه الله سليم العقيدة، متقيداً بالكتاب والسنة في تعليمه وتربيته، ولا شك أن الأساس في التصوف السني هو الالتزام بالكتاب والسنة وفق منهج السلف الصالح في العقيدة والعبادة والسلوك والمعاملة، وسنرى ذلك من خلال سيرة الحسن.

ومن الأمور التي اهتم بها الحسن رحمه الله:

أ . قسوة القلب وموته وإحياؤه:

قال رجل للحسن: يا أبا سعيد، أشكو إليك قسوة قلبي قال: أدنه من الذكر[2] ، وقال: إن القلوب تموت وتحيا، فإذا ماتت فاحملوها على الفرائض، فإذا هي أحييت فأتبعوه بالتطوع[3] ، إن قسوة القلب ذمها المولى عز وجل قال تعالى: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً} [سورة البقرة:74]، ثم بين وجه كونها أشد قسوة، بقوله: { وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ } [سورة البقرة:74] . وقال رسول الله ﷺ: «ولا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي»[4] .

---

(1) المصدر السابق نفسه (75/1).

(2) الزهد ، للحسن البصري ، ص 123.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 124.

(4) سنن الترمذي ، رقم (2411) حسن غريب.

وأما أسباب القسوة فكثيرة؛ منها: كثرة الكلام بغير ذكر الله، نقض العهد مع الله {فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗ} [سورة المائدة:13] ، ومنها: كثرة الضحك، ومنها: كثرة الأكل لا سيما من الحرام، ومنها: كثرة الذنوب[1]، وغيرها، وقد ذكر الكثير منها الحسن البصري في كلامه.

وأما مزيلات القسوة فمتعددة منها:

.كثرة ذكر الله يتواطأ عليه القلب واللسان:

قال تعالى: {ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ} [سورة الزمر:23] ، وقال رسول الله ﷺ: «إن هذه القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد»، قيل: فما جلاؤها يا رسول الله ! قال: «تلاوة كتاب الله وكثرة ذكره»[2] .

وكان الحسن البصري رحمه الله يقول: أيها الناس إني أعظكم ولست بخيركم ولا أصلحكم وإني لكثير الإسراف على نفسي، غير محكم لها، ولا حاملها على الواجب في طاعة ربها، ولو كان المؤمن لا يعظ أخاه إلا بعد إحكام أمر نفسه لعدم الواعظون، وقل المذكرون، ولما وجد من يدعو إلى الله جل ثناؤه، ويرغب في طاعته وينهى عن معصيته، ولكن في اجتماع أهل البصائر ومذاكرة المؤمنين بعضهم بعضاً حياة لقلوب المتقين وإذكار من الغفلة، وأمن من النسيان، فالزموا عافاكم الله مجلس الذكر، فرب كلمة مسموعة، ومحتقر نافع، اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون[3].

وكان يقول: سبحان من أذاق قلوب العارفين من حلاوة الانقطاع إليه، ولذة الخدمة له، ما علق هممهم بذكره وشغل قلوبهم عن غيره، فلا شيء ألذ عندهم من مناجاته، ولا أقر إلى أعينهم من خدمته، ولا أخف على ألسنتهم من ذكره سبحانه وتعالى مما يقول الظالمون علواً كبيراً[4] .

وكان يقول: تفقد الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة والقراءة والذكر، فإن وجدت ذلك فامض وأبشر، وإلا فاعلم أن بابك مغلق فعالج فتحه[5] .

([1]) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب (261/1 ، 262).

([2]) البيهقي في الشعب ، رقم (1402)؛ العلل المتناهية ، لابن الجوزي (82/2) الحديث فيه ضعف.

([3]) الزهد ، للحسن البصري ، ص 79.

([4]) المصدر السابق نفسه.

([5]) المصدر السابق نفسه.

ومن أفضل الذكر العمل بالقران وتلاوته، وكان الحسن البصري يقول: من أحب أن يعلم ما هو فيه، فليعرض عمله على القران، ليتبين الخسران من الرجحان[1] ، وكان يقول: رحم الله عبداً عرض نفسه على كتاب الله، فإن وافق أمره حمد الله وسأله المزيد، وإن خالف استعتب ورجع من قريب[2] ، وكان يقول: أيها الناس ! إن هذا القران شفاء للمؤمنين، وإمام للمتقين فمن اهتدى به هُدي، ومن صرف عنه شقي وابتلي[3] . وكان يقول: قراء القران ثلاثة نفر: قوم اتخذوه بضاعة يطلبون به ما عند الناس، وقوم أجادوا حروفه وضيعوا حدوده استدروا به أموال الولاة واستطالوا به على الناس. وقد كثر هذا الجنس من حملة القران. فلا كثَّر الله جمعهم ولا أبعد غيرهم، وقوم قرؤوا القران فتدبَّروا اياته وتداووا به[4]. وأما قيام الليل فكان يقول فيه: إذا لم تقدر على قيام الليل ولا صيام النهار فاعلم أنك محروم، قد كبلتك الخطايا والذنوب[5]. وقال له رجل: يا أبا سعيد: أعياني قيام الليل فما أطيقه؟ فقال: يا بن أخي، استغفر الله وتب إليه، فإنها علامة سوء[6] ، وقال: إن الرجل ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل[7] .

.كثرة ذكر الموت:

قال رسول الله ﷺ: «أكثروا ذكر هاذم اللذات»[8] . وقال الحسن البصري: فضح الموت الدنيا، فلم يترك فيها لذي لب فرحاً[9]. وعن صالح بن رسم قال: سمعت الحسن يقول: رحم الله رجلاً لم يغره كثرة ما يرى من كثرة الناس، ابن ادم إنك تموت وحدك وتدخل القبر وحدك، وتبعث وحدك وتحاسب وحدك، ابن ادم وأنت المعنّى وإياك يراد[10]. وقال الحسن: ما أكثر عبد ذكر الموت إلا رأى ذلك في عمله، ولا طال أمل عبد قط إلا أساء العمل[11] .

---

(1) المصدر السابق نفسه ، ص 142.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 147.

(4) المصدر السابق نفسه، ص 148.

(5) المصدر السابق نفسه، ص 146.

(6) المصدر السابق نفسه.

(7) المصدر السابق نفسه.

(8) سنن الترمذي ، رقم (2307)؛ سنن ابن ماجه ، رقم (4258).

(9) الزهد، للحسن البصري ، ص 20.

(10) المصدر السابق نفسه، ص 21.

(11) المصدر السابق نفسه.

وقيل: رأى الحسن شيخاً في جنازة فلما فرغ من الدفن، قال له الحسن: يا شيخ، أسألك بربك: أتظن أن هذا الميت يود أن يرد إلى الدنيا فيتزيد من عمله الصالح، ويستغفر الله من ذنوبه السالفة ؟ فقال الشيخ: اللهم نعم، فقال الحسن: فما بالنا لا نكون كهذا الميت، ثم انصرف، وهو يقول: أي موعظة ! ما أنفعها لو كان بالقلوب حياة ! ولكن لا حياة لمن تنادي[1] .

وقال: حقيق على من عرف أن الموت مورده والقيامة موعده، والوقوف بين يدي الجبار مشهده: أن تطول في الدنيا حسرته، وفي العمل الصالح رغبته[2] . وكان يقول: ما رأيت يقيناً لا شك فيه أصبح شكاً لا يقين فيه من يقيننا بالموت وعملنا لغيره[3] . وكان يقول: عباد الله ! إن الله سبحانه لم يجعل لأعمالكم أجلاً دون الموت، فعليكم بالمداومة، فإنه جل ثناؤه يقول: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ *} [الحجر: 99]. وكان يقول: ابن آدم! إنك تموت وحدك، وتحاسب وحدك، ابن ادم، لو أن الناس كلهم أطاعوا الله وعصيت أنت لم تنفعك طاعتهم، ولو عصوا الله وأطعت أنت لم تضرك معصيتهم، ابن ادم: ذنبك ذنبك، فإنما هو لحمك ودمك، فإن سلمت من ذنبك سلم لك لحمك ودمك، وإن تكن الأخرى فإنما هي نار لا تطفأ وجسم لا يبلى، ونفس لا تموت[4]. وكان يقول: لولا ثلاثة ما طأطأ ابن ادم رأسه: الموت والمرض والفقر، وإنه بعد ذلك لوثاب[5].

وكان الحسن إذا تلا هذه الاية: {فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ *} [لقمان: 33] قال: من قال ذا؟ قال: من خلقها وهو أعلم بها[6] . وقال: إياكم شغل من الدنيا، فإن الدنيا كثيرة الاشتغال، ولا يفتح رجل على نفسه باب شغل، إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب[7] .

. زيارة القبور والتفكر في حال أهلها:

قال رسول الله ﷺ: «زوروا القبور، فإنها تذكِّر الموت»[8] ، وفي رواية: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها،

([1]) المصدر السابق نفسه.
([2]) المصدر السابق نفسه، ص 22.
([3]) المصدر السابق نفسه.
([4]) المصدر السابق نفسه ، ص 23.
([5]) المصدر السابق نفسه، ص 24.
([6]) المصدر السابق نفسه، ص 25.
([7]) المصدر السابق نفسه ، ص 26.
([8]) مسلم ، رقم (976).

فإنها تذكر الآخرة»[1] ، وكان الحسن البصري كثير الزيارة للقبور، فلما ماتت النوار بنت أعين بن ضبعية المجاشعي امرأة الفرزدق، وكانت قد أوصت أن يصلي عليها الحسن البصري، فشهدها أعيان أهل البصرة مع الحسن، والحسن على بغلته، والفرزدق على بعيره، فسار فقال الحسن للفرزدق: ماذا يقول الناس؟ قال: يقولون: شهد هذه الجنازة اليوم خير الناس ؛ يعنونك، وشر الناس ؛ يعنونني، فقال له: يا أبا فراس، لستُ بخير الناس، ولستَ أنت بشرِّ الناس، ثم قال الحسن: ما أعددت لهذا اليوم؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ ثمانين سنة، فلما أن صلى عليها الحسن مالوا إلى قبرها، فأنشأ الفرزدق يقول:

أخافُ وراءَ القبر إن لمْ يعافِني	أشدَّ من القبر التهاباً وأضيقا
إذا جاءني يومَ القيامة قائدٌ	عنيفٌ وسوّاقٌ يسوقُ الفرزدقا
لقد خابَ مِنْ أولادِ دارٍ من مشى	إلى النارِ مغلولَ القلادةِ أزرقا
يساقُ إلى نارِ الجحيمِ مُسَرْبلاً	سرابيلَ قطرانٍ لباساً مخرَّقا
إذا شربُوا فيها الصديدَ رأيتَهُم	يذوبون من حرِّ الصديدِ تمزُّقَا

قال: فبكى الحسن حتى بلّ الثرى، ثم التزم الفرزدق وقال: لقد كنت من أبغض الناس إليَّ، وإنك اليوم من أحب الناس إلي[2] .

وكان الحسن يتعظ بالمقابر ويتدبر في أحوالها، فعن عوانة قال: قال الحسن: قدم علينا بشر بن مروان ـ أخو عبد الملك بن مروان الخليفة ـ أمير المصرين، وأشب الناس، وأقام عندنا أربعين يوماً، ثم طعن في قدميه فمات، وأخرجناه إلى قبره، فلما صرنا إلى الجبان فإذا نحن بأربعة سودان يحملون صاحباً لهم إلى قبره، فوضعنا السرير فصلينا عليه، ووضعوا صاحبهم فصلوا عليه، ثم حملنا بشراً إلى قبره، وحملوا صاحبهم إلى قبره، ودفنا بشراً ودفنوا صاحبهم ثم انصرفوا وانصرفنا، ثم التفت التفاتة فلم أعرف قبر بشر من قبر الحبشي، فلم أر شيئاً قط كان أعجب منه[3].

وقد ذكر العلماء أموراً أخرى تزيل قسوة القلوب؛ كالإحسان إلى اليتامى والمساكين، والنظر في ديار الهالكين والاعتبار بمنازل الغابرين[4] .

([1]) مسلم (672/2)؛ سنن الترمذي (1869).

([2]) الحسن البصري ، د. مصطفى الخن ، ص 345 ، نقلاً عن البداية والنهاية.

([3]) البيان والتبيين (147/3)؛ الحسن البصري ، د. مصطفى الخن ، ص 349.

([4]) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب (264/1 إلى 270).

ب ـ حثه على الإخلاص، وطاعة الله، وإصلاح ذات البين، والتفكر:

ـ الإخلاص:

إن لإخلاص العمل تأثيراً عظيماً في مكارم الأخلاق، فهو يمد قلب صاحبه بقوَّة، تجعله ينهض للمكارم ابتغاء وجه الله، غير منتظر من أحد جزاءً ولا شكوراً، يشرح صدره للحلم والعفو ومعالي الأخلاق امتثالاً لأمر الله، وطلباً لرضاه والفوز بنعيم الآخرة، فهو إن أبغض فبغضه لله وهكذا في شأنه كله[1]، قال تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ *} [الأنعام: 162 .163].

فكان الحسن يقول: من تزيَّن للناس بما لا يعلمه الله منه شانه ذلك[2] . وكان يقول: روي عن بعض الصالحين أنه كان يقول: أفضل الزهد إخفاء الزهد[3] . وقيل: وعظ يوماً، فتنفس رجل الصعداء، فقال: يا بن أخي ! ما عساك أردت بما صنعت؟ إن كنت صادقاً فقد شهرت نفسك، وإن كنت كاذباً فقد أهلكتها، ولقد كان الناس يجتهدون في الخفاء وما يسمع لأحدهم صوت، ولقد كان الرجل ممن كان قبلكم يستكمل القران فلا يشعر به جاره، ولقد كان الاخر يتفقه في الدين ولا يطلع عليه صديقه، ولقد قيل لبعضهم: ما أقل التفاتك في صلاتك وأحسن خشوعك؟ فقال: يا بن أخي وما يدريك أين كان قلبي[4] ؟! وكان يقول: نظر رجاء بن حيوة إلى رجل يتناعس بعد الصبح، فقال: انتبه عافاك الله لا يظن ظان أن ذلك عن سهر وصلاة فيحبط عملك[5] .

وقال الحسن: ولقد حُدثت أن رجلاً مر برجل يقرأ: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَانُ وُدًّا*} [مريم: 96]. فقال: والله لأعبدن الله عبادة أُذكَر بها في الدنيا ، فلزم الصلاة واعتكف على الصيام حتى كان لا يفطر ولا يرى إلا مصلياً وذاكراً، وكلما مر على قوم قالوا: ألا ترون هذا المرائي ما أكثر رياءه، فأقبل على نفسه وقال: ثكلتكِ أمك لا أراك تذكري إلا بِشرٍّ ولا أراك أُصِبتِ إلا بفساد نيتكِ وفساد معتقدكِ، وأنك لم تردي الله بعملك، ثم بقي على عمله لم يزد عليه شيئاً إلا أن نيته انقلبت[6] ، فتغير الحال ووضع الله له القبول ـ ولا يمر بقوم إلا قالوا: يرحم الله هذا، ثم يقولون: الآن الآن.

([1]) الأخلاق بين الطبع والتطبع ، ص 21.

([2]) حياة الحسن البصري ، روضة الحصري ، ص 170.

([3]) المصدر السابق نفسه.

([4]) الزهد ، للحسن البصري ، ص 159.

([5]) المصدر السابق نفسه.

([6]) انقلبت: صارت على الضد مما كانت عليه، أي: حسنت.

وكان الحسن يقول: أخلصوا لله أعمالكم[1] ، وكان يقول: ابن ادم تلبس لُبسة العابدين، وتفعل أفعال الفاسقين، وتخبت إخبات المريدين، وتنظر نظر المغترين، ويحك! ما هذه خصال المخلصين، إنك تقوم يوم القيامة بين يدي من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور[2] ، وكان يقول: روي أن سعيد بن جبير رأى رجلاً متماوتاً في العبادة، فقال: يا بن أخي ! إن الإسلام حيّ فأحيه ولا تمته أماتك الله ولا أحياك، وكان يقول: من ذم نفسه في الملأ فقد مدحها وبئس ما صنع[3] .

. الحث على طاعة الله:

قال تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾} [سورة النساء:59] ، وقال تعالى: {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ *} [الشورى: 10]. وكان الحسن يقول في قول الله وجل: {وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ } [سورة المؤمنون:60] قال: يعطون أعطوا {وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ} قال: يعملون عملوا من أعمال البر وهم يخشون أن لا ينجيهم من عذاب ربهم عز وجل[4]. وعنه أنه قال: إذا نظر إليك الشيطان فراك مداوماً في طاعة الله فبغاك وبغاك ـ أي: طلبك مرة بعد مرة ـ فراك مداوماً وملّك ورفضك، وإذا كنت مرة هكذا ومرة هكذا طمع فيك[5] . وعن الحسن قال: قال هرم بن حيان: ما رأيت مثل النار نام هاربها، ولا مثل الجنة نام طالبها[6] .

ومن القصص التي حدثت للحسن: لما ولي عمر بن هبيرة العراق أرسل إلى الحسن وإلى الشعبي فأمر لهما ببيت، وكانا فيه شهراً ـ أو نحوه ـ ثم إن الخادم غدا ذات يوم فقال: إن الأمير دخل عليكما، فجاء عمر يتوكأ على عصا له، فسلم ثم جلس معظماً لهما، فقال: إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك ينفذ كتاباً أعرف أن في إنفاذِ الهلكة، فإن أطعته عصيت الله، وإن عصيته أطعت الله عز وجل، فهل تريا لي في متابعتي إياه فرجاً؟ فتكلم الشعبي فانحط

---

(1) الزهد ، للحسن البصري ، ص 160.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) المصدر السابق نفسه ، ص 74.

(5) المصدر السابق نفسه، ص 75.

(6) المصدر السابق نفسه.

في حبل ابن هبيرة، فقال: ما تقول أنت يا أبا سعيد ؟ فقال: أيها الأمير، قد قال الشعبي ما قد سمعت، قال: ما تقول أنت يا أبا سعيد؟ فقال: أقول: يا عمر بن هبيرة يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالى فظ غليظ لا يعصي الله ما أمره، فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك، يا عمر بن هبيرة ! إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك، ولا يعصمك يزيد بن عبد الملك من الله عز وجل، يا عمر بن هبيرة ! لا تأمن أن ينظر الله إليك على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبد الملك، نظر تمقت فيغلق بها باب المغفرة دونك، يا عمر بن هبيرة ! لقد أدركت ناساً من صدر هذه الأمة كانوا والله على الدنيا وهي مقبلة أشد إدباراً من إقبالكم عليها وهي مدبرة، يا عمر بن هبيرة ! إني أخوفك مقاماً خوفكه الله تعالى فقال: {ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ }، يا عمر بن هبيرة ! إن تك مع الله تعالى في طاعته كفاك بائقة يزيد بن عبد الملك، وإن تك مع يزيد بن عبد الملك على معاصي الله وكلك الله إليه.

قال: فبكى عمر وقام بعبرته، فلما كان من الغد أرسل إليهما بإذنهما وجوائزهما، وكثر منه ما للحسن، وكان في جائزته للشعبي بعض الإقتار، فخرج الشعبي إلى المسجد، فقال: يا أيها الناس ! من استطاع منكم أن يؤثر الله تعالى على خلقه فليفعل، فوالذي نفسي بيده ما علم الحسن منه شيئاً فجهلته، ولكن أردت وجد ابن هبيرة، فأقصاني الله منه[1] . وقال الحسن: لا تخالفوا الله عن أمره، فإن خلافاً عن أمره عمران دار قد قضى الله عليها بالخراب[2]. وقال الحسن في قوله عز وجل: قال: المتوجه بقلبه وعمله إلى الله {فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا *} وجل[3]. وكان يقول: رحم الله امرأً كان قوياً فأعمل قوته في طاعة الله، أو كان ضعيفاً فكفَّ عن معاصي الله[4].

. الاعتبار والتفكر:

قال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠} [سورة آل عمران:190] . وقال تعالى: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ *} [الذاريات: 21] . فالتأمل والتفكر في الكون والنفس وآيات الله المنظورة داعٍ قوي ، لما في هذه الموجدات من عظمة الله الخالق الدالة على قدرة خالقها وعظمته، وما فيها: من الحسن والانتظام والإحكام الذي يحيِّر الألباب، الدال على سعة علم الله، وشمول حكمته، وما فيها

([1]) الزهد ، الحسن البصري ، ص 76.

([2]) المصدر السابق نفسه.

([3]) المصدر السابق نفسه ، ص 77.

([4]) المصدر السابق نفسه.

من أصناف المنافع والنعم الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى، الدالة على سعة رحمة الله، وجوده وبره، وذلك يدعو إلى تعظيم مبدعها وبارئها وشكره واللهج بذكره، وإخلاص الدين له وهذا هو روح الإيمان وسره[1] ، فعبادة التفكر والاعتبار دعا إليهما الحسن البصري وحث الناس عليها، فقال رحمه الله: إن من أفضل العمل الورع والتفكر[2]، وقال: من عرف ربه أحبه، ومن أبصر الدنيا زهد فيها، والمؤمن لا يلهو حتى يغفل، وإذا فكر حزن[3]. وكان يقول: رحم الله امرأً نظر ففكر، وفكر فاعتبر، واعتبر فأبصر وأبصر فصبر، لقد أبصر أقوام ثم لم يصبروا، فذهب الجزع بقلوبهم، فلم يدركوا ما طلبوا ولا رجعوا إلى ما فارقوا، فخسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين[4]، وقال: تفكر ساعة خير من قيام ليلة[5] وكان يقول: الفكرة مراة تريك حسناتك من سيئتك، فمن اعتمد عليها أفلح، ومن أغفلها افتتضح[6] .

. العلم والعلماء:

وكان يقول: الفهم وعاء العلم، والعلم دليل العمل، والعمل قائد الخير، والهوى مركب المعاصي، والمال داء المتكبرين، والدنيا سوق الآخرة، والويل كل الويل لمن قوي بنعم الله على معاصيه[7] ، وقال: قد كان الرجل يطلب العلم فلا يلبث أن يرى ذلك في تخشعه وهديه، وفي لسانه وبصره وبره[8] .

جـ النهي عن طول الأمل وذم الكبر:

. النهي عن طول الأمل: قال الحسن: إن المؤمن في الدنيا غريب لا يجزم ذلها ولا ينافس أهلها في غرها، الناس

([1]) شجرة الإيمان ، للسعدي ، ص 49؛ الوسطية في القران ، ص 239.

([2]) الزهد ، الحسن البصري ، ص 82.

([3]) المصدر السابق نفسه ، ص 83.

([4]) المصدر السابق نفسه.

([5]) المصدر السابق نفسه.

([6]) المصدر السابق نفسه.

([7]) المصدر السابق نفسه، ص 92.

([8]) المصدر السابق نفسه.

منه في راحة، ونفسه منه في شغل، طوبى لعبدٍ كسب طيباً، وقدم الفضل ليوم فقره وفاقته، ووجهوا هذا الفضل حيث وجهه الله، ولا تلقوها هاهنا فيما يضركم[1] . وكان يقول: ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل[2]، ومن درر كلامه قوله: يا بن ادم إنما أنت أيام، كلما ذهب يوم ذهب بعضك [3] .

. النهي عن الكبر: قال الحسن: يا بن ادم، كيف تتكبر وأنت من سبيل البول مرتين[4] ؟! وقيل: رأى الحسن نعيم بن رضوان يمشي مشية المتكبر، فقال: انظروا إلى هذا ليس فيه عضو إلا ولله تعالى فيه نعمة وللشيطان لعنة[5].

3 . من تلاميذ الحسن البصري الذين اشتهروا بعلم السلوك:

كان الحسن البصري من علماء أهل السنة واهتم رحمه الله بعلم السلوك، وكان له مجلس خاص في منزله لا يكاد يتكلم فيه إلا في معاني الزهد والنسك[6] ، وقد تأثر بمدرسة الحسن البصري مجموعة خيرة، لكوكبة نيرة، ونجوماً ساطعة من علماء أهل السنة، منهم:

أ . أيوب السختياني:

هو الإمام الحافظ سيد العلماء، أبو بكر بن أبي تميمة كيسان[7]، كان ثقة ثبتاً في الحديث، جامعاً عدلاً، ورعاً، كثير العلم[8] ، وكان إذا سئل عن شيء ليس عنده فيه شيء قال: أسأل أهل العلم. وكان كثيراً ما يقول: لا أدري. حتى قال حماد بن زيد: ما رأيت أحداً أكثر من قول: لا أدري من أيوب ويونس، وكان يحب ستر زهده

(1) المصدر السابق نفسه، ص 81.
(2) المصدر السابق نفسه، ص 82.
(3) المصدر السابق نفسه، ص 81.
(4) المصدر السابق نفسه، ص 90.
(5) المصدر السابق نفسه.
(6) سير أعلام النبلاء (579/4).
(7) المصدر السابق نفسه (15/6).
(8) الطبقات (246/7).

ويقول: لأن يستر الرجل زهده خير له من أن يظهره[1]، وحج أيوب أربعين حجة، وكان عبيد الله بن عمر يرتاح قلبه في موسم الحج بلقاء أقوام نور الله قلوبهم بالإيمان، منهم أيوب[2] ، وكان صديقاً ليزيد بن الوليد بن عبد الملك، فلما تولى يزيد الخلافة قال أيوب: اللهم أنسه ذكري[3] ، وكان شديد التبسم في وجوه الناس[4].

* من مواقف وكلمات أيوب:

. تعظيمه لأهل السنة: قال أيوب: إنه ليبلغني موت الرجل من أهل السنة فكأنما يسقط عضو من أعضائي[5].

. موقفه من أهل الأهواء والبدع: قال: ما ازداد صاحب بدعة اجتهاداً إلا ازداد من الله بعداً[6]. وعن أيوب قال: قال أبو قلابة: لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم، فإني لا امن من أن يغمسوكم في ضلالتهم أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون[7] . قال أيوب: وكان والله من الفقهاء ذوي الألباب[8] .

. محبته للقاء إخوانه في الله: قال: إنه يزيدني في حب الموسم وحضوره أن ألقى إخواناً لي فيه لا ألقاهم في غيرِه[9].

. عبادته: كان من العباد المشهورين بحسن العبادة وكثرتها، وكان شديد الحرص على إخفائها عن الناس وتصفيتها وإخلاصها لرب الناس[10] ، وكان من سادات أهل البصرة، وعبّاد أتباع التابعين وفقهائهم ممن اشتهر بالفضل والعلم والنسك[11] ، وكان كثير الحج والعمرة رحمه الله لوصية رسول الله ﷺ بذلك: «تابعوا بين الحج والعمرة» [12]، وحج أيوب أربعين سنة[13] ، وكان يقوم الليل يخفي ذاك، فإذا كان قبل الصبح رفع صوته كأنه قام تلك الساعة[14] .

---

(1) تاريخ التصوف الإسلامي ، د. بدوي ، ص 189.

(2) الحلية (4/3).

(3) المصدر السابق نفسه (6/3).

(4) تاريخ التصوف الإسلامي ، ص 189.

(5) الحلية (9/3).

(6) المصدر السابق نفسه.

(7) الإمام أيوب السختياني ، د. سليمان العربي ، ص 47.

(8) البدع والنهي عنها ، لابن وضاح ، ص 48.

(9) الإمام أيوب السختياني ، ص 48.

(10) المصدر السابق نفسه، ص 50.

(11) مشاهير علماء الأمصار ، ص 150 ، رقم (1183).

(12) مسند أحمد ، رقم (167) الحديث صحيح بشواهد.

(13) حلية الأولياء (5/3).

(14) المعرفة والتاريخ (241/2)؛ الإمام أيوب السختياني ، ص 52.

. الزهد: قال أيوب: الزهد في الدنيا ثلاثة أشياء: أحبها إلى الله، وأعلاها عند الله، وأعظمها عند الله تعالى، الزهد في عبادة من عبد دون الله من كل ملك وصنم وحجر ووثن، ثم الزهد فيما حرم الله تعالى من الأخذ والإعطاء، ثم يقبل علينا فيقول: زهدكم هذا يا معشر القراء فهو أخسه عند الله، الزهد في حلال الله عز وجل[1] .

. شهادة الحسن البصري فيه: قال فيه الحسن: هذا سيد الفتيان[2] ، وقال: أيوب سيد شباب أهل البصرة[3]، وأما شهادة أيوب في شيخه الحسن فقد قال: كان الحسن يتكلم بكلام كأنه الدر، فتكلم قومٌ من بعده بكلام يخرج من أفواههم كأنه القيء[4] . وقال: جالست الحسن أربع سنين فما سألته هيبة له[5] .

. وفاته: بعد عمر قضاه في عبادة الله تعلماً وتعليماً وتربية وخشية لله، وتمسكاً بالسنة وتعظيماً لأهلها وقمعاً لأهل البدع والأهواء وإخلاص العلم والعمل لله، توفي في مرض الطاعون بالبصرة عام 131 هـ[6] ، وروى أبو نعيم بسنده إلى حماد بن زيد قال: غدا علي ميمون أبو حمزة يوم الجمعة قبل الصلاة، فقال: إني رأيت البارحة أبا بكر وعمر في النوم فقلت لهما: ما جاء بكما؟ قالا: جئنا نصلي على أيوب السختياني. قال: ولم يكن علم بموته، فقلت له: قد مات أيوب البارحة[7] .

ب . مالك بن دينار:

علم العلماء الأبرار، معدود من ثقات التابعين، ومن أعيان كتبة المصاحف، كان من ذلك بلغته[8].

* من مواقفه وأقواله:

. عدم تأثره بالمدح والذم: قال: مذ عرفت الناس لم أفرح بمدحهم ولم أكره ذمهم؛ لأن حامدهم مفرط، وذامهم مفرط، إذا تعلم العالم العلم للعمل كسره، وإذا تعلمه لغير العمل زاده فخراً[9] .

---

(1) حلية الأولياء (7/3).
(2) طبقات ابن سعد (247/7)؛ الإمام أيوب ، ص 75.
(3) حلية الأولياء (3/3)؛ الإمام أيوب ، ص 75.
(4) سير أعلام النبلاء (577/4).
(5) حلية الأولياء (11/3)؛ الإمام أيوب ، ص 75.
(6) الوافي بالوفيات (54/10 ، 55)؛ الإمام أيوب ، ص 96.
(7) سير أعلام النبلاء (23/6).
(8) المصدر السابق نفسه (362/5).
(9) المصدر السابق نفسه.

. حزن القلب: قال: إذا لم يكن في القلب حزن خرب. وقال: من تباعد من زهرة الدنيا، فذاك الغالب هواه[1].

. جاء يسرق فسرقناه: قيل: دخل عليه لص، فما وجد ما يأخذ، فناداه مالك: لم تجد شيئاً من الدنيا؛ فترغب في شيء من الآخرة؟ قال: نعم. قال: توضأ، وصل ركعتين، ففعل ثم جلس وخرج إلى المسجد، فسأل: من ذا؟ قال: جاء ليسرق فسرقناه[2] .

. أطيب شيء من الدنيا معرفة الله: قال: خرج أهل الدنيا من الدنيا ولم يذوقوا أطيب شيء فيها، قيل: وما هو؟ قال: معرفة الله.

. محبة أنس بن مالك له: قال مالك بن دينار: أتينا أنساً أنا وثابت ويزيد الرقاشي، فنظر إلينا فقال: ما أشبهكم بأصحاب محمد ﷺ، لأنتم أحب إلي من عدة ولدي إلا أن يكون في الفضل مثلكم، إني لأدعو لكم في الأسحار[3].

. مصدر كسبه: كان ينسخ المصحف في أربعة أشهر، فيدع أجرته عند البقال فيأكله، وكان أدم مالك بن دينار في كل سنة بفلسين ملح[4] .

. وفاته: توفي سنة 127 هـ، وقيل: 130 هـ[5]. فمالك بن دينار من علماء أهل السنة، ولا ينظر لمن ألصق به آثاراً واهية نسبها إليه وزعم أنه خلط الروحية الإسلامية بعناصر غير إسلامية وكتابية على وجه التخصيص[6] .

بل الثابت من سيرته بأنه من أعلام السلوك ومن تلاميذ الحسن البصري، وأنس بن مالك والأحنف بن قيس وسعيد بن جبير، ومحمد بن سيرين، والقاسم بن محمد[7] وغيرهم من علماء أهل السنة.

([1]) المصدر السابق نفسه (363/5).

([2]) المصدر السابق نفسه.

([3]) المصدر السابق نفسه (364/5).

([4]) المصدر السابق نفسه.

([5]) المصدر السابق نفسه.

([6]) تاريخ التصوف الإسلامي ، ص 207.

([7]) سير أعلام النبلاء (362/5).

جـ. محمد بن واسع:

الإمام الرباني، القدوة[1]، ترجمت له في حديثي عن الفتوحات في عهد عبد الملك، وكان من ضمن جيش قتيبة بن مسلم وقد قام مدة في خراسان[2] . قال عنه مالك بن دينار: القراء ثلاثة: فقارأى للرحمن، وقارئ للدنيا، وقارئ للملوك، ويا هؤلاء ! محمد بن واسع عندي من قراء الرحمن[3] ، وكان الحسن البصري يسميه زين القراء[4]، ومن أقواله: إذا أقبل العبد بقلبه على الله أقبل الله بقلوب العباد عليه. وقال: يكفي من الدعاء مع الورع يسير[5] العمل.

هؤلاء هم أشهر تلاميذ الحسن البصري في علم السلوك، والذين كان لهم تأثير كبير في حياة الناس، واليوم نحن في أشد الحاجة لإحياء هذا العلم الذي أصبح نادراً وتصدَّر له بَعْدُ المحسوبون على العلم من أصحاب العقائد الفاسدة والتصورات السقيمة والأفكار المنحرفة، فالأمة في حاجة ماسة لمنهج تربوي سني تستلهم أصوله وفروعه من كتاب الله وسنة رسوله وهدي الصحابة الكرام ومن سار على نهجهم من العلماء الراسخين ؛ لكي تقف أمام الهجمة المادية، والطغيان الشهواني، الذي يبث في وسائل الإعلام العالمية والإقليمية والقُطرية، كما أن من عوامل نهوض الأمة كبح شهواتها، وتطهير نفوسها من أمراضها وإحياء القلوب بالمعاني الرفيعة والأعمال القلبية، كالرجاء والخوف والإخلاص والإنابة لله رب العالمين.

4 . براءة الحسن البصري من الاعتزال:

يزعم المعتزلة أن الحسن البصري قال بالقدر على مذهبهم وأنه منهم، فيروون عن داود بن أبي هند أنه قال: سمعت الحسن يقول: كل شيء بقضاء وقدر إلا المعاصي[6]. ويوردون رسائل أرسلها إلى عبد الملك بن مروان وفيها قوله بالقدر على مذهب المعتزلة، ويقولون: إن رسائله مشهورة[7]. وقد تحمس الشيخ محمد أبو زهرة ليثبت أن الحسن البصري كان يقول بالقدر على مذهب المعتزلة[8]، والرد على هذه الدعاوى الخالية من الحجج والبراهين والأدلة

---

(1) المصدر السابق نفسه (119/6).

(2) تاريخ التصوف الإسلامي ، ص 217؛ الحلية (353/2).

(3) الحلية (345/2)؛ تاريخ التصوف الإسلامي ، ص 214.

(4) تاريخ التصوف الإسلامي ، ص 214.

(5) سير أعلام النبلاء (121/6).

(6) المنية والأمل ، لابن المرتضى ، ص 12؛ القضاء والقدر ، د. المحمود ، ص 185.

(7) القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس ، ص 186.

(8) تاريخ الجدل ، ص 321 . 322.

كالتالي:

أ ـ أن المعتزلة أنفسهم لا يقطعون بنسبة الحسن إليهم، ولذا نرى ابن المرتضى لما ذكر الحسن وقوله في القدر قال: (فإن قلت: فقد روى أيوب: أتيت الحسن، فكلمته في القدر فكف عن ذلك، قلت: فقد روى أنه خوفه بالسلطان فكف عن الخوض فيه[1]. وهل يخاف الحسن السلطان وهو الرجل الذي يجهر بالحق دائماً؟!.

ب ـ أما بالنسبة للرسالة المنسوبة إليه فيقول عنها الشهرستاني: ورأيت رسالة نسبت إلى الحسن البصري كتبها إلى عبد الملك بن مروان، وقد سأله بالقول بالقدر والجبر فأجابه فيها بما يوافق مذهب القدرية، واستدل فيها بايات من القران الكريم ودلائل من العقل، ولعلها لواصل بن عطاء، فما كان الحسن ممن يخالف السلف في أن القدر خيره وشره من الله ـ تعالى ـ فإن هذه الكلمات المجمع عليها عندهم[2] . وهذه الرسالة لم تصح نسبتها إلى الحسن، والمعتزلة ينسبون إلى الحسن أقوالاً بروايات منقطعة، فالمرتضى حين ذكر أهل العدل والتوحيد عد منهم الحسن البصري وترجم له ترجمة طويلة، ولما أراد أن يثبت أنه من أهل العدل قال: فمن تصريحه بالعدل، ما رواه علي بن الجعد قال: سمعت الحسن يقول: من زعم أن المعاصي من الله عز وجل جاء يوم القيامة مسوداً وجهه وقرأ: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ*}[الزمر: 60].

وعلي بن الجعد الذي يقول: سمعت الحسن ؛ لم يسمع منه ولم يلقه[3] ، فهذه رواية منقطعة[4] .

جـ وابن قتيبة يذكر عن الحسن البصري أنه تكلم في شيء من القدر، ثم رجع عنه، ولكنه يذكر بعد ذلك مباشرة أن عطاء بن يسار ومعبداً الجهني كانا يأتيان الحسن، فيسألانه ويقولان: يا أبا سعيد إن الملوك يسفكون دماء المسلمين، ويأخذون الأموال، ويفعلون ويفعلون، ويقولون: إنما تجري أعمالنا على قدر الله ! فقال: كذب أعداء الله[5]، قال ابن قتيبة: فتعلق عليه بمثل هذا وأشباهه[6] .

---

(1) المنية والأمل ، ص 15.

(2) القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ، ص 186.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 187.

(4) المصدر السابق نفسه.

(5) المصدر السابق نفسه.

(6) المصدر السابق نفسه.

ويشبه هذا ما يروى عن الحسن: أنه قال ـ وهو محق في قوله ـ: إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ إلى العرب وهم قدرية مجبرة يحملون ذنوبهم على الله، ويقولون: إن الله سبحانه قد شاء ما نحن فيه وحملنا عليه وأمرنا به، فقال عز وجل: {وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ *} [الأعراف : 28][1] . فهل كلام الحسن ـ رحمه الله ـ في الروايتين دل على أنه قدري؟

إن الجواب على ذلك واضح بداهة لأنه يرد على الذين يحتجون بالقدر على كفرهم ومعاصيهم، ولا شك أن هذا الاحتجاج باطل، وكلام الحسن حق [2] . وقد أشار ابن تيمية إلى أنه قال: قد اتهم بمذهب القدر غير واحد، ولم يكونوا قدرية، بل كانوا لا يقبلون الاحتجاج على المعاصي بالقدر، كما قيل للإمام أحمد: كان ابن أبي ذؤيب قدرياً، فقال: الناس كل من شدد عليهم بالمعاصي قالوا: هذا قدري. وقد قيل: لهذا السبب نسب إلى الحسن القدر[3].

د ـ وهناك روايات تنفي هذا الزعم، فعن عمر مولى غفرة قال: كان أهل القدر ينتحلون الحسن بن أبي الحسن، وكان قوله مخالفاً لهم ؛ كان يقول: يا بن ادم، لا ترضِ أحداً بسخط الله، ولا تطيعنّ أحداً في معصية الله، ولا تحمدن أحداً على فضل الله، ولا تلومن أحداً فيما لم يؤتك الله، إن الله خلق الخلق والخلائق، فمضوا على ما خلقهم عليه، فمن كان يظن أنه مزداد بحرصه في رزقه فليزدد بحرصه في عمره، أو يغير لونه، أو يزيد في أركانه أو بنانه[4] .

هـ ومعلوم أن المعتزلة أجمعوا على أصولهم الخمسة، والحسن البصري يعتبر القول بالمنزلة بين المنزلتين بدعة تخرج صاحبها عن عقيدة الجماعة، ولذلك اعتزل واصل بن عطاء حلقة الحسن لما خالفه في هذا الأصل، فكيف مع هذا يعتبر الحسن من علمائهم المنتسبين إليهم[5] ؟!.

و ـ وقد اشتهر عن بعض المعتزلة القدرية أنهم يكذبون على الحسن البصري، فقد ذكر عبد الله بن أحمد في كتاب السنة عدة روايات تدل على ذلك، فمن ذلك ما رواه عن حميد

---

(1) القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس ، ص 188.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) منهاج السنة (362/1)؛ القضاء والقدر ، ص 188.

(4) الطبقات الكبرى ، لابن سعد (175/7).

(5) موقف المعتزلة من السنة النبوية ، ص 27.

قال: قدم الحسن مكة فقال فقهاء مكة الحسن بن مسلم وعبد الله بن عبيد: لو كلمت الحسن فأخلانا يوماً. فكلمت الحسن فقلت: يا أبا سعيد إخوانك يحبون أن تجلس لهم يوماً، قال: نعم ونعمة عين، فواعدهم يوماً فجاؤوا فاجتمعوا، وتكلم الحسن وما رأيته قبل ذلك اليوم ولا بعده أبلغ منه ذلك اليوم، فسألوه عن صحيفة طويلة، فلم يخطئ فيها شيئاً إلا في مسألة، فقال له رجل: يا أبا سعيد من خلق الشيطان؟ قال: سبحان الله، سبحان الله، وهل من خالق غير الله، ثم قال: إن الله خلق الشيطان وخلق الشر والخير، فقال رجل منهم: قاتلهم الله يكذبون على الشيخ[1].

وقال حميد لمن نقل عن عمرو بن عبيد حديثاً رواه الحسن: لا تأخذ عن هذا ؛ فإنه يكذب على الحسن[2] .

وروى عبد الله بن أحمد عن حماد بن زيد قال: قيل لأيوب: إن عمراً (أي عمرو بن عبيد) روى عن الحسن أنه قال: لا يجلد السكران من النبيذ، قال: كذب، أنا سمعت الحسن يقول: يجلد السكران من النبيذ[3] .

فهذه الروايات وغيرها، تدل على أن دعوى أن الحسن البصري ـ رحمه الله ـ كان قدرياً أو كان يقول بقولهم ليست صحيحة[4]. وإنما غرض المعتزلة هو التشرف بانتسابه إليهم، وإلا فكيف عدّوه منهم[5] ؟! والمعتزلة ذكروا مع الحسن غيره، بل وعدّوا من الطبقة الأولى من طبقاتهم الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة[6] . وواضح أن إدراج هؤلاء ضمن المعتزلة إنما قصد به بيان أن المعتزلة هي أتقى الفرق وأبرها[7] . ومعلوم لدى طلاب العلم وعموم المسلمين أن الخلفاء الراشدين والصحابة الكرام براء من تهمة الاعتزال، وإنما هم سادة علماء أهل السنة والجماعة الذين ساروا على منهاج النبوة..

5 ـ الإمام العادل في نظر الحسن البصري:

عندما جاء عمر بن عبد العزيز للخلافة نجد الحسن البصري قريباً من الخليفة الجديد يتعهده بالوعظ والإرشاد، ويرسم له منهاجاً للإمام العادل، وهذا دور إيجابي من الحسن ـ رحمه الله ـ يبين العمل المطلوب من العالم الرباني

---

(1) السنة ، لعبد الله بن الإمام أحمد (126/2).

(2) المصدر السابق نفسه (131/2).

(3) المصدر السابق نفسه (132/2).

(4) القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ، ص 189.

(5) المصدر السابق نفسه.

(6) المصدر السابق نفسه.

(7) مذاهب الإسلاميين ، عبد الرحمن بدوي (40/1).

الذي يسعى لمساعدة المصلحين من أصحاب القرار لنصرة الإسلام، وهذا يدلنا على تكامل شخصية الحسن الإسلامية فقد شارك في الجهاد والتعليم والتربية، وكان رائد مدرسة الإصلاح الاجتماعي بين الناس في حياتهم، واهتم بأمراض القلوب، وعلاجها، وكانت له مواقفه السياسية من الثورات، ومن الحكام الظالمين، وهنا تتجلى شخصيته السياسية أكثر في قربه من عمر بن عبد العزيز وشد أزره والوقوف بجانبه والتنظير لمعالم الإصلاح والتجديد الراشدي الذي قاده عمر بن عبد العزيز، فقد جاء في رسالته التي كتبها إلى عمر بن عبد العزيز: اعلم يا أمير المؤمنين: أن الله جعل الإمام العادل قوّام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل مفسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة[1] كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله، الرفيق الذي يرتاد لها أطيب المرعى ويزودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويكنفها من أذى الحر والقر[2].

والإمام العادل، يا أمير المؤمنين، كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغيراً، ويعلمهم كباراً، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته. والإمام العادل، يا أمير المؤمنين، كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها: حملته كرهاً ووضعته كرهاً، وربته طفلاً تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة، وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته. والإمام العادل، يا أمير المؤمنين وصي اليتامى، وخازن المساكين: يربي صغيرهم، ويمون كبيرهم، والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح: تصلح الجوانح بصلاحه وتفسد بفساده، والإمام العادل، يا أمير المؤمنين، هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين، فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله، فبدل المال وشرد العيال، فأفقر أهله، وفرق ماله.

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاها من يليها؟! وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم؟!

واذكر، يا أمير المؤمنين، الموت وما بعده وقلة أشياعك عنده، وأنصارك عليه: فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر، واعلم يا أمير المؤمنين، أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه، يطول فيه ثواؤك، ويفارقك أحباؤك، ويُسلمونك في قعره فريداً وحيداً، فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، واذكر، يا أمير

([1]) النصفة: اسم من الإنصاف.

([2]) القر: البرد.

المؤمنين، إذا بعثر ما في القبور، وحُصل ما في الصدور، فالأسرار ظاهرة، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فالان، يا أمير المؤمنين، وأنت في مهل قبل حلول الأجل، وانقطاع الأمل.

لا تحكم، يا أمير المؤمنين، في عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين، فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلاً[1] ، ولا ذمة، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالك، وأثقالاً مع أثقالك، ولا يغُرنَّك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيّباتك في اخرتك.

لا تنظر إلى قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور في حبائل الموت، وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين وقد عنت الوجوه للحي القيوم.

إني يا أمير، وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولو النهى من قبلي، فلم الك[2] شفقة ونصحاً، فأنزل كتابي إليك كمداوٍ حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له من ذلك من العافية والصحة، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته[3] .

والمعاني الرئيسة في هذه الرسالة:

أ ـ أن أهم صفة في الإمام هي العدل، ولكنه عدل ممزوج بالرحمة الأبوية.

ب ـ وأن أولى الناس باتباع حدود الله هو الإمام، لأنه إن لم يتبعها، فأجدر بالرعية ألا يتبعوها.

جـ وأن الإمام هو المنفذ للقصاص، فلا يحق له أن يقتل أحداً بغير حق. إن في القصاص حياة، فكيف يقضي على الحياة من وُكل إليه أمر توفير الحياة؟.

د ـ أن صلاح الرعية بصلاح الإمام وفسادها بفساده، فمسؤوليته عن أفعاله هي في الوقت نفسه مسؤوليته عن أفعال كل رعيته، فما أعظم مسؤوليته إذن!.

([1]) الإل: العهد.

([2]) أي: لم أقصر.

([3]) الحسن البصري ، لابن الجوزي ، ص 56؛ العقد الفريد ، لابن عبد ربه (12/1)؛ تاريخ التصوف الإسلامي ، ص 179.

هـ وتظهر هذه المسؤولية خصوصاً في تعيين الولاة، فما يرتكبه ولاة الإمام وعُمّاله الإمام هو أول مسؤول عنها، ولهذا يجب على الإمام ألا يسلط المستكبرين على المستضعفين، لأن المستكبرين لا يرعون الحرمات ولا يراقبون الله في أعمالهم وأحكامهم، فإذا عيّن الإمام واحداً من هؤلاء، فقد تحمل مع أوزاره الخاصة أوزارهم[1] .

6 . الحسن البصري يصف الدنيا لعمر بن عبد العزيز:

كتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز واصفاً له الدنيا:

أما بعد: يا أمير المؤمنين ! فإن الدنيا دار ظعن وانتقال، وليست بدار إقامة على حال، وإنما أنزل إليها ادم عقوبة فاحذرها، فإن الراغب فيها تارك، والغني فيها فقير، والسعيد من أهلها من لم يتعرض لها، إنها إذا اختبرها اللبيب الحاذق وجدها تذل من أعزها، وتفرق من جمعها، فهي كالسم يأكله من لا يعرفه ويرغب فيه من يجهله، وفيه والله حتفه، فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوي جراحه يحتمي قليلاً، مخافة ما يكره طويلاً، الصبر على لأوائها أيسر من احتمال بلائها، واللبيب من حذرها، ولم يغتر بزينتها، فإنها غدارة ختالة خداعة، قد تعرضت باما لها وتزينت لخطَّابها، فهي كالعروس العيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، وهي والذي بعث محمداً بالحق لأزواجها قاتلة، فاتق يا أمير المؤمنين صرعتها، واحذر عثرتها، فالرخاء فيها موصول بالشدة والبلاء، والبقاء مؤد إلى الهلكة والفناء، واعلم يا أمير المؤمنين أن أمانيها كاذبة، واما لها باطلة، وصفوها كدر، وعيشها نكد، وتاركها موفق، والمتمسك بها هالك غرق، والفطن اللبيب من خاف ما خوفه الله، وحذر ما حذره، وفرَّ من دار الفناء إلى دار البقاء، فعند الموت يأتيه اليقين، الدنيا يا أمير المؤمنين دار عقوبة، لها يجمع من لا عقل له، وبها يغتر من لا علم عنده، والحازم اللبيب من كان فيها كالمداوي جراحه، يصبر على مرارة الدواء، لما يرجو من العافية، ويخاف من سوء عاقبة الدار، والدنيا ـ وايم الله، يا أمير المؤمنين ـ حلم، والآخرة يقظة، والمتوسط بينهما الموت، والعباد في أضغاث أحلام، وإني قائل لك يا أمير المؤمنين ما قال الحكيم:

فـإنْ تـنـجُ مـن ذي عـظـيـمـةٍ ... وإلا فـإنّي لا إخـالـكَ ناجـيـا

ولما وصل كتابه إلى عمر بن عبد العزيز بكى وانتحب حتى رحمه من كان عنده، وقال: يرحم الله الحسن؛ فإنه لا يزال يوقظنا من الرقدة، وينبهنا من الغفلة، ولله دره من مشفق ما أنصحه، وواعظ ما أصدقه وأفصحه.

[1] تاريخ التصوف الإسلامي ، ص 180.

وكتب إليه عمر بن عبد العزيز: وصلت مواعظك النافعة فاستشفيت بها، ولقد وصفت الدنيا بصفتها، والعاقل من كان فيها على وجل، فكأن كل من كتب عليه الموت من أهلها قد مات، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته. فلما وصل كتابه إلى الحسن قال: لله درّ أمير المؤمنين من قائلٍ حق وقابلٍ وعظ، لقد أعظم الله جل ثناؤه بولايته المنة، ورحم بسلطانه الأمة، وجعله بركة ورحمة[1]. وكتب إليه: أما بعد: فإن الهول الأعظم، والأمر المطلوب أمامك، ولابد من مشاهدتك ذلك، إما بنجاة أو بعطب[2] .

7. موقفه من الثورات التي حدثت في عهده:

كان يرى أن تغيير الفساد لا يكون بالسيف، وإنما يكون بالتوبة والرجوع إلى الله والنصح لأصحاب الأمور وقد قال: وما أعجب أمر من يحاول أن يغير بالسيف، فإن التغيير لا يكون إلا بالتوبة[3] ، وقد قال رسول الله ﷺ في وجوب الصبر على ما تكرهه منهم: «من رأى من أمير شيئاً يكرهه فليصبر، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية»[4].

ويرى بعد فقهه لهذا الحديث وأمثاله أن تسلط الحكام عقوبة من الله تعالى تحتاج لصبر، ويقول: لو أن الناس إذا ابتلوا من قِبل سلطانهم صبروا ما لبثوا أن يُفرج عنهم، ولكنهم يجزعون إلى السيف فيوكلون إليه، فوالله ما جاؤوا بيوم خير قطّ[5].

وكان موقفه من ثورة ابن الأشعث كما مر معنا، وكان يرى أن ولاة الأمور طالما أنهم يقيمون الجمعة والجماعة والفيء، والثغور[6]والحدود، فلا يجوز الخروج عليهم[7].

وقد علق المودودي على منهج الحسن البصري في التعامل مع الثورات بأنه كان يشك بجدواها[8] .

([1]) الزهد ، للحسن البصري ، ص 169.

([2]) المصدر السابق نفسه.

([3]) الطبقات الكبرى (125/7 ، 131).

([4]) البخاري ، رقم (6724) ، مسلم ، رقم (1849).

([5]) شذرات الذهب (137/1)؛ حياة الحسن البصري ، د. روضة ، ص 191.

([6]) حياة الحسن البصري ، روضة الحصري ، ص 194.

([7]) المصدر السابق نفسه.

([8]) الخلافة والملك ، للمودودي ، ص 149.

وكان موقفه من ثورة يزيد بن المهلب: أنه ينظر إليها بقلق شديد، خصوصاً وأن الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز كان قد حبس يزيد بن المهلب لفساده، ولأنه إن تولى أموال المسلمين[1] فسينفقها في ملذاته، ويرى الحسن أن غضبة ابن المهلب غضبة لنفسه ومطامعه، فيذهب الحسن إلى حيث اجتمع الناس في الجامع يتوكأ على عاتق معاذ بن سعد، وهو يقول له: انظر هل ترى رجلاً نعرفه؟ وسر الحسن عندما لم ير في المجموع رجلاً من أصحابه[2] .

وتزداد جرأة الحسن وصدعه بالحق، ويتقدم من المنبر ويزيد يخطب. وقال بصوت مرتفع يخاطب ابن المهلب: والله لقد رأيناك والياً وموليً عليك، فما ينبغي لك ذلك. ويقف موقفاً أشد جرأة من سابقه؛ فقد خرج على الناس وقد نصبوا الرايات، واصطفوا صفين، وهم ينتظرون خروج يزيد بن المهلب، ويقولون: يدعونا لسنة العمرين، فقال الحسن: إنما كان يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين ترون، ثم يسرح بهم إلى بني مروان يريد بهلاك هؤلاء رضاهم، فلما غضب غضبة نصب قصباً، ثم وضع عليها خرقاً ثم قال: إني قد خالفتهم فخالفوهم، وقال: أدعوكم إلى سنة العمرين، وإن من سنة العمرين أن يوضع قيد في رجله ثم يرد إلى السجن ويوضع في جبة[3] .

وتزداد مواعظ الحسن وكراهيته للثورة، فيخطب الناس ويقول: أيها الناس، الزموا رحالكم وكفوا أيديكم، واتقوا الله مولاكم، ولا يقتل بعضكم بعضاً على دنيا زائلة وطمع فيها يسير، ليس لأهلها بباقٍ، وليس عنهم فيما اكتسبوا براضٍ، إنه لم يكن إلا كان أكثر أهلها الخطباء، والسفراء والسفهاء، وأهل التيه والخيلاء، وليس يسلم منها إلا المجهول الخفي، والمعروف التقي[4] .

وعلى أثر هذه الخطبة، يهدد مروان بن المهلب خليفة يزيد في الثورة، فيقول: لقد بلغني أن هذا الشيخ الضال المرائي يثبط الناس، والله لو أن جاره نزع من خص داره قصبة لظل يرعف أنفه، والله ليكُفنّ عن ذكرنا وعن وجهه علينا سقاط الأبلة[5] ، وعلوج فرات البصرة، أو لأنحين عليه مبرداً خشناً[6]. ووقف الناس مع الحسن وقالوا له: لو أرادوك ثم شئت لمنعناك، فأجابهم بقوله: فقد خالفتكم إذاً إلى ما نهيتكم عنه، امركم ألا يقتل بعضكم بعضاً مع غيري، وأدعوكم إلى أن لا يقتل بعضكم بعضاً دوني[7] ؟!

([1]) حياة الحسن البصري ، للحصري ، ص 196.

([2]) تاريخ الطبري (491/7).

([3]) وفيات الأعيان (280/3)؛ حياة الحسن البصري ، ص 197.

([4]) تاريخ الطبري (498/7).

([5]) أبلته: بضمتين مشددة: أصحابه وقبيلته.

([6]) تاريخ الطبري (498/7).

([7]) المصدر السابق نفسه (499/7).

هذا هو موقف الحسن من كل فتنة يسعى لجمع شمل المؤمنين وينهى عن كل فرقة بينهم[1] ، وعن سلم بن أبي الذّيّال قال: سأل رجل الحسن وهو يسمع وأناس من أهل الشام، فقال: يا أبا سعيد ما تقول في الفتن مثل يزيد بن المهلب وابن الأشعث؟ فقال: لا تكن مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، فقال رجل من أهل الشام: ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد ؟ قال: نعم ولا مع أمير المؤمنين[2] .

وقد سلك الحسن منهج السلم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يؤيد الثورة المسلحة لأسباب:

أ ـ أن الدعوة إلى الخروج عليهم يتبعها فوضى في الأمور، واضطراب الأمن وفساد الأحوال، وفوضى ساعة يرتكب فيها المظالم ما لا يرتكب في استبداد السنين.

ب ـ رأى أن كثرة الخروج على الولاة يضعف الدولة الإسلامية، ويجعل بأس المسلمين بينهم شديداً، فيكلب فيهم عدوهم، ويخرب عليهم حقوقهم.

جـ ولأنه رأى أن الدماء تراق في الخروج بدون حق يقام، ومظلمة تدفع، والناس يخرجون من يد ظالم إلى أظلم.

د ـ وجد أن الطريق المعبّد لإصلاح هذا الأمر: إصلاح فساد المحكومين إذا تعذر عليه إصلاح فساد الحاكم، رأى أن الفساد عمّ الاثنين وتغلغل في الفريقين، فاعتقد أن الحكام

لون من ألوان الشعب، ومظهر لحاله، فلن يتغيروا ما لم يتغير الشعب، والملازمة ثابتة بينهما[3] .

8 ـ كيف يضل قوم هذا فيهم؟!:

قال خالد بن صفوان: لقيت مسلمة بن عبد الملك، فقال: يا خالد، أخبرني عن حسن أهل البصرة؟ قلت: أصلحك الله، أُخبرك عنه بعلم، أنا جاره إلى جانبه وجليسه في مجلسه وأعلم من قبلي به: أشبه الناس سريرة بعلانية، وأشبهه قولاً بفعل، إن قعد على أمر قام به، وإن قام على أمر قعد عليه، وإن أمر بأمر كان أعمل الناس به، وإن نهى عن شيء كان أشرك الناس له، رأيته مستغنياً عن الناس، ورأيت الناس محتاجين إليه، قال: حسبك، كيف يضل قوم هذا فيهم[4] ؟!.

([1]) حياة الحسن البصري ، للحصري ، ص 198.

([2]) الطبقات الكبرى (121/7)؛ حياة الحسن ، ص 198.

([3]) تاريخ الجدل ، ص 324.

([4]) سير أعلام النبلاء (576/4).

ومن أقوال الحسن البصري: ما رواه هشام بن حسّان: سمعت الحسن يحلف بالله، ما أعز أحد الدرهم إلا أذلهُ الله[1] ، وقال: بئس الرفيقان، الدينار والدرهم، لا ينفعانك حتى يُفارقاك[2] .

9 . وفاة الحسن البصري:

مرض الحسن البصري مرض الموت وابنه إلى جانبه يمرضه ويعنى به وهو على سريره يسترجع ويكثر من الاسترجاع، فيقول له ابنه: أمثلك يسترجع على الدنيا؟ فيجيبه بقوله: يا بني ! لا أسترجع إلا على نفسي التي لم أصب بمثلها[3] وعن أبان بن مجبر عن الحسن أنه لما حضره الموت دخل عليه رجال من أصحابه فقالوا له: يا أبا سعيد ! زودنا منك كلمات تنفعنا بهن. قال: إني مزودكم ثلاث كلمات: ثم قوموا عني ودعوني ولما توجهت له، ما نهيتهم عنه من أمر، فكونوا من أترك الناس له، وما أمرتم به من معروف فكونوا من أعمل الناس به، واعلموا أن خطاكم خطوتان: خطوة لكم وخطوة عليكم، فانظروا أين تغدون وأين تروحون[4]. وقبل أن يسلم الحسن روحه أغمي عليه ثم أفاق إفاقة فقال: لقد نبهتموني من جنان وعيون ومقام كريم [5].

وفي ليلة الجمعة وفي مستهل رجب سنة عشر ومئة[6] ، أسلم الروح إلى بارأبها، وعاش نحواً من ثمانٍ وثمانين سنة. كما قال ابنه عبد الله[7]، وقبيل وفاته قال رجل لابن سيرين: رأيت كأن طائراً أخذ أحسن حصاة في المسجد، فقال: إن صدقت رؤياك مات الحسن، فلم يكن إلا قليلاً حتى مات الحسن[8] . وقام بتغسيله تلميذاه: أيوب السختياني، وحميد الطويل، وصلى عليه عقيب الجمعة النضر بن عمر المقري[9] .

قال حميد الطويل: توفي الحسن عشية الخميس وأصبحنا يوم الجمعة ففرغنا من أمره وحملناه بعد صلاة الجمعة ودفناه، فتبع الناس كلهم جنازته، واشتغلوا به، فلم تقم صلاة العصر بالجامع، ولا أعلم أنها تركت منذ كان الإسلام

([1]) المصدر السابق نفسه.
([2]) المصدر السابق نفسه.
([3]) سير أعلام النبلاء (587/4).
([4]) حلية الأولياء (154/2).
([5]) سير أعلام النبلاء (587/4).
([6]) تذكرة الحفاظ ، ص 72؛ حياة الحسن البصري ، ص 202.
([7]) سير أعلام النبلاء (587/4).
([8]) وفيات الأعيان (72/2)؛ الطبقات الكبرى (129/7).
([9]) تاريخ الذهبي؛ نقلاً عن حياة الحسن البصري ، د. روضة ، ص 202.

إلا يومئذ، لأنهم تبعوا كلهم الجنازة، حتى لم يبق بالمسجد من يصل العصر[1] .

رحم الله الحسن البصري النموذج الرفيع لورثة الأنبياء والعلماء الربانيين، فقد كان من الرجال العظماء، قلما تجد له مثيلاً زهداً، وورعاً، وعلماً، وحكماً، وشجاعة، وأدباً[2] ، وكان من العلماء الذين نشطوا في دولة الفقهاء التي قادها عمر بن عبد العزيز، ولم يبخل بوقت ولا نصيحة ولا موعظة ولا توجيه ولا إرشاد.

سابعاً: عمر والفتوح ورفع الحصار عن القسطنطينية:

عندما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كان من أول أعماله إيقاف التوسع في المناطق النائية في أطراف الدولة، ومحاولة سحب القوات الإسلامية من مناطق القتال، وأول أعماله في هذا المضمار كان في القوات التي عُني الخليفة سليمان بحشدها وإنفاذها بقيادة أخيه مسلمة لفتح القسطنطينية، وظلت تحاصرها مدة سنتين لاقت فيها مصاعب كثيرة دون أن تفلح في تحقيق هدفها، فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة: كتب بقفل مسلمة بن عبد الملك من القسطنطينية، وقد كان سليمان أغزاه إياها برّاً وبحراً. فاشتد عليهم المقام وجاعوا حتى أكلوا الدواب من الجهد والجوع، حتى يتنحى الرجل عن دابته فتقطع بالسوق.. ولجّ سليمان في أمرهم، فكان ذلك يغم عمر، فلما ولي، رأى أنه لا يسعه فيما بينه وبين الله عز وجل شيء من أمور المسلمين ثم يؤخر فعله ساعة، فذلك الذي حمله على تعجيل الكتاب[3] .

وقد وجه عمر بن عبد العزيز إلى مسلمة وهو بأرض الروم يأمره بالقفول منها بمن معه من المسلمين، فوجه إليهم خيلاً عتاقاً وطعاماً كثيراً وحث الناس على معونتهم، فكان الذي وجه إليه الخيل العتاق فيما قيل: خمسمئة رأس[4].

ويروي خليفة: أنه في سنة 99 هـ حمل عمر بن عبد العزيز الطعام والدواب إلى مسلمة بن عبد الملك إلى بلاد الروم، وأمر من كان له هناك حميم أن يبعث إليه، وبعث معه بعثاً فأغاث الناس، وأذن لهم بالقفول[5] .

وفي الأندلس ولّى عمر بن عبد العزيز السمح بن مالك الخولاني، وعهد إليه: بإخلاء الأندلس من جند الإسلام إشفاقاً عليهم، إذ خشي تغلب العدو عليهم.. لانقطاعهم من وراء البحر من المسلمين[6] . غير أن السمح لم ير

---

[1] سير أعلام النبلاء (587/4).

[2] حياة الحسن البصري ، ص 503.

[3] ابن عبد الحكم ، ص 32.

[4] تاريخ الطبري؛ نقلاً عن عمر بن عبد العزيز ، للعلي ، ص 140.

[5] تاريخ خليفة ، ص 326؛ تاريخ الإسلام ، للذهبي؛ نقلاً عن العلي ، ص 140.

[6] تاريخ افتتاح الأندلس ، لابن القوطية ، ص 12 . 13.

الانسحاب الكامل من الأندلس، وكتب إلى الخليفة يقول: إن الناس قد كثروا بها وانتشروا في أقطارها، فاضرب عن ذلك، وأزال الأندلس عن عمالة إفريقية[1] .

وفي المشرق، كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الرحمن والي خراسان يأمره بإقفال من وراء النهر من المسلمين بذراريهم، فأبوا وقالوا: لا يسعنا مرو (قاعدة خراسان). فكتب إلى عمر بذلك، فكتب إليه عمر، اللهم إني قد قضيت الذي عليّ فلا تغزُ بالمسلمين، فحسبهم الذي فتح الله عليهم[2] . ويقتصر خليفة بن خياط على القول بأن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الجراح بن عبد الله الحكمي: «لا تغزُ، وتمسكوا بما في أيديكم»[3].

وفي جبهة بلاد السند: كتب عمر بن عبد العزيز إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يملكهم، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه، فأسلم جيشه والملوك، وتسموا بأسماء العرب، وكان عمرو بن مسلم الباهلي عامل عمر على ذلك الثغر[4] .

إن إيقاف عمر بن عبد العزيز التوسع القائم على استخدام المقاتلة في الأطراف النائية للدولة، وعمله على إحلال الحوار السلمي في إخماد الحركات المسلحة للمعارضة، لا يعني أنه أراد إلغاء المؤسسة العسكرية التي تمتد جذورها إلى زمن الرسول ﷺ، وكان لها الدور الأكبر في حماية الدولة وتوسيعها وتثبيت الأمن والاستقرار فيها، والواقع أن التنظيمات المتصلة بالمقاتِلة كانت تمسُّ صميم الحياة المدنية، ولا غنى لأي دولة عن مؤسسة الجيش في حفظ حدودها والمخاطر التي قد تتعرض لها، لذلك كان لابد من إبقاء الجند والمؤسسات المتصلة به، فظلت الأمصار، وهي مراكز إقامة المقاتلة العرب، قائمة دون أن يلغيها، أو يبدلها، أو يدخل تعديلات في تنظيماتها السكانية والإدارية، وقضت الأحوال أن يتابع خلال مدة خلافته القصيرة، استمرار الحركات العسكرية المحدودة النطاق في عدد من الجبهات.

ففي أذربيجان أغار الترك على المسلمين: فقتلوا من المسلمين جماعة ونالوا منهم، فَوَجَّه إليهم عمر بن عبد العزيز حاتم بن النعمان الباهلي، فقتل أولئك الترك، فلم يفلت منهم إلا اليسير، فقدم منهم على عمر بخناصرة خمسون أسيراً[5] .

([1]) فجر الأندلس ، لحسين مؤنس ، ص 136 ـ 137؛ عمر بن عبد العزيز ، صالح العلي، ص 140.

([2]) تاريخ الطبري؛ نقلاً عن عمر بن عبد العزيز ، للعلي ، ص 141.

([3]) تاريخ خليفة ، ص 326؛ عمر بن عبد العزيز ، للعلي ، ص 141.

([4]) فتوح البلدان ، ص 42.

([5]) تاريخ خليفة ، ص 326؛ عمر بن عبد العزيز ، للعلي ، ص 142.

وفي سنة 100 هـ أغارت الروم في البحر على ساحل اللاذقية، فهدموا مدينتها وسَبَوْا أهلها، فأمر ببنائها وتحصينها[1].

وفي 101 هـ: أغزى عمر بن عبد العزيز الوليد بن هشام المعيطي، وعمرو بن قيس الكندي من أهل حمص، الصائفة[2] . وأمر بترحيل أهل طرندة[3] وهم كارهون، وذلك لإشفاقه عليهم من العدو[4]. وأراد أن يهدم المصيصة لتعرُّضها لغارات الروم، ثم أمسك عن ذلك وبنى لأهلها مسجداً جامعاً من ناحية كفريا واتخذ فيه صهريجاً وكان اسمه عليه مكتوباً[5] . وجعلها مركزاً متقدماً لدرء الخطر عن إنطاكية من غزوات الروم المتكررة[6].

ورغم أن الخليفة عمر بن عبد العزيز كان قد حد من النشاط العسكري مع الروم، وسحب الجيش الذي كان يحاصر القسطنطينية وبعض الحصون المتقدمة في بلاد الروم، إلا أنه كان حازماً شديداً في أخذ الحق والدفاع عنه، وهذا ما تشير إليه رواية ابن عبد الحكم، حيث يذكر أنه عندما أرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز رسولاً إلى ملك الروم، وقص عليه قصة رجل أسير في بلد الروم. وقد مرت معنا. أجبر على ترك الإسلام واعتناق النصرانية، قائلين له: إن لم تفعل سملت عينك، فاختار دينه على بصره، فسملت عيناه، فأرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى ملك الروم وقال له: أقسم بالله، لأن لم ترسله إلي لأبعثن إليك من الجنود جنوداً يكون أولهم عندك واخرهم عندي[7] ، فاستجاب ملك الروم لطلبه، وبعث بالرجل إليه[8] .

وكانت سياسة عمر بن عبد العزيز المرحلية تقوم على ضبط الثغور وحدود الدولة الإسلامية والاهتمام بفتح العقول، وإحياء القلوب وتطهير النفوس للشعوب الجديدة التي دخلت في الإسلام، ولذلك بدأ يرسل سرايا الدعاة والعلماء للبدو القاطنين داخل الدولة الإسلامية وللشعوب التي كانت في أشد حاجة لتعاليم الإسلام.

---

(1) فتوح البلدان ، ص 20.

(2) تاريخ الطبري؛ نقلاً عن عمر بن عبد العزيز ، للعلي ، ص 142.

(3) طرندة: من الأماكن القريبة من الدولة الرومانية.

(4) فتوح البلدان ، ص 220.

(5) المصدر السابق نفسه، ص 163.

(6) العلاقات العربية البيزنطية ، ص 119.

(7) المصدر السابق نفسه، ص 131.

(8) المصدر السابق نفسه.

ثامناً: الاهتمام بالدعوة الشاملة:

ركز عمر جهوده بالبناء الداخلي للدولة لترسيخ وحدتها وأمنها ونشر العلم وتوصيله لكل أفراد الأمة ما أمكن لذلك سبيلاً، كما اهتم بنشر العدل بين الرعية وإزاحة الضغائن والأحقاد من بين المسلمين، وقد استهدف عمر بن العزيز قلوب الناس وعقولهم ونفوسهم بتعاليم الإسلام ووضع مشروعاً كبيراً لتحقيق ذلك الهدف العظيم، ولم يكن عمر بالإنسان الذي تستهويه المشاريع الكبرى، فيقف عند حدود الخيال لا يتعداه، بل حول مشروعه إلى برنامج عملي قابلاً للتطبيق، بعدما مهد الظروف، وأحاط برامجه بالضمانات العملية، وهيَّأ له الأسباب، مما جعله يحيله إلى واقع مشهود، وقد ساعده على نجاح مشروعه الدعوي التربوي العلمي أمور؛ منها:

1 . وضع قانون التفرغ للدعاة:

حيث ألزم الدولة بكفالة عدد من العلماء والدعاة والمفكرين، كي تتيح لهم التفرغ الكامل لإنجاز مشاريع فكرية دعوية التي يعكفون عليها باختيار أو بتوجيه من الدولة، فأجرى الأرزاق على العلماء، ورتّب لهم الرواتب ليتفرغوا لنشر العلم ويكفوا مؤونة الاكتساب[1]، فقارئ القران الذي حفظه وقام يقرأنه للناس ويعلمهم أحكامه، والمحدث الذي يعقد مجالس الإملاء وينشر الحديث النبوي، والفقيه الذي ينظر في الكتب ويستنبط منها ويعلم الناس أمور دينهم ليعبدوا الله على بصيرة، والطالب الذي يتفرغ للعلم أو البحث والدرس، كل أولئك قد يشغلهم أمر ذويهم وأبنائهم وسدّ حاجتهم وتدبير أمور معاشهم، فقام عمر بقطع هذا الهاجس عنهم، وكفل لهم ولمن يعولون ما يعيشون به حياة كريمة، تتكفل به الدولة، ويؤخذ من بيت المال، ونعمّا ما فعل رضي الله عنه، فبذلك شجع كل من وجد في نفسه الإمكانية لنشر العلم وخدمة الدين والأمة[2] .

وكان يمنح من بيت المال مبلغاً قدره مئة دينار لكل من انقطع إلى مسجد جامع في أي بلد إسلامي، لغرض التفقه ونشر العلم، وتدريس القران وتلاوته[3] . وعن أبي بكر بن أبي مريم قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى والي حمص: مُرْ لأهل الصلاح من بيت المال بما يُغنيهم لئلا يشغلهم شيء عن تلاوة القران وما حملوا من الأحاديث[4]. وعن أبي مريم قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى والي حمص: انظروا إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقه، وحبسوها في

([1]) ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز ، ص 184.

([2]) عمر بن عبد العزيز ، عبد الستار الشيخ ، ص 72.

([3]) ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر ، ص 184

([4]) أصول الحديث ، ص 178؛ عمر بن عبد العزيز ، عبد الستار ، ص 72.

المسجد عن طلب الدنيا، فأعطِ كل رجل منهم مئة دينار، يستعينون بها على ما هم عليه، من بيت مال المسلمين، حين يأتيك كتابي هذا، وإن خير الخير أعجله. والسلام عليك[1].

وفرض الرزق لمن يحدث الناس بمغازي رسول الله ﷺ ومناقب أصحابه، وللقصّاص والواعظين كذلك، وذكر ابن شبة أن عمر بن عبد العزيز أمر رجلاً ـ وهو بالمدينة ـ أن يقص على الناس، وجعل له دينارين كل شهر، فلما قدم هشام بن عبد الملك جعل له ستة دنانير كل سنة [2] .

ومما جاء في كتبه بشأن إجراء الرزق على طلبة العلم لينقطعوا عن الشواغل، ما ذكره ابن عبد البر عن يحيى بن أبي كثير قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: أن أجْرُوا على طلبة العلم الرزق، وفرّغوهم للطلب[3] .

2 ـ حض العلماء على نشر العلم وعلانيته:

واتخاذ المساجد مراكز لتعليم الناس أمور دينهم، وإقراء طلبة العلم وإسماعهم، وإملاء الحديث النبوي، وإحياء السنة[4] . قال عكرمة بن عمار وهو من أهل اليمن: سمعت كتاب عمر بن عبد العزيز يقول: أما بعد: فَأْمُرْ أهل العلم أن ينشروا العلم في مساجدهم، فإن السنة كانت قد أميتت[5] . وأسند ابن عبد البر عن جعفر بن برقان الرّقي ـ نسبة إلى الرقة شمال شرقي سورية ـ قال: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز: أما بعد فَمُرْ أهل الفقه والعلم من عندك، فلينشروا ما علمهم الله في مجالسهم، ومساجدهم[6] .

3 ـ توجيه الأمة إلى أهمية العلم:

وفي ذلك يقول: إن استطعت فكن عالماً، فإن لم تستطع فكن متعلماً، فإن لم تستطع فأحبهم، فإن لم تستطع فلا تبغضهم. ثم قال: لقد جعل الله له مخرجاً إن قبل[7] .

4 ـ إرسال العلماء الربانيين إلى شمال إفريقية:

([1]) البداية والنهاية؛ نقلاً عن عمر بن عبد العزيز ، عبد الستار ، ص72.

([2]) أخبار المدينة؛ نقلاً عن عمر بن عبد العزيز ، عبد الستار ، ص73.

([3]) جامع بيان العلم (228/1)؛ عمر بن عبد العزيز ، عبد الستار ، ص 73.

([4]) عمر بن عبد العزيز ، عبد الستار ، ص 73.

([5]) أصول الحديث ، ص 178؛ عمر بن العزيز ، عبد الستار الشيخ ، ص 73.

([6]) جامع البيان العلم(149/1).

([7]) ابن عبد الحكم؛ نقلاً عن عمر ، للزحيلي ، ص 74.

كان عمر بن عبد العزيز يرسل العلماء إلى الأمصار، بل البوادي ليعلّموا أهلها شرع الله، ويفقهوهم فيه، فقد بعث يزيد بن أبي مالك والحارث بن محمد إلى البادية ليعلما الناس السنة، وأجرى عليهم الرزق، فقبل يزيد ولم يقبل الحارث، وقال: ما كنت لاخذ على علم علمنيه الله أجراً. فذكر ذلك لعمر فقال: ما نعلم بما صنع يزيد بأساً، وأكثر الله فينا مثل الحارث[1] . وقد عبر عمر بهذا الجواب عما يجب أن يتحلى به الحاكم المسلم من مرونة فكرية، وعدم جمود على الأشكال، حيث أعلن أن أخذ الأموال لقاء الخدمات العلمية أمر لا بأس به، وسأل الله ـ من جهة أخرى ـ أن يكثر أولئك الذين يقومون بهذه الخدمات دون أجر إلا أجر الله[2].

وقد بعث عمر إلى مصر الإمام المفتي الثبت، عالم المدينة (نافعاً) مولى ابن عمر، وراويته، فعن ابن عبد الله بن عمر: بعث عمر بن عبد العزيز نافعاً مولى ابن عمر إلى أهل مصر يعلمهم السنن[3]، وأرسل عشرة من فقهاء المدرسة المصرية من رجال التابعين إلى إفريقية، ليفقهوا أهلها ويعلموهم، وينشروا بينهم حديث رسول الله ﷺ، لينالهم من الخير مثل الذي عمّ إخوانهم من أهل الحجاز والشام والعراق، وكانت معاقل العلم [4] ، وتطلع إلى شمال إفريقية، ليغزو القلوب والعقول والنفوس بدين الله، فأرسل العلماء الربانيين العشرة بعد أن وضع أهدافاً لخطته التعليمية في ذلك الإقليم؛ منها:

أ ـ اختيار علماء ربانيين اشتهروا بالعلم والفقه والدعوة والتجرد للإشراف على التربية والتعليم.

ب ـ وضع خطة بعيدة المدى لنشر تعليم اللغة العربية، ومحو الأمية في أوساط القبائل البربرية، حتى يسهل عليها بعد ذلك فهم القران والسنة والتعامل معهما.

جـ الاهتمام بربط الناس بالقران المجيد الذي هو حبل الله المتين، ويكون ذلك بفتح الكتاتيب، وجمعيات تحفيظ القران وتجويده.

د ـ البلاغ الواضح البين لعقائد أهل السنة.

هـ تعليم الناس الحلال والحرام[5].

---

(1) سيرة عمر ، لابن عبد الحكم ، ص 160؛ ملامح الانقلاب ، ص 184.

(2) ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر ، ص 184.

(3) سير أعلام النبلاء (979/5)؛ تذكرة الحفاظ (100/1).

(4) عمر بن عبد العزيز ، عبد الستار الشيخ ، ص 69.

(5)الشرف والتسامي بحركة الفتح الإسلامي ، للصَّلابي ، ص 306 ، 307.

ولقد بدأت بركات عهد عمر بن عبد العزيز على الشمال الإفريقي بتعيين أمير صالح عليه، وبإرسال الفقهاء والعلماء الربانيين، وإليك ترجمة الأمير والفقهاء:

. إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر:

ولاه عمر بن عبد العزيز على إفريقية في المحرم سنة (99 . 100 هـ) فكان خير أمير، قال ابن خلدون: وأسلم جميع البربر في أيامه، وأرسل معه عشرة من فقهاء التابعين وعلمائهم يفقهون الناس في أمور الدين، ويبينون لهم الحلال والحرام[1] .

وكان هذا الأمير في غاية الزهد والتواضع، حريصاً على نشر العلم، وسار في أهل البلاد بسيرة العدل، وكان شديد الحفظ لحديث رسول الله ﷺ، فقد روى عنه ابن عساكر: أنه قال: ينبغي لنا أن نحفظ حديث رسول الله ﷺ كما نحفظ القران، أخرج له البخاري ومسلم وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وأحمد، وغيرهم. ومكث في القيروان معلماً للناس، ناشراً للسنة، لمدة ثلاث وثلاثين سنة؛ حيث توفي بها سنة 131 هـ[2] ، وقد جمعت شخصية إسماعيل رحمه الله، الكفاءة، والعلم والورع، فأنتجت هذه الثمار التي ساهمت في ترسيخ الإسلام في شمال إفريقية، وينبغي لنا أن نهتم بتحقيق هذه الصفات وغيرها في نفوس القادة والولاة.

. بكر بن سوادة الجذامي، أبو ثمامة(ت 128 هـ بإفريقية):

أقام في الشمال الإفريقي أكثر من ثلاثين سنة محدثاً ومفتياً، وفقيهاً، وقد انتفع به أهلها، ورووا عنه، أدخل على القيروان حديث عدد من الصحابة، منهم: عقبة بن عامر، وسهل بن سعد الساعدي، وسفيان بن وهب الخولاني، كما روى عن جماعة من التابعين؛ منهم: سعيد بن المسيب، وابن شهاب الزهري، وقد قارب شيوخه الأربعين، وروى عنه كثير من أهل القيروان منهم عبد الرحمن بن زياد، وأبو زرعة الإفريقي وكان ثقة في حديثه، أخرج له مسلم والأربعة، والبخاري تعليقاً، وأحمد، والطبراني، وغيرهم، وعداده في المصريين رغم طول مكثه بالقيروان ووفاته بها[3].

. جُعثلُ بن عاهان الرُّعيني القتباني، أبو سعيد(ت حوالي 115 هـ):

عده أبو العرب وابن حجر وغيرهما في التابعين، ولم يذكروا عمن روى من الصحابة، وكان محدثاً، فقيهاً مقرأناً، تولى قضاء الجند بالقيروان، وبث فيها علماً كثيراً لمدة زادت عن خمسة عشر عاماً، وروى عنه من أهل القيروان عبيد

---

(1) تاريخ الفتح العربي في ليبية، ص 148.

(2) مدرسة الحديث بالقيروان (14/3 إلى 22).

(3) المصدر السابق نفسه.

الله بن زحر، وعبد الرحمن بن زياد، وبكر بن سوادة وهو زميله في البعثة العلمية، ووثقه أكثر النقاد، وأخرج له الأربعة وأحمد وغيرهم: توفي في خلافة هشام بن عبد الملك سنة 115 هـ[1].

. حبان بن جبلة القرشي:

مولاهم، ودفع الوهم بأن عمر رضي الله عنه أرسله لتفقيه أهل مصر (ت 125 هـ)، وقيل: 122 هـ بالقيروان، أدخل في الشمال الإفريقي حديث جملة من الصحابة؛ منهم: ابن عباس، وابن عمر، وعبد الله بن عمرو، ووالده عمرو، وبقي يبث العلم في عاصمة الشمال الإفريقي في مدينة القيروان أكثر من خمس وعشرين سنة، انتفع به أهلها، وروى عنه كثير منهم، كعبد الرحمن بن زياد، وعبيد الله بن زحر، وموسى بن علي بن رباح وغيرهم، وهو عند النقاد ثقة في حديثه، أخرج له البخاري في الأدب المفرد وابن سنجر في مسنده والحاكم في المستدرك وغيرهم[2].

. سعد بن مسعود التجيبي: أبو مسعود (ت بالقيروان):

يروي عن جماعة من الصحابة، منهم: أبو الدرداء، ويروي عن النبي ﷺ مرسلاً حتى وهم بعضهم فعده في الصحابة، ولذلك نبهت معظم المصادر على أنه لا صحبة له، وقد سكن القيروان وبث في الشمال الإفريقي علماً كثيراً وكانت مجالسه مليئة بالحكم والمواعظ البليغة، وكان شديداً على الأمراء، روى عنه من أهل القيروان: مسلم بن يسار الإفريقي، وعبيد الله بن زحر، وعبد الرحمن بن زياد، في جامع ابن وهب وغيره، وذكر الدباغ أنه توفي بالقيروان بعد أن بث فيها علماً كثيراً، ولم يذكر تاريخ وفاته[3] .

. طلق بن جعبان الفارسي:

وقيل: جابان، والصواب الأول كما في الإكمال، تابعي، لقي عمر وسأله، وأكثر روايته عن التابعين كان فقيهاً عالماً، وروى عنه من أهل القيروان: موسى بن علي، وابن أنعم، ولم يذكروا مدة إقامته بها ولا تاريخ وفاته[4] .

. عبد الرحمن بن رافع التنوخي، أبو الجهم (ت بالقيروان سنة 113 هـ):

---

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) مدرسة الحديث بالقيروان (14/2 إلى 22).

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) عصر الدولتين الأموية و العباسية وظهور فكر الخوارج ، ص 45.

دخل القيروان في وقت مبكر، سنة 80 هـ، وهو أجل قضاتها، وذلك على عهد حسان بن النعمان، واستمر يبث فيها العلم ما يقارب ثلاثاً وثلاثين سنة، حتى انتفع به خلق كثير من أهلها وقد أدخل إلى القيروان حديث جماعة من الصحابة عرفنا منهم: عبد الله بن عمرو بن العاص، وحدث عنه من أهل القيروان: عبد الرحمن بن زياد الإفريقي، وعبد الله بن زحر الكناني، وبكر بن سواد الجذامي وغيرهم... وهو أول من ولي قضاء القيروان وتوفي بها سنة 113 هـ[1].

. عبد الله بن المغيرة بن أبي بردة الكناني:

كان مقيماً في القيروان قبل زمن بعثة عمر بن عبد العزيز بمدة طويلة، معروفاً لدى أهلها مشهوراً بينهم بالعدالة والتقى، وقد ولاه عمر بن عبد العزيز قضاء القيروان سنة 99 هـ، لما علمه من فضله ودينه وعلمه، فاستمر في منصبه إلى أن استقال منه سنة 123 هـ، وكان زاهداً ورعاً عالماً، سار في أهل القيروان بالكتاب والسنة، ونشر العلم بينهم لمدة طويلة زادت عن خمس وعشرين سنة، ذكره ابن حبان في الثقات، وأثنى عليه المصنفون بالفضل والعلم والدين[2] .

. عبد الله بن يزيد المعافري الحبلي، أبو عبد الرحمن (ت بالقيروان 100 هـ):

دخل القيروان في زمن مبكر، ولعل ذلك كان مع موسى بن نصير سنة 86 هـ لأنه شهد فتح الأندلس، ثم عاد إلى القيروان وسكنها وبنى بها داراً ومسجداً، ثم عين ضمن أفراد البعثة العلمية، إلا أن وفاته كانت سنة 100 هـ، أي بعد سنة واحدة من التكليف الرسمي، ومع ذلك فقد قال عنه المالكي: فانتفع به أهل إفريقية وبث فيها علماً كثيراً، وأدخل إلى القيروان حديث جماعة من الصحابة ممن لم يدخلها، وزاد في إفشاء حديث من دخلها منهم، حدث عن ابن عمر وعقبة بن عامر، وابن عمرو، وأبي ذر، وروى عنه من أهلها عبد الرحمن بن زياد، وأبو كريب جميل بن كريب القاضي (ت 139 هـ) وغيرهما، كان

---

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 46.

رجلاً صالحاً ورعاً شديد الإقبال على نشر السنة، وكان تأثيره في الحياة العلمية ـ خاصة الجانب الحديثي منها ـ بالقيروان كبيراً، وقد بنى فيها مسجداً لمجالسه العلمية أجمع النقاد على توثيقه، وحديثه عند مسلم، والأربعة، وابن وهب في جامعه وأحمد وغيرهم[1] .

ـ وهب بن حي المعافري:

وقد ذكر ابن أبي حاتم أن هناك من قلبه إلى: حي بن موهب، وأن أبا زرعة قد صحح ذلك، غزا إفريقية قديماً، لأنه سأل ابن عباس المتوفى سنة 68 هـ عن انية أهل المغرب كما في الرياض والمعالم، وهو من أفراد بعثة عمر، وقد سكن القيروان، وبث فيها علماً كثيراً وبها كانت وفاته، وقد أدخل إلى القيروان حديث ابن عباس وغيره، وروى عن النبي ﷺ مرسلاً، وروى عنه من أهل القيروان عبد الرحمن بن زياد الإفريقي، ولم تظهر المصادر حاله من حيث التعديل والجرح[2] .

هؤلاء الفقهاء العشرة من خيرة فقهاء التابعين أرسلهم عمر بن عبد العزيز إلى الشمال الإفريقي ليفقهوا ويعلموا الناس دينهم، فكانوا عند حسن ظنه بهم، وكانوا للناس قدوة صالحة، وقد سبق هؤلاء العشرة كثير من التابعين الذين قاموا بتعليم أهل البلاد أحكام الدين علماً وعملاً[3] .

وكان لهؤلاء العشرة اثار هامة في القران الكريم وتفسيره والحديث، وفي نشر السنة العملية والاعتقادية الصحيحة، وساعدوا ولاة أمور المسلمين على مقاومة النحل الخارجية وتركيز أحكام الإسلام بين البربر؛ فقد روى المالكي أنه لما ثارت الخوارج على حنظلة بن صفوان بطنجة سنة 122 هـ، جمع حنظلة علماء إفريقية وهم الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية ليفقهوا أهلها، فكتبوا هذه الرسالة ليقتدي بها المسلمون ويعتقدوا ما فيها: ... فإن أهل العلم بالله وبكتابه وسنه نبيه ﷺ يعلمون أنه يرجع جميع ما أنزل الله عز وجل إلى عشر ايات: امرة، وزاجرة، ومبشرة، ومنذرة، ومخبرة، ومحكمة، ومتشابهة، وحلال، وحرام، وأمثال، فامرة بالمعروف، وزاجرة عن المنكر، ومبشرة بالجنة، ومنذرة بالنار، ومخبرة بخبر الأولين ، والاخرين، ومحكمة يعمل بها، ومتشابهة يؤمن بها، وحلال أمر أن يؤتى، وحرام أمر أن يجتنب، وأمثال واعظة، فمن يطع الامرة وتزجره الزاجرة فقد استبشر بالمبشرة وأنذرته المنذرة،

([1]) المصدر السابق نفسه.

([2]) مدرسة الحديث بالقيروان (14/2 إلى 22).

([3]) عصر الدولتين الأموية و العباسية ، ص 47.

ومن يحلل الحلال ويحرم الحرام، ويرد العلم فيما اختلف فيه الناس إلى الله، مع طاعة واضحة ونية صالحة، فقد فاز وأفلح وأنجح وحيا حياة الدنيا والآخرة والسلام[1].

إن هذه الرسالة تعتبر وثيقة عظيمة الأهمية؛ إذ تدل على أصالة علم هذه البعثة العلمية، ووضوح أهدافهم الشرعية أمامها، حتى إنهم أوجزوا فحوى الرسالة، ونظراً لعظيم فائدتها عممت على أن تقرأ على منابر المساجد في جميع ضواحي إفريقية[2] .

5 . رسائله الدعوية إلى الملوك في الهند وغيرها:

كتب عمر بن عبد العزيز إلى ملوك السند يدعوهم إلى الإسلام على أن يملكهم بلادهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وقد كانت سيرته بلغَتْهم، فأسلم جيشبة بن داهر[3]، والملوك تسموا له بأسماء العرب... وبقي ملوك السند مسلمين على بلادهم أيام عمر ويزيد بن عبد الملك[4]. وقد أرسل عليهم عمر من يعلمهم دينهم[5]، كما أرسل عمر برسائل إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم فيها إلى الإسلام فأسلم بعضهم[6] ، وأما أليون قيصر الروم فقد بعث إليه عمر وفداً برأساسة عبد الأعلى بن أبي عمرة لدعوته إلى الإسلام[7] .

6 . تشجيع غير المسلمين على الدخول في الإسلام:

قام عمر بتشجيع غير المسلمين على الدخول في الإسلام عن طريق إعطائهم الأموال لتألفة قلوبهم، وذلك اتباعاً لسنة رسول الله ﷺ، فيذكر ابن سعد عن عيسى بن أبي عطاء رجل من أهل الشام كان على ديوان أهل المدينة، عن عمر بن عبد العزيز: أنه ربما أعطى المال من يستألف على الإسلام[8] . كذلك ذكر عن عمر بن عبد العزيز أنه أعطى بطريقاً ألف دينار استألفه على الإسلام[9] .

---

(1) رياض النفوس للمالكي(102/1 ، 103).

(2) عصر الدولتين الأموية و العباسية ، ص 48.

(3) فتوح البلدان ، ص 428؛ عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم ، ص 173.

(4) الكامل في التاريخ؛ نقلاً عن عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم ، ص 173.

(5) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم ، ص 173.

(6) فتوح البلدان ، ص 415.

(7) البداية و النهاية؛ نقلاً عن عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم ، ص 173.

(8) الطبقات (350/5)؛ عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم ، ص 174.

(9) المصدر السابق نفسه (350/5).

7. تصحيح الوضع الخاص لأهل الذمة:

لقد كان لإنصافه لأهل الذمة الذين أسلموا بوضع الجزية عنهم أثر واضح في زيادة إقبال الذميين على الدخول في الإسلام برغم كل ما ترتب على ذلك بالنسبة لبيت المال، مثل ما فعل مع واليه على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي؛ حيث أرسل إليه يقول: انظر من صلى قبلك إلى القبلة، فضع عنه الجزية[1] ، ثم أرسل بدعوة أهل الذمة إلى الدخول في الإسلام، فمثلاً أرسل إلى عامله الجراح بن عبد الله الحكمي يأمره بدعوة أهل الجزية إلى الدخول في الإسلام، فإن أسلموا قبل إسلامهم، وأن يضع الجزية عنهم، ثم كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين[2].

وقد ترتب على هذه الدعوة دخول عشرات الألوف من الناس في الإسلام طائعين؛ ففي خراسان أسلم نحو من أربعة الاف ذمي على يد واليه الجراح بن عبد الله[3] ، أما في المغرب فقد أسلم عامة البربر على يد والي عمر على المغرب إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر[4] .

وكان ذلك دليلاً على بعد نظر عمر في الاهتمام بالدعوة إلى الإسلام عن طريق الحكمة والموعظة الحسنة، إذ كانت نتائجها لا تقل عن نتائج غيرها إيجابية، بل تتعدى ذلك إلى أنه اكتسب مسلمين جدداً دون أن يتكلف شهيداً، أو نفقة لإعداد جيوش، وهم رعاياه ويعيشون بين أظهر المسلمين، وبالتالي أولى من غيرهم بالدعوة إلى الإسلام. وبهذا يكون الإسلام قد انتشر على عهد عمر بن عبد العزيز بالحكمة والموعظة الحسنة، والاستمرار في أسلوب الجهاد الدعوي على أيدي علماء ربانيين تخرجوا من المدارس العلمية التي نضجت في عهد الدولة الأموية، وهؤلاء العلماء الدعاة هم الذين نفذوا مشروع عمر بن عبد العزيز الدعوي العلمي.

---

(1) تاريخ الطبري؛ نقلاً عن عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم ، ص 174.

(2) الطبقات (386/5).

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) فتوح البلدان ، للبلاذري، ص 232 . 233، عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص 174.

❋ ❋ ❋

المبحث السادس

الإصلاحات المالية في عهد عمر بن عبد العزيز

لم تكن سياسة عمر المالية ارتجالية فهو مسؤول عن دولة، وكان يحسب حساباً لكل خطوة يخطوها ويضع الضمانات لكل عمل يعتزم تنفيذه[1]. ولقد سار في سياسته على أمور منها:

ـ العزم على الاعتصام بالكتاب والسنة: والتضحية في سبيل ذلك، وهذا ما يبدو واضحاً من كتبه للعمال وخطبه إلى رعيته، ومثال ذلك قوله: سنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر من بعده سنناً الأخذ بها اعتصام بكتاب الله وقوة على دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها، ولا النظر في أمر خالفها[2].

ـ ترسيخ قيم الحق والعدل ودفع الظلم: وهذا هو أساس سياسة عمر، فجميع الأهداف والوسائل التي اتبعها كانت تنسجم مع هذا الأساس، وإحقاق الحق ودفع الظلم هو أصل من أصول الشريعة، ومقصد رئيسي من مقاصدها، قال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}[الحديد: 25]. يقول ابن القيم: فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش، وهي عدل كلها، ورحمة كلها ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة[3].

ولقد كان عمر يرجع للحق إذا تبين له الخطأ، ويقول في ذلك: ما من طينة أهون عليّ فتّاً ولا كتاب أيسر عليّ رداً من كتاب قضيت به، ثم أبصرت أن الحق في غيره ففتتها[4].

أولاً: أهداف السياسة الاقتصادية عند عمر:

1 ـ إعادة توزيع الدخل والثروة بشكل عادل:

لقد سعى عمر بن عبد العزيز لإعادة توزيع الدخل والثروة بالشكل العادل، الذي يرضي الله تعالى، ويحقق قيم الحق والعدل، ورفع الظلم، والتي وضعها عمر نصب عينيه، فقد كان يراقب الانحرافات السابقة قبل خلافته، ويلاحظ آثارها السلبية على نفوس الرعية، ولقد انتقد سياسة سليمان بن عبد الملك التوزيعية، فقال له: لقد رأيتك

---

[1] السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز، ص 27.

[2] سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص 38.

[3] إعلام الموقعين (3/3).

[4] سيرة ومناقب عمر، لابن الجوزي، ص 113.

زدت أهل الغنى وتركت أهل الفقر بفقرهم[1]. فقد أدرك عمر بن عبد العزيز أن التفاوت الاجتماعي هو نتيجة لسوء توزيع الثروة، فرسم سياسته الجديدة لإنصاف الفقراء والمظلومين، ولقد استخدم عمر للوصول إلى هذا الهدف بعض الوسائل العملية منها:

أ . منع الأمراء والكبراء من الاستئثار بثروة الأمة، ومصادرة الأملاك المغصوبة ظلماً، والتي استولى عليها الأمراء والكبراء، وإعادة هذه الأموال إلى أصحابها إذا عرفوا، أو إلى بيت المال إذا لم يعرف أصحابها، أو كانت من الأموال العامة.

ب . زيادة الإنفاق على الفئات الفقيرة والمحرومة ورعايتها، وتأمين مستوى الكفاية لها عن طريق الزكاة وموارد بيت المال الأخرى[2].

وقد قام بتنفيذ هذه السياسة، كما مرّ معنا في سياسته في رد المظالم، ولقد كانت سياسة عمر التوزيعية تهدف على إيصال الناس إلى حد الكفاية: يلاحظ ذلك من خطبه، فقد خطب الناس يوماً فقال: وددت أن أغنياء الناس اجتمعوا فردوا على فقرائهم حتى نستوي نحن وهم، وأكون أنا أولهم[3]. وفي خطبة أخرى:.. ما أحد منكم تبلغني حاجته إلا حرصت أن أسدّ من حاجته ما قدرت عليه، وما أحد لا يسعه ما عندي إلا وددت أنه بُدِئَ بي وبلحمتي الذين يلونني حتى يستوي عيشنا وعيشكم[4].

وقد طبق عمر هذا التطور علمياً عندما أمر بقضاء دين الغارمين، فكتب إليه عامله: إنا نجد الرجل له المسكن والخادم، وله الفرس والأثاث في بيته، فأجاب عمر: لابدّ للرجل من المسلمين من مسكن يأوي إليه رأسه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوه، وأثاث في بيته، فهو غارم فاقضوا عنه[5]، فسياسة عمر التوزيعية تهدف إلى كفاية الناس من حيث المسكن والمركب والأثاث، وهي عبارة عن حاجات أساسية، وضرورية للإنسان تصعب الحياة بدونها[6].

2 . تحقيق التنمية الاقتصادية والرفاه الاجتماعي:

سعى عمر بن عبد العزيز عن طريق العديد من الوسائل لتحقيق هذا الهدف، فقد أوجد المناخ المناسب للتنمية عن طريق حفظ الأمن والقضاء على الفتن، ورد الحقوق لأصحابها، وبذلك باتت الرعية مطمئنة على حقوقها، آمنة في أوطانها، كذلك أمر ببناء المرافق العامة، والتي تسمى اليوم بمشاريع البنية التحتية، ولا تقوم التنمية إلا بهذه

---

(1) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص 135.

(2) السياسة الاقتصادية و المالية لعمر بن عبد العزيز، ص 135.

(3) الإدارة الإسلامية في عز العرب، محمد كرد علي، ص 103.

(4) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص 42.

(5) المصدر السابق نفسه، ص 171.

(6) السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص 38.

المرافق الضرورية من أنهار وترع ومواصلات وطرق، وقد أكد عمر على مبدأ الحرية الاقتصادية المقيدة بضوابط الشريعة، فانتشر الناس في تجارتهم وتثمير أموالهم، واهتم كذلك اهتماماً بالغاً بالزراعة، حيث كان القطاع الزراعي من أكبر القطاعات على المستوى الفردي، وله مردود كبير على ميزانية الدولة، وقد جنى عمر والأمة كلها ثمرات هذه السياسة، فقد عمّ الرخاء البلاد والعباد[1]، قال رجل من ولد زيد بن الخطاب: إنما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفاً وذلك ثلاثون شهراً؛ فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء، فما يبرح حتى يرجع بماله، يتذكر من يضعه فيهم فما يجده، فيرجع بماله، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس[2].

ثانياً: وسائل عمر بن عبد العزيز لتحقيق الأهداف الاقتصادية لدولته:

سعى عمر بن عبد العزيز لتحقيق أهدافه الاقتصادية بوسائل؛ منها:

1. توفير المناخ المناسب للتنمية:

وقد عمل عمر على توفير المناخ المناسب للتنمية، وقام بالآتي:

أ. رد الحقوق لأصحابها:

فتوفرت أجواء الأمن والطمأنينة، وترسخت قيم الحق والعدالة وردّ الحقوق المغتصبة إلى أبناء الأمة وسمّاها مظالم[3]، وقد تحدثت عن سياسته في رد المظالم والحقوق إلى أهلها، وذكرت الكثير من المواقف في هذا الشأن.

ب. فتح الحرية الاقتصادية بقيود:

فقد أكد عمر على مفهوم الحرية الاقتصادية المقيدة، وكتب إلى العمال:.. وإن من طاعة الله التي أنزل في كتابه أن يدْعى الناس إلى الإسلام كافة، وأن يبتغي الناس بأموالهم في البر والبحر ولا يمنعون، ولا يحبسون[4]. وقدم في موضوع آخر:... أطلق الجسور والمعابر للسابلة يسيرون عليها دون جُعْل[5]، لأن عمال السوء تعدوا غير ما أمروا به[6].

ولم يتدخل عمر بن عبد العزيز في الأسعار، فعن عبد الرحمن بن شوبان قال: قلت لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين! ما بال الأسعار غالية في زمانك وكانت في زمان ما قبلك رخيصة؟ قال: إن الذين كانوا قبلي كانوا

---

(1) المصدر السابق نفسه، ص 14.

(2) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص 128.

(3) السيرة الاقتصادية والمالية، ص 43.

(4) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص 94؛ السياسة الاقتصادية و المالية لعمر، ص 47.

(5) الجعل: هو ما يجعل للشخص على عمله.

(6) الإدارة الإسلامية، محمد كرد، ص 105.

يكلفون أهل الذمة فوق طاقتهم، فلم يكونوا يجدون بُداً من أن يبيعوا ويكسروا ما في أيديهم، وأنا لا أكلف أحداً إلا طاقته، فباع الرجل كيف شاء، قال: فقلت: لو أنك سعَّرت، قال: ليس إلينا من ذلك شيء إنما السعر إلى الله[1].

وتشدد عمر في أمر السلع المحرّمة، ومنع التعامل بها؛ فالخمر من الخبائث التي لا يجوز التعامل فيها بين المسلمين لحرمتها ولضررها؛ حيث يؤدي شربها إلى استحلال الدم الحرام وأكل المال الحرام. ويقول عمر: فإن من نجده يشرب منه شيئاً بعد تقدمنا إليه فيه نوجعه عقوبة في ماله ونفسه، ونجعله نكالاً لغيره[2].

وقد أثمرت سياسة عمر في رد الحقوق وإطلاق الحرية الاقتصادية المنضبطة، حيث وفرت للناس الحوافز للعمل والإنتاج، وأزالت العوائق التي تحول دون ذلك، وهذا أدى إلى نمو التجارة، وبالتالي إلى زيادة حصيلة الدخل الخاضع للزكاة، وهذا يؤدي بدوره إلى زيادة الزكاة، ممّا يؤدي إلى رفع مستوى الطبقات الفقيرة وارتفاع قوتها الشرائية والتي ستتوجه إلى الاستهلاك، وبالتالي إلى زيادة الطلب على السلعة، والخدمات، وهذا كله يؤدي إلى انتعاش الاقتصاد وارتفاع مستوى المعيشة وزيادة الرفاه[3].

2 . اتباع سياسة زراعية جديدة:

فقد اتبع خطوات ترمي إلى زيادة الإنتاج الزراعي للأمة، وإليك تفصيل هذه الخطوات:

أ . منع بيع الأرض الخراجية:

سأل الناس عبد الملك بن مروان والوليد وسليمان أن يأذنوا لهم في شراء الأرض من أهل الذمة، فأذنوا لهم شريطة أن يضعوا أثمانها في بيت المال، فلما ولي عمر بن عبد العزيز، ترك هذه الأشرية على حالها، وذلك لما وقع فيها من المواريث ومهور النساء وقضاء الديون ولم يقدر على تخليصه، وكتب كتاباً قرئ على الناس سنة المئة: أن من اشترى شيئاً بعد سنة مئة فإن بيعه مردود، وسميت سنة مئة سنة المدة، فتناهى الناس بعدها عن الشراء[4]. ولقد طلب أهل الأرض أن يضع عليهم الصدقة بدل الخراج، فأجاب عمر: إني لا أعلم شيئاً أثبت لمادة الإسلام من هذه الأرض التي جعلها الله لهم فيئاً.. قال أبو عبيدة: فكأن مذهب عمر بن عبد العزيز في الأرض أنه كان يراها فيئاً، ولهذا كان يمنع أهلها من بيعها[5].

وكتب إلى ميمون بن مهران: أما بعد، فحُل بين أهل الأرض وبين بيع ما في أيديهم منها، فإنهم إنما يبيعون فيء

---

(1) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر، ص 48.

(2) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص 103.

(3) سياسة الإنفاق العام في الإسلام، عوف الكفراوي، ص 372.

(4) الخراج، للريس، ص 390؛ السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص 49.

(5) الأموال، لأبي عبيد، رقم (256)، ص121.

المسلمين[1]. كذلك رفض عمر تحويل الأرض التي دخل أهلها في الإسلام من أرض خراج إلى أرض عشر[2]، وأبقى الخراج عليهم والعشر، وقال: الخراج على الأرض، والعشر على الحب[3]. وبذلك حافظ على المورد الرئيس للإنتاج، وجعله ملكاً عاماً للأمة بدلاً من تحويله إلى ملكيات صغيرة[4].

ب . العناية بالمزارعين وتخفيف الضرائب عنهم:

اعتاد بعض الخلفاء الأمويين قبل عمر بن عبد العزيز على إرهاق المزارعين بالضرائب، فكثرت الضرائب وتنوعت، واشتد الأمر على أهل الأرض فهجروها، فخرجت، فأضرّ ذلك بمالية الدولة، ولقد لجؤوا إلى أساليب العذاب في الجباية فاضطر المزارعون إلى بيع دوابهم أو كسوتهم لشديد ما عليهم[5]، وعندما تولى عمر سعى إلى إلغاء جميع الضرائب المخالفة للشريعة، وكتب بذلك إلى العمال كتباً؛ منها: فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام الله، وسنة خبيثة استنها عليهم عمال السوء.. ولا تأخذن في الخراج إلا وزن سبعة[6]، ليس لها آيين ولا أجور الضرابين[7]، ولا هدية النيروز والمهرجان[8]، ولا ثمن الصحف، ولا أجر الفيوج ولا أجور البيوت[9].

وقد ألغى القبالة وكانت مألوفة في البصرة، وألغى أسلوب الخرص[10]. حيث كان العمال يقدرون الثمار بسعر عالٍ ويقبضونه نقداً، وبذلك يرهقون الزراع، فقرر عمر وضع الضريبة حسب الأسعار الفعلية، وكتب لعامله: بلغني أن عمالك بفارس يخرصون الثمار ثم يقومونها على أهلها بسعر فوق سعر الناس الذي يتبايعون، ثم يأخذون ذلك ورقاً على قيمتهم التي قوموها.. وقد بعثت بشر بن صفوان وعبد الله بن عجلان للنظر في ذلك ورد الثمن الذي أخذ من الناس إلى ما باع أهل الأرض به غلاتهم[11].

ولقد أمر عمر بإلغاء ضريبة ثابتة على أهل اليمن، كالخراج مع أن أرضها أرض عشرية، وكتب إلى عامله على اليمن: أما بعد، فإنك كتبت إليَّ أنك قدمت اليمن فوجدت على أهلها ضريبة من الخراج مضروبة ثابتة في أعناقهم كالجزية يؤدونها على كل حال، أخصبوا أو أجدبوا، حيوا أو ماتوا، فسبحان الله رب العالمين، ثم سبحان الله رب العالمين.. إذا أتاك كتابي هذا فدع ما تنكره من الباطل إلى ما تعرفه من الحق، ثم ائتنف الحق فاعمل به بالغاً بي

---

[1] المصدر السابق نفسه، رقم (257)، ص 122.

[2] السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص 50.

[3] الأموال، لأبي عبيد، رقم (235)، ص 114.

[4] الخراج، للريس، ص 239؛ السياسة المالية والاقتصادية، ص 50.

[5] الضرائب في السواد، للدوري، ص 57.

[6] الدرهم الذي ضربه عبد الملك وجعل كل عشرة منها وزن سبعة مثاقيل من الذهب.

[7] الآيين: أصول إدارية ساسانية، وهي رسوم المشاحين على أرض الخراج. وأجور الضرابين: هي أجور المختصين بالنقد من الصرافين.

[8] النيروز والمهرجان: عيدان عند الفرس كانوا يحضرون فيها الهدايا.

[9] الصحف: عبارة عن أوراق تعطى براءة بالدفع. والفيوج: جمع فيج وهو رسول السلطان الذي يسعى بالكتب، وأجور البيوت: هي أجور المخازن المحلية التي توضع فيها المواد العينية قبل نقلها للمركز.

[10] القبالة من التقبل والتقبيل: أي تعيين شخص كفيل ذلك لتحصيل الخراج مقابل قدر معلوم يأخذه لنفسه. الخرص: الحرز.

[11] الضرائب في السواد، ص 65.

وبك وإن أحاط بمهج أنفسنا، وإن لم ترفع إليّ من جميع اليمن إلا حفنة من كتم[1]، فقد علم الله أني بها مسرور إذا كانت موافقة للحق[2]. والسلام.

ويلاحظ من كتب عمر إلى عماله الانحرافات السابقة الظالمة وإنكار عمر لها، وقد كان لها أثر اقتصادي سيئ حيث جعلت أصحاب الأرض يضعفوا عن أرضهم ويتركوها، فضعف الإنتاج وترتب على ذلك خسارة للبلاد ولبيت المال، وأما عمر بن عبد العزيز فكان مصراً على تطبيق الحق وعدم اهتمامه بالكم بل بالكيف، فهو لا يريد إيراداً كثيراً ظالماً[3]، وقد ساهمت إصلاحات عمر في إلغائه للضرائب الجائرة إلى انتعاش اقتصاد الدولة.

جـ الإصلاحات والإعمار وإحياء أرض الموات:

شجع عمر على إحياء الأرض الموات وعلى إصلاح الأراضي للزراعة، وكتب بذلك إلى عامله على الكوفة: لا تحمل خراباً على عامر ولا عامراً على خراب[4]، انظر إلى الخراب فخذ منه ما أطاق، وأصلحه حتى يعمر، ولا تأخذ من العامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض[5]. وكتب عمر: من غلب الماء على شيء فهو له. وعن حكيم بن زريق قال: قرأت كتاب عمر بن عبد العزيز إلى أبي: من أحيا أرضاً ميتة ببنيان أو حرث، ما لم تكن من أموال قوم ابتاعوها من أموالهم، أو أحيوا بعضاً وتركوا بعضاً، فاجزِ للقوم إحياءهم الذي أحيوا ببنيان أو حرث[6].

وحرص عمر على استغلال أرض الصوافي[7]، ورأى أن ملكيتها لبيت المال، ومنع الإقطاع منها وأمر بإعطائها مزارعة على النصف، فإن لم تزرع فعلى الثلث، فإن لم تزرع فأمر بإعطائها حتى تبلغ العشر، فإن لم يزرعها أحد فأمر بمنحها، فإن لم يزرعها أحد فأمر بالإنفاق عليها من بيت المال[8].

وقد اهتم عمر بالمزارعين ورفع الضرر عنهم، ويروى في ذلك أن جيشاً من أهل الشام مر بزرع رجل فأفسده، فأخبر الرجل عمر بذلك، فعوضه عشرة آلاف درهم[9]، وكان يقدم القروض للمزارعين، فقد جاء في رسالته لواليه على العراق: أن انظر من كانت عليه جزية فضعف عن أرضه فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه، فإنا لا نريدهم لعام ولا لعامين[10].

---

[1] الكتم: نبت يخلط بالحناء ويخضب به الشعر.

[2] سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص 126؛ الخراج، للريس، ص 229.

[3] السياسة الاقتصادية المالية لعمر، ص 52.

[4] المصدر السابق نفسه، ص 53. العامر: الأرض المزروعة.

[5] الأموال، لأبي عبيد، رقم (120)، ص 57.

[6] الأموال، رقم (717)، ص 369؛ البنيان: هو البناء، والحرث: هو الزرع.

[7] الصوافي: ما يستخلصه السلطان لخاصته. وقيل: الأملاك والأراضي التي جلا عنها أهلها وماتوا ولا وارث لها، واحدها صافية.

[8] الخراج، ص 99؛ السياسة المالية والاقتصادية، ص 54.

[9] سيرة ومناقب عمر، لابن الجوزي، ص 117.

[10] التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص 202.

د . عمر والحمى:

منع عمر الحمى الخاص وأباح هذه الأراضي للمسلمين جميعاً، لا تختص بها طائفة على أخرى، وفي ذلك يقول: ونرى أن الحمى يباح للمسلمين عامة، وكانت تحمى وتجعل فيها نعم الصدقات، فيكون في ذلك قوة ونفع لأهل فرائض الصدقات، وأدخل فيها وطعن فيها طاعن من الناس، فنرى في ترك حماها والتنزه عنها خيراً، إذا كان ذلك من أمرها، وإنما الإمام فيها كرجل من المسلمين، وإنما هو الغيث ينزله الله لعباده فهم فيه سواء[1].

وعندما أباح الأحماء كلها استثنى النقيع[2] الذي حماه الرسول عليه الصلاة والسلام لإبل الصدقة[3]. فبالحمى تصبح الأرض لجماعة المسلمين، ونفعها مصروف لهم، فالحمى نقل الأرض من الإباحة إلى الملكية العامة، لتبقى موقوفة على جماعة المسلمين[4].

هـ توفير مشاريع البنية التحتية:

سعى عمر بن عبد العزيز لتوفير هذه المشاريع منذ كان أميراً على المدينة حتى أصبح خليفة للمسلمين، فاهتم بالمشاريع التي تخدم التجار والمزارعين والمسافرين، وعندما كان والياً على المدينة كتب إليه الوليد بن عبد الملك كتاباً في تسهيل الثنايا وحفر الابار في المدينة، فحفر منها بئر الحفير وكانت طيبة الماء[5].

كذلك عمل عمر بأمر الوليد فوّارة ماء، وأجرى ماءها، ووسع المسجد النبوي ورفع منارته وجوّف محاريبه، وأنشأ الخانات والفنادق ودار الضيافة للحجاج والمسافرين[6].

كما استمر حفر خليج أمير المؤمنين بين النيل والبحر الأحمر لتسهيل نقل الطعام من مصر إلى مكة حتى أيام عمر بن عبد العزيز[7]. وكتب إليه عامله على البصرة يعرض طلب أهلها بحفر نهر لهم، فأذن له عمر وحفر النهر، وسمي نهر عدي[8].

ثالثاً: سياسة عمر بن عبد العزيز المالية في الإيرادات:

إن السياسة المالية بإيراداتها ونفقاتها تعتبر أداة هامة لتحقيق الأهداف الاقتصادية[9]، لذلك بدأ عمر سياسته المالية

---

(1) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص 98.

(2) النقيع: موضع لبلاد مزينة على ليلتين من المدينة، وهو نقيع الخضمات الذي حماه عمر بن الخطاب لنعم الفيء وخيل المجاهدين.انظر: السياسة الاقتصادية والمالية، ص 54.

(3) فتح الباري(34/5).

(4) الاتجاه الجماعي في التشريع الاقتصادي، ص 242.

(5) الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي، ص 56.

(6) خامس الخلفاء الراشدين، للبدري، ص 170.

(7) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز، ص 55.

(8) المصدر السابق نفسه، ص 57.

(9) المصدر السابق نفسه.

بزيادة الإنفاق على عامة الشعب، فأنفق في رد المظالم حتى أنفذ بيت مال العراق، وجلب إليه من الشام[1]، وأنفق على المشاريع الزراعية، ومشاريع البنى الأساسية، كما أنفق على الرعاية الاجتماعية لجميع طبقات الشعب، وفي جانب الإيرادات سعى إلى إلغاء الضرائب الظالمة، فرفع الجزية عمن أسلم، وألغى الضرائب الإضافية التي كانت تؤخذ من المزارعين، وألغى المكوس والقيود، كما حافظ على حقوق بيت المال المسلوبة، فأعاد إليه القطائع، والمظالم، وأوقف امتيازات الأمراء والموظفين، وبالغ في الاقتصاد في الإنفاق الإداري والحربي[2]، كل ذلك أدى إلى إطلاق الطاقات، فنمت الزراعة والتجارة، وجنى ذلك بزيادة ونمو الإيرادات، فزادت إيرادات الزكاة والخراج والعشور، وفاضت ميزانية الدولة، فوجّه عمر الفائض لزيادة الإنفاق العام لتحقيق الأهداف الاقتصادية.

ونلاحظ في التاريخ كلما استقام أمر الدولة وسارت على نهج الشريعة الإسلامية الغرّاء فاض ميزانها المالي، ولم يشعر أفرادها بعسف ولا إرهاق، ولم تهمل مصلحة من مصالحها، وكلما اعوج أمر الدولة، وحادت عن سبيل الشريعة، اختل التوازن المالي، فميزانية الدولة مرآة عدلها وجورها، ونظامها وفوضاها[3].

هذا وقد تكونت إيرادات بيت المال زمن عمر بن عبد العزيز من: الزكاة والجزية والخراج والعشور والخمس والفيء.

1 . الزكاة:

اهتم عمر بالزكاة وحرص عليها لأنها حق فرضه الله للفقراء والمساكين والمنقطعين، والمستعبدين، ولا يجوز التهاون فيه، واهتمّ بتوزيعها على مستحقيها[4]، فأمر ولاته بالبحث عنهم وإعطائهم حقهم، وفي حالة عدم وجود فقراء أو مساكين أو محتاجين أمر عمر بشراء رقاب المستعبدين وإعتاقهم من مال الزكاة[5]. وعزم عمر على اتباع هدي النبي صلى الله عليه وسلم في الزكاة، وكان الولاة قبله قد تهاونوا فيها، فأخذوها من غير حقها، وصرفوها في غير مصارفها[6].

ومن مظاهر اتباعه للسنة فيها طلبه لكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصدقات، ولكتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأمره بأن تنسخ هذه الكتب فنسخت له، وكانت تشتمل على صدقة الإبل والبقر والغنم، والذهب، والورق، والتمر، والحب، والزبيب، وبيّنت الأنصبة لكل هذه الأصناف[7].

واتبع عمر السنة في مصارف الزكاة، فاستشهد بقوله تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ}[التوبة: 60]، ثم أمر أن توضع الصدقات كما

---

[1] سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص 129.

[2] السياسة الاقتصادية والمالية لعمر، ص 58.

[3] المصدر السابق نفسه.

[4] المصدر السابق نفسه، ص 60.

[5] المصدر السابق نفسه.

[6] سيرة و مناقب عمر، لابن الجوزي، ص 129.

[7] الأموال، لأبي عبيد، رقم (934)، ص 447، السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز، ص 61.

أمر الله تعالى في كتابه[1]، كما اتّبع عمر السنة في جباية الزكاة؛ فعين عمالاً ثقاة مؤتمنين وأمرهم بجبايتها دون ظلم أو تعدٍّ وأمرهم بكتابة براءة إلى الحول لدافعها[2]. وأمر عمر بأخذ الزكاة من جميع الأموال التي تجب فيها، فأخذت من عطاء العمال ومن المظالم إذا رُدّت لأصحابها، ومن الأعطية إذا أخرجت لأهلها[3].

وأكد عمر على أحقية كل قوم بزكاتهم إذا لم يستغنوا[4]، وعندما أحضر العمال الزكاة إلى عمر أمرهم بردّها وتوزيعها في البلاد التي جمعت منها[5].

وكان لهذه الإصلاحات الاقتصادية في جباية الزكاة أثر على زيادتها، ولقد ساهمت سياسته الاقتصادية إلى زيادة تحصيل الزكاة، فتوفيره لأجواء الأمن والطمأنينة، واهتمامه بإقامة المشاريع الأساسية للزراعة والتجارة واتّباعه لسياسة الحرية الاقتصادية المقيّدة، وإلغاؤه للضرائب الظالمة، أدّت جميعاً إلى ازدهار التجارة والزراعة وإلى زيادة حصيلة الزكاة[6].

ولقد كان عمر من الموسعين لإيتاء الزكاة، برز هذا من خلال فقهه في زكاة الثروة الزراعية، وزكاة الإبل العامة، وزكاة السمك، وزكاة العسل، وهذا الفقه من شأنه أن يزيد الأموال الخاضعة للزكاة، مما يؤثر على زيادة جبايتها.

وأما زيادة الدعوة زمن عمر، ودخول أهل الذمة في الإسلام أفواجاً فالراجح أنه رفع من حصيلة الزكاة، لأن هؤلاء المسلمين الجدد فيهم الأغنياء وفيهم الفقراء، وسيدفع الأغنياء حقاً مفروضاً عليهم وهو الزكاة، وأما سيرة عمر وتقواه فقد أثرت على دفع الزكاة للدولة مباشرة لزيادة الثقة بين الحاكم والمحكوم، وهذا واضح من تدافع الناس لأداء

الزكاة عندما سمعوا بخلافة عمر، وهذا يؤدي إلى زيادة حصيلة أموال الزكاة وزيادة اثارها الاقتصادية عند إنفاقها في مصارفها[7].

وتؤكد الروايات التاريخية أن الزكاة كانت فائضة عن حاجات الناس في ذلك الزمن، فكان الرجل يأتي بزكاته، فلا يجد من يأخذها[8]، ومن أسباب هذا الفائض اندفاع أفراد المجتمع للعمل والإنتاج، فكثر عدد المؤدِّين للزكاة، وانخفاض عدد القابضين لها[9].

---

[1] سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص94.

[2] المصدر السابق نفسه، ص 99.

[3] الأموال، لأبي عبيد، رقم (1226)، ص 529.

[4] فتح الباري (3/ 322)؛ السياسة المالية والاقتصادية، ص 61.

[5] الأموال، رقم (1917)، ص 712.

[6] ملامح الانقلاب، ص 135.

[7] المصدر السابق نفسه.

[8] سير أعلام النبلاء (131/5)؛ السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز، ص 69.

[9] السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص 69.

2 . الجزية:

والجزية في الاصطلاح: هي الوظيفة(الضريبة) المأخوذة من الكافر لإقامته بدار الإسلام في كل عام، والأصل فيها الكتاب والسنة والإجماع[1]، وقد قام عمر بن عبد العزيز باتباع السنة في إيراد الجزية، فقد أسقطها عمّن أسلم، لأن الجزية فرضت على الكافرين وتسقط بالإسلام[2]، ومع ذلك فقد استمر بعض خلفاء بني أمية في أخذ الجزية ممن أسلم، فأخذها الحجّاج لظنّه أنهم دخلوا الإسلام هرباً من الجزية، ولقد أدى ذلك إلى زيادة النقمة على الحجّاج وعلى الأمويين[3]، وعندما تولى عمر الخلافة سارع إلى إلغاء الجزية عن المسلمين[4]، وتشدّد في ذلك، وكتب إلى العمال كتاباً جاء فيه: «من شهد شهادتنا واستقبل قبلتنا واختتن فلا تأخذوا منه الجزية»[5].

ولما سمع أهل الذمة عن عدالة عمر وسيرته سارعوا للدخول في الإسلام، فشكا عامله ذلك، لأنه أدى إلى نقصان الجزية، فأجابه عمر: أما بعد، فإن الله قد بعث محمداً داعياً ولم يبعثه جابياً[6].

ولأن عمر اعتمد في سياسته على ترسيخ قيم الحق والعدل، رفع الظلم عن أهل الذمة، ورفق بمزارعيهم، وفرض الجزية عليهم حسب المقدرة المالية للفرد، فجعلها على ثلاث طبقات: للغني وللمتوسط وللفقير، وجعل صاحب الأرض يعطي جزيته من أرضه والصانع يخرجها من كسبه والتاجر من تجارته[7]، وفرض الجزية حسب طاقة البلاد المالية، فجعلها على أهل الشام أكثر منها على أهل اليمن بسبب غناهم ويسارهم[8]، ورفع الجزية عن الفقراء الذين لا يستطيعون دفعها، وأجرى عليهم رزقاً من بيت المال، كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه[9]، وخفَّضَ عمر الجزية عن أهل نجران حيث أمر بإحصائهم، فتبين له أن عددهم نقص إلى العشر، وجزيتهم بقيت كما هي، فأخذ منهم مئتي حلة بدلاً من ألفين، وأسقط جزية من مات أو أسلم[10].

وقد كانت للإصلاحات في جباية الجزية اثار مالية لصالح بيت المال، فإسقاط الجزية عمن أسلم أدّى إلى زيادة الثقة بين الحاكم والمحكوم، والشعور بالعدل والإنصاف، وبالتالي أدّى إلى إيقاف القلاقل والفتن التي كلفت الدولة نفقات طائلة، كما أن إسلام كثير من أهل الذمة جعلهم يدفعون الزكاة بدل الجزية، والزكاة مقدارها أكبر، هذا مع

---

(1) المغني، لابن قدامة (557/10).
(2) السياسة المالية والاقتصادية، ص 70.
(3) الضرائب في السواد، ص 58.
(4) الطبقات (345/5)؛ الخراج، للريس، ص 230.
(5) الأموال، رقم (127)، ص 61.
(6) الطبقات (384/5).
(7) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص 99.
(8) الأموال، لأبي عبيد، رقم (107)، ص 51.
(9) السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص 71.
(10) الخراج، للريس، ص 232.

استمرار دفع الخراج على الأرض، أما انتشار أجواء الأمن والعدل فقد زاد الإنتاج؛ حيث اندفع الناس للإنتاج والتنمية[1].

3. الخراج:

هو ما تأخذه الدولة من ضرائب على الأرض المفتوحة عنوة، أو الأرض التي صالح أهلها عليها[2]. لقد ارتفع إيراد الخراج في زمن عمر بن عبد العزيز وبلغ مئة وأربعة وعشرين مليون درهم[3].

وكانت هذه الزيادة في إيراد الخراج نتيجة لسياسته الإصلاحية؛ فقد منع بيع الأرض الخراجية، فحافظ على المصدر الرئيسي للإنتاج، كما اعتنى بالمزارعين، ورفع عنهم الضرائب والمظالم التي كانت تعوق إنتاجهم، واتبع سياسة الإصلاح والإعمار وإحياء الأرض الموات، كما اهتم ببناء مشاريع البنية الأساسية للقطاع الزراعي؛ فبنى الطرق والقنوات[4]، فمشاريع الطرق سهلت على المزارعين تسويق إنتاجهم، ومشاريع القنوات والآبار سهلت عليهم سقي محاصيلهم بكلفة أقل، كل هذه الإصلاحات الخراجية أثمرت في النهاية وأدت إلى ارتفاع الخراج زمن عمر، فقد بلغ خراج العراق في عهده مئة وأربعة وعشرين مليون درهم، وهذا المقدار أكبر مما جبي في العهود السابقة، فقد بلغ خراج العراق زمن الحجاج أربعين مليون درهم، وفي عهد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ مئة مليون درهم[5].

أما خراج خراسان زمن عمر بن عبد العزيز فقد كان فائضاً عن حاجات الدولة، وبلغ الخراج زمن عمر أقصى قدر ممكن أن يبلغه في الأحوال العادية[6]. وهذا الارتفاع في مقدار الخراج يشير إلى قوة الدولة المالية، لأن خراج العراق كان يشكل أكبر نصيب من إيراداتها[7]، مما ساعد على تحقيق الأهداف الاقتصادية من دعم مشاريع البنية التحتية والمشاريع الإنتاجية والإنفاق على الطبقات الفقيرة والعاجزة، ذلك لأن إيراد الخراج يتسم بالمرونة من حيث مصارفه، بعكس الزكاة فهي محددة المصارف[8].

4. العشور:

العشور في الاصطلاح: ما يؤخذ على تجارة أهل الحرب وأهل الذمة عندما يجتازون بها حدود الدولة الإسلامية[9]،

---

(1) الخراج، للريس، ص 259؛ السياسة المالية والاقتصادية، ص 72.
(2) معجم لغة الفقهاء، ص 194.
(3) الخراج، للريس، ص 238.
(4) السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص 74.
(5) الخراج، للريس، ص 237، 238؛ السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص 75.
(6) الخراج، للريس، ص 237.
(7) السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز، ص 76.
(8) المصدر السابق نفسه.
(9) معجم الفقهاء، ص 312.

فتؤخذ العشور من تجارة الحربي العُشر، ومن تجارة الذمي نصف العشر، ولا تؤخذ في السنة لنفس المال إلا مرة واحدة، ونصابها عشرون ديناراً للذمي، وعشرة للحربي[1].

وقد اهتم عمر بن عبد العزيز بإيراد العشور، فوضح مبادئها للعمال، وأمر بكتابة كتاب لدافعها لإعفائه منها للحول القادم، كما منع قبض العشور، والتي كانت تفرض على الناس بغير حق[2]، وقد نشطت التجارة في عهده، وتوافرت موارد جديدة للدولة،

واستطاع أن يوظفها للإنفاق العام، وكانت الإجراءات التي اتخذها عمر لتنشيط الحركة التجارية كالآتي:

أ . إلغاء الضرائب الإضافية التي كانت مفروضة على القطاع الزراعي[3]، وقد انعكس هذا إيجاباً على القطاع التجاري في صورة انخفاض ملحوظ في أسعار السلع الزراعية، فزاد في الطلب عليها، وأحدث رواجاً في تجارتها، وفي ظل اقتصاد قوامه الزراعة فإن زيادة عرض السلع الزراعية وانخفاض أثمانها على النحو الذي واكب السياسة الرشيدة لعمر بن عبد العزيز أحدث رواجاً لا في التجارة فحسب، ولكن في بقية قطاعات الاقتصاد الإسلامي[4].

ب . إلغاء الضرائب على القطاع التجاري، والاقتصار على العشور[5]، وكان لهذا تأثير إيجابي على قطاع التجارة، وقد أدى إلى تشجيع مزاولة التجارة، وزاد من أرباح التجارة، فزاد معها حجم المبادلات التجارية[6].

جـ إلغاء أسلوب العنف في تحصيل مستحقات الدولة المالية[7]على التجار وغيرهم، وهذا أيضاً من عوامل تشجيع التجارة وتنميتها.

د . عمل استراحات[8]على طريق التجارات مع بلاد الشرق، ومطالبة الولاة على البلاد التي توجد بها هذه الاستراحات بأن يضيفوا من مر بهم من المسلمين المسافرين[9]يوماً وليلة، وأن يتعاهدوا دوابهم على حساب الدولة، ومضاعفة هذه المدة لمن يشكو منهم علة، وبالنسبة لمن مر بهذه الاستراحات وكان منقطعاً أو سرقت تجارته أو تلفت لأي سبب، فكان يعطى من المال ما يكفيه للوصول إلى بلده، ولا يخفى ما كان لهذه التسهيلات والضمانات من عوامل تشجيع للتجار وللتبادل التجاري[10].

هـ منع العطاء عن التجار، حتى تكون التجارة مصدر رزقهم الوحيد فيهتموا بها أكثر وينشطوا فيها، لا سيما وأن

---

[1] المغني (10 /589)؛ السياسة المالية والاقتصادية، ص 76.

[2] السياسة المالية والاقتصادية، ص 77.

[3] سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، ص 141.

[4] التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص 218.

[5] المصدر السابق نفسه.

[6] المصدر السابق نفسه.

[7] المصدر السابق نفسه.

[8] سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، ص 439.

[9] كان معظم السفر لناحية المشرق لقصد التجارة.

[10] التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص 219.

التجارة كانت في ذلك الوقت متعبة من حيث السفر، والترحال، لعدم توفر وسائل المواصلات المريحة التي نشاهدها اليوم.

و ـ قضاء ديون كل من أدان في غير سفه ولا سرف[1]، ويدخل ضمنهم التجار إن لم يكونوا جلهم، وقد أدى هذا القرار إلى إقالة عثرات التجار الذين أفلسوا، ومكنهم من العودة إلى مزاولة التجارة، وخاصة تلك الفئة من التجار الذين بدأوا تجارتهم عن طريق اقتراض رأس المال المطلوب.

ز ـ الحرص على ضبط ومعايرة وتوحيد المكاييل والموازين في كافة أنحاء الدولة، وجعل ذلك من مواد القانون الأساسي للدولة.

ح ـ منع الولاة والأمراء من الاشتغال بالتجارة، حتى لا يكون في دخولهم السوق إفساد للمنافسة الشريفة بين التجار، أو تأثير على الأسعار لصالحهم، وهي محاولة من عمر بن عبد العزيز بالبعد بالأسواق عن أي مؤثرات غير طبيعية تؤثر في تلقائية تحديد السعر[2].

ط ـ منع الاحتكار، ومن ذلك: إعادته دكاكين بحمص كانت في يد مجموعة من أهل السوق، وكان ابن الوليد بن عبد الملك قد استولى عليها، وحولها إلى ملكية خاصة له، فنزعها وأعادها إلى أصحابها[3]، وبهذا الموقف ووجود[4]هذه الإجراءات الإصلاحية ساهمت في ازدهار الحركة التجارية في عهد عمر بن عبد العزيز، وبذلك زادت حصيلة إيرادات العشور، وتوافرت موارد جديدة للدولة استطاع عمر أن ينفقها على الصالح العام.

5 ـ خمس الغنائم والفيء:

فالغنيمة في الاصطلاح: ما استولي عليه من أموال الكفار المحاربين عنوة وقهراً حين القتال[5]، والفيء في الاصطلاح: كل مال وصل من المشركين من غير قتال ولا بإيجاف خيل ولا ركاب[6].

فعندما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة توجه لإصلاح الأوضاع الداخلية للدولة، لذلك لم تكثر الفتوحات في زمنه؛ حيث استعاض عنها بالدعوة والقدوة الحسنة، فقد بعث بكتب للملوك والشعوب، فدخل البربر في الإسلام بدون قتال[7]، ولهذا لم تتحقق موارد كثيرة من خمس الغنائم زمن عمر، وما كان موجوداً في بيت المال منه كان

---

[1] الأموال، لأبي عبيد، ص 234، 235.

[2] التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص 219.

[3] المصدر السابق نفسه، ص 220.

[4] المصدر السابق نفسه.

[5] الأموال، لأبي عبيد، رقم (626)، ص 323.

[6] الأحكام السلطانية، للماوردي، ص 199.

[7] السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص 81.

مصدره الفتوحات السابقة[1]. ومع ذلك فقد سعى لإصلاح موازنة خمس الغنائم، فقد جعل للخمس بيت مال مستقل عن الأموال الأخرى[2]، وأمر بوضعه في مواضعه المذكورة في سورة الأنفال، واثر به أهل الحاجة منهم حيث كانوا[3].

وقد أمر بعشرة آلاف دينار من سهم ذوي القربى فقسمها في بني هاشم، وساوى بين الذكر والأنثى، والصغير والكبير، فكتبت إليه فاطمة بنت الحسين تشكر له ما صنع، وتقول: يا أمير المؤمنين! قد أخدمت من كان لا خادم له، واكتسى منهم من كان عارياً، واستنفق من كان لا يجد ما يستنفق[4].

ولقد تمسك عمر في حق الخمس، فلما فتحت الأندلس قبل خلافة عمر لم يخمسوها، فأمر عامله عليها أن يبين العنوة من أرضها ويأخذ منها الخمس[5].

وأما في تصرفه في الفيء، فقد كان متبعاً للقرآن والسنة وسيرة الخلفاء الراشدين، فقد كتب كتاباً ذكر فيه عن الأموال والقرى التي أفاء الله بها على رسوله صلى الله عليه وسلم مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب، واستدل بآيات سورة الحشر التي نزلت في ذلك، وبين أن ما من أحد من المسلمين إلا له حق في الفيء، فقد ذكرت الآيات المهاجرين والأنصار ومن جاء بعدهم من المسلمين بعد الهجرة الأولى حتى تنقضي الدنيا[6]. وهو بذلك كان موافقاً لاجتهاد عمر بن الخطاب في جعل الفيء موقوفاً على أجيال المسلمين[7].

ونظر عمر في مصارف الخمس فوجدها موافقة لمصارف الفيء، فرأى أن يضمه إليه كما فعل عمر بن الخطاب[8]، ويصرف منها على جميع مصالح المسلمين، وكتب في ذلك كتاباً:.. وأما الخمس فإن من مضى من الأئمة اختلفوا في موضعه.. ووضع مواضع شتى، فنظرنا فإذا هو على سهام الفيء في كتاب الله لم تخالف واحدة من الاثنتين الأخرى، فإذا عمر بن الخطاب رحمه الله قد قضى في الفيء قضاءً قد رضي به المسلمون، فرض للناس أعطية وأرزاقاً جارية لهم، ورأى أن لن يبلغ بتلك الأبواب ما جمع من ذلك، ورأى أن فيه لليتيم والمسكين، وابن السبيل، فرأى أن يُلحق الخمس بالفيء وأن يوضع مواضعه التي سمّى الله وفرض... فاقتدوا بإمام عادل؛ فإن الآيتين متفقتان: اية الفيء، واية الخمس... فنرى أن يُجمعا جميعاً فيُجعلا فيئاً للمسلمين ولا يستأثر عليهم[9].

---

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) الطبقات (5 / 350)؛ سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص 72؛ السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص 82.

(4) الطبقات (5 / 390)، السياسة المالية والاقتصادية، ص 28.

(5) تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم (1 / 320).

(6) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص 97.

(7) الخراج، أبو يوسف، ص 25؛ السياسة المالية والاقتصادية، ص 82.

(8) السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص 83.

(9) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص 97؛ الأموال، رقم (838).

لقد ساعدت إصلاحات عمر في إيرادات الخمس والفيء على تحقيق أهداف سياسته الاقتصادية، فتوزيعه للخمس على الأسهم المذكورة في القرآن مع إيثاره لذوي الحاجة أينما وجدوا ساعد على تحقيق إعادة توزيع الدخل والثروة، وشعر الناس بالعدل وزوال الظلم، بسبب هذه السياسة الرشيدة السديدة.

رابعاً: سياسة الإنفاق العام لعمر بن عبد العزيز:

1 . إنفاق عمر على الرعاية الاجتماعية:

لتحقيق هدف إعادة توزيع الدخل والثروة سعى عمر إلى زيادة الإنفاق على الفقراء والمحتاجين، وتأمين الرعاية الصحية والاجتماعية لهم، وهذه مطالب شرعية جاءت في القرآن الكريم والسنة النبوية، ولقد اهتم منذ الأيام الأولى لخلافته باتباع الشرع والتزام الحق والعدل، فأرسل إلى العلماء يستفسر، وقد كتب ابن شهاب الزهري لعمر كتاباً عن مواضع السنة في الزكاة ليعمل بها في خلافته، فذكر فيها: إن فيها نصيباً للزمنى والمقعدين (أصحاب العجز الأصلي)، ونصيباً لكل مسكين به عاهة لا يستطيع عَيْلة وتقليباً في الأرض (أصحاب العجز الطارئ؛ كالعامل الذي يصاب في عمله، والمجاهد الذي يصاب في الحرب). ونصيباً للمساكين الذين يسألون ويستطعمون الغني حتى يأخذوا كفايتهم (ولا يحتاجون بعدها إلى سؤال).. ونصيباً لمن في السجون من أهل الإسلام ممن ليس له أحد... ونصيباً لمن يحضر المساجد الذين لا عطاء لهم ولا سهم (أي ليست لهم رواتب ومعاشات منتظمة) ولا يسألون الناس... ونصيباً لمن أصابه فقر وعليه دين ولم يكن شيء منه في معصية الله، ولا يُتهم في دينه.. ونصيباً لكل مسافر ليس له مأوى، ولا أهل يأوي إليهم، فيُؤوى ويُطعم وتُعلف دابته حتى يجد منزلاً أو تقضى حاجته[1].

أ . الإنفاق على الفقراء والمساكين:

فقد كان يفكر في الفقراء والمساكين، ويسعى إلى إغنائهم، فقد مرت معنا قصته مع زوجته فاطمة عندما سألته عن سر بكائه، فقال لها: تقلّدت أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود، والمظلوم المقهور، والغريب المأسور، والكبير، وذي العيال في أقطار الأرض، فعلمت أن ربي سيسألني عنهم، وأن خصمي دونهم محمد صلى الله عليه وسلم، فخشيت ألا تثبت حجتي عند خصومته، فرحمت نفسي فبكيت[2].

---

[1] السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز، ص 83.

[2] سير أعلام النبلاء (132/5)؛ سيرة ومناقب عمر، لابن عبد الحكم، ص 248.

هذه الحادثة تلخص سياسة عمر في الإنفاق على الفئات المحتاجة، والحادثة مليئة بالمعاني وتحتاج إلى وقفات؛ فقد شعر عمر بعظم المسؤولية الملقاة على عاتقه؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته»[1].

وقد عمل عمر على سد احتياجات الناس، جاء رجل لعمر فقام بين يديه فقال: يا أمير المؤمنين! اشتدت بي الحاجة، وانتهت بي الفاقة، والله سائلك عن مقامي غداً بين يديه، وكان عمر قد اتكأ على قضيب، فبكى حتى جرت دموعه على القضيب، ثم فرض له ولعياله، ودفع له خمسمئة دينار حتى يخرج عطاؤه[2].

وكان رحمه الله يهتم بشأن الأرامل وبناتهن كما حدث مع المرأة العراقية التي مرّ ذكرها، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو كالذي يصوم النهار ويقوم الليل»[3].

وقد خصّص عمر داراً لإطعام الفقراء والمساكين وأبناء السبيل[4]، ولم يكتفِ عمر بالاعتناء بالفقراء فحسب، بل امتدت رعايته إلى المرضى وذوي العاهات والأيتام، فقد كتب كتاباً إلى أمصار الشام: ادفعوا إليّ كل أعمى في الديوان أو مقعد، أو من به فالج، أو من به زمانة، تحول بينه وبين القيام إلى الصلاة. فرفعوا إليه، فأمر لكل أعمى بقائد، وأمر لكل اثنين من الزمنى بخادم.. ثم كتب: ارفعوا إليّ كل يتيم، ومن لا أحد له... فأمر لكل خمسة بخادم يتوزعون بينهم بالسوية[5].

ب . الإنفاق على الغارمين:

من الفئات التي اهتم بها عمر الغارمون، فقد كتب ابن شهاب الزهري لعمر عن سهم الغارمين: لمن يصاب في سبيل الله في ماله.. ولمن أصابه فقر، وعليه دين لم يكن شيء منه في معصية الله، ولا يُتهم في دينه[6]. ولذلك أمر عمر بقضاء الدين عن الغارمين، فكتبوا إليه: إنا نجد الرجل له المسكن، والخادم، وله الفرس، والأثاث في بيته، فكتب عمر: لابد للرجل من المسلمين من سكن يأوي إليه رأسه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوّه، وأثاث في بيته، فهو غارم فاقضوا عنه[7].

وكتب إليه والي الكوفة وقد اجتمعت عنده أموال، فسأل عمر عنها فأجاب: كتبت تذكر أنه قد اجتمعت عندك أموال بعد أعطية الجند، فأعطِ منهم من كان عليه دين في غير فساد، أو تزوّج فلم يقدر على نقد والسلام[8].

---

(1) البخاري، رقم (893).

(2) حلية الأولياء (289/5).

(3) البخاري، رقم (6006).

(4) الطبقات (378/5).

(5) سيرة ومناقب عمر، لابن الجوزي، ص 202.

(6) الأموال، أبو عبيد، رقم (1850)؛ السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز، ص 29.

(7) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص 171؛ السياسة المالية والاقتصادية، ص 92.

(8) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص 67.

وكتب كتاباً قُرئ في مسجد الكوفة: من كانت عليه أمانة لا يقدر على أدائها فأعطوه من مال الله، ومن تزوج امرأة فلم يقدر أن يسوق إليها صداقها فأعطوه من مال الله[1].

جـ الإنفاق على الأسرى:

قال تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا} [الإنسان: 8 . 10]. اهتم عمر بن عبد العزيز بالأسرى وبالإنفاق عليهم من بيت مال المسلمين، فقد كتب كتاباً إلى أسرى المسلمين في القسطنطينية[2]، وقد تحدثت عن الكتاب في كلامي عن الحياة الاجتماعية، واهتم بالسجناء في سجون المسلمين بسبب جرم أو قصاص، فقد أمر عمر برعايتهم والإنفاق عليهم. وكتب عمر إلى العمال: لا تدعُنَّ في سجونكم أحداً من المسلمين في وثاق لا يستطيع أن يصلي قائماً، ولا يبيتنّ في قيد إلا رجل مطلوب بدم، وأجروا عليهم من الصدقة ما يصلحهم في طعامهم وإدامهم[3]. وأمر لأهل السجون برزق وكسوة في الصيف والشتاء[4].

د . الإنفاق على المسافرين وأبناء السبيل:

اهتم عمر بالمسافرين وأبناء السبيل، فأمر عماله ببناء بيوت الضيافة على الطرق لرعاية المسافرين والاهتمام بهم، وكتب إلى أحد عمّاله: اعمل خانات في بلادك، فمن مرّ بك من المسلمين فاقروهم يوماً وليلة وتعهدوا دوابهم، فمن كانت به علَّة فاقروه يومين وليلتين، فإن كان منقطعاً به فقوّوه بما يصل به إلى بلده[5]. وأمر عمر بالاهتمام بالحجّاج، والإنفاق عليهم ورعاية ضعيفهم وإغناء فقيرهم[6].

هـ الإنفاق لفك الرقاب:

بعد أن أنفق عمر على الفقراء والمساكين، والعاجزين، والغارمين وأبناء السبيل وجه الأموال لفك رقاب المستعبدين، وقال عامل صدقات إفريقية: بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقتضيتها، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيراً.. فاشتريت بها رقاباً ولاؤهم للمسلمين[7].

---

[1] الطبقات (374/5).

[2] السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز، ص 93.

[3] الخراج، أبو يوسف، ص 315.

[4] الطبقات (356/5).

[5] تاريخ الطبري؛ نقلاً عن السياسة المالية والاقتصادية، ص 94.

[6] سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص 65.

[7] السياسة المالية والاقتصادية، ص 94.

و . الإنفاق في وجوه أخرى:

وقد مرّ معنا إنفاق عمر على العلماء لكي يتفرغوا لدعوة الناس وتعليمهم، واتسعت رعايته الاجتماعية لتشمل جميع فئات الأمة حتى الأطفال الصغار، وحدّد لهم مبلغاً من المال ليستعين به ذووهم على تربيتهم، واهتم بمواطنيه من أهل الذمة، فكان ينفق على فقرائهم ومحتاجيهم من بيت المال[1]، كما أنه لابد من الإشارة إلى أن سياسة عمر بن عبد العزيز الراشدة ساهمت في إغناء عدد كبير من المسلمين وزيادة ثرواتهم في المجال التجاري والزراعي وغيرها، وساهمت في سريان روح التدين وحب الآخرة في نفوس الناس، ورغبوا في الإكثار من فعل الخيرات ابتغاء مرضاة الله تعالى والرغبة فيما عند الله، فكثر الإنفاق في سبيل الله لمساعدة الفقراء والمساكين والأرامل، وبناء المرافق العامة وحفر الآبار، وتشييد المساجد وغير ذلك، وهذا يخفف الأعباء المالية على بيت مال المسلمين في العاصمة وأقاليمها الواسعة.

2 . ترشيد الإنفاق في مصالح الدولة:

كانت سياسة عمر بن عبد العزيز في ميدان الإنفاق تقوم على أساس مبدأ الرشد الاقتصادي، أو ما يعبَّر عنه بمبدأ القوامة في الإنفاق، ومقتضاه البعد عن الإسراف والتبذير، والبُعد عن الشح والتقتير[2]. ومن الخطوات التي اتخذها في مجال ترشيد الإنفاق في مصالح الدولة:

أ . قطع الامتيازات الخاصة بالخليفة وبأمراء الأمويين:

أعاد عمر القطائع والحقوق الخاصة إلى أصحابها، والحقوق العامة إلى بيت المال، وبدأ بنفسه وبآل بيته .كما مرّ معنا . وكان عمر لا يأخذ من بيت المال شيئاً، فقالوا له: لو أخذت ما كان يأخذ عمر بن الخطاب، قال: كان عمر لا مال له، وأنا مالي يغنيني[3]. وعندما أُحضرت مراكب الخلافة لعمر بعد موت سليمان، طلب بغلته وأمر بوضع المراكب والفرش والزينة في بيت المال، وكانت عادة الخلفاء قبله أن يأخذ ورثة الخليفة الميت ما استعمل من ثيابه وعطوره ويُردّ الباقي إلى الخليفة الجديد، فلما استخلف عمر قال: ما هذا لي ولا لسليمان، ولا لكم، ولكن يا مزاحم ضُمّ هذا كله إلى بيت مال المسلمين[4].

وكان عمر لا يستعمل الأموال العامة لحاجته الخاصة مطلقاً؛ فمرة بعث أمير الأردن بسلتي رطب إلى عمر، وقد جيء بها على دواب البريد، فلما وصلت عمر أمر ببيعها وجعل ثمنها في علف دواب البريد[5]، ومرة طلب من

---

(1) المصدر السابق نفسه، ص 95، 96.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 96.

(3) العقد الفريد (22/5)؛ السياسة المالية والاقتصادية، ص 97.

(4) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص 35؛ السياسة المالية، ص 97.

(5) السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز، ص 98.

عامله أن يشتري له عسلاً، فحمل له على دواب البريد، فأمر ببيع العسل وجعل ثمنه في بيت المال، وقال له: أفسدت علينا عسلك[1].

ب . ترشيد الإنفاق الإداري:

سعى عمر على تعويد أعوانه وولاته على الاقتصاد في أموال المسلمين، فعندما طلب والي المدينة أن يُصرف له شمعٌ، فأجابه عمر: لعمري لقد عهدتك يا بن أم حزم وأنت تخرج من بيتك في الليلة الشاتية المظلمة بغير مصباح، ولعمري لأنت يومئذ خير منك اليوم، ولقد كان في فتائل أهلك ما يغنيك والسلام[2]. وكتب إليه أيضاً وقد طلب قراطيس للكتابة:...إذا جاءك كتابي هذا فأدق القلم واجمع الخطّ، واجمع الحوائج الكثيرة في الصحيفة الواحدة، فإنه لا حاجة للمسلمين في فضل قول أضرّ بيت مالهم[3].

يلاحظ حرص عمر على المال العام، ويرشد ولاته للاستغلال الأمثل لموارد الدولة، فعمر يريد من العامل أن يستغلَّ الأوراق في الرسائل إلى أقصى درجة.

جـ ترشيد الإنفاق الحربي:

خاضت الدولة الأموية حروباً خارجية وداخلية، فكلّفت ميزانية الدولة الشيء الكثير منها حملة القسطنطينية زمن سليمان بن عبد الملك، حيث كلفت الكثير من الأموال والشهداء دون جدوى، فما كان من عمر بعد استخلافه إلا أن أرسل كتاباً يأمر فيه مسلمة بن عبد الملك قائد الحملة بالعودة بعد أن أصاب الجيش ضيق شديد.

وقد أدّت سيرة عمر وسياسته إلى استقرار الأوضاع الداخلية، وتوقفت الحروب والفتن، ولما بلغت سيرته الخوارج، اجتمعوا وقالوا: ما ينبغي لنا أن نقاتل هذا الرجل[4]، ولقد ساهم إيقاف الحروب والفتن في إيجاد مناخ عام من الراحة والطمأنينة والاستقرار ساهم في النمو الاقتصادي للدولة، وتحسن أوضاع الطبقات الفقيرة والمحتاجة بفضل الله ثم سياسة عمر الرشيدة.

* * *

---

[1] سيرة ومناقب عمر، لابن الجوزي، ص 210.

[2] الوالي: هو أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم. سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص 64.

[3] سيرة ومناقب عمر، لابن الجوزي، ص 121.

[4] المصدر السابق نفسه، ص 86؛ السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص 110.

المبحث السابع

المؤسسة القضائية في عهد عمر بن عبد العزيز وبعض اجتهاداته الفقهية

أولاً: في الأقضية والشهادات:

1 . في صفات القاضي:

كان عمر بن عبد العزيز يدقق في اختيار القضاة حتى لا يُبتلى الناس بقاضٍ يتخبط فيهم بغير حق، ولهذا فقط اشترط عمر بن عبد العزيز في القاضي خمسة شروط، ولا يجوز له أن يلي القضاء حتى تكتمل فيه هذه الشروط؛ وهي: العلم، والحلم، والعفة، والاستشارة، والقوة في الحق[1].

فعن مزاحم بن زفر قال: قدمت على عمر بن عبد العزيز في وفد أهل الكوفة، فسألنا عن بلدنا وأميرنا وقاضينا، ثم قال: خمس إن أخطأ القاضي منهن خصلة كانت فيه وصمة: أن يكون فهيماً، وأن يكون حليماً، وأن يكون عفيفاً، وأن يكون صليباً، وأن يكون عالماً يسأل عما لا يعلم[2]. وفي رواية: عن يحيى بن سعيد عن عمر بن عبد العزيز قال: لا ينبغي للقاضي أن يكون قاضياً حتى تكون فيه خمس خصال: عفيف، حليم، عالم بما كان قبله، يستشير ذوي الرأي، لا يبالي ملامة الناس[3]. وقد قال بهذا المعنى عمر بن الخطاب[4]، وعلي بن أبي طالب[5] رضي الله عنهما، وذهب الأئمة الأربعة إلى موافقة عمر بن عبد العزيز في كل أو جل هذه الصفات[6].

2 . في حكم القاضي في ما استبان له، ويرفع ما التبس عليه:

قد يكون هناك بعض القضايا المتشابكة والتي أمرها يحيّر القاضي؛ فهل يحكم القاضي فيها وإن لم يظهر له الحق، أم يتركها لمن هو أعلم منه؟

لقد قرر عمر بن عبد العزيز قراراً هو درس في القضاء يجب أن يعمل به إلى يوم القيامة، ذلك أنه يرى أن القاضي إن تبين له الحق حكم به، وإن لم يظهر له فلا يترك القضية وإنما يرفعها إلى من هو فوقه لينظرها[7].

---

[1] فقه عمر بن عبد العزيز، د. محمد شقير (285/2).

[2] الطبقات الكبرى (369/5).

[3] المصدر السابق نفسه (369/5، 370).

[4] المصنف لعبد الزراق (299/8)؛ شذرات الذهب (120/1).

[5] المغني (3/9)؛ فقه عمر بن عبد العزيز (485/2).

[6] حاشية ابن عابدين (305/4)؛ روضة الطالبين (95/11 . 97)؛ جواهر الإكليل (221/2)؛ المغني (39/9 . 43، 50).

[7] فقه عمر بن عبد العزيز (487/2).

عن ميمون بن مهران: أنه كتب إلى عمر بن عبد العزيز يشكو شدة الحكم والجباية ـ وكان قاضي الجزيرة وعلى خراجها ـ قال: فكتب إليه عمر: إني لم أكلفك ما يُعنتك، أجب الطيب، واقضِ بما استبان لك من الحق، فإذا التبس عليك أمر فارفعه إليّ، فلو أن الناس إذا ثقل عليهم أمر تركوه، ما قام دين ولا دنيا[1].

وهذا الأثر يبين أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يجعل الناس في العلم ولا في الفهم سواء، بل هم درجات في ذلك، والذي يولى القضاء عليه أن يحكم بين الناس الذين ولي أمرهم، وذلك إذا ظهر له الحق، فإذا شق عليه أمر من هذه القضايا فعليه أن يستشير أهل العلم في بلاده، فإن لم يجد عندهم معرفة لهذا الأمر رفعه إلى من هو أعلم منه أو إلى ولي الأمر ليحوّل هذه القضية إلى غيره، أو ليحكم فيها إن كان من أهل العلم[2].

وكان عمر بن عبد العزيز له مجالس علمية يستشير فيها العلماء والفقهاء وأصحاب الرأي في أمور الدين والدنيا، وكان يقتطع من أوقات راحته في الليل، الذي أدرك عمر كم هو حيوي للتوصل إلى الحقائق، وقد أعرب عن إدراكه العميق لما يأتي عن التقاء الأفكار من نتائج فكرية إيجابية، عندما سأله رجاء بن حيوة: يا أمير المؤمنين نهارك كله مشغول، وهذا جزء من الليل وأنت تسمر معنا؟ فقال عمر: يا رجاء، إن ملاقاة الرجال تلقيح لألبابها، وإن المشورة والمناظرة باب رحمة ومفتاح بركة، لا يضل معهما رأي ولا يقعد معهما حزم[3]. وجدتُ ملاقاة الرجال تلقيح لألبابها[4].

3 ـ في الرفق بالحمقى والنهي عن العقوبة في الغضب:

كتب عمر بن عبد العزيز: من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى أمراء الأجناد. أما بعد.. فإذا حضرك الخصم الجاهل الخرق ممن قدر الله أن يوليك أمره، وأن تبتلى به، فرأيت منه سوء رِعة، وسوء سيرة في الحق عليه، والحظ له، فسدده ما استطعت، وبصِّره وارفق به وعلمه، فإن اهتدى وأبصر وعلم كانت نعمة من الله وفضلاً، وإن هو لم يبصر ولم يعلم كانت حجة اتخذت بها عليه، فإن رأيت أنه أتى ذنباً استحل فيه عقوبة فلا تعاقبه بغضب من نفسك، ولكن عاقبه وأنت تتحرى الحق على قدر ذنبه بالغاً ما بلغ، وإن لم يبلغ ذلك إلا قدر جلدة واحدة تجلده إياها، وإن كان ذنبه فوق ذلك، ورأيت عليه من العقوبة قتلاً فما دونه فأرجعه إلى السجن، ولا يسرعن بك إلى عقوبته حضور من يحضرك[5]. وكان عمر بن عبد العزيز إذا أراد أن يعاقب رجلاً حبسه ثلاثة أيام، ثم عاقبه كراهة أن يعجل في أول غضبه[6].

---

[1] الخراج، لأبي يوسف، ص 240، 241.

[2] فقه عمر بن عبد العزيز (488/2).

[3] ملامح الانقلاب الإسلامي، ص 186؛ عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، ص 124.

[4] ملامح الانقلاب الإسلامي، ص 186.

[5] سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، ص 68، 69.

[6] تاريخ الخلفاء، للسيوطي، ص 236.

إن العقوبة أثناء الغضب يحتمل أن يتجاوز القاضي فيها الحق تحت تأثير الغضب فيظلم المذنب، وخوفاً من التعدي في العقوبة فقد طلب عمر بن عبد العزيز من القاضي أن يحبس المذنب حتى يذهب غضب القاضي، ثم يحكم عليه وهو في هدوء على قدر ذنبه[1].

4 . خطأ الوالي في العفو خير من تعديه في العقوبة:

عن أبي عقبة: أن عمر بن عبد العزيز قال: ادرؤوا الحدود ما استطعتم في كل شبهة، فإن الوالي إذا أخطأ في العفو خير من أن يتعدى في العقوبة[2].

5 . في ترك العمل بالظن:

ولى عمر بن عبد العزيز الوليد بن هشام المعيطي على جند قنسرين، والفرات بن مسلم على خراجها، فتباغيا.. ولما قدم قابل، وقدم الوليد ومعه رؤوس أنباط قنسرين كتب عمر إلى الفرات أن اقدم، فقدم، وإنه لقاعد خلف سرير عمر، إذ دخل الأنباط فقال لهم عمر: ماذا أعددتم لأميركم في نُزله لمسيره إليّ. قالوا: وهل قدم يا أمير المؤمنين؟ قال: ما علمتم به؟ قالوا: لا والله يا أمير المؤمنين، فأقبل عمر بوجهه على الوليد، فقال: يا وليد: إن رجلاً ملك قنسرين وأرضها خرج يسير في سلطانه وأرضه حتى انتهى إليَّ لا يعلم به أحد، ولا ينفر أحداً ولا يروعه، لخليق أن يكون متواضعاً عفيفاً، قال الوليد: أجل والله يا أمير المؤمنين، إنه لعفيف وإني له لظالم، وأستغفر الله وأتوب إليه، فقال عمر: ما أحسن الاعتراف، وأبين فضله على الإصرار، وردهما عمر على عملهما.
فكتب إليه الوليد ـ وكان مرائياً ـ خديعة لعمر وتزيناً بما هو ليس عليه: إني قدرت نفقتي لشهر فوجدتها كذا وكذا درهماً، ورزقي يزيد على ما أحتاج إليه، فإن رأى أمير المؤمنين أن يحط فضل ذلك، فقال عمر: أراد الوليد أن يتزين عندنا بما لا أظنه عليه، ولو كنت عازلاً أحداً على ظن لعزلته، ثم أمر بحط رزقه الذي سأله، ثم أمر بالكتاب إلى يزيد بن عبد الملك وهو ولي عهده: إن الوليد بن هشام كتب إليَّ كتاباً ظني أنه تزين بما ليس هو عليه، ولو أمضيت شيئاً على ظني ما عمل لي أبداً، ولكني اخذ بالظاهر وعند الله علم الغيوب، فأنا أقسم عليك إن حدث بي حادث وأفضى هذا الأمر إليك فسألك أن ترد إليه رزقه وذكر أني نقضته فلا يظفر منك بهذا أبداً، فإنما خادع بالله والله خادعه، فلما مات عمر واستخلف يزيد كتب الوليد: إن عمر نقصني وظلمني، فغضب يزيد وبعث إليه فعزله، وأغرمه كل رزق جرى عليه في ولاية عمر ويزيد كلها، فلم يلِ له عملاً حتى هلك[3].

---

[1] فقه عمر بن عبد العزيز (490/2).
[2] سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص 123؛ فقه عمر بن عبد العزيز (491/2).
[3] سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص 129 . 131.

6 . في الهدية لولاة الأمر:

ذهب عمر بن عبد العزيز إلى اعتبار الهدية لولاة الأمر من خلفاء وولاة الأقاليم وقضاة وغيرهم رشوة، وقد رفض الهدية مع شدة حاجته إليها، وأمر الناس بعدم تقديم الهدايا لولاة الأمر، كما أمر الولاة بأن لا يقبلوا شيئاً من الهدايا[1]، عن فرات بن مسلم قال: اشتهى عمر بن عبد العزيز التفاح، فبعث فلم يجد شيئاً يشترون له به، فركب وركبنا معه، فمر بدير فتلقاه غلمان للديرانيين معهم أطباق فيها تفاح، فوقف على طبق منها فتناول تفاحة فشمها ثم أعادها إلى الطبق، ثم قال: ادخلوا ديركم لا أعلمكم بعثتم إلى أحد من أصحابي بشيء، قال: فحركت بغلتي فلحقته، فقلت: يا أمير المؤمنين، اشتهيت التفاح فلم يجدوه لك، فأُهدي لك فرددته! قال: لا حاجة لي فيه، فقلت: ألم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر يقبلون الهدية؟ قال: إنها لأولئك هدية، وهي للعمال بعدهم رشوة[2].

7 . في نقض الأحكام إذا خالفت النصوص الشرعية:

كتب عمر بن عبد العزيز برد أحكام من أحكام الحجاج مخالفة لأحكام الناس[3]. وقد وافق عمر بن عبد العزيز في رد الأحكام إذا خالفت كتاب الله أو سنة نبيه أو الإجماع، وذهب الأئمة الثلاثة مالك والشافعي وأحمد أنه ينقضي الحكم إذا خالف الكتاب والسنة أو الإجماع[4].

8 . في من ضيع أمانته فعليه اليمين بعدم التفريط:

كتب وهب بن منبه إلى عمر بن عبد العزيز: إني فقدت من بيت مال اليمن دنانير. فكتب إليه عمر: أما بعد فإني لست أتهم دينك ولا أمانتك، ولكن أتهم تضييعك وتفريطك، وإنما أنا حجيج المسلمين في مالهم، وإنما لا أشحهم يمينك[5]، فاحلف لهم، والسلام[6].

9 . في أثر البينة الغائبة على تأخير القضاء:

كان عند عمر بن عبد العزيز نفر من قريش يختصمون إليه، فقضى بينهم، فقال المقضي عليه: أصلحك الله! إن

---

[1] فقه عمر بن عبد العزيز (495/2).

[2] الطبقات الكبرى، لابن سعد (377/5).

[3] حلية الأولياء (270/5).

[4] فقه عمر بن عبد العزيز (499/2).

[5] أي: لابد من حلف اليمين بأنه لم يفرط، فإن حلف فلا ضمان عليه لأنه مؤتمن.

[6] سيرة عمر، لابن الجوزي، ص 104، 105.

لي بينة غائبة، فقال عمر: إني لا أؤخر القضاء بعد أن رأيت الحق لصاحبه، ولكن انطلق أنت؛ فإن أتيتني ببينة وحق هو أحق من حقهم، فأنا أول من رد قضاءه على نفسه[1].

10. نفقة البعير الضال:

عن الشعبي قال: أضل رجل بعيراً، فوجده عند رجل قد أنفق عليه، أعلفه وأسمنه، فاختصما إلى عمر بن عبد العزيز، وهو يومئذ أمير على المدينة، فقضى لصاحب البعير ببعيره وقضى عليه بالنفقة[2].

11. في حرية اللقيط:

جاء كتاب عمر بن عبد العزيز إلى أهل مكة: إن اللقيط حر[3].

12. شهادة الرجل لأخيه أو لأبيه:

إن عمر بن عبد العزيز كتب: أن أجزِ شهادة الرجل لأخيه إذا كان عدلاً[4].

ثانياً: في الدماء والقصاص:

1. تخيير الأولياء في قتل العهد بين العفو والدية والقتل:

كتب عمر بن عبد العزيز في امرأة قتلت رجلاً: إن أحب الأولياء أن يعفوا؛ فإن أحبوا أن يعفوا عفوا، وإن أحبوا أن يقتلوا قتلوا، وإن أحبوا أن يأخذوا الدية أخذوها وأعطوا امرأته ميراثها من الدية[5].

2. في التأني حتى يبلغ ولي المقتول:

كتب عمر بن عبد العزيز في رجل قُتل وله ولد صغير، فكتب أن يتأنى بالصغير حتى يبلغ[6].

3. في عفو بعض الأولياء يسقط القود:

عن الزهري قال: وكتب به عمر بن عبد العزيز أيضاً: إذا عفا أحدهم فالدية[7].

---

[1] الطبقات الكبرى (386/5).

[2] مصنف ابن أبي شيبة (312/6).

[3] المصدر السابق نفسه (531/6).

[4] المصدر السابق نفسه (342/8 . 343).

[5] المحلى (361/10)؛ فقه عمر بن عبد العزيز (11/2).

[6] مصنف عبد الرزاق (11/10).

[7] المصدر السابق نفسه (318/9).

4 . في القتل بعد أخذ الدية:

قال عمر بن عبد العزيز: والاعتداء الذي ذكر الله: أن الرجل يأخذ العقل، أو يقتص، أو يقضي السلطان فيما بين الجارح والمجروح، أو يعدو بعضهم بعد أن يستوعب حقه، فمن فعل ذلك فقد اعتدى والحكم فيه إلى السلطان بالذي يرى فيه من العقوبة، ولو عفا عنه لم يكن لأحد من طلبة الحق أن يعفو عنه بعد اعتدائه، إلا فإذن السلطان، وعلى تلك المنزلة كل شيء من هذا النحو، فإنه بلغنا أن هذا الأمر الذي أنزل الله فيه: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ}[النساء: 59]، وما كان من جرح فوق الأدنى ودون الأقصى فهو يرى فيه بحساب الدية[1].

5 . في القتيل يوجد في السوق:

كتب عدي بن أرطأة قاضي البصرة إلى عمر بن عبد العزيز: إني وجدت قتيلاً في سوق الجزارين، قال: أما القتيل فديته من بيت المال[2].

6 . في القتل في الزحام:

إذا قتل الإنسان بسبب ازدحام الناس ولم يعلم من قتله؛ فهل يذهب دمه هدراً؟ إن عمر بن عبد العزيز يرى أن من مات بهذا السبب فديته في بيت المال[3]. فعن عمر بن عبد العزيز: أنه كتب في رجلين ماتا في الزحام: أن يوديا من بيت المال، فإنما قتله يد أو رجل[4].

ثالثاً: في الديات:

1 . مقدار الدية:

كتب عمر بن عبد العزيز إلى أمراء الأجناد أن الدية كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مئة بعير[5].

2 . في دية اللسان:

عن سليمان بن موسى قال: في كتاب عمر بن عبد العزيز في الأجناد: ما قطع في اللسان، فبلغ أن يمنع الكلام كله، ففيه الدية كاملة، وما نقص دون ذلك فبحسابه[6].

---

(1) المصدر السابق نفسه (16/10، 17).

(2) المصدر السابق نفسه (459/9).

(3) فقه عمر بن عبد العزيز (36/2).

(4) المحلى (418/10).

(5) مصنف ابن أبي شيبة (128/9).

(6) المصنف لعبد الرزاق (357/9)؛ فقه عمر (66/2).

3. في دية الصوت والحنجرة:

حيث إن الصوت مصدره الحنجرة، وإن إتلافها قد يذهب بالصوت ومن ثم فلا كلام، فقد رأى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن فيها الدية كاملة إذا انقطع الصوت من ضربة[1]، عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: في الحنجرة إذا كسرت فانقطع الصوت الدية كاملة[2].

4 . في دية الذكر:

وأما الذكر فلأهميته للرجل ولأنه إذا ذهب انقطعت شهوته وذهب نسله، فقد رأى عمر بن عبد العزيز أنه إذا ذهب كله ففيه الدية كاملة، وما كان دون ذلك فبحسابه، فعن عمر بن عبد العزيز: في الذكر الدية، فما كان دون ذلك فبحسابه[3].

5 . في دية إفضاء المرأة:

إذا أصاب الرجل المرأة فأفضاها فقد ينتج عن ذلك منع اللذة والجماع، وقد نتج عنه حبس الحاجتين والولد، ونظراً لخطورة هذا الأمر فقد جعل فيه عمر بن عبد العزيز الدية كاملة، وفي رواية عنه: أنه جعل فيه ثلث الدية[4]، ويمكن الجمع بين الروايتين بأن عمر بن عبد العزيز يجعل في إفضاء المرأة الدية كاملة إذا حبس الحاجتين والولد، وثلث الدية إذا لم يحبس الحاجتين والولد[5].

6 . في دية الأنف:

نظراً للمصالح المترتبة على وجود الأنف من التنفس عن طريقه ومعرفة الروائح والتمييز بينها، إضافة إلى جمال الوجه بوجود الأنف، والتشويه الحاصل بقطعه، كما أن العرب ترى في جدع الأنف إهانة لا يعدلها إهانة، لذلك فقد جعل عمر بن عبد العزيز فيه الدية كاملة إذا جدع من أصله، وأن ما كان دون ذلك فبحسابه[6].

---

[1] فقه عمر بن عبد العزيز (69/2).

[2] مصنف ابن أبي شيبة (170/9)؛ فقه عمر (69/2).

[3] مصنف عبد الرزاق (372/9).

[4] فقه عمر بن عبد العزيز (77/2).

[5] مصنف عبد الرزاق (377/9).

[6] فقه عمر بن عبد العزيز (76/2).

7. في دية الأذن:

حيث إن الأذن تؤدي نصف منفعة السمع، ولأنها مما يكون في الإنسان منه اثنتان؛ فإن عمر بن عبد العزيز يرى إذا استؤصلت أو ذهبت منفعتها ففيها نصف الدية؛ حيث إن قوله: في الأذن نصف الدية، يتناول ذهاب سمعها ويتناول استئصالها[1].

8. في دية الرجل:

لما كان الإنسان لا يستطيع المشي إلا بالرجلين، وأنه بالرجل الواحدة يكون قعيداً، ولأن الرجل مما يكون في الإنسان منه اثنتان، فقد جعل عمر بن عبد العزيز في الرجل نصف الدية[2].

9. في دية ما بين الحاجبين:

هناك بعض الجزئيات في الديات لم يتعرض لها العلماء قبل عمر بن عبد العزيز، وهاهو عمر بن عبد العزيز يرى فيها رأيه، من هذه الأمور دية الكسر إذا وقع بين الحاجبين وشان الوجه ولم ينقل منها للعظام[3]، فقد قال:.. فإن كان بين الحاجبين كسر شان الوجه ولم ينقل منها للعظام فربع الدية[4].

10. في دية الجبهة إذا هشمت:

قال عمر بن عبد العزيز: في الجبهة إذا هشمت وفيها غوص من داخل مئة وخمسون ديناراً[5].

11. في دية الذقن:

وأما الذقن إذا كسرت فإن عمر بن عبد العزيز يرى أن فيها ثلث الدية، فقد قال: في الذقن ثلث الدية[6]. هكذا يقرر عمر بن عبد العزيز باجتهاده وبرأيه السديد أموراً لم يُسبق إليها؛ منها: دية الذقن إذا كسرت فإنه جعل فيها ثلث الدية نظراً لأهميتها؛ حيث يمتنع مع كسرها مضغ الطعام وفتح الفم. ويبدو أن هذا القول تفرد به[7].

---

[1] المصدر السابق نفسه (80/2).

[2] مصنف ابن أبي شيبة (2099).

[3] فقه عمر بن عبد العزيز (88/2).

[4] مصنف عبد الرزاق (320/9).

[5] المصدر السابق نفسه (291/9).

[6] مصنف عبد الرزاق (361/9)؛ مصنف ابن أبي شيبة (179/9).

[7] فقه عمر بن عبد العزيز (96/2).

12 . في دية الأصابع:

نظراً لأهمية الأصابع وخاصة أصابع اليد، فقد رأى عمر بن عبد العزيز أن في كل أصبع من أصابع اليد أو الرجل عشر الدية، وفي كل قصبة من قصب الأصابع ثلث دية الأصبع إلا الإبهام لأنه قصبتان ففي كل قصبة منه نصف دية الأصبع، فعن عمر بن عبد العزيز: في كل أصبع عشر من الإبل، أو عدل ذلك من ذهب أو ورق[1].

13 . في دية الظفر:

حتى الظفر لم يغفل عنه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه؛ فقد جعل فيه إذا اسود أو سقط عشر دية الأصبع عشرة دنانير، فعن عمر بن عبد العزيز: أنه اجتمع له في الظفر إذا نزع فعرّ[2]، أو سقط أو اسودَّ، العشر في دية الأصبع، عشرة دنانير[3].

رابعاً: في الحدود:

1 . أهمية إقامة الحدود:

حيث إن إقامة الحدود سبب في حفظ دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم، واستتباب الأمن في بلادهم، فقد أكد عمر بن عبد العزيز على إقامة الحدود حتى جعلها من حيث الأهمية كإقامة الصلاة والزكاة[4]، فقد كتب عمر بن عبد العزيز: إن إقامة الحدود عندي كإقامة الصلاة والزكاة[5].

2 . في منع الرجوع عن الحدود بعد بلوغها الإمام:

ذهب عمر بن عبد العزيز إلى مسائل الحدود إذا رفعت إلى الإمام أو القاضي؛ فإنها تكون قد بلغت حداً لا يمكن الرجوع فيه، بل يجب تنفيذ ما ثبت من الحدود[6].

3 . في اجتماع أكثر من حد على رجل واحد:

قد يأتي الرجل بعدة جرائم قبل أن يقام عليه الحد؛ مثل: أن يزني ويسرق ويقتل، فهل القتل كافٍ عن الحدود الأخرى فيأتي عليها؟ أم أنها تقام عليه الحدود ثم يقتل؟ إن الرواية عن عمر بن عبد العزيز تدل على أنه يقيم عليه الحدود أولاً ثم يقتله[7].

---

[1] المصدر السابق نفسه (100/2).
[2] المصدر السابق نفسه (102/2).
[3] المصدر السابق نفسه (103/2).
[4] المصدر السابق نفسه (111/2).
[5] الطبقات الكبرى (378/5).
[6] فقه عمر بن عبد العزيز (113/2).
[7] المصدر السابق نفسه (117/2).

4 . في عدم القطع أو الصلب إلا بعد مراجعة الخليفة:

رأى عمر بن عبد العزيز أن على الولاة مراجعة الخليفة في قضايا القتل والصلب، وأن لا يُقتل أحد ولا يُصلب إلا بعد موافقة الخليفة على ذلك[1].

5 . يشترط في المقذوف لحدِّه أن يكون مسلماً:

ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أنه لا حد في قذف كافر، وذلك لأن الكفر أكبر من الزنى المقذوف به، فلا حاجة إلى إثبات براءته من هذا الذنب ما دام فيه أكبر منه وهو الكفر[2]، فعن طارق بن عبد الرحمن ومطرف بن طريف قالا: كنا عند الشعبي، فرفع إليه رجلان، مسلم ونصراني، قذف كل واحد منهما صاحبه، فضرب النصراني للمسلم ثمانين، وقال للنصراني: لَمَا فيك أعظم من قذف هذا، فتركه، فرفع ذلك إلى عبد الحميد بن زيد، فكتب فيه إلى عمر بن عبد العزيز فذكر ما صنع الشعبي، فكتب عمر يحسِّن ما صنع الشعبي[3]. هكذا يرى عمر بن عبد العزيز: أنه لا حد على قذف الكافر إذ ليس بعد الكفر ذنب، ولأن الكافر فيه الكفر وهو أكبر مما قذف به، إذ لو وجد فيه الزنى فهو أقل من الكفر، إذن فلا حد على من قذف الكافر[4].

6 . عدم سقوط الحد بقذف الرجل ابنه:

إذا قذف الرجل ابنه، فهل يقام عليه الحد أم لا يقام؟ وهل من حق الأب على ابنه أن يقذفه بما ليس فيه؟ وإذا كان عليه حد؛ فهل يسقط عنه إذا عفا الابن؟ ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن من قذف ابنه يقام عليه الحد، إلا أنه إذا عفا الولد عن والده فلا يقام عليه الحد[5]، فعن ابن جريج قال: أخبرني رزيق ـ صاحب أيلة ـ أنه كتب إلى عمر بن عبد العزيز في رجل افترى على ابنه، فكتب بحد الأب إلا أن يعفو عنه ابنه[6].

7 . عقوبة قذف النصرانية تحت المسلم:

إذا كانت النصرانية تحت مسلم، ونظراً لأن قذفها يتعدى لزوجها المسلم أو ابنها المسلم؛ فإن عمر بن عبد العزيز يجلد من قذفها دون الحد[7]. فعن أبي إسحاق الشيباني عن عمر بن عبد العزيز في رجل قذف نصرانية لها ولد مسلم، فجلده عمر بضعة وثلاثين سوطاً[8]. وقد وافق عمر بن عبد العزيز في رأيه هذا الزهري، وقال قتادة: يجلد

---

(1) المصدر السابق نفسه (120/2)؛ سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص 114 . 115.

(2) فقه عمر بن عبد العزيز (130/2).

(3) المصنف، لعبد الرزاق (64/6 . 65)، (130/7 . 131).

(4) فقه عمر بن عبد العزيز (130/2).

(5) المصدر السابق نفسه (133/2).

(6) مصنف ابن أبي شيبة (504/9).

(7) فقه عمر بن عبد العزيز (136/2).

(8) مصنف عبد الرزاق (130/7).

الحد[1]. وقد اتفق أصحاب المذاهب الأربعة على أنه لا يحد، وأما المالكية فقالوا: ينكل به من أجل أولادها المسلمين[2].

8 . قذف المرأة للرجل بنفسها:

عن عمر بن عبد العزيز: أنه أتته امرأة فقالت: إن فلاناً استكرهني على نفسي، فقال: هل سمعك أحد أو راك؟ قالت: لا، فجلدها بالرجل[3]. هذه مسألة لا تتناول عقوبة الزنى، وإنما هي خاصة بالقذف، فالمرأة التي تدَّعي على الرجل أنه استكرهها على الزنى، هي بكلامها هذا تعتبر قاذفة له بنفسها، وعليها حد القذف إلا أن تأتي ببينة تدرأ عنها هذا الحد، فسماع صياح المرأة هو عند عمر بن عبد العزيز يعفيها من حد القذف، أو أن يكون أحد رآها، وقد وافق عمر بن عبد العزيز في جلدها إن لم يكن لها بينة وافقه، الزهري وقتادة وربيعة ويحيى بن سعيد الأنصاري[4].

9 . قطع السارق قبل خروجه بسرقته:

ذهب عمر بن عبد العزيز بأنه لا قطع على السارق حتى يخرج بسرقته، فعن عمر بن عبد العزيز قال: لا يقطع حتى يخرج بالمتاع من البيت[5].

10 . النباش سارق يستحق القطع:

إن من الناس من يأتي أموراً تشمئز منها النفوس، حتى الميت في قبره لم يسلم من بعض المنحرفين، فهناك سارق يحفر القبر ويأخذ أكفان الميت، وهذا عمر بن عبد العزيز يرى أن النباش سارق يستحق القطع، لأن من سرق من الأموات كمن سرق من الأحياء[6]، فعن معمر قال: بلغني أن عمر بن عبد العزيز قطع نباشاً[7].

11 . عقوبة شرب الخمر للمرّة الثانية:

عن عبادة بن نسي قال: شهدت عمر بن عبد العزيز يضرب رجلاً حداً في خمر، فخلع ثيابه ثم ضربه ثمانين رأيت منها ما بضع ومنها ما لم يبضع، ثم قال: إنك إن عدت الثانية ضربتك ثم ألزمتك الحبس حتى تُحدث خيراً. قال: يا أمير المؤمنين! أتوب إلى الله أن أعود في هذا أبداً، فتركه عمر[8].

---

[1] المصدر السابق نفسه (7/129 . 130).
[2] المغني (8/216)؛ فقه عمر (2/140).
[3] فقه عمر بن عبد العزيز (2/140).
[4] المحلى (11/291 . 292).
[5] فقه عمر بن عبد العزيز (2/146).
[6] المصدر السابق نفسه (2/147).
[7] مصنف ابن أبي شيبة (10/34).
[8] الطبقات الكبرى (5/365)؛ فقه عمر (2/157).

12 . عقوبة ساقي الخمر:

إن من يوفِّر الخمر أو يقدمها لمن يشربها ينبغي أن لا تقل عقوبته عن شاربها؛ لأنه تسبب في إيصالها لمن يشربها، ولذلك فقد جلد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ساقي الشراب مع الذين يشربون[1]، فعن ابن التميمي: أن عمر بن عبد العزيز وجد قوماً على شراب، ووجد معهم ساقياً، فضربه معهم[2].

13 . إتلاف أواني الخمر مع الخمر:

عن هارون بن محمد عن أبيه قال: رأيت عمر بن عبد العزيز بخناصرة يأمر بزقاق الخمر أن تشقق وبالقوارير أن تكسر[3].

14 . إدخال الكفار الخمر إلى بلاد المسلمين:

إذا كان الكفار يعتقدون حل الخمر ويشربونها في بلادهم، فإذا جاؤوا إلى بلاد المسلمين ومعهم الخمر؛ فهل يسمح لهم بدخولها معهم؟ أو يسمح بتوفيرها لهم ليشربوها في بلاد المسلمين؟ إن على الكفار في بلاد المسلمين أن يصبروا عن الخمر ما داموا يرغبون في العيش في بلاد المسلمين، وإذا كان لكل دولة نظمها والداخل إليها يجب أن يراعيها، ولأن هذا نظام دولة الإسلام وهو أيضاً نظام رب العالمين فهو أحق بالرعاية والالتزام، ومن هذا المنطلق نجد عمر بن عبد العزيز يمنع أهل الذمة من إدخال الخمر معهم إلى بلاد المسلمين؛ فقد كتب عمر في خلافته: أن لا يدخل أهل الذمة بالخمر أمصار المسلمين، فكانوا لا يدخلونها[4].

15 . في عقوبة الساحر:

عن همام عن يحيى: أن عامل عُمان كتب إلى عمر بن عبد العزيز في ساحرة أخذها، فكتب إليه عمر: إن اعترفت أو قامت عليها البينة فاقتلها[5]. وهذا مذهب الأئمة الثلاثة: أبي حنيفة ومالك وأحمد[6]، وقد كتب عمر بن الخطاب في خلافته إلى الولاة أن اقتلوا كل ساحر وساحرة[7].

16 . استتابة المرتد:

---

(1) فقه عمر بن عبد العزيز (159/2).

(2) المصنف لعبد الرزاق (230/9).

(3) الطبقات الكبرى، لابن سعد (365/5).

(4) فقه عمر بن عبد العزيز (164/2).

(5) مصنف ابن أبي شيبة (135/10).

(6) حاشية ابن عابدين (31/1)؛ المغني (153/8)؛ فقه عمر بن عبد العزيز (176/2).

(7) مصنف ابن أبي شيبة (136/10).

المسلمون لا يكرهون أحداً على الإسلام، ولكنهم أيضاً لا يقبلون التلاعب بالدين، فمن دخل في دين الإسلام طائعاً مختاراً، أو ولد في الإسلام ثم كفر بعد إيمانه، فإن عمر بن عبد العزيز يرى أن يستتاب ويدعى إلى الإسلام ثلاثة أيام، فإن تاب ورجع إلى الإسلام قبل منه، فإن أبى ضربت عنقه[1].

17 . طريقة استتابة المرتد:

عن عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن أبيه، قال: كنت عاملاً لعمر بن عبد العزيز، فكتبت إليه أن رجلاً كان يهودياً فأسلم، ثم تهوَّد فرجع عن الإسلام، فكتب إليَّ عمر: أن ادعه إلى الإسلام، فإن أسلم فخل سبيله وإن أبى فادع بالخشبة فأضجعه عليها، ثم ادعه، فإن أبى فأوثقه ثم ضع الحربة على قلبه ثم ادعه، فإن رجع فخلِّ سبيله وإن أبى فاقتله. قال: ففعل ذلك به حتى وضع الحربة على قلبه، فأسلم فخلى سبيله[2]. قال الدكتور محمد شقير: لم أر قولاً لغير عمر بن عبد العزيز بهذا التفصيل، وذهب الأئمة الأربعة إلى أن المرتد يقتل بعد استتابته إذا لم يرجع إلى الإسلام[3].

18 . عقوبة المرتدة:

رأى عمر بن عبد العزيز أن تستتاب المرتدة، فإن تابت وإلا تسترق وتباع على غير أهل دينها[4]. وهذا رأي قتادة قال: تُسبى وتباع، وكذلك فعل أبو بكر بنساء أهل الردة[5]، وروي عن الحسن قال: لا تقتلوا النساء إذا هنّ ارتددن عن الإسلام، ولكن يدعين إلى الإسلام، فإن هن أبين سبين فيجعلن إماء المسلمين ولا يقتلن[6].

خامساً: في التعزيرات:

1 . في الحد الأقصى للضرب تعزيراً:

العقوبة بالجلد تنقسم إلى قسمين: حد وتعزير، فالحد قد نص الشارع الحكيم عليه، فمقداره محدد، لا مجال لأحد أن يزيد عليه أو ينقص منه، وأما الجلد تعزيراً فهو عقوبة لإتيان أمر لا حد فيه، أو أي جناية لا حد فيها فهو متروك للحاكم ليحدد مقداره حسب ما يرى، إلا أن عمر بن عبد العزيز جعل لذلك حداً أقصى لا تجوز الزيادة عليه على قولين[7]:

---

[1] الطبقات الكبرى، لابن سعد (351/5)؛ مصنف عبد الرزاق (171/10).
[2] مصنف ابن أبي شيبة (274/12).
[3] روضة الطالبين (75/10)؛ حاشية ابن عابدين (289/3).
[4] فقه عمر بن عبد العزيز (181/2).
[5] مصنف عبد الرزاق (176/10).
[6] مصنف ابن أبي شيبة (140/10).
[7] فقه عمر بن عبد العزيز (188/2).

الأول: لا تجوز الزيادة على ثلاثين جلدة، فعن محمد بن قيس: أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله بمصر: لا تبلغ العقوبة أكثر من ثلاثين سوطاً إلا في حد من حدود الله[1].

وفي القول الثاني: لا يبلغ بالجلد تعزيراً أقل الحدود؛ فعلى هذه الرواية لا يزاد للحر عن تسع وثلاثين جلدة، ولا يزاد للعبد على تسع عشرة جلدة، لأن العشرين للعبد والأربعين للحر هي أقل الحدود[2]. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: أن عاقبوا الناس على قدر ذنوبهم، وإن بلغ ذلك سوطاً واحداً، وإياكم أن تبلغوا بأحد حداً من حدود الله[3].

2 ـ النهي عن أخذ الناس بالمظنة وضربهم على التهمة:

ذهب عمر بن عبد العزيز إلى عدم جواز الأخذ بالظن أو الضرب على التهمة، فهو يقرر بهذا مبدأ العدالة وترجيح التحقيق العادل على التحقيق الحازم، وذلك خوفاً من أن يظلم بريء، فقد فضل عمر بن عبد العزيز أن يلقوا الله بخيانتهم على أن يلقى الله بدمائهم[4].

عن إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني قال: حدثني أبي عن جدي، قال: لما ولاني عمر بن عبد العزيز الموصل، قدمتها فوجدتها من أكبر البلاد سرقاً ونقباً[5]، فكتبت إلى عمر أعلمه حال البلد، وأسأله أخذ الناس بالمظنة وأضربهم على التهمة، أو أخذهم بالبينة وما جرت عليه عادة الناس، فكتب إليَّ أن اخذ الناس بالبينة وما جرت عليه السنة، فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله، قال يحيى: ففعلت ذلك، فما خرجت من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد وأقلها سرقاً ونقباً[6].

وكتب عدي بن أرطأة إلى عمر بن عبد العزيز:.... أما بعد، أصلح الله أمير المؤمنين، فإن قبلي أناساً من العمال قد اقتطعوا من مال الله عز وجل، مالاً عظيماً لست أرجو استخراجه من أيديهم إلا أن أمسهم بشيء من العذاب، فإن رأى أمير المؤمنين ـ أصلحه الله ـ أن يأذن لي في ذلك أفعل. قال: فأجابه: أما بعد؛ فالعجب كل العجب من استئذانك إياي في عذاب بشر كأني لك جنة من عذاب، وكأن رضائي عنك ينجيك من سخط الله عز وجل، فانظر من قامت عليه بينة عدول فخذه بما قامت عليه البينة، ومن أقر لك بشيء فخذه بما أقرَّ به، ومن أنكر فاستحلفه بالله العظيم، وخل سبيله، وايم الله، لأن يلقوا الله عز وجل بخيانتهم أحب إليَّ من أن ألقى الله بدمائهم[7].

---

[1] الطبقات الكبرى، لابن سعد (365/5).

[2] فقه عمر بن عبد العزيز (189/2).

[3] سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص (117).

[4] فقه عمر بن عبد العزيز (212/2).

[5] النقب: التعب في أي شيء كان.

[6] حلية الأولياء (271/5)؛ وسيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص (117 ـ 118).

[7] سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، ص (55).

وهكذا يقرر عمر بن عبد العزيز الأخذ بالتحقيق العادل لا بالتحقيق الحازم. وقد قال بعدم الأخذ بالمظنة والضرب على التهمة كل من عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعطاء[1].

3 . النهي عن المثلة:

حلق الرأس جعله الله نسكاً وسنة ـ في الحج والعمرة ـ كما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن حلق اللحية، ولكن بعض الناس خالفوا ذلك كله وجعلوا حلق الرأس واللحية عقوبة، وهذا عمر بن عبد العزيز ينهى عن هذا العمل ويسميه المثلة[2]. فقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامل له: إياك والمثلة: جز الرأس واللحية[3]. ومذهب الأئمة الأربعة: أن لا يجوز التعزير بحلق اللحية، وعند مالك وأبي حنيفة: ولا يحلق الرأس[4].

سادساً: في أحكام السجناء:

1 . تعجيل النظر في أمر المتهمين:

أمر عمر بن عبد العزيز بتعجيل النظر في أمور المتهمين، فمن كان عليه أدب فيؤدب ويطلق سراحه، ومن لم يثبت عليه قضية يخلى سبيله، ويرى أن إقامة الحدود سبب لقلة السجناء؛ لأنه يكون زاجراً لأهل الفسق والزعارة[5]، فعن جعفر بن برقان قال: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز: .... فلو أمرت بإقامة الحدود لقلَّ أهل الحبس، ولخاف أهل الفسق والزعارة، ولتناهوا عما هم عليه، إنما يكثر أهل الحبس لقلة النظر في أمورهم، إنما هو حبس وليس نظر، فمر ولاتك جميعاً بالنظر في أمر أهل الحبوس في كل الأيام، فمن كان عليه أُدِّبَ وأطلق، ومن لم تكن له قضية خلي عنه[6].

2 . في الاهتمام بأمور المسجونين:

قام عمر بن عبد العزيز رحمه الله بالإصلاح على كل طريق، وحقق العدل على كل صعيد، فقد اهتم بأمر المسجونين اهتماماً شديداً، وأصدر تعليماته بتعهدهم بكل ما يحتاجون من طعام وأدم وكسوة وغير ذلك[7]، وعن جعفر بن

---

(1) مصنف عبد الرزاق (217/10 ـ 219)؛ فقه عمر (2ـ 213).

(2) فقه عمر بن عبد العزيز (215/2).

(3) الطبقات الكبرى (380/5).

(4) مغني المحتاج (192/4)؛ جواهر الإكليل (225/2).

(5) فقه عمر بن عبد العزيز (225/2).

(6) الخراج لأبي يوسف، ص (301)؛ فقه عمر بن عبد العزيز (225/2).

(7) فقه عمر بن عبد العزيز (226/2).

برقان قال: كتب عمر بن عبد العزيز: ... وأجروا عليهم من الصدقة ما يصلحهم في طعامهم وأدمهم...فمر بالتقدير لهم ما يقوتهم في طعامهم وأدمهم، وصير ذلك دراهم تجري عليهم في كل شهر يدفع ذلك إليهم، فإنك إن أجريت عليهم الخبز ذهب به ولاة السجن والقوام والجلاوزة[1]، ووِلِّ ذلك رجلاً من أهل الخير والصلاح، ويدفع ذلك إليهم شهراً بشهر، يقعد ويدعو باسم رجل رجل، ويدفع ذلك إليه في يده... وكسوتهم في الشتاء قميص وكساء، وفي الصيف قميص وإزار، وتزاد المرأة مقنعة... ومن مات منهم ولم يكن له ولي ولا قرابة؛ يغسل ويكفن من بيت المال ويصلى عليه ويدفن[2].

وكتب إلى أمراء الأجناد: وانظروا من في السجون ممن قام عليه الحق... ولا تعد في العقوبة، ويعاهد مريضهم ممن لا أحد له ولا مال....وانظر من تجعل على حبسك ممن تثق به ومن لا يرتشي، فإن من ارتشى صنع ما أمر به[3].

3 . سجن خاص بالنساء:

يمضي عمر بن عبد العزيز قدماً في تنظيم السجون والاهتمام بأمر المسجونين وتعاهدهم، فيأمر بأن يجعل للنساء حبس خاص بعيداً عن الاختلاط بالرجال، مما يؤكد على اختيار أهل الدين والأمانة، ليتولوا أمور السجناء[4].

فقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى أمراء الأجناد: وانظروا من في السجون ممن قام عليه الحق فلا تحبسه حتى تقيم عليه، ومن أشكل أمره اكتب إلي فيه، واستوثق من أهل الزعارات؛ فإن الحبس لهم نكال، ولا تعد في العقوبة، ويعاهد مريضهم ممن لا أحد له ولا مال، وإذا حبست قوماً في دين فلا تجمع بينهم وبين أهل الزعارات في بيت واحد ولا حبس واحد، واجعل للنساء حبساً على حدة، وانظر من تجعل على حبسك ممن تثق به ومن لا يرتشي؛ فإن من ارتشى صنع ما أمر به[5].

ومما سبق نلاحظ اهتمام عمر بن عبد العزيز بالسجناء، وحرصه على إقامة العدل فيهم، وإصلاح ما أفسده من قبله في التعامل معهم.

سابعاً: في أحكام الجهاد:

1 . سِنُّ من يشرع له الاشتراك في القتال:

---

[1] الجلاوزة: جمع جلاوز، وهو الشرطي.

[2] الخراج، لأبي يوسف، ص (300 . 301).

[3] الطبقات الكبرى، لابن سعد (5 / 356).

[4] فقه عمر بن عبد العزيز (228/2).

[5] الطبقات الكبرى (5 / 356)؛ فقه عمر (228/2).

كان شباب الرعيل الأول من المسلمين يتسابقون ويتنافسون على الاشتراك في القتال، وإذا لم يسمح لأحدهم بالاشتراك في القتال فإنه يتحسر ويحاول إقناع ولي الأمر بأنه يستطيع القتال، وقد حدد عمر بن عبد العزيز سن من يسمح له بالقتال، والفرض له مع المقاتلة، حدده بخمس عشرة سنة، ومن كان دون ذلك فيكون فرضه في الذرية ولا يسمح له بالاشتراك في القتال[1].

2. كيفية بداية قتال غير المسلمين:

عن صفوان بن عمرو قال: جاءنا كتاب عمر بن عبد العزيز وهو خليفة إلى عامله: أن لا تقاتلن حصناً من حصون الروم ولا جماعة من جماعتهم حتى تدعوهم إلى الإسلام، فإن قبلوا فاكفف عنهم، وإن أبوا فالجزية، فإن أبوا فانبذ إليهم على سواء[2].

3. في مدة الرباط:

الرباط في سبيل الله من أحب الأعمال إلى الله تعالى، ويترتب عليه الأجر الوفير من الله سبحانه وتعالى، وقد ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن مدة الرباط أربعون يوماً، فقد قال: تمام الرباط أربعون يوماً[3].

4. في حكم تصرف المقاتل في ماله:

قال عمر بن عبد العزيز: إذا كان الرجل في الحرب على ظهر فرسه يقاتل، فما صنع في ماله فهو جائز[4].

5. في بيع الخيل للعدو:

بيع السلاح ونقله أو الخيل أو ما يقوي الأعداء ويشد من أزرهم ويقويهم على حرب المسلمين، جريمة في حق من يفعله، وينبغي حجز هذه الأشياء وما في حكمها حتى لا تصل إلى العدو، ومن هذا المنطلق منع عمر بن عبد العزيز حمل الخيل إلى الهند باعتبارها بلد من بلدان المشركين في زمن عمر بن عبد العزيز، والعداوة لا تخفى بين أهل الإسلام وأهل الشرك[5].

6. افتداء أسارى المسلمين ولو كثر الثمن:

أكد عمر بن عبد العزيز على وجوب فك أسارى المسلمين في رسائله إلى عماله، بأن يفادوهم مهما بلغ ذلك من المال، فقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله: أن فادِ بأسارى المسلمين وإن أحاط ذلك بجميع مالهم[6]،

---

[1] فقه عمر، د. شقير (415/2).

[2] الطبقات الكبرى (355/5).

[3] المصدر السابق نفسه؛ فقه عمر بن عبد العزيز (424/2).

[4] الطبقات الكبرى، لابن سعد (352/5).

[5] فقه عمر بن عبد العزيز (427/2).

[6] حلية الأولياء (311/5 . 312).

وعن ربيعة بن عطاء عن عمر بن عبد العزيز: أنه أعطى برجل من المسلمين عشرة من الروم، وأخذ المسلم[1]. وفي رواية: أن فادوا بأسارى المسلمين وإن أحاط ذلك بجميع مالهم[2].

7 . افتداء الرجل والمرأة والعبد والذمي:

عن ربيعة بن عطاء قال: كتب عمر بن عبد العزيز معي وبعث بمال إلى ساحل عدن: أن افتدِ الرجل والمرأة والعبد والذمي[3].

مما تقدم يظهر عدل عمر بن عبد العزيز جلياً؛ حيث أمر بافتداء من يعيش على أرض المسلمين حتى ولو كان عبداً أو ذمياً؛ لأن الذمي له أن يحفظ ويدافع عنه ويفتدى لو وقع في الأسر، وهذا أكبر دليل على وفاء المسلمين بذمتهم إلى أبعد مما يتصوره أحد[4].

8 . كراهة قتل الأسرى:

عن معمر قال: أخبرني رجل من أهل الشام ممن كان يحرس عمر بن عبد العزيز: ما رأيت عمر بن عبد العزيز قتل أسيراً قط، إلا واحداً من الترك قال: جيء بأسرى من الترك، قال: فأمر بهم أن يسترقوا، فقال رجل ممن جاء بهم: يا أمير المؤمنين لو كنت رأيت هذا ـ لأحدهم ـ وهو يقتل في المسلمين لكثر بكاؤك عليهم. قال: فدونك فاقتله، قال: فقام إليه فقتله[5].

لقد كره عمر بن عبد العزيز قتل الأسرى، ومنع ذلك، إلا واحداً قتل كثيراً من المسلمين، ولكنه أذن في أن يسترقوا[6].

ثامناً: في النكاح والطلاق:

1 . زواج المرأة بغير ولي:

عن سفيان، عن رجل من أهل الجزيرة، عن عمر بن عبد العزيز: أن رجلاً تزوج امرأة ولها ولي هو أدنى منه بدروب الروم، فرد عمر النكاح، وقال: الولي وإلا فالسلطان[7].

---

[1] الطبقات الكبرى، لابن سعد (354/5).
[2] سيرة عمر، لابن الجوزي، ص (120).
[3] الطبقات الكبرى (353/5).
[4] فقه عمر بن عبد العزيز (436/2).
[5] مصنف عبد الرزاق (205/5 ـ 206).
[6] فقه عمر بن عبد العزيز (438/2).
[7] مصنف ابن أبي شيبة (132/4)؛ فقه عمر بن عبد العزيز (405/1).

2 . تزويج الوليين للمرأة على رجلين:

عن ثابت بن قيس الغفاري قال: كتبت إلى عمر بن عبد العزيز في جارية من جهينة؛ زوَّجها وليها رجلاً من قيس، وزوجها اخر رجلاً من جهينة، فكتب عمر بن عبد العزيز: أن أدخل عليها شهوداً عدولاً، وخيرها، فأيهما اختارت فهو زوجها.

3 . زواج الرجل بالمرأة بعد الفجور بها:

إذا زنى رجل بامرأة، ثم بدا له أن يتزوجها؛ فهل يحل له ذلك؟ ذهب عمر بن عبد العزيز إلى جواز ذلك إذا رأى منها خيراً، وهذا رأي رشيد لأنه يسد كثيراً من أبواب الشر؛ لأنه لا فرق بين من فجر بها ومن لم يفجر بها، فلو قلنا: لا يجوز ذلك، فغير هذا الرجل أولى بأن لا يقبلها، وفي هذا شرور ومفاسد عظيمة[1]، عن يحيى بن سعيد قال: بلغني أن عمر بن عبد العزيز سئل عن امرأة أصابت خطيئة، ثم رأى منها خيراً، أينكحها الرجل؟ فقال له: الظن كما بلغني، أي: إنها له[2].

4 . نكاح امرأة الأسير:

عن عمر بن عبد العزيز قال: لا تنكح امرأة الأسير أبداً ما دام أسيراً[3]. فالأسير المسلم إنما وقع في الأسر نتيجة لإقدامه وبلائه في قتال الأعداء رفعاً لراية الإسلام، أو دفاعاً عن بلاد المسلمين، وتقديراً لهذا الموقف النبيل حيث ضحى بنفسه في سبيل دينه، فإن على امرأته أن تقدر له ذلك، وأن تصبر حتى يفك الله أسره ثم يعود إليها، خاصة وأن بقاءه في الأسر وغيبته هذه ليست من اختياره، كما أن إطلاق سراحه محتمل في كل وقت، ولذلك كله كان من العدل والإنصاف أن لا تتزوج امرأة الأسير ما دام أسيراً[4].

5 . نكاح امرأة المفقود:

إذا فقد الرجل وانقطعت أخباره، فلا يدرى أحي هو أم ميت؛ فهل تبقى زوجته تنتظره؟ وما مدة الانتظار؟ ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن امرأة المفقود تعتد أربع سنين وبعدها تتزوج[5]، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن

---

[1] فقه عمر بن عبد العزيز (412/1).

[2] مصنف ابن أبي شيبة (250/4)؛ فقه عمر (412/1).

[3] الطبقات الكبرى، لابن سعد (351/5).

[4] فقه عمر بن عبد العزيز (417/1).

[5] المصدر السابق نفسه (418/1).

أرطأة: أن امرأة المفقود تعتد أربع سنين[1]، والظاهر أن عمر بن عبد العزيز يرى جواز زواج امرأة المفقود بعد مضي السنين الأربع، والعدة بعدها أربعة أشهر وعشراً[2].

6 . صداق المطلقة قبل الدخول بها في مرض زوجها:

ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن لها نصف المهر، فلا تأثير لتطليق زوجها في حال المرض[3]، فعن عمر بن عبد العزيز قال: لها نصف الصداق ولا ميراث لها ولا عدة عليها[4].

7 . اشتراط الرجل لنفسه شيئاً عند زواج ابنته:

ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن المهر للمرأة، وإن اشترط والدها شيئاً لنفسه فهو للمرأة دون الأب[5]، وعن الأوزاعي: أن رجلاً زوج ابنته على ألف دينار، وشرط لنفسه ألف دينار، فقضى عمر بن عبد العزيز للمرأة بألفي دينار دون الأب[6].

8 . في اللعب بالطلاق جد:

يرى عمر بن عبد العزيز: أن الرجل يحاسب على الطلاق سواء كان جاداً أو هازلاً، فعن سليمان بن حبيب المحاربي قال: كتب إليّ عمر بن عبد العزيز: مهما أقلت السفهاء عن شيء، فلا تقيلوهم الطلاق والعتاق[7].

9 . في طلاق المكره:

قد يحصل للإنسان بعض مواقف يكره فيها على الطلاق كأن يستحلف بالطلاق على أن يفعل كذا أو يترك كذا، وقد يكره ويهدد إذا لم يطلق امرأته، فهل هذا النوع من الطلاق على هذه الصفة يقع؟ ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن طلاق المكره لا يقع[8]، عن عمر بن عبد العزيز قال: لا طلاق ولا عتاق على مكره[9].

10 . في تطليق الرجل نصف تطليقة:

قيل لعمر بن عبد العزيز: الرجل يطلق امرأته نصف تطليقة، قال: هو تطليقة[10].

---

[1] المحلى (138/10).

[2] فقه عمر بن عبد العزيز (418/1).

[3] المصدر السابق نفسه (423/1).

[4] مصنف ابن أبي شيبة (331/4 . 332).

[5] فقه عمر بن عبد العزيز (425/1).

[6] مصنف ابن أبي شيبة (201/4).

[7] المصدر السابق نفسه (106/5).

[8] فقه عمر بن عبد العزيز (434/1).

[9] مصنف ابن أبي شيبة (49/5).

[10] مصنف ابن أبي شيبة (53/5)؛ فقه عمر بن عبد العزيز (441/1).

11 . تطليق المرأة نفسها إذا جعل أمرها بيدها:

ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن الطلاق يقع، وأن هذا الطلاق وإن كان ثلاثاً يعتبر واحدة، وهو أحق بها إن أراد مراجعتها، فقد كتب عمر بن عبد العزيز في رجل من بني تميم جعل أمر امرأته بيدها، قال: إن ردت الأمر عليه فلا شيء، وإن طلقت نفسها فهي واحدة وهو أحق بها[1]

12 . إسلام المرأة تحت الكافر:

إذا أسلمت المرأة تحت الرجل الكافر فإنها تخرج منه، ويفرق بينهما، فعن معمر بن سليمان عن أبيه: أن الحسن وعمر بن عبد العزيز قالا في النصرانية تسلم تحت زوجها، قالا: الإسلام أخرجها منه[2]. فمتى أسلمت المرأة وبقي الرجل على الكفر فلابد من التفريق بينهما، حتى لا تكون للكافر ولاية على مسلمة، لأن هذا غير مقبول في شرع الله، فعن عمر بن عبد العزيز يرى أنه إذا أسلمت المرأة تحت الرجل الكافر؛ فإنها تخرج منه ويفرق بينهما[3]، وهذا التفريق لا يأتي إلا بعد عرض الإسلام عليه، فإن أسلم فهي امرأته وإن أبى فإن عمر بن عبد العزيز يرى أن ذلك تطليقة بائنة[4]. وأما إذا أسلم ولا زالت امرأته في العدة فهو أحق بها[5].

13 . مدة انتظار الغائب:

ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن هناك حداً أقصى لمدة الغيبة وهو سنتان، وبعدها إما أن يقفل الغائب إلى زوجته، وإما أن يطلقها، فقد كتب: من غاب عن امرأته سنتين فليطلق أو ليقفل[6] إليها[7]. هذه بعض الاجتهادات الفقهية والفتاوى والأحكام القضائية التي مارسها عمر بن عبد العزيز والتي تدل على تبحره في المسائل الشرعية وقدرته على الاجتهاد وإصدار الأحكام من كتاب الله وسنة رسوله ومن سبقه من الخلفاء الراشدين وعلماء الأمة، وقد قام الدكتور محمد شقير بجمع فقه عمر بن عبد العزيز، في مجلدين؛ فمن أراد التوسع فليرجع إلى هذه الرسالة العلمية التي نال بها صاحبها درجة الدكتوراه من المعهد العالي للقضاء بالرياض في المملكة العربية السعودية.

---

(1) مصنف ابن أبي شيبة (57/5).

(2) المصدر السابق نفسه (90/5)؛ فقه عمر بن عبد العزيز (450/1).

(3) المصدر السابق نفسه (451/1).

(4) المصدر السابق نفسه (452/1).

(5) المصدر السابق نفسه.

(6) المصدر السابق نفسه (455/1).

(7) المصدر السابق نفسه.

* * *

المبحث الثامن

الفقه الإداري عند عمر بن عبد العزيز وأيامه الأخيرة ووفاته رحمه الله

أولاً: أشهر ولاة عمر بن عبد العزيز:

اختار عمر لسياسة الرعية وأعمال الحق بين الناس الولاة الثقات الخيرين الأبرار ممن اشتهروا بالأمانة والعلم والقوة والتواضع وعفة النفس، والعدالة، وحسن الخلق والرحمة والقدوة الحسنة ومشاورة الآخرين والنصح وعدم الأنانية والكفاءة والذكاء و الحكمة، وقد قال ابن كثير في ولاة عمر بن عبد العزيز: وقد صرَّح كثير من الأئمة بأن كل من استعمله عمر بن عبد العزيز ثقة[1]. ومن هؤلاء:

1 . الجراح بن عبد الله الحكمي (ولي خراسان وسجستان):

قال عنه الذهبي: مقدم الجيوش، فارس الكتائب، أبو عقبة الجراح بن عبد الله الحكمي ولي البصرة من جهة الحجاج، ثم ولي خراسان وسجستان لعمر بن عبد العزيز وكان بطلاً شجاعاً مهيباً، عابداً، قارئاً، كبير القدر[2]. قال الجراح الحكمي: تركت الذنوب حياءً أربعين سنة، ثم أدركني الورع[3]. كان على خراسان كلها حربها وصلاتها ومالها[4]. قتل عام 112 هـ في خلافة هشام، فعن سليم بن عامر: دخلت على الجراح فرفع يديه، فرفع الأمراء أيديهم، فمكث طويلاً، ثم قال لي: يا أبا يحيى، هل تدري ما كنا فيه؟ قلت: لا، وجدتكم في رغبة فرفعت يدي معكم، قال: سألنا الله الشهادة، فوالله ما بقي منهم أحد في تلك الغزاة حتى استشهد[5]. قال خليفة: زحف الجراح من برذعة[6] سنة اثنتي عشر إلى ابن خاقا، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فقتل الجراح في رمضان، وغلبت الخزر على أذربيجان وبلغوا إلى قريب الموصل[7]، وكان البلاء بمقتل الجراح على المسلمين عظيماً، بكوا عليه في كل جند[8].

---

[1] البداية والنهاية؛ نقلاً عن عمر بن عبد العزيز، عبد الستار، ص 270.

[2] سير أعلام النبلاء (189/5).

[3] المصدر السابق نفسه (190/5).

[4] المصدر السابق نفسه.

[5] المصدر السابق نفسه.

[6] برذعة: قصبة أذربيجان.

[7] سير أعلام النبلاء (190/5).

[8] المصدر السابق نفسه.

2. عدي بن أرطأة الفزاري (والي البصرة):

كان أمير البصرة لعمر بن عبد العزيز، حدَّث عن عمرو بن عبسة وأبي أمامة، قال عباد بن منصور: خطبنا عدي على منبر المدائن حتى بكى وأبكانا[1]. وكان عمر بن عبد العزيز يتفقده بالنصائح والمواعظ، قال معمر: كتب عمر إلى عدي بن أرطأة: إنك غررتني بعمامتك السوداء، ومجالستك القراء، وقد أظهرنا الله على كثير مما تكتمون، أما تمشون بين القبور[2]؟!

قدم عدي على البصرة، فقيَّد يزيد بن المهلب، ونفذه إلى عمر بن عبد العزيز، فلما مات عمر، انفلت، ودعا إلى نفسه وتسمى بالقحطاني، ونصب رايات سوداً، وقال: أدعو إلى سيرة عمر بن الخطاب، فحاربه مسلمة بن عبد الملك، وقتله، ثم وثب ولده معاوية فقتل عدياً، وجماعة صبراً، سنة اثنتين ومئة[3]. قال الدارقطني: يحتج بحديثه.

3. عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب (والي الكوفة):

الإمام الثقة الأمير العادل أبو عمر العدوي الخطابي المدني، ولي إمرة الكوفة لعمر بن عبد العزيز، كان قليل الرواية، كبير القدر، توفي سنة 115 هـ[4].

4. عمر بن هبيرة (والي الجزيرة):

كان من الدهاة الشجعان، وكان رجل أهل الشام، ولاَّه عمر الجزيرة (100 هـ)، فتوجه إليها وغزا الروم من ناحية أرمينية، فهزمهم وأسر منهم خلقاً كثيراً، واستمر على الجزيرة إلى خلافة يزيد بن عبد الملك، فولاه إمارة العراق وخراسان، ثم عزله هشام بخالد القسري فقيده، وألبسه عباءة وسجنه، فتحيل غلمانه ونقبوا سرباً وأخرجوه منه، فهرب واستجار بالأمير مسلمة بن عبد الملك، فأجاره، ثم لم يلبث أن مات سنة سبع ومئة تقريباً[5].

5. أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم (والي المدينة):

وهو أحد الأئمة الأثبات الثقات، أمير المدينة ثم قاضي المدينة، قيل: كان أعلم أهل زمانه بالقضاء، روى عن أبيه وعباد بن تميم وعن سلمان الأغر وخالته عمرة بنت عبد الرحمن وطائفة وعداده في صغار التابعين[6]، روى عطاف

---

[1] المصدر السابق نفسه (53/5).
[2] المصدر السابق نفسه.
[3] المصدر السابق نفسه.
[4] المصدر السابق نفسه(149/5).
[5] المصدر السابق نفسه (562/4).
[6] المصدر السابق نفسه (314/5).

بن خالد عن أمه عن زوجة ابن حزم: أنه ما اضطجع على فراشه منذ أربعين سنة[1]، وقيل: كان رزقه في الشهر ثلاثمئة دينار[2].

6 . عبد العزيز بن عبد الله بن أسيد الأموي (والي مكة):

أقر عمر على مكة عبد العزيز بن عبد الله الأموي والي سليمان بن عبد الملك، وثقه النسائي وابن حبان؛ توفي في خلافة هشام بن عبد الملك[3].

7 . رفاعة بن خالد بن ثابت الفهمي (والي مصر):

ذكر ابن تغري بردى خبراً انفرد به وهو: أن عمر بن عبد العزيز أقر على مصر عبد الملك بن رفاعة بن خالد بن ثابت الفهمي المصري الذي كان حسن السيرة عفيفاً عن الأموال، ثقة فاضلاً عادلاً بين الرعية، روى عنه الليث بن سعد وغيره، ثم عزله في شهر ربيع الأول سنة تسع وتسعين دون أن يذكر سبب عزله[4]، وولى مكانه أيوب بن شرحبيل بن أكسوم بن أبرهة بن الصباح[5].

8 . إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر المخزومي (والي المغرب):

كان صالحاً فاضلاً زاهداً، قدم إفريقية سنة (99 هـ)، ويقال: سنة (100 هـ)، كان حسن السيرة، سار فيهم بالحق فأسلم على يديه عامة البربر، وكان حريصاً على إسلامهم، وكان عمر يرسل إليه بالرسائل لدعوة أهل الذمة للدخول في الإسلام، فيقرؤها عليهم، توفي إسماعيل بن عبيد الله سنة (132 هـ)[6].

9 . السمح بن مالك (بالأندلس):

الأمير الشهير، استعمله عمر على الأندلس وأمره أن يميز أرضها و يخرج منها ما كان فتحه عنوة فيأخذ منه الخمس، وأن يكتب إليه بصفة الأندلس، فقدمها سنة (100 هـ)، وفعل ما أمره به عمر، واستشهد غازياً بأرض الفرنجة[7].

هؤلاء من أشهر ولاة عمر بن عبد العزيز الذين عينهم على الأقاليم والولايات، والذين كانوا عند حسن الظن.

---

[1] المصدر السابق نفسه.

[2] المصدر السابق نفسه.

[3] تاريخ خليفة، ص (323)؛ عمر وسياسته في رد المظالم، ص 273.

[4] عمر وسياسته في رد المظالم، ص 289.

[5] المصدر السابق نفسه.

[6] المصدر السابق نفسه، ص 293.

[7] عمر بن عبد العزيز، عبد الستار، ص 271.

ثانياً: حرص عمر بن عبد العزيز على انتقاء عماله من أهل الخير والصلاح:

إن عمال الخليفة وأمراء البلدان بخاصة هم نواب الخليفة في أقاليمهم، والواسطة بينه وبين رعيته، ومهما كان الخليفة على درجة من الدراية في تصريف أمور السياسة إلا أنه لا يستطيع تحقيق النجاح إلا إذا اختار عماله بعناية تامة، لذا عني عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ عناية فائقة باختياره عماله وولاته، وحين نتبع أخباره في هذا الصدد نجد أن له شروطاً لابد من تحققها فيمن يختار العمل عنده، ومن أهم هذه الشروط: التقوى، والأمانة، وحسن التدين، فلما عزل خالد بن الريان ـ الذي كان رئيساً للحرس في عهد الوليد بن سليمان ـ نظر عمر في وجوه الحرس فدعا عمرو بن المهاجر الأنصاري فقال: والله إنك لتعلم يا عمرو أنه ما بيني وبينك قرابة إلا الإسلام، ولكني سمعتك تكثر تلاوة القرآن، ورأيتك تصلي في موضع تظن أنه لا يراك أحد، فرأيتك تحسن الصلاة، خذ هذا السيف قد وليتك حرسي[1].

وكان يكتب إلى عماله: إياكم أن تستعملوا على شيء من أعمالنا إلا أهل القرآن، فإنه إذا لم يكن عند أهل القرآن خير، فغيرهم أحرى بأن لا يكون عندهم خير[2].

وإذا شك في أمر من ينوي توليته لم يقدم على توليته حتى يتبين له حاله، فحين ولي الخلافة وفد عليه بلال بن أبي بردة فهنأه وقال: من كانت الخلافة ـ يا أمير المؤمنين ـ شرفته فقد شرفتها، ومن كانت زانته فقد زنتها، واستشهد بأبيات من الشعر في مدح عمر، فجزاه عمر خيراً، ولزم بلال المسجد يصلي، ويقرأ ليله ونهاره، فهم عمر أن يوليه العراق، ثم قال: هذا رجل له فضل، فدسَّ إليه ثقة له فقال له: إن عملت لك في ولاية العراق ما تعطيني؟ فضمن له مالاً جليلاً، فأخبر بذلك عمر، فنفاه وأخرجه[3].

وكان يكره أن يولي أحداً ممن غمس نفسه في الظلم أو عمل مع الظلمة لا سيما الحجاج[4]، وإذا كان مَنْ قَبْلَ عمر يجعل للعصبية والقرابة من البيت الأموي وزناً في تولية العمل، فإنه لم يكن شيء من ذلك في ميزان عمر، فحدث الأوزاعي أن عمر بن عبد العزيز جلس في بيته وعنده أشراف بني أمية، فقال: أتحبون أن أولي كل رجل منكم جنداً من هذه الأجناد؟ فقال رجل منهم: تعرض علينا ما لا تفعله؟ قال: ترون بساطي هذا؟ إني لأعلم أنه يصير إلى بِلى، وإني أكره أن تدنسوا عليه بأرجلكم، فكيف أوليكم ديني؟ وأوليكم أعراض المسلمين وأبشارهم تحكمون فيهم؟! هيهات هيهات[5].

---

[1] سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص 31.

[2] المصدر السابق نفسه، ص 8؛ سراج الملوك، للطرطوشي، ص 255.

[3] تاريخ دمشق؛ نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص 182.

[4] أثر العلماء في الحياة السياسية، ص 182.

[5] سير أعلام النبلاء (132/5).

وقد كان لهذا النهج الذي تميزت به سياسة عمر بن عبد العزيز في اختيار الولاة والعمال أثر في الاستقرار السياسي في الأقاليم، حيث رضي الناس سير عماله وحمدوا فعالهم، إذ لم يكن في عماله من هو على شاكلة الحجاج يتعامل مع الناس بالشدة ويأخذهم بالتهمة، كما لم يكن منهم صاحب عصبية يرفع أناساً ويضع آخرين فيجدوا عليه في أنفسهم[1].

ثالثاً: الإشراف المباشر على إدارة شؤون الدولة:

أشرف عمر بن عبد العزيز بنفسه على ما يتم في دولته من أعمال صغرت أو كبرت، وكان يتابع عماله في أقاليمهم، وساعده على ذلك أجهزة الدولة التي طورها عبد الملك بن مروان، كالبريد، وجهاز الاستخبارات الكبير الممتد في أطراف الدولة، والذي كان الخلفاء يستخدمونه في جمع المعلومات.

وعلى الرغم من عناية عمر بن عبد العزيز في اختيار الولاة، إلا أن هذا لم يمنعه من العمل على متابعة أمر الرعية وتصريف شؤون الدولة، وقد اشتهر عنه الدأب والجد في العمل حتى أصبح شعاره: لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد، فقد قيل له: يا أمير المؤمنين! لو ركبت فتروحت، قال: فمن يجزي عني عمل ذلك اليوم؟ قيل: تجزيه من الغد، قال: فدعني من عمل يوم واحد، فكيف إذ اجتمع علي عمل يومين[2]. وقال ميمون بن مهران: كنت ليلة في سمر عمر بن عبد العزيز، فقلت: يا أمير المؤمنين! ما بقاؤك على ما أرى؟ أنت بالنهار في حوائج الناس وأمورهم، وأنت معنا الآن ثم الله أعلم ما تخلو عليه[3]، فقد كان ـ رحمه الله ـ يمضي الكثير من وقته لرسم سياسته الإصلاحية التي شملت مختلف الحياة السياسية والاقتصادية والإدارية، وغيرها.. حتى خلف رحمه الله كمّاً هائلاً من تلك السياسات التي تمثل مواد نظام حكمه الإصلاحي الشامل، وقد بعث بهذه السياسات إلى عماله لتنفيذها في مختلف الأقاليم، وكثيراً ما يردفها بتوجيهات تربوية يذكر فيها عماله بعظم الأمانة الملقاة على عواتقهم، ويخوفهم بالله ويأمرهم بمراقبته وتقواه فيما يعملون ويذرون[4].

وقد كان لمواعظ عمر وتوجيهاته أثر في نفوس عماله أشد من وقع السياط، وأبلغ من أوامر العزل والإعفاء، فكتب مرة إلى أحدهم: يا أخي أذكرك طول سهر أهل النار مع خلود الأبد، وإياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء. فلما قرأ عامله الكتاب، طوى البلاد حتى قدم على عمر، فقال له: ما أقدمك؟ قال: خلعت قلبي بكتابك، لا أعود إلى ولاية أبداً حتى ألقى الله تعالى[5].

---

[1] أثر العلماء في الحياة السياسية، ص 183.

[2] سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، ص 55.

[3] الطبقات (371/5).

[4] أثر العلماء في الحياة السياسية، ص 186.

[5] المصدر السابق نفسه.

ولم يكتفِ عمر ببعث تلك السياسات والتوجيهات إلى عماله، بل كان يحرص على متابعة تنفيذها، وتحقق آثارها على رعيته. فلا يفتأ يسأل القادمين عن ذلك، فقال زياد بن أبي زياد المدني حين قدم على عمر من المدينة: فسألني عن صلحاء أهل المدينة ورجالهم ونسائهم... وسألني عن أمور كان أمر بها بالمدينة فأخبرته[1].

وخرج عمر بن عبد العزيز يوماً فركب هو ومزاحم، وكان كثيراً ما يركب فيلقى الركبان ويتحسس الأخبار عن القرى، فلقيهما راكب من أهل المدينة وسألاه عن الناس وما وراءه، فقال لهما: إن شئتما جمعت لكما خبري وإن شئتما بعضته تبعيضاً، فقالا: بل اجمعه، فقال: إني تركت المدينة والظالم بها مقهور، والمظلوم بها منصور، والغني موفور، والعائل مجبور، فسُرَّ عمر بذلك وقال: والله لأن تكون البلدان كلها على هذه الصفة أحب إلي مما طلعت عليه الشمس[2].

وحين قدم عليه رجل من خراسان وأراد العودة إلى بلاده؛ طلب من عمر أن يحمله على البريد، فقال له عمر وقد اطمأن لسيرته: هل لك أن تعمل لنا عملاً وأحملك؟ فقال الرجل: نعم. فقال عمر: لا تأتِ على عامل لنا إلا نظرت في سيرته، فإن كانت حسنة لم تكتب بها، وإن كانت قبيحة كتبت بها. قال مزاحم: فما زال كتاب منه يجيئنا في عامل فنعزله حتى قدم خراسان[3].

ونلاحظ أن عمر بن عبد العزيز كان يهتم بمصادر متنوعة بجمع المعلومات، لعلمه أن المعرفة الدقيقة بأمور الرعية والولاة تحتاج لجمع المعلومات الصحيحة التي يبني عليها التوجيهات والأوامر والنواهي النافعة للأمة والدولة. لقد أتت هذه المتابعة الدقيقة من عمر لعماله والتوجيهات التفصيلية لهم ثمارها في استقرار أحوال الأقاليم، كما أن هذه التوجيهات والمتابعة من عمر جعلت العمال والولاة في حالة تحفز دائمة للعمل؛ حيث كانت تلك التوجيهات تقع في نفوسهم بمكان، فحدث إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال: رأيت أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم يعمل بالليل كله وبالنهار لاستحثاث عمر إياه[4].

وكان رحمه الله يرسل المفتشين في الأقاليم ليأتوه بالأخبار: فقد بعث إلى خراسان ثلاثة مفتشين، يبحثون في ظلامات الناس من نظام خراجها، الذي قرره عدي بن أرطأة على الأهالي، وأرسل مفتشاً إلى العراق، ليأتيه بأخبار الولاة والناس فيها[5]. ولقد أعلن عمر في إطار متابعته لشؤون الدولة ما يمكن تسميته بالرقابة العامة، إذ كتب لأهل الموسم في يوم الحج الأكبر:...إني بريء من ظلم من ظلمكم... ألا وإنه لا إذن على مظلوم دوني، وأنا معوِّل كل مظلوم، ألا وأي عامل من عمالي رغب عن الحق، ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم...ألا وأيما وارد في أمر يصلح الله به، خاصة أو عامة، فله ما بين مئة دينار إلى ثلاثمئة دينار، على قدر ما نوى من

---

[1] المصدر السابق نفسه، ص 187.

[2] سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص 115.

[3] تاريخ دمشق؛ نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص 188.

[4] الطبقات (347/5)؛ أثر العلماء، ص 188.

[5] عمر بن عبد العزيز، للزحيلي، ص 182.

الحسبة[1]. فقد أعلن في أكبر تجمع إسلامي، بل شجع مادياً ومعنوياً على مراقبته، ومراقبة عماله، والإفصاح عن كل ما لا يوافق الكتاب والسنة، وبطبيعة الحال فالأمة الإسلامية لا تحتاج إلى غير تعاليم الكتاب والسنة، إذا كان الالتزام بها هدفاً منشوداً[2].

رابعاً: التخطيط في إدارة عمر بن عبد العزيز:

يعرف التخطيط في معناه العام بأنه: العملية التي تتخذ لتلبية احتياجات المستقبل، وتحديد وسائل تحقيقها[3]، كما عرف التخطيط بأنه: الجسر بين الحاضر والمستقبل، ومن هذا التعريف العام يمكن أن نقول: إن التخطيط في الإسلام هو الاستعداد في الحاضر لما يواجهه الإنسان في عمله، أو حياته في المستقبل[4].
وعمر بن عبد العزيز لم يكن ليتخذ قراراً دونما تخطيط، وتوخٍّ لعواقب الأمور، وأخذها بعين الاعتبار، ولعل من أهم المؤشرات على إدراك عمر لأهمية التخطيط والتفكير في الأمور قوله لرجاء: يا رجاء! إني لي عقلاً أخاف أن يعذبني الله عليه[5].

وكان عمر بن عبد العزيز يعتمد على الله ثم جمع المعلومات والقدرة على حسن قراءتها، واستشراف المستقبل وتحقيق الأهداف المطلوبة، ففي ذلك يقول عمر: من عمل على غير علم كان يفسد أكثر مما يصلح[6]، وقد كان عمر بن عبد العزيز في تخطيطه يضع الأهداف ويختار السياسات، ويحدد الإجراءات ويبلور العمل في خططه؛ ففي إطار بلورة الأهداف كان هناك هدف رئيسي يسعى عمر لتحقيقه؛ ألا وهو الإصلاح والتجديد الراشدي على منهاج النبوة والخلافة الراشدة، والقيام بكل مقومات هذا المشروع الإصلاحي من إقامة العدل والحق وإزالة الظلم، وإعادة الانسجام بين الإنسان وبين الكون والحياة وخالقهما في إطار الفهم الشمولي للإسلام، وأما اختيار السياسات كأحد مقومات التخطيط، فإنه قد تجلى ذلك في تطبيقات عمر للتخطيط الإداري، ولا أدل على ذلك من عزم عمر على الاكتفاء بالكتاب الكريم والسنة الشريفة[7]، وأنه غير مستعد للاستماع إلى أي جدل في مسائل الشرع، والدين، على أساس أنه حاكم منفذ، وأن الشرع من جانبه على نفسه وعلى رعيته، كما ألزم الرعية بالتمسك بذلك الشرع القويم[8]. هذا في إطار تحديد واختيار السياسة العامة.

---

[1] عمر، لابن الجوزي، ص 90.
[2] النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز، ص 413.
[3] الإدارة، المنيف، ص 147.
[4] الإدارة في الإسلام، للضحيان، ص 71.
[5] سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص 266.
[6] المصدر السابق نفسه، ص 250.
[7] سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص 35.
[8] النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز، ص 397.

أما تحديد الإجراءات كأحد مقومات التخطيط أيضاً، فإن ذلك يتضح من خلال الإجراءات التي حددها لتنفيذ هذه السياسة من اللقاء الأول مع الأمة عند وضعه شروطاً لصحبته، والتي قد بينتها فيما مضى، وأما بلورة طريقة العمل، فإنه قد وضح بأنه منفذ وليس مبتدع ـ أي منفذ لتعاليم الدين وأن الطاعة لمن أطاع الله[1] ـ وأن يكون أساس العمل إقامة العدل والإصلاح والإحسان بدلاً من الظلم والفجور والعدوان[2].

وقد مارس عمر التخطيط من حيث الشمول، وشمل تخطيطه كافة المجالات، فلم يترك مجالاً إلا طرق بابه، في أمور السياسة والحكم، والقضاء والاقتصاد، والتربية والتعليم، والنواحي الاجتماعية فضلاً عن التخطيط للأمور العامة، كما اهتم ببعض الأقاليم بشكل منفصل؛ مثل: خراسان والعراق، واهتم بمؤسسات تنظيمية أخرى مثل القضاء، وبيت المال، وولاة الخراج، وغير ذلك[3].

خامساً: التنظيم في إدارة عمر بن عبد العزيز:

إن التنظيم يأتي مكملاً للتخطيط لبناء المتطلبات الإجرائية لتنفيذ الخطط، وقد جعل عمر بن عبد العزيز التنظيم أهم أولويات العمل الإداري، ورسخ مفهوم التنظيم في سلوكه الإداري.

فمن حيث التنظيم الهيكلي للعمل، نجده قد جزّأ أعمال الدولة إلى أربعة أجزاء رئيسية، تأتي تحت مسؤولية أربعة أركان؛ هم: الوالي والقاضي وصاحب بيت المال والخليفة[4]؛ بالإضافة إلى تنظيمات أخرى؛ مثل: الخراج والجند والكتاب والشرطة والحرس وصاحب الخاتم والحاجب وغير ذلك، وفيما يلي اللائحة التنظيمية لمسؤوليات العمل في عهد عمر بن عبد العزيز[5].

يوجد مخطط

وأما فيما يتعلق بالتنظيم من حيث الإجراءات والعلاقات بين الخليفة والولاة والعمال، وتحديد أوجه العمل وأساليب التنفيذ؛ فإنه يمكننا القول: إن الكثير من كتب عمر لعماله تسعى لتحقيق هذا الغرض وإيضاح هذا الجانب التنظيمي من العملية الإدارية، فعلى سبيل المثال: أوضح أسلوب التعامل بينه وبين المظلومين، وكيفية الاتصال بينه وبينهم، إذ أباح دخول المظلومين عليه من غير إذن.

ومن صور التنظيم إعادة الكثير من الأمور والقضايا إلى ما كانت عليه في عهد الرسول (عليه الصلاة والسلام) والخلفاء الراشدين، ومثال ذلك: أمره بإرجاع مزرعته في خيبر إلى ما كانت عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه

---

[1] سيرة عمر بن عبد العزيز، ص 36، 35.

[2] المصدر السابق نفسه، ص 102.

[3] النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز، ص 400.

[4] المصدر السابق نفسه، ص 401.

[5] المصدر السابق نفسه.

وسلم، وتم الشيء نفسه بشأن (فدك)[1]؛ إذ كتب إلى أبي بكر بن حزم واليه على المدينة يقول: إني نظرت في أمر فدك، فإذا هو لا يصلح، فرأيت أن أردها على ما كانت عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر وعمر وعثمان، فاقْبِضها وولِّها رجلاً يقوم فيها بالحق، وسلام عليك[2].

كما كتب إلى عماله بكل ما يتعلق بتنظيم الأمور المالية والصدقات والضرائب والأخماس والزكاة في الأموال والممتلكات، وتنظيم العمالة التجارية، ومن ليس له الحق في ممارسة التجارة[3] وغير ذلك.

كما اهتم عمر بتنظيم أمور القضاء باعتباره السبيل الرئيسي للفصل بين الناس في منازعتهم وحماية حقوقهم، فكان لكل مصر أو ولاية قاضٍ يقضي بما في الكتاب والسنة، وكان قضاته في كل مصر أجل وأفقه وأصلح علماء ذلك المصر[4]، كعامر بن شرحبيل الشعبي[5] بالكوفة، والحارث بن يمجد الأشعري[6] بحمص، وعمر بن سليمان بن خبيب المحاربي بدمشق[7] وغيرهم، كما كان عمر يمارس القضاء بنفسه[8].

وكان الاعتبار الأساسي في التنظيم القضائي في نظر عمر هو مراجعة الحق، فالرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل[9]، وعندما اشتكى أهل سمرقند من قتيبة بن مسلم، عين لهم قاضياً ليحكم في هذه القضية، وقد مرت معنا، وفي هذه الحادثة أدرك عمر بن عبد العزيز مبدأ الفصل بين السلطات على أتم وجه، ذلك بأنه حينما عرف مظلمة أهل سمرقند لم يبتَّ هو بها، مع أنه كان يسعه ذلك، وهو خليفة المسلمين، ولم يعهد بذلك إلى عامله على سمرقند سليمان بن أبي السري، مخافة أن يجمح به الهوى، أو أن تأخذه العزة بالإثم، ولأنه عامل باسم الخليفة الذي أبى هو نفسه أن يبتَّ بالخلاف، ولم يفوض ذلك إلى القائد العسكري، بل أمر بأن يجلس لهم القاضي؛ لأن القاضي لا يتأثر بالاعتبارات العسكرية أو السياسية، ولا يأبه إلا لحكم الله، يطبق أوامر الشريعة كما وردت، وهكذا تحقق ظن عمر بن عبد العزيز، وحكم القاضي بأن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم، أي أنه أمرهم بالجلاء، لأن الاحتلال وقع بصورة غير مشروعة[10].

---

[1] فدك: هي قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان، وقيل: ثلاثة، أفاءها الله على رسوله لما نزل خيبر، وهي خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنها مما لم يطأ عليه خيل ولا ركاب، فيها عين فوَّارة ونخل كثير.

[2] سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص 131.

[3] سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص 78 . 83.

[4] النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز، ص 403.

[5] عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص 277.

[6] المصدر السابق نفسه، ص 285.

[7] المصدر السابق نفسه.

[8] النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص 403.

[9] المصدر السابق نفسه.

[10] نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي(407/1).

كما شملت تطبيقات عمر لتنظيم بيت الخلافة، أنه أعاد تنظيمه بما يتوافق مع نظرته في أنه واحد من عامة المسلمين، وأنه ليس في حاجة إلى أبهة الملك، فانصرف عن كل مظاهر الخلافة التي سادت قبله، وألغى بعض الوظائف، كصاحب الشرطة الذي يسير بين يدي الخليفة بالحربة، كعادته مع الخلفاء السابقين له، وقال له عمر: تنحَّ عني ما لي ولك؟ إنما أنا رجل من المسلمين، ثم سار وسار معه الناس[1].

سادساً: الوقاية من الفساد الإداري في عهد عمر بن عبد العزيز:

سعى عمر بن عبد العزيز لتحقيق السلامة من الفساد الإداري، بالحرص على سبل الوقاية منه، وسدّ المنافذ على السموم الإدارية؛ مثل: الخيانة، والكذب والرشوة والهدايا للمسؤولين والأمراء والإسراف وممارسة الولاة والأمراء للتجارة واحتجاب الولاة والأمراء عن الناس، ومعرفة أحوالهم، والظلم للناس والجور عليهم، وغير ذلك، وإليك شيء من التفصيل:

1 ـ التوسعة على العمال في الأرزاق:

كان أول إجراء إداري رأى فيه عمر الوقاية من الخيانة: أن وسَّع على العمال في العطاء، رغم تقتيره على نفسه وأهله، وأراد بذلك أن يغنيهم عن الخيانة[2]، فقد كان يوسِّع على عماله في النفقة، يعطي الرجل منهم في الشهر مئة دينار، ومئتي دينار، وكان يتأول أنهم إذا كانوا في كفاية تفرغوا لأشغال المسلمين، فقيل له: لو أنفقت على عيالك، كما تنفق على عمالك؟ فقال: لا أمنعهم حقاً لهم، ولا أعطيهم حق غيرهم، وكان أهله قد بقوا في جهد عظيم، فاعتذر بأن معهم سلفاً كثيراً قبل ذلك[3]، وبهذا الإجراء ألا وهو التوسع على عماله يحقق عمر أمرين هامَّين:

أ ـ سد منفذ الخيانة، وما يدفع العمال من حاجة إلى الخيانة وسرقة أموال المسلمين.

ب ـ ضمان فراغ الولاة والعمال والأمراء لأشغال المسلمين وحوائجهم[4].

2 ـ حرصه على الوقاية من الكذب:

قال ميمون بن مهران: دخلت على عمر بن عبد العزيز وعنده عامله على الكوفة، فإذا هو متغيظ عليه، فقلت: ما له يا أمير المؤمنين؟ قال: أبلغني أنه قال: لا أجد شاهد زور إلا قطعت لسانه. قال: فقلت: يا أمير المؤمنين! إنه لم يكن بفاعل. قال: فقال: انظروا إلى هذا الشيخ ـ مستنكراً ما قال ميمون ـ إن منزلتين أحسنهما الكذب

---

[1] سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص 65.

[2] النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص 314.

[3] البداية والنهاية؛ نقلاً عن النموذج الإداري، ص 315.

[4] النموذج الإداري، ص 315.

لمنزلتا سوء[1]. والمقصود: فإن الكذب أحد منازل السوء، وبذلك يسعى عمر إلى قطع دابر الفساد الإداري بالتحذير من الوقاية عما يجرُّ إليه الكذب والتحايل في اتخاذ القرارات[2].

3 ـ الامتناع عن أخذ الهدايا والهبات:

رد على من قال له: ألم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية؟ قال: بلى، ولكنها لنا ولمن بعدنا رشوة[3]، كما أبطل عمر أخذ الهدايا التي كان الولاة الأمويون يأخذونها وبخاصة هدايا النيروز والمهرجان، وهي هدايا تعطى في مناسبات وأعياد الفرس، فكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله كتاباً، يقرأ على الناس، يبطل فيه أخذ التوابع والهدايا، التي كانت

تؤخذ منهم في النيروز والمهرجان وغيرها من الأثمان والأجور[4]، كما أنذر ولاته وعماله من أن يتخذ أحد منهم تلبية طلبات الخليفة أو أحد أهله شيئاً مسلَّماً به، ومن ذلك ما حدث عندما أرسلت فاطمة بنت عبد الملك إلى ابن معدي كرب[5]، تطلب عسلاً من عسل سينين أو لبنان، فبعث إليها، فكتب إليه عمر: وايم الله لئن عدت لمثلها، لا تعمل لي عملاً أبداً، ولا أنظر إلى وجهك[6].

4 ـ النهي عن الإسراف والتبذير:

فقد اتخذ قرارات تنم على حرص شديد على أموال المسلمين، فكان أول إجراء له بعد توليه الخلافة هو انصرافه عن مظاهر الخلافة، إذ قربت إليه المراكب، فقال: ما هذه؟ فقالوا: مراكب لم تركب قط، يركبها الخليفة أول ما يلي، فتركها وخرج يلتمس بغلته، وقال: يا مزاحم ـ يعني مولاه ـ ضم هذه إلى بيت مال المسلمين، ونصبت له سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط، يجلس فيها الخليفة أول ما يلي، قال: يا مزاحم ضم هذه إلى أموال المسلمين، ثم ركب بغلته، وانصرف إلى الفرش والوطاء الذي لم يجلس عليه أحد قط، يفرش للخلفاء أول ما يلون، فجعل يدفع ذلك برجله، حتى يفضي إلى الحصير، ثم قال: يا مزاحم ضم هذه لأموال المسلمين[7].

وأخذ إجراء آخر لمحاربة الإسراف في الدولة، فحين قال له ـ ميمون بن مهران ـ وهما ينظران في أمور الناس: ما بال هذه الطوامير[8] التي تكتب فيها بالقلم الجليل، وتمد فيها وهي من بيت مال المسلمين؟ فكتب إلى العمال: أن لا

---

[1] سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص 134.
[2] النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص 316.
[3] سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص 189.
[4] سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، ص 136.
[5] لم تمدنا المصادر ما إذا كان ابن معدي كرب عامل لبنان وسينين (سيناء).
[6] المعرفة والتاريخ، للبسوي (580/1)؛ النموذج الإداري، ص 317.
[7] سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص 33.
[8] طوامير: جمع طومار، وهو الصحيفة. لسان العرب (503/1).

يكتبوا في طومار ولا يمد فيه، قال: فكانت كتبه شبراً أو نحو ذلك[1]. وقد مر معنا كتابه لأبي بكر بن محمد بن حزم الأنصاري والي المدينة في قصة الشموع، وتوجيه عمر له في ذلك، وكيف يكتب له، عندما قال: إذا جاءك كتابي هذا فأدق القلم، واجمع الخط، واجمع الحوائج الكثيرة في الصحيفة الواحدة، فإنه لا حاجة للمسلمين في فضل قول أضر ببيت مالهم والسلام عليك[2].

ذلك هو شأن عمر في كل أمر يخص مال المسلمين، صغر أو كبر، ومع كافة الولاة، فإنه من المسلم به أن عمر لم يكن كذلك مع والي المدينة فحسب، بل هو كذلك مع غيره من الولاة والعمال، فكان يسعى للتوفير والاقتصاد في الإنفاق من بيت المال، ليحول بذلك دون الإسراف والبذخ[3].

5 . منع الولاة والعمال من ممارسة التجارة:

قال في كتاب له إلى عماله: نرى أن لا يتجر إمام ولا يحل لعامل تجارة في سلطانه الذي هو عليه، فإن الأمير متى يتجر يستأثر ويصيب أموراً فيها عنت، وإن حرص أن لا يفعل[4]، وذلك إدراك منه أن ممارسة العمال والولاة للتجارة، لا تخلو من أحد أمرين، إن لم يكن الاثنان معاً: فإما أن ينشغل في تجارته ومتابعتها عن أمور واحتياجات المسلمين، وإما أن تحدث محاباة له في التجارة لموقعه، ويصيب أموراً ليست له من الحق في شيء، وبهذا القرار سد عمر منفذاً خطيراً قد يؤدي إلى فساد إداري قلَّ ما تتوارى عواقبه[5].

وبعد ثمانية قرون جاء ابن خلدون وكتب في مقدمته العظيمة بعد تجارب طويلة ودراسة واسعة، ما يصدق عمر بن عبد العزيز في نظرته الصادقة، وحكمته البالغة قال: إن التجارة من السلطان مضرة بالرعايا، معسرة للجباية[6].

6 . فتح قنوات الاتصال بين الوالي والرعية:

كانت الحاشية حول الخلفاء قبل عمر بن عبد العزيز قد حجبت الناس عن الوصول إلى الخليفة، وقد بنى الحاشية سياجاً من حديد لا ينفذ منه إليه إلا ما يشتهون وما تسمح به مصالحهم، أما عمر بن عبد العزيز فقد أعلن بالجوائز والمكافأة المالية لمن يخبره بحقيقة الحال، أو يشير عليه بشيء فيه مصلحة للمسلمين ومصلحة لدولتهم، وكتب إلى أهل المواسم: أما بعد، فأيما رجل قدم إلينا في رد مظلمة أو أمر يصلح الله به خاصاً أو عاماً من أمر

---

[1] سيرة عمر، لابن الجوزي، ص 88.

[2] سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، ص 55.

[3] النموذج الإداري، ص 319.

[4] سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، ص 83.

[5] النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص 320.

[6] مقدمة ابن خلدون؛ نقلاً عن رجال الفكر والدعوة، للندوي(46/1).

الدين، فله ما بين مئة دينار إلى ثلاثمئة بقدر ما يرى الحسبة وبعد السفر، لعل الله يجيء به حقاً أو يميت باطلاً، أو يفتح به من ورائه خيراً[1].

كما أمر العمال والولاة، بأن يحرصوا على فتح قنوات الاتصال بينهم وبين الرعية، ويسمعوا منهم ويتعرفوا على أحوالهم، فإن ذلك يمنع ممارسة الظلم والتعدي على حقوق الآخرين، ويتيح لكل فرد طلب ما يريد دون اللجوء إلى أساليب وطرق لا تمت للإسلام بصلة[2].

7 . محاسبته لولاة من قبله عن أموال بيت المال:

لما تولى عمر بن عبد العزيز أمر بالقبض على والي خراسان يزيد بن المهلب، ولما مثل بين يديه، سأله عمر عن الأموال التي كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك. فقال: كنت من سليمان بالمكان الذي قد رأيت، وإنما كتبت إلى سليمان ما لا سمع الناس به، وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذ بشيء ولا بأمر أكرهه. فقال له: ما أجد في أمرك إلا حبسك، فاتق الله وأدِّ ما قبلك، فإنها حقوق المسلمين ولا يسعني تركها، فرده إلى محبسه، وبقي فيه حتى بلغه مرض عمر[3]، وقد كان عمر بن عبد العزيز يتحسس أخبار ولاته ويراقبهم ويحاسبهم على تقصيرهم؛ فقد كتب إلى أحدهم يقول: (لقد كثر شاكوك، وقل شاكروك، فإما عدلت، وإما اعتزلت[4]، والسلام).

سابعاً: المركزية واللامركزية في إدارة عمر بن عبد العزيز:

أخذ عمر بن عبد العزيز بمبدأ الجمع والموازنة بين المركزية واللامركزية خلال إدارته للدولة، بتطبيق أحدهما بحسب الموقف تبعاً لمعايير محددة، فإننا نورد بعض المواقف والإجراءات التي توضح ذلك، فقد كان من الأوامر التي تدل على تطبيقه للمركزية ما ضمنه رسالته إلى عامله على الكوفة، إذ قال:...فإني قد وليتك من ذلك ما ولاني الله، ولا تعجل دوني بقطع ولا صلب حتى تراجعني فيه[5].

وهنا رجح عمر أن مصلحة الأمة في تطبيق المركزية في هذه المسألة البالغة الأهمية، فقد يسبق السيف العذل، فلا مصلحة للأمة في التعجيل في أمور القتل والصلب، وكل سيلقي جزاءه طال الوقت أم قصر، فقد كان عمر يرجح التحقيق العادل على التحقيق الصارم[6]،

---

[1] رجال الفكر والدعوة (47/1).

[2] النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص 320.

[3] تاريخ الطبري (460/7، 461، 462).

[4] عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص 275.

[5] تاريخ الطبري؛ نقلاً عن النموذج الإداري، ص 322.

[6] النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص 323.

فما بالك به في أمر أهم، وهو إزهاق الأرواح[1]. وهناك أمور أخرى أعم وأشمل، أوضح عمر لعماله وولاته وقضاته أنه لابد من الرجوع إليه فيها، متخذاً أسلوب المركزية فيها، وهي كل ما تبتلى به الأمة، وليس لها سابقة في قرآن أو سنة، إذ كتب إلى عماله يبين لهم سياسته، فقال:...وأما ما حدث من الأمور التي تبتلى الأمة بها، مما لم يحكمه القرآن ولا سنة النبي صلى الله عليه وسلم، فإن والي أمر المسلمين وإمام عامتهم، لا يقدم فيها بين يديه، ولا يقضي فيها دونه، وعلى من دونه رفع ذلك إليه، والتسليم لما قضى[2]، وفي مجال آخر رأى ضرورة أسلوب المركزية، حيث جعل للعراق أكثر من والٍ، وأصبحت خراسان وسجستان وعمان كل منها مرتبطة بالخليفة مباشرة، كما عين والياً على الأندلس من قبله رغبة منه في الاعتناء بإقليم الأندلس دون الارتباط بوالي إفريقية[3]. هذا مما يدل على أن عمر بن عبد العزيز كان يأخذ بالمركزية وضرورة الرجوع إليه.

. وأما ما يدل على ممارسته اللامركزية فنورد المواقف التالية:

روي أن عمر كتب إلى عروة بن محمد عامله على اليمن، يقول: أما بعد: فإني أكتب إليك آمرك أن ترد على المسلمين مظالمهم فتراجعني ولا تعرف بعد مسافة ما بيني وبينك، ولا تعرف أحداث الموت، حتى لو كتبت إليك أن اردد على مسلم مظلمة شاة، لكتبت، ارددها عفراء أو سوداء، فانظر أن ترد على المسلمين مظالمهم ولا تراجعني[4].

ويبدو في هذا القرار دقة متناهية في تحديد الشيء المرغوب فيه من المركزية واللامركزية، وما حداه هنا إلى تبني اللامركزية من مصلحة للأمة[5].

وهذا موقف آخر فيه دلالة على رغبة عمر في اتباع اللامركزية فقد كتب إلى عدي بن أرطأة يقول: أما بعد: فإنك لن تزال تعنّي إلي رجلاً ـ أي يتعبه بإرساله إليه ـ من المسلمين في الحر والبرد، تسألني عن السنة، كأنك إنما تعظمني بذلك، وايم الله لحسبك بالحسن، يعني ـ الحسن البصري ـ، فإذا أتاك كتابي هذا فسل الحسن لي ولك وللمسلمين[6].

فكان عمر يؤثر اللامركزية وعدم مراجعته في المسائل الروتينية طالما هناك من يثق بعلمه، مثل: الحسن البصري رحمه الله، فالحسن أهل لأن يسأل لعمر، ولعدي الوالي وللمسلمين كافة[7]، وفي هذا الموقف لفتة عمرية في تقدير

---

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، ص 63.

(3) الإدارة في العصر الأموي، نجدة الخماش، ص 107.

(4) الطبقات (381/5).

(5) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص 324.

(6) المصدر السابق نفسه ص 324؛ حلية الأولياء (307/5).

(7) المصدر السابق نفسه.

وتبجيل واحترام العلماء الربانيين كالحسن البصري وإنزاله مقامه اللائق به، فالأمم تنهض عندما تحترم علماءها الربانيين وتنزلهم المنازل التي يستحقونها.

لقد مارس عمر مبدأ الموازنة بين المركزية واللامركزية، وكانت له معايير وعوامل تدفعه إلى أي شيء منها؛ يمكن تلخيصها فيما يلي:

1 . ارتباط الموقف أو الإجراء بمصلحة عامة أو خاصة.

2 . أهمية الأمر الذي سيحدد فيه ممارسة المركزية أو اللامركزية؛ فالإجراء الذي يتعلق بالقتل والصلب مثلاً حري أن تكون المركزية فيه أصلح.

3 . مستجدات الأمور مما لم يرد في القرآن أو السنة؛ فهي من الأهمية بمكان.

4 . مراعاة البعد الجغرافي بين الخليفة والولاة.

5 . مراعاة الوقت وما قد ينجم عن ذلك من ضرر قد يصل إلى الموت.

6 . وجود من يعتمد عليه ويطمئن له ولعلمه ويثق به.

7 . التأثير على سرعة وسلامة الإنجاز في العمل.

8 . مراعاة منح الثقة للقضاة والولاة والعمال[1].

في ظل هذه المعايير جمع عمر بن عبد العزيز في ممارسته الإدارية بين المركزية واللامركزية، بالموازنة بينهما، وتحديد الدرجة الملائمة في ممارسته لكل منهما، وبذلك يتوافق عمر مع منظري وعلماء الإدارة في إدراك أبعاد هذا المبدأ[2].

ثامناً: مبدأ المرونة في إدارة عمر بن عبد العزيز:

مارس عمر بن عبد العزيز المرونة في التفاهم والحوار والفكر وتنفيذ الأوامر والتقيد بها، ومن تلك الشواهد: ما روى ميمون بن مهران: أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز قال: يا أبت ما يمنعك أن تمضي لما تريد من العدل؟ فوالله ما كنت أبالي لو غلت بي وبك القدور في ذلك. قال: يا بني إنما أروض الناس رياضة الصعب، وإني لا أريد أن أحيي الأمور من العدل، فأؤخر ذلك، حتى أخرج معه طمعاً من طمع الدنيا، فينفروا لهذه ويسكنوا لهذه[3].

---

(1) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص 326.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) سيرة عمر، لابن الجوزي، ص 88.

وقال عمر: ما طاوعني الناس على ما أردت من الحق، حتى بسطت لهم من الدنيا شيئاً[1]، فقد أبدى بهذا الإعلان منذ توليه الخلافة، أن تحقيق الأهداف يتطلب شيئاً من المرونة والتغاضي، فليس الأمر كما يرى ولده بأن لا مانع لديه من أن تغلي بهم القدور في سبيل تحقيق العدل، بصرف النظر عن أي اعتبار آخر[2].

وهذا موقف آخر مع ابنه عبد الملك وإليك ما دار بينهم من حوار:

الابن: ما يؤمنك أن تؤتى في منامك، وقد رفعت إليك مظالم لم تقضِ حق الله فيها؟

الأب: يا بني إن نفسي مطيتي، إن لم أرفق بها لم تبلغني، إني لو أتعبت نفسي وأعواني لم يك ذلك إلا قليلاً حتى أسقط ويسقطوا، وإني لأحتسب في نومتي من الأجر مثل الذي أحتسب في يقظتي، إن الله جل ثناؤه لو أراد أن ينزل القرآن جملة لأنزله، ولكنه أنزل الآية والآيتين حتى أسكن الإيمان في قلوبهم.

يا بني...ما أنا فيه أمر هو أهم إلي من أهل بيتك (الأمويين)، هم أهل القدرة والعدد وقبلهم ما قبلهم، فلو جمعت ذلك في يوم واحد خشيت انتشاره علي، ولكني أنصف من الرجل والاثنين، فيبلغ ذلك من وراءه، فيكون أنجح له[3].

في الآثار السابقة، يقدم لنا عمر فقهه الحاذق في إدارة الحركات الإصلاحية التجديدية، وتسيير البرامج التي تستهدف إسقاط الظلم والاستغلال ونشر العدل والمساواة[4]. ففي قوله: إني لو أتعبت نفسي وأعواني لم يك ذلك إلا قليلاً حتى أسقط ويسقطوا؛ فبيَّن رحمه الله: أن طاقة الإنسان محدودة، وأن القابلية على تحمل الجد الصارم لها حدودها هي الأخرى، والإنسان في تقبله لالتزاماته في حاجة ضرورية إلى وقتٍ كافٍ لتمثل هذه الالتزامات من الداخل، وتحويلها إلى مبادئ وقيم ممزوجة بدم الإنسان وأعصابه، ومتشكلة في بنيته وخلاياه، وبدون هذا سوف لن تجتاز هذه الالتزامات حدود الإنسان الباطنية، وستظل هناك مكدسة على أعتاب الحس الخارجي، وطالما ظل هذا التكديس يزداد ثقلاً يوماً بعد يوم، فسوف يأتي يوم لا محالة يسقط فيه الإنسان تحت وطأة هذا الثقل المتزايد غير المتمثل[5]...

ومما يلفت النظر عبارته:.. ولكني أنصف الرجل والاثنين فيبلغ ذلك من وراءه فيكون أنجح له. إن عمر هنا يؤكد على أهمية الإنجاز وعلى دوره في تحقيق. الإصلاح والتجديد.، فكثيرون هم أولئك الذين طرحوا أقوالاً أعلنوا فيها عن عزمهم على إحداث ثورة حقيقية وانقلاب يجتث الجذور العفنة ويبدأ الزرع من جديد، ولكن هؤلاء ما لبثوا أن سقطوا وسقطت مبادئهم؛ لأنهم طرحوا أقوالاً... أما عمر هذا المصلح الكبير والفقيه الحاذق، فإنه يريد أن

---

[1] المصدر السابق نفسه.

[2] النموذج الإداري المستخلص، ص 328.

[3] سيرة عمر، لابن الجوزي، ص 106.

[4] ملامح الانقلاب، ص 173.

[5] المصدر السابق نفسه.

يطرح أفعالاً، ولا يطرحها بالعنف والإكراه ودونما تخطيط، وإنما لينصف الرجل والاثنين فيبلغ ذلك من وراءهما حتى يسري الإصلاح في نفوس الأمة أنى كانت، سريان الضياء في الظلام.

ثم إن عمر هذا الذكي المرن لم يشأ أن يخرج شيئاً إلا ومعه طرف من الدنيا يستلين به القلوب[1]، ولا يمكن لأحد أن يقول: إن هذا يمثل تنازلاً من عمر بن عبد العزيز عن أهداف إصلاحاته الشاملة صوب إصلاح جزئي يقوم على الترقيع... لأن ما عرفنا عمر منذ حمل مسؤولية أمته، يسعى إلى التنازل، ولو شبراً واحداً، عن الأهداف التي طرحها القرآن الكريم والسنة، ولكنه هنا يقدم فقه الأسلوب الحيوي الذي تتأتى به تلك الأهداف كاملة...

إن الضغط المستمر يولد الانفجار، ومهما كان سخف هذا الانفجار وعبثه فإنه لابد وأن يحرق ويدمر، وإذا كان بإمكان القادة والمسؤولين تجاوز هذا الحريق والدمار عن طريق الالتزام بأسلوب حيوي ينسجم وبنية الإنسان النفسية، فلماذا لا يسلكوه[2]؟ فعندما قال له ابنه عبد الملك: يا أمير المؤمنين! انفذ لأمر الله وإن جاشت بي وبك القدور، فماذا كان جواب الخليفة المرن؟ يا بني! إن بادهت الناس بما تقول أحوجوني إلى السيف، ولا خير في خير لا يحيا إلا بالسيف، لا خير في خير لا يحيا إلا بالسيف[3].

إن خليفة بهذه المرونة وبهذا الذكاء لا يمكن أن يجزع عن أهدافه يوماً[4]، ومما مضى يتضح أدلة مرونة عمر في إدارته فيما يتعلق بتنفيذ السياسة العامة، سياسة إقامة العدل ونشر الإسلام، وبناء دولة العقيدة[5]، وإليك هذه الشواهد في تنفيذ مبدأ المرونة:

1 ـ فلا يحملنك استعجالنا إياك أن تؤخر الصلاة عن ميقاتها:

خرج عمر على حرسه يوماً، فقال: أيكم يعرف هذا الرجل الذي بعثناه إلى مصر؟ قالوا: كلنا نعرفه ـ وكان قد كلف رجلاً بمهمة إلى مصر قبل وقت ليس ببعيد ـ قال: فليذهب إليه أحدثكم سناً فليدعه ـ قال: وذلك في يوم جمعة، فذهب إليه الرجل، فظن الرسول أن عمر بن عبد العزيز استبطأه فقال له: لا تعجلني حتى أشد عليَّ ثيابي، فشد عليه ثيابه، فأتى عمر، فقال: لا روع عليك، إن اليوم يوم الجمعة، فلا تبرح حتى تصلي الجمعة، وقد بعثناك لأمر عجلة من أمر المسلمين، فلا يحملنك استعجالنا إياك أن تؤخر الصلاة عن ميقاتها[6]، فأبدى عمر في هذا الموقف مرونة في التنفيذ، رغم أنه أرسل مندوبه لأمر يهم المسلمين إنجازه على عجل[7].

2 ـ هلا أقمت حتى تفطر ثم تخرج:

---

(1) المصدر السابق نفسه، ص 174.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) الكامل في التاريخ؛ نقلاً عن ملامح الانقلاب، ص 175.

(4) ملامح الانقلاب، ص 175.

(5) النموذج الإداري، ص 329.

(6) سيرة عمر، لابن الجوزي، ص 106.

(7) النموذج الإداري، ص 330.

استدعى عمر بن عبد العزيز عامله على خراسان، فما كان من العامل إلا أن أسرع بالمغادرة إلى الخليفة تنفيذاً لأمره، وعندما وصل إلى مقر الخلافة في دمشق ورأى الخليفة ملامح التعب والإجهاد على وجهه، سأله: متى خرجت؟ فقال: في شهر رمضان، فقال له عمر: قد صدق من وصفك بالجفاء!! هلا أقمت حتى تفطر، ثم تخرج[1].

3 . لا تعنت الناس ولا تعسرهم ولا تشق عليهم:

ذكر ابن سعد أن ـ ميمون بن مهران ـ وكان على ديوان دمشق، قال: فرضوا لرجل زمِن[2]، فقلت: الزمن ينبغي أن يحسن إليه، فأما أن يأخذ فريضة رجل صحيح فلا. فشكوني إلى عمر بن عبد العزيز، فقالوا له: إنه يتعنتنا ويشق علينا، ويعسرنا. قال: فكتب إلي: إذا أتاك هذا فلا تعنت الناس ولا تعسرهم، ولا تشق عليهم؛ فإني لا أحب ذلك[3]، وقد كتب إليه عمر انطلاقاً من مبدأ المرونة وتسهيل الأمور.

4 . المرونة في الحوار والتفاهم:

فقد كان الحوار الهادئ ومقارعة الحجة بالحجة أسلوبه في حواره ومناظراته ـ كما مر معنا مع الخوارج ـ فقد حدث أن: دخل على عمر أناس من الحرورية، فذاكروه شيئاً، فأشار إليه بعض جلسائه أن يرعبهم، ويتغير عليهم، فلم يزل عمر بن عبد العزيز يرفق بهم حتى أخذ عليهم، ورضوا منه أن يرزقهم ويكسوهم ما بقي، فخرجوا على ذلك، فلما خرجوا ضرب عمر ركبة رجل يليه من أصحابه، فقال: يا فلان إذا قدرت على دواء تشفي به صاحبك، دون الكي فلا تكوينَّه أبداً[4]، وأبدى مرونة في كافة أساليب التعامل معهم[5].

5 . المرونة الفكرية:

كان عمر يتحلى بالمرونة الفكرية، متجنباً الجمود والتشدد، فقد حدث ـ كما مر معنا ـ أن أرسل عمر يزيد بن أبي مالك، والحارث بن محمد، ليعلما الناس السنة وأجرى عليهم الأرزاق، فقبل يزيد ولم يقبل الحارث، وقال: ما كنت لآخذ على علم علمنيه الله أجراً، فذكر ذلك لعمر، فقال: ما نعلم بما صنع يزيد بأساً، وأكثر الله فينا مثل الحارث[6]. فلم يتخذ موقفاً محدداً تجاه العالِمَيْن، رغم اختلاف موقفهما تجاه قبول الأجر على تعليم الناس، فأيد أخذ الأجر على التعليم، وأنه لا بأس فيه، ثم دعا الله أن يكثر من أمثال الحارث، فاتضحت مرونته في تأييد الموقفين في آن واحد، رغم اختلافهما، ويأتي ذلك في إطار ما عبر عنه عن قناعته التامة، أن مبدأ المرونة مطلوب

---

[1] تاريخ الطبري؛ نقلاً عن النموذج الإداري، ص 330.

[2] الزمن: هو المبتلى بالعاهة. لسان العرب(119/13).

[3] الطبقات (380/5).

[4] سيرة عمر، لابن الجوزي، ص 76، 78.

[5] النموذج الإداري، ص 331.

[6] سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، ص 137.

وضروري حتى قال: ما يسرني لو أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لم يختلفوا، لأنهم لو لم يختلفوا، لم تكن رخصة[1]. وقال: ما يسرني باختلاف أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، حمر النعم[2].

فهذه أدلة على تطبيق عمر لمبدأ المرونة في إدارته، ولم تكن المرونة عائقاً لتنفيذ القرارات، وتحقيق الأهداف المرسومة، والوصول إلى المرامي والتطلعات[3].

تاسعاً: أهمية الوقت في إدارة عمر بن عبد العزيز:

كان عمر بن عبد العزيز يقضي جل وقته، إن لم يكن كله في تسيير أمور الدولة، أو في عمل فيه مصلحة الأمة، أو في أداء حق الله من العبادة، فكان يقضي ليلته في الصلاة والمناجاة، وكان لا يكلم أحداً بعد أن يوتر[4]، وفي إطار اغتنام الوقت نسب إلى عمر قوله: إن الليل والنهار يعملان فيك ـ أي: في الإنسان ـ فاعمل فيهما[5]، وكان يغتنم الوقت في الأعمال الصالحة وفي سرعة التوجيه والبت السريع في الأمور واتخاذ القرارت الإدارية، وتلافي كل ما من شأنه تأخير أي عمل أو مصلحة، فإن أهم الأدلة على ذلك ما كان منه من سرعة إجراءاته لإصدار ثلاثة قرارات، تحدث عنها ابن عبد الحكم ورواها قائلاً:

فلما دفن سليمان ـ وكان دفنه عقب صلاة المغرب ـ دعا عمر بدواة وقرطاس، فكتب ثلاثة كتب، لم يسعه فيما بينه وبين الله عز وجل أن يؤخرها، فأمضاها من فوره، فأخذ الناس في كتابته إياها هنالك في همزه؛ يقولون: ما هذه العجلة؟ أما كان يصبر إلى أن يرجع إلى منزله؟! هذا حب السلطان. هذا الذي يكره ما دخل فيه، ولم يكن بعمر عجلة ولا محبة لما صار إليه، ولكنه حاسب نفسه، ورأى أن تأخير ذلك لا يسعه.

وكان الكتاب الأول عن أمر لا يمسه هو شخصياً في شيء، بقدر ما يمس المسلمين المجاهدين في القسطنطينية بعد أن أصابهم من الجوع والضنك، واشتد بهم الأمر أمام عدوهم، فأمر برجوع مسلمة بن عبد الملك من القسطنطينية ورفع الحصار؛ فقد رأى عمر أنه لا يسعه فيما بينه وبين الله عز وجل أن يلي شيئاً من أمور المسلمين، ثم يؤخر قفلهم ساعة، فذلك الذي حمله على تعجيل الكتاب[6]، حقاً إن الحال الذي كان عليه مجاهدو القسطنطينية لا يحتمل التأخير في قرار عودتهم على الإطلاق، فكان الإجراء المناسب في الوقت المناسب[7].

وكتب بعزل أسامة بن زيد التنوخي ـ وكان على خراج مصر ـ فعزله لظلمه وغشمه وتسلطه.

---

[1] سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص 275.

[2] الطبقات (381/5).

[3] النموذج الإداري، ص 332.

[4] سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص 210، 211.

[5] الإدارة في التراث الإسلامي، البرعي وعابدين(279/1).

[6] سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، ص 32.

[7] النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص 337.

كما كتب بعزل يزيد بن أبي مسلم عن إفريقية لظلمه[1].

وكان عمر يهتم بالوقت من حيث اختيار الوقت المناسب لإعلان التوجيهات أو القرارات الإدارية وسهولة إبلاغها، فكان حين يستخدم البلاغة لإبلاغ الناس يراعي الوقت الأكثر ملائمة؛ سواء من حيث كثرة المجتمعين، أم من حيث قدسية المكان وحرمته، وبالتالي زيادة الاهتمام بما يكون فيه، ألا وهو الموسم السنوي موسم الحج، ليخطب في المسلمين أو يكتب إلى المسلمين في يوم حجهم الأكبر بما يراه على قدر كبير من الأهمية من أمورهم، إذ يتحقق باختيار ذلك الوقت المناسب أمرين:

أحدهما: نشر التوجيه أو القرار أو الإجراء في أكبر عدد من المسلمين، من كل بلد من بلدانهم.

والثاني: سرعة الانتشار الذي يحققها إعلان القرار أو التوجيه في هذا الجمع في ذلك الوقت[2].

ومن ذلك كتابه إلى أهل الموسم الذي جاء فيه: أما بعد: فإني أشهد الله وأبرأ إليه في الشهر الحرام والبلد الحرام، ويوم الحج الأكبر أني بريء من ظلم من ظلمكم، وعدوان من اعتدى عليكم، أن أكون أمرت بذلك أو رضيته أو تعمدته إلا أن يكون وهماً مني، أو أمراً خفي عليَّ لم أتعهده، وأرجو أن يكون ذلك موضوعاً عني مغفوراً لي إذا علم مني الحرص والاجتهاد، ألا وإنه لا إذن على مظلوم دوني وأنا معول كل مظلوم، ألا وأي عامل من عمالي رغب عن الحق ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم، وقد صيرتُ أمره إليكم حتى يراجع الحق وهو ذميم، ألا وإنه لا دولة بين أغنيائكم، ولا أثرة على فقرائكم في شيء من فيئكم، ألا وأيما وارد ورد في أمر يصلح الله به خاصاً أو عاماً من هذا الدين فله ما بين مئتي دينار إلى ثلاثمئة دينار على قدر ما نوى من الحسنة وتجشم من المشقة، رحم الله امرأً لم يتعاظمه سفر يجيء الله به حقاً لمن وراءه، ولولا أن أشغلكم عن مناسككم لرسمت لكم أموراً من الحق أحياها الله لكم، وأموراً من الباطل أماتها الله عنكم، وكان الله هو المتوحد بذلك، فلا تحمدوا غيره، فإنه لو وكلني إلى نفسي كنت كغيري، والسلام[3].

فهذا كتاب عظيم من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في محاربة الظلم وإقرار العدل، فهو قد سعى جاهداً في رد المظالم التي عرف عنها، ولكنه يتوقع أن هناك مظالم لم تصل إليه، فكتب هذا الكتاب وأعلنه في موسم الحج الذي يضم وفوداً من أغلب بلاد المسلمين، لتبرأ ذمته من مظالم خفية لم تبلغه، وأعلن في هذا الكتاب براءته من الولاة الذين يقع منهم شيء من الظلم، وربط طاعتهم بطاعة الله تعالى، فهو بهذا يجعل كل فرد من أفراد الأمة رقيباً على أمير بلده، يسعى في تثبيته إذا استقام، وفي تقويمه إذا انحرف...

ومن أروع ما جاء في هذا الكتاب تخصيص مبلغ من المال لمن يسعى في إصلاح أمور الأمة، وفي ذلك ضمان النفقة لمن أراد أن يسافر من أجل ذلك حتى لا يفقد به التفكر في تأمين تلك النفقة، ثم يختم كتابه بشكر الله جلَّ

---

[1] المصدر السابق نفسه، ص 337، 338.

[2] المصدر السابق نفسه، ص 339.

[3] حلية الأولياء (293292/5).

وعلا على ما وفقه إليه من الإصلاح الذي تحقق على يديه، وهذا مثل من الإخلاص القوي لله تعالى بحيث يتلاشى حظ النفس، ولا يكون إلا لطف الله جل وعلا وتوفيقه ومعونته[1].

فهذا دليل على تطبيق عمر لمبدأ تحري ومراعاة أهمية الوقت، حيث لم يقتصر عمر في إدارته للوقت على اغتنام الوقت وإدراك أهميته، بل كانت إدارة كاملة لكل مقتضيات اغتنام الوقت وكل ما يتعلق به من ضرورة سرعة اتخاذ القرارات والتوجيه في الأوقات المناسبة، والعمل على تلافي التأخير وأسبابه ودوافعه[2].

عاشراً: مبدأ تقسيم العمل في إدارة عمر بن عبد العزيز:

كان عمر بن عبد العزيز قد أشار بصراحة إلى مبدأ تقسيم العمل ومهام المسؤولية للدولة، فقد كان في كتابه إلى عقبة بن زرعة الطائي، بعد أن ولاه خراج خراسان:...إن للسلطان أركاناً لا يثبت إلا بها، فالوالي ركن، والقاضي ركن، وصاحب بيت المال ركن، والركن الرابع: أنا . يعني الخليفة[3].

هذا من حيث التقسيم الرئيسي العام، فبالإضافة إلى الأركان الرئيسية لإدارته، وهي: الولاية ويمثلها الوالي للإقليم، والقضاء ويمثله القاضي، ومالية الدولة ويمثلها رجل أو صاحب بيت المال، والرابع السلطة العليا للدولة رجل الدولة أو الخليفة ويمثلها أمير المؤمنين.

إلا أن هناك تقسيمات فرعية لمهام الدولة؛ منها ما يتعلق بإمارة الجهاد، فقد كان منصور بن غالب على ولاية الحرب[4]، وعلى الصائفة كل من الوليد بن هشام، وعمرو بن قيس السكوني[5]. وقسم آخر وهو ما يتعلق بالأمن الداخلي، إذ استعمل عمر بن يزيد بن بشر الكلبي على الشرطة[6]، وولى الحرس عمر بن مهاجر بن أبي مسلم الأنصاري، وحاجبه حبيش مولاه، وأنشأ نقاط العبور وولى عليها، مثل جواز مصر، وكان عليها عمر بن رزيق الأيلي، وهي ما يعرف الآن بنقاط الجمارك[7]، وقسم ثالث يختص بالكتابة (الكتاب)، ومنهم ليث بن أبي رقية ابن أم الحكم بنت أبي سفيان[8]، والخاتم وعليه نعيم بن سلامة[9]، وقسم يتولى متابعة الشؤون المالية، وله تفريعات؛ منها:

---

(1) التاريخ الإسلامي (151/16).

(2) النموذج الإداري، ص 340.

(3) تاريخ الطبري؛ نقلاً عن النموذج الإداري، ص 342.

(4) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص 71.

(5) تاريخ خليفة، ص 324.

(6) المصدر السابق نفسه.

(7) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص 344.

(8) تاريخ خليفة، ص 324.

(9) المصدر السابق نفسه، ص 325.

الخراج، ومن ولاته على الخراج عقبة بن زرعة الطائي[1]، والصدقات إذ وليها لعمر عبد الله بن عبد الرحمن بن عتبة القرشي[2]. وهي تمثل مؤسسة النقد في الوقت الراهن، وليها لعمر ابن أبي حملة القرشي[3]، وكذلك الخراج المركزي وكان عليه صالح بن جبير الغداني[4].

وأما في مجال التعليم والتثقيف فقد أنشأ عمر مجالس التعليم الدائمة في المساجد، وكلف من يقوم بالتفقيه والتعليم المتنقل في البداية، كما كلف أناساً بالدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأقام دور الإفتاء؛ إذ جعل الفتيا في مصر إلى ثلاث فقهاء[5].

بالإضافة إلى ما سبق فقد كان هناك ولايات أخرى، مثل: ولاية الصلاة وولاية الحج وتسيير أموره، والبريد، وغير ذلك مما لا يسعفنا المقام بالإحاطة والتفصيل له، وهكذا كان عمر بن عبد العزيز يطبق مبدأ تقسيم العمل في دولته[6]، فقد كان رحمه الله رجل دولة من الطراز الأول.

هذا وقد كان عمر بن عبد العزيز في كثير من الأحيان يعطي الولاة الحق في تعيين وزرائهم، وتشكيل مجالس شوراهم، ولهم حق الإشراف على جيش الولاية، والحفاظ على الأمن الداخلي في الولاية، والنفقات اللازمة لكل ولاية مع الأشراف والمتابعة...إلخ. هذه بعض الملامح والمعالم من فقه عمر بن عبد العزيز في إدارته للدولة.

. من أسباب نجاح مشروع عمر بن عبد العزيز الإصلاحي:

كانت هناك عوامل متعددة ساهمت في نجاح مشروعه الإصلاحي؛ منها:

1 . صفاته الشخصية؛ من العلم والورع والخشية والزهد والتواضع والحلم والصفح والعفو والحزم والعدل، مع قدرات إدارية كبيرة في فن التخطيط والتنظيم والقيادة والتوجيه ومعرفة الناس.

2 . امتلاكه لرؤية إصلاحية تجديدية واضحة المعالم، هدفها الرجوع بالدولة والأمة لمنهج الخلافة الراشدة على منهاج النبوة.

3 . التفاف الأمة حول هذا المشروع عندما لمست صدق المشرف عليه وإخلاصه.

4 . وجود كوكبة من العلماء الربانيين في عهده كانوا مؤهلين لقيادة الدولة والأمة، فلما جاءت الفرصة بوصول عمر بن عبد العزيز للحكم وأتاح لهم المجال؛ أبدعوا وأثبتوا جدارتهم فيما أسند لهم من مهام كبرى، وهذا درس

---

[1] تاريخ الطبري؛ نقلاً عن النموذج الإداري، ص 344.

[2] أمراء دمشق في الإسلام، ص 48.

[3] عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص 295.

[4] تاريخ خليفة، ص 324.

[5] البداية والنهاية؛ نقلاً عن النموذج الإداري، ص 344.

[6] النموذج الإداري، ص 345.

مهم في أهمية تكامل العلم الشرعي، والأمانة والتقوى مع القدرات القيادية في شخصية العلماء الربانيين، فذلك يساعدهم على تحكيم شرع الله من خلال مناصب الدولة وقيادة الجماهير والتفاهم حول المشروع الإسلامي الكبير.

5 . الحرص على تحكيم الشرع في كل صغيرة وكبيرة، على مستوى الدولة والأمة، فيأتي بذلك التوفيق الرباني، قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ} [الأعراف: 96]

. أثر الالتزام بأحكام القرآن والسنة الشريفة على دولة عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

إن التأمل في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وفي حياة الأمم والشعوب؛ تعطي العبد معرفة أصيلة بأثر سنن الله في الأنفس والكون والآفاق، وأوضح مكان لسنن الله وقوانينه كتاب الله تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [النساء:26].

وسنن الله تتضح بالدراسة فيما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمطالعة في سنته صلى الله عليه وسلم، فقد كان يقتنص الفرص والأحداث ليدل أصحابه على شيء من السنن، ومن ذلك أن ناقته صلى الله عليه وسلم (العضباء) كانت لا تسبق، فحدث مرة أن سبقها أعرابي على قعود له، فشق ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لهم صلى الله عليه وسلم كاشفاً عن سنة من سنن الله: «حق على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه»[1]. وقد أرشدنا كتاب الله إلى تتبع آثار السنن في الأمكنة بالسعي والسير، وفي الأزمنة من التاريخ والسير؛ قال تعالى: {الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: 137 . 138]، وأرشدنا القرآن الكريم إلى معرفة السنن بالنظر والتفكر؛ قال تعالى: {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيات وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ * فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ} [يونس: 101 . 102].

من خصائص السنن الإلهية:

1 . أنها قدر سابق:

قال تعالى: {مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا} [الأحزاب: 38] أي: أن حكم الله تعالى وأمره الذي يقدره كائن لا محالة وواقع لا حيد عنه، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

2 . أنها لا تتحول ولا تتبدل:

---

[1] البخاري، كتاب الجهاد والسير، رقم (2872).

قال تعالى: {لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً * سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً} [الأحزاب: 60 ـ 62].

وقال تعالى: {وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا * سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً} [الفتح: 22 ـ 23].

3 ـ أنها ماضية لا تتوقف:

قال تعالى: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ} [الأنفال:38]

4 ـ أنها لا تخالف ولا تنفع مخالفتها:

قال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ} [غافر:82 ـ 85].

5 ـ أنها لا ينتفع بها المعاندون، ولكن يتّعظ بها المتقون:

قال تعالى: {قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: 137 ـ 138].

6 ـ أنها تسري على البر والفاجر:

فالمؤمنون ـ والأنبياء أعلاهم قدراً ـ تسري عليهم سنن الله، ولله سنن جارية تتعلق بالآثار المترتبة على من امتثل شرع الله أو أعرض عنه[1].

وللحكم بما أنزل الله آثار دنيوية وأخرى أخروية:

أما الآثار الدنيوية التي ظهرت في دولة عمر بن عبد العزيز فهي:

1 ـ الاستخلاف والتمكين:

حيث نجد أن عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ مكن الله له في الأرض تمكيناً عظيماً بسبب حرصه على إقامة شرع الله تعالى في نفسه وأهله ومن حوله، وقومه وأمته، وأخلص لله في مشروعه الإصلاحي الراشدي، فأيده الله عز وجل وشد أزره، فقد أخذ بشروط التمكين وعمل بها؛ فتحقق له وعد الله، قال تعالى:. وهذه سنة ربانية نافذة

---

[1] الحكم والتحاكم في خطاب الوحي(667/2، 669).

{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا}[النور: 55] تتبدل في الشعوب والأمم التي تسعى جاهدة وجادة لإقامة شرع الله.

2 . الأمن والاستقرار:

كانت الثورات في العهد الأموي على أشدها ضد النظام السائد، وخصوصاً من الخوارج، إلا أنَّ عمر بن عبد العزيز استطاع بالحوار والنقاش أن يقنع الكثير منهم، ولقد تميز عهده بالأمن والاستقرار بسبب عدله في الحكم ورفعه للمظالم، واحترامه الكبير لكل شرائح المجتمع، وحرصه على تطبيق الشريعة في كافة شؤون الحياة؛ قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ }[الأنعام:82].

3 . النصر والفتح المبين:

إن عمر بن عبد العزيز حرص على نصرة دين الله بكل ما يملك، وتحققت فيه سنة الله في نصرته لمن ينصره، لأن الله ضمن لمن استقام على شرعه أن ينصره على أعدائه بعزته وقوته، قال تعالى: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ} [الحج: 40 . 41]؛ فقد وعد الله من ينصره؛ هو نصر كتابه ودينه ورسوله، لا نصر من يحكم بغير ما أنزل الله ولا يتكلم بما لا يعلم[1]. كما نرى في حياتنا المعاصرة.

4 . العز والشرف:

إن الشرف الكبير والعز العظيم الذي سطر في كتب التاريخ عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بسبب تمسكه بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وإن من يعتز بالانتساب لكتاب الله الذي به تشرف الأمة ويعلو ذكرها وضع رجله على الطريق الصحيح، وأصاب سنة الله الجارية في إعزاز وتشريف من يتمسك بكتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ قال تعالى: {لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}[الأنبياء: 10]، قال ابن عباس . رضي الله عنه . في تفسيره هذه الآية: فيه شرفكم[2]. فهذه الأمة لا تستمد الشرف والعزة إلا من استمساكها بأحكام الإسلام.

5 . بركة العيش ورغد الحياة في عهده:

قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}[الأعراف:96].

---

[1] صفحات مشرقة من التاريخ، للصّلابي(306/2).

[2] تفسير ابن كثير(170/3).

إن إقامة شرع الله تعالى وتطبيق أحكامه يجلب للأمة بركات مادية ومعنوية، فمن حقق الإيمان والتقوى يكرمه الله بهذا العطاء الرباني الكبير. والبركات التي يعد الله بها الذين يؤمنون ويتقون في توكيد ويقين، ألوان شتى، لا يفصلها النص ولا يحددها، وإيماء النص القرآني يصور الفيض الهابط من كل مكان، النابع من كل مكان بلا تحديد ولا تفصيل ولا بيان؛ فهي البركات بكل أنواعها وألوانها، وبكل صورها وأشكالها، وما يعهده الناس وما يتخيلونه، وما لم يتهيأ لهم في واقع الخيال[1].

ولقد لامس الناس وشاهدوا هذه البركات في عهد عمر بن عبد العزيز؛ سواء كانت مادية أو معنوية، وفوجئ الناس أن بركة العيش ورغد الحياة قد عم جميع الناس، ومالية الدولة قويت، واطمأن الناس في كل رقعة من رقع خلافة الدولة الأموية الواسعة، حتى عز وجود من يستحق الزكاة ويقبلها، وأصبحت هذه مشكلة للأغنياء وأصحاب الأموال تطلب حلاً سريعاً، قال يحيى بن سعيد: بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقتضيتها، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيراً، ولم نجد من يأخذها مني، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس، فاشتريت بها رقاباً، فأعتقتهم وولاؤهم للمسلمين[2].

وقال رجل من ولد زيد بن الخطاب: إنما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصف، فذلك ثلاثون شهراً، فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم، فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء، فما يبرح بماله يتذكر من يضعه فيهم فما يجده فيرجع بماله، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس[3]. فهذه الفوائد العامة من بركات الحكومة الإسلامية التي تطبق شرع الله تعالى.

6 . انتشار الفضائل وانزواء الرذائل:

بين الشريعة وبين الخلق أوثق الرباط وأمتن العرى، كيف لا، والرسالة من غاياتها العظمى: تزكية الأخلاق وتربية الفضائل؛ قال تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ}[آل عمران: 164]. فمعنى يزكيهم: أي يأمرهم، وينهاهم عن المنكر لتزكو نفوسهم وتطهر من الدنس والخبث الذي كانوا متلبسين به حال شركهم وجاهليتهم[4].

ولقد اهتم عمر بن عبد العزيز بنشر الفضائل، وحارب الرذائل وتحركت معه مدرسة الوعظ والإرشاد والتزكية والتربية، والتي كان من روادها الحسن البصري، وأيوب السختياني، ومالك بن دينار وغيرهم، وقد حققت هذه المدرسة نتائج باهرة في نشر الفضائل وانزواء الرذائل.

---

[1] في ظلال القرآن(1339/3).

[2] رجال الفكر والدعوة(58/1).

[3] المصدر السابق نفسه.

[4] تفسير ابن كثير(401/1)؛ الحكم والتحاكم (691/2).

وقد حدث في عهد عمر بن عبد العزيز تجديد كبير في توجه الأمة والمجتمع الإسلامي والتطور في الأذواق والأخلاق والميول والرغبات في هذه المدة القصيرة؛ فقد حدَّث الطبري في تاريخه: كان الوليد صاحب بناء واتخاذ المصانع والضياع، وكان الناس يلتقون في زمانه فإنما يسأل بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع، فولي سليمان فكان صاحب نكاح وطعام، فكان الناس يسأل بعضهم بعضاً عن التزويج والجواري، فلما ولي عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل: ما وراءك الليلة؟ وكم تحفظ من القرآن؟ ومتى تختم؟ ومتى ختمت؟ وما تصوم من الشهر[1]؟

7 . الهداية والتثبيت:

جاء عن عمر بن عبد العزيز في خطابه الذي أرسل ليقرأ على الحجاج في موسم الحج:... ولولا أن أشغلكم عن مناسككم لرسمت لكم أموراً من الحق أحياها الله لكم، وأموراً من الباطل أماتها الله عنكم، وكان الله هو المتوحد بذلك؛ فلا تحمدوا غيره، فإنه لو وكلني إلى نفسي كنت كغيري والسلام عليكم[2].

ولا شك أن عمر بن عبد العزيز حرص على تحكيم شرع الله في دولته وبذلك منحه الله نعمة عظيمة؛ ألا وهي الهداية والتثبيت على الحق، قال تعالى: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: 65]. ثم قال سبحانه وتعالى بعدها: {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لآَتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا}[النساء: 66 . 68]، والأمر الذي وعظوا به ووعدوا الخير لأجله: هو تحكيم الشريعة والانقياد للرسول صلى الله عليه وسلم، فلو أنهم امتثلوا لما أمروا لثبت الله أقدامهم على الحق فلا يضطربون في دينهم، ولآتاهم الهداية التي لا عوج فيها بحيث توصلهم إلى الأجر العظيم[3].

إن الهداية والثبات على الأمر، هبة يهبها الله لمن تمخض قلبه لأمره، وانقادت جوارحه لحكمه[4].

إن خلافة عمر بن عبد العزيز حجة تاريخية على من لا يزال يردد ترديد الببغاء للكلمات والأصوات القائلة: إن الدولة التي تقوم على الأحكام الإسلامية والشريعة عرضة للمشاكل والأزمات، وعرضة للانهيار في كل ساعة، وأنها ليست إلا حلماً من الأحلام، ولا يزال التاريخ يتحدى هؤلاء ويقول لهم[5]: {قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[البقرة: 111]

---

[1] تاريخ الطبري؛ نقلاً عن رجال الفكرة والدعوة (59/1).

[2] حلية الأولياء (293292/5).

[3] فتح القدير (485/1).

[4] الحكم والتحاكم (690/2).

[5] رجال الفكر والدعوة (59/1).

ومما أدهشني في دراستي التاريخية تواصل الأجيال الإسلامية فيما بينها عبر حلقات متماسكة تؤثر بعضها في بعض؛ فالسلطان نور الدين زنكي، المتوفى (568 هـ) كتب له الشيخ العلامة أبو حفص معين الدين عمر بن محمد بن خضر الإربلي سيرة عمر بن عبد العزيز لكي يسير نور الدين على منهاجها، ولقد آتت معالم الإصلاح والتجديد الراشدي في عهد عمر بن عبد العزيز ثمارها في الدولة الزنكية عندما وجدت العالم الكبير الذي رسم ملامح المشروع الإصلاحي وهو الشيخ أبو حفص معين الدين، واقتنع القائد العسكري والزعيم السياسي بسلامة المنهج وهو نور الدين زنكي، فقد قال أبو حفص في مقدمة كتابه ـ عن عمر بن عبد العزيز وتقديمه ذلك الكتاب لنور الدين:

«... علماً منه أن الاقتداء عن سلف الفضلاء والعقلاء يكمل الأجر ويبقي الذكر، واتباع سنن المهديين الراشدين يصلح السريرة ويحسن السيرة، وأن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بسلفه من الأنبياء؛ فقال عز من قائل: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ}[الأنعام: 90]، وقال تعالى: {وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ}[هود: 120].

فلذلك اشتد حرصه ـ أدام الله سعادته ـ على جمع السير الصالحة والآثار الواضحة، فحينئذ رأيت حقاً عليّ بذل الوسع في مساعدته واستنفاذ القوة في معاضدته بحكم صدق الولاء وأكيد الإخاء، فصرفت وجه همتي إلى جمع سيرة السعيد الرشيد عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ، والتجأت إلى الله الكريم جل اسمه أن يحسن معونتي ويُيسِّر ما صرفت إليه عزيمتي، فحين شرح الله صدري لذلك، ولاحت أمارات المعونة، بادرت إلى جمع هذه السيرة برسم خزانته المعمورة، معاونة على البر والتقوى»[1].

لقد قدم هذا الشيخ الجليل منهاجاً علمياً لنور الدين زنكي من خلال سيرة عمر بن عبد العزيز، فبنى دولة العقيدة. وحكم الشريعة، وأقام العدل ورفع الضرائب والمكوس عن الأمة، وعمل على إحياء السنة وقمع البدعة، وعمق هوية الأمة، وفجر روح الجهاد فيها ونشر العلم، وساهم في تحقيق الازدهار والرخاء، وكان نسيج وحده في زهده وورعه وعبادته وصدقه وإخلاصه، ومن أراد التوسع فليراجع الجهاد والتجديد في القرن السادس الهجري، عهد نور الدين وصلاح الدين، لمحمد حامد الناصر.

إن آثار تحكيم شرع الله في الشعوب التي نفذت أوامر الله ونواهيه ظاهرة بينة لدارس التاريخ، وإن تلك الآثار الطيبة التي أصابت دولة عمر بن عبد العزيز، ودولة نور الدين زنكي ودولة يوسف بن تاشفين ودولة محمد الفاتح؛ لهي سنن من سنن الله الجارية والماضية والتي لا تتبدل ولا تتغير، فأي قيادة مسلمة تسعى لهذا المطلب الجليل والعمل العظيم مخلصة لله في قصدها، مستوعبة لسنن الله في الأرض؛ فإنها تصل إليه ولو بعد حين، وترى آثار ذلك التحكيم على أفرادها ومجتمعاتها ودولها وحكامها.

---

[1] الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز(2/1).

إن الغرض من الأبحاث التاريخية الإسلامية الاستفادة الجادة من أولئك الذين سبقونا بالإيمان في جهادهم وعلمهم وتربيتهم، وسعيهم الدؤوب لتحكيم شرع الله، وأخذهم بسنن الله وفقهه، ومراعاة التدرج والمرحلية والارتقاء بالشعوب نحو الكمالات الإسلامية المنشودة، إن التوفيقات الربانية العظيمة في تاريخ أمتنا يجريها الله تعالى على يدي من أخلص لربه ودينه، وأقام شرعه وقصد رضاه وجعله فوق كل اعتبار.

الأيام الأخيرة في حياة عمر بن عبد العزيز ووفاته رحمه الله:

1 . آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز:

كانت آخر خطبة خطبها بخناصرة، فقال فيها: أيها الناس، إنكم لم تخلقوا عبثاً ولن تتركوا سدى، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم فيكم، والفصل بينكم، وقد خاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء، وحرم الجنة التي عرضها السموات والأرض، ألا واعلموا أنما الأمان غداً لمن حذر الله وخافه، وباع نافداً بباقٍ، وقليلاً بكثير، وخوفاً بأمان، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين، وسيخلفها بعدكم الباقون كذلك حتى ترد إلى خير الوارثين.

وفي كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله قد قضى نحبه وانقضى أجله، فتغيبونه في صدع من الأرض، ثم تدعونه غير موسد ولا ممهد، قد فارق الأحبة، وخلع الأسباب، فسكن التراب وواجه الحساب، فهو مرتهن بعمله، فقير إلى ما قدم، غني عما ترك، فاتقوا الله قبل نزول الموت وانقضاء مواقعه، وايم الله إني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما عندي، فأستغفر الله وأتوب إليه، وما منكم من أحد تبلغنا عنه حاجة إلا أحببت أن أسد من حاجته ما قدرت عليه، وما منكم أحد يسعه ما عندنا إلا وددت أنه سداي ولحمتي، حتى يكون عيشنا وعيشه سواء، وايم الله لو أردت غير هذا من النضارة والعيش، لكان اللسان مني به ذلولاً عالماً بأسبابه، ولكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة، يدل فيها على طاعته، وينهى عن معصيته.

ثم رفع طرف ردائه فبكى حتى شهق، وأبكى الناس حوله، ثم نزل فكانت إياها لم يخطب بعدها حتى مات رحمه الله[1].

2 . سقيه السم:

اختلفت الروايات عن سبب مرض وموت عمر بن عبد العزيز؛ فعلى حين تذكر الروايات أن سبب مرضه وموته هو الخوف من الله تعالى والاهتمام بأمر الناس كما روي عن زوجته فاطمة بنت عبد الملك، وكما ذكر ابن سعد

[1] تاريخ الطبري (475/7).

في الطبقات عن ابن لهيعة[1]، إلا أنه قد ذكر سبب آخر لموته؛ وهو: أنه سقي السم، وذلك أن بني أمية قد تبرموا وضاقوا ذرعاً من سياسة عمر بن عبد العزيز التي قامت على العدل، وحرمتهم من ملذاتهم وتمتعهم بميزات لا ينالها غيرهم، بل جعل بني أمية مثل أقصى الناس في أطراف دولة الإسلام، ورد المظالم التي كانت في أيديهم، وحال بينهم وبين ما يشتهون، فكاد له بعض بني أمية بوضع السم في شرابه[2].

وهذا ليس من المستبعد أو المستغرب أن يعمد أحد هؤلاء إلى سقيه السم ليتخلص منه، وليكن ذلك عن طريق خادمه الذي يقدم له الطعام والشراب، فقد روي: أنهم وعدوا غلامه بألف دينار وأن يعتق إن هو نفذ الخطة، فكان الغلام يضطرب كلما هم بذلك، ثم إنهم هددوا الغلام بالقتل إن هو لم يفعل، فلما كان مدفوعاً بين الترغيب والترهيب حمل السم فوق ظفره، ثم لما أراد تقديم الشراب لعمر قذف السم فيه ثم قدمه إلى عمر، فشربه ثم أحس به منذ أن وقع في بطنه[3].

وعن مجاهد قال: قال لي عمر بن عبد العزيز: ما يقول الناس في؟ قلت: يقولون: إنك مسحور. قال: ما أنا بمسحور، ثم دعا غلاماً له فقال له: ويحك ما حملك على أن تسقيني السم؟ قال: ألف دينار أعطيتها وعلى أن أعتق، قال: هاتِ الألف، فجاء بها فألقاها عمر في بيت المال. وقال: اذهب حيث لا يراك أحد[4].

فالسبب المباشر لمرضه وموته هو ـ كما ذكرت الروايات ـ كان بسبب سقيه السم[5]، ففي عفوه عن غلامه الذي وضع له السم وتسبب في قتله وهو قادر على أن يقتله شر قتلة، وفي عدم استفهامه من الغلام عن من أمره بوضع السم وقد كان يستطيع إرغام الغلام والاعتراف بذلك ثم يأمر بالقصاص منهم جميعاً، مثل عجيب في العفو، وسبب ذلك لأنه كان يوقن أن ما عند الله خير، وأنه إن عفا عنه حصل له الثواب من الله تعالى على عفوه، وإن انتصر منه فأقام عليه الحد لم يأثم، ولكنه لا يحصل على أجر العفو، ونظراً إلى أن أغلى شيء عنده في هذه الحياة أن يرتفع رصيده من الحسنات؛ فإنه قد فضل العفو على انتصاره للنفس[6].

3 ـ شراء عمر موضع قبره:

بلغ من تواضع عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أنه عندما ذكروا له ذلك الموضع الرابع في حجرة عائشة، والتي فيها قبر النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر، فقالوا: لو دنوت من المدينة حتى تدفن معهم، قال: والله لا يعذبني الله عذاباً ـ إلا النار فإني لا صبر بي عليها ـ أحب إلي من أن يعلم الله من قلبي أني أراني لذلك أهلاً[7].

---

[1] فقه عمر بن عبد العزيز (43/1)؛ الحلية (342/5).

[2] فقه عمر بن عبد العزيز(43/1).

[3] سيرة عمر، لابن الجوزي، ص 316، 317.

[4] تذكرة الحفاظ(120/1).

[5] فقه عمر بن عبد العزيز(44/1).

[6] التاريخ الإسلامي(229/16).

[7] سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص 324،321؛ فقه عمر بن عبد العزيز(45/1).

ويأبى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ إلا أن يشتري موضع قبره من ماله الخاص، وذلك بسبب ورعه ومحاسبته الشديدة لنفسه، فقد جاءت الروايات: أنه قال لمن حوله ـ وهو في مرض موته ـ: اشتروا من الراهب موضع قبري، فقال له النصراني: والله يا أمير المؤمنين إني لأتبرك بقربك وجوارك، وإنها لخيرة أن يكون قبرك في أرضي، قد أحللتك، ويأبى عمر قائلاً: إن بعتموني موضع قبري وإلا تحولت عنكم، ثم دعا بالثمن الذي اختلفت الروايات في مقداره؛ فقيل: ديناران، وقيل: ستة، وقيل: ثلاثين، دعا بالثمن فوضعه في يد النصراني، فقال أصحاب الأرض: لولا أنا نكره أن يتحول عنّا ما قبلنا الثمن[1].

4 ـ وصيته لولي عهده يزيد بن عبد الملك:

كتب عمر بن عبد العزيز إلى يزيد بن عبد الملك ـ وهو في مرض الموت ـ قائلاً: بسم الله الرحمن الرحيم: من عبد الله عمر ـ أمير المؤمنين ـ إلى يزيد بن عبد الملك، السلام عليك:

فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد: فإني كتبت إليك وأنا دنف[2] من وجعي، وقد علمت أني مسؤول عما وليت يحاسبني عليه مليك الدنيا والاخرة، ولست أستطيع أن أخفي عليه من عملي شيئاً، يقول تعالى فيما يقول: {فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ} [الأعراف: 7] فإن يرضى عني الرحيم فقد أفلحت ونجوت من الهول، وإن سخط علي فيا ويح نفسي إلى ما أصير، أسأل الله الذي لا إله إلا هو، أن يجيرني من النار برحمته، وأن يمنَّ علي برضوانه والجنة. وعليك بتقوى الله، والرعية الرعية، فإنك لن تبقى بعدي إلا قليلاً حتى تلحق باللطيف الخبير[3].

وجاء في رواية:... فإن سليمان بن عبد الملك، كان عبداً من عباد الله، قبضه الله واستخلفني وبايع لي من قبله، وليزيد بن عبد الملك إن كان من بعدي، ولو كان الذي أنا فيه لاتخاذ أزواج، أو اعتقاد أموال كان الله قد بلغ بي أحسن ما بلغ بأحد من خلقه، ولكني أخاف حساباً شديداً ومسألة لطيفة، إلا ما أعان الله عليه، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

لقد نصح عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ لولي عهده يزيد بن عبد الملك ما وسعه النصح، وبذل ما يقدر عليه من التخويف والتهديد من عاقبة الأمر، مع ضرب الأمثلة والاعتبار بالسابقين، فقد نصح وبلَّغ أتم البلاغ[4].

5 ـ وصيته لأولاده عند الموت:

---

[1] سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص 322، 323.

[2] دنف: براه المرض حتى أشفى على الموت.

[3] سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص 318، 319؛ فقه عمر بن عبد العزيز (47/1).

[4] فقه عمر بن عبد العزيز (47/1).

لما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة دخل عليه مسلمة بن عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين إنك قد أفغرت أفواه ولدك من هذا المال، فلو أوصيت بهم إليَّ وإلى نظرائي من قومك فكفوك مؤونتهم، فلما سمع مقالته قال: أجلسوني، فأجلسوه فقال: قد سمعت مقالتك يا مسلمة، أما قولك: إني قد أفغرت أفواه ولدي من هذا المال، فوالله ما ظلمتهم حقاً هو لهم، ولم أكن لأعطيهم شيئاً لغيرهم، وأما ما قلت في الوصية؛ فإن وصيتي فيهم: {إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ}[الأعراف: 196]. وإنما ولد عمر بين أحد رجلين: إما صالح فسيغنيه ، وإما غير ذلك فلن أكون أول من أعانه بالمال على معصية الله، ادع لي بَنِيَّ، فأتوه، فلما رآهم ترقرقت عيناه، وقال: بنفسي فتية تركتهم عالة لا شيء لهم . وبكى .، يا بني إني قد تركت لكم خيراً كثيراً، لا تمرون بأحد من المسلمين وأهل ذمتهم إلا رأوا لكم حقاً، يا بني إني قد مثلت بين الأمرين: إما أن تستغنوا وأدخل النار، أو تفتقروا وأدخل الجنة، فأرى أن تفتقروا إلى ذلك أحبّ إلي، قوموا عصمكم الله، قوموا رزقكم الله[1].

وجاء في رواية: أن عمر وصى مسلمة أن يحضر موته وأن يلي غسله وتكفينه، وأن يمشي معه إلى قبره، وأن يكون مما يلي إدخاله في لحده، ثم نظر إليه وقال: انظر يا مسلمة بأي منزل تركتني، وعلى أي حال أسلمتني إليه الدنيا، فقال له مسلمة: هذه مئة ألف دينار، فأوصي فيها بما أحببت، قال: أو خير من ذلك يا مسلمة؟ أن تردها من حيث أخذتها، قال مسلمة: جزاك الله عنا خيراً يا أمير، والله لقد ألنت قلوباً قاسية، وجعلت لنا ذكراً في الصالحين[2].

وفي الأثرين الماضيين دروس وعبر؛ ففي الخبر الأول مثل من ورع أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى حتى في وصيته لأولاده بعد موته، حيث لم يرضَ لنفسه أن يفارق الدنيا وقد حمل ذمته شيئاً لا يدري على أي وضع يكون تنفيذه، فربما تصور أنه لو أوصى بهم أحد أقاربه لأعطاهم من مصدر لا يحل، فيلحقه بذلك شيء من الإثم، فلجأ إلى الله تعالى وفوض أمرهم إليه، لقد تصور في معاملة أولاده وقوعه بين أمرين: أن يغنيهم في الحياة الدنيا، وذلك يمنحهم شيئاً من المال العام للمسلمين، فيتعرض بذلك للفحات النار، أو أن يكتفي بالإنفاق عليهم من المورد القليل الحلال الخالي من الشبهات فيتعرض بذلك لنفحات الجنة، فاختار الطريق الأخير مع ثقته أن لن يضيعهم، وقد أشار إلى أنه ترك لهم السمعة العالية، حيث سيكونون موضع احترام وعطف جميع المسلمين وأهل الذمة، وأكرم بذلك من تركة! إنها تركة عظيمة لا تقدر بها أموال الدنيا عند أصحاب الأفكار النيرة والعقول المبصرة.

وفي قوله: (إنما ولد عمر بين رجلين: إما رجل صالح فسيغنيه الله، وإما غير ذلك فلن أكون أول من أعانه بالمال على معصية الله) لفتة جليلة إلى معية الله تعالى لأوليائه بالحفظ أخذاً من قول الله تعالى: {وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ}، وإشارة إلى أن الأمر المهم أن يبذل الوالد أقصى جهده في تربية أولاده على الصلاح ليحفظهم الله تعالى، وليس

[1] سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص 115، 116؛ التاريخ الإسلامي (220/16).

[2] سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص 122، 123؛ التاريخ الإسلامي (222/16).

المهم أن يسعى في جمع المال لهم حتى يغتنوا من بعده، لأنهم إن لم يكونوا صالحين فسيكون ذلك المال عوناً لهم على معصية الله تعالى[1].

وأما في الأثر الثاني فيوجه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ابن عمه مسلمة بن عبد الملك إلى التحري في اكتساب المال، ويبين له أن إنفاق المال بالصدقة أو الهدية لا يجعله حلالاً، بل لابد من التحري في كسبه، فإذا لم يكن للإنسان حق فيه وجب عليه أن يرده إلى مستحقيه، ولا يبرئ ساحته أن يتصدق به أو يهديه[2].

6 . وصيته إلى من يغسله ويكفنه:

عن رافع بن حفص المدني أن عمر قال لرجاء: إذا أنا مت وغسلتموني وكفنتموني وصليتم علي وأدخلتموني لحدي، فاجذب اللبنة من عند رأسي، فإن رأيت وجهي إلى القبلة فاحمدوا الله وأثنوا عليه، وإن رأيت قد زويت عنها، فاخرج إلى المسلمين ما داموا عند لحدي حتى يستوهبوني من ربي، قال: فلما وضع في لحده وأقبل باللبن على وجهه جذبت اللبنة من عند رأسه فإذا وجهه إلى القبلة، فحمدنا الله وأثنينا عليه[3].

7 . كراهته تهوين الموت عليه:

قال عمر بن عبد العزيز: ما أحبّ أن يخفف عني سكرات الموت لأنه آخر ما يرفع للمؤمن من الأجر[4]. وفي رواية: ما أحب أن يخفف عني سكرات الموت؛ لأنه آخر ما يكفر به عن المرء المؤمن[5].

8 . حاله لما احتضر:

لما احتضر عمر بن عبد العزيز، قال: اخرجوا عني فلا يبقين عندي أحد. وكان عنده مسلمة بن عبد الملك، فخرجوا، وقعد مسلمة وفاطمة زوجه أخت مسلمة على الباب، فسمعوه يقول: مرحباً بهذه الوجوه، ليست وجوه إنس ولا بوجوه جان[6]، وجاء في رواية:...قالت فاطمة بنت عبد الملك: كنت أسمع عمر يقول في أيام مرضه: اللهم أخفِ عنهم موتي ولو ساعة من نهار، فلما كان اليوم الذي قبض فيه خرجت من عنده، وجلست في بيت بيني وبينه باب، فسمعته يقول: {تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}[القصص: 83]. ثم هدأ فجعلت لا أسمع له صوتاً ولا حساً ولا كلاماً. فقلت لوصيف كان يخدمه: لو

---

(1) التاريخ الإسلامي (222/16).

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز(644/2، 645).

(4) المصدر السابق نفسه (648/2).

(5) المصدر السابق نفسه.

(6) المصدر السابق نفسه (652/2).

دخلت على أمير المؤمنين، فدخل وصاح، فقمت ودخلت عليه وقد أقبل بوجهه إلى القبلة وأغمض عينيه بإحدى يديه وأغمض فمه بالأخرى، ومات رحمه الله[1].

وجاء في رواية: أن عمر بن عبد العزيز لما كان مرضه الذي هلك فيه قال لهم: أجلسوني، فأجلسوه، ثم قال: أنا الذي أمرتني فقصرت، ونهيتني فعصيت، ولكن لا إله إلا الله، ثم رفع رأسه وأحدَّ النظر فقالوا له: إنك لتنظر نظراً شديداً، فقال: إني لأرى حضرة ليست بإنس ولا جن، ثم قبض[2]. وكان نقش خاتمه: عمر بن عبد العزيز يؤمن بالله.

9 . تاريخ وفاته:

توفي الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز يوم الجمعة لعشر ليال بقين من رجب سنة (101 هـ) على أصح الروايات، واستمر معه المرض عشرين يوماً، وتوفي بدير سمعان من أرض المعرة بالشام بعد خلافة استمرت سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام، وتوفي وهو ابن تسع وثلاثين سنة وخمسة أشهر، وعلى أصح الروايات كان عمره لما توفي أربعين سنة[3].

10 . الأموال التي تركها عمر بن عبد العزيز:

اختلفت الروايات على مقدار تركة عمر بن عبد العزيز حين توفي، ولكن الروايات متفقة على قلة التركة وانعدامها[4]، ومن هذه الروايات ما رواه عمر بن حفص المعيطي قال: حدثنا عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: كم ترك لكم من المال؟ فتبسم وقال: حدثني مولى لنا كان يتولى نفقته، قال: قال لي عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ حين احتضر: كم عندك من المال؟ قلت: أربعة عشر ديناراً، قال: فقال: تحتملون بها من منزل إلى منزل، فقلت: كم ترك من النحلة؟ قال: ترك لنا نحلة ستمئة دينار ورثناها عنه عن اختيار عبد الملك، وتركنا اثني عشر ذكراً وست نسوة، فقسمناها على خمس عشرة[5]. والصحيح أن الذكور الذين ورثوه هم أحد عشر ذكراً، لوفاة ابنه عبد الملك قبله[6].

وقال ابن الجوزي: بلغني أن المنصور قال لعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: عظني. قال: مات عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ وخلَّف أحد عشر ابناً، وبلغت تركته سبعة عشر ديناراً، كفن منها بخمسة دنانير، وثمن موضع قبره ديناران، وقسم الباقي على بنيه، وأصاب كل واحد من ولده تسعة عشر

---

[1] المصدر السابق نفسه (653/2).

[2] المصدر السابق نفسه (654/2).

[3] تاريخ القضاعي، ص 363.

[4] فقه عمر بن عبد العزيز (50/1)؛ تذكرة الحفاظ (118/1).

[5] سيرة عمر، لابن الجوزي، ص 337.

[6] فقه عمر بن عبد العزيز(55/1).

درهماً، ومات هشام بن عبد الملك وخلف أحد عشر ابناً فقسمت تركته وأصاب كل واحد من تركته ألف ألف، ورأيت رجلاً من ولد عمر بن عبد العزيز قد حمل في يوم واحد على مئة فرس في سبيل الله عز وجل، ورأيت رجلاً من ولد هشام يتصدق عليه[1].

ومّما مضى يظهر لنا جلياً أن المال الذي ورثه عمر بن عبد العزيز من أبيه ـ وهو مال كثير ـ أخذ في التناقص حتى توفي ـ رحمه الله ورضي الله عنه[2].

11 ـ ثناء الناس على عمر بن عبد العزيز بعد وفاته:

أ ـ مسلمة بن عبد الملك: حين توفي عمر ورآه مسجى، قال: يرحمك الله! لقد لينت لنا قلوباً قاسية، وأبقيت لنا في الصالحين ذكراً[3].

ب ـ فاطمة بنت عبد الملك: فعن وهيب بن الورد، قال: بلغنا أن عمر بن عبد العزيز لما توفي جاء الفقهاء إلى زوجته يعزونها، فقالوا لها: جئناك لنعزيك بعمر، فقد عمت مصيبة الأمة، فأخبرينا يرحمك الله عن عمر: كيف كانت حاله في بيته؟ فإن أعلم الناس بالرجل أهله. فقالت: والله ما كان عمر بأكثركم صلاة ولا صياماً ولكني والله ما رأيت عبداً لله قط أشد خوفاً لله من عمر، والله إن كان ليكون من المكان الذي ينتهي إليه سرور الرجل بأهله، بيني وبينه لحاف، فيخطر على قلبه الشيء من أمر الله، فينتفض كما ينتفض طائر وقع في الماء، ثم يرتفع بكاؤه حتى أقول: والله لتخرجن نفسه، فأطرح اللحاف عني وعنه، رحمة له وأنا أقول: يا ليتنا كان بيننا وبين هذه الإمارة بعد المشرقين، فوالله ما رأينا سروراً منذ دخلنا فيها[4].

جـ الحسن البصري: لما أتى الحسن موت عمر بن عبد العزيز، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، يا صاحب كل خير[5].

د ـ مكحول: ما رأيت أزهد ولا أخوف لله من عمر بن عبد العزيز.

هـ يزيد بن حوشب: ما رأيت أخوف من الحسن البصري وعمر بن عبد العزيز[6]، كأن النار لم تخلق إلا لهما[7].

و ـ بكاء الرهبان عليه: عن الأوزاعي قال: شهدت جنازة عمر بن عبد العزيز، ثم خرجت أريد مدينة قنسرين، فمررت على راهب فقال: يا هذا أحسبك شهدت وفاة هذا الرجل، قال: فقلت له: نعم، فأرخى عينيه فبكى

---

[1] سيرة عمر، لابن الجوزي، ص 338.

[2] فقه عمر بن عبد العزيز (56/1).

[3] سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص 329.

[4] البداية والنهاية؛ نقلاً عن ملامح الانقلاب، ص 56.

[5] فقه عمر بن عبد العزيز (53/1).

[6] تاريخ الخلفاء، للسيوطي؛ نقلاً عن ملامح الانقلاب، ص 55.

[7] صفة الصفوة (156/3).

سجاماً، فقلت له: ما يبكيك ولست من أهل دينه؟ فقال: إني لست أبكي عليه، ولكن أبكي على نور كان في الأرض فطفئ[1].

ز . ملك الروم وبطارقته: بعث عمر بن عبد العزيز وفداً إلى ملك الروم في أمر من مصالح المسلمين، وحق يدعوه إليه، فلما دخلوا إذا ترجمان يفسر عليه وهو جالس على سرير ملكه، والتاج على رأسه والبطارقة على يمينه وشماله والناس على مراتبهم بين يديه، فأدى إليه ما قصدوه له فتلقاهم بجميل وأجابهم بأحسن الجواب، وانصرفوا عنه في ذلك اليوم، فلما كان في غداة غد أتاهم رسوله، فدخلوا عليه، فإذا هو قد نزل عن سريره ووضع التاج عن رأسه، وقد تغيرت صفاته التي شاهدوه عليها كأنه في مصيبة، فقال: هل تدرون لماذا دعوتكم؟ قالوا: لا، قال: إن صاحب مصلحتي التي تلي العرب جاء في كتابه في هذا الوقت: أن ملك العرب الرجل الصالح قد مات، فما ملكوا أنفسهم أن بكوا، فقال: ألكم تبكون، أو لدينكم، أو له؟ قالوا: نبكي لأنفسنا ولديننا وله، قال: لا تبكوا له، وابكوا لأنفسكم ما بدا لكم، فإنه خرج إلى خير مما خلف، وقد كان يخاف أن يدع طاعة الله، فلم يكن الله ليجمع عليه مخافة الدنيا ومخافته، لقد بلغني من بره وفضله وصدقه ما لو كان أحد بعد عيسى يحيي الموتى لظننت أنه يحيي الموتى، ولقد كانت تأتيني أخباره باطناً وظاهراً، فلا أجد أمره مع ربه إلا واحداً، بل باطنه أشد حين خلوته بطاعة مولاه، ولم أعجب لهذا الراهب الذي ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعته، ولكني عجبت من هذا الذي صارت الدنيا تحت قدمه فزهد فيها، حتى صار مثل الراهب، إن أهل الخير لا يبقون مع أهل الشر إلا قليلاً[2].

12 . ما نسب إليه من كرامات عند موته:

يحكى عن حسين القصار[3] قال: كنت أجلب الغنم في خلافة عمر بن عبد العزيز، فمررت يوماً براعٍ وفي غنمه نحو من ثلاثين ذئباً حسبتها كلاباً، فقلت له: يا راعي ما ترجوه بهذه الكلاب كلها؟ فقال: يا بني إنها ليست كلاباً إنما هي ذئاب. قلت: يا سبحان الله ذئب في غنم لا يضرها، فقال: يا بني إذا صلح الرأس فليس على الجسد من بأس[4].

ويبدو أن مثل هذه القصص من المبالغات، وإلا فإننا في عهد النبوة وقيام الدولة في المدينة وعهد الخلافة لم نسمع بأن الذئاب كانت ترعى مع الغنم.

وقد رئيت له منامات صالحة، وتأسف عليه الخاصة والعامة، لا سيما العلماء والزهاد والعباد[5].

13 . ما قيل فيه من رثاء:

---

[1] سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص 331.

[2] مروج الذهب (195/3)؛ فقه عمر بن عبد العزيز (54/1).

[3] لعله جسر القصاب: اختلف فيه، والأكثرون على تضعيفه.

[4] الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (670/2).

[5] البداية والنهاية (718/12).

أ. قال فيه كثير عزّة:

عمّت صنائعُه فعمَّ هلاكُه | فالناسُ فيه كلُّهم مأجورُ
والناسُ مأتمُهُم عليه واحدٌ | في كلِّ دارٍ رنَّةٌ وزفيرُ
يثني عليك لسانُ من لم تولِه | خيراً لأنَّك بالثناءِ جديرُ
ردتْ صنائعُه عليه حياتَهُ | فكأنَّه من نشرِها منشورُ[1]

ب. وقال جرير:

ينعي النعاةُ أميرَ المؤمنين لَنَا | يا خيرَ من حجَّ بيتَ اللهِ واعتمرا
حملتَ أمراً عظيماً فاضطلعتَ به | وقمتَ فيه بأمرِ الله يا عمرا
الشمسُ كاسفةٌ[2] ليست بطالعةٍ | تبكي عليكَ نجومُ الليلِ والقمرا[3]

جـ وقال محارب بن دثار:

لو أعظمَ الموتُ خلقاً أن يواقِعَه | لعدلِهِ لم يصبْك الموتُ يا عمرُ
كم من شريعةِ عدلٍ قد نعشتَ لهم | كادتْ تموتُ وأخرى منك تنتظرُ
يا لهفَ نفسي ولهفَ الواجدين معي | على العدولِ التي تغتالها الحفرُ
وأنت تتبعهم لم تألُ مجتهداً | سقياً لها سننٌ بالحقِّ تفتقرُ
لو كنتُ أملكُ والأقدار غالبةٌ | تأتي رواحاً وتبياناً وتبتكرُ[4]

رحم الله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وأعلى ذكره في المصلحين؛ فهذه معالم من سيرته الإصلاحية التجديدية الراشدية التي سار بها على منهاج النبوة، وقد حفظ الله لنا هذه السيرة، ولم تهملها الليالي، ولم تفصلها عنا حواجز الزمن ولا أسوار القرون؛ فلعلها تجد من يسير على نهجه من حكامنا وزعمائنا وقادتنا، وما ذلك على الله بعزيز في جيلنا أو في غيره.

---

[1] المصدر السابق نفسه.

[2] المصدر السابق نفسه (719/12).

[3] المصدر السابق نفسه.

[4] المصدر السابق نفسه.

❋ ❋ ❋

الفصل العاشر

بنو عبد الملك يزيد وهشام

المبحث الأول

يزيد بن عبد الملك

هو يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، أبو خالد القرشي الأموي، أمير المؤمنين، وأمُّه عاتكة بنت يزيد بن معاوية[1]. ولد بدمشق سنة 71 هـ، وقيل: 72 هـ، وقيل: 66 هـ، والأرجح 72 هـ، وكان رجلاً طويلاً جسيماً أبيض مدور الوجه لم يتكهَّل[2].

أولاً: حياته قبل الخلافة:

كان قبل الخلافة محبوباً في قريش، بجميل مأخذه بنفسه وهديه وتواضعه وقصده، وكان الناس لا يشكُّون إذا صار إليه الأمر أن يسير بسيرة عمر لما ظهر منه[3]، وقد تلقى تربيته على علماء من أهل الدين والفضل، فكان منهم الضحاك بن مزاحم وعامر بن شراحبيل، وإسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر، ومحمد بن مسلم الزهري[4]، وهؤلاء العلماء اختارهم عبد الملك لتربية أولاده، وقد تأدَّب يزيد على يد إسماعيل بن أبي المهاجر والزهري[5]. وكان يكثر من مجالسة العلماء قبل أن يلي الخلافة، ويغشى مجالسهم، ويحضر حلقاتهم، ويتأدَّب بآدابهم ويصغي لكلامهم ويقبل توجيهاتهم ويأخذ العلم عنهم، وشيوخه الذين تلقى عنهم العلم: مكحول، والزهري في الشام، والمقبري وابن أبي العتاب من علماء المدينة[6]، وعلى ما يبدو أنه بلغ درجة رفيعة من العلم وبخاصة حفظ الحديث وروايته جعلت بعضهم يعده من المحدثين[7]، وعن ابن جابر قال: أقبل يزيد بن عبد الملك إلى مجلس مكحول، فهممنا أن نُوسِّع له، فقال: دعوه يتعلم التواضع[8]، وقد كان رأي عمر بن عبد العزيز فيه حسناً[9].

ثانياً: توليه الخلافة:

بويع له بالخلافة بعد عمر بن عبد العزيز في رجب من سنة إحدى ومئة، بعهد من أخيه سليمان أن يكون الخليفة

---

(1) البداية والنهاية (12/13).

(2) سير أعلام النبلاء (150/5).

(3) الدولة الأموية في عهد يزيد، عبد الله الشريف، ص 46.

(4) المصدر السابق نفسه، ص 63.

(5) المصدر السابق نفسه.

(6) المصدر السابق نفسه، ص 65.

(7) المصدر السابق نفسه.

(8) سير أعلام النبلاء (150/5).

(9) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، ص 65.

بعد عمر بن عبد العزيز رحمه الله، يوم الجمعة من رجب[1]. وسار في بداية حكمه بسيرة عمر بن عبد العزيز، إلا أنه لم يستطع المواصلة، وقال عنه الذهبي: وكان لا يصلح للإمامة، مصروف الهمّة إلى اللهو والغواني[2]. وقال عنه ابن كثير: فما كان به بأس[3].

يقول الدكتور عبد الله الشريف[4]:.. لكن الواضح أن قدراته السياسية وكفاءته الإدارية، لم تكن تؤهله لملء مكانة وقيادة الدولة باقتدار، أو تحقيق العظيم من المنجزات والفريد من السياسات التي تلفت إليه الأنظار، فكان يزيد حاكماً عادياً، ليس سياسياً مقتدراً كمعاوية، أو إدارياً ناجحاً كعبد الملك، أو مصلحاً كعمر، كما لم يكن سيئاً كابنه الوليد بن يزيد، ويمكن القول: إن توليه الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز جعل المفارقة بينه وبين عمر واضحة وكبيرة وأدت إلى عتامة صورته لدى جمهرة المسلمين[5].

وكان بإمكان يزيد أن يسير على نهج تجربة عمر بن عبد العزيز ويعطي للعلماء دورهم القيادي المناط بهم كما كانوا في عهد عمر، إلا أن العلماء تراجعوا إلى حد كبير، وحرمت الأمة من تجربة ناجحة تنفست الصعداء، وأطلت من خلالها على عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم. ولعل هذا التراجع الذي حدث لمشاركة العلماء في عهد يزيد يرجع إلى عدة عوامل؛ أهمها:

1 . شخصية يزيد بن عبد الملك؛ حيث لم يكن بمكانة عمر وحماسته وحرصه على أن يسوس الناس بمنهج الله بلا محاباة ومساومة، كما لم يكن على منهج عمر في نظرته للخلافة على أنها تكليف لا تشريف، وأنها عمل لإسعاد غيره على حساب نفسه وأهله، ويدل على ذلك أن يزيد لم يطق أن يسير على نهج عمر أكثر من أربعين يوماً، ثم عدل عنه إلى نهج الملوك[6].

2 . العامل الثاني وهو مترتب على الأول ومرتبط به؛ إذ لما رأى العلماء عزم يزيد ترك العمل بسيرة عمر، ولم يجدوا عنده ما وجدوه عند عمر تركوه وانصرفوا إلى مسؤولياتهم العلمية، فحين قال قائل لرجاء بن حيوة لما اعتزل يزيد: إنك تأتي السلطان فتركتهم؟! قال: إن أولئك الذين تريد قد ذهبوا[7].

وأما ما ورد من أن يزيد تخلى عن السير على نهج عمر لأنه شهد له أربعون شيخاً بأن ليس على الملوك حساب ولا عذاب[8]، فهذا ادعاء أوهى من أن يرد عليه، فهو يتضمن في طياته الرد على مختلقه، فمن هم الشيوخ الذين

---

[1] البداية والنهاية(13/13).

[2] سير أعلام النبلاء(152/5).

[3] البداية والنهاية(14/13).

[4] أفضل من رأيت فيمن كتب عن يزيد بن عبد الملك، وقد تميز كتابه.

[5] الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، ص 73.

[6] أثر العلماء في الحياة السياسية، ص 114.

[7] سير أعلام النبلاء (560/4).

[8] البداية والنهاية (3/13).

شهدوا بذلك الزور؟! ثم إنه يتعلق بأمر من ضروريات الإيمان وبديهياته؛ فأي مسلم مهما بلغ به الجهل مبلغه يعلم أنه يسأل عن أعماله ويجازى عليها. والحديث الصحيح: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[1]، مشهور عند عامة المسلمين، فضلاً عن خاصتهم في هذه العصور المتأخرة، فكيف بعصر صدر الإسلام؟! ولكن حقيقة الأمر فيما ذكره ابن كثير قال: فلما ولي يزيد عزم أن يتأسى بعمر بن عبد العزيز، فما تركه قرناء السوء، وحسَّنوا له الظلم[2].

1 . تشويه صورته بالجواري في كتب التاريخ:

صورت كتب التاريخ يزيد بن عبد الملك بصورة الخليفة اللاهي عن مصالح دولته، لاهثاً خلف جاريتيه؛ ولما ماتت إحداهما رفض أن يدفنها وظل مقيماً بجوارها حتى جيَّفت، ولما دفنوها عاد ينبشها من جديد[3]! وفي أسانيد هذه الروايات غير واحد من المجهولين[4].

وقصة يزيد مع جاريتيه في الأصل بسيطة كما يبدو، فهما جاريتان جميلتان ظريفتان مغنيتان شراهما يزيد بعد استخلافه، فملكتا عليه قلبه، خصوصاً حبابة التي كلف بحبها واشتد طربه لغنائها، فحظيت عنده، فلما ماتت، حزن لموتها وجزع عليها، ولم يطل العمر به بعدها؛ حيث مات بعدها بأيام معدودة بالطاعون أو كان مرض السل، وقد أغمض كثيراً من المؤرخين القول بموته مطعوناً أو مسلولاً، وجعلوه كمداً وأسفاً على فقد حبابة، مع أنه من غير المستبعد موته بسبب الطاعون أو السل، بل هو الأولى، فكثيراً ما انتشر وباء الطاعون وغيره من الأوبئة في حواضر الشام كدمشق، فكان ذلك من الأسباب التي دعت الخلفاء الأمويين إلى بناء قصور لهم في بوادي الشام وأريافه[5].

إن قصة يزيد مع جاريتيه جاءت في المرويات التي تناولتها مهولة مشوهة، اعتراها كثير من المبالغة والاضطراب والتناقض والزيادة، بل والاختلاف، فمنها ما يُشير إلى تلك القصة باتزان، ومنها ما شابها بما لا يقبل ولا يعقل، ومنها ما ظهرت في الإساءة والطعن بتحريف أو زيادة، أو اختلاف، فجاءت تلك المرويات تحمل العجب والمنكر، وذلك إما لهوى في نفس راويها، أو لغرض يقصده ناقلها، أو نقلها مسندة، فحمل المسؤولية من رواها[6].

2 . انتصار يزيد بن عبد الملك لفاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب:

في ربيع الأول عام أربع ومئة، عزل يزيد بن عبد الملك عن إمرة الحرمين عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس، وكان

---

(1) مسلم (1459/3).

(2) البداية والنهاية (13/13).

(3) الدولة الأموية المفترى عليها، ص 14؛ الأغاني (147/13 إلى 158).

(4) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، ص 56.

(5) المصدر السابق نفسه، ص 66.

(6) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص 69.

سببه أنه خطب فاطمة بنت الحسين فامتنعت من قبول ذلك، فألح عليها وتوعدها، فأرسلت إلى يزيد تشكوه إليه، فبعث إلى عبد الواحد بن عبد الله النضري نائب الطائف فولاه المدينة، وأن يضرب عبد الرحمن بن الضحاك حتى يسمع صوته أمير المؤمنين وهو متكئ على فراشه بدمشق، وأن يأخذ منه أربعين ألف دينار، فلما بلغ ذلك عبد الرحمن ركب إلى دمشق، واستجار بمسلمة بن عبد الملك، فدخل على أخيه فقال: إن لي حاجة، فقال: كل حاجة تقولها فهي لك إلا أن تكون ابن الضحاك، فقال: هو والله حاجتي، فقال: والله لا أقبلها ولا أعفو عنه، فرده إلى المدينة، فتسلمه عبد الواحد فضربه وأخذ ماله حتى تركه جبة صوف، فسأل بالمدينة، وكان قد باشر ولاية المدينة ثلاث سنين وأشهراً، وكان الزهري قد أشار على الضحاك برأي سديد، وهو أن يسأل العلماء إذا أشكل عليه أمر، فلم يقبل ولم يفعل، فأبغضه الناس وذمه الشعراء، ثم كان هذا آخر أمره[1].

3 . بين يزيد وهشام ابني عبد الملك:

كتب يزيد بن عبد الملك إلى أخيه هشام: أما بعد، فإن أمير المؤمنين قد بلغه أنك استبطأت حياته، وتمنَّيتَ وفاته ورُمت الخلافة. وكتب في آخره:

تمنَّى رجالٌ أن أموتَ وإن أمُتْ ... فتلكَ سبيلٌ لستُ فيها بأوحدِ

وقد علموا لو ينفعُ العلمُ عندهم ... متى متّ ما الباغي عليَّ بمُخلدِ

مَنِيَّتُه تجري لوقتٍ وحتفُه ... يصادفُه يوماً على غير موعدِ

فقل للذي يبغي خلافَ الذي مضى ... تهيَّأ لأُخرى مثلها فكأن قدِ

فكتب إليه هشام: جعل الله يومي قبل يومك، وولدي قبل ولدك، فلا خَيْرَ في العيش بعدك[2].

وجاء في رواية: أما بعد فإن أمير المؤمنين متى فرغ سمعه لقول أهل الشنان وأعداء النعم، يوشك أن يقدح ذلك في فساد ذات البين، وتقطع الأرحام، وأمير المؤمنين لفضله، وما جعله الله أهلاً له أولى أن يتغمد ذنوب أهل الذنوب، فأما أنا فمعاذ الله أن أستثقل حياتك، أو أستبطئ وفاتك، فكتب إليه يزيد: نُحن مغتفرون ما كان منك، ومكذبون ما بلغنا عنك، فاحفظ وصية عبد الملك إيانا، وقوله لنا في ترك التباغي والتخاذل، وما أمر به وحض عليه من صلاح ذات البين واجتماع الأهواء، فهو خير لك، وأملك بك، وإني لأكتب إليك، وأنا أعلم أنك كما قال القائل:

وإنِّي على أشياء منك تَريبُني ... ديماً لذو صفحٍ على ذاك مُجْمِلُ

تقطع في الدنيا إذا ما قطعتني ... تقطع في الدنيا إذا ما قطعتني

---

[1] البداية والنهاية (9/13).

[2] المصدر السابق نفسه (14/13).

وإن أنت لم تنصـــفْ أخاك وجدتَه   على طرفِ الهجرانِ إن كـان يعقـلُ

فلما بلغ الكتاب هشاماً ارتحل إليه، فلم يزل في جواره مخافة أهل البغي والسعاية، حتى مات يزيد[1].

ثالثاً: الثورات الداخلية في عهده:

1 . ثورة يزيد بن المهلب:

ومنشأ ذلك أن خلافاً وقع بين المهلّب والحجّاج بن يوسف، فذهب يزيد إلى عبد الملك، فأمنه، ثم لما أفضت الخلافة إلى سليمان بن عبد الملك سنة 96 هـ عين يزيد بن المهلب على خراسان، فافتتح جرجان وداغستان، ثم رجع إلى العراق، فبلغه وفاة سليمان بن عبد الملك، وخلافة عمر بن عبد العزيز، حيث عزله عمر عن إمارة خراسان.

وقد ذكرتُ أسباب عزل عمر بن عبد العزيز ليزيد في حديثي عن خلافة عمر، ولما هرب يزيد من سجن عمر في مرضه قال عمر بن عبد العزيز: اللهم إن كان يريد بهذه الأمّة شرّاً، فاكفهم شرّه، واردد كيده في نحره[2].

ولما تولى يزيد بن عبد الملك بن مروان الخلافة خرج يزيد بن المهلّب وخلع بيعته، واستولى على البصرة، فجهّز يزيد بن عبد الملك لقتاله جيشاً بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك[3]، فجمع يزيد بن المهلّب جموعاً كبيرة، والتقى الطرفان بالعقر من أرض بابل، ودارت بينهما معركة رهيبة دامت ثمانية أيّام، قتل فيها يزيد بن المهلب، وعدد من إخوته، وخلق كبير من جيشه، وتفرق سائر جيشه وأهل بيته، فلوحقوا وقتلوا بكل مكان، وكان ذلك سنة 102 هـ. والله المستعان[4].

وقد أورد الذّهبي: أن الحسن البصري قال في فتنة يزيد بن المهلب: هذا عدو الله يزيد بن المهلب، كلما نعق بهم ناعق اتّبعوه[5]. وفي رواية أخرى: أنّه دعا عليه بأن يصرعه الله، ذكر ما كان يفعل من انتهاك المحارم وقتل الأنفس، وأكل أموال الناس[6]، وقد تحدث الدكتور عبد الله بن حسين الشريف عن أسباب ثورة يزيد بن المهلب وتفاعل فئات من المجتمع معها ونتائجها وآثارها، وتكلم عن ثورة يزيد بشيء من التفصيل؛ فمن أراد فليراجع كتابه: الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك.

---

[1] مروج الذهب (213/3).
[2] وفيات الأعيان (301/6)
[3] أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص 223.
[4] سير أعلام النبلاء (505/4 . 506).
[5] المصدر السابق نفسه.
[6] وفيات الأعيان (304/6)؛ سير أعلام النبلاء (506/4).

2 . ثورات الخوارج:

أ . حركة شوذب والقضاء عليها:

ما أن تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة حتى تجددت حركة شوذب الخارجي، وتم القضاء عليه وعلى أصحابه على يد مسلمة بن عبد الملك أثناء مسيره للقضاء على حركة ابن المهلب، فإنه لما دخل الكوفة، شكا إليه أهلها ما لقوه من شوذب وخوفهم منه، فجهز جيشاً من عشرة آلاف جعل قيادته لسعيد بن عمرو الحرشي، ووجهه إليهم، فدارت سنة 101 هـ الوقعة، واستبسل الخوارج وكشفوا جند الشام، فخشي الحرشي الفضيحة، واستحث جيشه، وحمل لهم على شوذب وأصحابه، فألحق الهزيمة بهم، حيث قتل شوذب، وكل أصحابه[1].

ب . حركة مسعود العبدي في البحرين واليمامة:

وقد تمّ القضاء عليها على يد سفيان بن عمرو العقيلي أمير اليمامة، وكان القضاء عليها في أواخر عهد يزيد على قول البعض، وهناك من يرى أن الحركة في عهد يزيد كانت على يد أخي مسعود العبدي[2].

ج . حركة مصعب الوالبي:

خرج مصعب الوالبي بالكوفة، وتمّ القضاء عليه في عهد يزيد بن عبد الملك بواسطة عامله ابن هبيرة[3].

د . حركة عقفان:

خرج عقفان الحروري على يزيد بن عبد الملك بناحية دمشق، وكان عدد أصحابه ثمانين رجلاً من الخوارج، وعندما أراد يزيد القضاء عليه عسكرياً، أشير عليه أن يبعث إلى كل رجل من أصحاب عقفان رجلاً من قومه يرده عن رأي الخوارج، على أن يؤمنهم الخليفة، فقد قالوا للخليفة: إن قُتل بهذه البلاد اتخذها الخوارج دار هجرة، فوافقهم الخليفة على رأيهم وسار إليهم أهلوهم، وقالوا لهم: إنا نخاف أن نؤخذ بكم، وأمنوهم، فرجعوا عن رأيهم وانفضوا من حول زعيمهم عقفان، فبقي وحده، فأرسل إليه يزيد أخاه فاستعطفه وأمنه، فرده وقد ترك رأي الخوارج، بل إنه خدم الدولة، فتولى زمن هشام أمر العصاة، ثم استعمل على الصدقة حتى توفي هشام[4].

3 . حركة شيريم اليهودي:

وهو يهودي سوري أعلن أنه المسيح المنتظر والمنقذ لليهود، وسير حملة لانتزاع فلسطين من المسلمين، فغادر يهود بابل وإسبانية مواطنهم ليشتركوا في هذه المغامرة، إلا أن القائم بها أسر، وعرضه الخليفة يزيد بن عبد الملك على

---

(1) الكامل لابن الأثير؛ نقلاً عن الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص 171.

(2) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص 172 . 174.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 175.

(4) الكامل في التاريخ؛ نقلاً عن الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص 176.

الناس على أنه مهرج دجال[1]، ثم أمر به فقتل[2]، ويغلب على الظن أن هذه الحركة لم تصل إلى مرحلة التنفيذ، فيبدو أنه قد تم اكتشاف أمر شيريم وهو لا يزال يدعو إلى حركته، ويعد نفسه للقيام بحملته، واليهود أجدر الناس بإبرام المؤامرات وتدبير الدسائس في سرية تامة وتنظيم دقيق. نقول هذا[3] مع أن ديورانت[4] قد نص على تسييره الحملة لانتزاع

فلسطين، ووقوع القائم بها في الأسر، وهذا يعني مواجهة الدولة في عهد الخليفة يزيد لهذه الحركة، وإخمادها[5].

4 . حركة بلاي بالأندلس:

ظهر بلاي كمناوئ للسيادة الإسلامية على إسبانية في ولاية الحر بن عبد الرحمن على الأندلس، إذ يخبرنا المقري: أن أول من جمع فلول النصارى بالأندلس بعد غلبة العرب لهم شخص يدعي بلاي من أهل أشتوريش من جليقية، كان رهينة عن طاعة أهل بلده، فهرب من قرطبة أيام الحر بن عبد الرحمن سنة 89 هـ، وخرج معه النصارى على نائب الحر فطردوه وملكوا البلاد[6]، ولما تولى السمح الأندلس أعد جيشه لخوض غمار الحروب، وتوجه إلى المناطق الشمالية من الأندلس، فحارب عصاة المسيحيين، وهزمهم وأجبرهم على اللجوء إلى المعاقل الجبلية في الاسترياس[7]. غير أن هزيمة المسلمين واستشهاد قائدهم السمح بن مالك في معركة طولوشة في بلاد الغال، قد أوجد الفرصة للمتمردين بقيادة بلاي من معاودة نشاطهم ضد المسلمين، ولكن عبد الرحمن الغافقي، الذي ارتد بالجند بعد الانكسار في معركة طولوشة إلى الأندلس، فولاه أهلها أمرهم حتى قدوم الوالي الجديد . تمكن من إخماد بوادر الخروج التي ظهرت في الولايات الجبلية الشمالية[8].

وأخذت حركة بلاي في ولاية عنبسة بن سحيم (103 . 107 هـ) بعداً أكبر، ويعتبر بلاي منشئ حركة المقاومة النصرانية ومجدد دولة النصرانية في الأندلس، وإن نهوضه بها كان الحجر الأول في بنائها الجديد[9]، وأن زمن عنبسة كان بدايتها عندما استجاب أهل جليقية لبلاي، وعملوا على حرب المسلمين ومدافعتهم عن أرضهم، وإن كان نجاحهم قد تحقق بعد ذلك[10]، واستمر بلاي في الكر والفر، واستفاد من انكسار المسلمين في بلاط الشهداء سنة 114 هـ، واضطراب أمر الأندلس بفتنة أبي الخطار وحركات البربر في شمال إفريقية، فأخرج المسلمين من

---

[1] الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص 180.

[2] المصدر السابق نفسه.

[3] المصدر السابق نفسه.

[4] قصة الحضارة (76/14 . 77).

[5] الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص 181.

[6] نفح الطيب (350/4)؛ الثغر الأعلى، خليل السامرائي، ص 103.

[7] المسلمون في الغرب والأندلس، محمد زيتون، ص 197.

[8] دولة الإسلام، محمد عبد الله عنان، ص 81 . 82.

[9] الدولة الأموية في عهد يزيد بن عبد الملك، ص 185.

[10] المصدر السابق نفسه.

اشتريس، ويبدو أن أهل استورقة من المسلمين حاربوه، لكنه هزمهم، إذ تُشير المصادر إلى معركة تسمى لا كوفا دونجا[1]، لقي المسلمون فيها الهزيمة، واستطاع بلاي على أثرها إخراج المسلمين من جليقية كلها، وتنصر كل مذبذب في دينه[2]، ويرجح حسين مؤنس أن هذه المعركة حدثت سنة 133 هـ أو ما بعدها، وأن وفاة بلاي كانت بعد ذلك بقليل من نفس السنة[3]. لقد كانت هذه الوقعة حاسمة؛ فقد مهدت لدولة اشتريس، فثبتت قواعدها على نحو لم يستطع المسلمون إزالتها بعد ذلك، وبذلك كانت حركة بلاي حادثاً فاصلاً في التاريخ الإسباني؛ إذ إنها كانت البداية الحقيقية لحركة المقاومة النصرانية ضد المسلمين[4].

5 . حركة أخيلا:

حاول أخيلا بن غطيشة أن يسترجع ملك أبيه في الأندلس، وأعلن تمرده في طركونة[5]، فسار إليه السمح بن مالك الخولاني (100 . 102 هـ)، وأخضع البلد وأخمد التمرد، ومن المحتمل أن السمح قضى على هذه الحركة وهو في طريقه إلى بلاد الغال (فرنسة) غازياً (سنة 101 هـ) ومواصلاً فتوحات المسلمين فيها[6]، ويبدو أن هذا ظهر في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، كما أن القضاء على هذه الحركة لم يكلف السمح كبير عناء، إذ كان يقود حملة أعدت لما هو أعظم من هذا التمرد، فلم يزد على إخمادها، بل ظهر تسامحه مع الخارجين، إذ عفا عن أخيلا، وتركه على حاله فيها، وبعد استشهاد السمح بن مالك في معركة طولوشة سنة 102 هـ أعلن أخيلا التمرد من جديد، وانتقض أهالي طركونة على عنبسة بن سحيم الكلبي، لكن الأمير الجديد لم يكن أقل همة من سلفه، فقد سارع إلى إخماد حركتهم، حيث زحف إليهم، فدك حصونهم واقتص من زعمائهم، وقد استسلم أخيلا، وانتقل إلى طليطلة فأقام فيها، ولم يحاول الخروج على المسلمين بعد ذلك، واستقرت البلاد داخلياً واستتب الأمن فيها، وساد النظام والعدل في ربوعها[7].

إن تجاوز المسلمين جبال البرتات إلى بلاد الغال، وقد خلفوا وراءهم بعض الخصوم، أوجد مجالاً لهؤلاء المتربصين، في تنظيم حركاتهم والخروج على سلطان الفاتحين، فإن المسلمين وإن تمكنوا من القضاء على حركات بعض هؤلاء؛ كتمرد أهل طركونة بقيادة أخيلا، إلا أن غيرها تمكن من الثبات في ظل غياب قوة المسلمين واحتقار شأن

---

(1) الثغر الأعلى، خليل السامرائي، ص 105 . 106.

(2) الدولة الأموية في عهد يزيد بن عبد الملك، ص 187.

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) المصدر السابق نفسه؛ تاريخ المسلمين واثارهم في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، ص 169.

(5) بلدة بالأندلس متصلة بأعمال طرطوشة.

(6) الدولة الأموية في عهد يزيد بن عبد الملك، ص 189.

(7) المصدر السابق نفسه، ص 191.

المتمردين، وقد تمثل هذا في حركة بلاي، التي استغلت كثيراً من العوامل لتصبح نواة المقاومة المسيحية للوجود الإسلامي[1].

رابعاً: سياسة يزيد بن عبد الملك الإدارية والمالية:

تولى يزيد بن عبد الملك أمر المسلمين بعد الخليفة عمر بن عبد العزيز، فسار بسيرته برهة من الزمن، ثم ترك نهجه واتخذ نهجاً آخر تابع فيه كثيراً من سياسات أسلافه من بني أمية الإدارية والمالية، وخالف عمر بن عبد العزيز في بعض تجديداته وإصلاحاته، وخاصة في المجال المالي[2]، ويرى بعض المؤرخين كابن الأثير بأن يزيد عمد إلى كل ما صنعه عمر بن عبد العزيز مما لم يوافق هواه، فرده، ولم يخف شناعة عاجلة ولا إثماً عاجلاً[3].

وعلق عماد الدين خليل على عهد يزيد بن عبد الملك فقال: سنجد يزيد لم يعمد إلى رد كل ما صنعه عمر، مما لم يوافق هواه، وإنما إلى بعضه فحسب، وبرر مقولة ابن الأثير وغيره ممن حذا حذوه، بأن قولهم جاء نتيجة خيبة الأمل التي أصيبوا بها من جراء ما آلت إليه التجربة الكبيرة التي نفذها عمر بن عبد العزيز من انتكاس، وواضح أن الذي قاد إلى الانتكاس حقاً لم يكن هدم الخليفة يزيد لبعض جوانب سياسة عمر، بل فقدان الرؤية وضياع الاستراتيجية[4].

والصحيح أن يزيد راح ضحية قول ابن الأثير برده كل ما صنعه عمر، وما أورده اليعقوبي من عزله جميع عمال عمر[5]، كما أن مجيئه عقب خلافة عمر جعله متوارياً في خلالها لا يرى، وأن رؤي في صورة الخليفة اللاهي المنغمس في الملذات قد شغله عشقه لجاريتيه حبابة وسلامة عن مباشرة أمور الدولة وشؤون الحكم، وذلك كما صورته كثير من المصادر التي تناولت سيرته الذاتية، في شيء من المبالغة والتهويل[6].

وبتفحص الروايات عن شخصية يزيد وسياسته يتبين أن الاختلاف بين شخصيتي يزيد وسلفه عمر هو الذي كان وراء الاختلاف بين سياسة الرجلين، فقد غلب على عمر الوازع الديني، فاتسمت سياسته بالروح الإسلامية، مما دفعه إلى تطبيق السياسة الإسلامية على نظم الحكم، كما فاقه عمر من حيث القدرة والكفاءة الإدارية، والحضور الدائم والانصراف إلى العمل وتحمل المسؤولية[7]، والحق أن يزيد لم يدع الأمور تجري بلا ضابط أو لغيره، فلم يكن بالبعيد عن إدارة دفة الحكم، فسنجده وراء الكثير من الأحداث يعالجها ويوجهها ويخطط لها، لكنه لم يعط كل جهده ووقته واهتمامه لشؤون دولته كما كان يفعل سلفه عمر، ومع ذلك فقد حرص على بقاء دولته مهابة

---

[1] المصدر السابق نفسه.

[2] المصدر السابق نفسه، ص 319.

[3] الكامل في التاريخ(272/3 . 273).

[4] دراسة مقارنة، ص 290.

[5] تاريخ اليعقوبي (319/2).

[6] الدولة الأموية في عهد يزيد، ص 322.

[7] المصدر السابق نفسه.

مصونة في الداخل والخارج، ونجح في ذلك بإخماد كل الحركات الداخلية التي حدثت في زمنه، وصد القوى الخارجية الطامعة في حدود دولته، وإن كان قد اتخذ في سبيل تحقيق ذلك سياسات تخالف نهج سلفه عمر[1].

قال ابن تغري بردي: غير أنه لما ولي يزيد الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز غيَّر غالبَ ما كان قرره عمر. وقال: ثم عزل جماعة من العمال. فلم يقل غيَّر كلَّ ما قرره عمر أو عزل جميع عماله، ويبدو جلياً أن الخليفة يزيد لم يكن يملك الرؤية البعيدة، ولم يعمل وفق استراتيجية مرسومة[2].

كما يظهر أنه لم يحط بظروف دولته بعد حركة الفتوح الكبرى التي تمت في عهد أسلافه، وأهمية استيعاب الدولة للمتغيرات التي تعيشها من جراء دخول أجناس ومذاهب مختلفة متباينة، كان على الدولة صهرها في جسم الأمة ونشر الدين الإسلامي بينها، وهذا ما لمسه عمر وسعى إليه، إلا أن الخليفة يزيد لم يدرك ذلك، فعاد إلى سياسة من

سبق عمر من خلفاء بني أمية، وذلك عن طريق العودة إلى تنشيط حركة الفتوح، وضرب المعارضة بكل قوة، وإهمال الإصلاح الداخلي، وعدم الاهتمام بصهر القوى الجديدة في أمة الإسلام، وتطبيق الأحكام الإسلامية عليهم، وللحق أن سياسة يزيد لم تكمن وراء الوهن الذي أصاب دولة بني أمية، لكنه بعدم إدراكه ما تحتاجه الدولة في تلك المرحلة من إصلاح، وما تعيشه من متغيرات، استمر في سياسة أسلافه قبل عمر، وأدار ظهره للكثير مما صنعه عمر، فاستمر الوهن في عهده، وجرت بعض سياساته بالدولة نحو هاوية الانهيار، وإن كان هذا الوهن والتدهور لم يظهر جلياً في زمنه، بل استطاع الإبقاء على حدود دولته مصونة، وكيانها موحداً مهاباً، فظل ينخر في جسم الدولة متوارياً، حتى ظهر ذلك متأخراً فيما بعد[3].

1 . أهم صفات يزيد الإدارية:

أ . الحزم: فقد تجلى حزمه في تعامله مع بعض الحركات الداخلية ومواجهة الخطر الخارجي، كجديته وحزمه في إخماد حركة ابن المهلب، ومواجهة خطر الترك والصغد فيما وراء النهر، والخزر في أرمينية.

ب . المرونة: وأما المرونة واللين فلاحظناها في تعامله مع حركة عقفان الحروري، عندما لجأ للطريق السلمي في إخمادها، فكان موفقاً، وكذلك ملاينته لأهل الكوفة إبان حركة ابن المهلب حتى يضمن لزومهم الحياد وعدم انضمامهم لخصمه.

جـ الواقعية: فلعلها تتجلى في إقرار تصرف البربر عندما قتلوا أميرهم يزيد بن أبي مسلم وولوا عليهم غيره[4]، وقصة هذا الحديث: في سنة اثنتين ومئة: قتل يزيد بن أبي مسلم بإفريقية وهو والٍ عليها، وكان سبب ذلك أنه عزم أن

---

[1] دراسة مقارنة، عماد الدين خليل، ص 304.

[2] الدولة الأموية في عهد يزيد بن عبد الملك، ص 323.

[3] المصدر السابق نفسه، ص 324.

[4] المصدر السابق نفسه.

يسير بهم بسيرة الحجاج ابن يوسف في أهل الإسلام الذين سكنوا الأمصار، ممن كان أصله من السواد من أهل الذمة فأسلم بالعراق؛ من ردهم إلى قراهم ورساتيقهم، ووضع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم على كفرهم، فلما عزم على ذلك تآمروا في أمره، فأجمع رأيهم ـ فيما ذكر ـ على قتله، فقتلوه، وولوا على أنفسهم الذي كان عليهم قبل يزيد بن أبي مسلم، وهو محمد بن يزيد مولى الأنصار، وكان في جيش يزيد بن أبي مسلم، وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك: إنا لم نخلع أيدينا من الطاعة، ولكن يزيد بن أبي مسلم. سامنا ما لا يرضي الله والمسلمين، فقتلناه، وأعدنا عاملك، فكتب إليهم يزيد بن عبد الملك: إني لم أرضَ ما صنع يزيد بن أبي مسلم، وأقر محمد بن يزيد على إفريقية[1]. وبهذا الفعل من يزيد جنب الدولة كثيراً من المشاكل، ووفر عليها كثيراً من الجهد والمال[2].

2 ـ سياسته في إدارة الولايات:

اتبع يزيد النهج الأموي في إطلاق يد العامل، وجعل ولايته عامة[3]، بل إنه عاد إلى ضم الولايات إلى بعض، فجمع العراقين لمسلمة بن عبد الملك، ثم لعمر بن هبيرة، وفوض لهما أمر المشرق كله، كما جمع لعبد الواحد النصري المدينة ومكة والطائف[4]. وأعاد الأندلس تابعة إلى ولاية إفريقية[5]، إلا أنه لم يطبق السياسة الأموية في الفصل بين السلطة الإدارية والمالية إلا في مصر والمدينة، فقد أعاد أسامة بن زيد على خراج مصر[6].

أما بقية الأقاليم فقد جمع لولاتها السلطات الإدارية والمالية، فلم نعثر على نص يدل على ذلك، بل إننا نجد نصوصاً تدل على استعمال الأمراء والقضاة، وعمال الخراج والصدقات والدواوين بشكل عام، ونوابهم على المناطق التابعة لهم، من قبلهم[7]، فأصبحت الولاية وكأنها نيابة عامة عن الخليفة، يستمد الأمير فيها سلطاته من سلطة الخليفة، ومع ذلك فقد كان يتدخل إذا ما لزم الأمر، واقتضت الحاجة والمصلحة؛ من ذلك أمره ابن هبيرة عامله على المشرق استعمال الحرشي على خراسان[8].

ومن سمات سياسته الإدارية إتاحة الفرصة للموالي في إدارة الدولة، وشغل بعض الأعمال الكبيرة[9]، وقد سار يزيد على نهج عمر في استعمال الموالي في وظيفة القضاء، فقد أمر على قضاء مصر عبد الله بن يزيد بن خذامر

---

[1] تاريخ الطبري (522/7).

[2] الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص 324.

[3] الإدارة الإسلامية، محمد علي كرد، ص 95 ـ 96.

[4] الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص 328.

[5] أنساب الأشراف، للبلاذري (111/5).

[6]. الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص 329.

[7] المصدر السابق نفسه

[8] المصدر السابق نفسه.

[9] الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص 332.

الصنعاني مولى[1] سبأ، كما يبدو أن يزيد بن عبد الملك تابع الخليفة عمر بن عبد العزيز في منع أهل الذمة من العمل في دواوين الدولة، إذ لم نلمس ما يُشير إلى عملهم فيها[2].

3 . أشهر ولاة يزيد بن عبد الملك:

كان العامل على المدينة عبد الرحمن بن الضحاك، وعلى مكة عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد، وعلى الكوفة محمد بن عمرو ذو الشامة، وعلى قضائها القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، وعلى البصرة عبد الملك بن بشر بن مروان، وعلى خراسان سعيد بن عبد العزيز الحرشي، وعلى مصر أسامة بن زيد[3].

4 . سياسة يزيد بن عبد الملك المالية:

سياسة الخليفة يزيد بن عبد الملك المالية بالذات جاءت بعد إصلاحات الخليفة عمر بن عبد العزيز المالية، التي سعى من ورائها للعودة إلى النهج الإسلامي وتطبيق أحكامه على المال والأعمال، وصحح بعض الإجراءات التي اتخذها بعض أسلافه، فما مدى خروج الخليفة يزيد عن نهج عمر، وما الذي صنعه؟

مما لا شك فيه أن الخليفة يزيد لم يتبع نهج الخليفة عمر في بعض سياسته المالية، فأحيا السياسات المالية لأسلافه من بني أمية قبل عمر، وأعاد تطبيقها، بينما اتخذ أخرى وتابع عمر في بعض ما اتخذه من سياسات في هذا المجال، وبالأخص ما كان ذا عائد على خزانة الدولة، وطبق إجراءاته تلك في شيء من الدقة، والضبط والتشديد[4].

ومن الأمور التيساير فيها يزيد عمر: منع بيع الأراضي الخراجية، كما أبقى على بعض الإصلاحات المالية الأخرى[5]، وقد عمل يزيد بن عبد الملك على ضبط الأمور المالية بما يكفل زيادة الواردات ونقص المصروفات في شيء من الدقة والضبط والتشدد والجور، وربما ظروف الدولة في زمنه، والمتمثلة في خوض حروب خارجية في كل الجبهات؛ في الشرق مع الصّغد والترك، وفي الشمال مع الأرمن والخزر والروم، وفي الغرب مع الفرنجة إلى جانب الحركات الداخلية كثورة ابن المهلب وغيرها[6]، وما يستدعيه ذلك من مصروفات كبيرة، قد دفعه إلى تجاوز الحدود في جلب الأموال أحياناً، كما أن يزيد لم يسير على نهج عمر في التقشف على نفسه ورجاله والعمل على ترشيد المصروفات، فنجده على سبيل المثال يأمر عامله على مكة أن يحمل أحد المغنين على البريد، ويقدم له ألف دينار

---

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 333.

(3) تاريخ الطبري (522/7).

(4) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص 416

(5) المصدر السابق نفسه، ص 418.

(6) المصدر السابق نفسه، ص 419.

نفقة الطريق ليستمع منه أبياتاً من الشعر، بينما نرى عمر بن عبد العزيز يؤنب ابن حزم عامله على المدينة على إسرافه في الورق والشمع، ويؤنب عامله على اليمن على تضييعه دنانير من بيت المال[1].

وقد عمل يزيد بن عبد الملك على اتخاذ إجراءات مالية متشددة كان هدفها توفير أموال لخزانة الدولة ليتمكن من الإنفاق على جيوشه المحاربة في الداخل وعلى الحدود[2]، ومما يذكر هنا من باب حرصه على الأموال ما رواه ابن كثير: من أن عمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان قد اتهم الخليفة عمر بن عبد العزيز بأنه اختان من أموال المسلمين كل ما قدر عليه من جوهر نفيس ودر ثمين، وأنه خبأها في بيتين في داره مملوءين، فبعث يزيد إلى أخته فاطمة زوجة عمر يسألها عن ذلك، فقالت: ما ترك سبد ولا لبد[3]، فسار بنفسه إلى دار عمر ودخل البيتين اللذين أشار إليهما عمر بن الوليد ليفتشهما، وفي صحبته عمر بن الوليد، فلما دخلهما وجدهما خاليين من الأموال، وقد هُيئتا للعبادة، حيث اتخذ عمر من إحداهما خلوة يخلو فيها بنفسه ويتدبر أمر دينه ودنياه، والأخرى مسجداً يعبد الله فيه ليلاً، فبكى يزيد، وخرج عمر بن الوليد مخذولاً[4].

ومن الأمثلة على مخالفة يزيد لسياسة عمر بن عبد العزيز المالية:

أ. الخراج:

اعتنى الخليفة يزيد بهذا المورد تنظيماً وضبطاً وتشدداً وعسفاً، وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز قد عمد إلى إصلاح كثير من الأمور، وأقر يزيد بعض ما صنعه وأصلحه[5]، إلا أن من الحق الإشارة إلى أن سياسة يزيد في هذا الصدد قد شابها الحرص والرغبة في زيادة الموارد، فاشتد على الناس وأضر بأهل الخراج، ووضع الخراج على من لم يكن يؤدِّيه[6].

ب. الضرائب:

لم يكن يزيد بن عبد الملك يزن الأمور بميزان شرع الإسلام في كل الأحوال، فقد عهد يزيد إلى كثير مما أبطله الخليفة عمر من الضرائب المستحدثة والغير الشرعية، فأمر بإعادة فرضه وجبايته كما كان يُجْبى قبل عمر، ووضع ضرائب جديدة، وليس لهذه السياسة من تفسير سوى الرغبة في زيادة واردات الدولة المالية وتحصيل أكبر قدر ممكن من الأموال بصرف النظر عن شرعية هذا العمل، وآثار ذلك على المدى البعيد[7].

---

[1] المصدر السابق نفسه.

[2] المصدر السابق نفسه.

[3] أي: ما ترك قليلاً ولا كثيراً.

[4] الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص 420.

[5] المصدر السابق نفسه، ص 437.

[6] المصدر السابق نفسه.

[7] الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، ص 448.

جـ العطاء:

سخر يزيد بن عبد الملك العطاء في خدمة أهدافه السياسية العامة، متأثراً في ذلك بظروف الدولة في عهده، وتكوين شخصيته، فلم يلتزم بالقاعدة التي اتخذها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما في توزيع العطاء[1]، ولم يتبع نهج سلفه عمر بن عبد العزيز الذي عمل على تقديم العطاء لمستحقيه وتوزيعه بين الناس على أساس من الحق والعدل بعد أن خرج بنو أمية قبله عن سيرة الخلفاء الراشدين في ذلك، والخليفة يزيد بهذا الأسلوب يعود إلى سياسة أسلافه من بني أمية قبل عمر بن عبد العزيز، الذين لم يكن لهم سياسة ثابتة في توزيع العطاء، فقد عمدوا إلى تضييق دائرته تارة، وإلى إيقافه أخرى، وأسقطوا من الديوان من شاؤوا وفرضوا لآخرين، وزادوا فيه ونقصوا، فكان ذلك مثار شكوى الكثير من المسلمين باعتبار أن العطاء حق للمسلم لا يجوز للإمام حجبه، وأن أموال العطاء مما أفاء الله به على المسلمين[2].

د . الإقطاع:

عاود يزيد بن عبد الملك سياسة أسلافه من بني أمية باستغلال أراضي الصوافي لمصالحه الشخصية وخدمة أغراضه السياسية باتخاذها قطائع له، والإقطاع منها لبعض آله ورجال دولته.

هذه بعض الإشارات العابرة في السياسة المالية التي خالف فيها يزيد عمر بن عبد العزيز.

خامساً: الفتوحات في عهد يزيد بن عبد الملك:

نشطت الفتوحات الإسلامية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، بعد حالة الاستقرار التي عاشتها أيام سلفه الخليفة عمر بن عبد العزيز، والذي لجأ لذلك في شيء من التوازن من أجل التفرغ لحركة الإصلاح الكبرى الذي شهدها عهده[3]، وكانت حركة الفتوح على الجبهات كالتالي:

1 . الفتوحات في بلاد ما وراء النهر:

أوقف عمر بن عبد العزيز حركة الفتوحات في بلاد ما وراء النهر، وأمر واليه عبد الرحمن بن نعيم عامله على خراسان، بإقفال من وراء النهر من المسلمين بذراريهم، قال: فأبوا، وقالوا: لا تسعنا مرو[4]. فكتب إلى عمر بذلك، فكتب إليه عمر: اللهم إني قضيت الذي عليَّ، فلا تغزُ بالمسلمين، فحسبهم الذي فتح الله عليهم[5].

---

(1) المصدر السابق نفسه، ص 454.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 455.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 233.

(4) مرو: أشهر مدن خراسان، وعاصمتها. معجم (112/5 . 116).

(5) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص 235.

وكان مبعث هذه السياسة هو الخشية على المسلمين من راعٍ يرى مسؤوليته عن رعيته إلى جانب تغليب طريق نشر الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة على الجهاد الحربي، وذلك عن طريق دعوة ملوك ما وراء النهر إلى الإسلام[1]، والصبر على أهل الفتن، ومعالجة الأمور بالعدل، ثقة في ظاهر إسلامهم، وتألفاً لهم، وهذا ما دفعه إلى عزل الجراح الحكمي عامله على خراسان، وتولية عبد الرحمن بن نعيم لما عرف عنه من لين وإيثار للعافية[2].

ومع ما لهذه السياسة من إيجابيات كإسلام بعض ملوك واهلي هذه المناطق، إلا أنها أطمعت آخرين في المسلمين، وحفزتهم إلى التمرد وشق عصا الطاعة[3]، فقد تمرّد الصّغد على سلطان المسلمين، وهاجم الترك البلاد وعاونوا الصّغد مُنذ أيام عمر بن عبد العزيز خلال ولاية عبد الرحمن بن نعيم الغامدي (100 ـ 101 هـ)، وظلت مستعرة الأوار حتى ولاية سعيد بن عبد العزيز (102 ـ 103 هـ) الذي تولى خراسان بعده من قبل الخليفة يزيد بن عبد الملك الذي كان عليه إخماد ذلك التمرد، وظل الصّغد بالتعاون مع الترك على تمردهم ومخالفة المسلمين، رغم ما بذله الوالي الجديد من جهد في استمالة دهاقنتها وتسكين أهلها واتباع سياسة المسالمة تجاههم، لدرجة وسم معها بالضعف وثقل على الناس[4].

لقد تمسك أهل المدن الكبرى في ما وراء النهر بموقفهم؛ وهو عدم دفع الضرائب، والامتناع عن تنفيذ أوامر الحكومة الإسلامية ومقاومة جيوشها، ويبدو أن من هذه الضرائب الجزية التي أعاد الخليفة يزيد فرضها على من أسلم بعد أن أسقطها عنهم عمر بن عبد العزيز، وعمل عماله على جبايتها بالعنف والقوة، فأدى ذلك إلى نقض أغلب ممالك ما وراء النهر كالصّغد وفرغانة وكش ونسف عهدها مع المسلمين، بل وارتد كثير من الأهالي عن الإسلام[5].

وبدأ سعيد بن عبد العزيز حملاته وغزواته للصّغد والترك، واستطاع أن يحقق انتصارات عليهم، واستطاع القضاء على متمردي الصّغد في حصن أبغر[6]، وصالح أهالي كش، وغزا طخارستان، وصالح خزار[7]، واستطاع أن يقضي على حركات التمرد، ورجع سعيد بن عبد العزيز الحرشي إلى مرو وقد افتتح عامة حصون الصّغد[8]، وأعادهم إلى الطاعة صلحاً أو عنوة بعد سلسلة من المعارك خاضها إبان حملته على ما وراء النهر ما بين عامي (103 ـ 104هـ).

---

[1] المصدر السابق نفسه.

[2] تاريخ خليفة، ص 320.

[3] حركة الفتح الإسلامي، شكري فيصل، ص 218.

[4] الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص 237.

[5] المصدر السابق نفسه، ص 237.

[6] المصدر السابق نفسه، ص 250.

[7] المصدر السابق نفسه، ص 253.

[8] المصدر السابق نفسه، ص 256.

وبذلك أعاد للمسلمين سيطرتهم التامة على تلك المنطقة من جديد[1]، وقضى الحرشي على أعنف انتفاضة قامت بها شعوب ما وراء النهر، مكنته من ذلك سياسة الخليفة يزيد بن عبد الملك المسندة من ملاّك الأرض الكبار والعسكريين المسلمين والدهاقين[2]، فقد شارك الموالي في جيش الحرشي بقيادة سليمان بي أبي السري، كما نجد ذكراً للمجندين من أهل بخارى وخوارزم، وشومان[3]. إلى جانب تأييد غورك أمير سمرقند بصورة ظاهرة[4].

ولم يدم للمسلمين ما حققه سعيد الحرشي من تمكن وسيادة في ما وراء النهر، فقد تحول المسلمون من دور الهجوم إلى الدفاع في ولاية مسلم بن سعيد الكلابي على خراسان (104 . 106 هـ)، فقد غزا الأخير الترك فيما وراء النهر (سنة 105 هـ)، فلم يفتح شيئاً وعاد أدراجه، بل إن الترك تعقبوه، فلحقوا به، وهو يعبر نهر جيحون بجنده، فأتم ذلك في حماية الساقة[5]، وقد كانت هذه الحملة آخر الغزو في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، وهي في ظاهرها حملة ناجحة، وإن لم تحقق مكتسبات جديدة، إلا أن لحاق الترك بمسلم وتعقبه كان فيه دلالة على طمع الترك بهم، وبداية لضعف سيطرة المسلمين على ما وراء النهر، وعودة الاضطراب إليها[6].

2 . الفتوح في أرمينية:

استأنفت الحملات العسكرية المنظمة إلى الثغور في عهد يزيد، وقد أشار الطبري وغيره إلى إغارة قام بها الترك[7] سنة 103 هـ على اللان[8]، ومنها يتبين عودة الخزر إلى التحرش بالمسلمين ومهاجمة ممالكهم في أرمينية، وهذا ما دفع أمير أرمينية آنذاك معلق بن صفار البهراني[9]، إلى القيام بحملة على الخزر، فلقيهم بمرج الحجارة في شهر رمضان في نفس العام، وقد كلب الشتاء، فدارت المعركة، وهُزم المسلمون وقتل جماعة منهم، واستولى الخزر على عسكرهم وغنموا ما فيه[10].

وقد أطمعت الهزيمة التي تلقاها المسلمون سنة 103 هـ على يد الخزر في أرمينية الأقوام القوقازية والتركية في المسلمين، فاندفعوا نحو الحدود الأرمينية، وشنوا غاراتهم وتوغلوا في البلاد، مما دعا الخليفة يزيد بن عبد الملك إلى استعمال الجراح بن عبد الله الحكمي على أرمينية وأذربيجان سنة 104 هـ، وأسند إليه مهمة صد الخزر، وأمر

---

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) المصدر السابق نفسه.

(5) الكامل في التاريخ، لابن الأثير؛ نقلاً عن الدولة الأموية، ص 257.

(6) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص 253.

(7) المصدر السابق نفسه، ص 260.

(8) اللان: بلاد واسعة في طرف أرمينية قرب باب الأبواب مجاورة للخزر.

(9) تاريخ خليفة، ص 333؛ الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص 262.

(10) تاريخ خليفة، ص 328؛ الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص 262.

حربهم، وأمده بجيش كبير وأمره بحرب الأعداء وقصد بلادهم[1]، وفي ذلك دلالة على جدية الخليفة في مواجهة الموقف بالجبهة الأرمينية، فقد اختار القيادة القديرة وزودها بالجيش الكافي لتحقيق الأهداف، ولم يكن همه تطهير البلاد الإسلامية من وجود الغُزاة، بل مهاجمتهم في بلادهم ردعاً لهم وإحياء لهيبة المسلمين في نفوسهم، حتى لا يعودوا لحربهم مرة أخرى، فسار الجراح بجيشه حتى وصل أرمينية، فنزل برذعة[2] ليعطي جنده قليلاً من الراحة بعد عناء السفر من دمشق الشامية حتى برذعة في الديار الأرمينية، وليعد نفسه وينظم صفوفه، لمواجهة الخزر، الذين ما أن سمعوا بمقدم الجراح في جيشه ذاك[3]، حتى ارتدوا عن البلاد الإسلامية التي كانوا قد استولوا عليها، وانسحبوا عائدين حتى نزلوا مدينة الباب والأبواب[4].

وبعد أن أخذ الجراح وجنده قسطاً من الراحة توجه نحو الخزر في عامه ذاك (104 هـ)، فعبر نهر الكر واجتاز إقليم شروان، حتى قطع نهر السمور متجهاً صوب مدينة باب الأبواب، وأخذ الجراح الاحتياطات اللازمة في خط سيره، وبث السرايا والطلائع أمامه، ولما وصل مدينة باب الأبواب وجدها خالية، وبث سراياه على ما يجاوره من البلاد، فنصروا وغنموا وكان الجراح قد ارتحل في عشرين ألفاً من جنده بعد أن بعث سراياه، فنزل على نهر الران على ستة فراسخ من مدينة باب الأبواب، واجتمع إليه جند السرايا بعد أن أدوا الهدف الذي وجهوا من أجله، فأصبح في خمسة وعشرين ألفاً من المسلمين[5].

ويظهر أن تلك الإغارات الإسلامية وما حققته من نصر ومغانم قد أثارت الخزر، فتوجهوا إليه في أربعين ألفاً بقيادة ابن ملكهم ويدعى نارستيك بن خاقان، ونزلوا معه على نهر الران، فدارت بين الفريقين سنة 104 هـ معركة عظيمة نصر الله فيها المسلمين وهزم الخزر، وقتل الكثير منهم وأسر، وغنم المسلمون جميع ما معهم.

وسهَّل النصر الذي حققه المسلمون في معركة الران مهمة الجراح في إخضاع تلك المناطق لحكم المسلمين وسيادتهم، وذلك في أعقاب التخلص من القوة الرئيسة للخزر التي لم تعد قادرة على مواجهة المسلمين ذلك الحين على الأقل، فجرَّد الجراح جيشه لفتح مدن وحصون الخزر هناك[6]، فقد تم فتح رستاق يزعوا[7]، وفتح حصن بلنجر سنة 104هـ بعد قتال دار بين الفريقين في معركة عظم فيها الأمر على الجميع، حتى كان النصر حليف المسلمين على أعدائهم الخزر، فاستولى المسلمون على حصنهم عنوة وغنموا ما فيه، وكانت غنائم عظيمة أصاب الفارس منها ثلاثمئة دينار، وأما صاحب بلنجر فقد تمكن من الفرار في خمسين من قومه، فشرى الجراح زوجته وأولاده وخدمه

---

(1) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص 265.

(2) برذعة: مركز إقليم الران.

(3) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص 265.

(4) باب الأبواب: مدينة في أقصى الشمال لبلاد شروان، وهي أجمل موانئ بحر قزوين.

(5) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص 267.

(6) المصدر السابق نفسه، ص 268.

(7) المصدر السابق نفسه، ص 270.

وبعث إليه بالأمان، فرد إليه حصنه وأهله وأمواله، ليكون صنيعة للمسلمين وعيناً لهم على أعدائهم[1]، فكان فتح البلنجر فتحاً مبيناً، كما كان موقف الجراح الحكمي من صاحبه بعد نظر، كان له نتائج طيبة، فقد قدم للمسلمين أخبار قيمة تتعلق باتفاق الخزر واجتماعهم على قطع الطريق على المسلمين، وواصل الجراح فتوحاته وتوجه إلى حصن الوبندر وصالح أهله، ثم رجع بجيشه إلى شكى بعد سماع أخبار تتعلق باجتماع الخزر لحربه من صاحب بلنجر، وبعد نزوله شكى كتب الجراح إلى يزيد بن عبد الملك بما فتح الله على يديه، ذاكراً له اجتماع الخزر لحربه، كما سأله المدد، فوعده الخليفة بذلك، إلا أن الأجل قد أدركه قبل إنفاذ المدد إليه[2]، وبعد مجيء هشام بن عبد الملك للحكم حرص على إكمال ما بدأه سلفه، فأقر الجراح على ولاية أرمينية وأمدهُ بما يمكنه من صيانة الثغور، ودفع الأعداء عن ديار الإسلام[3].

3 . الفتوح في أرض الروم:

تمثلت الجهود العسكرية التي تمت في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ضد الروم، في تحصين الثغور وشحنها وصيانة الحدود والدفاع عنها، والفتح براً عن طريق الصوائف والشواتي، وما تم خلال ذلك من فتوحات في آسيا الصغرى، والغزو بحراً لجزر الحوض الأوسط والغربي من البحر المتوسط عن طريق إفريقية[4]، وقد كان عهد يزيد بن عبد الملك خالياً من الحملات العسكرية الكبرى ضد البيزنطيين، وفي معاودة التفكير في فتح القسطنطينية، عاصمتهم العتيقة، وإن كانت الصوائف والشواتي التي وجهت لآسيا الصغرى، قد حفلت بكثير من الانتصارات، وفتح كثير من المدن والمواقع الرومانية[5].

4 . الجهاد في البحر الأبيض المتوسط:

تابع ولاة إفريقية من قبل الخليفة يزيد بن عبد الملك جهود من سبقهم من أمراء الشمال الإفريقي، فقد قام يزيد بن أبي مسلم أمير إفريقية (101 ـ 102 هـ) بغزو جزيرة صقلية سنة 101 هـ، كما وجه من قبله سنة 102 هـ محمد بن أوس الأنصاري في غزوة بحرية إلى صقلية، فعادت الحملة سالمة غانمة[6]، وكان سبب تركيز أمير إفريقية على صقلية لأهميتها بالنسبة للروم، وهي محاولة لضرب تلك القاعدة البيزنطية الهامة، وتهديداً للأعداء وإشغالهم عن مهاجمة الساحل الإفريقي[7].

---

[1] تاريخ ابن خلدون (84/3).

[2] المصدر السابق نفسه؛ الدولة الأموية في عهد يزيد، ص 173.

[3] الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص 274.

[4] المصدر السابق نفسه، ص 276.

[5] المصدر السابق نفسه.

[6] المصدر السابق نفسه، ص 287.

[7] المصدر السابق نفسه، ص 288.

وأما ولاية بشير بن صفوان على إفريقية (102 . 109 هـ) فقد كانت حافلة بالغزوات البحرية، على جزر سردينية وكورسيكا وصقلية[1]، وولايته هذه تعتبر علامة مميزة في تاريخ البحرية الإسلامية الناشئة في إفريقية، إذ وصلت تحت إمرته لها مطلع القرن الثاني الهجري إلى مرحلة الفتوة، وذلك بعد استيلاء المسلمين على السواحل البحرية الشرقية في إسبانية، وكان غزواته سنوية تقريباً ألح بها على قواعد الروم القريبة، لإرهابهم وإشغالهم عن محاربة سواحل المغرب[2]. ومن غزواته في خلافة يزيد بن عبد الملك الحملة التي وجهها بقيادة يزيد بن مسروق اليحصبي[3] إلى جزيرة سردينية، وذلك في المحرم (سنة 103 هـ)، فكان نصيبها النجاح، حيث غنم المسلمون وسلموا[4].

5 . الفتوح في بلاد الغال:

بلاد الغال: تعني عند العرب الأرض الواقعة بين جبال البرتات (البرينيه)، وبين جبال الألب والأوقيانوس، ونهر ألبا ومملكة الروم، وهذا المفهوم ينطبق على فرنسا أيام شارلمان، وأممها تتحدث بعدة لغات[5].

شهد عصر الخليفة يزيد بن عبد الملك حملة من أهم الحملات التي قام بها المسلمون لفتح بلاد الغال عن طريق الأندلس. وهي الغزوة التي قادها السمح بن مالك الخولاني (101 . 102 هـ) إلى تلك الأصقاع[6].

أ . حملة السمح بن مالك الخولاني على بلاد الغال:

بدأ السمح حملته في بداية عهد يزيد بن عبد الملك، ومهد لغزو ما وراء البرتات بتوجيه البعوث والسرايا إلى بلاد الغال، خلال انشغاله بالتنظيمات التي قام بها بالأندلس، وكان السمح رجلاً قوي الإيمان جم النشاط من خيار أهل زمانه ثقة وعدالة، توفرت فيه الحكمة والخبرة والعقل فاجتمع عليه الناس ورضوا به، وكانت ولايته تجديداً للغزو واستئنافاً للفتح ما وراء البرتات، واتخذ من مدينة برشلونة قاعدة لتجمع الجيش الإسلامي المتوجه لفتح بلاد الغال، وزحف السمح في جيش كبير من برشلونة مخترقاً جبال البرتات من الشرق ناحية روسيون، وعبر باربينيان حتى أشرف على سبتمانية[7] من بلاد الغال، وظل يتقدم حتى وصل إلى مدينة أربونة، وأصبحت قاعدة مسلحة للمسلمين، واستمر في زحفه واستولى على قرقشونة[8]، وما صادفه من مدن وحصون ذلك الإقليم، واستطاع السمح اجتياح جنوب بلاد الغال، والتغلب على كل القوى التي قاومته وتصدت لزحفه، حتى أتم فتح جميع نواحي سبتمانية، وما إن فرغ من فتح إقليم سبتمانية وتنظيم أموره حتى اتجه بجيشه غرباً نحو مجرى نهر الجارون قاصداً

---

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 289.

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) غزوات العرب، شكيب أرسلان، ص 50 . 51.

(5) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص 290.

(6) أقرب ولايات غالة ناحية الأندلس، تشتمل على سبعة مدن.

(7) مدينة في غالة على نهر الأود، هذه هي قرقشونة.

(8) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص 299.

إقليم إكتيانية أكوتين وبالذات عاصمتها مدينة طولوشة[1]، واتجاهه هذا يعني أن غزوه موجه إلى مملكة الفرنج، فقصد طولوشة، وفي طريقه إليها فتح مدينة طرسكونة[2]، ثم استمر في زحفه حتى نزل طولوشة، فضرب السمح عليها الحصار، وجدَّ في قتال أهلها، مستخدماً المنجنيق وسائر آلات الحصار، حتى أوشك أهلها على التسليم، لكن الأمير أودو هب لإنقاذ المدينة، ففك المسلمون عنها الحصار والتفتوا لقتال أودو وجيشه[3].

ب . معركة طولوشة:

روعت فتوحات السمح بن مالك في سبتمانية الأمير أودو دوق إكيتانية، فهب لإنقاذ عاصمته، وسار بجيشه حتى اقترب من طولوشة والمسلمون محاصرون لها، فلما علموا بمقدمه اضطروا لفك الحصار عن المدينة والتفتوا إليه، وكان جيشه من الكثرة، وقيل: إن عدده عشرة أضعاف الجيش الإسلامي[4]، فالتقى الجيشان بالقرب من طولوشة، وقد أعد السمح جنده معنوياً وبث فيهم روح الجهاد الصادق، وقرأ عليهم بعض آيات النصر، ونشب القتال في معركة عنيفة غير متكافئة، صدق فيها المسلمون القتال وبلغت من الهول ما لا يتصوره العقل، حتى خيل عند تلاقي الجمعين، أن الجبال تلاطمت، وظل القتال سجالاً بين الفريقين، وقد أبدى المسلمون فيه ضروباً من الشجاعة وهم يقتدون بقائدهم، الذي كان يشدهم بقوله وفعله، ويجدونه في كل مكان يحمل على الأعداء فلا يقف في وجهه شيء، غير أن القائد المسلم أصيب برمح في رقبته خر على أثره صريعاً، ومات شهيداً، فلما رأى المسلمون ما أصاب أميرهم، فت في أعضادهم وأثر في نفوسهم، فاختل نظام الجيش، وحينها ولوا عليهم أحد كبار الجند وهو عبد الرحمن الغافقي[5]، الذي نجح في قيادة الجيش، وتمكن من الانسحاب ببقية الجيش في مهارة حرمت الفرنج من تعقب المسلمين، وإصابتهم في حالة التقهقر حتى وصل أربونة، وكان حدوث هذه المعركة واستشهاد السمح بن مالك الخولاني في 9 ذي الحجة سنة 102 هـ[6]. وتعتبر قيادة عبد الرحمن الغافقي لهذا الجيش الولاية الأولى، ولكن رغم قصرها لم تدم أكثر من ستة أشهر، إلا أن رجوع الغافقي بالجيش سيكسبه تجربة يعود منها بعدها إلى فتح تلك المناطق على نطاق أوسع[7].

---

(1) المصدر السابق نفسه، ص 330.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 300.

(3) المسلمون في المغرب والأندلس، محمد زيتون، ص 198 . 199.

(4) الأعلام (312/3، 313)؛ الدولة الأموية في عهد يزيد، ص 302.

(5) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص 302.

(6) جهاد المسلمين خلف جبال البرتات، وفاء المزروعي، ص 66.

(7) البيان المغرب (27/2)؛ فتوح مصر، ص 82.

جـ فتوحات عنبسة بن سحيم الكلبي في بلاد الغال:

استمر عبد الرحمن الغافقي أميراً للأندلس، بتقديم أهل الأندلس له مُنذ استشهاد أميرهم السمح بن مالك الخولاني تاسع ذي الحجة سنة 102 هـ، حتى قدوم عنبسة بن سحيم الكلبي أميراً للأندلس من قبل بشر بن صفوان عامل الخليفة يزيد بن عبد الملك على إفريقية والمغرب، وذلك في صفر سنة 103 هـ[1]، وكان عنبسة من طراز السمح بن مالك رجلاً تقياً، وإدارياً بارعاً، وعسكرياً فذاً، وكان حريصاً على الإسلام وأميناً على دولته[2]، فكان خير خلف لخير سلف، لقد شغل الأمير الجديد صدر ولايته بضبط الأمور في الأندلس، وإخماد الفتن فيها، ومن ذلك توجهه إلى المنطقة الشمالية في الأندلس للقضاء على حركة بلاي، وإخماد التمرد الذي قام به أخيلا بن غطيشة في مدينة طركونة، حتى استقام له أمرها، ثم أعد نفسه للجهاد، وباشر الفتح فيما وراء البرتات بنفسه، وكان بداية ذلك سنة 105 هـ، وهو ما أخذ به أكثر المؤرخين، وبذلك يكون الإعداد والتجهيز لهذه الحملة قد تم في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، وقد يكون خروجها قد تمَّ أواخر زمنه أيضاً. أما ما تم على يد عنبسة من فتوحات في بلاد الغال؛ فإن ذلك قد حدث في خلافة هشام بن عبد الملك[3].

سادساً: وفاة يزيد بن عبد الملك:

قيل بأن يزيد مرض بالسل ومات يوم الجمعة لخمس بقين من شعبان من سنة 105 هـ بالسّواد سواد الأردن، وكانت خلافته أربع سنين وشهراً على المشهور، وقيل: أقل من ذلك، وكان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة، وقيل: خمساً . وقيل: ستّاً، وقيل: ثمانياً، وقيل: تسعاً . وثلاثين. وقيل: إنه بلغ الأربعين. فالله أعلم، وقيل: إنه مات بالجولان، وقيل: بحوران. وصلى عليه ابنه الوليد بن يزيد، وقيل: صلى عليه أخوه هشام بن عبد الملك وهو الخليفة من بعده، وحمل على أعناق الرجال حتى دُفن بين باب الجابية وباب الصَّغير بدمشق، وكان قد عهد بالأمر من بعده لأخيه هشام ومن بعده لولده، فبايع الناس من بعده هشاماً[4]. وكان نقش خاتم يزيد: قني السيئات يا عزيز[5].

* * *

---

[1] التاريخ الأندلسي، للحجي، ص 190.

[2] الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، ص 307، 308.

[3] المنتظم (97/7).

[4] المصدر السابق نفسه (99/7).

[5] البداية والنهاية (12/13).

المبحث الثاني

هشام بن عبد الملك

أولاً: اسمه ونسبه ونشأته:

هو هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، أبو الوليد القرشي الأموي الدّمشقي، أمير المؤمنين، وأمه أمّ هشام بنت هشام بن إسماعيل المخزومي، وكان داره بدمشق عند باب الخوّاصين[1]، ولد هشام بالمدينة، وعلى رواية أخرى أنه ولد بدمشق[2].

ولما كانت أمه مطلقة عند ولادته[3] فإن الرواية الأولى عن مولده بالمدينة هي الراجحة، لوجود أمه حينذاك عند عائلتها بالمدينة[4].

وولد هشام على القول الراجح سنة اثنتين وسبعين[5]، وسمّاه عبد الملك منصوراً لانتصاره على مصعب في تلك السنة، ولما بلغه أن أم هشام سمته على اسم أبيها لم ينكر عبد الملك ذلك[6]، وقضى هشام الشطر الأخير من طفولته في منزل الخلافة الأموي بالشام في أواخر حكم أبيه وإخوته من الخلفاء[7]، وكان هشام مغموراً في البلاط الأموي زمن أخويه الوليد وسليمان[8]، وقد بقي هشام بعيداً عن مسرح الأحداث نسبياً حتى توليه الخلافة 105هـ[9].

وكان جميلاً أبيض أحول يخضب بالسواد، وهو الرابع من ولد عبد الملك لصُلبه الذين وُلُّوا الخلافة، وقد كان عبد الملك رأى في المنام كأنه بال في المحراب أربع مرّات، فأرسل إلى سعيد بن المسيب من سأله عنها، ففسّرها له بأنه يلي الخلافة من ولده أربعة، فوقع ذلك، فكان هشام آخرهم، وكان في خلافته حازم الرأي جمّاعاً للأموال، وكان

---

(1) تاريخ القضاعي، ص 366.

(2) البداية والنهاية (151/13).

(3) عصر هشام بن عبد الملك، عبد المجيد الكبيسي، ص 29.

(4) المصدر السابق نفسه.

(5) المصدر السابق نفسه.

(6) الكامل في التاريخ (308/3).

(7) المصدر السابق نفسه.

(8) عصر هشام بن عبد الملك، ص 13.

(9) المصدر السابق نفسه، ص 33.

ذكياً مدبّراً له بُعد بالأمور جليلها وحقيرها، وكان فيه حلم وأناة[1]. قال فيه الذهبي: كان عاقلاً حازماً سائساً، فيه ظلم وعدل[2]..

ثانياً: سعيه لنيل الخلافة وتوليته للعهد:

كان هشام تواقاً لنيل الخلافة[3]، ففي أواخر أيام سليمان بن عبد الملك، أقنع رجاء بن حيوة الخليفة أن يبايع لعمر بن عبد العزيز، وخوفاً من الفتنة وتجنباً لمعارضة بني أمية أن يبايع بعده ليزيد بن عبد الملك، ويكون ذلك في كتاب مختوم يفتح بعد موت سليمان، ولم يكن يعلم لمن عهد سليمان بالخلافة من بعده إلا رجاء، وقد حاول هشام أن يستدرج رجاء لمعرفة من استخلف سليمان من بعده، ولما رفض رجاء إخباره استغرب هشام ذلك، لاعتقاده بأنه أحق الجميع بالخلافة[4]. فقد قال رجاء: لقيني هشام بن عبد الملك فقال: يا رجاء! إن لي بك حرمة ومودة... فأعلمني هذا الأمر، فإن كان إلي عملت، وإن كان إلى غيري تكلمت فليس مثلي قصّر به، قال رجاء: فأبيت... فانصرف هشام وقد يئس ويضرب بإحدى يديه على الأخرى، وهو يقول: فإلى من نحيت عني؟ أتخرج من ولد عبد الملك[5]. فسيرة هشام تدل على رغبته الملحة بالخلافة[6].

وأما بالنسبة لبيعة هشام بولاية العهد، فقد كان للظروف السياسية دورها الفعال في ذلك، فعندما أراد يزيد بن عبد الملك أن يُرسل جيشاً لقتال يزيد بن المهلب في العراق، أشار العباس بن الوليد على يزيد أن يولي العهد لأخيه عبد العزيز بن الوليد، ومن بعده للوليد بن يزيد، وبين أن الوليد كان صغيراً، كما علل العباس طلبه بالخوف من إرجاف أهل العراق بعد أن يشيع موت الخليفة، فأجاب يزيد بالموافقة، ووعد بأن يبايع لعبد العزيز بن الوليد في اليوم التالي، ويبدو أن الخبر وصل هشاماً، فذهب وقابل أخاه مسلمة[7] الذي قام بدوره بمقابلة يزيد وإقناعه بالبيعة لهشام بولاية العهد، ومن بعده الوليد[8] بن يزيد، وكان ذلك عام 101 هـ على الأرجح[9]، وكانت العلاقة بين الخليفة يزيد بن عبد الملك وأخيه هشام، ولي عهده، حسنة نسبياً، رغم ندم الخليفة يزيد على إسناد ولاية العهد لهشام، فكان يقول كلما رأى ابنه الوليد:... الله بيني وبين من جعل هشاماً بيني وبينك[10]، فقد كبر الوليد وأدرك

---

(1) الكامل في التاريخ (308/3).

(2) البداية والنهاية (151/13).

(3) سير أعلام النبلاء (352/5).

(4) عصر هشام بن عبد الملك، ص 34.

(5) تاريخ الطبري؛ نقلاً عن عصر هشام بن عبد الملك، ص 34.

(6) عصر هشام بن عبد الملك، ص 35.

(7) الكامل في التاريخ (288/3).

(8) المصدر السابق نفسه.

(9) وابن الأثير يراها عام 102 هـ. الكامل (288/3).

(10) الكامل في التاريخ (288/3).

حياة أبيه، ولربما كان مرد ذلك لخشية يزيد على ابنه الوليد من أخيه هشام بعد موته، وإن كان قد أخذ على هشام المواثيق بأن لا يحرم الوليد من ولاية عهده[1].

ثالثاً: توليه الخلافة:

توفي يزيد بن عبد الملك يوم الجمعة لخمس ليال بقين من شعبان سنة 105 هـ، وجاء البريد لهشام بشارتي الخلافة والخاتم وهو بالزيتونة[2]، وما لبث هشام حتى ذهب إلى الرصافة، ثم ركب هشام من الرصافة حتى أتى دمشق[3]، فبويع بها في اليوم الأول من شهر رمضان عام 105 هـ على الأرجح[4]. وأما الطبري[5] وابن الأثير[6] فيذكر أن استخلاف هشام كان لليال بقين من شعبان عام 105 هـ.

وكان هشام يعرف كيف ينجح في مشروعاته، ويعد من ساسة بني أمية المشهورين، ختمت به أبواب السياسة وحسن السيرة[7]، وكان شديد المراقبة لعمّاله ودواوينه، وقد شهد له بجدارته أحد خصومه، فقال عبد الله بن علي بن العباس: جمعت دواوين بني مروان؛ فلم أر ديواناً أصح ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام[8].

رابعاً: نبذة عن حياته الخاصة:

1 . بخل هشام:

وُصف هشام بالبخل وجمع المال، قال الجاحظ: كان هشام يقول: ضع الدرهم على الدرهم يكون مالاً[9]. ويبدو أن السبب في هذا الوصف شدة مراقبته للمال العام، فقد كان شديد المحاسبة للمشرفين على الديوان، وحريصاً على مال المسلمين، ولذلك وصفه الشعراء والكتاب بالبخل، لأن الشعراء اعتادوا الهبات الكبيرة من ملوك بني أمية[10].

2 . اتهامه بشرب الخمر:

جاءت روايات لا يصح إسنادها تُشير إلى أن هشام بن عبد الملك كان يشرب الخمر كل يوم جمعة بعد الصلاة،

---

[1] عصر هشام بن عبد الملك، ص 37.

[2] الزيتونة: موقع في بادية الشام.

[3] الكامل في التاريخ (308/3).

[4] عصر هشام بن عبد الملك، ص 38.

[5] تاريخ الطبري (546/7).

[6] الكامل (308/3).

[7] عصر هشام بن عبد الملك، ص 40.

[8] المصدر السابق نفسه، ص 59.

[9] عصر هشام بن عبد الملك، ص 59.

[10] الخلافة الأموية، عبد المنعم الهاشمي، ص 371.

وكانت له مجالس يدار فيها الخمر، فإن تلك الروايات لا تصح من حيث السند، كما أن سيرة هشام منافية لهذا الاتهام الباطل، فقد زجر ولي عهده، لمعاقرته وإدمانه على الخمرة، كما زجر ابنه مسلمة المكنى أبا شاكر، وألزمه الأدب وحضور الجماعة[1].

3 . شعره:

لا تحدثنا المصادر عن قصائد أو أبيات شعرية قالها هشام، مع ما للشعر آنذاك من منزلة، ومع ذلك فإن المصادر تذكر لنا بيتاً من الشعر كان هشام يردده دائماً:

إذا أنتَ طاوعتَ الهوى قادَكَ الهوى إلى بعضٍ ما فيهِ عليك مقالُ[2]

ولم تذكر المصادر قائل البيت السالف، ولعله لهشام، ومع ذلك فإن هشام لم يكن شاعراً وإن كان يروي الشعر ويحب سماعه[3].

4 . تقبله للهدايا:

كان هشام يتقبل الهدايا من الولاة وغيرهم، ولم ير بذلك إضراراً بمصلحة الدولة أو إجحافاً بحقوق الناس، ولا شك أن قبول هشام للهدايا من الولاة خاصة، وعدم إمعانه في التحري عن مصادر تلك الهدايا أمر غير مقبول من حاكم مثله[4]. وهذا مخالف للنهج الذي سار عليه عمر بن عبد العزيز.

5 . من صفات هشام:

كان هشام جميل الصورة ربعة سميناً، يخضب بالسواد وبعينه حول، موصوفاً بالحلم، ولا يستغضب بسهولة، إلا في مسألة حَوَلِ عينه وإن كان قد لقب بأحول بني أمية[5]، وإذا أخطأ كان هشام سريع الندم، وطلب العفو[6]. متقبلاً للوعظ[7]. وقد كسا الكعبة من الديباج الثمين[8].

خامساً: أولاده وعلاقته بأقربائه:

1 . تربيته لأولاده:

---

(1) عصر هشام بن عبد الملك، ص 63.

(2) البداية والنهاية (154/13).

(3) عصر هشام بن عبد الملك، ص 64.

(4) المصدر السابق نفسه، ص 65.

(5) المصدر السابق نفسه، ص 66.

(6) الكامل في التاريخ (393/3).

(7) معجم الأدباء (161/4 . 162).

(8) عصر هشام بن عبد الملك، ص 66.

كان لهشام عشرة من الأولاد الذكور وبعض البنات، ويختلف المؤرخون في عددهم؛ فيذكر ابن حزم أن عددهم كان ستة عشر ولداً وبعض البنات[1]، وقد حاول هشام أن يحسن تربية أولاده فاختار لهم محمد بن مسلم بن عبيد الله ابن شهاب الزهري المحدث لتأديبهم[2]، واختار هشام لأولاده أيضاً من يعلمهم اللغة والشعر، وكان يحضر أحياناً مجالس مؤدبيهم[3]، وكان يعطي مؤدب ولده ألف درهم كل شهر، إلى جانب الكسوة والجوائز[4]،

وكان يوصي مؤدِّب ابنه: أن يعلمه القرآن، ويُروّه الأشعار، وأيام الناس، ويأخذه بعلم الفرائض والسنن، وقيل: أوصاه أن يأخذ ولده بكتاب الله ويُقرئه في كل يوم عشر آيات ليحفظ القرآن، ويروّه من الشعر أحسنه، ويتخلل به مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم وطرفاً من الحلال والحرام والخطب، ويصله بأهل الفقه والدين[5].

وبالرغم من ذلك، فقد أساء بعض أولاده السيرة، ولم يشتهر أحد منهم بعد سقوط الدولة الأموية عدا حفيد هشام، عبد الرحمن بن معاوية بن هشام مؤسس الدولة الأموية في الأندلس[6].

ويذكر أن هشام شتم ابنه محمداً لقيام أحد عبيده بضرب طفل نصراني، كان قد اعتدى على أحد أولاد محمد[7]، كما منع أحد أولاده من ركوب الدابة سنة، عقاباً له على عدم حضوره لصلاة الجمعة بحجة موت دابته، وليس باستطاعته أن يحضر إلى المسجد ماشياً[8]، وقد كان هشام يهتم بتصرفات أولاده ويرغب لهم أن تكون سمعتهم جيدة بين الناس، وتصلح أحوالهم مع ربهم ودينهم، ويتضح ذلك من اختياره لمؤدبهم، وتوليتهم المواسم، وإجبارهم على حضور الجمعة[9].

2 . اشتراكهم في حروب الدولة:

كان هشام يشرك أولاده بالحروب، ويقلدهم قيادة جيوش الغزو، وقد اشتهر منهم معاوية بن هشام، قال عنه ابن حزم: قاد الصوائف عشر سنين[10]. وقد شارك معاوية في قيادة الحملات الموجهة لغزو الروم زمن أبيه أكثر من عشر مرات[11]، وقد شارك في قيادة حملات الغزو من أولاد هشام: سليمان، ومسلمة، وسعيد، ومحمد[12].

---

[1] المصدر السابق نفسه، ص 72.

[2] البداية والنهاية؛ نقلاً عن عصر هشام بن عبد الملك، ص 73.

[3] عصر هشام بن عبد الملك، ص 73.

[4] مكانة المعلم في التراث العربي الإسلامي، ص 154.

[5] دراسة في التاريخ الخلفاء الأمويين، ص 322.

[6] عصر هشام بن عبد الملك، ص 73.

[7] المصدر السابق نفسه.

[8] المصدر السابق نفسه.

[9] المصدر السابق نفسه، ص 74.

[10] جمهرة أنساب العرب (92/1).

[11] عصر هشام بن عبد الملك، ص 75.

[12] المصدر السابق نفسه، ص 76.

3. علاقة هشام بالوليد بن يزيد ولي العهد:

كان هشام مكرماً للوليد حتى ظهر منه مجون وفسق، وربما كان لمؤدب الوليد عبد الصمد بن عبد الأعلى يد في سوء سيرة الوليد، فأراد هشام إبعاد عبد الصمد بن الوليد، فكتب إليه بذلك، فاستجاب الوليد إلى رغبة عمه هشام، وأخرج عبد الصمد[1] وقد حاول هشام أن يصلح من سيرة الوليد، فولاه الموسم عام 116 هـ، ويبدو أن الوليد لم يرتدع ويترك ما كان عليه من لهو وفسق، فطمع هشام في خلعه، وتقليد ولاية العهد لابنه مسلمة، لكن الوليد رفض خلع نفسه، فطلب منه هشام أن يجعل مسلمة بن هشام ولياً للعهد من بعده، فرفض ذلك أيضاً... فتنكر له هشام وأضرّ به وعمل سرّاً في البيعة لابنه، فأجابه قوم، منهم: محمد وإبراهيم ابنا هشام بن إسماعيل المخزومي، وبنو القعقاع بن خليد العبسي، وغيرهم من خاصته[2]، وساءت العلاقة بين هشام والوليد، فكان هشام يعنفه أمام الناس، وكان الناس يتقرَّبون إلى هشام بعيب الوليد[3]، ويبدو أن هشاماً كان جاداً في خلع الوليد والبيعة لابنه مسلمة بولاية العهد، ومع ذلك لم يجرؤ هشام على تحدي الناس في بيعتهم للوليد، فيذكر ابن كثير أن الزهري المحدث كان يحثُّ هشاماً على خلع الوليد من ولاية العهد، ولكن هشاماً كان يرفض ذلك خشية الفضيحة، وتغير قلوب الأجناد[4]، وكان نتيجة محاولة هشام خلع الوليد والبيعة لابنه مسلمة، أن جلب نقمة الوليد على أولاده من بعده[5] .كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى ..

4 . علاقته بآل مروان وسائر الأمويين:

كان هشام يولي أهل بيته قيادة الحملات الموجهة ضد البيزنطيين، فقد ولى أخاه مسلمة قيادة تلك الحملات لسنوات عدة[6]، كما ولاه ولاية أرمينية وأذربيجان مرتين، ولما عزل هشام مسلمة في المرة الثانية عام 114 هـ عن أرمينية وأذربيجان ولاها لابن عمه مروان بن محمد بن مروان بن الحكم[7]، كما ولى هشام أخاه سعيداً قيادة إحدى الحملات لصدّ البيزنطيين أيضاً.. وأما أبناء إخوته، فمع أن هشاماً لم يولهم قيادة حملات الصوائف، ولكنه كان يشركهم فيها، وكان هشام يفرض المشاركة في الحملات الحربية على من يأخذ العطاء من آل مروان، ولم يكن أحد من بني مروان يأخذ العطاء إلا عليه الغزو؛ فمنهم من يغزو ومنهم من يخرج بديلاً، وكان يصيرون أنفسهم في أعوان

---

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) تاريخ الطبري (623/7).

(3) عصر هشام بن عبد الملك، ص 78؛ العقد الفريد (184/5).

(4) البداية والنهاية؛ نقلاً عن عصر هشام بن عبد الملك، ص 79.

(5) عصر هشام بن عبد الملك، ص 79.

(6) تاريخ الطبري؛ نقلاً عن عصر هشام بن عبد الملك، ص 80.

(7) المصدر السابق نفسه.

الديوان، وفي بعض ما يجوز لهم المقام به، ويضع به الغزو عنهم[1]، ويبدو أن مقدار العطاء كان مئتي دينار[2]. ويظهر أن هشاماً لم يهب لأهل بيته من الأموال، كما كان يوهب لهم في العهود السالفة، ومع أن هشاماً لم يحابِ آل مروان ويفضلهم على من سواهم، لكنه لم يخصهم، وقد قام هشام بتزويج جميع بناته من أبناء عمومتهن، كما كان بنو مروان يأخذون عطاء الشرف[3]، وكان عدد من بني مروان يحضرون مجلس هشام للسمر معه، وتذكر الروايات أن هشاماً وبخ أفضل ولاته خالد القسري واليه على العراق لما أهان القسري أحد الأمويين، وكتب الأموي إليه بذلك، وربما كانت إهانة الأموي من بين ما دعا هشام إلى عزل القسري عن ولايته[4].

5 . رعايته لأخواله من بني مخزوم:

مرّ معنا أن هشاماً ولد بالمدينة عند أخواله، لأن أمه كانت مطلقة عند أهلها، وقد قضى طفولته المبكرة في المدينة عند أخواله، فلما تولى الخلافة ولى خاله إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي مكة والمدينة والطائف 106 هـ[5]، وقد استمر إبراهيم بن هشام إلى عام 114 هـ، فعزله هشام عن ولاياته الثلاث وولى مكة والطائف لخاله الاخر محمد بن هشام المخزومي[6]، وأضاف إليه المدينة عام 118 هـ[7]،وظهر ميل هشام لأخواله عندما أمر لوفد من قريش ببعض المال فضَّل فيه أخواله[8].

سادساً: من حياته الاجتماعية:

1 . علاقته بالرعية:

كان هشام يضع الرقباء والعيون من خيار الناس على ولاته وعماله ليتأكد من سيرهم بالعدل، وقضائهم حوائج الخلق، ولا يكتفي بذلك، بل يتعرض للناس بنفسه يسأل عن أحوالهم ويحرضهم على المطالبة بحقوقهم، وكان له موضع بالرصافة أفيح من الأرض يبرز فيه، فتضرب له به السرادقات: فيكون فيه ستين ليلة بارزاً للناس، مباحاً للخلق، لا يفني أيامه تلك إلا برد المظالم والأخذ على يد الظالم من جميع الناس وأطراف البلاد، ويصل إلى مخاطبته في ذلك الموضع راعي السوائم والأمة السوداء فمن دونهما، وقد وكل رجالاً أدباء عقلاء بإدناء الضعفاء والنساء واليتامى منه، ويستقبل وفود الأمصار فيلبي حاجاتهم، ويخرج مع مستشاريه يصنع لهم الطعام بنفسه، فيأكل منه،

---

[1] المصدر السابق نفسه، ص 81.

[2] المصدر السابق نفسه.

[3] عصر هشام بن عبد الملك، ص 81.

[4] تاريخ الطبري؛ نقلاً عن عصر هشام، ص 81.

[5] تاريخ الطبري (551/7).

[6] المصدر السابق نفسه (614/7).

[7] المصدر السابق نفسه (638/7).

[8] عصر هشام بن عبد الملك، ص 82.

ويأكل معه الناس، وإن نشبت بينه وبين أحد من أشراف رعيته خصومة لم يجد سبيلاً لقضائها إلا أن يمثل بنفسه أمام القضاء مع خصمه ويلزم أهل بيته بذلك، حتى لو كان خصم أحدهم[1] نصرانياً، ولما استطال مرة على أحد رعيته لم يجد مفراً من إرضائه بكل سبيل، فقد شتم هشام مرة رجلاً من الأشراف، فوبخه ذلك الرجل، وقال: أما تستحيي أن تشتمني وأنت خليفة الله في الأرض؟ فاستحيى منه، وقال: اقتص مني، فقال: إذن أنا سفيه مثلك، قال: فخذ عوضاً من المال، قال: ما كنت لأفعل، قال: فهبها لله، قال: هي لله، ثم لك، فنكس هشام رأسه واستحيى وقال: والله لا أعود إلى مثلها أبداً[2].

2. مع وفود الأعراب:

في أيام هشام قحطت البادية فقدمت عليه العرب، فهابوا أن يكلموه، وكان فيهم درواس بن حبيب، وهو ابن ست عشرة سنة، له ذؤابة، وعليه شملتان. فوقعت عليه عين هشام فقال لحاجبه: من أراد أن يدخل عليّ فليدخل، فدخل حتى الصبيان، فوثب درواس حتى وقف بين يديه مطرقاً، فقال: يا أمير المؤمنين، إن للكلام طيّاً ونشراً، وإنه لا يعرف ما في طيه إلا بنشره، فإن أذن لي أمير المؤمنين أن أنشره نشرته، فأعجبه كلامه وقال: انشره لله درك[3]. فقال: يا أمير المؤمنين، إنه أصابتنا سنون ثلاث، سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة أدقت العظم، وفي أيديكم فضول مال، فإن كانت لله ففرقوها على عباده، وإن كانت لهم، فلا تحبسوها عنهم، وإن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم، فإن الله يجزي المتصدقين، فقال هشام: ما ترك لنا الغلام واحدة من الثلاث عذراً، فأمر للبوادي بمئة ألف دينار، وله بمئة ألف درهم، ثم قال له: أما لك حاجة؟ قال: ما لي حاجة في نفسي دون عامة المسلمين.

وكان هشام لا يدخل بيت ماله مالاً حتى يشهد أربعون رجلاً أنه أخذ من حقه. ولقد أعطى لكل ذي حقٍّ حقه، ويقال: إنه جمع من الأموال ما لم يجمعه خليفة قبله[4].

3. حظي منه عقله لا وجهه:

كان هشام يقرب منه الأذكياء أصحاب الحكمة والعقل الراجح، ذلك أنه لما أتته الخلافة سجد لله شكراً، فلما رفع رأسه وجد الأبرش الكلبي واقفاً فقال: ما لك لم تسجد معي؟ فقال: يا أمير المؤمنين، رأيتك وقد رفعت إلى السماء، وأنا مخلد إلى الأرض. فقال: أرأيتك إن رفعتك معي أتسجد؟ فقال: الآن طاب السجود، فسجد، فأمر

---

[1] الكامل في التاريخ (392/3).

[2] المصدر السابق نفسه (393/3).

[3] أخبار الدول واثار الأول في التاريخ (49/2).

[4] المصدر السابق نفسه.

له بالإحسان الكثير وأن يكون جليسه طول مدته، وعوتب في شأنه وقيل له: ما تجالس في هذا الأبرش؟ فقال: حظي منه عقله لا وجهه[1].

4 . هشام مع جاريته:

اشترى هشام بن عبد الملك جارية وخلا بها، فقالت له: يا أمير المؤمنين، ما من منزلة أطمع فيها فوق منزلتي إذ صرت للخليفة، ولكن النار ليس لها خطر، إن ابنك فلاناً اشتراني فكنت عنده . لا يحل لك مسّي، قال: فحسن هذا القول منها عنده، وحظيت عنده وتركها وولاها أمرها[2].

5 . إن نعم عدوك قلادة في عنقي لا ينزعها إلا غاسلي:

وجه أبو جعفر المنصور إلى شيخ من أهل الشام كان بطانة هشام بن عبد الملك فسأله عن تدبير هشام في بعض حروبه الخوارج، فوصف له الشيخ ما دبَّر فقال: فعل رحمه الله كذا، وصنع رحمه الله كذا وكذا، فقال له المنصور: قم عليك وعليه لعنة الله، تطأ بساطي وتترحم على عدوي، فقام الرجل وهو يقول وهو مولٍ: إن نعم عدوك لقلادة في عنقي لا ينزعها إلاَّ غاسلي، فقال له المنصور: ارجع يا شيخ، فرجع فقال: أشهد أنك نهيض حر وغراس شريف، عُد إلى حديثك، فعاد الشيخ إلى حديثه، حتى إذا فرغ دعا له بمال فأخذه وقال: والله يا أمير المؤمنين ما بي إليه من حاجة، ولقد مات عني من كنت في ذكره آنفاً، فما أحوجني إلى وقوف بباب أحد، ولولا جلالة عز أمير المؤمنين وإيثار طاعته ما لبست لأحد بعده نعمة، فقال له المنصور: مت إذا شئت لله أبوك، فلو لم يكن لقومك غيرك كنت قد أبقيت لهم مجداً مخلداً[3]..

6 . لتلينّ طائعاً أو لتلينّ مكرهاً:

عن إبراهيم بن أبي عَبْلة قال: أراد هشام أن يوليني خراج مصر فأبيت، فغضب حتى اختلج وجهه، وكان في عينيه حول، فنظر إلي نظر منكر، وقال: لتلينَّ طائعاً، أولتلينَّ مكرهاً، فأمسكت عن الكلام حتى سكن غضبه، فقلت: يا أمير المؤمنين أتكلم؟ قال: نعم، قلت: إن الله قال في كتابه العزيز: {إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا} [الأحزاب: 72]. فوالله أمير المؤمنين ما غضب عليهن إذ أبين، ولا أكرههن إذ كرهن وما أنا بحقيق أن تغضب عليّ إذ أبيت، وتكرهني إذا كرهت، فضحك وأعفاني[4].

7 . كراهية هشام تقبيل اليد:

كان هشام بن عبد الملك يكره تقبيل اليد، حكى العتبي، قال: دخل رجل على هشام بن عبد الملك فقبل يده،

---

[1] فوات الأعيان (239/4).

[2] المنتظم (97/7).

[3] المصدر السابق نفسه.

[4] تاريخ الخلفاء، ص 249؛ الدولة الأموية، للوكيل (548/1).

فقال: أفّ[1]! إن العرب ما قبلت الأيدي إلا هلوعاً، ولا فعلته العجم إلا خضوعاً[2].

8 . تشييعه لجنازة طاوس بن كيسان:

لما مات طاوس من كيسان لم يتهيأ إخراج جنازته لكثرة الناس، حتى وجه إليهم أمير مكة بالحرس، وقد حرص هشام بن عبد الملك على تشييع جنازته بنفسه، وكان عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي يضع سرير طاوس على كاهله حتى سقطت قلنسوته عن رأسه ومزق رداؤه من خلفه[3].

9 . محاربة المذاهب الضالة في عهده:

ظهر في العراق في فترة مبكرة معبد الجهني الذي كان من أوائل القدرية في الإسلام وهم منكرو القدر، وقد جاء بهذه الأفكار . فيما يبدو من مصادر نصرانية .، ثم ما لبث أن ثار على الأمويين مع ابن الأشعث، فلما فشلت هذه الثورة ألقى الحجاج القبض عليه وقتله[4]، وقد أخذ الأفكار القدرية لمعبد رجل من الشام واسمه غيلان الدمشقي، وكان مولى لآل عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد أدخل على هذه الأفكار مزيداً من التأصيل الجدلي، وكان فيما يبدو مطعوناً في دينه قبل ذلك، فقد قال مكحول الفقيه: ويلك يا غيلان! ألم أجدك ترامي النساء بالتفاح في رمضان؟ ثم صرت حارثياً تخدم امرأة الحارث الكذّاب . مدعي النبوة الذي قتله عبد الملك كما سبق بيانه . وتزعم أنها أم المؤمنين، ثم تحولت بعد ذلك قدرياً زنديقاً[5]؟!

وقد ناظره عمر بن عبد العزيز لما علم ببدعته، وأبان له ضلاله، فأظهر التراجع عن فكره أكثر من مرة، وأمر عمر بالكتاب إلى سائر الأعمال بخلاف ما يقول هؤلاء القدرية، وقد أمسك غيلان عن الكلام حتى مات عمر فسال منه بعد ذلك السيل[6]، فاستدعاه هشام بن عبد الملك بعد توليه الخلافة وقال له: ويحك قل ما عندك، إن كان حقاً اتبعناه، وإن كان باطلاً رجعت عنه، فناظره ميمون بن مهران[7]، والأوزاعي، فلما استبان خطؤه ومكره وإصراره على ضلالته، أمر هشام بقتله[8] وأمر بنفي أتباعه.

---

(1) أفّ: كلمة تضجر.

(2) الشهب اللامعة، ص 321.

(3) الدولة الأموية المفترى عليها، ص 356؛ مراة الجنان (227/1 . 228).

(4) طبقات المعتزلة؛ نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها، ص 234.

(5) سرح العيون، لابن نباتة، ص 166.

(6) المصدر السابق نفسه، ص 166 . 167.

(7) البداية والنهاية (155/13).

(8) سرح العيون، ص 167؛ البداية والنهاية (235/13).ذ

ويبدو أن بعض الناس أرجف بالخليفة بعد صنيعه ذاك حتى أشفق أن يكون أخطأ بقتله غيلان، فكتب إليه رجاء بن حيوة فقيه أهل الشام يقول: بلغني يا أمير المؤمنين أنه دخلك شيء من قتل غيلان وصالح ـ أحد أصحاب غيلان ـ وأقسم لك يا أمير المؤمنين إن قتلهما أفضل من قتل ألفين من الروم أو الترك[1].

ثم ظهر في الشام الجعد بن درهم مولى بني الحكم، وكان معلماً لمروان بن محمد اخر خلفاء بني أمية، وهو أول من تكلم بخلق القرآن من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وقد قيل: إنه أخذ ذلك من أصول يهودية، فلما أظهر ذلك القول طُلب بالشام، فهرب إلى الكوفة، حيث حبسه عاملها خالد القسري، وأمره هشام بن عبد الملك بقتله، فأخرجه في وثاقه يوم عيد الأضحى، وخطب الناس فقال في آخر خطبته: انصرفوا وضحوا تقبل الله منكم، فإني أريد أن أضحي اليوم بالجعد بن درهم فإنه يقول: ما كلم الله موسى، ولا اتخذ إبراهيم خليلاً، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً، ثم نزل وذبحه[2].

ومن العقائد الباطلة التي ظهرت في ذلك الوقت ما كان من المغيرة بن سعيد وبنان بن سمعان النهدي، وكانا من غلاة الشيعة، فكان المغيرة يقول بألوهية علي بن أبي طالب، وتكفير الشيخين أبي بكر وعمر، وسائر الصحابة إلا من ثبت مع علي رضي الله عنه، وزعم أن الأنبياء لم يختلفوا في شيء من الشرائع، وكان ساحراً يقول: لو أردت أن أحيي عاداً وثمود وقروناً بين ذلك كثيراً لفعلت، ويرى مذهب التجسيم لله عز وجل[3]... وكان بنان بن سمعان يشاركه في هذه المعتقدات، ويرى أن علياً حل فيه جزء إلهي، وأنه كان يعلم الغيب ويخبر به، وأنه سوف يأتي بعد ذلك من جديد، ثم ادعى أن ذلك الجزء الإلهي قد انتقل إليه هو بالتناسخ، ولذلك استحق أن يكون إماماً وخليفة[4]، وزعم أنه المراد بقوله تعالى: {هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ}[آل عمران: 138]، إلى غير ذلك من أضاليل عجيبة، ثم إنهما خرجا في سبعة نفر على خالد القسري فقتلهما حرقاً على نحو بشع سنة 111 هـ، ثم قتل أحد المتنبئين بالكوفة[5].

وفي ولاية خالد القسري ظهرت دعوة باطنية في الإسلام على يد عمّار بن يزيد بخراسان، وقد تسمّى بخِداش، فدعا الناس إلى خلافة محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، فاستجاب له خلق كثير، فلمَّا التفوا عليه دعاهم إلى مذهب الخُرَّمِيَّة الزَّنادقة[6]، وأباح لهم نساء بعضهم بعضاً، وزعم لهم أن محمد بن علي بن عبد الله يقول ذلك،

---

[1] حلية الأولياء(172/5)؛ الدولة الأموية المفترى عليها، ص 235.

[2] الكامل في التاريخ(393/3).

[3] الفرق بين الفرق، ص 239 ـ 240؛ الدولة الأموية المفترى عليها، ص 235.

[4] الملل والنحل، للشهرستاني (204/1 ـ 205).

[5] الدولة الأموية المفترى عليها، ص 236.

[6] الخرمية فرقة من المودكية، وسر مذهب الإسماعيلية.

وقد كذب عليه، فأظهر الله عليه الدّولة، فأخذ فجيء به أمير خراسان، فأمر به فقطعت يده، وسُلَّ لسانه ثم صُلب بعد ذلك[1].

وفي ولاية يوسف بن عمر على العراق (120 . 126 هـ) قتل أبو منصور العجلي أحد الشيعة الغلاة الذي زعم أن علياً والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمداً الباقر كلهم أنبياء ومرسلون، وأنه هو أيضاً نبي مرسل عرج به إلى السماء، وأن الله تعالى مسح على رأسه بيده، وقال: يا بني بلغ عني، ثم أنزله إلى الأرض، وكفر أصحابه بالجنة والنار، وتأولوا الجنة على أنها نعيم الدنيا، والنار على أنها محق الناس في الدنيا، واستحلوا خنق مخالفيهم، فلما اكتشف يوسف بن عمر خبر ذلك الدجال أخذه وصلبه[2].

10 . عفوه عن الكُمَيْت الشاعر:

الكميت شاعر فحل مشهور، من شعراء الدولة الأموية، وأحد البلغاء الخطباء الفصحاء، وممن يضرب بهم المثل في البلاغة والبيان، ذلكم هو الكميت بن زيد الأسدي[3]، وكان الكميت مدح بني هاشم وهجا بني أمية وهشاماً، فطلب، فهرب من هشام وأصبح لا يستقر به القرار من خوف هشام، ثم قصد مسلمة بن عبد الملك، وطلب منه أن يشفع له عند أخيه هشام، فاستجاب له[4] ودخل به على أمير المؤمنين هشام، فخطب الكميت خطبة ما سمع بمثلها قط وامتدح بني أمية بقصيدته الرائية التي ارتجلها ارتجالاً، وجاء فيها:

قِفْ بالدِّيارِ وقوفَ زائرِ ... وتأنَّ إنَّك غيرُ صاغِرِ

وفيها يقول:

ماذا عليكَ من الوقوفِ ... بها وأنَّك غيرُ صاغرِ

وفيها يقول:

والآنَ صِرتَ إلى أميَّةَ ... والأمورُ إلى المصائرِ

فجعل هشامٌ يغمز مسلمة بقضيب في يده ويقول: اسمع اسمع، وفيها يقول:

كم قال قائلكم لعلك ... عند عثرته لعاثر
وغفرْتُمُو لذَوِي الذنوبِ ... من الأكابِرِ والأصاغِرِ
أبني أميةَ إنكم ... أهلُ الوسائِلِ والأوامِر

---

[1] البداية والنهاية (81/31).
[2] الفرق بين الفرق؛ نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها، ص 236.
[3] الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي، ص 191.
[4] مسلمة بن عبد الملك فاتح شطر الأناضول، ص 156؛ العقد الفريد (183/2 . 185).

ثـقــتي بــكــلِّ مــلــمــةٍ وعشـــيرتي دونَ الـعشـــائِـر

أنـتُـم مـعـادنُ لـلـخـلافَـةِ كـابـراً مـن بـعـدِ كـابِـر

بالـتسـعـة المـتـتـابـعـينَ خـلائـفـاً وبخـيرِ عـاشِـر

وإلى الـقـيـامـة لا تـزالُ لشـافـعٍ مـنـكـم وواتِـر[1]

ثم قطع الإنشاد وأعاد خطبته... فقال هشام: ويلك يا كميت! من زين لك الغواية ودلاك في العماية؟ قال: الذي أخرج أبانا من الجنة وأنساه العهد فلم يجد له عزماً[2].

وذكرت الرواية أن هشاماً قال للكميت: أنت القائل:

فقـلْ لبني أميـةَ حيـثُ حلُّوا وإنْ خفـتَ المهـنَّـدَ والقـطيعـا

أجـاعَ اللهُ مـنْ أشـبـعـتُـمـوهُ وأشـبَعَ منْ بجَوْرِكُمُو أجيعـا[3]

بمرضـي السـيـاسـة هـاشمي يـكـون حـيـاً لأمـتـه ربـيـعـا

قال الكميت: لا تثريب يا أمير المؤمنين! إن رأيت أن تمحو قول الكاذب؟ قال: بماذا؟ قال: بقول الصادق:

أورثـتـه الحصـان أم هشـام حسـبـاً ثاقبـاً ووجـهـاً نـظـيرا

وتعـاطى ابن عـائشـةَ البـدرَ فـأمسـى لـه رقـيـبـاً نـظـيرا

وكسـاه أبـو خـلائـف مـروان سـنى المـكـارم المـأثـورا

لم تجـهـم لـه الـبـطـاحُ ولـكـن وجـدتُهـا لـه مـعـانـاً ودورا[4]

وكان هشام متكئاً، فاستوى جالساً وقال: هكذا فليكن الشعر. ثم قال: لقد رضيت عنك يا كميت[5].

ومن طرائف ما يذكر في سيرة الكميت، أنه وقف وهو صبي على الفرزدق وهو ينُشِدُ، فقال: يا غلام! أيسرك أني أبوك؟ قال: أما أبي، فلا أبغي به بدلاً، ولكن يسرني أن تكون أمي، فحصر الفرزدق، وقال: ما مرَّ بي مثلها. وقد ولد سنة ستين، ومات سنة ست وعشرين ومئة، وهو القائل:

---

[1] الأدب العربي وتاريخه، د.خفاجي، ص 200.

[2] المصدر السابق نفسه.

[3] الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي، ص 463.

[4] الأدب العربي وتاريخه، ص 201.

[5] المصدر السابق نفسه.

والحُــبُّ فـيــه حــلاوةٌ ومــرارةٌ ســـــائِـلْ بـذلِـكَ من تَطعَّمَ أو ذُقِ
مــا ذاق بُؤْسَ مَعيشــــةٍ ونعيمَهــا فيما مضـــى أحَدٌ إذا لم يَعْشَــــقِ[1]

11 . يوميات هشام ومجلسه:

كان هشام إذا صلى الغداة كان أول من يدخل عليه صاحب حرسه، فيخبره بما حدث في الليل، ثم يدخل عليه موليان له مع كل واحد منهما مصحف، فيقعد أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره، حتى يقرأ عليهما جزأه، ويدخل الحاجب فيقول: فلان بالباب، وفلان، وفلان، فيقول: ائذن، فلا يزال الناس يدخلون عليه، فإذا انتصف النهار وضع طعامه ورفعت الستور، ودخل الناس وأصحاب الحوائج، وكاتبه قاعد خلف ظهره، فيقول أصحاب الحوائج، فيسألون حوائجهم، فيقول: لا، ونعم، والكاتب خلفه يوقع بما يقول، حتى إذا فرغ من طعامه وانصرف الناس صار إلى قائلته، فإذا صلى الظهر دعا بكتابه فناظرهم فيما ورد من أمور الناس حتى يصلي العصر، فإذا صلى العشاء حضر سماره، الزهري وغيره[2].

12 . اهتمامه بحلبات السباق:

كان هشام بن عبد الملك بن مروان يستجيد الخيل، وأقام الحلبة فاجتمع له من خيله فيها وخيل غيره أربعة آلاف فرس، ولم يكن ذلك في جاهلية ولا إسلام لأحد من الناس[3]، وكان هشام يقبل الهدايا من الخيل، ويقيم حلبات السباق لها، ويصلح الطرق ويوسعها لأجل ذلك، وكان يفرح كثيراً إذا فازت خيله في السباق، ويطلب من الشعراء وصف الفرس أو الحصان الفائز[4].

13 . اهتمامه بالآثار الأدبية الخاصة بالأمم الأخرى:

كان الخليفة هشام بن عبد الملك مشغوفاً بالاطلاع على الآثار الأدبية الخاصة بالأمم الأخرى، فقد أمر بترجمة كتاب عن تاريخ فارس، وتسرب هذا الشغف إلى المحيطين به، فترجم سالم مولاه بعض كتب أرسطو إلى العربية، كما ورث ابنه جبلة بن سالم عن أبيه كثيراً من معارفه وعلومه، فترجم بعض الآثار التاريخية إلى العربية[5].

14 . معاملته لأهل الكتاب:

سمح هشام للنصارى الملكانيين أن يعيدوا شغل كرسي إنطاكية، وعين صديقه اصطفان بطريقاً عليهم، وكان رفيقاً بجميع النصارى، ففي عهده دخل البطرك ميخائيل مدينة الإسكندرية في احتفال . مشهور . بين يديه الشموع

---

(1) سير أعلام النبلاء (538/9).
(2) المنتظم(98).
(3) الشهاب اللامعة، ص 432.
(4) عصر هشام بن عبد الملك، ص 55.
(5) الدولة الأموية المفترى عليها، ص 460.

والصلبان والأناجيل، والكهنة يصيحون: لقد أرسل الرب إلينا الداعي المأمون الذي هو مرقس الجديد[1].

سابعاً: العلماء في عهد هشام بن عبد الملك:

عندما تولى هشام بن عبد الملك حاول تقريب بعض العلماء والاستفادة منهم، ولكن إلى حد ما، ومن أشهر هؤلاء: العالم الجليل محمد بن مسلم الزهري، والإمام الأوزاعي وأبو الزناد وغيرهم، وكان تأثير هؤلاء العلماء في اتخاذ القرار في بعض الجوانب، وبطريق غير مباشر من خلال تأثير قربهم من الخليفة وأسرته ـ لا سيما الزهري ـ على سلوك هشام وسيرته، وسيأتي الحديث عن ذلك عند ترجمة الإمام الزهري بإذن الله تعالى.

ولعل الذي حدَّ من تأثير العلماء في توجيه القرار في عهد هشام ـ مقارنة بتأثيرهم في عهد عمر بن عبد العزيز ـ هو محاولة هشام أن يمسك العصا من الوسط، فحاول أن يسير وسطاً بين سياسة عمر بن عبد العزيز الإسلامية الخالصة وسياسة الملك، ووسطاً بين عصبية القبائل القيسية واليمانية[2]، وهذا ما دعا الذهبي حين وصف سياسته أن يقول فيه:... فيه ظلم مع عدل[3].

وكان العلماء ينصحون هشاماً ويتحدثون معه، وإليك بعض هذه المواقف:

1 ـ عطاء بن أبي رباح ينصح هشاماً:

دخل عطاء بن أبي رباح مجلس هشام بن عبد الملك وعنده أشراف الناس يتحدثون، فسكتوا، فقال له هشام: ما حاجتك يا أبا محمد؟ قال: يا أمير المؤمنين أهل الحرمين أهل الله، وجيران رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيهم أعطياتهم وأرزاقهم لسنة. ثم قال: هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أهل الحجاز وأهل نجد أصل العرب وقيادة الإسلام ترد فيهم فضول صدقاتهم. قال: نعم، اكتب يا غلام بأن ترد فيهم فضول صدقاتهم. هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين: أهل الثغور يرمون من وراء بيضتكم، ويقاتلون عدوكم قد أجريتم لهم أرزاقاً تدرها عليهم، فإنهم إن يهلكوا غزيتم، قال: نعم، اكتب أرزاقهم إليهم يا غلام. هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين أهل ذمتكم لا تجبيب صغارهم وتتعتع[4] كبارهم، ولا يكلفون ما لا يطيقون، فإنما تجبونه معونة لكم على عدوكم، قال: نعم، اكتب يا غلام بأن لا يحملوا ما لا يطيقون. هل من حاجة غيرها؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، اتق الله في نفسك[5]. وجاء في رواية: اتق الله في نفسك، فإنك وحدك،

---

[1] أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية، ص 434.

[2] أثر العلماء على الحياة السياسية، ص 116.

[3] سير أعلام النبلاء (352/5).

[4] تعتعه: تله وحركه بعنف، أو أكرهه في الأمر حتى قلق.

[5] مختصر تاريخ ابن عساكر؛ نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص 308.

وتموت وحدك، وتحشر وحدك، وتحاسب وحدك، لا والله ما معك ممن ترى أحد[1].

2 ـ خالد بن صفوان مع هشام:

روي أن خالد بن صفوان بن الأهتم قدم على هشام بن عبد الملك وقد خرج متبدياً بأهله وقرابته وحشمه وخدمه، وذلك في وقت الربيع حيث أخذت الأرض زخرفها، وازَّينت بألوان النبات، وتعطر الجو بروائح الزهور الزكية، وضرب له معسكر فرش بأفخر الفرش، وأخذ الناس فيه مجالسهم، فأخذ خالد بن صفوان ينظر هنا وهناك، فنظر إليه هشام نظر المستنطق له، فقال خالد: أتم الله عليك يا أمير المؤمنين نعمة سوغكها لشكره، وجعل ما قلدك من هذا الأمر رشداً، وعاقبة ما تؤول إليه حمداً، أخلصه لك بالتقى، وكثره لديك بالنماء، لا كدر عليك منه ما صفى، ولا خالط سروره الردى، فقد أصبحت للمسلمين ثقةً وملجأ؛ إليك يفزعون في مظالمهم، وإليك يلجؤون في أمورهم، وما أجد يا أمير المؤمنين ـ جعلني الله فداك ـ شيئاً هو أبلغ في قضاء حقك وتوقير مجلسك، من أن أذكرك نعمة الله عندك، فأنبهك إلى شكرها، وما أجد لذلك شيئاً هو أبلغ من حديث من تقدم قبلك من الملوك، فإن أذن أمير المؤمنين أخبرته.

وكان هشام متكئاً فاستوى قاعداً فقال: هات يا بن الأهتم، فذكر ابن الأهتم قصة أحد الملوك الذين خرجوا إلى البرية في عام يشبه عام خروج هشام حيث الربيع، فقال لجلسائه: هل رأيتم مثلما أنا فيه؟ وعنده رجل من بقايا حملة الحجة والمضي على أدب الحق ومناهجه، فقال له: أيها الملك! إنك سألت عن أمر أفتأذن في الجواب؟ قال: نعم، قال: أرأيت ما أعجبت به؟ أهو شيء لم تزل فيه أم هو شيء صار إليك ميراثاً من غيرك، وهو زائل عنك وصائر إلى غيرك كما صار إليك؟ قال الملك: فكذلك هو، قال: أفلا أراك إنما أعجبت بشيء يسير تكون فيه قليلاً، وتغيب عنه طويلاً، وتكون غداً بحسابه مرتهناً؟ قال: ويحك! فأين المهرب؟ وأين المطلب؟ قال: إما أن تقيم في ملكك فتعمل بطاعة ربك على ما ساءك أو سرك، وإما أن تضع تاجك وتضع أطمارك وتلبس أمساحك وتعبد ربك حتى يأتيك أجلك.

وتذكر القصة أن الملك اختار الطريق الثاني، فترك الملك وانقطع مع هذا الناصح للعبادة بقية حياته، وقد تأثر هشام حتى إنه أمر بمعسكره فنقض، وعاد ومن معه إلى قصره، فاجتمع من كان مع هشام على خالد بن صفوان فقالوا له:ما أردت بأمير المؤمنين؟! نغصت عليه لذاته، وأفسدت عليه باديته، فقال لهم: إليكم عني! فإني عاهدت الله عز وجل ألا أخلو بملك إلا ذكرته الله عز وجل[2].

---

[1] المصدر السابق نفسه، ص 297.

[2] أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص 284؛ نقلاً عن مختصر تاريخ دمشق.

3. سالم بن عبد الله بن عمر مع هشام بن عبد الملك:

دخل هشام الكعبة، فإذا هو بسالم بن عبد الله، فقال: سَلْني حاجة، قال: إنّي أستحيي من الله أن أسأل في بيته غيره، فلمّا خرجا قال: الآن فسلني حاجة. فقال له سالم: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟ فقال: من حوائج الدنيا، قال: والله ما سألت الدنيا من يملكها؛ فكيف أسألها من لا يملكها؟![1].

ثامناً: الإمام محمد ابن شهاب الزهري في عهد هشام والدولة الأموية:

هو الإمام محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله الأصغر بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي الزهري القرشي المدني[2]، يكنى بأبي بكر، ويعرف بالزهري، كما يعرف بابن شهاب نسبة إلى جد جده شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة، وإذا أطلق العلماء لفظ الزهري أو لفظ ابن شهاب فلا ينصرف هذان اللفظان إلا إليه لغلبتهما عليه دون غيره[3].

ولد الإمام الزهري في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم تكن سنة ولادته معلومة على وجه التحديد، وقد اختلف العلماء في تحديدها، ورجح الدكتور حارث سليمان الضّاري بأن سنة ولادته كانت سنة إحدى وخمسين[4] في خلافة معاوية.

نشأ الإمام الزهري في المدينة المنورة بعد ولادته فيها، وكانت المدينة محط أنظار طلاب العلم وعشاق المعرفة الذين وفدوا إليها من كل حدب وصوب[5]، ويعتبر الزهري من التابعين الأفذاذ، وقد بدأ الإمام الزهري طلبه للعلم مبكراً، وكان أول شيء اتجه إليه القرآن الكريم، وقد حفظ القرآن في ثمانين ليلة[6]، وتعلم علم الأنساب ثم السنة المطهرة، ومعرفة الحلال والحرام، وكان إذا فرغ من تلقي العلم عن أساتذته يستعيد ما تلقاه منهم، ويتذكر ما رواه عنهم رغبة في جمعه وحفظه، وخوفاً من ضياعه ونسيانه.

وكان انصرافه إلى المذاكرة والحفظ، وانشغاله لهما كلياً مدعاة لإثارة حفيظة زوجته عليه، فقد روي عنها أنها قالت له يوماً: والله لهذه الكتب أشد علي من ثلاث ضرائر[7]. فقد كان يتمتع برغبة صادقة في طلب العلم مع ذكاء فائق وعزم أكيد، وساعدته عوامل عدة في تحصيله للعلم؛ منها: شجاعته الأدبية، وصبره وتحمله لملازمته لكثير من

---

[1] سير أعلام النبلاء (46/4).

[2] تذكرة الحفاظ (180/1)، سير أعلام النبلاء (93/5).

[3] الإمام الزهري وأثره في السنة، للضّاري، ص 21.

[4] المصدر السابق نفسه، ص 25.

[5] المصدر السابق نفسه، ص 27.

[6] البداية والنهاية؛ نقلاً عن الإمام الزهري وأثره في السنة، ص 75.

[7] شذرات الذهب (196/1).

أفاضل شيوخه وطول مجالسته لهم، كسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ولازمهم طويلاً[1]، وكان شديد الاحترام لشيوخه، وكما اهتم بالرحلة في طلب العلم[2] في عصره من علوم ومعارف، وجمع ما لم يجمعه الكثير من أقرانه ومعاصريه، حتى أصبح علماً يُشار إليه بالبنان، وإماماً يقتدى به في كل فن وشأن، فوصف بأنه أعلم أهل زمانه، وأنه أجمعهم، ووصف بغير ذلك من الأوصاف الدالة على فضله وتقدمه وطول باعه في نواحي المعرفة المختلفة[3]، فقد روي عن مكحول: أنه قال: ما رأيت أحداً أعلم بسنة ماضية من الزهري[4]، وقد ضرب بكل علم من علوم عصره بسهم وافر، وكان لذلك يضرب به المثل، فقد قال الذهبي في وصف عمر بن عبد العزيز: فصار في حسن السيرة والقيام بالقسط مع جده لأمه: عمر بن الخطاب، وفي الزهد مع الحسن، وفي العلم مع الزهري[5].

1 . علومه ومعارفه:

أ . الزهري وعلوم القرآن:

كان الزهري أحد أعلام التابعين الذين حفلت أمهات كتب الحديث والتفسير بالرواية عنهم فيما يتعلق بتفسير القرآن الكريم وسائر علومه، فقد رويت عنه روايات كثيرة في التفسير والقراءات ونزول القرآن وأسباب نزوله، وجمعه وناسخه ومنسوخه، ومكيه ومدنيه، وغير ذلك مما يتعلق به من مباحث وعلوم، وقد ذكر الدكتور حارث سليمان الضّاري أمثله على ذلك[6].

ب . الزهري والفقه:

يعد الإمام الزهري من أعلام فقهاء التابعين، وممن أفتوا بعد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم[7]، روي عن الأوزاعي أنه قال: ما أدركت في خلافة هشام أحداً من التابعين أفقه منه[8]، وكان يستمد فقهه من كتاب الله وسنة رسوله، ومما عن الصحابة من أقوالهم، وأفعالهم، كما كان يجتهد في الأمور التي لا نص فيها من كتاب أو سنة، ولم يؤثر فيها شيء عن الصحابة[9] رضي الله عنهم.

---

[1] الإمام الزهري، ص 87.

[2] المصدر السابق نفسه، ص 88، 89.

[3] الإمام الزهري وأثره في السنة، ص 89.

[4] المصدر السابق نفسه، ص 90؛ الطبقات، لابن سعد؛ تهذيب التهذيب (449/9).

[5] تذكرة الحفاظ (119/1).

[6] الإمام الزهري وأثره في السنة، ص 165.

[7] تسمية فقهاء الأمصار، للنسائي، ص 7.

[8] الإمام الزهري وأثره في السنة، ص 172.

[9] المصدر السابق نفسه.

جـ الزهري والتاريخ:

يعتبر الإمام الزهري بحق من أبرز المؤرخين المسلمين الذين أرخوا لفترتي ما قبل البعثة النبوية وما بعدها، وخاصة ما يتعلق بحياة النبي صلى الله عليه وسلم : سيرته ومغازيه التي توسع فيها، وعني بها عناية كبيرة، جعلت الكثير من الباحثين يقرون له بالفضل والتقدم في هذا الشأن؛ حيث كان قد وضع هيكل المغازي، واتبع التسلسل الزمني في دراستها وتثبيت أحداثها على أسس منهجية لم يسبق إليها[1].

د . الزهري والأنساب:

كان الإمام الزهري واحداً ممن اهتموا بالأنساب واشتهروا بمعرفتها؛ حيث اتجه إلى دراستها في صباه، وتتلمذ فيها على عبد الله بن ثعلبة بن صعير، فقد جاء عنه في حكاية انتقاله منه إلى سعيد بن المسيب: أنه قال: نشأت وأنا غلام لا مال لي، ولا أنا في ديوان، وكنت أتعلم نسب قومي من عبد الله بن ثعلبة بن صعير، وكان عالماً بذلك[2]، ولم يقتصر في تعلم الأنساب على عبد الله بن ثعلبة، بل أخذها عن غيره أيضاً: كسعيد بن المسيب وغيره، حتى أصبح من أعلم الناس بها[3].

هـ الزهري والأدب:

كان للزهري ميول أدبية، وقد نقل إلينا من أخباره الأدبية وكان يقول الشعر ويتمثل به ومن الشعر الذي كان يتمثل به:

ذهـب الشـــبـابُ فلا يعودُ جُمـانا	وكـأنَّ مـا قـدْ كـانَ لم يـكُ كـانا
فطويتُ كفِّي يا جمانُ على العصـــا	وكفـى جمـان بطـيهـا حـدثان[4]

وكان يدخل الشعر في رواياته التاريخية: في السير والمغازي والأنساب[5]. وكان يشيد بالأدب ويحث عليه كثيراً[6]. قال عنه الرافعي: ويعتقد أنه كان من أوائل من كتبوا عن العرب الأشعار والأخبار وغيرها من الظواهر الأدبية التي كانت متوفرة لديهم حينذاك، بل يظن البعض أنه أول من كتب ذلك عن العرب[7].

و . الزهري واللغة:

كان الإمام الزهري بالإضافة إلى معرفته بما تقدم من علوم، عالماً باللغة، حاذقاً لها، عارفاً بمدلولات ألفاظها

---

(1) المصدر السابق نفسه، ص 176.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 183.

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) البداية والنهاية؛ نقلاً عن الإمام الزهري، ص 184.

(5) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص 186.

(6) تاريخ آداب العرب (286/1)؛ والإمام الزهري وأثره في السنة، ص 186.

(7) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص 186.

ومعانيها، كما كان فصيحاً يضرب به المثل بفصاحته[1]، روي عن أحمد بن صالح أنه قال: كان يقال: فصحاء زمانهم ثلاثة: الزهري، وعمر بن عبد العزيز، وموسى بن طلحة بن عبيد الله[2].

2 . ذكاؤه وحفظه وأقواله:

أ . ذكاؤه:

كان حاد الذكاء قوي الذاكرة واسع الفطنة والإدراك، روي عنه أنه قال: ما استعدت حديثاً قط، ولا شككت في حديث إلا حديثاً واحداً، فسألت صاحبي، فإذا هو كما حفظت[3].

ب . حفظه:

كان الزهري مثلاً في الحفظ، وقدوة في الإتقان والضبط، وكان يمتاز بالسرعة الفائقة في الأخذ، والفورية النادرة في الاستيعاب والحفظ، وقد لاحظ عبد الملك بن مروان ذلك حينما التقى به أول مرة، وقال له: اطلب العلم فإني أرى لك عيناً حافظة، وقلباً ذكياً[4].

وقد روي عن مالك بن أنس أنه قال: حدثني ابن شهاب بحديث فيه طول . وأنا آخذ بلجام دابته . فقلت له: أعد عليّ، فقال: لا، قلت له: أرأيت أنت أما كنت تحب أن يعاد عليك؟ قال: لا، فقلت له: كنت تكتب؟ قال: لا[5].

وعن الليث بن سعد: أن ابن شهاب كان يقول: ما استودعت قلبي شيئاً فنسيته[6].

جـ من أقواله:

. عن معمر قال: سمعت الزهري يقول: من طلب العلم جملة فاته جملة، وإنما يدرك العلم حديثاً وحديثين[7].

. قال الزهري: إن هذا العلم إن أخذته بالمكابرة له غلبك، ولكن خذه مع الأيام والليالي أخذاً رفيقاً تظفر به[8].

. وقال: العلم واد، فإذا هبطت وادياً فعليك بالتؤدة حتى تخرج منه[9].

. وقال: ما عبد الله بشيء أفضل من العلم[10].

---

[1] المصدر السابق نفسه، ص 187.

[2] البداية والنهاية؛ نقلاً عن الإمام الزهري وأثره في السنة، ص 187.

[3] سير أعلام النبلاء (94/5).

[4] البداية والنهاية؛ نقلاً عن الإمام الزهري وأثره في السنة، ص 195.

[5] المعرفة والتاريخ؛ نقلاً عن الإمام الزهري، ص 194.

[6] الإمام الزهري وأثره في السنة، ص 195.

[7] الجامع لأحكام القرآن (40/1).

[8] الإمام الزهري وأثره في السنة، ص 198.

[9] المصدر السابق نفسه.

[10] المصدر السابق نفسه.

. وقال: لا يوثق للناس عمل عامل لا يعلم، ولا يرضى بقول عالم لا يعمل[1].
. وقال: آفة العلم النسيان وترك المذاكرة[2].
. وقال: إذا طال المجلس كان للشيطان فيه حظ ونصيب[3].
. وقال: ثلاث إذا كن في القاضي فليس بقاضٍ: إذا كره اللوائم، وأحب المحامد، وكره العزل[4].

3 . سخاؤه:

كان الإمام الزهري كريماً لا يجارى، وجواداً لا يبارى، فكان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، ويكرم كرم من لا يهاب القلة، يجود في اليسر والعسر، ويبذل في القليل والكثير، وكان يبالغ في كرمه، ويتفنن في سخائه، غير عابئ بمال، ولا خائف من نفاد، إذ لم يكن للمال عنده قيمة، كان كالعدو لماله، فلم تك تعدل الدراهم والدنانير عنده جناح بعوضة، أو تكاد[5].
وعن عمرو بن دينار أنه قال: ما رأيت أحداً الدينار والدرهم أهون عليه من ابن شهاب وما كانت الدنانير والدرهم عنده إلا بمنزلة البعر[6]. قال أبو نعيم: كان ذا عز وسناء وفخر وسخاء[7].

4 . ثناء العلماء عليه:

. قال له سعيد بن المسيب: ما مات من ترك مثلك[8].
. قال عمر بن عبد العزيز لجلسائه: هل تأتون ابن شهاب؟ قالوا: إنّا لنفعل، قال: فأتوه، فإنه لم يبق أحد أعلم بسنة ماضية منه، قال معمر: وإن الحسن ونظراءه لأحياءٌ يومئذ[9].
. روي عن جعفر بن ربيعة: أنه قال: قلت لعراك بن مالك: من أفقه أهل المدينة؟ قال: أما أعلمهم بقضايا رسول الله، وقضايا أبي بكر وعمر وعثمان، وأفقههم فقهاً بما مضى عن أحوال الناس: سعيد بن المسيب، وأما أغزرهم

---

(1) المصدر السابق نفسه، ص 199.
(2) السنن للدارمي (150/1)؛ الإمام الزهري، ص 199.
(3) الإمام الزهري، ص 200.
(4) المصدر السابق نفسه.
(5) المصدر السابق نفسه، ص 217.
(6) المصدر السابق نفسه.
(7) المصدر السابق نفسه.
(8) المصدر السابق نفسه، ص 229.
(9) المصدر السابق نفسه، ص 230.

حديثاً، فعروة، ولا تشأ أن تفجر من عبيد الله بن عبد الله بحراً إلا فجرته، وأعلمهم عندي جميعاً: ابن شهاب، فإنه جمع علمهم جميعاً إلى علمه[1].

. قال مالك بن أنس: بقي ابن شهاب وما له في الناس نظير[2].

. قال الأوزاعي: ما أدهن ابن شهاب لملك قط دخل عليه، ولا أدرك أحد خلافة هشام من التابعين أفقه منه[3].

. قال الشافعي: لولا الزهري ذهبت السنن من المدينة[4].

. وقال أحمد: الزهري أحسن الناس حديثاً، وأجود الناس إسناداً[5].

. وقال علي بن المديني: أعلم الناس بقول الفقهاء السبعة الزهري[6].

5 . الزهري ونشره للسنة:

كان الإمام الزهري قد قام بجهود مشكورة في نشر السنة وإذاعتها بين الناس، وإليك أهم أعماله التي قام بها لنشرها:

. تدريسها لكل من يطلبها.

. مذاكرته لها مع أقرانه.

. نشره لها بطريق الكتابة.

. إملاؤه إيّاها على تلاميذه.

. وعظه وتفقيهه للأعراب: فقد كان ينزل بالأعراب يعلمهم[7].

. نهيه عن حبس كتب العلم: فعن يونس بن يزيد قال: سمعت الزهري يقول: إياك وغلول الكتب، فقلت: ما هو؟ قال: حبسها[8].

. حثه على حفظ السنة وتعلمها: روي عن مالك بن أنس أنه قال: حدّث الزهري بمئة حديث، ثم التفت إليّ، فقال: كم حفظت يا مالك؟ قلت: أربعين. فوضع يده على جبهته ثم قال: إنا لله كيف نقص الحفظ[9].

---

(1) المصدر السابق نفسه، ص 234.

(2) الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم؛ نقلاً عن الأوزاعي وأثره في السنة، ص 234.

(3) المعرفة والتاريخ (639/1)؛ الأوزاعي وأثره في السنة، ص 235.

(4) تهذيب الأسماء واللغات (91/1).

(5) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص 236.

(6) تذكرة الحفاظ (331/1).

(7) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص 388.

(8) سير أعلام النبلاء (94/5)؛ الإمام الزهري، ص 388.

(9) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص 389.

. حثه على التمسك بالسنة والتأدب بآدابها: قال الزهري: الاعتصام بالسنة نجاة[1]، وعن الأوزاعي عن الزهري قال: كان من مضى من علمائنا يقول: الاعتصام بالسنة نجاة، والعلم يقبض قبضاً سريعاً، فبعز العلم ثبات الدين والدنيا، وفي ذهاب العلم ذهاب ذلك كله[2].

. ما أنفقه في نشرها من أموال: بالإضافة إلى ما أنفق الإمام الزهري من وقت وجهد في نشر السنة، فإنه قد أنفق كثيراً مما كان متيسراً لديه من مال، بل لا أغالي إذا قلت: إن ما كان ينفقه على نشرها أكثر بكثير مما كان ينفقه على نفسه وأهله وشؤونه الخاصة، فقد كان يطعِّم طلاب العلم بكل معاني البذل والسخاء، فكان يقدم لهم أفضل ما لديه من طعام، وكان يتعهد بالإنفاق على من ليس عنده ما ينفقه على نفسه من طلابه، وكان لا يعلم طالباً إلا إذا أكل عنده شيئاً، كما كان يخرج للأعراب في البوادي فيعلمهم ويطعمهم ويقدم لهم ما يملكه من لذيذ الطعام وشهيه، هذا بالإضافة إلى ما كان ينفقه على رحلاته لطلب العلم وجمعه[3] وعن موسى بن عبد العزيز قال: كان ابن شهاب إذا أبى أحد من أصحاب الحديث أن يأكل طعامه حلف ألا يحدثه عشرة أيام[4].

. ما روي عنه في نشره للسنة: روي عن الليث بن سعد أنه قال: سمعته . أي ابن شهاب . يبكي على العلم بلسانه، ويقول: يذهب العلم وكثير ممن كان يعمل به. فقلت له: ووضعت من علمك عند من ترجو أن يكون خلفاً في الناس بعدك؟ قال: والله ما نشر أحد العلم نشري، ولا صبر عليه صبري[5].

. ما يراه في كيفية طلبها: يرى الإمام الزهري لكي تكون مهمة تعلم السنة وتعليمها يسيرة ناجحة ما يلي:

. التدرج في أخذها شيئاً فشيئاً، وحديثاً بعد حديث، وأن لا يهجم عليها الطالب مرة واحدة لئلا تزدحم عليه المعلومات فتثقله وتؤدي به إلى الملل، فيفوته بذلك شيء كثير.

. أن يسعى الطلاب إلى العلماء، ولا يسعى العلماء إلى بيوت الطلاب والمتعلمين، لما يترتب على سعي العلماء إليهم من هوان العلم وذلته، روي عن مالك أنه قال: سمعت الزهري يقول: هوان العلم وذله أن يحمله العالم إلى بيت المتعلم[6].

.كراهته لطول المجلس، فقد كان يحذِّر من طول مجلس العلم وغيره، لما قد يؤدي إليه طوله من السأم والملل، أو الخوض فيما لا فائدة فيه. فقد قال: إذا طال المجلس كان للشيطان فيه حظ ونصيب[7].

---

[1] المصدر السابق نفسه.

[2] المصدر السابق نفسه.

[3] الإمام الزهري وأثره في السنة، ص 390.

[4] المصدر السابق نفسه.

[5] المصدر السابق نفسه.

[6] الجامع لأخلاق الراوي (86/5)؛ الإمام الزهري، ص 392.

[7] علوم الحديث، لابن الصلاح، ص 252؛ الإمام الزهري، ص 392.

ـ توجيهه إلى ما قد يساعد استعماله أو تركه على الحفظ والتذكر من المطعومات: فقد قال الزهري: من سرَّه أن يحفظ الحديث فليأكل الزبيب[1]. وكان يشرب العسل ويقول: إنه يذكر[2]. وعنه قال: ما أكلت تفاحاً، ولا أكلت خلاًّ منذ عالجت الحفظ[3].

6 ـ الزهري والأمويون:

يعد الزهري من العلماء الذين خالطوا خلفاء بني أمية وصاحبوهم، وكانت له عندهم منزلة رفيعة، يقول عنه الذهبي: كان ـ رحمه الله ـ محتشماً جليلاً بزي الأجناد، له صورة كبيرة في دولة بني أمية. ويذكر أنه كان برتبة أمير[4].

وقد تحدثت عن بداية اتصال الزهري بعبد الملك بن مروان وأثر قبيصة بن ذؤيب في تقريبه عند عبد الملك[5]، وحيث إن المدة التي قضاها الزهري عند عبد الملك لم تكن طويلة، لذا لم ترد له مشاركات ومواقف ذات أثر في سياسة عبد الملك إلا الشيء اليسير، ومن ذلك طمأنته لعبد الملك في أمر علي بن الحسين، فقد كان عبد الملك قد أمر بعض رجاله بالقدوم إليه بعلي بن الحسين من المدينة، ولكنه أفلت منهم وقدم على عبد الملك، فلما قدم الزهري الشام بعد ذلك قال له عبد الملك: إنه ـ أي: علي ـ قد جاءني في يوم فقده الأعوان، فدخل علي فقال: ما أنا وأنت؟ فقلت: أقم عندي، فقال: لا أحب، ثم خرج، فوالله لقد امتلأ ثوبي منه خيفة. قال الزهري: فقلت: يا أمير المؤمنين ليس علي بن الحسين حيث تظن، إنه مشغول بنفسه، فقال عبد الملك: حبذا شغل مثله، فنعم ما شغل به.

ولا شك أن لمثل هذه النظرة من الزهري تجاه علي بن الحسين وإبدائها لعبد الملك أثر في طمأنة عبد الملك وصرف نظره عن الاشتغال بأمره، وما قد يترتب على ذلك من اتخاذ بعض القرارات التي تقضي بتتبع علي بن الحسين والتضييق عليه[6].

وقد كان الزهري يستغل الأوقات، والفرص المناسبة لتقديم النصح لعبد الملك، فحين سأله عبد الملك عمن يسود الأقاليم ذكر أكثر الأقاليم ومن يسودها من الموالي بعلمهم وديانتهم، قال عبد الملك: والله ليسودن الموالي على العرب حتى يخطب لها على المنابر والعرب تحتها، فقال الزهري حينئذ: يا أمير المؤمنين إنما هو أمر الله ودينه، من حفظه ساد، ومن ضيعه سقط[7]. وفي هذا لفت انتباه عبد الملك إلى أهمية التمسك بالدين؛ حيث فيه الرفعة والسيادة، وفي تضييعه الذل والهوان[8].

---

(1) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص 392.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 393.

(4) سير أعلام النبلاء (337/5، 341).

(5) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص 203.

(6) المصدر السابق نفسه، ص 204.

(7) تاريخ دمشق؛ نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص 204.

(8) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص 204.

وبالرغم من أنه ورد ما يُشير إلى قدوم الزهري على الوليد بن عبد الملك[1]، ومصاحبته لسليمان بن عبد الملك[2]، إلا أن مكانته عند هشام كانت أعظم، وأثره في عهده أظهر وأكبر، يرجع في ذلك إلى طول المدة التي قضاها الزهري عند هشام، وتقريب هشام له؛ حيث جعله مؤدباً لأولاده، فعندما حج هشام في بداية خلافته سنة ست ومئة للهجرة حج معه الزهري وجعله مؤدباً لأولاده، وبقي الزهري في بلاط هشام حتى توفي؛ أي قرابة عشرين سنة[3]، ومن المؤكد أن يكون للمدة التي قضاها الزهري في بلاط هشام أثر على استقامة هشام وأسرته، فأما هشام فقد اتصف بعدد من الصفات الحميدة كالحلم والأناة وكراهة سفك الدماء، ومعاقبة أصحاب الخمور وأهل الغناء[4].

أ ـ أثر تربية الزهري لأولاد هشام:

وأما أولاد هشام فكان أثر تربية الزهري عليهم كبيراً؛ حيث تولى تربيتهم وتعليمهم مُنذ الصغر على الأخلاق الحسنة ومعالي الأمور. ويقول محمد شراب: كان للزهري تأثير في تربية أولاد هشام، فكانوا نعم الشباب خلقاً وسلوكاً... وكانوا قادة فتوح وجنود دعوة، فتح الله على أيديهم بقاعاً كثيرة، ودخلت بلاد بغزواتهم في دين الإسلام[5].

وحين نتتبع الغزوات في عهد هشام فسنجد أن لأبنائه النصيب الأوفر في قيادتها، فلا تكاد تمر سنة إلا وأحدهم أو عدد منهم على رأس غازية تغزو. وقد كان لمعاوية بن هشام القدر الأكبر في ذلك[6]، وبالإضافة إلى قيادتهم للغزوات كان هشام يسند إمرة الحج في بعض السنوات إلى أحدهم، ففي سنة تسع عشرة ومئة حج بالناس مسلمة بن هشام، ويزيد بن هشام في سنة ثلاث وعشرين ومئة، وكان الزهري يرافقهم في الحج ويرشدهم ويوجههم إلى ما فيه الخير لأنفسهم وأمتهم، فلما قدم مسلمة المدينة في حجه أشار عليه الزهري أن يصنع إلى أهل المدينة خيراً، وحضه على ذلك، فأقام في المدينة نصف شهر، وقسم الخمس على أهل الديوان، وفعل أموراً حسنة[7].

ب ـ موقف الزهري من خلع الوليد بن يزيد بن عبد الملك:

من أهم أمور الزهري السياسية في عهد هشام بن عبد الملك موقفه من خلع الوليد بن يزيد بن عبد الملك من ولاية العهد، فقد كان يزيد بن عبد الملك عهد بالخلافة لهشام ومن بعده لولده الوليد، وأخذ العهد بذلك على هشام، فلما آلت الخلافة إلى هشام كان الزهري يرى خلع الوليد بن يزيد، ويحث هشام على ذلك، وعندما أبدى هشام

---

[1] سير أعلام النبلاء (9/4).

[2] صفة الصفوة (90/2).

[3] البداية والنهاية؛ نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص 205.

[4] أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص 205.

[5] عالم الحجاز والشام، شرّاب، ص 322.

[6] أثر العلماء في الحياة السياسية، ص 206.

[7] الإمام الزهري، شرّاب، ص 319؛ أثر العلماء، ص 207.

تخوفه من عدم قبول من في الأجناد لذلك، قال الزهري له: فوجهني حتى أسير في الأجناد جنداً جنداً فأخلعه[1].

ولعل مما يؤيد صحة خبر موقف الزهري من خلع الوليد أن الأخبار لم تقف عند حد ذكر الموقف فحسب، بل وردت أخبار توضح ما ترتب على هذا الموقف من رد فعل عند الوليد تجاه الزهري، فأورد ابن عساكر: أن الوليد كان يقول للزهري: إن أمكنني الله منك يوماً فستعلم. وكان الزهري يقول: إن الله أعدل من أن يسلط عليَّ سفيهاً[2]، بل لم ينتظر الوليد حتى يلي الخلافة؛ فقد أرسل إلى مال الزهري ببدا وشغب[3] فعقر أشجاره. وصدق الله ظن الزهري حيث توفي ـ رحمه الله ـ قبل أن يلي الوليد الخلافة[4].

وإذا قلنا بإمكان اتخاذ الزهري لذلك الموقف من الوليد، فيمكننا أن نتلمس السبب الدافع الذي جعله يقف هذا الموقف، وهو أن الزهري لما رأى ميل الوليد للهو والمجون ووقوعه في الفسق وعدم تركه لذلك رغم نهيه عن ذلك، فخشي إن آل إليه أمر الخلافة أن يكون ذلك ضعفاً للأمة وانفتاح باب الفساد في الدين والأخلاق حيث الناس على دين ملوكهم[5].

وعلى الرغم من أن كثيراً مما نسب إلى الوليد بن يزيد مبالغ فيه وبعضه مكذوب، إلا أن فسقه وميله للهو والمجون أمر مشهور عنه وثابت في أغلب المصادر التي تحدثت عنه، وهذا ما جعل الزهري وغيره يتخوَّفون من مغبة توليه الخلافة، فروي أن مكحولاً ـ رحمه الله ـ كان يقول: اللهم لا تبقني بعد هشام[6]، ولعله قال ذلك بسبب توقعه الفتنة بتولي الوليد، وأما الزهري فرأى أن تسليم الوليد قيادة الأمة أمر فيه خطر وضرر لا بد من دفعه، وهذا منوط بالخليفة الذي تحمل أمانة ولاية أمر الأمة ووجب عليه النصح لها، ومن أعظم النصح أن يستخلف عليها من تبرأ الذمة بتوليته، لذا عندما تخوف هشام من خلع الوليد لأن ذلك نقضاً للعهد الذي أخذه أخوه يزيد عليه، بتولية ابنه من بعده، قال له الزهري: اخلع الوليد، فإن من الوفاء بعهد الله خلعك إياه[7].

ومما يخفف من خطورة خلع الوليد من ولاية العهد وجود الخليفة على رأس الأمر، فيستطيع وفي يده القوة القضاء على ما قد يترتب على ذلك من مخاطر، أما إذا ترك الأمر حتى يستلم الوليد الخلافة وتنتقل إليه القوة؛ فإن من الصعب عزله، بل سيترتب على ذلك من الأضرار أضعاف ما يترتب على خلعه من ولاية العهد، وهذا ما حدث بالفعل، وهو ما دعا الحافظ ابن كثير حين تحدث عن حياة الوليد أن يقول: فعزم عمه على خلعه من الخلافة.

---

[1] سير أعلام النبلاء (341/5، 342).

[2] تاريخ دمشق؛ نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص 210.

[3] بدا: واد قرب أبلة من ساحل البحر، وقيل: بوادي القرى. وشغب: ضيعة خلف وادي القرى كانت للزهري وبها قبره.

[4] البداية والنهاية؛ نقلاً عن أثر العلماء، ص 211.

[5] أثر العلماء في الحياة السياسية، ص 211.

[6] تاريخ دمشق؛ نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص 212.

[7] المصدر السابق نفسه.

وليته فعل .، وقال بلفظ آخر: وليت ذلك تم[1].

ومما سبق يتضح أن حث الزهري هشاماً على خلع الوليد بن يزيد كان حرصاً منه على مصلحة الأمة، وأداءً لنصيحة إمامه الذي وثق به وقربه، ولم يبال بما قد يترتب على موقفه هذا من أذى متوقع من الوليد؛ إذ الخوف من الله مقدم على الخوف من غيره، ومصلحة الأمة مقدمة على مصلحة النفس[2].

جـ انتقاد بعض الناس لقرب الزهري من بني أمية:

تعرض الزهري إلى انتقاد بسبب قربه من بني أمية، فممن انتقده العالم الجليل مكحول الدمشقي، فقد قال عنه: أي رجل هو لولا أنه أفسد نفسه بصحبة الملوك[3]، ومنهم عمرو بن عبيد، فعن عمر بن رديح قال: كنت مع ابن شهاب الزهري نمشي، فرآني عمرو بن عبيد، فلقيني بعد فقال: ما لك ولمنديل الأمراء؟ يعني ابن شهاب[4].

ويعد الإمام أبو حازم سليمان بن دينار من أشد من انتقد الزهري؛ حيث كتب إليه رسالة مطولة، ومما جاء فيها:.. واعلم أن أدنى ما ارتكبت وأعظم ما احتقبت[5]، أن آنست الظالم وسهلت له طريق الغي بدنوك حين أدنيت، وإجابتك حين دعيت، فما أخلقك أن ينوه باسمك إذاً مع الجرمة، وأن تسأل عما أردت بإغضائك عن ظلم الظلمة، إنك أخذت ما ليس لمن أعطاك، ودنوت ممن لم يرد على أحد حقاً، ولا يرد باطلاً حين أدناك، وأجبت من أراد التدليس بدعائه إياك حين دعاك، جعلوك قطباً تدور رحى باطلهم عليك، وجسراً يعبرون بك إلى بلائهم، وسلماً إلى ضلالتهم، وداعياً إلى غيهم، وسالكاً سبيلهم، يدخلون بك الشك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهال إليهم، فلم يبلغ أخص وزرائهم، ولا أقوى أعوانهم لهم إلا ما دون ما بلغت من إصلاح فسادهم، واختلاف الخاصة والعامة إليهم، فما أيسر ما عمروا لك، في جنب ما خربوا عليك، وما أقل ما أعطوك في قدر ما أخذوا منك، فانظر لنفسك فإنه لا ينظر لها غيرك[6].

ويجدر أن نقف وقفة قصيرة مع هذه الانتقادات الموجهة للزهري، فأما عمرو بن عبيد فلا يقبل قدحه لأنه صاحب بدعة اتهمه أهل الجرح والتعديل بالكذب وضعفوه لبدعته؛ حيث يعد من أصحاب الاعتزال[7]، وحيث إن المعتزلة لا يرون شرعية خلافة بني أمية، فتبعاً لذلك لن يرضوا عن من يصاحبهم[8].

---

[1] البداية والنهاية؛ نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص 212.

[2] أثر العلماء في الحياة السياسية، ص 213.

[3] سير أعلام النبلاء (339/5)؛ أثر العلماء، ص 213.

[4] تاريخ دمشق؛ نقلاً عن أثر العلماء، ص 213.

[5] أثر العلماء في الحياة السياسية، ص 214.

[6] صفة الصفوة (91/2)؛ أثر العلماء في الحياة السياسية، ص 214.

[7] تهذيب التهذيب (70/8).

[8] أثر العلماء في الحياة السياسية، ص 215.

وأما مكحول وأبو حازم فالأمر بينهم وبين الزهري لا يعدو كونه خلافاً محصوراً في أمر قابل للاجتهاد، ولم يتعدَّ الخلاف جوانب أخرى، فقد كان مكحول رغم خلافه هذا مع الزهري يجل الزهري ويقدره، فقال أبو بكر بن أبي مريم: قلت لمكحول: من أعلم الناس؟ قال: ابن شهاب، قلت: ثم من؟ قال: ابن شهاب؛ قلت: ثم من؟ قال: ابن شهاب[1]. وهذا شأن أهل الفقه في التعامل مع مخالفيهم.

وأما ما كان يخشاه أبو حازم وغيره على العلماء من مخالطتهم للخلفاء والأمراء من المجاراة والمداهنة التي تضر العالم في دينه والسلطان في دنياه وأخراه فإنه كان للزهري من قوة الشخصية، والشعور بالمسؤولية وتقديره لفقه المصالح والمفاسد ما جعله بعيداً عن الوقوع في هذا المحذور؛ فقد كان للزهري مواقف تدل على ذلك؛ منها: ما رواه البخاري: أن الزهري قال: قال لي الوليد بن عبد الملك أبلغك أن علياً كان فيمن قذف عائشة؟ قلت: لا، ولكن قد أخبرني رجلان من قومك ـ أبو سلمة بن عبد الرحمن، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ـ أن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت لهما: كان علي مسلماً في شأنها. وفي تعليق ابن حجر على الحديث نقل رواية عن ابن مردويه عن الزهري قال: كنت عند الوليد بن عبد الملك ليلة من الليالي وهو يقرأ سورة النور مستلقياً، فلما بلغ هذه الآية: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ} [النور: 11]؛ حتى بلغ {وَالَّذي تَوَلّٰى كِبرَهُ} جلس ثم قال: أبا بكر من تولَّى كبره منهم؟ أليس علي بن أبي طالب؟ قال: فقلت في نفسي: ماذا أقول؟ لئن قلت: لا، خشيت أن ألقى منه شراً، ولئن قلت: نعم، لقد جئت بأمر عظيم، قلت في نفسي: لقد عودني الله على الصدق خيراً، قلت: لا، فضرب بقضيبه على السرير، ثم قال: فمن؟ فمن؟ حتى ردَّد ذلك مراراً، قلت: لكن عبد الله بن أبي[2].

وعلق ابن حجر قائلاً: وكأن بعض من لا خير فيه من الناصبة تقرب إلى بني أمية بهذه الكذبة فحرفوا قول عائشة إلى غير وجهه، لعلمهم بانحرافهم عن علي، فظنوا صحتها، حتى بيَّن الزهري للوليد أن الحق خلاف ذلك، فجزاه الله خيراً[3].

كما رويت قصة مشابهة في عهد هشام، تذكر أن سليمان بن يسار دخل على هشام بن عبد الملك، فقال: يا سليمان! من الذي تولى كبره منهم؟ قال: عبدالله بن أبي ابن سلول، قال: كذبت هو علي، قال: أمير المؤمنين أعلم بما يقول، فدخل الزهري، فقال: يا بن شهاب من الذي تولى كبره؟ فقال: هو عبد الله بن أبي، قال هشام: كذبت، هو علي، فقال: أنا أكذب، لا أبا لك، فوالله لو نادى مناد من السماء: إن الله أحل الكذب ما كذبت، حدثني سعيد وعروة وعبيد الله، وعلقمة بن وقاص، عن عائشة: أن الذي تولى كبره عبد الله بن أبي، فقال له هشام: ارحل، فوالله ما كان ينبغي لنا أن نحمل عن مثلك، فقال: ولم؟ أنا اغتصبتك على نفسي أو أنت اغتصبتني

---

[1] تاريخ دمشق؛ نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص 215؛ وأما الخبر الذي قال فيه مكحول: أي رجل هو لولا أنه أفسد نفسه بصحبة الملوك! فهذا الخبر ضعيف لا يعتمد عليه، وفي إسناده مجهولون. انظر: السنة قبل التدوين، ص 510.

[2] البخاري، كتاب المغازي (60/5).

[3] فتح الباري (436/7 ـ 437).

على نفسي؟ فخلِّ عني، فقال هشام: لا، ولكنك استدنت ألفي ألف، فقال الزهري: قد علمت وأبوك قبلك، أني ما استدنت هذا المال عليك ولا على أبيك، فقال هشام: نحن هيجنا الشيخ، فأمر هشام فقضى عنه ألف ألف، فأخبر بذلك، فقال: الحمد لله الذي هذا هو من عنده[1].

والمجال في ذكر مواقف الزهري التي توضح قوته في الحق وعدم مداهنته يطول، وما أحسن ما قاله الذهبي حين قال بعض من لا يعتد به: لم يأخذ عن الزهري، لكونه كان مداخلاً للخلفاء: ولئن فعل ذلك فهو الثبت الحجة، وأين مثل الزهري[2] رحمه الله؟!.

7 . مطاعن الشيعة والمستشرقين في الإمام الزهري:

إن نفراً ممن لم يستطيعوا التخلص من الهوى والتجرد من التعصب المذهبي، حملوا علاقة الزهري بالأمويين على محامل سيئة، وأولوها تأويلات باطلة، وكان في مقدمة هؤلاء: اليعقوبي وابن أبي الحديد والممقاني وغيرهم ممن يرى رأيهم ويذهب مذهبهم، وقد تلقف تلك الأباطيل والأكاذيب والمفتريات بعض المستشرقين؛ أمثال المستشرق اليهودي جولد تسهير المعروف بحقده المرير وتحامله الشديد على الإسلام وأهله، وأضاف إليها من الشبهات ما ظن أن ينال بها من شخصية الإمام الزهري التي نالت الاحترام والتبجيل لدى جمهور المسلمين لما لها من مآثر خالده ومواقف محمودة في خدمة الإسلام والسنة النبوية الشريفة[3].

وإليك أهم شبهاته مع مناقشتها وتفنيدها بالحجج الدامغة والبراهين الساطعة والأدلة الراسخة:

أ . ما أثير حول صلته بالأمويين وذهابه للقصور:

كان من الشبه التي أثارها جولد تسهير حول الإمام الزهري؛ قوله: إنه لم يتجنب الذهاب إلى القصر ويتحرك في حاشية[4] السلطان، ويعني جولد تسهير بالقصر . دار الخلافة .، وهي كما هو معلوم بيت المسلمين العام، ومقر قيادتهم العليا المسؤولة عن إدارة شؤونهم الدينية والدنيوية وفق التعاليم الإسلامية المستمدة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن هنا كان لكل مسلم الحق كل الحق في الذهاب إلى تلك الدار ودخولها متى شاء لرفع حاجة أو دفع ظلم، أو إسداء نصح، أو تبليغ علم، أو توضيح مسألة قد تكون خافية على أولي الأمر ليصححوا بها ما قد يقع منهم من خطأ، أو يظهروا بها ما يترتب عليها من مصلحة للأمة.

وكان السلف من الصحابة والتابعين لا يترددون في الذهاب إلى دار الخلافة لأمر من تلك الأمور، وقد يرون ذلك واجباً أحياناً إذا كان سبباً لتصحيح خطأ أو رفع ظلم أو تحقيق حق وإزالة باطل، ولم يكن الإمام الزهري إلا واحداً ممن قاموا بواجبهم في هذا الميدان حينما قدر الله تعالى له أن يتصل ببني أمية، وقد رأينا ذلك عند اتصاله بعبد

---

[1] سير أعلام النبلاء (339/5).

[2] المصدر السابق نفسه.

[3] الإمام الزهري وأثره في السنة، ص 442.

[4] السنة ومكانتها في التشريع، ص 222.

الملك وتصحيحه لخطأ وقع فيه الوليد، كما رأيناه يقدم النصح إلى هشام بن عبد الملك، في مسألة من أهم المسائل العامة؛ وهي: إشارته عليه بعزل ولي عهده الوليد بن يزيد لما عرف عنه من اللهو والمجون، وهكذا كانت صلته بالأمويين من بدايتها إلى نهايتها، لكن جولد تسهير أبى إلا أن يعّرض بها ويثير حولها الشبهات من غير أن يقدم لنا دليلاً واحداً يمكن أن يستند إليه في شبهته، بل كل الشواهد والأدلة التي مرّت معنا في سيرته تؤكد أن صلته بهم كانت صلة شريفة الغاية، نزيهة المقصد، لم يترتب عليها ما يخل بأمانته وعدالته وتوثيقه، وأنها كانت حركة مباركة ضمن حركة أفاضل عصره من أهل النصح والتبليغ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[1].

ب . قبوله منصب القضاء:

ومن شبه جولد تسهير التي أثارها حول الإمام الزهري؛ هي قوله: وفي عهد يزيد الثاني قبل منصب القضاء، إلى أن قال: وإنهم كانوا يعدون من قبل منصب القضاء غير ثقة[2].

ويرد عليه بأن القضاء منصب رفيع، وإن المسلمين أجمعوا على مشروعية نصب القضاء والحكم بين الناس، بل قد عدوه من فروض الكفايات؛ لأن الناس لا يستقيم أمرهم بدونه[3]، وكان أول من تولاه في الإسلام هو النبي صلى الله عليه وسلم بتكليف الله تعالى له بذلك في أكثر من آية؛ قال تعالى: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: 65]. كما تولى القضاء من بعده الخلفاء الراشدون بأنفسهم، وولاه عمر بن الخطاب غيره، فولى أبا الدرداء قضاء المدينة، وولى شريحاً قضاء البصرة، وأبا موسى الأشعري قضاء الكوفة، كما تولاه بعد الصحابة كثير من أعلام التابعين وأعيانهم كأبي إدريس الخولاني، والحسن البصري، وعبد الملك بن يعلى الليثي، ومسروق، وعمر بن عبد العزيز، وأبي بكر بن حزم، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وسليمان بن حبيب المحاربي، والقاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود وغيرهم ممن اتفق الأئمة على تعديلهم وتوثيقهم مع توليهم القضاء وقيامهم به.

وبهذا يتضح لنا: أن القضاء لا يزيل الثقة عن صاحبها، ولا يسقط العدالة عمن عرف بها، بل روي الثناء عليه واعتبار القيام به من موجبات الأجر[4]. ولو أن جولد تسهير أنفق لمعرفة القضاء وأهميته في الإسلام شيئاً من الوقت والجهد اللذين أنفقها في صياغة هذه الشبهة وغيرها من الشبه الباطلة التي استهدف بها الإسلام والسنة النبوية ورجالها، لعلم أن القضاء منصب مشروع وعالٍ في الإسلام، وإنه مما يوجب الأجر ويضاعف الثواب ويقوي الثقة بمن كان يتصف بها من القضاة، وإنه كان لمن تولاه في ذلك الوقت الذي كان يموج بالعلماء الأعلام سمة تشريف ووسام تقدير وتكريم، ولأدرك أن كراهة من كرهه من السلف من التابعين ومن بعدهم كأبي قلابة، وأبي

---

[1] الإمام الزهري وأثره في السنة، ص 442، 443، 445.

[2] المصدر السابق نفسه، ص 446.

[3] المغني، لابن قدامة (34/9).

[4] الإمام الزهري وأثره في السنة، ص 447.

حنيفة، وسفيان الثوري وغيرهم، تعود إلى خوفهم مما جاء فيه من تحذير وتخويف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو تحذير موجه إلى من لم يكن أهلاً لتوليه، أو لم يؤدِّ الحق فيه لا إلى توليه مطلقاً، إذ هو مشروع كما رأينا، بل قد يجب القيام به أحياناً على من تعين عليه، لما فيه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأداء الحقوق إلى مستحقيها والإصلاح بين الناس[1]. قال ابن فرحون: واعلم أن كل ما جاء من الأحاديث التي فيها تخويف ووعيد، فإنما هي من حق قضاة الجور من العلماء، أو الجهال الذين يدخلون أنفسهم في هذا المنصب بغير علم، ففي هذين الصنفين جاء الوعيد[2].

جـ قبوله جوائز الخلفاء:

ومن الشبه التي تثار أحياناً؛ هي: أن الإمام الزهري كان يقبل جوائز الخلفاء، أو لماذا كان يقبلها؟ وللجواب على هذه الشبهة، أو هذا التساؤل نقول: لقد كان الإمام الزهري طالباً، وانتهى عالماً، وفي كلا الحالتين كان متفرغاً في الأولى لطلب العلم وجمعه، وفي الثانية لتعليمه ونشره، ولم يكن له من المال الموروث أو المكسوب ما يسد حاجته الضرورية، أو يضمن له الاستمرار في الطلب، فكان لابد له والحالة هذه أن يقبل مساعدة الدولة ويأخذ منها ما يسد حاجاته ويعينه على الطلب، وكان أول من قدم له مثل تلك المساعدة: عبد الملك بن مروان؛ حين قرر العودة إلى المدينة بناء على نصيحته له بذلك، لمواصلة طلب العلم وجمع ما كان منه عند الأنصار، وبعد أن جمع ما جمع من علمهم عاد إلى دمشق، وأخذ يتردد إليها بين الحين والآخر، إلى أن أقام فيها، وتفرغ كلياً لتدريس العلم ونشره، فأقبل إليه طلاب العلم من أهل الشام وغيرها، ورحل إليه وهو فيها كثير من أبناء الأمصار الإسلامية الأخرى كما مر، فأصبح بذلك يمثل مركزاً من أهم المراكز العلمية في الشام إن لم يكن أهمها على الإطلاق، فكان لابد من الدولة أن تمد له يد العون والمساعدة، وتقدم له ما يمكنه من الاستمرار في القيام بهذا العمل الجليل، والإنفاق على ضيوفه وتلاميذه وقاصديه الذين كان ينفق عليهم بمنتهى البذل والسخاء، حتى كان يضيق ما في يده أحياناً من الإنفاق عليهم، فيضطر إلى الاستدانة ليصرف عليهم ويقوم بسد حاجاتهم ما أمكن لذلك، فإن أغلب ما أهدي إليه من الخلفاء كان موجهاً لسد الديون التي لحقته بسبب إنفاقه على تلاميذه وضيفانه.

ولم يكن الزهري أول من قبل الجوائز والأعطيات، ولا آخر من قبلها، بل قبلها غيره من السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم[3]، فقبلها: زيد بن ثابت من معاوية بن أبي سفيان[4]، كما قبلها عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر الطيار وعبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر والحسين وغيرهم ممن كانوا

---

(1) المصدر السابق نفسه، ص 446 . 448.

(2) تبصرة الحكام (10/1)؛ الإمام الزهري، ص 448.

(3) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص 451، 452.

(4) نفح الطيب (235/3).

يفدون عليه بدمشق، فيكرمهم ويقضي حوائجهم[1]، وكان للحسن بن علي بن أبي طالب على معاوية جائزة في كل عام، وكان يفد إليه، فربما أجازه بأربعمئة ألف درهم وراتبه كل سنة مئة ألف[2]، كما قبلها الكثير من التابعين أيضاً، كالحسن البصري والشعبي وإبراهيم بن يزيد النخعي، وأبان بن عثمان، وأبي سلمة بن عبد الرحمن، وأبي الزناد[3]، وعبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب الذي وفد على سليمان فأجازه وقضى حوائجه وحوائج من معه[4]، وقبلها من بعدهم: مالك بن أنس وسفيان الثوري وأبو يوسف والشافعي وغيرهم[5]. ومن كل ما تقدم يتضح لنا أن أخذ جوائز السلطان مشروع إذا لم يترتب على أخذه لها ما يخل بدينه ومروءته[6].

د. قصة الصخرة، وحديث لا تشد الرحال:

يزعم هذا المستشرق أن عبد الملك بنى قبة الصخرة ليحول بين أهل الشام والعراق وبين الحج إلى الكعبة، وأنه أراد أن يلبس عمله هذا ثوباً دينياً، فوضع له صديقه الزهري حديث: لا تشد الرحال... إلخ. فهذا لعمري عجب من أعاجيب الافتراء والتحريف والتلاعب بحقائق التاريخ[7]، وقد فنّد هذا الزيف الدكتور مصطفى السباعي في كتابه: السنة ومكانتها في التشريع؛ فقال:

إن المؤرخين الثقات لم يختلفوا في أن الذي بنى القبة (قبة الصخرة) هو الوليد بن عبد الملك، هكذا ذكر ابن عساكر والطبري وابن الأثير وابن خلدون وابن كثير وغيرهم، ولم نجدهم ذكروا رواية واحدة في نسبة بنائها إلى عبد الملك، ولا شك أن بناءها ـ كما يزعم جولد تسهير ـ لتكون بمثابة الكعبة يحج الناس إليها بدلاً من الكعبة، حادث من أكبر الحوادث وأهمها في تاريخ الإسلام والمسلمين، فلا يعقل أن يمر عليه هؤلاء المؤرخون الكرام، وقد جرت عاداتهم أن يدونوا ما هو أقل من ذلك خطراً أو أهمية، كتدوينهم وفاة العلماء وتولي القضاء وغير ذلك؛ فلو كان عبد الملك هو الذي بناها لذكروها، ولكنا نراهم ذكروا بناءها في تاريخ الوليد، وهؤلاء مؤرخون أثبات في كتابة التاريخ، نعم جاء في كتاب الحيوان للدميري نقلاً عن ابن خلكان: أن عبد الملك هو الذي بنى القبة، وعبارته هكذا: بناها عبد الملك وكان الناس يقفون عندها يوم عرفة[8]. وقد تحدثت عن ما قاله اليعقوبي عن هذا الموضوع في حديثي عن عبد الملك بن مروان.

إن نصَّ الحادثة كما ساقها جولد تسهير بيّنت البطلان؛ لأن بناء شيء ليحج الناس إليه كفر صريح، فكيف يقدم

---

(1) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص 453.

(2) البداية والنهاية؛ نقلاً عن الإمام الزهري، ص 453.

(3) نفح الطيب (336/3)؛ الإمام الزهري، ص 453.

(4) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص 453.

(5) المصدر السابق نفسه.

(6) المصدر السابق نفسه، ص 456.

(7) السنة ومكانتها في التشريع، ص 217.

(8) المصدر السابق نفسه.

عبد الملك عليه على أن خصومه طعنوا فيه بأشياء كثيرة ولم نجدهم اتهموه بالكفر، ولا شنَّعوا عليه ببناء القبة، ولو كان الأمر ثابتاً لجعلوها في أول ما يشهِّرون به.

إن الزهري ولد ـ كما قدمنا ـ سنة إحدى وخمسين، أو ثمان وخمسين، ومقتل عبد الله بن الزبير كان سنة ثلاث وسبعين، فيكون عمر الزهري حينذاك على الرواية الأولى اثنين وعشرين عاماً، وعلى الثانية خمسة عشر، فهل من المعقول أن يكون الزهري في تلك السن ذائع الصيت عند الأمة الإسلامية بحيث تتلقى منه بالقبول حديثاً موضوعاً فيه للحج إلى القبة بدلاً عن الكعبة؟!.

إن نصوص التاريخ قاطعة بأن الزهري في عهد ابن الزبير لم يكن يعرف عبد الملك ولا رآه بعد، فالذهبي يذكر لنا أن الزهري وفد لأول مرة على عبد الملك في حدود ثمانين، وابن عساكر روى أن ذلك كان سنة اثنتين وثمانين، فمعرفة الزهري لعبد الملك لأول مرة إنما كانت بعد قتل ابن الزبير، ثم نصحه أن يطلب العلم من دور الأنصار، انظر كيف يكذب هذا المستشرق ويزعم بأن الزهري أجاب رغبة صديقه عبد الملك فوضع له حديث بيت المقدس ليحج الناس إلى القبة في عهد ابن الزبير!

إن حديث: لا تشد الرحال... إلخ؛ روته كتب السنة كلها، وهو مروي من طرق مختلفة غير طريق الزهري، فقد أخرجه البخاري عن أبي سعيد الخدري من غير طريق الزهري، ورواه مسلم من ثلاث طرق: إحداها من طريق الزهري، وثانيتها من طريق جرير عن ابن عمير عن قزعة عن أبي سعيد، وثالثتها من طريق ابن وهب عن عبد الحميد بن جعفر عن عمران بن أبي أنس عن سلمان الأغر عن أبي هريرة، فالزهري لم ينفرد برواية هذا الحديث، كما يزعم جولد تسهير، بل شاركه فيه غيره كما سمعت، وقد سئل ابن تيمية عن حكم زيارة بيت المقدس ـ وهو ممن ينكر السفر لأجل زيارة القبور؟ فقال: ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا تشد الرحال... إلخ»؛ في الصحيحين من حديث أبي سعيد وأبي هريرة، وقد روي من طرق أخرى، وهو حديث مستفيض متلقًّى بالقبول، أجمع أهل العلم على صحته وتلقيه بالقبول والتصديق، واتفق علماء المسلمين على استحباب السفر إلى بيت المقدس للعبادة المشروعة فيه، وكان ابن عمر يأتي إليه فيصلي[1].

إن هذا الحديث رواه الزهري عن شيخه سعيد بن المسيب، ومن المعلوم أن سعيداً ما كان ليسكت عن الزهري لو أنه وضع هذا الحديث على لسانه إرضاء لأهواء الأمويين، وهو الذي أُوذي من قبلهم وضرب، وقد توفي سعيد سنة (93هـ) أي: بعد مقتل ابن الزبير بعشرين سنة، فكيف سكت سعيد عن هذا كل هذه المدة، وقد كان جبلاً شامخاً من جبال القوة في الحق لا يبالي في الله لومة لائم[2].

---

[1] السنة ومكانتها في التشريع، ص 218.

[2] المصدر السابق نفسه، ص 219.

إن جولد تسهير المستشرق اليهودي استفاد من بعض الروايات الشيعية التي حاولت أن تشوه تاريخ الزهري بالأباطيل والأكاذيب، ولم يكن بحث جولد تسهير إلا حلقة مغرضة في سلسلة الأبحاث التي ترمي إلى هدم الجانب التشريعي من الإسلام، فكما افترى أعداء الإسلام على الصحابي الجليل أبي هريرة ـ افتروا على التابعي المشهور الإمام الزهري، قاصدين من وراء ذلك تشكيك المسلمين في مروياتهم، وهما اللذان رويا كثيراً من الحديث النبوي، ونقلا إلى التابعين وأتباعهم جانباً عظيماً من السنة، فإذا ما شك المسلمون في أوثق الرواة وأحفظهم شكوا في جميعهم واستهانوا بمروياتهم، وحينئذ يتحقق لأعداء الإسلام بعض هدفهم؛ وهو تخلي المسلمين وإعراضهم عن الحديث الشريف، الذي كان تطبيقاً عملياً للشريعة الإسلامية، وشرحاً وافياً وبياناً واضحاً للقرآن الكريم، فإذا أعرض المسلمون ـ لا سمح الله ـ عن السنة اتسعت الهوة بينهم وبين الكتاب الكريم وسهل على المبشرين زعزعة العقيدة في نفوس الناشئة، وبث الإلحاد الذي يجر وراءه العقائد الدخيلة، والنظريات التي تخدم أعداءنا، وفي هذه الطامة الكبرى والخسارة العظمى للمسلمين في دينهم ودنياهم، ولولا خطورة هذه الشبهات وبعدها عن الحق ما تعرضنا لها.

فكما رددنا ما أثير حول أبي هريرة من شبهات مصطنعة، وعرفنا وجه الصواب، رددنا ما أثير حول الزهري من شبهات أيضاً، ونحن في هذا لا نتعجب لأحد وإنما نتوخى الحق وسواء السبيل، خدمة للسنة المطهرة[1].

ومن أراد التوسع في هذا الموضوع فليراجع، السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، للدكتور مصطفى السباعي، والسنة قبل التدوين، للدكتور محمد عجاج الخطيب، والإمام الزهري وأثره في السنة، للدكتور حارث سليمان الضّاري.

8 ـ وفاة الزهري (124 هـ):

توفي الإمام الزهري بعد حياة علمية رفيعة، عن نيف وسبعين سنة، ليلة الثلاثاء لتسع عشرة أو لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، سنة أربع وعشرين ومئة على أرجح الأقوال، في قرية (أدامي)[2] وهي خلف (شغب) (وبَدَا)[3] ، أول عمل فلسطين واخر عمل الحجاز، وبها ضيعة الزهري، وقد أوصى أن يدفن على قارعة الطريق، ليمر مار فيدعو[4] له. وقد مر الأوزاعي بقبره يوماً، فوقف عليه وقال: يا قبرُكم فيك من علم ومن حكم، يا قبر،

---

[1] السنة قبل التدوين، ص 501 ـ 502.

[2] أدامي: أي اسم القرية أو الضيعة في تلك المنطقة.

[3] بدا: واد قريب من (أيلة) من ساحل البحر، وقيل: بوادي القرى.

[4] السنة قبل التدوين، ص 500.

كم فيك من علم ومن كرم، وكم جمعت روايات وأحكاماً[1]. تغمده الله برحمته وجزاه عن الإسلام والسنة النبوية خير ما يجزي به العلماء العاملين[2].

* * *

[1] البداية والنهاية؛ نقلاً عن الإمام الزهري في السنة، ص 283.

[2] الإمام الزهري وأثره في السنة، ص 263.

المبحث الثالث

النظام الإداري والمالي في عهد هشام

أولاً: النظام الإداري:

كان النظام الإداري للولايات امتداداً للعهود التي سبقته، وكانت الولايات أيام هشام بن عبد الملك بصورة عامة هادئة سوى بعض حركات الخوارج التي قامت في العراق وثورة زيد بن علي بالكوفة، وثورة الخوارج في الشمال الإفريقي، والدعوة العباسية التي كانت تنتشر بصمت في خراسان، فإذا عرف بعض أتباعها قتلوا، كذلك قامت حركة يحيى بن زيد بعد هشام. أما في الأندلس وفرنسة فقد كانت فيها فتوحات؛ إذ لم تكن وصلت إليها الخلافات، وكان المجاهدون فيها لا يزالون بعيدين عن التناحر، ولكنه لم يلبث أن دخل إليهم، ثم انسحب المسلمون من وسط فرنسة بعد معركة بلاط الشهداء، واستقروا في جنوبي فرنسة[1].

1 . الشام:

لم يحدث في الشام ما يلفت الانتباه، وكانت عاصمة الدولة الأموية دمشق، وكانت دواوين الدولة الرئيسية بيد الخليفة، وكان معه مجموعة من الكتّاب، فكان بعضهم يختص بديوان الخراج أو الرسائل، أو الصدقة، وما إلى ذلك، وكان سعيد بن عمرو الأبرش الكلبي كاتب هشام ومن كبار أعوانه، وكان له تأثير على هشام، فيحدثنا الطبري: أن هشاماً رفض أن يوافق على شروط الصلح بين الصّغد والمسلمين التي عقدها نصر بن سيار، والي خراسان، فلما كلمه الأبرش بذلك وافق على تلك الشروط[2].

وكان سالم بن عبد الرحمن مولى سعيد بن عبد الملك، كاتبه على الرسائل، ويعاونه بعمله المذكور بشر بن أبي دلجة، وقد استعمل هشام أهل الذمة أحياناً في تسيير شؤون الدواوين، وكان جنادة بن أبي خالد يكتب لهشام على الطراز، واسمه موجود على الثياب الهاشمية[3]، وكان الربيع بن سابور على الخاتم فولاه هشام الحرس[4].

وأما بيوت الأموال فكان عليها عبد الله بن عمرو بن الحارث، وعلى الخاتم الصغير والخاصة اصطخر أبو الزبير

---

[1] التاريخ الإسلامي، محمود شاكر (267/4).

[2] عصر هشام بن عبد الملك، ص 51؛ نقلاً عن تاريخ الطبري.

[3] عصر هشام بن عبد الملك، ص 52.

[4] المصدر السابق نفسه، ص 53.

مولاه[1]، ولهشام حرس خاص يشرف أحد مواليه عليه واسمه نصير، فعزله بعد ثلاث سنين من خلافته، ثم ولَّى الحرس للربيع بن سابور مولى بني الحريش[2].

وأما الشرط فولاها هشام لكعب بن حامد العبسي ثلاث عشرة سنة، ثم ولاه أرمينية، وولاها بعده ليزيد بن يعلى بن ضخم العبسي[3]، وكان هشام يحب الأبهة فكان يحرسه ثمانمئة فارس: أربعمئة من الشرط، وأربعمئة من الحرس، وكان لا يسمح لأحد بأن يسير في موكب إلا أخاه مسلمة[4]، وكان هشام يرسل الجيوش في الشام للفتوحات.

2 . العراق:

يشمل العراق إدارياً ولايتي البصرة والكوفة، ويُعيَّنُ لهما أحياناً أمير واحد، وكانت واسط بعد تمصيرها مقراً له، وكان يلي العراق وما يليه من عمل الشرق عمر بن هبيرة الفزاري قبيل مجيء هشام للحكم، فلما جاء هشام عزل ابن هبيرة عن ولاياته جميعها، وعين بدله خالد بن عبد الله القسري على العراقين، وولي قبل ذلك مكة للوليد بن عبد الملك ثم لسليمان[5]، وكان جواداً ممدَّحاً معظماً عالي الرتبة من نبلاء الرجال[6]، ومن أقوال خالد في خطبة: إن أكرم الناس من أعطى من لا يرجوه، وأعظم الناس عفواً من عفا عن قدرة، وأوصل الناس من وصل عن قطيعة[7]. وقال عنه الذهبي: وكان خالد على هناته يرجع إلى إسلام[8]. وقد عزله هشام سنة عشرين ومئة بيوسف بن عمر الثقفي[9].

وقد كتب هشام بن عبد الملك إلى يوسف بن عمر: لئن شاكت خالداً شوكة لأقتلنك، فأتى خالد الشام، فلم يزل بها يغزو الصوائف حتى مات هشام[10]، وقيل: بل عذّبه يوسف بن عمر يوماً واحداً، وسجنه بضعة عشر شهراً ثم أطلق، فقدم الشام سنة اثنتين وعشرين ومئة[11]. ومن حسناته: قتله الجعد بن درهم ومغيرة الكذاب[12]. ثم تولى بعده يوسف بن عمر الثقفي العراق وخراسان، وكان شهماً كافياً سائساً مهيباً جباراً عسوفاً جواداً معطاءً، وأقرّه الوليد بن يزيد على العراق[13].

---

(1) المصدر السابق نفسه.
(2) المصدر السابق نفسه.
(3) المصدر السابق نفسه، ص 54.
(4) المصدر السابق نفسه، ص 68.
(5) سير أعلام النبلاء (426/5).
(6) المصدر السابق نفسه.
(7) المصدر السابق نفسه.
(8) المصدر السابق نفسه (427/5).
(9) المصدر السابق نفسه (426/5).
(10) المصدر السابق نفسه (431/5).
(11) المصدر السابق نفسه (432/5).
(12) المصدر السابق نفسه (442/5).
(13) المصدر السابق نفسه.

ومن أشهر قضاة البصرة الذين ماتوا عام 122 هـ أبو واثلة إياس بن معاوية بن قُرَّة المزني الليثي؛ أحد من يضرب المثل بذكائه وفطنته؛ روى عن أنس وجماعة، وكان صاحب فراسة.

قال الحريري: فإذا ألمعيتي ألمعيَّة ابن عباس، وفراستي فراسة إياس، وقال أبو تمَّام:

إقـدامُ عـمـرٍو في سمـاحـةِ حـاتمٍ	في حـلـمِ أحـنـفَ في ذكـاءِ إياسِ

قيل لأبيه معاوية: كيف ابنك لك؟ قال: كفاني أمر دنياي، وفرَّغني لآخرتي، وعنه قال: رأيت في المنام كأني وأبي على فرسين معاً، فلم أسبقه ولم يسبقني، وعاش أبي ستاً وتسعين سنة وها أنا فيها، فلما كان آخر لياليه قال: الليلة استكملت عمري، ونام فأصبح ميتاً رحمه الله، وقد توفي سنة اثنتين وعشرين ومئة[1].

3 . ولاة خراسان وبلاد ما وراء النهر:

عين خالد بن عبد الله القسري على خراسان أخاه أسد بن عبد الله عام 106 هـ[2]، ثم تدخَّل هشام وعين أشرس بن عبد الله السلمي [3]، ثم عزله هشام وعين بدله الجنيد بن عبد الرحمن[4]، وتوفي الجنيد بمرو ودفن بها قيل: أواخر عام 115 هـ، وقيل: 116 هـ[5]، وقال أحد الشعراء يرثيه:

تـوفِّي الجـودُ والجـنـيـدُ جمـيـعـاً	فعلى الجـودِ والجـنـيـدِ السـلامُ
أصـبحـا ثاويَـيْنِ في أرضِ مـروٍ	مـا تغنـتْ على الغصـونِ الحمـامُ
كـنـتـمـا نـزهـةَ الـكـرامِ فـلـمَّـا	مُتّـا مـات النـدى ومـاتَ الكرامُ[6]

ثم عين هشام عاصمَ بن عبد الله الهلالي على خراسان، فقد كانت خراسان ثائرة واضطربت بها الأحوال، واشتد الصراع بين القيسية واليمانية، ثم عيَّن هشام أسد بن عبد الله القسري واستمر على ولاية خراسان إلى أن توفي في ربيع الأول عام 120 هـ، ثم عين هشام نصر بن سيار في رجب عام 120 هـ[7]، وكان هشام موفقاً في اختياره

---

[1] شذرات الذهب (2/94 . 95).

[2] عصر هشام بن عبد الملك، ص 112.

[3] المصدر السابق نفسه، ص 114.

[4] المصدر السابق نفسه.

[5] المصدر السابق نفسه، ص 115.

[6] المصدر السابق نفسه، ص 117؛ تاريخ الطبري (7/618).

[7] المصدر السابق نفسه، ص 120.

لنصر؛ فقد كان أرجل القوم وأحزمهم وأعلمهم بالسياسة، عفيفاً مجرباً عاقلاً[1]، أنجز خلال ولايته أعمالاً جديرة بالتقدير في المجالين المالي والحربي، وقد استمرت ولاية نصر على خراسان إلى نهاية الدولة الأموية[2].

4 . ولاة أرمينية وأذربيجان:

ولى هشام على أرمينية وأذربيجان الجراح بن عبد الله الحكمي، ثم عزله عام 107 هـ وولاها أخاه مسلمة بن عبد الملك، واستمر إلى عام 111 هـ، ثم عزل هشام أخاه مسلمة وولى الجراح بن عبد الله الحكمي الولاية الثانية إلى أن استشهد عام 112 هـ، ثم عين أخاه مسلمة، وأرسل معه الجيوش لقتال الخزر، وظل في ولايته إلى نهاية عام 113هـ، حيث عزله هشام عن أرمينية وأذربيجان والجزيرة وولاها مروان بن محمد لمستهل المحرم سنة أربع عشرة ومئة[3]، واستمر مروان على ولايته إلى ما بعد وفاة هشام، وكان جل نشاطه منصرفاً إلى حروب الأعداء مدة ولايته[4].

5 . الجزيرة والموصل:

يبدو أن منطقة الموصل أصبحت ولاية منفصلة عن الجزيرة في عهد هشام، ويعدد الأزدي أعمالها، واستناداً إلى تقريره فهي تشمل جزءاً من شمال وشمال شرق الموصل حالياً إلى تكريت جنوباً[5]، ويبدو أن الموصل كان يحكمها والٍ مستقل زمن هشام يخضع للخليفة مباشرة، وما يقع شمال الموصل إلى حدود أذربيجان أصبح تابعاً لوالي أذربيجان وأرمينية، لذا فإن أغلب المصادر لا تُشير إلى ولاة للجزيرة خلال عهد هشام، وعلى ما يظهر فإن الجزيرة وأذربيجان وأرمينية كانت تخضع لوالٍ واحد في عهد هشام[6] وأما الموصل فكان يليها لهشام عام 105 هـ مروان بن محمد، ثم ولاها الحر بن يوسف بن يحيى بن الحكم بن أبي العاص عام 108 هـ على الأرجح بعد أن عزله عن ولاية مصر[7]، واستمر على ولاية الموصل حتى وفاته عام 113 هـ[8]، ثم عين هشام الوليد بن تليد العبسي، ثم عين هشام عام 122 هـ أبا قحافة المزني أحد أقارب الوليد على الموصل، وبقي هذا على ولايته إلى موت هشام[9].

6 . ولاية الحجاز:

كانت إمارات الحجاز كلها: مكة المكرمة، والمدينة المنورة، والطائف؛ بيد عبد الواحد بن عبد الله النضري، ثم إن

---

(1) المصدر السابق نفسه، ص 121.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 122.

(4) المصدر السابق نفسه، ص 123.

(5) المصدر السابق نفسه.

(6) تاريخ الموصل، ص 32 . 33.

(7) عصر هشام بن عبد الملك، ص 124.

(8) النجوم الزاهرة (259/1)؛ عصر هشام، ص 125.

(9) تاريخ الموصل، ص 52 . 53.

هشام بن عبد الملك قد عزله عن الحجاز وأعطاها لخاله إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي عام 106 هـ، وفي عام 114 هـ عاد فعزل خاله إبراهيم بن هشام عن الحجاز وأمّر خاله محمد بن هشام بن إسماعيل على مكة المكرمة، بينما أعطى أمر المدينة إلى خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم، ثم عاد فعزله خالد عن المدينة وضمها إلى محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي عام 118 هـ.

7 . مصر:

تولى أمر مصر في بداية عهد هشام بن عبد الملك أخوه محمد بن عبد الملك بن مروان، ولكنه لم يلبث أن استبدل بالحر بن يوسف الأموي الذي بقي في منصبه عامين (106 . 108 هـ)، ثم خلفه حفص بن الوليد الحضرمي، إلا أن عبد الملك بن رفاعة قد عاد مرة ثانية إلى إمرة مصر وقد تولاها قبل ذلك، ولكنه توفي بعد خمسة عشر يوماً من تسلمه الأمر، وذلك في مطلع عام 109 هـ، فاستخلف أخاه مكانه وهو الوليد بن رفاعة، فأقره هشام على ذلك، وبقي الوليد في عمله حتى توفي عام 117 هـ، فاستعمل هشام بعده عبد الرحمن بن خالد، إلا أنه كان ليناً، فشكاه أهل مصر إلى الخليفة فعزله، وأعاد إلى الإمرة حنظلة بن صفوان الكلبي للمرة الثانية، وذلك عام 119 هـ، وبقي فيها حتى أرسله هشام إلى إفريقية عام 124 هـ بعد مقتل كلثوم بن عياض القشيري، وولَّى مكانه حفص بن الوليد الحضرمي، واستمر حتى بعد هشام بن عبد الملك أياماً[1].

8 . إفريقية:

كان والي إفريقية بشر بن صفوان عندما بدأت خلافة هشام بن عبد الملك، وعندما توفي استخلف قبل موته نفاش بن قرط الكلبي الذي أسرف في إذلال القيسية، ثم إن هشاماً عيَّن على إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن القيسي، فبطش بعمال سابقيه من اليمانية وبال موسى بن نصير، وفي عام 116 هـ أرسل والي مصر عبيد الله بن الحباب فولى على طنجة عمر بن عبيد الله المرادي، فأساء معاملة البربر، الأمر الذي دعاهم إلى الثورة، وسيأتي الحديث عنها بإذن الله في مبحث الثورات في عهد هشام، ودخلت إفريقية في اضطرابات وصراع وقتال إلى أن حسم لصالح الدولة الأموية[2].

9 . الأندلس:

بعد استشهاد عنبسة بن سحيم الكلبي في غزوة داخل فرنسة عام 107 هـ؛ حدثت خلافات استمرت أربع سنوات، ثم تولى أمر الأندلس عبد الملك بن قطن الفهري، ولكن عبيد الله بن الحبحاب الذي وصل إلى إفريقية

---

[1] التاريخ الإسلامي، محمود شاكر (270/4).

[2] المصدر السابق نفسه (271/4).

قد عزل عبد الملك بأمر الخليفة، وأرسل إلى الأندلس عقبة بن الحجاج السلولي العبسي، فسار إليها عقبة وملكها ودخل فرنسا، واستقر في سبتمانية، كما فتح بعض أراضي جيليقية في شمال الأندلس، وقد أسلم على يديه أكثر من ألف رجل، ثم سار أهل الأندلس إليه عام 123 هـ فخلعوه، وتوفي بعد قليل بقرطبة، ونادى أهل الأندلس بعبد الملك بن قطن الفهري أميراً عليهم، وتحرك البربر في الأندلس، فأذن عبد الملك بن قطن الفهري لبلج بن بشر بدخول الأندلس، وكان في طنجة، فدخل ابن بشر وتمكن من الانتصار على البربر في معركة شذونة، وبعدها طلب أمير الأندلس من بلج الخروج من الأندلس، فرفض، وحدث خلاف بين الطرفين قتل نتيجته عبد الملك بن قطن وغدا بلج بن بشر أمير الأندلس، ولم يلبث بلج بن بشر القشيري أن توفي بعد عام تقريباً متأثراً بجراحه التي أصيب بها في معاركه التي خاضها، وخلفه ثعلبة بن سلامة الذي جاء وبلج مع كلثوم بن عياض إلى إفريقية، ولكن حنظلة بن صفوان أمير إفريقية قد بعث إلى الأندلس أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي حسب أوامر الخليفة هشام بن عبد الملك[1].

10 . اليمن:

ولّاها هشام ليوسف بن عمر الثقفي، وقد استمر على ولايتها إلى أن ولي العراق عام 120 هـ على ما أسلفنا، فاستخلف عليها ابنه الصلت، ثم أخاه القاسم[2].

11 . اليمامة:

تتبع الخلافة مباشرة، وقد ولاها هشام للمهاجر بن عبد الله، من بني بكر بن كلاب، فلما مات المهاجر وليها ابنه[3].

ثانياً: العلاقة بين هشام وولاته:

كان الوالي مسؤولاً عن ولايته، يختار موظفيها، كصاحب الشرطة والقاضي وولاة المدن التابعة له، ولم يتدخل هشام في شؤون الولاة الذين يعينهم، إلا في حالات قليلة، فمثلاً عندما ولى خالد القسري على شرطته شخصاً صغير السن، كتب هشام إلى خالد: إنك وليت شرطتك رجلاً حدثاً، فلو وليتها ذا حيلة ونقلت صاحبك إلى ما هو أجدى عليه.. فولاه فارس.. وولى شرطته للعريان بن الهيثم[4]. وقد أساء كتّاب قاضي مصر، يحيى بن ميمون، السيرة؛ فقد كانوا: لا يكتبون قضية إلا برشوة، فكلم يحيى في ذلك فلم ينكر، ثم كلم مرة بعد مرة فلم يعزل منهم أحداً عن كتابته، وشكا يتيم وصيه إلى يحيى، فلم ينصفه منه، وشهد له جماعة من قومه أنه مظلوم، فلم يستمع

---

(1) التاريخ الإسلامي (272/4).

(2) عصر هشام بن عبد الملك، ص 147.

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) أنساب الأشراف؛ نقلاً عن عصر هشام، ص 148.

يحيى إليه فتمثل اليتيم بأبيات من الشعر؛ منها:

حكمـتَ ببـاطـلٍ لم تأتِ حقّـاً   ولم يُسـمـعْ بحكمٍ مثـلِ ذاكـا

فلما بلغ الشعر يحيى سجن اليتيم، فرفع أمره إلى هشام، فعظم ذلك عليه وكتب بصرفه، وكان في كتابه إلى الوليد بن رفاعة والي مصر: اصرف يحيى عما يتولاه من القضاء مذموماً مدحوراً، وتخير لقضاء جندك رجلاً عفيفاً ورعاً تقياً... فعزله[1].

ومع ما للوالي من سلطات واسعة في ولايته، فقد كان هشام لا يتردد عن عزل الوالي إذا شكا الناس وصدقت الشكوى؛ فقد عزل أسد بن عبد الله القسري عن خراسان، وكان أسد حاد الطابع سريع الغضب، تعصب لقومه من اليمانية ضد القيسية[2]. ولما اتهم سعيد بن هشام بن عبد الملك بسوء السيرة وكان يلي حمص، عزله هشام ووبخه[3]. وكان اختيار هشام يتم على الولاء للأسرة الأموية، وكان استمرارهم في مناصبهم يتوقف على رضا الخليفة والناس عنهم إلى حد كبير[4].

1 . **وقد حاول ولاة الأقاليم المحادَّة للأعداء**: للمحافظة على حدود ولاياتهم من جهة، واستهدفوا استمرار حركة الفتوحات من جهة ثانية، وقد نجحوا في مهمتهم إلى حد كبير، كما تمكن ولاة الأقاليم التي لها سواحل بحرية من حماية ولاياتهم في أغلب الأحيان، ورغم أن الروم هاجموا السواحل الإسلامية أكثر من مرة خلال عهد هشام، لكن المسلمين كانوا في مركز من القوة مكنهم من الرد على البيزنطيين في الحوض الشرقي لبحر الروم، ومكنهم من السيطرة على حوضه الغربي.

2 . **كانت الظروف السائدة في إقليمي**: خراسان والأندلس متشابهة إلى حد ما؛ فقد كانتا محادتين لأعداء أقوياء؛ كالترك والفرنجة، كما كان يسودهما أيضاً صراع بين العرب والموالين من فرس وبربر وغيرهم من جهة، وبين العرب أنفسهم من قيسيين ويمانيين من جهة ثانية، وكان ذلك من بين العوامل التي أدت إلى ضعف مركز المسلمين أمام الأعداء في الإقليمين المذكورين، وإلى سرعة تبدل الولاة فيهما.

3 . أما ولاة الأقاليم الداخلية: فكان جل نشاطهم منصرفاً إلى المحافظة على الأمن والاستقرار، وجمع ما يمكن جمعه من الأموال، وقد أنفق ولاة الأقاليم الداخلية كثيراً من جهودهم لمجابهة حركات المعارضة من ثورات وحركات سرية وغيرها داخل ولاياتهم، وقد نجح بعضهم في تخفيف حدة المعارضة إلى أدنى حد ممكن، ولكن سياسة الشدة التي اتبعها بعضهم الآخر كانت من بين الأسباب التي أدت إلى قيام ثورات شملت مناطق واسعة من ولاياتهم، وأدت

---

[1] عصر هشام بن عبد الملك، ص 148.

[2] تاريخ الطبري؛ نقلاً عن عصر هشام بن عبد الملك، ص 148.

[3] العقد الفريد (182/5)؛ عصر هشام، ص 149.

[4] عصر هشام بن عبد الملك، ص 153.

بالتظافر مع عوامل أخرى إلى ضعف الدولة الأموية[1].

ثالثاً: النظام المالي:

تعتبر السياسة المالية لهشام بن عبد الملك امتداداً لملوك بني أمية، ومخالفة للنهج الإصلاحي التجديدي الراشدي الذي قام به عمر بن عبد العزيز، وكانت مصادر بيت المال هي: الجزية والخراج والغنائم والزكاة، وغيرها من المصادر، وأما نفقات الدولة فكانت على مرتبات الولاة والجنود والموظفين، والإصلاحات كشق الأنهار، وإصلاح الأرض وغيرها من الأمور، ونشير إلى بعض الأمور المتعلقة بالنظام المالي.

1 . عودة الملكية الزراعية إلى ما كانت عليه قبل عهد عمر بن عبد العزيز:

عاد أمراء ووجهاء الدولة الأموية إلى تكوين الملكيات الزراعية الكبيرة بالأخص في منطقة العراق، وقد ساعدهم في ذلك سياسة يزيد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك في هذا الباب، ومن نماذج تلك الملكيات:

أ . الملكيات الكبيرة لمسلمة بن عبد الملك، الناتجة عن استصلاحه لأراضٍ واسعة في منطقة السواد، وبلغ من كبرها أنه حفر لها نهرين واسعين[2].

ب . ملكيات خالد بن عبد الله القسري، حيث بلغ دخله من غلاتها ثلاثة عشر مليون دينار، وقيل: درهم، وكذا بلغ دخل ابنه عشرة ملايين[3].

جـ ملكيات الخليفة هشام بن عبد الملك الواسعة في أنحاء مختلفة من الدولة، وبلغ من كبر حجم ملكياته أن منتوجاته الزراعية كانت تؤثر في المستوى العام للأسعار.

2 . حدث تدهور في المجال الزراعي في عهد هشام بن عبد الملك:

إلا أن هذا التدهور حاولت الدولة علاجه بإقامة بعض المشاريع، مثل:

أ . توصية هشام بن عبد الملك والي الموصل بحفر نهر في وسط المدينة، وقد استغرق حفر هذا النهر مدة ثلاث عشرة سنة، وذكر أن تكلفة حفره بلغت ثلاثة ملايين درهم[4]، وقد كان لهذا النهر أهمية كبرى في تنمية الزراعة بالموصل، فمن المدة المستغرقة في حفره، وتكلفة الحفر، يتضح أن النهر كان كبيراً، ولكونه توسط المدينة، فقد استفاد منه عدد كبير من مزارع المدينة، فزادت إنتاجيتها، وقد ترتب على ذلك كله زيادة ملموسة في إيرادات الدولة من قطاع الزراعة، حيث تضاعف إيراد الدولة من الأراضي الزكوية التي استمدت سقايتها من هذا النهر بمقدار الضعف، فبعد أن كانت تسقى بالساقية والآلات من المياه الجوفية، أصبحت تسقى من النهر مباشرة،

---

[1] عصر هشام بن عبد الملك، ص 154.

[2] مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ص 39.

[3] التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص 87.

[4] التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص 202.

وذلك استناداً إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «فيما سقت الأنهار والغيم العشور، وفيما سقي بالساقية نصف العشر»[1].

ب ـ أقام خالد القسري السدود على نهر دجلة لمنعها من الفيضان، وبنى القناطر، وحفر العديد من الأنهار، إلا أنه كان يمتلك الأراضي الواقعة على ضفاف تلك الأنهار.

جـ أقام مسلمة بن عبد الملك في الجزيرة الفراتية سداً عظيماً على نهر البليخ، وكان لهذا السد آثار إيجابية ملموسة على التنمية الزراعية، فقد اختزن خلف هذا السد كمية كبيرة من المياه، فزادت الموارد المائية، وأمكن تنظيم استخدامها، فضلاً عن الجزء الذي تسرب داخل الأرض فأدى إلى رفع مستوى المياه الجوفية للآبار، وعلى غرار ما سبق فقد ترتب على هذا السد زيادة في إيرادات بيت المال من القطاع الزراعي[2].

3 ـ إنشاء وتعبيد الطرق:

شمل اهتمام الدولة الأموية بتوفير البنية الأساسية لخدمات الطرق، ولم يقتصر الأمر على الطرق، بل شمل اهتمام الدولة بإقامة الجسور، ومثال ذلك: الجسر الذي أنشئ عام 126 هـ على النهر بمنطقة الموصل ليسهل الاتصال بين ضفتي النهر، والذي ترتب عليه ازدهار نشاط التجارة بين الجانبين، وانسياب الحاصلات الزراعية في الجانبين[3]، كما أنه جرت محاولة فيما بين (105 هـ 120 هـ) لإقامة جسر فوق نهر دجلة، ولكن نظراً لضعف الخبرة الهندسية انهار ذلك الجسر خلال فترة وجيزة[4].

4 ـ بناء المدن والحصون والأسوار والأسواق:

قام بعض الولاة ببناء مدن وتجديد أسوار مدن قديمة لاتخاذها مقرات لهم، وحصوناً يلجؤون إليها وقت الحاجة، فقد بنى والي السند مدينة المحفوظة ليتخذها قاعدة لجيشه[5]، وقد جدد أسد القسري والي خراسان، بناء مدينة بلخ في ولايته الأولى[6]، ونقل إليها الدواوين في ولايته الثانية، وبني الحر بن يوسف قيسارية هشام في مصر، كما اتخذ هشام مدينة الرصافة قرب الرقة مصيفاً، وجدد بعض أبنيتها وسورها، كما جدد هشام سور مدينة ملطية بعد أن فكّ الحصار البيزنطي عنها، وأمر ببناء عدة حصون على حدود بلاد الشام مع البيزنطيين وشحنها بالمقاتلة[7].

وقد اهتم والي مصر وشمال إفريقية عبيد الله بن الحبحاب بالغزوات البحرية في بحر الروم (المتوسط)، فجدد ووسع

---

[1] صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الزكاة (54/7).

[2] التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص 203.

[3] المصدر السابق نفسه، ص 368.

[4] المصدر السابق نفسه.

[5] عصر هشام بن عبد الملك، ص 301.

[6] المصدر السابق نفسه؛ نقلاً عن تاريخ الطبري.

[7] فتوح البلدان، للبلاذري؛ نقلاً عن تاريخ الطبري.

قاعدة بناء السفن الحربية في تونس[1]، وقد نقل هشام قاعدة بناء السفن الحربية في بلاد الشام من عكا إلى صور، وبنى فيها فندقاً[2]، ويبدو أن حركة عمرانية رافقت استصلاح الأراضي في العراق في عهد خالد القسري[3]، قام هو ببعضها، كما بنى أخوه أسد بالكوفة سوقاً سمي باسمه[4]، وبنى يوسف بن عمر أثناء ولايته للعراق (120 ـ 126 هـ) سوقاً بالحيرة سمي باسمه[5].

5 . العطاء:

كانت الدولة الإسلامية، قد بلغت أقصى اتساعها في عهد هشام، كما قامت في عهده ثورات قوية، لذا كانت الحاجة ماسة إلى جيش قوي كثير العدد، ومن الطبيعي أن ذلك الجيش يحتاج إلى سلاح ومال يطوف على أفراده، وكانت الدولة تقدم لجندها مبالغ سنوية كأعطيات تصرف لهم في مطلع شهر محرم من كل عام[6]، وكان بيت المال في دمشق أو في مقر الولاية يجهز به الخليفة أو الولاة بما يحتاجونه من الأموال لصرفها بمثابة أعطيات للجند، وغير ذلك من النفقات.

وكانت تلك الأموال يجمعها العمال المتخصصون وتأتي من مصادر متعددة أهمها الخراج، ولم يكن مقدار العطاء واحداً، فقد كان عطاء بني مروان مئتي دينار[7]، وكان العطاء يفرض لمؤيدي الدولة، فقد كتب هشام إلى والي المدينة عبد الواحد النضري، أن يفرض لقوم نصيب الشاعر، وكان هشام يفرض لبعض الشعراء خشية ألسنتهم[8]، وقد يفرض للحاجة بأمر الخليفة[9]، وكان الغزو يفرض على من يأخذ العطاء، فلم يكن أحد من بني مروان يأخذ العطاء إلا عليه الغزو، فمنهم من يغزو ومنهم من يخرج بديلاً[10]، وكانت الدولة تمنع العطاء لمن أيّد إحدى الحركات المعارضة للسلطة الأموية، وتشطب اسمه من ديوان العطاء، وكان الخليفة وحده يستطيع أن يفرض العطاء أو يمنعه[11]، وكان العطاء يُعطى في بداية شهر محرم من كل عام، ويوزعه الولاة على عرفاء الجند[12]، وهم في العادة عن المقدمين في قبائلهم، فيوزعه هؤلاء على أتباعهم من الجند[13].

---

[1] عصر هشام بن عبد الملك، ص 302.

[2] معجم البلدان (202/1)؛ عصر هشام بن عبد الملك، ص 302.

[3] عصر هشام بن عبد الملك، ص 303.

[4] المصدر السابق نفسه.

[5] المصدر السابق نفسه، ص 181.

[6] عصر هشام بن عبد الملك، ص 305.

[7] تاريخ الطبري؛ نقلاً عن عصر هشام، ص 308.

[8] عصر هشام بن عبد الملك، ص 308.

[9] المصدر السابق نفسه، ص 309.

[10] المصدر السابق نفسه، ص 310.

[11] المصدر السابق نفسه، ص 311.

[12] المصدر السابق نفسه.

[13] المصدر السابق نفسه.

6 . ديوان الأوقاف:

كانت الدولة الأموية تتميز بكثرة الدواوين التي تساعد على تنظيم أمور الدولة، وكانت تتطور مع الزمن، وتكتسب الخبرات، ومن أشهر تلك الدواوين: ديوان الجند، وديوان الخراج، وديوان الرسائل، وديوان الخاتم، وديوان البريد، وديوان الطراز، وديوان المستغلات، وديوان الصدقات، وديوان النفقات، وفي عهد هشام بن عبد الملك أقيم ديوان جديد هو ديوان الأحباس ـ الأوقاف ـ؛ فقد كان أول قاضٍ بمصر وضع يده على الأحباس توبة بن نمر في زمن هشام، وإنما كانت الأحباس في أيدي أهلها وفي أيدي أوصيائهم، فلما كان توبة قال: ما أرى مرجع هذه الصدقات إلا إلى الفقراء والمساكين، فأرى أن أضع يدي عليها حفظاً لها... فلم يمت توبة حتى صار للأحباس ديوان عظيم، وكان ذلك سنة 118 هـ[1]. وبعد هذا أخذ القضاة ينظرون في أمور الحجر وغيره، ثم جمعوا النظر في الحدود إلى النظر في الحقوق[2].

هذه بعض الأمور المتعلقة بالنظام المالي في عهد هشام، وقد اختصرتها قدر الإمكان خوفاً من الإطالة.

* * *

[1] الإدارة في العصر الأموي، نجدة خماش، ص 289.

[2] عبقرية الإسلام في أصول الحكم، ص 344.

المبحث الرابع

الثورات في عهد هشام بن عبد الملك

أولاً: ثورة زيد بن علي بن الحسين:

1 . اسمه ونسبه:

هو زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم[1]، وهو بذلك ينتسب من قِبل أبيه إلى علي بن أبي طالب ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم، وإلى فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم[2]، وكان يكنى أبا الحسين[3]، وهو من رجال الطبقة الثالثة من أهل المدينة من التابعين[4]، ووالدته جارية سندية، وكانت أم ولد، وتذكر بعض المصادر: أن المختار بن أبي عبيد الثقفي اشتراها واستحسنها ووجدها لا تليق إلا بعلي بن الحسين، وليس هناك أحد أحق بها منه، فأهداها إليه[5]، وقيل: إن علي بن الحسين هو الذي اشتراها. وقد مدحها زيد بقوله: لقد صبرت بعد وفاة سيدها إذ لم يصبر غيرها، وقالت عنها فاطمة بنت الحسين: أما والله لنعم دخيلة القوم كانت[6]، ويروي ابن قتيبة: أن اسمها حيدان[7]، وقيل: أم حيدان[8].

وأما أبوه علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب فهو من رجال الطبقة الثانية من التابعين[9]، ومن كبار ساداتهم ديناً وعلماً[10]، ومن فقهاء أهل البيت وأفاضل بني هاشم وعباد المدينة[11]، وسيأتي الحديث عنه من ضمن شيوخ زيد بإذن الله.

أ . مولده:

---

[1] تهذيب التهذيب (419/3)؛ الإمام زيد المفترى عليه، للخطيب، ص 34.

[2] الإمام زيد المفترى عليه، للخطيب، ص 34.

[3] تهذيب التهذيب (419/19)؛ المعارف، لابن قتيبة، ص 365.

[4] الطبقات (211/5)؛ نسب قريش (60/2)؛ الحياة السياسية والفكرية للزيدية، ص 26.

[5] الحياة السياسية والفكرية للزيدية في المشرق الإسلامي، ص 26.

[6] تاريخ الطبري؛ نقلاً عن الحياة السياسية والفكرية، ص 26.

[7] الحياة السياسية والفكرية، ص 26.

[8] الإمام زيد المفترى عليه، ص 34.

[9] الطبقات (211/5)؛ الحياة السياسية والفكرية، ص 27.

[10] وفيات الأعيان (267/2).

[11] مشاهير علماء الأمصار، ص 63؛ الحياة السياسية والفكرية، ص 27.

اختلفت الروايات في سنة ولادة زيد، واختار الدكتور شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب: أنه ولد عام 78 هـ[1]، وهذا يتفق مع قول صاحب فوات الوفيات من أن زيداً مات عن أربع وأربعين سنة[2]، ويبدو أن الشيخ أبا زهرة قد ارتضى القول بوفاة زيد عن اثنتين وأربعين سنة، فجعل مولده عام 80 هـ[3].

ب . زواجه وأبناؤه:

تزوج زيد ثلاث نسوة؛ تزوج أربطة بنت أبي هاشم بن عبد الله بن محمد ابن الحنفية، وقد جاءت له بولد وهو يحيى[4]، وعندما كان في الكوفة تزوج اثنتين[5]، وهما ابنة يعقوب بن عبد الله السلمي أحد بني فرقد، وتزوج ابنة عبد الله بن أبي العنبس الأسدي[6]، وتزوج بأم ولد فجاءت له بثلاثة أولاد: عيسى، وحسين، ومحمد[7].

جـ طلبه للعلم وبيئته التي ترعرع فيها:

نشأ زيد رحمه الله بالمدينة وكانت منارة العلم بما كان فيها من الصحابة والتابعين، وترعرع في بيت من بيوت العلم عامر بميراث النبوة، فوالده كان من كبار التابعين وساداتهم ديناً وعلماً[8]، وعاش مع والده ثماني عشرة سنة من حياته؛ ربّاه خلالها على الخلق الرفيع، وغذاه بالروح الدينية العالية، وبعد وفاة والده انتقلت كفالته إلى أخيه الأكبر محمد الباقر، وهو من هو في زهده وورعه وتقواه، ولقد كان للباقر أثره كذلك في نشأة أخيه زيد وهو لا يزال في تلك السن التي آلت إليه رعايته فيها، ولقد طبعت هذه البيئة الخيّرة في قلب زيد تقوى الله عز وجل، والخوف منه، وحب تلاوة القرآن، والزهد في هذه الدنيا[9]، ويقول زيد عن نفسه: والله ما كذبت كذبة مُنذ عرفت يميني من شمالي، ولا انتهكت محرماً لله عز وجل مُنذ أن عرفت أن الله يؤاخذني[10].

ولقد كان تأثره بوالده وأخيه وبيئته التي نشأ فيها واضح المعالم، وفي هذه البيئة العلمية المتدينة بدأ الإمام زيد طلبه للعلم، فحفظ القرآن الكريم جرياً على عادة الصحابة والتابعين في تحفيظ أبنائهم القرآن الكريم مُنذ حداثة سنهم،

---

[1] الإمام زيد المفترى عليه، ص 35.

[2] فوات الوفيات (27/2).

[3] زيد بن علي، لأبي زهرة، ص 22.

[4] الإمام زيد المفترى عليه، ص 41.

[5] الخطط، للمقريزي (339/3).

[6] تاريخ الطبري؛ نقلاً عن الإمام زيد المفترى عليه، ص 41.

[7] طبقات ابن سعد (325/5).

[8] الإمام زيد المفترى عليه، ص 39.

[9] المصدر السابق نفسه.

[10] الروض النضير، لأحمد السياغي (128/1).

ولقد كان للإمام زيد اشتغال دائم بالقرآن الكريم، فهو يقول عن نفسه: لقد خلوت بالقرآن الكريم ثلاث عشرة سنة أقرؤه وأتدبره[1]. وقد توسع في التفسير والسنة وعلومها، وبالفقه والعقائد وأصول الدين، واللغة وآدابها، وغير ذلك من ألوان الثقافة التي كانت سائدة في عصره، فكان بهذه العلوم الواسعة من علماء الإسلام الذين يشهد لهم القريب والبعيد بالعلم والتفوق[2]، فهذا أخوه محمد الباقر يقول لمن سأله عنه: سألتني عن رجل مُلئ علماً من أطراف شعره إلى قدميه[3]. ويقول أبو إسحاق السبيعي: رأيت زيد بن علي فلم أر في أهله مثله ولا أعلم منه ولا أفضل[4]. وقال أبو حنيفة: شاهدت زيد بن علي كما شاهدت أهله، فما رأيت في زمانه أفقه ولا أعلم[5] منه، وقال عنه الشعبي: ما ولدت النساء أفضل من زيد بن علي ولا أفقه ولا أشجع ولا أزهد[6]، ومن كلام الذهبي عن زيد قوله: كان ذا علم وجلال وصلاح[7]، وقال في تاريخ الإسلام: كان أحد العلماء الصلحاء[8]، وهذه تزكية معتبرة من علماء أهل السنة تدل على أنه أحد أعلام مدرسة أهل السنة والجماعة.

2 . شيوخ زيد بن علي:

أ . علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب:

تتلمذ زيد على يد أبيه علي زين العابدين وروى عنه[9]، وقد كان علي زين العابدين عالماً بالحديث لكثرة من أخذ عنهم من الصحابة، والتابعين[10]، بالإضافة إلى اشتغاله بالفقه، وكان هو الأستاذ الأول الذي أخذ عنه زيد بن علي[11]، ولعلي زين العابدين مواقف مشهورة؛ منها:

. شدة احترام الناس له، وقصيدة الفرزدق في مدحه:

كان علي زين العابدين له مكانة عظيمة في عيون الناس، وكانوا يحبونه ويقدرونه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصلته لذكرى أبيه الشهيد الحسين رضي الله عنه الذي لم يبق من ولده سواه، وازداد هو إقبالاً على العلم واشتغالاً بالعبادة، حتى لُقّب زين العابدين، وكان يكنى بأبي الحسين، وقيل: بأبي الحسن، وقيل: بأبي محمد.

---

[1] المصدر السابق نفسه (98/1)؛ الإمام زيد المفترى عليه، ص 40.

[2] الإمام زيد بن علي المفترى عليه، ص 71.

[3] الروض النضير (104/1).

[4] الإمام زيد بن علي المفترى عليه، ص 71.

[5] الخطط (436/2)؛ الحياة السياسية والفكرية، ص 37.

[6] الحياة السياسية والفكرية، ص 37؛ نقلاً عن الخطط، للمقريزي.

[7] سير أعلام النبلاء (236/5 . 237).

[8] تاريخ الإسلام، للذهبي؛ نقلاً عن الإمام زيد المفترى عليه، ص 72.

[9] نسب قريش (61/2)؛ الحياة السياسية والفكرية، ص 39.

[10] صفة الصفوة (102/2)؛ سير أعلام النبلاء (387/4).

[11] الحياة السياسية الفكرية للزيدية، ص 39.

وكان له جلالة عظيمة، وحُقَّ له والله ذلك، فقد كان أهلاً للإمامة العظمى لشرفه وسؤدده، وعلمه وتألّهه وكمال عقله[1].

ومما يدل على مكانة زين العابدين في عصره: أنه لما حج هشام بن عبد الملك في خلافة أخيه الوليد، أراد أن يستلم الركن فلم يستطع من الزحام، فنصب له منبر، فاستلمه وقام أهل الشام حوله، فجاء زين العابدين ليستلم الحجر فأوسع له الناس إجلالاً له واحتراماً، وكان في بزة حسنة وهيئة حسنة وشكل مليح فقال أهل الشام لهشام: من هذا؟ فقال: لا أعرفه. فقال الفرزدق وكان حاضراً: أنا أعرفه، وأنشد[2]:

هذا سَليلُ حسينٍ وابنُ فاطمةٍ	بنتِ الرَّسولِ، انجابَتْ به الظُّلَمُ[3]
هذا الذي تعرفُ البطحاءُ وطأَتَهُ	والبيتُ يعرِفُه والحلُّ والحرمُ
هذا ابنُ خير عبادِ اللهِ كلِّهِمُ	هذا التقيُّ النقيُّ الطاهرُ العَلَمُ
إذا رأتْه قريشٌ قال قائلُها	إلى مكارمِ هذا ينتهي الكرمُ
يُغْضي حياءً ويُغضى من مهابتِهِ	فما يكلَّمُ إلا حين يبتسمُ
مشتقه من رسول الله نبعتُه	طابتْ عناصرُها والخيمُ والشيمُ
هذا ابنُ فاطمةٍ إن كنتَ جاهلَه	بجدِّه أنبياءُ اللهِ قَدْ خُتموا
كلتا يديه غياثٌ عمَّ نفعُهُما	تستوكفانِ ولا يعروهُما عَدَمُ
ما قالَ قطُّ إلا في تشهُّدِه	لولا التَّشهدُ كانت لاءَه نَعَمُ
من معشرٍ حبُّهم دينٌ وبغضهُمُ	كفرٌ وقربُهُمُ منجَى ومعتَصَمُ
مقدمٌ بعدَ ذكرِ الله ذكرُهُمُ	في كلِّ حكمٍ ومختومٌ به الكَلِمُ
إن عُدَّ أهلُ التقى كانوا أئمتَهُمْ	أو قيلَ من خيرُ أَهلِ الأرضِ قيلَ هُمُ
فليس قولُك مَنْ هذا بضائِرِه	العربُ تعرفُ مَنْ أَنْكَرْتَ والعَجَمُ

فأمر هشام بحبس الفرزدق، فحبس بعُسْفان، وبعث إليه علي بن الحسين باثني عشر ألف درهم، وقال: أعذر أبا فراس، فردَّها وقال: ما قلت ذلك إلا غضباً لله ولرسوله، فردّها إليه وقال: بحقي عليك لما قبلتها، فقد علم الله

---

[1] سير أعلام النبلاء (386/4).

[2] علموا أولادكم محبة ال بيت النبي، ص 162.

[3] شذرات الذهب (959/2).

نيَّتك ورأى مكانك، فقبلها[1]، وكانت أم زين العابدين أم ولد اسمها سلافة بنت ملك الفرس يزدجرد، وقيل: غزالة[2].

. تمسكه بالكتاب والسنة ودفاعه عن الصحابة وحب العلماء له:

كان زين العابدين شديد التمسك بالكتاب والسنة، وما كان عليه جده علي بن أبي طالب وأبوه الحسين الشهيد رضي الله عنهما لا يحيد عنه قيد أنملة في عقيدة أو عبادة أو عمل، كثير التبتل والورع، وكان حسن الرأي بالشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وبالخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه، شديد الحب لهم، والتقدير لأعمالهم، شديد الحب للصحابة أجمعين، فلما أظهر بعض المتسترين بآل البيت الطعن بأبي بكر وعمر تصدَّى لهم زين العابدين؛ ففضح مكرهم وأظهر البراءة منهم[3]، فعن أبي حازم المدني قال: ما رأيت هاشمياً أفقه من علي بن الحسين؛ سمعته وقد سئل: كيف كانت منزلة أبي بكر وعمر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فأشار بيده إلى القبر ثم قال: بمنزلتهما منه الساعة[4].

وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال: جاء رجل إلى أبي فقال: أخبرني عن أبي بكر؟ قال: عن الصّدّيق تسأل؟ قال: وتُسميه الصّدّيق؟ قال: ثكلتك أمك، قد سمّاه صديقاً من هو خير منّي، رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمهاجرون والأنصار، فمن لم يُسمّه صديقاً، فلا صدق الله قوله، اذهب فأحبَّ أبا بكر وعمر، وتولّهما، فما كان من أمر ففي عُنُقي[5].

وعن محمد بن علي عن أبيه، قال: قدم قوم من العراق فجلسوا إليَّ فذكروا أبا بكر وعمر فسبُّوهما، ثم ابتركوا في عثمان ابتراكاً فشتمتهم[6]. وقد قال علي بن الحسين: والله ما قُتل عثمان رحمه الله على وجه الحق[7].

وكان رحمه الله يبين للناس الحقائق والعقائد الصحيحة، قال علي بن الحسين: جاءني رجل فقال: جئتك في حاجة، وما جئت حاجّاً ولا معتمراً، قلت: وما هي؟ قال: جئت لأسألك: متى يبعث عليّ؟ فقلت: يبعث . والله . يوم القيامة، ثم تُهمُّهُ نفسه[8]. وعن الزهري قال: سألت علي بن الحسين عن القرآن، فقال: كتاب الله وكلامه[9].

---

[1] سير أعلام النبلاء (39/4).

[2] المصدر السابق نفسه (386/4).

[3] علموا أولادكم محبة ال بيت النبي، ص 163.

[4] سير أعلام النبلاء (395/4).

[5] المصدر السابق نفسه.

[6] المصدر السابق نفسه (395/4).

[7] المصدر السابق نفسه.

[8] سير أعلام النبلاء (396/4).

[9] المصدر السابق نفسه.

فقد كان زين العابدين من أئمة أهل السنة والجماعة، وقد استنكر الغلو في حب أهل البيت، فقد قال: أيها الناس أحبونا حب الإسلام، فما برح بنا حبكم حتى صار علينا عاراً[1].

لقد كان زين العابدين ثقة مأموناً رفيعاً ورعاً[2]، وكان يأتي لعبيد الله بن عبد الله، وكان هذا العالم إذا دخل في صلاته فقعد إليه إنسان لم يقبل عليه حتى يفرغ، وإنّ عليَّ بن الحسين كان من أهل الفضل وكان يأتيه، فيجلس إليه، فيطول عبيد الله في صلاته ولا يلتفت إليه، فقيل له: عليٌّ وهو ممَّن هو منه، فقال: لا بُدَّ لمن طلب هذا الأمر أن يُعنَّى به[3].

وكان زين العابدين متواضعاً حريصاً على طلب العلم، فكان يدخل المسجد، فيشق الناس حتى يجلس في حلقة زيد بن أسلم، فقال له نافع بن جبير: غفر الله لك! أنت سيّدُ الناس، تأتي تتخطَّى حتى تجلس مع هذا العبد، فقال علي بن الحسين: العلم يبتغى ويُؤتى ويطلب من حيث كان[4].

وكان لا يستنكف أن يسأل عن العلم، وكان من شيوخه: سعيد بن جبير، فعن مسعود بن مالك: قال لي علي بن الحسين: تستطيع أن تجمع بيني وبين سعيد بن جبير؟ قلت: ما حاجتك إليه؟ قال: أشياء أريد أن أسأله عنها، إن الناس يأتوننا بما ليس عندنا[5].

وعن الزهري قال: كان علي بن الحسين من أفضل أهل بيته وأحسنهم طاعة وأحبهم إلى مروان وإلى عبد الملك[6]، وكان يصلي خلف الأمويين من غير تقية، فعن أبي جعفر، قال: إنا لنُصلي خلفهم ـ يعني الأمويين ـ من غير تقيَّة، وأشهد على أبي أنه كان يُصلي خلفهم من غير تقيَّة[7]. وقد شهد سعيد بن المسيب لعلي بن الحسين بشدة ورعه، وقال: ما رأيت أورع منه [8]، وقال جويرية بن أسماء: ما أكل علي بن الحسين بقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم درهماً قطُّ[9].

ـ زهده وعبادته ودعاؤه وصدقاته:

كان علي بن الحسين عابداً زاهداً وفياً جواداً منيباً، أجمع معاصروه أنه كان أعبد الناس؛ وكان إذا مشى إلى الصلاة أخذته رعدة، فقيل له، فقال: تدرون بين يدي من أقوم ومن أُناجي[10]؟!

---

(1) المصدر السابق نفسه (389/4).
(2) المصدر السابق نفسه (387/4).
(3) المصدر السابق نفسه (388/4).
(4) المصدر السابق نفسه.
(5) المصدر السابق نفسه (389/4).
(6) المصدر السابق نفسه (389/4).
(7) المصدر السابق نفسه (397/4).
(8) المصدر السابق نفسه (391/4).
(9) المصدر السابق نفسه.
(10) المصدر السابق نفسه (391/4).

وعنه: أنه كان إذا توضَّأ اصفرَّ[1]،وقيل: إنه كان يُصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة إلى أن مات. وكان يسمى زين العابدين لعبادته[2]، وقال عنه ابن تيمية: علي بن الحسين زين العابدين وقرة عين الإسلام لكثرة ما اشتهر عنه من عبادة وزهد وورع وتسامح وعلو أخلاق[3]، وكان كثير القيام، كثير البر في رمضان، وكان كثير الصدقة في الحج، كثير الصدقة في سائر أحواله، وكان يحمل الخبز بالليل على ظهره يتبع به المساكين في الظلمة ويقول: إن الصدقة في سواد الليل تطفئ غضب الرب[4]، وكان ناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين كان معاشهم، فلما مات علي بن الحسين، فقدوا ذلك الذي كان يؤتون بالليل[5]. ولما مات عليُّ بن الحسين وجدوا بظهره أثراً ممّا كان ينقل الجرب بالليل إلى منازل الأرامل[6]، ولما مات وجدوه يعول مئة أهل بيت[7].

وكان كثير الدعاء؛ فعن طاوس قال: سمعت علي بن الحسين وهو ساجد في الحجر يقول: عُبَيْدُكَ بِفنائك، مسكينُك بفنائك، سائلك بفنائك، فقيرك بفنائك. قال: فو الله ما دعوت بها في كرب قط إلا كُشف عني[8].

وكان يقول: اللهم إني أعوذ بك أن تُحسّن في لوائح[9] العيون علانيتي، وتُقبّحَ في خفيات العيون سريرتي؛ اللهم كما أسأتُ وأحسنتَ إليَّ، فإذا عُدت، فعد عَلَيَّ[10].

ـ وفاته:

مات سنة أربع وتسعين، وروي ذلك عن جعفر الصادق، وقيل: سنة اثنتين وتسعين، وقيل: سنة ثلاث وتسعين. وقيل: سنة خمس وتسعين، والأول أصح[11]. وقبره بالبقيع، ولا بقية للحسين بن علي إلا من قبل ابنه زين العابدين[12].

ب ـ أبو جعفر الباقر: محمد بن علي بن الحسين:

ومن شيوخ زيد بن علي أخوه محمد بن علي المعروف بالباقر، وسمي بالباقر لأنه تبقر العلم وتوسع فيه، وقد أخذ

---

[1] المصدر السابق نفسه (392/4).

[2] المصدر السابق نفسه.

[3] المصدر السابق نفسه (393/4).

[4] المصدر السابق نفسه.

[5] المصدر السابق نفسه.

[6] المصدر السابق نفسه.

[7] المصدر السابق نفسه.

[8] المصدر السابق نفسه.

[9] لوائح الشيء: ما يبدو منه وتظهر علامته عليه.

[10] سير أعلام النبلاء (396/4).

[11] المصدر السابق نفسه (400/4).

[12] المصدر السابق نفسه.

الباقر العلم عن كثير من الصحابة والتابعين وروى عنهم، فقد روى عن أبيه علي بن الحسين، وعن ابن عمر، وجابر، وأبي سعيد، وعبد الله بن جعفر، وسعيد بن المسيب، وأبيه زين العابدين، ومحمد ابن الحنفية، وطائفة[1].

ولد محمد الباقر سنة ست وخمسين في حياة عائشة وأبي هريرة [2]، وكان أحد من جمع بين العلم والعمل والسؤدُد والشرف والثقة والرَّزانة، وكان أهلاً للخلافة، وهو أحد الأئمة الاثني عشر الذين تبجلهم الشيعة الإمامية وتقول بعصمتهم وبمعرفتهم بجميع الدين، فلا عصمة إلا للملائكة والنبيّين، وكل أحد يصيب ويخطئ ويُؤخذ من قوله ويترك سوى النبي صلى الله عليه وسلم فإنه معصوم، مؤيد بالوحي[3].

ولقد كان أبو جعفر إماماً، مجتهداً، تالياً لكتاب الله، كبير الشأن، ولكن لا يبلغ في القرآن درجة ابن كثير ونحوه، ولا في الفقه درجة أبي الزناد وربيعة، ولا في الحفظ ومعرفة السنن درجة قتادة وابن شهاب، فلا نحابيه، ولا نحيف عليه، ونحبه في الله لما تجمع فيه من صفات الكمال [4].

وكان من المدافعين عن أبي بكر وعمر والصحابة، قال ابن فُضَيل، عن سالم بن أبي حفصة، قال: سألت أبا جعفر، وابنه جعفراً، عن أبي بكر وعُمرَ، فقالا لي: يا سالم، تولَّهما، وابرأ من عدوهما، فإنهما كانا إمامي هدى[5]. علق الذهبي على هذا الأثر فقال: كان سالم فيه تشيع ظاهر، ومع هذا فَيُبثُّ هذا القول الحقّ، وإنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذو الفضل، وكذلك ناقلها ابن فُضيل، شيعي ثقة. فعثَّر الله شيعة زماننا ما أغرقهم في الجهل والكذب، فينالون من الشيخين وزيري المصطفى صلى الله عليه وسلم، ويحملون هذا القول من الباقر والصادق على التقية[6].

وعن بسَّام الصَّيرفيّ، قال: سألت أبا جعفر عن أبي بكر وعمر، فقال: والله إني لأتولاَّهما، وأستغفر لهما، وما أدركت أحداً من أهل بيتي إلا وهو يتولاَّهما[7].

وعن جابر الجعفي عن محمد بن علي، قال: أجمع بنو فاطمة على أن يقولوا في أبي بكر وعمر أحسن ما يكون من القول[8]. قال الذهبي: وأم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق هي صاحبة أبي جعفر الباقر وأم ولده جعفر الصادق[9].

وعن عروة بن عبد الله، قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي عن حلية السيوف فقال: لا بأس به، قد حلّى أبو

---

[1] المصدر السابق نفسه (401/4).

[2] المصدر السابق نفسه.

[3] المصدر السابق نفسه (402/4).

[4] المصدر السابق نفسه. ابن كثير: هو عبد الله بن كثير، إمام المكيين في القراءة، توفي عام 120 هـ. انظر: علم القراءات، ص 179.

[5] سير أعلام النبلاء (402/4).

[6] المصدر السابق نفسه (403/4).

[7] المصدر السابق نفسه.

[8] الطبقات (321/5)؛ سير أعلام النبلاء (403/4).

[9] سير أعلام النبلاء (406/4).

بكر الصّديق سيفه، قلت: وتقول: الصديق؟! فوثب وثبة واستقبل القبلة ثم قال: نعم الصّدّيق، نعم الصّدّيق؛ فمن لم يقل الصّدّيق فلا صدق الله له قولاً في الدنيا والآخرة[1].

وقال جابر الجعفي: قال لي محمد بن علي: يا جابر؛ بلغني أن قوماً بالعراق يزعمون أنهم يحبوننا ويتناولون أبا بكر وعمر، ويزعمون أني أمرتهم بذلك، فأبلغهم عني أني إلى الله منهم بريء، والذي نفسي محمد بيده ـ يعني نفسه ـ لو وليت لتقربت إلى الله بدمائهم، لا نالتني شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم إن لم أكن أستغفر لهما وأترحم عليهما، إن أعداء الله لغافلون عن فضلهما وسابقتهما، فأبلغهم أني بريء منهم وممن تبرأ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما[2].

وعن عبد الملك بن أبي سليمان: قلت لمحمد بن علي: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا} [المائدة: 55]. قال: هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. قلت: إنهم يقولون: هو علي. قال: علي منهم[3]. فهذا كلام جليل من الإمام أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين في الاعتراف بالفضل لأهل الفضل، والكلام في إثبات عدالة الصحابة رضي الله عنهم وبيان فضلهم يعتبر من الأعمال الصالحة التي يثاب عليها فاعلها، وخاصة إذا صدر ذلك من علماء آل البيت؛ حيث نسب إليهم المبطلون كلاماً في التنقيص من قدر الصحابة هم منه براء[4].

ـ من أقواله:

له كلام نافع في الحكم والمواعظ؛ منه: أهل التقوى أيسر أهل الدُّنيا مؤونة وأكثرهم معونة، إن نسيت ذكَّروك، وإن ذكرت أعانوك، قوَّالين بحق الله، قوَّامين بأمر الله[5]. ومنه: أنزل الدنيا كمنزل نزلته وارتحلت عنه، أو كمال أصبته في منامك فاستيقظت وليس معك منه شيء[6]. وقال: اذكروا من عظمة الله ما شئتم، ولا تذكرون منها شيئاً إلا وهي أعظم منه، واذكروا من النار ما شئتم، ولا تذكرون منها شيئاً إلا وهي أشدُّ منه، واذكروا من الجنة ما شئتم، ولا تذكرون منها شيئاً إلا وهي أفضل[7]. وقال في الكِبْر: ما دخل قلب امرئ من الكِبْر شيء إلا نقص من عقله مقدار ذلك[8]. وقال: الصواعق تصيب المؤمن وغير المؤمن، ولا تصيب الذاكر[9]. وقال: سلاح اللئام قبح الكلام[10].

---

[1] الحلية (3/84 ـ 185)؛ سير أعلام النبلاء (4/408).
[2] البداية والنهاية؛ نقلاً عن التاريخ الإسلامي، للحميدي (17/284).
[3] سير أعلام النبلاء (4/406).
[4] المصدر السابق نفسه (4/406).
[5] شذرات الذهب (2/72).
[6] المصدر السابق نفسه (2/72 ـ 73).
[7] سير أعلام النبلاء (4/406).
[8] الحلية (3/180)؛ سير أعلام النبلاء (4/408).
[9] سير أعلام النبلاء (4/408).
[10] المصدر السابق نفسه (4/409).

. وفاته:

مات أبو جعفر محمد الباقر سنة أربع ومئة بالمدينة، وقيل: توفي سنة سبع عشرة ومئة[1]، وهو هاشمي من جهة أبيه وأمه، فأمه هي أم عبد الله بنت الحسن بن علي[2].

ج. أبان بن عثمان بن عفان:

من شيوخ زيد بن علي الذين روى عنهم الحديث أبان بن عثمان بن عفان الإمام الفقيه[3]، وحدّث عنه عمرو بن دينار والزهري وأبو الزناد وجماعة، قال يحيى بن قطان: فقهاء المدينة عشرة: أبان بن عثمان، وسعيد بن المسيب... وذكر سائرهم. وعن ابن أبي الزناد، عن أبيه، عن أبان: سمعت عثمان يقول: من قال في أول يومه وليلته: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيءٌ في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم. لم يضره ذلك اليوم شيء، أو تلك الليلة، فلما أصاب أبان الفالج قال: إني والله نسيت هذا الدعاء هذه الليلة ليمضي فيَّ أمر الله[4]. وقال خليفة: إن أباناً توفي سنة خمس ومئة[5].

ومن خلال شيوخ زيد نلاحظ أنه تأثر بالمدرسة المدنيّة السنية، ويعتبر في علمه وفهمه امتداداً لها، فوالده وأخوه وأبان بن عثمان وغيرهم كلهم من علماء المدرسة المدنيّة.

د. نفي تتلمذ زيد بن علي على واصل بن عطاء المعتزلي:

يرى فريق من العلماء أن زيداً قد تتلمذ لواصل بن عطاء وأخذ عنه الاعتزال كابن خلدون[6] والشهرستاني[7]، ومحمد شاكر الكتبي[8] وغيرهم، ولذا فإن مؤلفي طبقات المعتزلة يجعلون زيداً من الطبقة الثالثة، كما يرى المرتضى صاحب المنية والأمل[9]، والقاضي عبد الجبار صاحب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة[10].

والواقع أن الدراسة الفاحصة تكشف لنا عن بطلان دعوى تلمذة زيد لواصل بن عطاء، وفي سبيل إبراز هذه الحقيقة نقدم الأدلة التالية:

---

[1] المصدر السابق نفسه.

[2] المصدر السابق نفسه (403/4).

[3] سير أعلام النبلاء (351/4)؛ الحياة السياسية والفكرية، ص 40.

[4] سير أعلام النبلاء (352/4).

[5] المصدر السابق نفسه.

[6] تاريخ ابن خلدون (172/3)؛ الحياة السياسية والفكرية، ص 40.

[7] الملل والنحل (207/1 . 208).

[8] فوات الوفيات، للكتبي (37/3).

[9] المنية والأمل؛ نقلاً عن الإمام زيد المفترى عليه، ص 55.

[10] فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة؛ نقلاً عن الإمام زيد، ص 55.

ـ ما قيل من إقامة زيد بالبصرة واختياره لها ليعلم أصول العقائد عن الفرق المختلفة، وهذا ما قاله الشيخ أبو زهرة رحمه الله[1]، وذكر قريباً من هذا الدكتور علي سامي النشار[2]، ولم يذكره واحد من المؤرخين القدماء سواء في ذلك الطبري وابن كثير، واليعقوبي والمسعودي والمقدسي وابن الأثير وغيرهم، وكل ما ذكره الطبري من إقامة زيد بالبصرة أنه أقام بها شهرين[3]، وأما ابن العماد صاحب شذرات الذهب فذكر أن زيداً لم يمكث إلا شهراً واحداً[4]، وأثناء إقامته بالكوفة، وهو يعد العدة ويجمع الرجال تأهباً للخروج على بني أمية[5]. أي أنه ذهب إليها بعد أن جاوز الأربعين من عمره ليقوم بكل ما يتطلبه الخروج من جهد وعمل، وفي مثل هذه السن الناضجة وفي مثل هذه الظروف أيضاً لا يمكن أن يقال: إن زيداً تتلمذ فيها على واصل. وحتى مع القول بأنه التقى به هناك ـ وهو فرض لا ننفيه ـ ولكننا نمنع أن يكون زيد في نضجه العلمي، ومشاغله العملية حينذاك يتتلمذ على واصل ويأخذ عنه[6].

ـ ما قيل من ذهاب واصل بن عطاء إلى المدينة واجتماع آل البيت به ومنهم الإمام زيد، ووقوع الخلاف بينه وبين ابن أخيه جعفر الصادق، وهذه القصة ذكرها شيوخ المعتزلة؛ وهما: الحسين بن المرتضى في المنية والأمل، والقاضي عبد الجبار في فضل طبقات المعتزلة، ومن المعروف أن المعتزلة في سبيل نصرة مذهبهم وبيان أصالته في نظرهم يرتفعون بطبقاتهم الأولى ليس لآل البيت، بل إلى الصحابة رضي الله عنهم[7]، فلا عجب أن يجعلوا زيداً من هذه الطبقات، فقد جعلوا غيره من أئمة أهل البيت كالصادق والباقر وزين العابدين وابائهم وأجدادهم كذلك، ونسبوا إليهم من الأقوال ما يظهر اعتزالهم[8]، بينما كان هؤلاء الأئمة من علماء الحديث، وكانوا على عقيدة أهل السنة والجماعة.

وقد أثنى عليهم علماء أهل السنة وعلى رأسهم ابن تيمية[9]، فلو كان هناك مغمز في عقيدتهم لذكره، والإمام زيد واحد من هؤلاء الأئمة الأعلام الذين استحقوا ثناء أهل السنة وتوثيقهم[10]؛ يقول ابن تيمية: فليس من أئمة أهل البيت ـ مثل علي بن الحسين وأبي جعفر الباقر وابنه جعفر بن محمد ـ من كان ينكر الرؤية ولا يقول بخلق القرآن ولا ينكر القدر ولا يقول بالنص على علي ولا بعصمة الأئمة الاثني عشر، ولا يسب أبا بكر وعمر.

---

[1] زيد بن علي، لأبي زهرة، ص 39 ـ 40.

[2] نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (121/1).

[3] تاريخ الطبري؛ نقلاً عن الإمام زيد المفترى عليه، ص 57.

[4] شذرات الذهب (92/2).

[5] المصدر السابق نفسه.

[6] الإمام زيد المفترى عليه، ص 57.

[7] فرق وطبقات المعتزلة؛ نقلاً عن الإمام زيد المفترى عليه، ص 57.

[8] المصدر السابق نفسه، ص 58.

[9] منهاج السنة (123/2 ـ 124).

[10] الإمام زيد المفترى عليه، ص 58.

والمقولات الثابتة المتواترة عن هؤلاء معروفة موجودة، وكانت مما يعتمد عليه أهل السنة[1].

وبيَّن ابن تيمية أن أئمة أهل البيت كانوا على عقيدة أهل السنة، فيقول: إن الأئمة المشهورين كلهم يثبتون الصفات لله تعالى، ويقولون: إن القرآن كلام الله ليس بمخلوق، ويقولون: إن الله يُرى في الآخرة، وهذا هو مذهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان من أهل البيت وغيرهم[2].

وقد نص علماء أهل السنة والجماعة على أن زيداً كان من أهل السنة؛ يقول ابن تيمية مبيناً أن زيداً كان من أهل السنة والجماعة، رغم أن الرافضة يفسقونه ويكفرونه؛ يقول: فليست ذرية فاطمة كلهم محرّمين على النار، بل منهم البرّ والفاجر، والرافضة تشهد على كثير منهم وهم أهل السنة منهم الموالون لأبي بكر وعمر كزيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وأمثاله من ذرية فاطمة رضي الله عنها، فإن الرافضة رفضوا زيد بن علي ومن ولاه، وشهدوا عليهم بالكفر والفسق[3].

ويقول عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب: فأئمة أهل البيت أمثال زين العابدين وابنه زيد بن علي وأشباههم رضي الله عنهم شهد لهم أهل العلم بالصدق والأمانة والديانة[4]، وقد وثقه علماء الجرح والتعديل ولم يرموه بأي بدعة من بدع الاعتدال[5] أو غيرها.

ـ قال أبو حاتم البستي عن زيد: كان من أفاضل أهل البيت وعبادهم[6].

ـ وقال عنه الذهبي: كان أحد العلماء الصلحاء، بدت منه هفوة فكانت سبباً لرفع درجته في الآخرة[7].

ـ وقال ابن حجر: ثقة من الرابعة، وهو الذي تنسب إليه الزيدية[8]. وقد سأل شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب الشيخ عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله ـ عن زيد بن علي، فأجاب: إنه لم يسمع أحداً من علماء السلف لا يثني عليه، وإن الذين أصبحوا معتزلة هم أتباعه، أما هو فمن خيار التابعين[9].

ـ ثم إن الرواية التي أشارت إلى ذهاب واصل بن عطاء إلى المدينة واجتماعه بآل البيت ومنهم الإمام زيد، ووقوع الخلاف بسبب ذلك بينه وبين ابن أخيه جعفر الصادق، والتي ذكرها المرتضى في المنية والأمل؛ ليس لها سند تاريخي، وجاءت هذه الرواية بصيغة التضعيف؛ حيث قال: روي أن واصلاً[10]، وكذلك نجد القاضي عبد الجبار

---

[1] منهاج السنة (222/1)؛ الإمام زيد المفترى عليه، ص 148.

[2] منهاج السنة (173/1)؛ الإمام زيد المفترى عليه، ص 148.

[3] المنتقى من منهاج الاعتدال، ص 172؛ الإمام زيد، ص 149.

[4] جواب أهل السنة النبوية، ص 151.

[5] الإمام زيد المفترى عليه، ص 150.

[6] المصدر السابق نفسه؛ الثقات، لابن حبان، رقم، (2511).

[7] تاريخ الإسلام، للذهبي (75/5)؛ الإمام زيد، ص 150.

[8] تهذيب التهذيب (419/3).

[9] الإمام زيد بن علي المفترى عليه، ص 149.

[10] المصدر السابق نفسه، ص 58.

يسوق هذه القصة بصيغة التضعيف[1].

. لقد كان زيد يرى أن جده علياً رضي الله عنه من أفاضل الصحابة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن منزلته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كمنزلة هارون من موسى، ومن ثم فلا يعقل أن يتتلمذ زيد على واصل وهو يعلم أن واصلاً لم يكن يرى هذا الرأي في جده رضي الله عنه، فلم يسوِّ بينه وبين كثير من الصحابة في الفضل وقبول الشهادة، ولم يكن كذلك قاطعاً بصحة موقفه في حروبه مع الخارجين عليه، وإنما كان يجوز الخطأ على جده في تلك الحروب، وهو الإمام الذي بايعه الصحابة رضوان الله عليهم، ولم يكن ليقبل شهادته ولو على بقل[2]، فكيف يقبل زيد أن يأخذ علمه من رجل مبتدع هذا شأنه.

وإن الخلاف على هذه القضية خلاف جوهري وفي نفس الوقت خلاف حساس يتصل بالإمام زيد في شخص جده، وليس خلافاً على أمر آخر، فلا يمكن أن يجتمع الرجلان على مذهب واحد ورابطة واحدة مع وقوع هذا الخلاف بينهما، ولا نظن أن زيداً كان يقبل أن يتتلمذ على واصل وأن يأخذ عنه رغم قوله الباطل في جده علي رضي الله عنه حتى يحتاج إلى إنكار أخيه الباقر عليه، كما يروي الشهرستاني من أن محمد الباقر أنكر على أخيه زيد أخذه العلم عن واصل، وهو يجوّز الخطأ على جده في قتاله للناكثين والقاسطين[3]. وكيف نقبل القول بمعرفة الباقر بعلاقة علمية تتصل بأمور العقيدة قائمة بين زيد وواصل ثم نجده يثني عليه هذا الثناء العاطر ويشهد له تلك الشهادة الكبيرة[4]، في قوله لجابر الجعفي، عندما سأله عن أخيه زيد: سألتني عن رجل مُلئ إيماناً وعلماً من أطراف شعره إلى قدمه، وهو سيد أهل بيته[5].

3 . العلاقة بين جعفر الصادق وزيد بن علي:

هو جعفر بن محمد بن علي ابن الشهيد أبي عبد الله ريحانة رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسين بن علي بن أبي طالب، الإمام الصادق شيخ بني هاشم، أبو عبد الله القرشي، الهاشمي، العلوي المدني أحد الأعلام[6]، ولد سنة ثمانين، ورأى بعض الصحابة مثل أنس بن مالك وسهل بن سعد[7].

وكان جعفر يثني على عمه زيد ويقدره، وكانت العلاقة بينهما طيبة، فلقد قال جعفر عن عمه كما يروي لنا عمر بن القاسم: قال: دخلت على جعفر الصادق وعنده ناس من الرافضة، فقلت: إنهم يبرؤون من عمِّك، فقال:

---

[1] المصدر السابق نفسه.

[2] الملل والنحل للشهرستاني (61/1 . 62).

[3] الملل والنحل، للشهرستاني؛ نقلاً عن الإمام زيد المفترى عليه، ص 62.

[4] الإمام زيد المفترى عليه، ص 62.

[5] الروض النضير (104/1).

[6] سير أعلام النبلاء (255/6).

[7] المصدر السابق نفسه (255/6).

برئ الله ممن تبرأ منه، كان والله أقرأنا لكتاب الله، وأفقهنا في دين الله، وأوصلنا للرحم، ما تركنا وفينا مثله[1].

وكان جعفر يجل عمه زيداً، ومما يدل على ذلك أنه كان يمسك له بالركاب ويسوي ثيابه على السرج[2]. وكذلك كان مؤيداً لعمه في خروجه، واستأذنه في الخروج معه، فعندما أراد زيد الخروج إلى الكوفة من المدينة قال له جعفر: أنا معك يا عم، فقال زيد: أو ما علمت أن قائمنا لقاعدنا وقاعدنا لقائمنا، فإذا خرجت أنا وأنت فمن يخلفنا في حرمنا؟! فتخلف جعفر بأمر عمه زيد[3].

ولقد ذكر الطبري وابن الأثير: أن جماعة من الشيعة قبل خروج زيد مروا على جعفر الصادق فقالوا له: إن زيد بن علي فينا يبايع، أفترى لنا أن نبايعه؟ فقال لهم: نعم بايعوه، فهو والله أفضلنا وسيدنا وخيرنا. فجاؤوا فكتموا ما أمرهم به[4].

وكان جعفر يدعو لعمه بالنصر والتأييد؛ فعندما أراد يحيى اللحوق بأبيه زيد، قال له جعفر: أقرئه مني السلام، وقل له: إني أسأل الله أن ينصرك ويبقيك ولا يرينا فيك مكروهاً..

وبعد أن مضى زيد شهيداً إلى ربه وجاء الخبر إلى جعفر، قال: ذهب والله زيد بن علي كما ذهب علي والحسن والحسين وأصحابهم . شهيداً إلى الجنة[5]. فقد كان جعفر وزيد بن علي على علاقة طيبة، وإن الذين فرقوا بينهما هم الشيعة الذين رفضوا زيداً وقالوا بالوصية خوفاً من لوم الناس لهم وعتابهم إياهم على مفارقتهم زيد[6].

أ . دفاعه عن جده أبي بكر الصديق والصحابة:

كانت حفيدة الصديق متزوجة من محمد الباقر الإمام الخامس عند الشيعة الإمامية، وكان جعفر بن محمد بن علي بن الحسين الذي يلقب بالصادق يقول: ولدني أبو بكر مرتين[7]، فأمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، والقاسم بن محمد بن أبي بكر كان أحد فقهاء المدينة السبعة، تربى في حجر أم المؤمنين عائشة، أما أمها فهي أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وكان جعفر يغضب من الشيعة الإمامية ويمقتهم إذا علم أنهم يتعرضون لجده أبي بكر، فكيف يرضى من يدَّعي محبة جعفر وآل البيت أن يلعن جد جعفر الصادق [8]؟!

فعن سالم بن أبي حفصة قال: سألت أبا جعفر وابنه جعفراً عن أبي بكر وعمر، فقال: يا سالم تولَّهما وابرأ من

---

[1] المصدر السابق نفسه (390/5).

[2] مقاتل الطالبيين، ص 129؛ الإمام زيد المفترى عليه، ص 60.

[3] رسائل العدل والتوحيد، ص 80، 81.

[4] تاريخ الطبري (51/8).

[5] رسائل العدل والتوحيد، ص 81؛ الإمام زيد المفترى عليه، ص 61.

[6] الإمام زيد المفترى عليه، ص 61.

[7] سير أعلام النبلاء (254/6).

[8] علي بن أبي طالب، للصَّلاَّبي، ص 172.

عدوهما، فإنهما كانا إمامَيْ هدى. ثم قال جعفر: يا سالم، أيَسُبُّ الرجل جدَّه؟! أبو بكر جدّي، لا نالتني شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة إن لم أكن أتولاَّها وأبرأ من عدوهما[1].

وقال حفص بن عياش: سمعت جعفر بن محمد يقول: ما أرجو من شفاعة علي شيئاً إلا وأنا أرجو من شفاعة أبي بكر مثله. لقد ولدني مرتين[2].

وقد كانت العلاقات بين بيت أبي بكر وآل البيت قوية ومتلاحمة ومتداخلة فالقاسم بن محمد بن أبي بكر حفيد أبي بكر، وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب حفيد علي بن أبي طالب كانا ابني خالة، فأم القاسم بن محمد وأم علي بن الحسين هما بنتي يزدجرد بن شهريار بن كسرى اللتين كانتا من سبايا الفرس في عهد عمر رضي الله عنه، وقد توسع إحسان إلهي ظهير في إثبات المصاهرات وعلاقات المودة والتراحم والاحترام المتبادل بين أهل البيت والصديق[3].

وسئل جعفر بن محمد عن أبي بكر وعمر فقال: إنك تسألني عن رجلين قد أكلا من ثمار الجنة[4]. وحدثنا عمرو بن قيس الملائي، سمعت جعفر بن محمد يقول: برئ الله ممن تبرأ من أبي بكر وعمر[5]. قال الذهبي: وهذا القول متواتر عن جعفر الصادق، وأشهد بالله إنه لبار في قوله غير منافق لأحد[6].

ب ـ من لفتاته في مناسك الحج:

قال سفيان الثوري: قدمت مكة فإذا أنا بأبي عبد الله جعفر بن محمد قد أناخ بالأبطح، فقلت: يا بن رسول الله، لم جعل الموقف من وراء الحرم، ولم يُصيَّر في المشعر الحرام؟ فقال: الكعبة بيت الله والحرم حجابه، والموقف بابه، فلما قصده الوافدون، أوقفهم بالباب يتضرعون، فلما أذن لهم في الدخول أدناهم من الباب الثاني وهو المزدلفة، فلما نظر إلى كثرة تضرعهم وطول اجتهادهم رحمهم، فلما رحمهم أمرهم بتقريب قربانهم، فلما قربوا قربانهم، وقضوا تفثهم، وتطهَّروا من الذنوب التي كانت حجاباً بينه وبينهم، أمرهم بزيارة بيته على طهارة. قال: فلم كُرِه[7] الصوم ـ أي: حرم الصوم ـ أيام التشريق، قال: لأنهم في ضيافة الله[8].

---

[1] سير أعلام النبلاء (259/6). إسناده صحيح.

[2] المصدر السابق نفسه.

[3] الشيعة وأهل البيت، ص 78 ـ 83.

[4] سير أعلام النبلاء (259/6).

[5] المصدر السابق نفسه (260/6).

[6] المصدر السابق نفسه.

[7] كره الصوم: أي حرم؛ لما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم من النهي عن صوم أيام التشريق، والسلف كانوا يستعملون الكراهة في معناها الذي استعملت به في كلام الله ورسوله: قال تعالى: {كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا} [الإسراء:38]

[8] سير أعلام النبلاء (265/6).

جـ من حكمه وأقواله:

قال جعفر الصادق: لا زاد أفضل من التقوى، ولا شيء أحسن من الصمت، ولا عدوَّ أضرُّ من الجهل، ولا داء أدوأُ من الكذب، وقال: لا يتم المعروف إلا بثلاثة: بتعجيله وتصغيره وستره[1]. وقال: إياكم والخصومة في الدين، فإنها تشغل القلب وتورث النفاق[2]. هذا وقد توفي سنة 148 هـ.

ثانياً: أسباب خروج زيد بن علي:

كان زيد رحمه الله لا يقبل الذل والهوان، صاحب شخصية فذة، مما جعلته شامخاً كالطود، فقد اتصف بالغيرة على الحق ومحبة العدل ومحاربة الظلم، وقد ساهمت أسباب عديدة في خروجه على هشام؛ ومن هذه:

1 . تأثره بما حدث لأهل بيته من تقتيل وتشريد، وقتل جده الحسين بن علي رضي الله عنه، وتعرضه هو بالذات إلى الإهانات من ولاة هشام بن عبد الملك ومن هشام نفسه.

2 . تغير الحكم من الشورى إلى حكم الملك العضوض مع مجيء الأمويين، وما حدث من سفك دماء من الأمويين، واستخدام العنف والقوة على الثورات الخارجة عليهم.

3 . شعوره بالمظالم الواقعة على الناس، وللمنكرات التي تفشت في زمانه جعله يخرج آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، رافعاً للظلم عن الناس وخاصة الموالي الذين كانت الجزية تبقى مفروضة عليهم حتى بعد إسلامهم[3]. وقد صرّح بظلم هشام له عندما راجعه محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، فقال: خرج بنا هشام أسراء على غير ذنب من الحجاز إلى الشام ثم إلى الجزيرة ثم إلى العراق ثم إلى رئيس ثقيف يلعب بنا وأنشد:

بكرت تخوفني الحتوف كأنني	أصبحتُ في عرضِ الحياةِ بمعزلِ
فأجبتُها إنَّ المنيةَ منزلٌ	لابد أن أُسقى بكأسِ المنهلِ
فاثني حبالَك لا أبا لك واعلمي	أني امرؤ سأموتُ إن لم أقتلِ

أستودعك الله، أني أعطي الله عهداً إن دخلت يدي في طاعة هؤلاء ما عشت[4].

4 . البيئة المناسبة للثورة بالكوفة، وفيها أتباع أهل البيت المؤيدون لأحقية أهل البيت بالخلافة الكارهون لحكم بني أمية.

هذه أهم الأسباب العامة التي حملت زيداً على الخروج على الحكم الأموي، أما الأسباب المباشرة التي ذكرها

---

[1] المصدر السابق نفسه (263/6).

[2] المصدر السابق نفسه (264/6).

[3] الإمام زيد المفترى عليه ص 120.

[4] الخطط، للمقريزي (338/3)؛ الإمام زيد المفترى عليه، ص 121.

المؤرخون لخروج زيد على هشام؛ فهي تتمثل في عدة مواقف حدثت بينهما[1]، وانتهى كل منها بما أثر عن زيد من أقوال وأشعار يعتزم فيها الخروج على هشام، وكانت حوادث تعمق في نفسية زيد شعوراً حاداً بالثورة نتيجة لما يتعرض له في كل منها من الظلم وسوء المعاملة:

1 ـ عدم قيام هشام بن عبد الملك بمعرفة حق زيد وتحمل ديونه وقضاء حوائجه، وبدلاً من ذلك أغلظ له القول وأساء معاملته، فقد روى ابن عساكر عن عبد الله بن جعفر: قال لي سالم مولى هشام: دخل زيد على هشام فرفع ديناً كثيراً وحوائج، فلم يقض له هشام حاجة، وتجهمه وأسمعه كلاماً شديداً، فخرج من عنده وهو يأخذ شاربه ويقبله، ويقول: ما أحب الحياة أحد إلا ذل، ثم مضى فكانت وجهته الكوفة[2].

2 ـ عدم استماع هشام لزيد في إحدى خصوماته وعدم إنصافه إياه، فقد روى ابن الأثير وغيره: أن زيداً كان يخاصم ابن عمه جعفر بن الحسن بن الحسين بن علي في ولاية وقوف علي، وكان زيد يخاصم عن بني الحسين وجعفر يخاصم عن بني الحسن، فكانا يتبالغان بين يدي الوالي إلى كل غاية، ويقومان فلا يعيدان مما بينهما حرفاً، فلما مات جعفر نازعه عبد الله بن الحسن بن الحسن فتنازعا يوماً بين يدي خالد بن عبد الملك بن الحارث، وأراد والي هشام على المدينة أن يوقع بينهما، وأراد عبد الله بن الحسن أن يتكلم، فقال زيد: لا تعجل يا أبا محمد، أعتق زيد ما يملك إن خاصمك إلى خالد أبداً، ثم أقبل على خالد فقال: جمعت ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمر ما كان يجمعهم عليه أبو بكر ولا عمر، فقال خالد: أما لهذا السفيه أحد... ثم ذهب زيد إلى هشام يشكو إليه مما فعله خالد، فجعل هشام لا يأذن له فيرفع القصص، فكلما رفع إليه قصة كتب هشام في أسفلها: ارجع إلى منزلك[3].

3 ـ اتهام هشام بن عبد الملك لزيد بالإعداد للخروج عليه، وتحقيقه معه في ذلك، وإغلاظه القول له في التحقيق، فقد قال له هشام ذات يوم: لقد بلغني يا زيد أنك تذكر الخلافة وتتمنّاها ولست هنالك وأنت ابن أمة، قال زيد: إن لك جواباً. قال: فتكلّم، قال: إنه ليس أحد أولى بالله ولا أرفع درجة عنده من نبيّ ابتعثه، وقد كان إسماعيل ابن أمة وأخوه ابن صريحة ـ أي حرة ـ فاختاره الله عليه، وأخرج منه خير البشر، وما على أحد من ذلك إذ كان جده رسول الله وأبوه علي بن أبي طالب ما كانت أمّه، قال له هشام: اخرج، قال: أخرج ثم لا أكون إلا بحيث تكره.. فخرج من عنده وسار إلى الكوفة[4].

ثالثاً: بيعته واستشهاده:

قدم زيد الكوفة وأقام بها مستخفياً ينتقل في المنازل، وأقبلت الشيعة تختلف إليه تبايعه، فبايعه جماعة منهم، وكانت

---

(1) الإمام زيد المفترى عليه، ص 122.

(2) تاريخ دمشق؛ نقلاً عن الإمام زيد المفترى عليه، ص 126.

(3) الكامل في التاريخ (374/3).

(4) المصدر السابق نفسه.

بيعته: إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وجهاد الظالمين والدفع عن المستضعفين وإعطاء المحرومين، وقسم هذا الفيء بين أهله بالسوية، وردّ المظالم، ونصْر أهل البيت، أتبايعون على ذلك؟ فإذا قالوا: نعم، وضع يده على أيديهم ويقول: عليك عهد الله وميثاقه وذمّته وذمّة رسوله صلى الله عليه وسلم، لتفين بيعتي ولتقاتلن عدوي ولتنصحنّ لي في السر والعلانية، فإذا قال: نعم، مسح يده على يده ثم قال: اللهم اشهد. فبايعه خمسة عشر ألفاً، وقيل: أربعون ألفاً، فأمر أصحابه بالاستعداد، فأقبل من يريد أن يفي له ويخرج معه ويستعدّ ويتهيّأ، فشاع أمره في الناس[1].

ومن خلال نصّ البيعة تظهر الأهداف التي دعا إليها زيد، فقد دعا إلى الكتاب، والسنة، وجهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين وإعطاء المحرومين، وردّ المظالم ونصرة أهل البيت[2]، هذه الأهداف الكبيرة هي التي نهض لمثلها زيد وأيدها الإمام جعفر الصادق والإمام أبو حنيفة[3].

وقد اعترض بعض الناس على خروج زيد؛ منهم:

1 ـ عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب:

فقد كتب كتاباً إلى زيد جاء فيه: أما بعد فإن أهل الكوفة نفخ في العلانية، خور في السريرة، هرج في الرخاء، جزع في اللقاء تقدمهم ألسنتهم، ولا تشايعهم قلوبهم، ولقد تواترت إليّ كتبهم بدعوتهم، فصممت أذني عن ندائهم، وألبست قلبي غشاء عن ذكرهم، يأساً منهم، وإطراحاً لهم، وما لهم مثل إلا ما قال علي بن أبي طالب: إن أهملتم خضتم، وإن حوربتم خرتم، وإن اجتمع الناس على إمام طعنتم، وإن أجبتم إلى مشاقة نكصتم[4].

2 ـ داود بن علي ينصح زيد:

وعندما بايع أهل الكوفة زيداً، قال داود بن علي: يا بن عمّ! إن هؤلاء يغرّونك من نفسك، أليس قد خذلوا من كان أعز عليهم منك جدّك علي بن أبي طالب حتى قتل؟! والحسن من بعده بايعوه ثم وثبوا عليه فانتزعوا رداءهُ وجرحوه؟! أو ليس قد أخرجوا جدك الحسين وحلفوا له وخذلوه وأسلموه ولم يرضوا بذلك حتى قتلوه؟! فلا ترجع معهم[5]،... وقال له: إني خائف إن رجعت معهم أن لا يكون أحد أشدّ عليك منهم وأنت أعلم. ومضى داود إلى المدينة[6].

---

[1] المصدر السابق نفسه (375/3).

[2] تاريخ الإسلام الثقافي والسياسي، ص 566.

[3] المصدر السابق نفسه.

[4] الكامل في التاريخ (376/3).

[5] المصدر السابق نفسه.

[6] المصدر السابق نفسه.

3. سلمة بن كُهَيْل:

جاء سلمة بن كُهَيْل فذكر لزيد قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحقّه، فأحسن ثم قال له: ننشدك الله كم بايعك؟ قال: أربعون ألفاً. قال: فكم بايع جَدَّك؟ قال: ثمانون ألفاً. قال: فكم حصل معه؟ قال: ثلاثمئة. قال: نشدتك الله أنت خير أم جَدّك؟ قال: جدّي. قال: فهذا القرن خير أم ذلك القرن؟ قال: ذلك القرن. قال: أفتطمع أن يَفي لك هؤلاء وقد غدر أولئك بجدّك؟! قال: قد بايعوني ووجبت البيعة في عنقي وأعناقهم. قال: أفتأذن لي أن أخرج من هذا البلد؟ فلا آمن أن يحدث حدثٌ فلا أملك بنفسي، فأذن له، فخرج إلى اليمامة[1].

استمر زيد في حشد الأنصار، وكانت الأجهزة الأمنية الأموية تتابع الأحداث ومجريات الأمور، وكان زيد يتنقل في الكوفة تارة في بني عبس وتارة في بني هند، وتارة في بني تغلب وغيرهم إلى أن ظهر[2]، ولما أمر أصحابه بالاستعداد للخروج، وأخذ من كان يريد الوفاء له بالبيعة يتجهّز، وصل الأمر إلى والي العراق يوسف بن عمر، فاستنفر أجهزة الدولة للقضاء على زيد[3].

4. انشقاق الشيعة الرافضة عن زيد بن علي وغدرهم به:

كان ذلك على وجه التحديد في سنة إحدى وعشرين ومئة، عندما خرج زيد بن علي بن الحسين على هشام بن عبد الملك[4]، فأظهر بعض من كان في جيشه من الشيعة الطعن على أبي بكر وعمر، فمنعهم من ذلك، وأنكر عليهم فرفضوه، فسموا بالرافضة، وسميت الطائفة الباقية معه بالزيدية[5]، يقول ابن تيمية: إن أول ما عرف لفظ الرافضة في الإسلام عند خروج زيد بن علي في أوائل المئة الثانية، فسئل عن أبي بكر وعمر فتولاهما، فرفضه قوم فسموا رافضة[6]. وقال: ومن زمن خروج زيد افترقت الشيعة إلى رافضة وزيدية، فإنه لما سئل عن أبي بكر وعمر فترحم عليهما رفضه قوم، فقال لهم: رفضتموني، فسموا رافضة لرفضهم إياه، وسمي من لم يرفضه من الشيعة زيدياً لانتسابهم إليه[7]. ومنذ ذلك التاريخ تميزت الرافضة عن باقي فرق الشيعة، فأصبحت فرقة مستقلة باسمها ومعتقدها[8].

وجاء في رواية: قول زيد في الشيخين:... وقد وُلّوا فعدلوا في الناس، وعملوا بالكتاب والسنة، قالوا: فلم يظلمك

---

[1] المصدر السابق نفسه.

[2] المصدر السابق نفسه (377/3).

[3] المصدر السابق نفسه (380/3).

[4] تاريخ الطبري (160/7)؛ الانتصار للصحب والآل، ص 47.

[5] الانتصار للصحب والآل، ص 47.

[6] مجموع الفتاوى (36/13).

[7] منهاج السنة (35/1).

[8] الانتصار للصحب والآل، ص 48.

هؤلاء إذا كان أولئك لم يظلموك، فلم تدعو إلى قتالهم؟! فقال: إنّ هؤلاء ليسوا كأولئك، هؤلاء ظالمون لي ولكم ولأنفسهم، وإنما ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيّه صلى الله عليه وسلم، وإلى السنن أن تُحيا وإلى البدع أن تطفأ، فإن أجبتمونا سعدتم، وإن أبيتم فلست عليكم بوكيل. ففارقوه ونكثوا بيعته، وقالوا: سبق الإمام، يعنون محمد الباقر، وكان قد مات، وقالوا: جعفر ابنه إمامنا اليوم بعد أبيه، فسمّاهم زيد الرافضة[1].

هذه هي عقيدة زيد بن علي في الشيخين أبي بكر وعمر، وأعلنها بوضوح وجلاء، لأنه كان يتقي الله حق تُقاته ويخشاه أشدّ الخشية، مع أنه كان في وسع زيد بن علي ـ لو كان رجل دنيا ـ أن يُمالئ هؤلاء الرافضة الذين أرادوا أن يحملوه على اتباع أهوائهم بمشاركته لهم في القدح في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ولو على سبيل التَّقية، وذلك ليستميلهم إلى صفِّه ليعينوه ويناصروه، حتى يتحقق له هدفه من خروجه على هشام بن عبد الملك، ولكنه أبى ورفض طلبهم، وآثر التمسك بالحق الذي يجب أن يُتّبع، ولو أسخط في رضاء الله جميع البشر، ذلك لأنه لا يمكن أن يشذَّ عن النهج الذي كان عليه والده زين العابدين علي بن الحسين، ومن قبله والده ثم جدّه علي بن أبي طالب رضي الله عنهم في حبهم الصادق لأبي بكر وعمر وعثمان[2] والصحابة جميعاً.

5 ـ استشهاد زيد:

ترك الرافضة زيداً وحده، وكان والي الأمويين ابن هبيرة يعمل على استفزاز زيد للخروج، وأظهر معرفته بشأنه ليستعجل خروجه، وقد كان له ذلك، فقد قرر سريعاً أن يخرج في يوم أربعاء، فدعا ابن هبيرة أهل الكوفة إلى المسجد يوم الاثنين، وأغلق الأبواب عليهم، ومنعهم من الخروج، وكان اليوم برداً، فقضوا ليلتهم مرتجفين من البرد، حتى إذا أسرع زيد بن علي إلى لمّ جماعته لم يجد إلا نحواً من مئتي رجل[3]، وأقبل زيد على المسجد بالمئتين من أتباعه، وفتح الأبواب لأهل الكوفة، فخرجوا معتذرين عن اللحاق به للبرد الذي ألمَّ بهم، وكان جيش أهل الشام متجهاً من الحيرة إلى الكوفة، فخرج إليه زيد، وقاتل مع فئته قتالاً شديداً[4]، وهو يتمثل:

أذلّ الحيـاةِ وعـزّ المـماتِ ... وكـلاً أراهُ طـعـامـاً وبـيـلا

فـإنْ كـانَ لابُـدَّ مـن واحـدٍ ... فسـيري إلى الموتِ سـيراً جميلا[5]

إلا أن السهام كانت أقوى منه، فانهزم جماعته، وحال المساء بين الفريقين، فراح زيد مثخناً بالجراح، وقد أصابه سهم في جبهته، فطلبوا من ينزع النصل، فأتوا بحجّام من بعض القرى، واستكتموه الخبر، فاستخرج النصل، فمات من ساعته، فدفنوه في ساقية ماء، وجعلوا على قبره التراب والحشيش، وأجري الماء على ذلك، وحضر الحجام دفن

---

[1] الكامل في التاريخ (380/3).

[2] الزيدية نشأتها ومعتقداتها، القاضي إسماعيل ابن الأكوع، ص 21.

[3] تاريخ الطبري (54/8).

[4] مروج الذهب (217/3)؛ الخلافة الأموية، للهاشمي، ص 377.

[5] أدب السياسة في العصر الأموي، د.أحمد الحوفي، ص 43.

الإمام زيد، فعرف الموضع وقال ليوسف بن عمر بن هبيرة، فاستخرج يوسف جثته وبعث برأسه إلى هشام، وصلب جسد زيد[1].

ولما وصل رأس زيد إلى هشام، استاء من قتله وكان لا يحب القتل[2]، وجاءت روايات لا تصح ولا تثبت بأن هشاماً أمر يوسف بن عمر أن يصلب زيداً عرياناً[3]. وبعد مقتل زيد توجه ابنه يحيى إلى خراسان، فأقام بها مدة إلى حين وفاة هشام بن عبد الملك، وولاية الوليد بن يزيد، فخرج، وسرعان ما قتل[4].

ويرى الذهبي أن يحيى قتل بخراسان في عهد هشام[5]. وقال الليث بن سعد: قتل يحيى سنة خمس وعشرين ومئة رحمه الله[6].

وقد تأثر هشام لمقتل زيد ويحيى، ودخله من مقتلهما أمر شديد، حتى قال: وددت لو كنت افتديتهما[7]. والمتتبع لسياسة هشام مع زيد يرى أن هشاماً لم يوفق في استيعاب زيد، وكان يمكنه ذلك.

رابعاً: أسباب فشل ثورة زيد:

فشلت ثورة زيد لأسباب عديدة؛ منها:

1 . الجهاز الأمني عند الأمويين:

استطاع جهاز أمن الدولة الأموية أن يخترق التنظيم الثوري الذي كان يقوده زيد بن علي، فقد راقب رجال جهاز الأمن الأموي زيداً وتحركاته، وعرفوا الأماكن التي كان يختفي فيها وكثير من أعوانه، وعلموا بساعة الصفر المحددة للثورة، وهذا ما حمل زيداً على تقديم موعد الثورة والتعجيل بها قبل الموعد الذي جعله بينه وبين أهل الكوفة[8]، وكان لهذا السبب أثر في ضعف الوسائل التي أريد بها تحقيق الخطط الموضوعة للثورة[9].

2 . خيانة الرافضة وخذلانهم لزيد:

تمّت البيعة لزيد والناس على علم بمعتقدات زيد وأهداف ثورته، إلا أن الرافضة طلبوا منه البراءة من الشيخين أبي بكر وعمر، وعندما امتنع عن ذلك تركوه، وكان الإعداد قد قطع مراحل متقدمة لإعلان الثورة، وانفض الشيعة الرافضة من حوله وهو في أشد الحاجة إليهم، وفي هذا درس كبير لمن يتحالف مع الشيعة الرافضة في الرخاء.

---

[1] تاريخ الطبرى(60/8).

[2] الدولة الأموية، يوسف العش، ص 290.

[3] مروج الذهب (217/3).

[4] أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص 226.

[5] سير أعلام النبلاء (391/5).

[6] المصدر السابق نفسه.

[7] المصدر السابق نفسه (352/5).

[8] ثورة زيد بن علي، ناجي حسن، ص 119.

[9] المصدر السابق نفسه.

3 . خوف أهل الكوفة وجبنهم:

كانت للتدابير المشددة التي اتبعها يوسف بن عمر أثر بليغ في نفوس أهل الكوفة وتخاذلهم، فلما أراد يوسف بن عمر الحيلولة بين الناس وبين المشاركة في الثورة وأمرهم بالدخول إلى المسجد، اندفعوا إليه لا يبدون أي مقاومة لهذا الأمر، حتى يخيل للناظر أنهم رحبوا بالأمر لأنهم اعتبروه بمثابة عذر لهم عن التخلف، وعن المشاركة في القتال، يدل على هذا أن زيداً وأصحابه لما حرضوا الناس على الخروج من المسجد ومشوا لفك الحصار عنهم، لم يروا استجابة من الناس[1]، وكثير من الناس ممن بايعوا نكثوا بيعتهم، فكان ذلك من أسباب فشل ثورة زيد[2].

4 . جند الشام:

كان جند الدولة النظامي من أهل الشام له وجوده بالعراق مُنذ عهد معاوية، وقد ساهم في القضاء على كثير من الثورات بالعراق، فلما ثار زيد بن علي بالكوفة هب الأمويون للقضاء على هذه الثورة بكل ما أوتوا من قوة، معتمدين بصورة رئيسية على الجند الشامي، بالإضافة إلى المرتزقة، وكان هشام يرسل نجدات عسكرية من الشام لتكون سنداً لجند أهل الشام[3]، وكان للجيش الأموي الشامي الدور الحاسم في القضاء على تلك الثورة[4].

5 . العجلة التي حدثت للثورة:

يظهر للمتتبع لثورة زيد بأنه تعجل في إعلانها على الأمويين، وأدى هذا التعجل إلى قتله. ولما علم الزهري بمقتل زيد بكى وقال: أهلك أهل هذا البيت العجلة[5]، فيفهم من ذلك أن الزهري كان يرى هناك عجلة في ثورة زيد، وأنه لم ينتظر حتى تنضج الحركة ولم يعطي الوقت حقه.

6 . دعوة بني العباس:

لعبت دعوة بني العباس دوراً مؤثراً سلبياً في الجهود التي بذلها زيد بن علي؛ فالمؤرخون يرون أن عام 100 هـ كان بداية لتأليف الجماعات السرية التي تدعو إلى بني العباس وتعمل للقضاء على دولة بني أمية؛ فقد توجه دعاة العباسيين بأمر محمد بن علي بن عبد الله بن العباس المتوفى عام 125 هـ إلى مختلف الأقطار يبثون الدعوة وينشرونها بين الناس[6]. وقد لاقى الدعاة أقصى ضروب التعذيب والتنكيل من ولاة بني أمية، ولكن الدعاة استمروا في

---

[1] ثورة زيد بن علي، ص 122 . 123.

[2] المصدر السابق نفسه، ص 124.

[3] المصدر السابق نفسه، ص 118.

[4] المصدر السابق نفسه.

[5] تاريخ دمشق؛ نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص 499.

[6] ثورة زيد بن علي، ص 124؛ نقلاً عن تاريخ الطبري.

طريقهم واستطاعوا أن يجذبوا الكثير من المؤيدين بفضل براعتهم وخبرتهم بأحوال الناس[1]، فكانوا يدورون كورة كورة وبلداً بلداً في زي التجار[2]، وكانت الكوفة إحدى القواعد الرئيسية التي اعتمدوا عليها في نشر دعوتهم والتبشير بها، فكانت الكوفة مسرحاً لدعوتين تعملان في وقت واحد، لكل منها دعاتها وأنصارها، وهاتان الدعوتان وإن اختلفتا في بعض أهدافهما إلا أنهما كانتا تهدفان إلى خلع بني أمية وبيعة بني هاشم، وقد أشارت سرعة نجاح زيد مخاوف العباسيين، وهذا ما حمل محمد بن علي، على أن يطلب من بُكير بن ماهان وكان يتولى الدعوة في العراقيين[3]، أن يخذل الناس عن زيد، حين قال له: أظلكم خروج رجل من أهل بيتي بالكوفة يغتر في خروجه كما اغتر غيره، فيُقتل ضيعة ويصلب، فَحَذِّر الشيعة قبلكم أمره[4]، وهكذا انصاع بُكير بن ماهان لأمر محمد بن علي، ورجع إلى الكوفة وأمر أصحابه بالخروج من الكوفة إلى الحيرة كي يحول بينهم وبين المساهمة في القتال إلى جانب زيد بن علي، ولما قتل زيد بن علي عادوا إلى الكوفة[5]. وكان هذا أحد أسباب تخلي بعض أهل الكوفة عن زيد[6].

7 ـ امتناع مجموعة من الشيعة الإمامية عن مناصرة زيد:

لا يخفى أن الشيعة الإمامية يعتقدون أن الإمامية في علي بن أبي طالب ومن بعده ابنه الحسن ثم الحسين فعلي بن الحسين، فمحمد بن علي، فجعفر الصادق بن محمد، فكان لهذا المعتقد أثره على الشيعة الإمامية بالكوفة، فعامة الشيعة ـ وكما يبدو ـ يعتقدون أنه إنما خرج داعياً للإمامية على الرغم من وجود ابن أخيه الصادق، مما أدى إلى عدم مشاركة غالبية الشيعة الإمامية في الثورة[7].

خامساً: موقف العلماء من ثورة زيد:

يقول محمد أبو زهرة: ولقد كان العلماء يعتبرون ثورة زيد على الطغيان الأموي ثورة أهل العلم والزهادة والنسك عليهم، حتى إن بعض المؤرخين يذكر أن الذين قاتلوا مع زيد كانوا من القراء والفقهاء، ويقول أيضاً: ولقد كان رضي الله عنه عظيم الثقة في الفقهاء والمحدثين، لأنه منهم، ولذلك لما اشتدت الأمور، ورأى تخاذل الناس عنه كان يرسل إليهم يستنصر بهم، ولذلك كان أكثر المجاهدين معه من شبابهم، وقد كان سفيان الثوري محدث الكوفة

[1] الأخبار الطوال، ص 337؛ ثورة زيد بن علي، ص 125.

[2] المصدر السابق نفسه، ص 344؛ ثورة زيد بن علي، ص 125.

[3] الأخبار الطوال، ص 336؛ ثورة زيد بن علي، ص 126.

[4] ثورة زيد بن علي، ص 126.

[5] المصدر السابق نفسه.

[6] المصدر السابق نفسه.

[7] المصدر السابق نفسه، ص 126 ـ 127 ـ 128.

وواعظها إذا ذكر زيداً بكى على ما فقده من العلم بفقده، وعلى ما فقده التقى والفضل بإصابته، وقد خرج معه بعض القضاة.

ثم قال أبو زهرة: وهكذا نرى ثورته كانت ثورة الفقهاء والقراء والمحدثين وأهل التقى[1]، وهذا كلام غير دقيق؛ لأن هناك من العلماء من عارض الخروج على هشام بن عبد الملك في ثورة يزيد، ومن خلال التتبع لحركة زيد بن علي واستقراء موقف العلماء منها اتضح أن هناك بعض العلماء الذين أيدوا حركة زيد وحرضوا عليها وهم قلة نادرة، وهناك عدد آخر لم يؤيد خروج زيد ونصحوه بعدم الخروج، وهؤلاء هم الأكثر[2].

1 ـ أما العلماء الذين اشتهر عنهم أنهم أيدوا زيد بن علي في خروجه: أبو حنيفة النعمان، فقد ورد أنه كان يصرح بتأييده لحركة زيد ويحض عليها، ولكنه مع هذا لم يشارك في القتال، فذكر أن زيد بن علي أرسل إليه يدعوه إلى البيعة فقال: لو علمت أن الناس لا يخذلونه كما خذلوا أباه لجاهدت معه لأنه إمام حق، ولكن أعينه بمالي، فبعث إليه بعشرة آلاف درهم، وقال للرسول: ابسط عذري عنده[3].

وممن ذكر أنه أيد زيد بن علي: العالم الجليل منصور بن المعتمر، فقد ورد أنه كان يحرض على الخروج مع زيد، فعن عقبة بن إسحاق قال: كان منصور بن المعتمر يأتي زبيد بن الحارث، فكان يذكر له أهل البيت ويعصر عينيه يريده على الخروج أيام زيد بن علي[4].

2 ـ وأما العلماء الذين لم يؤيدوا حركة زيد، ونصحوه بعدم الخروج فهم أكثر ممن أيده على ذلك، وممن لم ير خروجه من العلماء: ابن عمه عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي، وسلمة بن كهيل، وقد بينت ذلك فيما مضى، وحين قيل للإمام العالم الأعمش أيام خروج زيد: لو خرجت؟ قال: ويلكم، والله ما أعرف أحداً أجعل عرضي دونه، فكيف أجعل ديني[5]؟! وأما الإمام الزهري فإنه لما علم بمقتل الإمام زيد بكى وقال: أهلك أهل هذا البيت العجلة[6]. وكما نصح هؤلاء العلماء زيداً بعدم الخروج أو الثقة بأهل الكوفة كذلك نصحه أهل الرأي من قرابته كمحمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، وداود بن علي بن عبد الله بن عباس بذلك أيضاً[7].

وحين ترجم الإمام الذهبي للإمام زيد بن علي ـ رحمه الله ـ قال: كان ذا علم، وصلاح، وهفا وخرج، فاستشهد، وقال في موضع آخر: خرج متأولاً وقتل شهيداً، وليته لم يخرج[8] ومما سبق تدرك أن العلماء الذين لم يروا خروج

---

[1] الإمام زيد، ص 72 ـ 73.

[2] أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص 496.

[3] مناقب أبي حنيفة، حافظ الدين الكردي، ص 267.

[4] سير أعلام النبلاء(5/294).

[5] المصدر السابق نفسه (6/234).

[6] تاريخ دمشق؛ نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص 499.

[7] أثر العلماء في الحياة السياسية، ص 499.

[8] المصدر السابق نفسه، ص 500.

زيد أكثر ممن أيده على خروجه، كما يتضح بعد هذا العرض خطأ من حكم بأن ثورة زيد ثورة العلماء والفقهاء؛ إذ لا دليل يصح يعتمد عليه في ذلك. بل عكس ذلك أولى بالصحة[1].

سادساً: أثر مقتل زيد على الدولة الأموية:

كان لثورة زيد بن علي تأثير مهم في سير الأحداث التي وقعت في العصر الأموي، وتمخضت عنها نتائج بعيدة المدى، وكان فشلها بمثابة الدافع لحركات أخرى حذت حذوها، فقد هرب يحيى بن زيد إلى خراسان وأعلن الثورة على الأمويين هناك[2] إيفاء بوعده الذي قطعه لوالده حين قال له: أقاتلهم والله لو لم أجد إلا نفسي[3].

ومع أن يحيى فشل في القضاء على الحكم الأموي كما فشل أبوه من قبل، إلا أن هاتين الثورتين مهدتا بصورة غير مباشرة الطريق للقضاء على الدولة الأموية[4]، واستغل العباسيون العطف الذي لقيه يحيى بن زيد في خراسان لكسب الأتباع والأنصار لهم، وحين قتل يحيى بن زيد ظل أهل خراسان يبكون صباح مساء[5]، والواقع أن شعار السواد الذي اتخذه العباسيون، إنما يستمد جذوره من ثورة زيد وما حدث لابنه يحيى بعد ذلك، فقد اتخذ أهل خراسان السواد بسببهما[6].

ويبدو أن دعاة الزيدية الذين ثاروا بخراسان ومهدوا للثورة العباسية لم يقوموا بهذا الدور بصفتهم من أتباع زيد، بل كان بوصفهم ثوار على الظلم يريدون دولة تعمل بالكتاب والسنة وتنفذ أحكام القرآن ويقوم على رأسها الرضا من آل البيت[7]، وقد استفاد العباسيون من هذه العواطف والمشاعر التي تفجرت في نفوس الناس بسبب مقتل زيد وابنه، ووظفت من خلال التنظيم العباسي من ضمن الوقود المحرك للناس ضد الأمويين.

سابعاً: ثورة البربر في الشمال الإفريقي:

تكرر الظلم والتعسف أيام إمارة عبيد الله بن الحبحاب والذي تولى إمارة إفريقية 116 هـ، واشتد استياء البربر المسلمين من هذه الأفعال القبيحة، ورأوا التناقض الصارخ بين تعاليم الإسلام وبين سلوك هؤلاء العمال، وأصبحت عندهم قابلية للتمرد في الوقت الذي فشت فيه النزعة الخارجية في إفريقية والمغرب، ونادى أصحابها بشعارات خارجية، ظاهرها فيه بعض الحق، وباطنها ينطوي على شر عظيم، كالمساواة بين المسلمين ووجوب الخروج على

---

[1] ثورة زيد بن علي، ص 137.

[2] تاريخ الطبري؛ نقلاً عن ثورة زيد بن علي، ص 137.

[3] ثورة زيد بن علي، ص 137.

[4] المصدر السابق نفسه.

[5] المصدر السابق نفسه.

[6] ثورة زيد بن علي، ص 138.

[7] المصدر السابق نفسه، ص 139.

الحكام الظلمة وغيرها، فصادف ذلك هوى في نفوس البربر، وتحمس كثير منهم لما نادى به دعاة الخوارج، إلا أنهم لم يعلنوا التمرد والعصيان إلا بعد أن يئسوا من إمكانية تبليغ صوتهم بالشكوى إلى الخليفة، ذلك ما ذكره الطبري؛ حيث قال: فما زال بربر إفريقية من أسمع أهل البلدان وأطوعهم إلى زمن هشام بن عبد الملك.. فلما دب إليهم دعاة العراق واستشاروهم شقوا عصاهم وفرقوا بينهم إلى اليوم[1]. وكان من سبب تفريقهم أنهم ردوا على أهل الأهواء فقالوا: إنا لا نخالف الأئمة، بما تجبي العمال، ولا نحمل ذلك عليهم. فقالوا لهم: إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك، فقالوا لهم: لا نقبل ذلك حتى نبورهم ـ أي نختبرهم ـ.

فخرج مسيرة المظفري زعيم الصفرية في بضعة عشر إنساناً حتى قدم على هشام، فطلبوا الإذن فصعب عليهم، فأتوا الأبرش وزير هشام بن عبد الملك فقالوا: أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجنده، فإذا أصاب نفلهم دوننا. وقال: تقدموا، وآخّر جنده، فقلنا: تقدموا، فإنه ازدياد في الأجر ومثلكم كفى إخوانه... ثم إنهم عمدوا إلى ماشيتنا فجعلوا يبقرونها على السخال يطلبون الفراء الأبيض لأمير المؤمنين، فاحتملنا ذلك، ثم إنهم ساومونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا، فقلنا: لم نجد هذا في كتاب ولا سنة ونحن مسلمون، فأحببنا أن نعلم عن رأي أمير المؤمنين ذلك أم لا[2]؟ قال: نفعل.

فلما طال عليهم ونفذت نفقاتهم... كان وجههم إلى إفريقية، فخرجوا على والي هشام فقتلوه واستولوا على إفريقية. وهكذا اندلعت بإفريقية والمغرب ثورات لا نهاية لها، ابتدأت سنة 122 هـ، وهي أول ثورة في إفريقية في الإسلام، وتضافرت جهود الإباضية والصفرية للإطاحة بحكومة القيروان، وأصبح همّ الخليفة في المشرق القضاء على هذه الثورات، فكان يرسل الجيش تلو الآخر، وقد ذكروا أن هذه الحروب منذ أن استعرت إلى أن تم القضاء عليها عام 156 هـ بلغت 375 موقعة ذهب ضحيتها آلاف القتلى، وقد شارك العلماء مقاتلين وواعظين، فقد استنجد حنظلة بن صفوان بمن تبقى من بعثة عمر بن عبد العزيز لما ثارت عليه الخوارج، وقد دامت هذه الحروب أكثر من ثلاثين سنة تمكن الخوارج من خلالها من الاستيلاء على القيروان مرتين، حيث استولى عليها الصفرية سنة 140 هـ لمدة سنة وشهرين، وقد ربطوا دوابهم في المسجد الجامع، وقتلوا كل من كان فيها من قريش، وعذبوا أهلها... ثم وليها بعدهم الإباضية لمدة سنتين[3].

هذا ولما بلغت أخبار الخوارج في إفريقية هشام بن عبد الملك ولى عليها كلثوم بن عياض القشيري في جمادى الآخرة سنة 123 هـ، وأرسله إليها في جيش قوامه اثنا عشر ألفاً، وخرج معه أهل مصر وأهل برقة، وأهل طرابلس، وزحف إلى الشمال الإفريقي متوغلاً سنة 123 هـ، فلقيه ميسرة من رؤساء الخوارج الصفرية ـ بقرب طنجة ـ في جموع من البربر كثيرة، واستماتوا في قتاله، حتى قتلوه وهزموا جيشه.

---

[1] عصر الدولتين الأموية والعباسية، للصّلاّبي، ص 51.

[2] تاريخ الطبري؛ نقلاً عن عصر هشام بن عبد الملك، ص 181.

[3] مدرسة الحديث في القيروان (56/1 إلى 61).

وقويت شوكة الخوارج واقتطعوا المغرب عن طاعة الخلفاء في المشرق[1]، واستمرت المعارك بين الدولة الأموية في عهد هشام وخوارج الشمال الإفريقي، وكان من أشهر ولاة الأمويين في تلك المرحلة كلثوم بن عياض وحنظلة بن صفوان الذي تولى ولاية إفريقية والمغرب سنة 124 هـ، وشرع في الاستعداد للدفاع عن القيروان، واشتبك في قتال مع الخوارج الصفرية الذين كانوا يستحلون أموال أهل السنة، ويستحييون نساءهم، وقتلهم في معركة القرن في عام 124 هـ، وقيل: قتل فيها ما يزيد عن مئة وسبعين ألفاً[2]، وهذا رقم مبالغ فيه. وكانت حرباً في أبشع صور الحروب القاسية، فهبت ريح النصر على أتباع الدولة الأموية، وهزم الخوارج، وقتل عبد الواحد بن يزيد من برابرة هوارة وجيء برأسه وبعكاشة أسيراً[3].

وسمع الليث بن سعد الفقيه المصري بخبر هذه المعركة فقال: ما غزوة كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر أحب إليَّ من غزوة القرن[4]، ووصل خبر هذه المعركة إلى هشام مطلع 125 هـ، وكان هشام مريضاً[5].

هذا وقد قامت ثورات متعددة للخوارج في عهد هشام، وقام الحارث بن سريج بثورة في بلاد خراسان ولكنها لم تنجح في الوصول إلى أهدافها، وقام الصغد في بلاد ما وراء النهر بثورة، وقامت بمصر حركات وانتفاضات صغيرة محدودة الأثر بسبب المعاملة السيئة لبعض الولاة، ومن أراد التوسع في هذه الثورات والحركات فليراجع عصر هشام بن عبد الملك[6]، وكل تلك الثورات بسبب انحراف هشام بن عبد الملك عن منهج عمر بن عبد العزيز الذي لزم العدل وأمر به عماله، فلو سار هشام وغيره على هذا المنهج لوفر على الأمة خسائر هائلة في الأموال والأرواح.

* * *

---

[1] تاريخ الفتح العربي، ص 161 . 162 . 163.

[2] المصدر السابق نفسه.

[3] تاريخ الفتح العربي، ص 166؛ عصر الدولتين الأموية والعباسية، ص 58.

[4] البيان المغرب (59/1)؛ عصر هشام بن عبد الملك، ص 205.

[5] عصر هشام بن عبد الملك، ص 205.

[6] المصدر السابق نفسه، ص 208 . 235.

أهم المصادر والمراجع

القسم الأول

1 . إباحة المدينة وحريق الكعبة، حمد بن محمد العرينان، مكتبة ابن تيمية، الكويت، الطبعة الأولى، 1403هـ – 1983م.

2 . أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، إبراهيم شعوط، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الخامسة، 1403هـ.

3 . ابن خلدون إسلامياً، عماد الدين خليل، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، 1405هـ – 1985م.

4 . أبو بكر الصديق، علي الطنطاوي، دار المنارة، جدّة . السعودية، الطبعة الثالثة، 1406هـ – 1986 م.

5 . اتعاظ الحنفاء، للمقريزي، تحقيق: محمد حلمي، لجنة إحياء التراث، الطبعة الأولى، 1393هـ.

6 . اتهامات لا تثبت، سليمان بن صالح الخراشي، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، 1425هـ – 2004م.

7 . أثر التشيع على الروايات التاريخية، د. عبد العزيز محمد نور ولي، دار الخضيري . المدينة النبوية، الطبعة الأولى، 1417هـ – 1996م.

8 . أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، د. عبد الله بن عبد الرحمن بن زيد الخرعان، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، 1424هـ.

9 . أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية في القرن الأول الهجري، د. جميل عبد الله المصري، مكتبة الدار بالمدينة، الطبعة الأولى، 1410هـ – 1989م.

10 . أحداث وأحاديث فتنة الهرج، د. عبد العزيز صغير دخان، دار الصحابة، الشارقة، الطبعة الأولى، 1424هـ – 2003م.

11 . أحكام القرآن، أبو بكر محمد بن عبد الله ابن العربي، تحقيق: محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت.

12 . أخبار أبي حفص الآجري، تحقيق: عبد الله عبد الرحيم عسيلان، الطبعة الثانية، 1412هـ.

13 . أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، أحمد يوسف القرماني، عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1412هـ – 1992م.

14 . أخبار الدولة العباسية، مجهول، من موالي العباسيين من رجال القرن الثالث، تحقيق: الدكتور عبد العزيز الدوري، والدكتور عبد الجبار المطلبي، طبع دار الطليعة، بيروت.

15 . أخبار مدينة الرسول، محمد بن محمود النجار، تحقيق: صالح محمد جمال، مكتبة الثقافة، مكة، الطبعة الثالثة، 1401هـ.

16 . أخبار مكة، للفاكهي، عبد الله بن محمد، تحقيق: عبد الملك بن دهيش.
17 . آداب الشيخ الحسن البصري، لابن الجوزي.
18 . إدارة العراق في صدر الإسلام، رمزية عبد الوهاب الخيرو، دار الحرية، بغداد، 1398هـ.
19 . إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي، عبد اللطيف عبد الرزاق العاني، جامعة بغداد، رسالة ماجستير، عام 1968م.
20 . أدب الدنيا والدين، للماوردي، أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي.
21 . أدب السياسة في العصر الأموي، أحمد الحافي، دار القلم، بيروت، لبنان.
22 . آراء المعتزلة الأصولية، د. علي بن سعد بن صالح الضويحي، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الثالثة، 1421هـ- 2000م.
23 . استشهاد عثمان ووقعة الجمل في مرويات سيف بن عمر في تاريخ الطبري دراسة نقدية، د. خالد بن محمد الغيث، دار الأندلس الخضراء، جدّة، الطبعة الأولى.
24 . أسد الغابة في معرفة الصحابة، لأبي الحسن علي بن محمد الجزري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، 1417هـ - 1996م.
25 . إسلام بلا مذاهب، مصطفى الشكعة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، الطبعة الخامسة، 1392هـ.
26 . أسماء الصحابة الرواة وما لكل واحد منهم من العدد، تحقيق: الأستاذ سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1412هـ.
27 . أسماء بنت أبي بكر الصديق، محمد بن لطفي الصّباغ، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، 1408هـ - 1988م.
28 . أصول الحديث، محمد عجاج الخطيب.
29 . أصول الدين، لأبي منصور عبد القاهر التميمي البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1400هـ - 1980م.
30 . أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية، د. ناصر عبد الله علي القفاري، دار الرضا بمصر.
31 . أضواء على السنّة المحمدية، لمحمود أبو رية، طبع دار التأليف بمصر، 1377هـ - 1958م.
32 . اعتبار المالات ومراعاة نتائج التصرفات، د. عبد الرحمن بن معمر السنوسي، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الأولى، رجب 1424هـ.

33 . إعلام الموقعين، لابن القيم، شمس الدين، أبي عبد الله محمد بن أبي بكر، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، 1397م.

34 . أقباس من مناقب أبي هريرة، عبد المنعم صالح العلي.

35 . اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم، دار العاصمة، السعودية، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل.

36 . أقوال التابعين في مسائل التوحيد والإيمان، عبد العزيز عبد الله المبدل، دار التوحيد، الرياض، الطبعة الأولى، 1424هـ - 2003م.

37 . آل المهلب بن أبي صفرة ودورهم في التاريخ، نافع توفيق العبود، جامعة بغداد، 1976، رسالة دكتوراه.

38 . الأباطيل والمناكير والصحاح والمشاهير، تحقيق: عبد الرحمن الفريوائي، المطبعة السلفية، الهند، الطبعة الأولى، 1403هـ.

39 . الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، لابن بطة العكبري، تحقيق ودراسة: رضا بن نعسان معطي، طبعة دار الراية، الرياض.

40 . الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة، حياة محمد جبريل، الجامعة الإسلامية، الطبعة الأولى، 1423هـ - 2002 م.

41 . الآثار والمشاهد وأثر تعظيمها على الأمة الإسلامية، د. عبد العزيز عبد الله الجفير، دار الهدي النبوي، دار الفضيلة، الرياض، الطبعة الأولى، 1424هـ - 2003م.

42 . الاجتهاد للتجديد سبيل الوراثة الحضارية، عمر عبيد حسنة، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1988م.

43 . الآحاد والمثاني، لابن عاصم، تحقيق: د. باسم فيصل الجوابرة، دار الراية الرياض، الطبعة الأولى، 1411هـ.

44 . الأحكام السلطانية، لأبي يعلى.

45 . الأحكام السلطانية، للماوردي.

46 . الأحكام السلطانية والولايات الدينية، لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1397هـ - 1977م.

47 . الأخبار الطوال، لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري، دار القلم، بيروت، لبنان.

48 . الأخلاق بين الطبع والتطبع، لأبي عبد الله فيصل بن عبدة قائد الحاشدي، دار الإيمان، الإسكندرية.

49 . الإدارة الإسلامية في عز العرب، محمد كرد علي، الطبعة الأولى، القاهرة، مطبعة مصر، 1353هـ - 1934م.

50 . الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية، د. سليمان بن صالح آل كمال، جامعة أم القرى.

51 . الإدارة في الإسلام، الفكر والتطبيق، د. عبد الرحمن إبراهيم الضحيان، دار الشروق، 1407هـ.

52 . الإدارة في التراث الإسلامي، مع حكم وأمثال للمسؤولين ورجال الأعمال، محمد عبد الله البرعي، د. عدنان عابدين، مكتبة الخدمات الحديثة، جدة.

53 . الإدارة في العصر الأموي، نجدة خمّاش، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، 1400هـ - 1980م.

54 . الأدب الإسلامي وتاريخه، عابد الهاشمي، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، 1421هـ - 2001م.

55 . الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي، د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، طبعة عام 1410هـ - 1990م.

56 . الأدب في الإسلام، في عهد النبوة، وخلافة الراشدين، د. نايف معروف، دار النَّفائس، الطبعة الأولى، 1410هـ - 1990م.

57 . الأدلة الباهرة على نفي البغضاء بين الصحابة والعترة الطاهرة، د. عمر عبد الله كامل، دار البيارق، المكتبة المكية، الطبعة الأولى، 1421هـ - 2001م.

58 . الأساس في السنة، وفقهها، والسّيرة النَّبوية، سعيد حوى، دار السَّلام، الطبعة الأولى، 1409هـ - 1989م.

59 . الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار، د. علي نويهض، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.

60 . الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار، للمقدسي.

61 . الاستخراج لأحكام الخراج، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: السيد عبد الله صديق، دار المعرفة، بيروت.

62 . الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الشيخ أبو العباس بن خالد الناصري، الدار البيضاء، 1954م.

63 . الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، مكتبة نهضة، مصر.

64 . الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لأبي عمر بن عبد البر، دار الكتب العربية، بيروت.

65 . الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي، بوخالفة نور الهُدى، ماجستير، جامعة بغداد، عام 1986م.

66 . الإسلام والحضارة الإسلامية، محمد كرد علي.

67 . الإسلام والحضارة العربية، حسن أحمد محمود.

68 . الإسلام وأوضاعنا السياسية، عبد القادر عودة، مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة، 1406هـ.

69 . الأسماء والمصاهرات بين أهل البيت والصحابة، أبو معاذ السيد بن أحمد الإسماعيلي.

70 . الأشباه والنظائر، لابن نجيم.

71 . ديوان جرير، دار صادر، بيروت، عام 1991م.

72 . الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، د. لبيد إبراهيم أحمد، 1988م . 1409هـ، رسالة ماجستير.

73 . الاعتصام، للشاطبي، ضبطه وصححه: أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، عام 1411هـ - 1991م.

74 . الأعلام، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، 1389هـ.

75 . الأعمال العربية الكاملة، أمين الريحاني، المؤسسة العربية، بيروت، طبعة 1981م.

76 . الأعياد وأثرها على المسلمين، سليمان السحيمي، الجامعة الإسلامية بالمدينة، الطبعة الثانية، 1424هـ - 2003م.

77 . الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين بن محمد الأموي، طبع دار الكتب المصرية.

78 . الأقليات والسياسة في الخبرة الإسلامية من بداية الدولة النبوية وحتى نهاية الدولة العثمانية، د. كمال السعدي حبيب، مكتبة مدبولي، مصر، طبعة 2002م.

79 . الأقوال الكافية في الفصول الشافية في الخيل، علي بن داود الرسولي، تحقيق: د. يحيى الجبوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1407هـ.

80 . الاكتفاء لما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، لأبي الرّبيع سليمان الكلاعي الأندلسي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، 1417هـ - 1997م.

81 . الإمام الزهري وأثره في السنة، د. حارث سليمان الضاري، مكتبة بسام، الموصل بالعراق، 1405هـ - 1985م.

82 . الإمام أيوب السختياني، د. سليمان عبد العزيز العريني، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، 1419هـ - 1998م.

83 . الإمام زيد المفترى عليه، شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب، مكتبة الفيصلية، طبعة عام 1404هـ - 1984م.

84 . الإمامة العظمى عند أهل السنة، عبد الله بن عمر بن سليمان الرميحي، دار طيبة، الطبعة الثانية، 1409هـ.

85 . الإمامة والسياسة، منسوب لابن قتيبة.

86 . الأموال، لأبي عبيد، القاسم بن سلام، الطبعة الثانية، تحقيق وتعليق: محمد خليل هراس، بيروت، دار الفكر، 1408هـ - 1988م.

87 . الأمويون بين المشرق والمغرب، محمد سيد الوكيل، دار القلم، دمشق، الدّار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى، 1416هـ - 1995م.

88 . الأمويون وآثارهم المعمارية في الشام والعراق والحجاز واليمن ومصر وإفريقية، د. عبد الله كامل عبده، دار الآفاق العربية، طبعة أولى، 1423هـ - 2003م.

89 . الأمويون والبيزنطيون، إبراهيم أحمد العدوي، 1414هـ - 1994م.

90 . الأمويون والفيء، فهمي عبد الجليل.

91 . الأنباء في تاريخ الخلفاء، محمد علي بن محمد الغمراني، تحقيق: قاسم السامرائي، دار العلوم، الرياض، الطبعة الثانية، 1402هـ.

92 . الانتصار للصحب والآل من افتراءات السَّماوي الضّال، د. إبراهيم الرحيلي، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، 1418هـ - 1997م.

93 . الأنصار في العصر الراشدي (سياسياً، وعسكرياً، وفكرياً)، د. حامد محمد خليفة، رسالة دكتوراه من كلية الآداب في جامعة بغداد.

94 . الإنصاف فيما وقع في تاريخ العصر الراشدي من الخلاف، د. حامد محمد الخليفة، مطابع الواحة، المدينة الرياضية، عمّان، الأردن، الطبعة الأولى.

95 . الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، للقاضي أبي بكر أبي الطيب الباقلاني، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، مؤسسة الخانجي، الطبعة الثانية، 1382هـ.

96 . الأوائل، للعسكري.

97 . البحرين في صدر الإسلام، عبد الرحمن نجم، دار الحرية، بغداد، 1973م.

98 . البداية والنهاية، أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، دار الرّيان، الطبعة الأولى، 1408هـ - 1988م.

99 . البدع والنهي عنها، لابن وضاح الأندلسي، تحقيق: محمد أحمد دهمان، دار الأصفهاني، جدة.

100 . البرهان في تبرئة أبي هريرة من البهتان، عبد الله عبد العزيز الناصر، دار الناصر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1419هـ - 1998/11/26م.

101 . البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، أبو عبد الله محمد المرَّاكشي ابن عِذَارى.

102 . البيان والتبيين، للجاحظ، أبي عمر عثمان بن عمرو بن بحر، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الرابعة، 1395هـ.

103 . التابعون وجهودهم في خدمة الحديث النبوي، للشايجي، دار اليقين، المنصورة، الطبعة الأولى، 2001م.
104 . التاريخ الإسلامي، عبد العزيز بن عبد الله الحميدي، دار الدعوة، الإسكندرية، دار الأندلس الخضراء، جدة، الطبعة الأولى، 1419هـ – 1998م.
105 . التاريخ الإسلامي، محمود شاكر، المكتب الإسلامي، الطبعة السابعة، 1411هـ – 1991م.
106 . التاريخ الإسلامي آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية، إبراهيم العدوي، القاهرة، 1976م.
107 . التاريخ الأندلسي، د. عبد الرحمن الحجي، دار القلم، دمشق، الطبعة الرابعة، 1415هـ – 1994م.
108 . التاريخ السياسي، عبد المنعم ماجد، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الرابعة، 1971م.
109 . التاريخ الصغير، محمد إسماعيل البخاري، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار المعرفة . بيروت، الطبعة الأولى، 1406هـ.
110 . التاريخ الكبير، للبخاري، مؤسسة الثقافة . بيروت.
111 . التاريخ والمؤرخون العرب، محمد السيد عبد العزيز، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م.
112 . التبرك أنواعه وأحكامه، د. ناصر عبد الرحمن الجديع، مكتبة الرشد، الرياض.
113 . التبيين في أنساب القرشيين، موفق الدين عبد الله بن أحمد المقدسي، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، 1408هـ – 1988م.
114 . التجديد في الفكر الإسلامي، د. عدنان محمد أسامة، دار ابن الجوزي، الرياض، الطبعة الأولى، رجب 1424هـ.
115 . التذكرة في أحوال الدنيا والآخرة، لمحمد أحمد القرطبي، تحقيق: أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية.
116 . التراتيب الإدراية، عبد الحي الكتاني.
117 . تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي.
118 . التطور الاقتصادي في العصر الأموي، د. عصام هشام عيدروس الجفري، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، السعودية.
119 . التطور والتجديد في الشعر الأموي، شوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة السادسة.
120 . التعليم في العصر الأموي، انتصار لطيف حسن البستي، جامعة بغداد، عام 1411هـ – 1990م، رسالة ماجستير.
121 . التفسير الإسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل، دار العلم للملايين.

122 . التقريب، تقريب التهذيب، لابن حجر، تحقيق: محمد عوامة، دار الرشيد، حلب، الطبعة الأولى، 1406هـ.

123 . التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، محمد بن يحيى بن أبي بكر المالقي الأندلسي، حققه: د. محمد يوسف زايد، دار الثقافة، الدوحة، الطبعة الأولى، 1405هـ.

124 . التنبيه والإشراف، علي بن الحسين المسعودي، منشورات دار مكتبة الهلال، بيروت، 1981م، مكتبة العصرية، بغداد، 1938م.

125 . التنبيه والرد، على أهل الأهواء والبدع، لأبي الحسين محمد بن أحمد الملطي، تحقيق: يمان بن سعد الدين المياديني، رمادي للنشر، الدمام، الطبعة الأولى، عام 1414هـ - 1994م.

126 . التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، للشيخ عبد الرحمن السعدي.

127 . الثقات، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، 1979م.

128 . الثمار الزكية للحركة السنوسية، د. علي محمد الصَّلاَّبي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر، الطبعة الأولى، 1421هـ - 2001م.

129 . الثمر الداني في تقريب المعاني، شرح رسالة أبي زيد.

130 . الثورة العباسية، فاروق عمر فوزي، دار الشروق للنشر، عمان، الأردن، طبعة 2001م.

131 . الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، طبعة ثالثة . عن طبعة دار الكتب المصرية.

132 . الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي، المكتبة البلدية بالإسكندرية.

133 . الجذور التاريخية للأسرة الأموية، د. إحسان صدقي العمد، المجلس العلمي لجامعة الكويت، عام 1996م.

134 . الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم، طبعة أولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، سنة 1372هـ - 1952م.

135 . الجمان في مختصر أخبار الزمان، للتلمساني.

136 . الجندية في عهد الدولة الأموية، وفيق الدقدوقي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1406هـ - 1985م.

137 . الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، د. محمد خير هيكل، الطبعة الأولى، 1414هـ - 1993م.

138 . الجوانب التربوية في حياة الخليفة عمر بن عبد العزيز، جامعة اليرموك، الأردن، رسالة ماجستير.

139 . الجيش في العصر العباسي الأول، محمد عبد الحفيظ المناصير، دار مجدلاوي، عمّان، الطبعة الأولى، 1420هـ - 2000م.

140 . الجيش والأسطول الإسلامي في العصر الأموي، الدكتور محمود أحمد محمد عوّاد، الطبعة الأولى، 1415هـ -1994م.

141 . الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة الأموية، د. نزار محمد قادر النعيمي، دار الكتاب الثقافي، الأردن، الطبعة الثانية، 1424هـ - 2004م.

142 . الحجاج بن يوسف، هزاع الشمري.

143 . الحجاج بن يوسف الثقفي، إحسان صدقي العمد، دار الثقافة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1973م.

144 . الحجاح بن يوسف المفترى عليه، محمود زيادة، دار السلام، مصر، الطبعة الأولى، 1415هـ - 1995م.

145 . الحجاز والدولة الإسلامية، إبراهيم بيضون، المؤسسة الجامعية، بيروت، الطبعة الأولى، 1403هـ.

146 . الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، لقوام السنة إسماعيل التيمي الأصبهاني، تحقيق: محمد ربيع المدخلي ومحمد محمود أبو رحيم، دار الراية، الطبعة الأولى، 1411هـ.

147 . الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، فتحي عثمان، الدار القومية للطباعة والنشر.

148 . الحركات المناهضة لخلافة مروان بن محمد، مهند ماهر جاسم، جامعة بغداد قسم الآداب، عام 1986م، رسالة ماجستير.

149 . الحرية أو الطوفان، د. حاكم المطيري.

150 . الحزب الزبيري في أدب العصر الأموي، د. ثريا عبد الفتاح ملحس، دار البشير، الطبعة الأولى، عمّان، 2002م.

151 . الحسن البصري، مصطفى سعيد الخن، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1416هـ - 1995م.

152 . الحسن البصري إمام عصره وعلامة زمانه، مرزوق علي إبراهيم، دار الفضيلة، القاهرة.

153 . الحسن والحسين، سيدا شباب أهل الجنة، محمد رضا، المكتبة العصرية، لبنان، الطبعة الأولى، 1422هـ - 2001م.

154 . الحسين بن علي بين الحقائق والأوهام، عبد الرحمن بن عبد الله جميعان.

155 . الحسين سيد شباب أهل الجنة، حسين محمد يوسف، دار الشعب، القاهرة.

156. الحضارة الإسلامية، عبد المنعم ماجد.

157. الحضارة الإسلامية، محمد عادل عبد العزيز، دار غريب.

158. الحضارة الإسلامية العربية، محمد ضيف الله بطاينة، دار الفرقان، الأردن.

159. الحكم والتحاكم في خطاب الوحي، د. عبد العزيز مصطفى كامل، دار طيبة، الطبعة الأولى، 1415هـ - 1995م.

160. الحياة الاقتصادية في العصور الإسلامية الأولى، د. محمد ضيف الله بطاينة، دار طارق، دار الكندي.

161. الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي، عبد الله محمد السيف، مؤسسة الرسالة، 1403هـ - 1983م.

162. الحياة السياسية والإدارية في الحجاز في العصر الأموي، ماجستير، د. خالد العسلي، 1410هـ - 1989م.

163. الحياة السياسية والفكرية للزيدية في المشرق الإسلامي، أحمد شوقي إبراهيم العمرجي، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، 2000 م.

164. الحياة العلمية في الشام في القرن الأول والثاني الهجري، خليل داود الزور، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى، 1971م.

165. الحياة العلمية في العراق في العصر الأموي، انتصار لطيف حسين السبتي، جامعة بغداد، رسالة دكتوراه، عام 1998م.

166. الخراج، لأبي يوسف، يعقوب بن إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1399هـ - 1979م.

167. الخراج مُنذ الفتح الإسلامي حتى أواسط القرن الثالث الهجري، د. غيداء خزنة كاتبي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية، بيروت، 1997م.

168. الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، محمد ضياء الدين الرّيس، الطبعة الخامسة، القاهرة، مكتبة دار التراث، 1985م.

169. الخراج، يحيى بن ادم القرشي، الطبعة الأولى، تحقيق: د. حسين مؤنس، القاهرة، بيروت، دار الشروق، 1987م.

170. الخطط، تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الثانية، 1987م.

171. الخلافة الأموية، عبد المنعم الهاشمي، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، 1423هـ - 2002م.

172. الخلافة الأموية، د. عبد الأمير حسين دكسن، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 1973م.

173 . الخلافة الراشدة والدولة الأموية من فتح الباري جمعاً وترتيباً، إعداد: د. يحيى بن إبراهيم اليحيى، دار الهجرة، السعودية، الطبعة الأولى، 1417هـ - 1996.

174 . الخلافة العباسية، عصر القوة والازدهار، فاروق عمر فوزي، دار الشروق، عمّان، الطبعة الأولى، 1998م.

175 . الخلافة والخلفاء الراشدون بين الشورى والديمقراطية، سالم البهنساوي، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة الثانية، 1418هـ - 1997م.

176 . الخلافة والملك، لأبي الأعلى المودودي، تعريب: أحمد إدريس، دار القلم، الطبعة الأولى، سنة 1398هـ -1978م.

177 . الخلفاء الراشدون، حسن أيوب، دار التوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة الأولى، 1418هـ - 1997م.

178 . الخلفاء الراشدون، عبد الوهاب النّجار، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، 1406هـ - 1986م.

179 . الخوارج، د. ناصر بن عبد الكريم العقل، دار القدس، الطبعة الثانية، 1417هـ.

180 . الخوارج، ناصر العقل، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، 1416 هـ.

181 . الخوارج، دراسة ونقد لمذهبهم، ناصر السعوي، دار المعرفة الدولية، الطبعة الأولى، الرياض، 1996م.

182 . الخوارج في العصر الأموي، نايف معروف، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الرابعة.

183 . الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للإمام السُّيوطي، الناشر: محمد أمين دمج، بيروت ـ لبنان.

184 . الدعوة العباسية، تاريخ وتطوّر، الدكتور حسين عطوان، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، 1415هـ - 1995م.

185 . الدعوة إلى الله في العصر العباسي الأول، د. علي أحمد مشاعل، دار العاصمة، الطبعة الأولى، السعودية، عام 1414هـ.

186 . الدواوين في العصر الأموي، نجم المسعودي، جامعة بغداد، رسالة ماجستير، عام 1989م.

187 . الدوحة النبوية، د. فاروق حمادة، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1420هـ - 2000م.

188 . الدور السياسي لأهل اليمن في الشام، إسماعيل الجبوري، هاشم يحيى الملاح، جامعة الموصل، رسالة الماجستير، عام 1407هـ - 1987م.

189 . الدور السياسي للصفوة في صدر الإسلام، السيد عمر، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، 1417هـ - 1996م.

190 . الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، د. حمدي شاهين، دار القاهرة.

191 . الدولة الأموية، فرست مرعي الدهوكي، ألوان للطباعة، الجامعة الجديدة، صنعاء، عام 1421هـ – 2000م.

192 . الدولة الأموية، يوسف العش، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثالثة، 1406هـ – 1985م.

193 . الدولة الأموية المفترى عليها، حمدي شاهين، دار القاهرة للكتاب، سنة 2001م، طبعة أولى.

194 . الدولة الأموية دولة الفتوحات، نادية محمود مصطفى، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

195 . الدولة الأموية في الشرق بين عوامل البناء ومعاول الهدم، محمد الطيب النجار، الطبعة الثالثة، 1397هـ – 1977م.

196 . الدولة الأموية في عهد يزيد بن عبد الملك، عبد الله بن حسين الشريف، دار القاهرة، الطبعة الأولى، 2005م.

197 . الدولة الأموية في كتابات المسعودي، إبراهيم يوسف الأقصم، دار المجتمع، الطبعة الأولى، 1424هـ – 2003م.

198 . الدولة العثمانية، عوامل النهوض وأسباب السقوط، د. علي محمد الصَّلاَّبي، مؤسسة أم القرى، طبعة عام 1426هـ – 2005م.

199 . الدولة والمجتمع في العصر الأموي، د. حمدي شاهين، دار الوفاء، مصر عام 2001م.

200 . الرد على الجهمية والزنادقة، للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، طبعة دار اللواء الثانية، عام 1402هـ – 1982م.

201 . الرد على المتعصب العنيد المانع من ذم يزيد، لأبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي.

202 . الرفق بالحيوان، د. سلامة الهرفي، مكتبة الصحابة، الإمارات، الشارقة، الطبعة الأولى 1424هـ – 2003م.

203 . الرقة والبكاء، موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الثانية، 1422هـ – 2001م.

204 . الروح، لابن القيم، دار الكتاب العربي، تحقيق ودراسة: الدكتور السيد الجميلي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، عام 1408هـ – 1988م.

205 . الروض المعطار، أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الضهاجي، الحميري، تحقيق: ليفي بروفنسال، القاهرة، 1937م.

206 . الروض النضير شرح مجموع الفقه الكبير، تأليف: القاضي شرف الدين الحسين بن أحمد الساغي، مكتبة المؤيد بالطائف، 1388هـ – 1968م.

207 . الرياض النَّضرة في مناقب العشرة، لأبي جعفر أحمد الشهير بالمحبّ الطبري، المكتبة القسمة، القاهرة.
208 . الزهد، للحسن البصري، د. محمد عبد الرحيم، دار الحديث، مصر.
209 . الزيدية نشأتها ومعتقداتها، القاضي إسماعيل ابن الأكوع، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1418هـ – 1997م.
210 . السراج الوهاج في كشف مطالب صحيح مسلم بن الحجاج، صديق حسن خان، إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر.
211 . السفارات في التاريخ الإسلامي، يونس السامرائي.
212 . السلسلة الصحيحة للألباني، ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي.
213. السلطان، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، المكتبة الأزهرية للتراث.
214 . السلطة والمعارضة في الإسلام، زهير هوّاري، المؤسسة العربية للدراسات، الطبعة الأولى، 2003م.
215 . السنة قبل التدوين، محمد عجاج الخطيب، دار الكتب، بيروت، لبنان، طبعة عام 1414هـ – 1993م.
216 . السنة، لعبد الله بن أحمد بن حنبل، تحقيق ودراسة: د. أكرم محمد سعيد سالم القحطاني، رمادي للنشر، الدمام، الطبعة الثالثة، عام 1416هـ – 1995م.
217 . السنة، لأبي بكر بن أحمد بن محمد الخلال، تحقيق: عطية الزهراني، دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى، 1410هـ.
218 . السنة ومكانتها في التشريع، للدكتور مصطفى السباعي، طبعة أولى، مطبعة المدني بمصر، 1380هـ – 1961م.
219 . السنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1413هـ – 1993م.
220 . السنن، لأبي محمد الدارمي، المتوفى 255 هـ، دار المحاسن، القاهرة، 1386هـ – 1966م.
221 . السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز، بشير كمال بشير عابدين، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن.
222 . السياسة الشرعية، تقي الدين أحمد بن تيمية، تحقيق: بشير عيون، دار البيان، دمشق، 1405هـ.
223 . السيرة النبوية، لابن هشام، دار إحياء التُّراث.
224 . السيرة النبوية، د. علي الصَّلاَّبي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، 2004م.
225 . السيف اليماني في نحر الأصفهاني، وليد الأعظمي، دار الوفاء، مصر، الطبعة الثانية، 1410هـ – 1989م.

226 . الشام في صدر الإسلام، نجدة خمّاش، دار طلاس، سورية، الطبعة الأولى 1987م.
227 . الشامل في تاريخ المدينة، د. عبد الباسط بدر، الطبعة الأولى، 1414هـ - 1993م.
228 . الشرطة في العصر الأموي، تأليف: د. أرسن موسى رشيد، ترجمة: د. أحمد مبارك البغدادي، مكتبة السندس، الكويت، الطبعة الأولى، 1410هـ - 1990م.
229 . الشرف والتسامي بحركة الفتح الإسلامي، د. علي الصَّلابي، الصحابة، الشارقة.
230 . الشريعة، للإمام المحدث أبي بكر محمد بن الحسين الآجري، تحقيق: عبد الله بن عمر بن سليمان الرميحي، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى 1418هـ - 1997م.
231 . الشعر والشعراء، لابن قتيبة، دار الحديث، القاهرة، تحقيق: أحمد شاكر، الطبعة الثانية، 1418هـ - 1998م.
232 . الشهب اللامعة في السياسة النافعة، لعبد الله بن يوسف بن رضوان، تحقيق: د. سليمان الرّفاعي، دار المدار الإسلامية، الطبعة الأولى.
233 . الشيعة العربية والزيدية، محمد إبراهيم الفيومي، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، 1423هـ - 2002م.
234 . الشيعة والسنة، إحسان إلهي ظهير، القاهرة، دار الأنصار، 1979م.
235 . الشيعة وأهل البيت، إحسان إلهي ظهير، القاهرة، دار الأنصار، 1979م.
236 . الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري عند العرب والترك، د. حسين مجيب المصري، الدار الثقافية للنشر، الطبعة الأولى، 1419هـ - 1999م.
237 . الصواعق المحرقة في الردّ على أهل البدع والزندقة، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حجر الهيثمي، دار الكتب العلمية.
238 . الضرائب في السواد في العصر الأموي، عبد العزيز الدوري، في بحوث ودراسات مهداة إلى عبد الكريم محمود غرايبة بمناسبة بلوغه الخامسة والستين، عمان، 1988م.
239 . العالم الإسلامي في العصر الأموي، د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف، دار الاتحاد التعاوني للطباعة بمصر، الطبعة الثالثة، 1417 هـ - 1996 م.
240 . العالم الإسلامي في العصر العباسي، د. حسن أحمد محمود، د. أحمد إبراهيم الشريف، دار الفكر العربي، القاهرة.
241 . العبر في خبر من غبر، للذهبي، نشر مطبعة حكومة الكويت.
242 . العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، لابن خلدون.

243 . العبرة مما جاء في الغزو والشهادة، صديق حسن القنوجي، تحقيق: محمد زغلول، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، 1405 هـ.
244 . العدالة الاجتماعية، سيد قطب.
245 . العراق في العصر الأموي، ثابت الراوي، مكتبة الأندلس، بغداد، رسالة ماجستير.
246 . العراق في عهد الحجاج، طه عبد الواحد.
247 . العصبية في ضوء الإسلام، د. هاشم محمد علي المشهداني، الطبعة الأولى 1423 هـ – 2002 م، دار الثقافة بالدوحة، قطر.
248 . العصر العباسي الأول، عبد العزيز الدوري، دار الطليعة، بيروت، 1988 م.
249 . العصرانيون، محمد حامد النّاصر، مكتبة الكوثر، الرياض، الطبعة الأولى، 1996 م.
250 . العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه، تحقيق: أحمد أمين.
251 . العقيدة الواسطية، لابن تيمية، مع شرحها، لمحمد خليل هرّاس.
252 . العقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط، د. سليمان بن سالم بن رجاء السُّحيمي، مكتبة الإمام البخاري، الطبعة الأولى، 1420 هـ – 2000 م.
253 . العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية، د. سعيد عبد الله حارب المهيري، مؤسسة الرّسالة، الطبعة الأولى، 1416 هـ – 1995 م
254 . العلاقات السياسية بين الهند والخلافة العباسية، محمد النجرامي.
255 . العلاقات العربية البيزنطية في العصر الأموي، صالح حسن عيد عيسى الشمري، جامعة بغداد، رسالة ماجستير، عام 1408 هـ – 1988 م.
256 . العلل المتناهية، لابن الجوزي، تحقيق: خليل الميس، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1403 هـ.
257 . العلويون والعباسيون ودعوة آل البيت، الدكتور عبد الله علي المسند، دار المنار، القاهرة، طبعة عام 1412 هـ 1991 م.
258 . العواصم من القواصم، القاضي أبو بكر ابن العربي، تحقيق: محب الدين الخطيب، إعداد: محمد سعيد مبيض، دار الثقافة، قطر، الدوحة، الطبعة الثانية، 1989 م.
259 . العيون والحوائق، مؤلف مجهول، من رجال القرن الرابع، طبع ليدن 1869 م.
260 . الفتح الرباني، في ترتيب الإمام أحمد، أحمد عبد الرحمن البنا الشهير بالساعاتي.
261 . الفتن، لأبي عمرو الداني.

262 . الفتن، لنعيم بن حماد.

263 . الفتوح الإسلامية عبر العصور، د. عبد العزيز إبراهيم العُمري، مركز الدراسات والإعلام، دار إشبيلية، الطبعة الأولى، 1418 هـ – 1997 م.

264 . الفتوح، لابن أعثم.

265 . الفتوحات بين دوافعها الإسلامية ودعاوى المستشرقين، جميل عبد الله المصري، دار القلم، دمشق، الدّار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى، 1411 هـ – 1994 م.

266 . الفتوى: نشأتها وتطورها، حسين الملاح، المكتبة العصرية، لبنان، الطبعة الأولى، 1422 هـ – 2001 م.

267 . الفتوى الحموية الكبرى، لابن تيمية.

268 . الفخري في الآداب السلطانية، ابن طباطبا، المكتبة التجارية، مصر، 1345 هـ.

269 . الفرق الإسلامية وحق الأمة السياسي، د. محمد إبراهيم الفيومي، دار الشروق، الطبعة الأولى، 1419 هـ 1998 م.

270 . الفرق بين الفرق، أبو منصور، عبد القاهر بن طاهر البغدادي، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، طبع مؤسسة الحلبي وشركاه بالقاهرة.

271 . الفقهاء والخلفاء، سلطان حثلين، دار عمار، الأردن، الطبعة الأولى، 1421 هـ – 2000 م.

272 . الفن العسكري الإسلامي، د. ياسين سويد، الطبعة الأولى، 1988 م . 1409 هـ.

273 . الفهرست، لابن النديم.

274 . القبورية في اليمن، أحمد بن حسين المعلم، مركز الكلمة الطيبة للبحوث والدراسات العلمية، الطبعة الأولى، 1424 هـ – 2003 م.

275 . القدرية جدلية الدين والسياسة في الإسلام، حركة يزيد بن الوليد نموذجاً، مضر عدنان طلفاح، مؤسسة حمادة للنشر والتوزيع، الأردن، 2004 م.

276 . القدرية والمرجئة، د. ناصر العقل، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، 1418 هـ – 1997 م.

277 . القرّاء ودورهم في الحياة العامة في صدر الإسلام والخلافة الأموية، هادي حسين حمود، د. خالد العسيلي، 1404 هـ – 1984 م.

278. القضاء والقدر، عبد الرحمن المحمود، دار الوطن، الرياض، الطبعة الثانية، 1418 هـ – 1997 م.

279 . القضاء والقدر، لمحمد بن إبراهيم الحمد.

280 . القضاء ونظامه في الكتاب والسنة، د. عبد الرحمن الحميضي، مكتبة التوبة، الرّياض، الطبعة الأولى، 1406 هـ - 1986 م.

281 . القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، للشيخ محمد الصالح العثيمين.

282 . القيامة الكبرى، عمر سليمان الأشقر، طبعة دار النفائس، الأردن، الطبعة الثالثة، عام 1415 هـ – 1995م.

283 . القيروان عبر العصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي، د. الحبيب الجنحاني، الدار التونسية، 1968 م.

284 . الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن أبي المكارم الشَّيباني المعروف بابن الأثير، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التُّراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1408 هـ - 1989 م.

285 . الكامل في الرجال، أحمد بن عبد الله ابن عدي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، 1405 هـ.

286 . الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز، لأبي حفص عمر بن الخضر المعروف بالملاء، تحقيق: د. محمد صدقي اليورنو، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1996 م.

287 . اللحظات الأخيرة في حياة العظماء، محمد محمد الغزالي، تحقيق: محمد عبد الرحيم، مؤسسة عز الدين، الطبعة الأولى، 1416 هـ - 1996 م.

288 . المبسوط، شمس الدين محمد بن أبي سهل السرخسي، دار المعرفة، بيروت، 1409 هـ - 1989 م.

289 . المجتمع الإسلامي، دعائمه وآدابه، د. محمد أبو عجوة، الناشر: مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، نوفمبر 1999م.

290 . المجددون في الإسلام، عبد المتعال الصعيدي، دار الحامي للطباعة، مصر.

291 . المحاسن والمساوئ، إبراهيم بن محمد البيهقي، دار صادر، بيروت.

292 . المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، للقاضي الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي، المتوفى سنة 360 هـ، تحقيق: د. محمد عجاج الخطيب.

293 . المحلى، تأليف: علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، المتوفى سنة 456 هـ، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، بيروت.

294 . المحن، لأبي العرب، محمد بن أحمد التميمي، دار العلوم، الرياض، الطبعة الأولى، 1404 هـ.

295 . المدخل، ناجي معروف.

296 . المدخل، لابن الحاج، لأبي عبد الله محمد بن محمد العبدري، الشهير بابن الحاج، دار الفكر، 1402 هـ.

297 . المدينة النبوية، فجر الإسلام والعصر الراشدي، محمد محمد حسن شُرَّاب، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى، 1415 هـ - 1994 م.

298 . المدينة في العصر الأموي، محمد محمد حسن شّراب، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، بيروت.

299 . المراسيل، لأبي حاتم، مؤسسة الرسالة . بيروت، الطبعة الأولى، 1397 هـ.

300 . المستدرك على الصّحيحين، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1411 هـ - 1990 م.

301 . المستشفيات الإسلامية من العصر النبوي إلى العصر العثماني، الدكتور عبد الله عبد الرزاق مسعود السعيد، دار الضياء، الأردن، عمّان، الطبعة الأولى، 1408 هـ - 1987 م.

302 . المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، د. عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1418 هـ - 1997 م.

303 . المسلمون في الغرب والأندلس، محمد زيتون، دار الوفاء للطباعة، والقاهرة 1404 هـ - 1984 م.

304 . المعارف، لابن قتيبة، تحقيق: ثروت عكاشة، الطبعة الثالثة، دار المعارف . مصر.

305 . المعجم الكبير، للطبراني، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الثانية، 1406هـ - 1985 م.

306 . المعرفة والتاريخ، للإمام يعقوب بن سفيان الفسوي، تحقيق: الدكتور أكرم ضياء العمري، مطبعة الإرشاد، بغداد.

307 . المعمرون والوصايا، لأبي حاتم السجستاني البصري، المتوفي سنة 250 هـ، تحقيق: عبد المنعم عامر.

308 . المغني، لابن قدامة، للإمام أبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي المتوفى سنة 620 هـ، نشر مكتبة الجمهورية العربية بالقاهرة.

309 . المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم، لأبي العباس أحمد بن عمر القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، يوسف بديوي، دار ابن كثير، دمشق، دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة الأولى، 1417 هـ.

310 . الملل والنحل، للشهرستاني، محمد عبد الكريم، نشر مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة، 1956 م.

31َ . المنار المنيف في الصحيح والضعيف، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الثانية، 1402 هـ.

312 . المناهج الإسلامية لدراسة التاريخ وتفسيره، د. محمد رشاد خليل، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1406 هـ - 1986 م.

313 . المنتخب والمختار في النوادر والأشعار، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، تحقيق: د. عبد الرزاق حسين، دار عمار، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، 1415 هـ - 1994 م.
314 . المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
315 . المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال، لأبي عبد الله محمد بن عثمان الذهبي، علق عليه: محب الدين الخطيب.
316 . المنهج المسلوك، للشيرازي.
317 . المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل، باب ذكر المعتزلة، لأحمد بن يحيى بن المرتضى، دار صادر، بيروت، مصورة عن طبعة 1316 هـ.
318 . الموالي في العصر الأموي، محمد الطيب النجار، الطبعة الأولى، 1368 هـ - 1949 م.
319 . الموسوعة الحديثية، مسند الإمام أحمد، توزيع: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، 1420 هـ - 1999 م.
320 . الموسوعة الفقهية، إصدار: وزارة الأوقاف بالكويت.
321 . الموضوعات، لابن الجوزي، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، 1403 هـ.
322 . الموطأ، للإمام مالك، رواية يحيى بن يحيى الليثي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1405 هـ - 1984 م.
323 . الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية، تأليف: عبد العزيز أحمد بن حامد، غراس للنشر، الكويت، الطبعة الأولى، 1422 هـ.
324 . النجوم الزاهرة، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري الأتابكي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.
325 . النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وهاشم، تقي الدين أحمد علي المقريزي، تحقيق: د. حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، 1988 م.
326 . النسيج الإسلامي، سعاد ماهر.
327 . النظريات السياسية الإسلامية، محمد ضياء الريس، الطبعة السابعة، دار التراث 1979 م.
328 . النظرية الإسلامية في الدولة الإسلامية، حازم الصعيدي، دار النهضة، مصر، الطبعة الأولى، 1397 هـ.
329 . النظم الإسلامية، أنور الرفاعي، دار الفكر، عام 1973 م.

330 . النظم الإسلامية، للعدوي.

331 . النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز، محمد بن مشيب بن سلمان القحطاني، منشورات جامعة أم القرى، طبعة عام 1418 هـ.

332 . النهاية في الفتن والملاحم، أبو الفداء إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

333 . النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، تحقيق: محمود محمد الطناجي، دار إحياء الكتب، الطبعة الأولى، عام 1393 هـ - 1963 م.

334 . الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي، محمد ماهر حمادة، دار النفائس، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، 1403 هـ - 1983 م.

335 . الوزراء والكتاب، أبو عبد الله محمد بن عبدوس الكوفي الجهشياري، طبع القاهرة، 1938 م.

336 . الوسطية في القرآن الكريم، د. علي محمد الصَّلاّبي، دار الصحابة، الشارقة.

337 . الوصية السياسية في العصر العباسي، الدكتور حقي إسماعيل إبراهيم، دار الفكر للطباعة، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 1422 هـ - 2002 هـ.

338 . الوفادات على الخلفاء الأمويين، د. جاسم محمد البدراني، دار الكتاب، دار المتنبي، الطبعة الثانية، 1424هـ - 2004 م.

339 . الوفيات بالوفيات، للصدفي.

340 . الولاة وكتاب القضاة، أبي عمر محمد بن يوسف الكندي، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1908 م.

341 . الولاية على البلدان في عصر الخلفاء الراشدين، د. عبد العزيز إبراهيم العمري، الطبعة الأولى، 1409 هـ.

342 . الوليد بن عبد الملك، للكاشف.

343 . الوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك، محمود شاكر، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1419 هـ - 1999 م.

344 . اليهود في السنة المطهرة، د. عبد اللهالشقاري، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، 1417 هـ - 1996 م.

القسم الثاني

345 . أمالي المرتضى، للشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي، طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر، 1954 م.

346 . امتداد العرب في صدر الإسلام، صالح العلي.

347 . أمراء دمشق في الإسلام، تحقيق: صلاح الدين المنجد، مطبعة الترقي، دمشق 1955 م.
348 . أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، للإمام الحافظ أبي بكر محمد بن محمد بن سليمان الباغندي، المتوفى سنة 312هـ، خرج أحاديثه وعلق عليها: محمد عوامة، نشر مؤسسة علوم القرآن.
349 . أمير المؤمنين معاوية، لابن تيمية، محمد مال الله، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الأولى، 1410 هـ – 1989 م.
350 . أنباء نجباء الأبناء، لأبي عبد الله محمد بن أبي محمد بن ظفر المكي العقلي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1980م.
351 . انتشار الإسلام في القرن الإفريقي خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، محمود محمد هملان الجبارات، ماجستير، جامعة النيلين، 1998 م . 1999 م.
352 . أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، طبع بيروت، عام 1989 م.
353 . أهل الحل والعقد، عبد الله الطريقي، دار الفضيلة، الطبعة الثانية، 1425 هـ – 2004 م، الرياض.
354 . أوليات الفاروق، د. غالب عبد الكافي القرشي، المكتب الإسلامي، بيروت، مكتبة الحرمين، الرياض، الطبعة الأولى، 1406 هـ – 1983 م.
355 . إيران في ظل الإسلام، عبد المنعم حسنين، دار الوفاء، مصر، الطبعة الأولى 1408 هـ.
356 . بدائع الزهور، محمد بن أحمد بن إياس، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثانية، 1404 هـ.
357 . بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، لأبي بكر بن مسعود الكاساني، المتوفى سنة 587 هـ، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، سنة 1402 هـ – 1982 م.
358 . بر الوالدين، أم حفص عبير بنت محمد التويجي، دار طيبة، الطبعة الأولى، 1424 هـ – 2003 م.
359 . براءة السلف مما نسب إليهم من انحراف في الاعتقاد، عدنان عبد القادر، دار الإيمان، الإسكندرية.
360 . بغية الطلب في تاريخ حلب، كمال الدين عمر بن أحمد، تحقيق: د. سهيل زكار، دار الفكر، بيروت.
361 . بماذا انتصر المسلمون ؟، أنور الجندي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، 1407 هـ – 1987 م.
362 . بنو أمية بين السقوط والانتحار، عبد الحليم عويس، دار الصحوة، الطبعة الأولى، 1407 هـ – 1987 م.
363 . بهجة المجالس، ابن عبد البر.
364 . بهجة المجالس، للقرطبي.

365 . تأثير المعتزلة في الخوارج والشيعة، عبد اللطيف بن عبد القادر الحفظي، دار الأندلس، الطبعة الأولى، 1421هـ - 2000 م.
366 . تاريخ أبي زرعة، تحقيق: شكر الله نعمة الله القوجاني، مطبوعات مجمع اللغة العربية، بدمشق.
367 . تاريخ افتتاح الأندلس، لابن القوطية، تحقيق: عبد الله أنيس الطبّاع، بيروت، 1957 م.
368 . تاريخ إفريقية والمغرب، لابن الرقيق.
369 . تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي.
370 . تاريخ الإسلام، محمد أحمد الذهبي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1989 م.
371 . تاريخ الإسلامي الثقافي والسياسي، صائب عبد الحميد، دار الغدير، بيروت، لبنان.
372 . تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني، د. عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، مصر، الكويت، الطبعة الأولى، 1975 م.
373 . تاريخ الجدل، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.
374 . تاريخ الخلفاء، لجلال الدين السُّيوطي، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1417 هـ - 1997 م.
375 . تاريخ الدعوة الإسلامية، لمحمد جميل، الطبعة الأولى، 1407 هـ - 1987 م.
376 . تاريخ الدولة الأموية، د. محمد سهيل طقوش، دار النفائس، لبنان.
377 . تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان، ترجمة: أمين فارس ومنير البعلبكي، بيروت، 1961 م.
378 . تاريخ الطبري، المسمى بتاريخ الأمم والملوك، لأبي جعفر الطبري، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، 1407هـ - 1987 م.
379 . تاريخ العالم الإسلامي . الدولة الأموية في الشرق، د. محمد الطيب النجار، مكتبة المعارف، الرياض، طبعة 1406 هـ - 1985 م.
380 . تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي، د. علي حسني الخربوطلي، دار المعارف، بمصر، طبعة 1959 م.
381 . تاريخ العرب المطول، فيليب حتي، ترجمة: الدكتور جبرائيل جبور، دار الكشاف، 1952 م.
382 . تاريخ الفتح العربي في ليبية، للطاهر أحمد الزاوي، دار التراث العربي، ليبية، الطبعة الثالثة.
383 . تاريخ القدس، للعارف.
384 . تاريخ القضاء في الإسلام، د. أحمد عبد المنعم البهي، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، 1965 م.
385 . تاريخ القضاة في الإسلام، د. محمد الزحيلي، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، لبنان، الطبعة الأولى، 1415 هـ - 1995 م.

386. تاريخ القضاعي، كتاب عيون المعارف، وفنون أخبار الخلائف، للإمام القاضي محمد بن سلام بن جعفر الشافعي، مطبوعات أم القرى.

387. تاريخ المدينة، أبو زيد عمر بن شبّة النميري البصري، تحقيق: د. محمود شلتوت، نشر: السيد حبيب، المدينة، 1393هـ.

388. فتنة مقتل عُثمان، د. محمد عبد الله الغبَّان، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، 1419هـ - 1999م.

389. تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، الدكتور السيد عبد العزيز سالم، بيروت، 1962م.

390. تاريخ المغرب الكبير، د. السيد عبد العزيز سالم، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م.

391. تاريخ الموصل، أبو زكريا يزيد بن محمد بن إياس بن القاسم، تحقيق: الدكتور على حبيبة، طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، 1967م.

392. تاريخ اليعقوبي، دار بيروت للطباعة والنشر، طبعة 1400هـ - 1980م.

393. تاريخ اليمن، ابن عبد المجيد اليماني.

394. تاريخ بخارى، للنرشخي، أبو بكر محمد بن جعفر، عرّبه عن الفارسية وحققه: د. أمين بدوي نصر الله الطرازي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة.

395. تاريخ بلاد الشام، أحمد إسماعيل علي، دار دمشق، سورية، الطبعة الثالثة، 1994م.

396. تاريخ بلاد الشام، إشكالية الموقع والدَّور في العصور الإسلامية، إبراهيم بيضون، الطبعة الأولى، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1417هـ-1997م.

397. تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، عاطف رحال بيسان، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2000م.

398. تاريخ خلافة بني أمية، نبيه عاقل، دار الفكر، الطبعة الثالثة، 1394هـ - 1975م.

399. تاريخ خليفة بن خيّاط، أبو عمر خليفة بن خيّاط بن أبي هبيرة الليثي، تحقيق: أكرم ضياء العمري، الطبعة الثانية، مؤسسة الرّسالة، دار القلم، بيروت، 1397هـ.

400. تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، د. فيليب حتي، ترجمة: كمال اليازجي، طبع دار الثقافة، بيروت، 1959م.

401. تاريخ عصر الخلافة العباسية، يوسف العش، دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، الطبعة الأولى، 1402هـ 1982م.

402. تاريخ فلسطين في صدر الإسلام، د. هاني أبو الرب، منشورات بيت المقدس، الطبعة العربية الأولى، الإصدار الأول، 2002م.

403 . تاريخ قضاة الأندلس، أبو الحسن النباهي، ت 793 هـ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
404 . تاريخ مكة، أحمد السباعي، طبعة عام 1419هـ - 1999م.
405 . تاريخنا المفترى عليه، يوسف القرضاوي، تحت الطبع.
406 . تأويل مختلف الحديث، لعبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري، مطبعة كردستان العلمية بمصر، 1326هـ.
407 . تجديد الدولة الأموية، شهادة الناطور، دار الكندي، إربد، الطبعة الأولى، 1996م . 1416هـ.
408 . تحذير العبقري من محاضرات الخضري أو إفادة الأخبار ببراءة الأبرار، محمد العربي التباني، دار الكتب العلمية، بيروت.
409 . تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة في روايات الطبري والمحدثين، تأليف د. محمد أمحزون، دار طيبة، مكتبة الكوثر، الرياض، الطبعة الأولى، 1415هـ- 1994م.
410 . تذكرة الحفاظ، للذهبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
411 . ترتيب وتهذيب البداية والنهاية، خلافة عمر، د. محمد صامل السُّلمي، دار الوطن، الطبعة الأولى، 1418 هـ -1997 م.
412 . تطور الفكر السياسي الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه، أحمد الكاتب، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 1997م.
413 . تطوير نظام ملكية الأراضي، محمد علي نصر الله، الطبعة الأولى، منشورات دار الحداثة، بيروت، 1982م.
414 . تفسير ابن أبي حاتم.
415 . تفسير الآلوسي، المسمَّى روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثالي، إدارة الطباعة بالهند، بدون ذكر سنة الطبع.
416 . تفسير التابعين، د. محمد بن عبد الله بن علي الخضري، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، 1420هـ-1999م.
417 . تفسير الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة.
418 . تفسير السعدي، للشيخ عبد الرحمن السعدي، دار ابن الجوزي، السعودية.
419 . تفسير الطبري، المسمى جامع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1412هـ - 1992م.
420 . تفسير القرآن العظيم، لابن كثير القرشيّ، دار الفكر، دار القلم، بيروت، لبنان.

421 . تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
422 . تفسير سورة الإخلاص، لابن تيمية، الدار السلفية، الهند.
423 . تفسير مجاهد، لمجاهد بن جبر المكي، تحقيق: عبد الرحمن الطاهر بن محمد السورتي، الطبعة الأولى، 1369هـ.
424 . تلخيص الحبير في أحاديث الرافعي الكبير، لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، مراجعة: السيد عبد الله هاشم اليماني المدني، المدينة المنورة، 1384هـ – 1964م.
425 . تناقض أهل الأهواء والبدع في العقيدة، د. عفاف بنت حسن بن محمد مختار، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، عام 2000م.
426 . تنزيه خال المؤمنين معاوية بن أبي سفيان من الظلم والفسق في مطالبته بدم أمير المؤمنين عثمان، لأبي يعلى محمد الفرّاء، دار النبلاء . عمّان، 2001م.
427 . تنظيمات الجيش في العصر الأموي، خالد جاسم الجنابي، بغداد، 1984م.
428 . تهذيب الأسماء واللغات، للإمام النووي.
429 . تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، حيدر آباد الدكن، نشر دار صادر، بيروت، سنة 1322هـ.
430 . تهذيب الكمال في أسماء الرجال، لأبي الحجاج جمال الدين يوسف المزني، بيروت، الطبعة الثانية، 1403هـ.
431 . ثمار القلوب، للثعالبي.
432 . ثورة زيد بن علي، ناجي حسن، جامعة بغداد، عام 1384هـ – 1964م.
433 . ثورة زيد بن علي، ناجي حسن، الدار العربية للموسوعات، الطبعة الأولى 2000م– 1421هـ.
434 . جامع الأصول في أحاديث الرسول، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري.

435 . جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، لابن رجب الحنبلي، د. يوسف البقاعي، طبعة المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الأولى، عام 1995م.
436 . جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البرّ، تصوير: دار الكتب العلمية، بيروت، 1398هـ.
437 . جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام، لابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1405هـ–1985م.
438 . جمهرة الأمثال، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، عبد الحميد قطامش، المؤسسة العربية، الحديثة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1384 هـ.

439 . جمهرة أنساب العرب، ابن حزم، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، 1382هـ - 1962م.
440 . جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهدة، لأحمد زكي صفوت، طبع مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده . بمصر، 1933م.
441 . جهاد المسلمين خلف جبال البرتات، وفاء المزروعي، دار القاهرة، طبعة الأولى، عام 2003م.
442 . جواب أهل السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والزيدية، للشيخ محمد بن عبد الوهاب، صححه وعلق عليه: محمد رشيد رضا.
443 . جواهر الأدب، للهاشمي، السيد أحمد الهاشمي، مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان.
444 . جواهر الإكليل شرح مختصر خليل في مذهب الإمام مالك، للشيخ صالح عبد السميع الابي الأزهري، دار المعرفة، بيروت.
445 . جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين، د. محمد السيد الوكيل، دار المجتمع، الطبعة الخامسة، 1416هـ-1995م.
446 . حاشية ابن عابدين، مطابع مصطفى البابي وأولاده.
447 . حركة الخوارج نشأتها وتطورها إلى نهاية العهد الأموي، د. لطيفة البكّائي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 2001م.
448 . حركة الفتح الإسلامي، شكري فيصل، دار العلم للملايين، الطبعة السادسة، 1982م.
449 . حركة النفس الزكية، محمد العبدة، دار الأرقم، الكويت، الطبعة الثانية، 1406هـ- 1986م.
450 . حسن البيان عما بلغته إفريقية في الإسلام من السطوة والعمران، محمد النيفر، المطبعة التونسية، 1353هـ.
451 . حسن المحاضرة، للسيوطي، المطبعة الشرقية.
452 . حقبة من التاريخ، عثمان الخميس، دار الإيمان الإسكندرية.
453 . حقيقة البدعة وأحكامها، سعيد الغامدي، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، 1992م.
454 . حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت.
455 . حياة الحسن البصري، د. روضة الحصري، دار الكلم الطيب، دمشق، الطبعة الأولى، 1422هـ-2002م.
456 . حياة الحيوان، للدميري، كمال الدين محمد بن عيسى الدميري، المطبعة الكستلية، سنة 1419هـ.
457 . خاص الخاص، للثعالبي.

458 . خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي بن أبي طالب، د. علي محمد الصَّلاَّبي، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، 2004م.

459 . خلافة سليمان بن عبد الملك، علي إبراهيم عبابنة، مؤسسة حمادة للدراسة، عام 2004م.

460 . خلافة عثمان، د. محمد بن صامل السُّلمي، مكتبة سالم العزيزية، جامعة أم القرى، الطبعة الأولى، 1419هـ.

461 . خلافة علي بن أبي طالب، دراسة نقدية للروايات، رسالة ماجستير من الجامعة الإسلامية، المدينة النبوية، 1412هـ.

462 . خلافة علي بن أبي طالب، محمد صامل السلّمي.

463 . خلافة معاوية، د. عمر العقيلي، الرياض، جامعة الملك سعود، الطبعة الأولى، الرياض، 1404هـ-1984م.

464 . دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة: أحمد الشنتناوي وإخوانه.

465 . داهية العرب أبو جعفر المنصور مؤسس دولة بني العباس، دار الطليعة، بيروت، 1963م.

466 . در الغاوية عن الوقيعة في خال المؤمنين معاوية، لأبي محمد زكريا علي القحطاني، مكتبة العلوم والحكم المدينة، الطبعة الأولى، 1423هـ- 2002م.

467 . دراسات في الأهواء والفرق والبدع وموقف السلف منها، د. ناصر عبد الكريم العقل، مركز الدراسات والإعلام، دار إشبيلية، الرياض، الطبعة الأولى، 1418هـ -1997م.

468 . دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، د. عبد الجبار ناجي، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1954م.

469 . دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مختار العبادي.

470 . دراسات في تطور الحركة الفكرية في صدر الإسلام، د. صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1403هـ - 1983م.

471 . دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، عبد الرحمن الشجاع، دار الفكر المعاصر، الطبعة الأولى، 1419هـ- 1999م.

472 . دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، د. محمد بطاينة، دار الفرقان، الأردن، الطبعة الأولى، 1420هـ-1999م.

473 . دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية، د. عبد الحليم عويس، دار الصحوة، دار الوفاء، الطبعة الثالثة، 1410هـ-1989م.

474 . دفاعاً عن السلفية، عمرو عبد المنعم سليم، مكتبة الصحابة، الشارقة، الإمارات، الطبعة الرابعة، 1420هـ 1999م.

475 . دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، لأبي بكر محمد البيهقي، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1405هـ.

476 . دموع القرّاء، محمد شومان، دار النفائس، الأردن، الطبعة الأولى، 1423هـ – 2003م.

477 . دور المرأة العربية في الحركة الفكرية مُنذ صدر الإسلام حتى نهاية الدولة الأموية، نوال عباس حسين، جامعة بغداد، 1407هـ – 1987م.

478 . دول الإسلام، لأبي عبد الله محمد الذهبي، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1999م.

479 . دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى بداية عهد الناصر، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي.

480 . دولة الأمويين، د. علي حبيبة، الناشر: مكتبة الشباب بمصر.

481 . ديوان أبي الأسود الدؤلي، ظالم بن عمر بن سفيان بن جندي، تحقيق محمد حسن آل ياسين، مكتبة النهضة، 1964 م.

482 . ديوان الجند، عبد العزيز عبد الله السلّومي، جامعة أم القرى، رسالة ماجستير، عام 1405هـ – 1985م.

483 . ديوان الردة، د. علي العتوم، مكتبة الرسالة الحديثة، عمّان، الطبعة الأولى، 1408هـ – 1987م.

484 . ديوان ذي الرمة.

485 . ديوان عبيد الله بن قيس، تحقيق: محمد يوسف.

486 . ذم الدنيا، لابن أبي الدنيا.

487 . ذو النورين عثمان بن عفان، محمد مال الله، مكتبة ابن تيميَّة، الطبعة الأولى، 1410هـ – 1989م.

488 . رأس الحسين، لابن تيمية، مطبعة المدين، القاهرة 1397هـ.

489 . رجال الإدارة في الدولة الإسلامية، د. حسين محمد سليمان، دار الإصلاح، السعودية.

490 . رجال الفكر والدعوة في الإسلام، أبو الحسن الندوي، الطبعة الأولى، 1420هـ- 1999م، دار ابن كثير، دمشق.

491 . رسائل العدل والتوحيد، للإمام يحيى بن الحسين، تحقيق: محمد عمارة، دار الهلال.

492 . رسالة توحيد الألوهية أساس الإسلام، للباحث حامد عبد القادر الأحمدي، مطبوع على الآلة الكاتبة.

493 . رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لابن تيمية.

494 . روضة الطالبين وعمدة المفتين، للإمام محيي الدين بن شرف النووي، نشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1405هـ-1985م.
495 . رياسة الدولة في الفقه الإسلامي، م الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الثانية، 1406هـ- 1986م.
496 . رياض النفوس، أبو بكر عبد الله المالكي، تحقيق: الدكتور حسين مؤنس، القاهرة.
497 . زاد المسير في علم التَّفسير، لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي ابن الجوزيّ القرشي البغدادي، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1384هـ - 1965م.
498 . زاد المعاد في هدي خير العباد، أبو عبد الله ابن القيم، حققه: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1399هـ.
499 . زهر الآداب، للحصري.
500 . زياد بن أبيه ودوره في الحياة العامة، صالح محمد الرواضية، مكتبة جامعة الملك سعود، الطبعة الأولى، 1994م.
501 . زيد بن علي، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي بمصر.
502 . سبل السلام شرح بلوغ المرام، محمد إسماعيل الصنعاني، تحقيق: فواز زمرلي، إبراهيم الجمل، دار الكتاب العربي.
503 . سراج الملوك، أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد القرشي الفهري الأندلس الطرطوشي، طبعة الإسكندرية، المطبعة الوطنية، 1289هـ-1872م.
504 . سرح العيون لابن نباته، شرح رسالة ابن زيدون، مطبعة مصطفى الحلبي، الطبعة الأولى، مصر 1377هـ 1957م.
505 . سعيد بن المسيب سيد التابعين، د. وهبة الزحيلي، دار القلم، دمشق.
506 . سفراء النبي صلى الله عليه وسلم، لمحمود شيت خطاب، مؤسسة الريان، دار الأندلس الخضراء، الطبعة الأولى، 1417هـ 1996م.
507 . سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، عبد العزيز الثعالبي، دار الغرب الإسلامية، بيروت، 1995م.
508 . سكب العبرات للموت والقبر والسكرات، سيد حسين العفاني، مكتبة معاذ بن جبل، مصر، الطبعة الأولى، 1420هـ- 2000م.
509 . سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي، المطبعة السلفية، مصر، 1380هـ.

510 . سنن ابن ماجه، للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة العلمية، بيروت.

511 . سنن أبي داود، للحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، مراجعة وتعليق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية.

512 . سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، دار الفكر، 1398م.

513 . سنن سعيد بن منصور، دار الصميعي، الرياض، الطبعة الثانية، 1420هـ - 2000م.

514 . سياسة الإنفاق العام في الإسلام، عوف محمود الكفراوي، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1409هـ 1989م.

515 . سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذَّهبي، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت 1402هـ.

516 . سير الشهداء، دروس وعبر، عبد الحميد السحيباني، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، 1419هـ 1999م.

517 . سيرة أبي بكر الصديق، للصَّلابي، دار ابن كثير، دمشق، طبعة عام 1424هـ- 2003م.

518 . سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ما له وما عليه، لأبي عبد الرحمن جمال بن محمد بن محمود، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 2004م ـ 1424هـ.

519 . سيرة الوليد بن يزيد، د. حسين عطوان، دار المعارف، القاهرة.

520 . سيرة علي بن أبي طالب، د. علي محمد الصَّلاَّبي، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، طبعة أولى 1425هـ 2004م.

521 . سيرة عمر بن عبد العزيز، عفت وصال حمزة، دار ابن حزم، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 1418هـ 1998م.

522 . سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى.

523 . سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، أبي محمد عبد الله، دار العلم للملايين، بيروت، 1387هـ 1967م.

524 . سيرة عمر، لابن الجوزي، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن، تحقيق: محب الدين الخطيب، مطبعة المؤيد، مصر، 1331هـ.

525 . شاعرات العرب، عبد البديع صقر.

526 . شجرة الإيمان، للسعدي.

527 . شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن محمد مخلوف، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
528 . شخصيات إسلامية، للعقاد، ضمن موسوعة العقاد، دار الفكر العربي، بيروت.
529 . شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لأبي الفلاح عبد الحي ابن العماد الحنبلي.
530 . شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، تحقيق: د. أحمد سعد حمدان الغامدي، طبعة دار طيبة، الرياض، الطبعة الثالثة، 1994م.
531 . شرح نهج البلاغة، أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله ابن أبي الحديد، تحقيق: الأستاذ حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة الأولى، 1415هـ.
532 . شرح الصدور ببيان بدع الجنائز والقبور، لأبي عمر عبد الله بن محمد الحمادي، مكتبة الصحابة، الطبعة الأولى، 1420هـ - 2000م.
533 . شرح العقيدة الطحاوية، محمد علي الأذرعي، خرّج أحاديثها: محمّد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان.
534 . شرح صحيح مسلم، للإمام النووي، نشر وتوزيع رئاسة البحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية.
535 . شعب الإيمان، للبيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، طبعة دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، عام 1410هـ- 1990م.
536 . شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم، طبعة دار التراث، القاهرة.
537 . شهيد الدار عثمان بن عفان، أحمد الخروف، دار البيارق، دار عمّار، الطبعة الأولى، 1418هـ-1997م.
538 . صحيح الأدب المفرد، محمد ناصر الدين الألباني، دار الصديق، الجبيل، الطبعة الأولى، 1414هـ.
539 . صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار الفكر، الطبعة الأولى، 1411هـ 1991م.
540 . صحيح الجامع الصغير، للألباني، المكتب الإسلامي
541 . صحيح سنن ابن ماجه، للألباني، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرّياض، الطبعة الثالثة، 1408هـ 1988م.
542 . صحيح سنن الترمذي، للألباني، المكتب الإسلامي.
543 . صحيح سنن النسائي، للألباني، المكتب الإسلامي

544 . صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1992م.

545 . صدر الإسلام والدولة الأموية، محمد عبد الحي شعبان، الأهلية، بيروت، 1987م.

546 . صفة الصفوة، للإمام أبي الفرج ابن الجوزي، دار المعرفة، بيروت.

547 . صفة الصفوة، للعلامة ابن الجوزي، طبعة أولى، حيدر آباد الدكن، الهند.

548 . صفحات مشرقة للتاريخ الإسلامي، د. علي محمد الصَّلاَّبي، دار الإيمان، الإسكندرية، الطبعة الأولى، 2003م.

549 . صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي، د. علي محمد الصَّلاَّبي، دار البيارق، عمّان، الطبعة الأولى، 1998م.

550 . صلاح الأمة في علو الهمة، د.سيد بن حسين العفاني، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1417هـ- 1997م.

551 . صور من تسامح الحضارة الإسلامية مع غير المسلمين، سلامة الهرفي، دار الصحابة، الشارقة، الطبعة الأولى.

552 . طبقات الفقهاء، إبراهيم علي الشيرازي، تحقيق: إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، 1978م.

553 . طبقات ابن سعد، دار صادر، بيروت، لبنان.

554 . طبيعة الدعوة العباسية، د. فاروق عمر فوزي، دار الإرشاد، بيروت، الطبعة الأولى، 1389هـ 1970م.

555 . الإمام الزهري، عالم الحجاز والشام، محمد محمد شرّاب، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1413هـ- 1993م.

556 . عبادة بن الصامت، صحابي كبير، وفاتح مجاهد، الدكتور وهبة الزُّحيلي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، 1408هـ- 1998م.

557 . عبد العزيز بن مروان وسيرته وأثره في أحداث العصر الأموي، بديع محمد إبراهيم الدليمي، د. فاروق عباس وهيب، جامعة بغداد، 1998م.

558 . عبد الله بن الزبير، ماجد لحام، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1415هـ 1995م.

559 . عبد الله بن الزبير، د. شحادة الناطور، دار ابن رشد، عمّان.

560 . عبد الله بن الزبير فقيهاً، محمد عبد الرضا هادي، رسالة ماجستير، العراق، 1418هـ - 1997هـ.

561 . عبد الله بن الزبير، عبد الله عثمان الخراشي، رسالة ماجستير، جامعة الملك سعود، كلية الآداب، 1408هـ.

562 . عبد الله بن الزبير، محمود شاكر، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1419هـ – 1998م.

563 . عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام، سلمان بن حمد العودة، دار طيبة، الرّياض، الطبعة الثالثة، 1412هـ.

564 . عبد الله بن عمر، محيي الدين مستو، دار القلم، دمشق، الطبعة الرابعة، 1407هـ – 1987م.

565 . عبد الملك بن مروان وأسرته، محمود شاكر، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1419 هـ – 1998 م.

566 . عبد الملك بن مروان والدولة الأموية، الدكتور محمد ضياء الدين الريس، الطبعة الثانية، 1969م.

567 . عبقرية الإسلام في أصول الحكم، الدكتور منير العجلاني، دار النفائس، بيروت الطبعة الثانية، 1409هـ 1988م.

568 . عثمان بن عفان، الخليفة الشاكر الصابر، عبد السَّتار الشيخ، الطبعة الأولى، 1412هـ 1991م.

569 . عثمان بن عفان، للصَّلاَّبي، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، 2004م.

570 . عصر الدولتين الأموية والعباسية، للصَّلاَّبي، مكتبة الصحابة، الشارقة، الطبعة الأولى، 1422هـ – 2001م.

571 . عصر هشام بن عبد الملك، عبد المجيد الكبيسي، جامعة بغداد، قسم الآداب، 1974م.

572 . عقود الزبرجد على مسند الإمام أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1407 هـ.

573 . عقيدة الإمام ابن قتيبة، علي العلياني، مكتبة الصديق، السعودية، الطبعة الأولى، 1412هـ – 1991م.

574 . عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام، د. ناصر بن علي عائض حسن الشيخ، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، 1413هـ 1993م.

575 . علموا أولادكم محبة آل بيت النبي (ص)، د. محمد عبده يماني، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، الطبعة الثانية، 1418هـ 1998م.

576 . علوم الحديث لابن الصلاح بشرح العراقي، مطبعة العاصمة الفلكي، القاهرة، 1389هـ 1969م.

577 . عمر بن عبد العزيز، صالح العلي، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة الأولى، 2000م.

578 . عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، دار القلم، دمشق.

579 . عمر بن عبد العزيز، د. وهبة الزُّحيلي، دار قتيبة، الطبعة الثالثة، 1419هـ– 1998م.

580 . عمر بن عبد العزيز، للشرقاوي، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، 1407هـ 1987م.

581 . عمر بن عبد العزيز وسياسة رد المظالم، ماجدة فيصل، مكتبة الطالب الجامعي، مكة، الطبعة الأولى، 1407هـ - 1987م.

582 . عمر والحسين، علاء الدين المدرس، دار الأمل، إربد.
583 . عمرو بن العاص، لعبد الخالق سيد أبو رابيه، الطبعة الأولى، 1408هـ- 1988م.
584 . عمرو بن العاص الأمير المجاهد، د. منير الغضبان، أمّ القرى، الطبعة الأولى، 1420هـ.
585 . عمرو بن العاص، عباس محمود العقاد، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 1969م.
586 . عوامل ازدهار الحضارات الإنسانية وانهيارها، أسيد خليل صبحي القطو، رسالة دكتوراه، جامعة القرآن الكريم، السودان، 1417هـ - 1997م.
587 . عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، 1407هـ-1987م.
588 . عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحقّ العظيم ابادي، ضبط وتحقيق: د. عبد الرحمن محمد عثمان، نشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.
589 . عيون الأخبار، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1406هـ 1986م.
590 . غزوات العرب، في فرنسة وسويسرة وإيطالية وجزائر البحر المتوسط، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1979م.
591 . فاتح الأندلس طارق بن زياد، شوقي أبو خليل، دار الفكر، سورية.
592 . فتح الباري، لابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
593 . فتح القدير الجامع بين فني الرّواية والدّراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، دار الفكر.
594 . فتنة السلطة، الصراع ودوره في نشأة بعض غلاة الفرق الإسلامية من القرن الأول حتى القرن الرابع الهجري، عواطف العربي شنقارو، دار الكتاب الجديد.
595 . فتوح البلدان، للبلاذري أحمد بن يحيى بن جابر، بيروت، دار الكتب العلمية، 1403هـ - 1983م.
596 . فتوح الشام، محمد عمر الواقدي، دار ابن خلدون.
597 . فتوح مصر والمغرب، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، نسخة عن طبعة لندن (1340هـ - 1920م) نشر مكتبة المثنى، بغداد.
598 . فجر الإسلام، أحمد أمين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، 1959م.
599 . فجر الأندلس، د. حسين مؤنس، القاهرة، 1959م.

600 . فرائد الكلام للخلفاء الكرام، قاسم عاشور، دار طويق، الرياض، 1419 هـ - 1998 م.
601 . فرسان من عصر النبوة، أحمد خليل جمعة، دار اليمامة، دمشق، الطبعة الأولى، 1420هـ 1999م.
602 . فصل الخطاب في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، د. علي محمد الصَّلاَّبي، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، 1424هـ 2003م.
603 . فصل الخطاب في مواقف الأصحاب، الشيخ محمد صالح أحمد الغرسي، دار السلام، مصر، الطبعة الأولى، 1416هـ - 1996م.
604 . فضائل الصحابة، للإمام أحمد بن حنبل، دار ابن الجوزي، السُّعودية، الطبعة الثانية، 1420هـ - 1999م.
605 . فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، للقاضي عبد الجبار أحمد الهمذاني، الدار التونسية للنشر، تونس، 1974م.
606 . فقه الشورى والاستشارة، د. توفيق الشاوي، دار الوفاء بالمنصورة، الطبعة الثانية، 1412هـ -1992م.
607 . فقه الفقهاء السبعة وأثره في فقه الإمام مالك، المهدي الوافي، أضواء السلف، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1419هـ 1999م.
608 . فقه عمر بن عبد العزيز، محمد شقير، دار الرشد، الطبعة الأولى، 1424هـ - 2003م.
609 . فوات الوفيات، لابن شاكر.
610 . في اختصار المغازي والسير، لابن عبد البر.
611 . في التاريخ الإسلامي، شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، سورية، طبعة عام 1417هـ - 1996م.
612 . في التاريخ العباسي والفاطمي، أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.
613 . في التأصيل الإسلامي للتاريخ، د. عماد الدين خليل، دار الوفاء، مصر، الطبعة الأولى، 1418هـ 1998م.
614 . في التفسير الإسلامي للتاريخ، نعمان السامرّائي، مكتبة المنار، الأردن، الطبعة الأولى، 1406هـ - 1985م.
615 . في الحرب الإسلامية، بسام العسلي، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1408هـ - 1998م.
616 . في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، د. محمد ضيف الله بطاينة، دار الفرقان.
617 . في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، الطبعة التاسعة، 1400هـ - 1980م.
618 . في قصور الأمويين، الدكتور محمد رجب البيومي، الطبعة الأولى، مطبعة السعادة، مصر، 1400هـ- 1980م.

619 . فيض القدير شرح الجامع الصغير، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1994م.

620 . قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، محمود شيت خطاب، دار الأندلس الخضراء، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، 1419هـ - 1998م.

621 . قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، محمود شيت خطاب، دار الأندلس الخضراء، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، 1418هـ - 1998م.

622 . قادة فتح السند وأفغانستان، محمود شيت خطاب، دار الأندلس الخضراء، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، 1418هـ - 1998م.

623 . قادة فتح الشام ومصر، محمود شيت خطاب، دار الفكر.

624 . قادة فتح المغرب، محمود شيت خطاب، دار الفكر.

625 . قتيبة بن مسلم الباهلي، غانم السلطاني، جامعة بغداد، د. عبد الرحمن عبد الكريم العاني، 1405هـ 1985م.

626 . قدوة الحكام والمصلحين عمر بن عبد العزيز مجدداً ومصلحاً، د. محمد صدقي أحمد البورنو الغزي، مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، 1413هـ - 1992م، الرياض.

627 . قراءة سياسية للسيرة النبوية، محمد قلعجي، دار النفائس، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1416هـ- 1996م.

628 . قصائد الزهد، لمحمد أحمد السيد، مكتبة السوادي، الطبعة الثالثة، 1411هـ - 1991م.

629 . قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة: محمد بدران، مطابع الدجوي، القاهرة.

630 . قصص لا تثبت، سليمان بن صالح الخراشي، دار الصميعي، الرياض، الطبعة الأولى، 1420هـ - 1999م.

631 . قضاة دمشق، لابن طولون، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1965م.

632 . قضية الثواب والعقاب، د. جابر زايد عبد الميري، الدار السودانية، الخرطوم، الطبعة الأولى، 1416هـ - 1995م.

633 . قيم المجتمع، أكرم ضياء العمري، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف القطرية.

634 . كتاب الشكر لله، لابن أبي الدنيا.

635 . كتاب المتوارين، للأزدي.

636 . كتاب الورع، لابن أبي الدنيا.

637. كتب حذر منها العلماء، لأبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار الصميعي، الطبعة الأولى، 1415هـ - 1995م.

638. كشف الأستار عن زوائد البزار، علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1404هـ.

639. كيف نكتب التاريخ الإسلامي؟، محمد قطب، دار الوطن، السعودية، الطبعة الأولى، 1412هـ.

640. لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، دار صادر، بيروت.

641. لسان الميزان، أحمد بن علي بن حجر، حيدر آباد الدَّكن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، 1331هـ 1912م.

642. لمع الأدلة في عقائد أهل السنة والجماعة، للجويني، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف، تحقيق: فوقية حسين محمود، الناشر: الدار المصرية.

643. مؤتمر الجابية، إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية، الطبعة الثانية، 1417هـ- 1997م.

644. مآثر الإنافة في معالم الخلافة، للقلقشندي، تحقيق: عبد الستار أحمد الفرج، عالم الكتب، بيروت.

645. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الرّيان، القاهرة، دار الكتاب العربي، بيروت.

646. مجموعة الفتاوى، لتقي الدين أحمد بن تيمية الحرّاني، دار الوفاء، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، 1418هـ 1997م.

647. مجموعة رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي، تحقيق: أبو مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني، الفاروق للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1423هـ 2002م.

648. مختصر التحفة الاثني عشرية، للسيد محمود شكري الآلوسي، مكتبة إيشيق ـ إستانبول، تركية، 1399هـ 1979 م.

649. مدارج السالكين، بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم الجوزيَّة، تحقيق: محمد حامد الفقي.

650. مدرسة الحديث في القيروان، الحسين بن محمد شواط، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1411هـ.

651. مذاهب الإسلاميين، د. عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، 1996م.

652. مرآة الزمان وعبرة اليقظات في معرفة حوادث الزمان، عفيف الدين اليافعي، تحقيق: عبد الله الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1984م.

653 . مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية، سعدي أبو جيب، دار الفكر، دمشق، 1402هـ – 1982م.

654 . مروج الذهب و معادن الجوهر، لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، طبعة 1402هـ – 1982م.

655 . مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري، يحيى إبراهيم اليحيى، دار العاصمة، الرّياض، الطبعة الأولى، 1410هـ.

656 . مرويات خلافة معاوية، د. خالد بن محمد الغيث، دار الأندلس الخضراء، الطبعة الأولى، جدة، 1420هـ 2000م.

657 . مستدرك الحاكم على الصحيحين، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله النَّيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1411هـ.

658 . مسلمة بن عبد الملك فاتح شطر الأناضول ومحاصر القسطنطينية، محمود شيت خطاب، دار قتيبة، دمشق، الطبعة الأولى، 1985م.

659 . مسند أحمد، المكتب الإسلامي، بيروت.

660 . مشاهير علماء الأمصار، تأليف: محمد بن حبان، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، 1379هـ.

661 . مصر في العصر الأموي، عدنان أحمد الجنابي، جامعة بغداد.

662 . مصنف ابن أبي شيبة، للإمام أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي، دار القرآن والعلوم الإنسانية، كراتشي، باكستان، 1406هـ.

663 . مصنف عبد الرزاق، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1403هـ.

664 . مع المسلمين الأوائل، حلمي مصطفى، دار العلوم، جامعة القاهرة، الطبعة الثانية، 1409هـ – 1989م.

665 . معاوية الرجل الذي أنشأ دولة، إبراهيم الأبياري، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

666 . معاوية بن أبي سفيان، بسام العسلي، دار النفائس، بيروت، الطبعة الثانية، 1400هـ.

667 . معاوية بن أبي سفيان، منير الغضبان، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، 1417هـ – 1996م.

668 . معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1969م.

669 . معجم الأدباء، لياقوت الحموي، دار صادر، بيروت.

670 . معرفة علوم الحديث، للحاكم النيسابوري.

671 . مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج، الخطيب الشربيني، دار الفكر، 1398هـ - 1978م.

672 . مفاتيح العلوم، محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي، حققه: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1984م.

673 . مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج الأصفهاني، شرح وتحقيق: السيد أحمد صقر، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة.

674 . مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، النهضة المصرية، الطبعة الثانية، 1389هـ.

675 . مقامات العلماء بين يدي الخلفاء والأمراء، أبو حامد الغزالي، تحقيق: محمد جاسم الحديثي، الطبعة الأولى، الرياض.

676 . مقدمة ابن خلدون.

677 . مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، عبد العزيز الدوري، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1978م.

678 . مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، د. عبد العزيز الدوري، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، الطبعة الثانية، 1961م.

679 . مكانة المعلم في التراث العربي الإسلامي، عبد الله خليف العمادي الزبيدي، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا.

680 . ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز، د. عماد الدين خليل، مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة، 1405هـ - 1985م.

681 . ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري، إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 1979م.

682 . من أجل صحوة إسلامية راشدة تجدد وتنهض بالدنيا، يوسف القرضاوي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1998 م.

683 . من تصلي عليهم الملائكة ومن تلعنهم، د. فضل إلهي، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1421هـ - 2000م.

684 . من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية، طبعة عام 1411هـ - 1991م.

685 . من سب الصحابة ومعاوية فأمه هاوية، محمد عبد الرحمن المغراوي، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.

686 . من قتل الحسين؟، عبد الله بن عبد العزيز، الطبعة الثانية، دار الأمل، القاهرة.

687 . مناقب أبي إسحاق الجبنياني، أبو القاسم اللبيدي، كلية الآداب، الجزائر.

688 . مناقب أبي حنيفة، حافظ الببني الكردي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1401هـ.

689 . مناقب الشافعي، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، 1970م.

690 . منهاج السنة، لابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة.

691 . منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة، عثمان علي حسن، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الثانية، 1413هـ - 1993م.

692 . منهج المسعودي في كتابة التاريخ، سليمان بن عبد الله السويكت، الطبعة الأولى، 1986م.

693 . منهج أهل السنة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله، عبد اللطيف بن محمد نور، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية، الطبعة الأولى، عام 1416هـ 1995م.

694 . منهج كتابة التاريخ الإسلامي، محمد صامل العلياني السُّلمي، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، 1406هـ 1986م.

695 . موارد الظمآن لزوائد ابن حبان، تحقيق: محمد عبد الرزاق حمزة، المكتبة السلفية، القاهرة.

696 . مواقف المعارضة في خلافة يزيد، محمد بن عبد الهادي بن رزَّان الشيباني، المكتبة المكية، دار البيارق، الطبعة الأولى.

697 . مواقف حاسمة، محمد عبد الله عنان، القاهرة، 1952م.

698 . موجز تاريخ تجديد الدين، أبو الأعلى المودودي، دار الفكر، بيروت، لبنان 1968م.

699 . موسوعة الآداب الإسلامية المرتبة على الحروف الهجائية، دار طيبة للنشر والتوزيع.

700 . موسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة التاسعة، 1996م.

701 . موقف الشعر من الحركة الزبيرية، محمد علي الهرفي، دار المعالم الثقافية، الطبعة الثانية، 1418هـ.

702 . موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية، الأمين الصادق الأمين، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، 1418هـ - 1998م.

703 . موقف أهل السنة من أهل الأهواء والبدع، د. إبراهيم عامر الرحيلي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، 1422هـ.

704 . ميزان الاعتدال، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1382هـ.

705 . نسب قريش، لأبي عبد الله مصعب بن عبد الله الزبيري، طبع دار المعارف، مصر.
706 . نحو دستور إسلامي، محمد سيد أحمد.
707 . نحو رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي: نظرات وتصويب، دار الوفاء، مكتبة وهبة، د. عبد العظيم الديب، الطبعة الثانية، 1418هـ - 1997م.
708 . نساء لها تاريخ، أم أسماء بنت عرفة بيومي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1423هـ - 2002م.
709 . نساء لهم في التاريخ الإسلامي نصيب، علي إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى، 1970م.
710 . نساء من عصر التابعين، أحمد خليل جمعة، دار ابن كثير، الطبعة الرابعة، 1422هـ- 2002م.
711 . نشأة الحركات السياسية والدينية في الإسلام، د. فاروق فوزي.
712 . نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، د. علي سامي النشار، دار المعارف، الطبعة السابعة.
713 . نظام الإسلام، الحكم والدولة، محمد المبارك، بيروت، دار الفكر، 1401هـ.
714 . نظام الحكم في الإسلام بين النظرية والتطبيق، د. أحمد عبد الله مفتاح، دار التوزيع والنشر الإسلامية.
715 . نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، ظافر القاسمي، دار النَّفائس، بيروت، الطبعة الثالثة، 1407هـ 1987 م.
716 . نظرات في التصوف الإسلامي، د. محمد القهوجي، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، 1424هـ - 2004م.
717 . نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، للمقري، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، بيروت، 1388هـ - 1968م.
718 . نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد عبد الوهاب النويري، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1395هـ.
719 . نيل الأوطار في شرح منتقى الأخبار، محمد علي الشوكاني.
720 . هجرة القبائل العربية إلى البلاد المفتوحة، صالح العلي.
721 . واسط في العصر الأموي، عبد القادر المعاضيدي.
722 . وجوب التعاون بين المسلمين، عبد الرحمن السعدي، المعارف، الرياض، طبعة 1402هـ.
723 . وسطية أهل السنة بين الفرق، د. محمد باكريم، دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى، 1415هـ 1994م.
724 . وصايا وعظات قيلت في اخر الحياة، زهير محمود الحموي، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، 1999م.
725 . وفاء الوفاء، علي أحمد السمهودي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الرابعة، 1404هـ.

726. وفيات الأعيان وأبناء الزمان، لابن خلكان أبي العباس شمس الدين أحمد، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
727. وقعة صفين، نصر بن مزاحم المنقري، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، الطبعة الثانية، 1382هـ.
728. ولاية الشرطة، د. نمر محمد الحميداني، دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة الثانية 1414هـ 1994م.
729. يزيد بن معاوية حياته وعصره، د. عمر سليمان العقيلي، الرياض 1408هـ - 1988م.

* * *

الفهرس

